أعــلام الخلفاء العباسيين

إعداد
دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت



بطاقة فهرسة

مكتبـة كنـوز المعرفـة

اسم الكتاب: أعلام الخلفاء العباسيين

إعـــــــداد: د. رجب محمود بخيت

رقم الإيداع:





المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يؤوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق، بل أنشأه ابتداعًا وعدله اصطناعًا فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته، وأوضح حكمته فدل على ألوهيته، فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته، وذل كل شيء لسلطانه، ووسع كل شيء فضله، لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده إلهًا تقدست أسماؤه وعظمت آلاؤه وعلا عن صفات كل مخلوق وتنزه عن شبيه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول، ولا الأفهام، يعصى فيحلم، ويدعى فيسمع، ويقبل التوبة من عباده، ويعفو عن السيئات، ويعلم ما تفعلون.

وأشهد شهادة حق وقول صدق بإخلاص نية وصحة طويلة أن محمد بن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه ابتعثه إلى خلقه بالبينة والهدى ودين الحق فبلغ مألكته ونصح لأمته وجاهد في سبيل الله لا تأخذه في الحق لومة لائم ولا يصده عنه زعم زاعم ماضيًا على سنته موفيًا على قصده حتى أتاه اليقين فصلى الله على محمد وعلى آل محمد.

أما بعد...

فالقدوة الحسنة عنصر هامّ في كل مجتمع، فمهما كان أفراده صالحين فهم في أمس الحاجة لرؤية القدوات، وكما قيل: جالسوا من تذكركم بالله رؤيتُهم، كيف لا وقد أمر اللهُ نبيَه بالاقتداء فقال:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ} [الأنعام: ٩٠].

وتشتدّ الحاجة إلى القدوة كلما بَعُد الناس عن الالتزام بقيم الإسلام وأحكامه، وتتأكد الحاجة بل تصل إلى درجة الوجوب إذا وُجدت قدواتٌ سيئةٌ فاسدةٌ تُحْسِن عرضَ باطلها.

إن القدوةَ - سواءً أكانت حسنةً أو سيئة - أكثرُ أثرًا وإقناعًا من الكلام

النظري مهما كان بليغًا ومؤثرًا، ولعل هذا هو السرُّ في إرسالِ اللهِ رسلاً من البشر عبر التاريخ مع أنه تعالى قادر - وهو الذي لا يعجزه شيء - على أن يلهم الناس شرعه، خاصة أن بشرية الرسل تعلَّلَ بها الجاحدون لرفض الإيمان كما قال تعالى:{ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾} [الإسراء: ٩٤]، لكن الذي قال عن نفسه:{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾} [الملك: ١٤]، اقتضت حكمته إرسال الرسل من البشر؛ ليكونوا منارات هدى وقدوات حسنةً عبر التاريخ، فهم التطبيق النموذجي لشرع الله في كل عصر، وتطبيقهم حجةٌ على العباد ودليلٌ على واقعيةِ الشرع.

وأوضح دليل على هذا الأثر ما وقع في يوم الحديبية، ففي صحيح البخاري قال عمر: فلما فَرغ من قضية الكتاب - أي: بنود الصلح - قال رسول الله لأصحابه:﴿**قوموا، فانحروا ثم احلقوا**﴾، قال: فوالله، ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا نبيّ الله، أتحبّ ذلك؟ اخرُج لا تكلم أحدًا منهم كلمةً حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضُهم يقتل بعضًا.

إنّ هذا التأثيرَ القويَ والمباشرَ للقدوة يرجع إلى عدة أسباب منها:

أن الإنسان مفطور على حب التقليد، وكثيرًا ما يكتسب معارفَه وخبراته ومهاراته بالتقليد والمحاكاة، انظر إلى الطفل كيف يحاكي أباه ويتقمص شخصيته؛ لأن التعلم بالرؤية والمشاهدة أسهلُ وأيسر بل وأسرع، والنفس بطبعها تحبّ الحصولَ على الشيء بأسهل الطرق وأسرعها ولو كان محرّمًا، لكن الشرع والعقل يضبطها.

وقوعُ الإنسانِ - مهما كان كسولاً أو مقصرًا - أسيرًا للقدوة، فيحمله ذلك الإعجابُ على التقليد والمحاكاة، وهنا تكمن خطورةُ الموضوع؛ لأنّ القدوةَ إما أن تكون حسنةً لها بريقها الذاتي فتَنجذبُ إليها النفوسُ تلقائيًّا وتتأثر بها إيجابيًّا، وإمّا أن تكون قدوةً سيئةً زخرفت وزينت بالأصباغ

والألوان الخادعة، وسُلّط عليها الأضواءُ الإعلاميةُ الباهرة، وأُضفيَ عليها عباراتُ الثناء والتمجيد الكاذبة لإثارة إعجاب المخدوعين، وحقًّا منهم من يقع في حبائلهم وشراكهم، حتى إذا فحصه عن قرب أدرك أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، بل تبين له الوجهُ الحقيقيُّ، فما كان إلا إثارةً للغرائز والشهوات وتمجيدًا للكفرةِ والفساق والفجار باسم الفن والأناقة والرقص والغناء، وترويجًا للمنكرات والفواحش والرذائل باسم الترويح والسياحة، ومحاربة للفضائل والحياء باسم الحرية والحضارة، وتنفيرًا من دين الله باسم التأخر والجمود، وتهجينًا لأحكامه باسم الكبت والقسوة{وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ} [النور: ٤٠]، وتحقيرًا لدعاته باسم التطرف والإرهاب نعم، هذا هو البديل عند غيابِ أو تغيّبِ القدواتِ الصالحة الحسنة.

وللأسف فإنّ دعاةَ الشر وشياطينَ الفساد استطاعوا أن يغزونا في عُقْر دارنا بهذه القدوات السيئة الفاسدة المفسدة عبر فضائياتهم، وبدأ المخطط - ولمّا يمضي عليه سنوات - يؤتي أكلَه الفاسد بمباركة الشيطان، فوُجد في فتيانِنا وفتياتنا من يقلّد أعداء الإسلام والساقطين في كل شيء، في مظهرهم وملبَسِهم، بل حتى في القضايا الجبلّية من أكل وشرب ومشي.

إنّ هذه المظاهرَ الشاذةَ لهي دليلٌ قويٌّ على الشعور بالنقص والانهزام النفسي، وصدق ابنُ خلدون في قوله: " المغلوب مولعٌ بتقليد الغالب أبدًا في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده ".

أيها الأحبة، في هذه الأيام وفي هذه الظروف المحيطة بنا ما أحوجنا إلى الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة، فهي محطّ آمال العقلاء وغاية أمانيهم؛ لأنها نهج راشد وطريق مستقيم لا اعوجاج فيه ولا التواء.

وإن في طليعة من يجب أخذ الأسوة الحسنة منهم والاقتداء بأفعالهم وأقوالهم وكريم شمائلهم رسلَ الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهم الصفوة من خلق الله، المهتدون بهداية الله، المسارعون إلى فعل الخير والحرص عليه، قال الله تعالى:{إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ } [الأنبياء: ٩٠]. وقد

أمر الله تعالى رسوله الكريم بالاقتداء بهم والسير على نهجهم حيث قال:{أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ} [الأنعام: ٩٠].

ولكي ندرك خطورة وأهمية القدوة الحسنة في تاريخ الأمة؛ فلنتأمل هذه القصة:

يروى أن أبا جعفر الأنباري صاحب الإمام أحمد عندما أخبر بحمل الإمام أحمد للمأمون في الأيام الأولى للفتنة؛ عبر الفرات إليه فإذا هو جالس في الخان، فسلم عليه، قال: يا هذا أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك، فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله، وإن أنت لم تجب ليمتنعن خلق من الناس كثير، ومع هذا فإن الرجل - يعني المأمون - إن لم يقتلك فأنت تموت، ولابد من الموت فاتق الله ولا تجبهم إلى شيء. فجعل أحمد يبكي ويقول: ما قلت؟ فأعاد عليه فجعل يقول: ما شاء الله، ما شاء الله.

وتمر الأيام عصيبة على الإمام أحمد، ويمتحن فيها أشد الامتحان ولم ينس نصيحة الأنباري، فها هو المروزي أحد أصحابه يدخل عليه أيام المحنة ويقول له: يا أستاذ قال الله تعالى:{وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ} [النساء: ٢٩]، فقال أحمد: يا مروزي اخرج، انظر أيّ شيء ترى!! قال: فخرجت على رحبة دار الخليفة فرأيت خلقًا من الناس لا يحصى عددهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروزي: أي شيء تعملون؟ فقالوا: ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، قال المروزي: مكانكم. فدخل إلى أحمد ابن حنبل فقال له: رأيت قومًا بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه فقال: يا مروزي أضل هؤلاء كلهم!! أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء ".

فمن أبرز أسباب أهمية القدوة أنها تساعد على تقويم الفرد المسلم دونما توجيه خارجي وهذا بالتالي يساعد على خلق أجيال صالحة لقيادة العالم.

أيها المسلمون، أما الأسوة السيئة التي تَبَنّتْها المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر وفي كل مجالات الحياة فهي في الواقع وفي الحقيقة

نكسة في الظاهرة الدينية والأخلاقية، يجب أن يترفّع عنها المسلم حفاظًا على دينه وإيمانه، وصونًا لأخلاقه، حتى ولو انتشرت هذه الأسوة السيئة بين الناس، وشملت جميع الطبقات والفئات، حيث أصبح العلماء الذين لا يعملون بعلمهم، ولكن يقصدون به المنصب والجاه والسلطان، وأصبح يمثلها أيضًا الوعّاظ والمرشدون الذين لا يأتمرون بما يأمرون به، والذين يصفون الدواء للأمراض التي هم بها مصابون، فمخبَرهم لا يطابق مظهرهم، فبئست الأسوة والقدوة بهم، قال الله تعالى:{أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾} [البقرة: ٤٤].

والحقيقة أن كل مجتمع مهما بلغ من الفضل والاستقامة لا بد له من طائفة تتمثل فيها المُثُل العليا، تحفظ للمجتمع وجوده المعنوي المتمثل في صلاح عقيدته وحسن أخلاقه وأدب تعامله، على حد قول الله عزَّ وجلَّ:{وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾} [آل عمران: ١٠٤].

إنهم طائفة تمثل الخيرية في المجتمع، وتحافظ عليها وتحميها.

إن في أرواحها من التوهج، وفي نفوسها من الحيوية ما يجعل هم مجتمعها هو همها الأكبر، فيسعد بها المجتمع، إذ تحفظ عليه توازنه واستقامته، وعناصر استمراره وبقائه.

إنهم فئة من المجتمع مسموعة الصوت، واضحة التأثير، تملأ الفراغ، وتملك من التأثير ما يجعل جادة الحق واضحة، وطريق الصواب بارزة، ومسالك الخير بينة، فتستمر سُنَّة المدافعة بين الحق والباطل.

إنهم{أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ } [هود: ١١٦]، مشاعل وسرج يصلحون ما أفسد الناس، بدين الله قائمون، وعلى الحق حراس، يدعون من ضل إلى الهدى، ويبصرون من العمى، ويصبرون على الأذى، همهم - أثابهم الله وأعظم أجورهم - إقامة دين الله، وإعلاء كلمته، وإعزاز أوليائه.

إنهم صمام الأمان بإذن الله، وسبب نجاة الأمة من الهلاك.

وأخيرا فإنني لأرجو أن أكون قد وفقت في عرضي لجانب من

الجوانب المشرقة من حياة بعض أعلام الأمة، وذلك تذكيرًا بجهادهم وسبقهم وتنويهًا بمنزلتهم وفضلهم.

سائلاً الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء، وأن يمتن علينا بحسن الاتباع والاقتداء.

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ::: إن التشبه بالكرام فلاح

وأسأل الله عز وجل أن ينفع بهذا العمل وأن يتقبله مني ويثيبني عليه.

رب تقبل عملي ولا تخيب أملي

أصلح أموري كلها قبل حلول الأجل

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

الخلافة الإسلامية

لقد سعى العالم في تحطيم وحدة المسلمين، وتجزئتهم إلى أجزاء متفرقة كثيرة، وعملت جيوش الغزاة بكل ما لديها من وسائل معنوية ومادية، لهدم الخلافة الإسلامية، لأن هذه الخلافة - مهما كان شأنها - تمثل الحزام الذي يجمع المسلمين في شتى أقطار الأرض، أو الرمز السياسي الذي يجعلهم يلتقون التقاء ما تحت راية سياسية واحدة، وهذا الأمر يقض مضاجع الأعداء، وإن وصل به الضعف إلى أن غدا رمزاً ليس له أي سلطان فعلي.

وذلك لأن بقاء أمر الخلافة مقروناً بالدوافع والمحرضات الدينية التي قد تحيي ما مات منه، وقد تعيده إلى بعض مراكز قوته الأصلية، مما تخشاه جيوش الغزاة خشية كبيرة، نظراً إلى ما للشعوب المسلمة من وزن عظيم في العالم، تمثله أعدادهم البشرية، ورقعة الأرض التي يملكونها وما فيها من خيرات وكنوز كثيرة، وما لهم من تاريخ حضاري غابر، قد يحرك فيهم بواعث نهضة حضارية جديدة، تستطيع أن تنافس وتسابق الحضارة الغربية المادية الحديثة، فيما لو أطلقت أيديها المغلولة، مضافاً إليها سبقهم الحضاري العظيم في عقائدهم، وفي مفاهيمهم الأخلاقية، وفي أسس بناء أمتهم بناء متماسكاً متيناً، على أصول الحق والعدل والخير ونشدان الكمال، والبعد عن الباطل والظلم والشرب والرضا بالدنايا.

وظلت الخلافة الإسلامية رمزاً لوحدة المسلمين في أقطار الأرض، حتى عام (١٩٢٤م) وفي أوائل شهر آذار (مارس) ألغى " كمال أتاتورك " الخلافة الإسلامية العثمانية من تركيا، وكان ذلك في ظروف سياسية هيأت له الذرائع للقيام بهذا العمل الخطير.

وعندما أسقطت الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤ م، كان مخططاً خطيراً قوامه النفوذ الأجنبي والصهيونية والشيوعية الذي كان قد بدأ في إعداد هذا العمل سرًّا منذ أكثر من مائة عام، من خلال جماعة الدونمة. (اليهود الذين هاجروا من الأندلس عام ١٤٩٢ م وأقاموا في سالونيك

ودخلوا في الإسلام تقية) التي عملت بالاشتراك مع جماعة الاتحاد والترقي وتركيا الفتاة والمحافل الماسونية، على تنفيذ هذا المخطط تحت شعار " القضاء على دولة الرجل المريض "، خاصة بعد أن حمل (السلطان عبد الحميد) لواء الدعوة إلى " الجامعة الإسلامية " بمعنى أن ينضوي تحت لواء الخلافة الإسلامية جميع المسلمين في العالم - وليس فقط العرب والترك.

والحقيقة أن (الخلافة الإسلامية) لم تسقط بجرة قلم عام ١٩٢٤ م عندما ألغاها مصطفى كمال أتاتورك، وإنما يمكن أن يقال: إن هذه كانت آخر خطوة في مؤامرة ضخمة واسعة النطاق امتدت سنوات طويلة وشاركت فيها قوى كثيرة ذات مصلحة في تمزيق العالم الإسلامي، مثل إنجلترا وفرنسا، ومنها ما كان يهدف إلى الوصول إلى فلسطين وقلب القدس كالصهيونية العالمية، وليس أدل على ذلك من مساعدة الشيوعية الروسية في تلك المعونة الضخمة التي قدمتها لحكام تركيا بعد إسقاط الخلافة.

فقد انفصلت تركيا عن الأمة الإسلامية واندمجت كليًّا في الغرب العلماني، وسرعان ما حققت الأمل الذي طالما طاف بأحلام العرب - روسية وإنجليزية وفرنسية ويهودية - وهو أن يقضي مسلم بيده على خلافة الإسلام.

ولكن أتاتورك لم يكن مسلماً في حقيقته وإنما كان من الدونمة - التي تخفت تحت صورة الإسلام لتحقيق كل ما استطاعت أن تحققه في تركيا، وكان همه الأكبر " إسقاط الخلافة " وفي سنوات قليلة من ١٩١٨ - ١٩٢٤ م تحولت دولة غربية علمانية تحكم بقانون نابليون، وتزيح بكلتا يديها ذلك التراث العظيم - تراث الإسلام - وتقاوم ودعاته ومؤسساته[1].

وما أسقطت الخلافة بأسلوب الإقناع والتغيير النفسي والفكري، ولكن بأسلوب من العنف والقتل والاستبداد والظلم، الذي قامت به (ثلة) أعدت

(١) من مقال " الخلافة الإسلامية "، للأستاذ أنور الجندي،نشر في مجلة المنار، ٢٣ / ٣٦١.

لها وخططت لذلك.

وفي الحقيقة أن الخلافة لم تكن مصدر احطاط تركيا ولا العالم الإسلامي، ولم يكن أسلوب تعديلها هو إزالتها أو فصل السلطة عن الخلافة كما فعلوا أولاً ليخدعوا الناس يومئذ، إن كان ذلك مقدمة للقضاء النهائي عليها.

وقد كانت هناك مشروعات كثيرة للإصلاح لو خلصت النيات وحسن الاتجاه إلى الإبقاء على وحدة العالم الإسلامي وقيام خلافته.

والغرب في سعيه لهدم الخلافة الإسلامية أو الوقوف في وجه محاولات إحيائها يعي جيداً أن بقاء الخلافة يعني وجود نظام سياسي يجمع شمل المسلمين، مهما بلغ واقع حال هذا النظام إلى مستوى محزن من الضعف والرمزية، بفعل الدسائس الاستعمارية وأن بقاء الخلافة دليل على استمرار تاريخ المسلمين، في ظل شعار سياسي واحد وأن بقاء الخلافة يعني بقاء الرباط الذي يبرر للمسلمين الاشتراك والمساهمة في الدفاع الدولي عن بلاد المسلمين وحقوقهم، وإقامة ألوان التعاون فيما بينهم وأن بقاء الخلافة يقضي في أدنى الحدود الرمزية بأن لا تقوم بين بلادهم حواجز مصطنعة، وهذا يعني اشتراك الشعوب الإسلامية في ديارهم، وتمتعهم بحريات تنقلهم وتملكهم وتجاراتهم وسائر مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية فيها.

والحقيقة التي يؤكدها الباحثون المنصفون أن المسلمين لم يناموا على الضيم منذ أسقطت الخلافة الإسلامية وهم لا يستنيمون أو يفرطون أو يغيب عليهم مدى خطرها وجلال شأنها والآثار التي ترتبت على حجبها.

ومنذ ذلك الوقت وإلى اليوم فإن الخلافة الإسلامية مبثوثة في كل أعمال التضامن الإسلامي والرابطة الإسلامية والأخوة الإسلامية الجامعة.

وقد أحس المسلمون اليوم بأن محاولات التجمع الوطني والقومي لم تنجح لأنها ليست هي الوجهة الحقة الصادرة من أعماق الفطرة، وإن المنهج الصحيح هو اجتماع كلمة المسلمين وقيام ذلك الرباط القوي بينهم

مرة أخرى، بعد أن تراخى في السنوات الماضية تحت تأثير الدعوات الإقليمية والقومية، غير أن هذه السنوات قد شهدت عشرات المؤتمرات والأبحاث والمشروعات والدعوات التي تفتح الطريق إلى وحدة المسلمين وتحقيق الغاية الكبرى.

نعم إن المسلمين بعد إلغاء الخلافة لم يتفرقوا أيدي سبأ، وأن الهدف الذي كان يطمع فيه النفوذ الاستعماري قد فشل تماماً. وأن العالم الإسلامي قد تلاقى على مستويات كبيرة ومتعددة: اجتماعية وثقافية واقتصادية وأن الفكر الإسلامي ما زال هو المصدر الأول للثقافات العربية والفارسية والتركية والهندية الإسلامية.

وإذا كانت الخلافة قد سقطت بعمل سياسي استعماري دفين أخفى أمره طويلاً وبدقة، وراء غلالات، فإن المسلمين قد بدت أمامهم الحقائق سافرة اليوم، وتنبهوا لما يراد بهم فسارعوا إلى اتخاذ وسائل أخرى، تمهد للوحدة فاندمجت رابطتهم في مؤتمر الحج السنوي، وفي الاتجاه إلى الجامعات الإسلامية العلمية، التي لا شك ستوجد الفكر والثقافة والتعليم، وبدأت لقاءات واسعة بين العناصر المختلفة من العرب والبربر والسنة والشيعة والأكراد، وتوثقت الصلات وزادت عمقاً وخفت حدة الخصومات والخلافات، التي أججها الاستعمار والنفوذ الغربي حرصاً على استبقاء التمزق والخلاف، كما كشفت الوقائع حقائق كثيرة كانت مطمورة عن الصهيونية والماركسية وعلاقتهما وفشلت دعوات الإقليمية والقومية جمعاً كما فشلت النظم السياسية الواحدة سواء الليبرالية منها أو الاشتراكية ولم يعد أمام المسلمين في مطالع القرن الخامس عشر الهجري بد من أن يقيموا مجتمعهم على أساس الشريعة الإسلامية، ونظامهم السياسي على أساس الوحدة الإسلامية، وسوف تنقشع السحب التي تحجب الضوء ويجد المسلمون أنفسهم مضطرين إلى الالتقاء إزاء الخطر الزاحف وهذا هو المنطلق الحقيقي لعودة الخلافة الإسلامية خلال هذا القرن الجديد.

ضَجَّتْ عليك مآذنٌ ومنابرٌ ::: وبَكَتْ عليك ممالكٌ ونَواحِ
الهندُ والهةٌ ومَصرُ حزينةٌ ::: تَبْكي عليكِ بَمدمعٍ سَحّاحِ

والشّمُ تسألُ والعِراقُ وفَارسٌ ::: أَمَحَا من الأرضِ الخلافةَ ماحِ؟

ونحن إذا نادينا بضرورة إعادة الخلافة الإسلامية، فلا يظن بنا التحليق في الخيال، فقد تعلمنا من سيرة الرسول ﷺ كيف نتفاءل ونواجه الأزمات بروح مشرقة آملين في تحقيق نصر الله عز وجل بعد الأخذ بأسبابه.

يروي الإمام أحمد عن تميم الداري - رضي الله عنه - قال: قال ﷺ ﴿ لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوبِذُلِّ ذَلِيلٍ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ﴾ (١).

إننا لا نحلق مع أوهام فلاسفة اليوتوبيا كأفلاطون والفارابي وتوماس مور الذين أجهدوا أنفسهم وأقاموا في خيالاتهم صروح دول وأنظمة حكم، بينما تحققت الوحدة الإسلامية في ظل الخلافة قروناً طويلة، إن أصابها الوهن أحياناً فقد أثبتت ضرورتها وأهميتها، لا سيما بعد أن أصابنا بفعل الاستعمار اليهودي والصليبي.

إن إحياء الخلافة من جديد أصبح ضرورة ملحة لتجميع القوى المتفرقة للمسلمين توطئة لمجابهة التحديات التي تحيط بهم من كل جانب، هذه التحديات العقائدية والاقتصادية والسياسية والعسكرية.

قال مالك بن نبي: " ويجب من الآن أن نعمل على ظهور سلطة روحية تجمع الرأي وتوحد الصف بالنسبة للمسلمين في العالم كله، وإننا يجب من الآن أن نعيد النظر في قضية الخلافة الإسلامية.. فقد باتت ضرورة عالمية وحيوية.. وليكن لها أي اسم، ولكن ليكن هدفها توحيد الصف الإسلامي والرأي الإسلامي في كل مكان على ظهر الأرض.. وليشترك فيها كل العالم الإسلامي، ولكن لنبدأ في إعلان وجودها من

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند - مؤسسة قرطبة - مصر - ٤ / ١٠٣، ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين - تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا - دار الكتب العلمية - بيروت - ط ١ - ١٤١١هـ - ١٩٩٠م - ٤ / ٤٧٧.

الآن " [١].

ولكن الذي لا يمكن إغفاله أن الخلافة الإسلامية كانت نظاماً حيًّا واقعاً لم يختف من الحياة السياسية إلا منذ وقت قريب، وكان يضم شعوباً متعددة الأجناس والألوان والألسنة والقوميات في عصور لم تتميز بما يمتاز به عصرنا الحاضر من وسائل الاتصال التي جعلت العالم كله وكأنه رقعة واحدة متصلة الأجزاء والأركان.

والإسلام نظام عالمي، قال تعالى:{وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾} [المؤمنون: ٥٢]. وقد بدأ كذلك وسيظل، فلا تؤثر فيه الانشقاقات التي تحدث، وعلى العكس فإن التدرج الحادث في بلدان العالم الآن يتجه به إلى ما يشبه النظام الإسلامي في عالميته، فقد اتجه التدرج بالنظام السياسي من الوطنية إلى القومية إلى العالمية.

والخلافة هي التي يناط بها إقامة شرع الله عز وجل، وتحكيم كتابه، والقيام على شؤون المسلمين، وإصلاح أمرهم، وجهاد عدوهم.

ولا قيام للدين وأحكامه على الوجه الأكمل إلا بها، ولا أمن ولا أمان للمسلمين ولديارهم من أعدائهم إلا بها، ولا رادع للظالمين وقاطعي الطريق إلا بها، لذا فقد أُثر عن النبي أنه قال:﴿**إن الله ليزع – أي ليردع – بالسلطان ما لا يزع بالقرآن**﴾ [٢].

فالقرآن الكريم لا بد له من قوة وسلطان يحميه ويفرضه على الناس، ويرعاه ويتعاهد أحكامه وشرائعه.. فالقرآن وسيف السلطان يسيران جنباً إلى جنب يؤيد بعضهما البعض، وأيهما يتخلف عن الآخر فإن مسيرة الإسلام - لا محالة - سيعتريها الضعف والنكبات والانتكاسات.

قال : ﴿**إنما الإمام جُنَّةٌ يُقاتَلُ من ورائه، ويُتقى به**﴾ [٣].

(١) مجلة الوعي الإسلامي - العدد ٦٣ - ربيع أول - ١٣٩٠هـ - ٦ مايو سنة ١٩٧٠م - ص ٧٠ (المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر).
(٢) ذكره إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي - تفسير القرآن العظيم - - دار الفكر - بيروت - ١٤٠١هـ - ٣ / ٦٠.
(٣) رواه البخاري في صحيحه - ٣/ ١٠٨٠، ومسلم في الصحيح - ١٤٧١/٣.

وعن أبي بكرة قال سمعت رسول الله يقول: **السلطان ظل الله في الأرض فمن أكرمه الله، ومن أهانه أهانه الله** [(١)].

فالسلطان المسلم العادل ظل الله في الأرض؛ والخلافة، والسلطان، والدولة وغير ذلك من معاني الشوكة والقوة كلها تدخل كوسائل مباشرة وهامة لتطبيق أحكام الله تعالى وشرائعه في الأرض، وبه تُحفظ حرمات الدين، وتعلو راياته.

ولا شك أن الغاية الجوهرية من قيام الدولة الإسلامية هي إيجاد الجهاز السياسي الذي يحقق وحدة الأمة الإسلامية وتعاون أفرادها، ويتابع تطبيق أحكام الإسلام وتنفيذها، ومراقبة سيرها التطبيقي في شتى مجالات الحياة وهذا لا يتم إلا بنصب الخليفة أو الإمام.

والحقيقة أن السبيل إلى إقامة خلافة إسلامية لا بد له أن يبدأ من بناء الإنسان المسلم إيمانيًّا، وثقافةً، وأخلاقاً.. والعمل الجاد الدؤوب على تحقيق التوحيد - بكل أنواعه وفروعه المقررة عند أهل السنة والجماعة - في الأمة، وبخاصة في الطائفة التي تستشرف مهمة الدعوة والعمل من أجل نصرة هذا الدين، وإعلاء كلمته في الأرض.. والإعداد المادي وضرورة وجوده بجانب الإعداد الإيماني والجهاد في سبيل الله: فعندما نقرر أن الجهاد في سبيل الله هو الطريق الصحيح لاستئناف حياة إسلامية وقيام خلافة راشدة وليس غيره من الطرق، فمرد ذلك كله إلى حكم الكتاب والسنة، وإلى واقع المواجهة القديمة والمستمرة بين الحق وأهله من جهة والباطل وأهله من جهة أخرى، وليس إلى ما تميل إليه أهواؤنا ونزواتنا أو ما تمليه علينا عقولنا ومصالحنا الذاتية الضيقة.

إن الأمة المسلمة قد بُشِّرت على لسان نبيها بأنها سترى في آخر أيامها دور نجاح وفلاح، فتقر به عينها، وينشرح صدرها، وتصلح أمورها، حتى (لا يدرى أولها خيرٌ أم آخرُها) [٥]، ويتم فيه نور الله{وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ} [الصف: ٨]... إلخ،{لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة - تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي - بيروت - ط ١ - ١٤٠٠هـ - ٤٩٢/٢. قال الشيخ ناصر في التخريج ١٠٢٤: حديث حسن.

ٱلۡمُشۡرِكُونَ } [التوبة: ٣٣]؛ ولذا لا يزال قلب المؤمن قويًّا برجاء الله،مملوءًا باليقين، لم يخالطه ريبٌ، ولا دخله زيغٌ، ولا صادفه قُنوطٌ ويأسٌ، حتى في هذا الزمان الذي انصبَّت فيه على المسلمين المصائب، ونزلت بهم النوازل،وزُلزِلُوا فيه زِلزَالاً شديدًا، بل كلما ازدادت العواصف شدَّةً، والليل ظُلمةً،والأرض عداوةً - يزداد المؤمن رجاءً ويقينًا، ويبصر بعينيه نور الصبح الجميل من بين هاتيك الظلمات، والغيوم والعواصف، ولسان حاله يقول:{إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٍ} [هود: ٨١].

* * *

الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور

أبو جعفر المنصور

أعلام الخلفاء العباسيين

الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور

خفيف العارضين، معرق الوجه، رحب الجبهة، كأن عينيه لسانان ناطقان، تخالطه أبهة الملك بزي النساك، تقبله القلوب، وتتبعه العيون، أقنى الأنف، بين القنا، فحل بني العباس هيبة وشجاعة، ورأيًا وحزمًا، ودهاءً وجبروتًا، وكان جَّماعًا للمال، حريصًا، تاركًا للهو واللعب، كامل العقل، بعيد الغور، حسن المشاركة في الفقه والأدب والعلم.

أباد جماعة كبارًا حتى توطد له الملك، ودانت له الأمم على ظلم فيه وقوة نفس، ولكنه يرجع إلى صحة إسلام وتدين في الجملة، وتصون وصلاة وخير، مع فصاحة وبلاغة وجلالة. وكان يلقب: أبا الدوانيق، لتدنيقه ومحاسبته الصناع.

هو الخليفة أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي الهاشمي العباسي المنصور.

ولي الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح سنة ١٣٦هـ وهو باني مدينة " بغداد " أمر بتخطيطها سنة ١٤٥ وجعلها دار ملكه بدلا من " الهاشمية " التي بناها السفاح. ومن آثاره مدينة " المصيصة " و" الرافقة " بالرقة، وزيادة في المسجد الحرام. وفي أيامه شرع العرب يطلبون علوم اليونانيين والفرس، وعمل أول إسطرلاب في الإسلام، صنعه محمد بن إبراهيم الفزاري. وكان بعيدًا عن اللهو والعبث، كثير الجد والتفكير، وله تواقيع غاية في البلاغة. وهو والد الخلفاء العباسيين جميعًا. وكان أفحلهم شجاعة وحزمًا إلا أنه قتل خلقًا كثيرًا حتى استقام ملكه. توفي ببئر ميمون (من أرض مكة) محرمًا بالحج.

ودفن في الحجون (بمكة) [1] ومدة خلافته ٢٢ عامًا.

---

(١) الحجون: جبل بأعلى مكة، عنده مدافن أهلها، قال عمرو بن الحارث بن مضاض، يتأسف على البيت - وقيل هو للحارث الجرهمي:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ::: أنيس، ولم يسمر بمكة سامر
نحن كنا أهلها فأبادنا ::: صروف الليالي والجدود العواثر

وكان المنصور أسمر نحيفًا طويل القامة خفيف العارضين معرق الوجه رحب اللحية يخضب بالسواد، عريض الجبهة " كأن عينيه لسانان ناطقان، تخالطه أبهة الملوك بزي النساك " أمه بربرية تدعى سلامة. وكـــان نقـــش خاتمـــه " الله ثقة عبد الله وبه يؤمن " ومما كتب في سيرته " أخبار المنصور " لعمر بن شبة النميري.

قال المؤرخون: على شهرة المنصور بالبخل، ذكر محمد بن سلام أنه لم يعط خليفة قبل المنصور عشرة آلاف ألف درهم، دارت بها الصكاك، وثبتت في الدواوين، فإنه أعطى في يوم واحد، كل واحد من عمومته عشرة آلاف ألف. وقيل: إنه خلف يوم موته في بيوت الأموال تسعمائة ألف ألف درهم ونيف.

روى إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي: أن أباه قال: قال لنا المنصور: رأيت كأن رسول الله عممني بعمامة كورها ثلاثة وعشرون، وقال: خذها، وأوصاني بأمته.

وعن المنصور قال: الملوك أربعة: معاوية، وعبد الملك، وهشام بن عبد الملك، وأنا.

حج المنصور مرات، منها في خلافته مرتين، وفي الثالثة مات ببئر ميمون قبل أن يدخل مكة.

قال الأصمعي: صعد المنصور المنبر، فشرع، فقام رجل، فقال: يا أمير المؤمنين! اذكر من أنت في ذكره. فقال: مرحبًا، لقد ذكرت جليلا، وخوفت عظيمًا، وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له: اتق الله، أخذته العزة بالإثم، والموعظة منا بدت، ومن عندنا خرجت، وأنت يا قائلها فأحلف بالله: ما الله أردت، إنما أردت أن يقال: قام، فقال، فعوقب، فصبر، فأهون بها من قائلها، واهتبلها من الله، ويلك إني قد غفرتها!. وعاد إلى خطبته كأنما يقرأ من كتاب.

ولما احتضر المنصور قال: اللهم إني قد ارتكبت عظائم، جرأة مني

وبئر ميمون: بمكة أيضا.

عليك، وقد أطعتك في أحب الأشياء إليك، شهادة أن لا إله إلا الله، منا منك لا منا عليك، ثم مات.

وقيل: رأى ما يدل على قرب موته، فسار للحج. وقيل: مات مبطونًا، وعاش أربعًا وستين سنة.

قال الصولي: دفن بين الحجون وبئر ميمون في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة.

تولى المنصور الخلافة ولم تكن قد توطدت دعائمها، ولم يكن يخاف عليها من الدولة البائدة دولة الأمويين، لأنه لم تبق لهم باقية يخاف منها وإنما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات:

١ - منافسة عمه عبد الله بن علي له.

٢ - عظمة ومكانة أبي مسلم الخراساني مؤسس الدولة.

٣ - الخوف من بني عمه آل علي بن أبي طالب الذين لم يزل لهم في قلوب الناس مكان مكين.

وقد خرج عليه في أول ولايته عمه عبد الله بن علي فرماه بنظيره أبي مسلم صاحب الدولة، وقال: لا أبالي أيهما أصيب. فانهزم عمه، وتلاشى أمره، ثم فسد ما بينه وبين أبي مسلم، فلم يزل يتحيل عليه، حتى استأصله وتمكن.

ثم خرج عليه ابنا عبد الله بن حسن وكاد أن تزول دولته، واستعد للهرب، ثم قتلا في أربعين يومًا، وألقى عصاه، واستقر.

وقد خضعت له ممالك الإسلام بأسرها، سوى جزيرة الأندلس. وكان ينظر في حقير المال ويثمره، ويجتهد بحيث إنه خلف في بيوت الأموال من النقدين أربعة عشر ألف ألف دينار، فيما قيل، وستمائة ألف ألف درهم، وكان كثيرًا ما يتشبه بالثلاثة في سياسته وحزمه، وهم: معاوية، وعبد الملك، وهشام.

وقيل: إنه أحس شغبًا عند قتله أبا مسلم، فخرج بعد أن فرق الأموال،

وشغلهم برأسه، فصعد المنبر وقال: أيها الناس، لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة، يظهر الله ذلك على فلتات الألسنة، وسقطات الأفعال، فإن من نازعنا عروة قميص الإمامة، أوطأناه ما في هذا الغمد، وإن أبا مسلم بايعنا على أنه إن نكث بيعتنا، فقد أباح دمه لنا، ثم نكث، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره، ولم يمنعنا رعاية حقه من إقامة الحق عليه، فلا تمشوا في ظلمة الباطل، بعد سعيكم في ضياء الحق، ولو علم بحقيقة حال أبي مسلم، لعنفنا على إمهاله من أنكر منا قتله والسلام(١).

ولقب أبو جعفر المنصور بأبي الدوانيق، لقب بذلك لأنه لما بنى مدينة بغداد كان يباشرها بنفسه ويحاسب الصناع، فيقول لهذا: أنت نمت القائلة، ولهذا: لم تبكر، ولهذا: انصرفت قبل أن تكمل اليوم، فيسقط لهذا دانقًا، ولهذا دانقين، فلا يكاد يعطي لأحد أجرةً كاملة، وكان يقول: يزعمون أني بخيل، وما أنا ببخيل، ولكن رأيت الناس عبيد المال، فمنعتهم عنه، ليكونوا عبيدًا لي. ويحكى عنه أنه قال لطباخه: لكم ثلاثة وعليكم اثنتان، لكم الرءوس والأكارع والجلود، وعليكم الحبوب والتوابل. ومن حكاياته الدالة على بخله: أن صاحبه الربيع بن يونس قال له يومًا: يا أمير المؤمنين، إن الشعراء ببابك وهم كثير، وقد طالت أيامهم ونفدت نقفاتهم، فقال: اخرج إليهم وسلم عليهم، وقل لهم من مدحنا منكم فلا يصف الأسد، فإنما هو كلب من الكلاب، ولا الحية، فإنما هي دويبة منتنة تأكل التراب، ولا الجبل فإنه حجر أصم، ولا البحر، فإنه عطن بض لجبٌ، فمن ليس في شعره شيء من هذا فليدخل، ومن كان في شعره شيءٌ منه فلينصرف، فأبلغهم فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة فقال:

---

(١) ابن قتيبة الدينوري، المعارف: ٣٧٧ - ٣٧٨، تاريخ الطبري: ٧ / ٤٦٩ - ٤٧٣، ٨ / ٦٢ - ١٠٢، الوزراء والكتاب: ٩٦ - ١٤٠، مروج الذهب: ٢ / ٢٢٨ - ٢٤٦، تاريخ بغداد: ١٠ / ٥٣ - ٦١، الكامل لابن الأثير: ٥ / ٤٦١ - ٤٦٢، تاريخ الإسلام: ٦ / ٢١٤ - ٢١٩، عبرالذهبي: ١ / ٢٢٨، دول الإسلام: الذهبي: ٩٣ - ٩٥، فوات الوفيات: ٢ / ٢١٦ - ٢١٧، البداية والنهاية: ١٠ / ١٢١ - ١٢٩، العقد الثمين: ٥ / ٢٤٨، تاريخ الخلفاء: ٢٥٩ - ٢٧١، شذرات الذهب: ١ / ١٨٥، ٢١٣، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٤٣، ٢٤٤، سير أعلام النبلاء، ٧ /٨٣.

أنا له يا ربيع فأدخلني عليه، فأدخله، فلما مثل بين يديه، قال له: يا ربيع قد علمت أنه لا يجيبك غيره فأنشده قصيدته التي منها:

لـه لحظـات في حفـافي سـريره ::: إذا كرهـا فيهـا عقـاب ونائـل
فأم الـذي أمنـت آمنـة الـردى ::: وأم الذي خوفـت بالثكـل ثاكـل

فرفع له الستر وأقبل عليه وأصغى إليه، فلما فرغ من إنشاده أمر له بعشرة آلاف درهم وقال له: يا إبراهيم، لا تتلفها طمعًا في نيل مثلها منا، فما كل وقت تصل إلينا، فقال إبراهيم: ألقاك يا أمير المؤمنين يوم القيامة وعليها الجهبذ[1].

مواقف من حياته:

كأنك لم تسمع بالعفو:

وقيل: إن عبد الصمد عمه قال: يا أمير المؤمنين، لقد هجمت بالعقوبة، حتى كأنك لم تسمع بالعفو. قال: لأن بني أمية لم تبل رممهم، وآل علي لم تغمد سيوفهم، ونحن بين قوم قد رأونا أمس سوقة، ولا تتمهد هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو.

ليس عندك قضاؤها!؟

وقيل: دخل عليه هشام بن عروة فقال: اقض ديني. قال: وكم هو؟. قال: مائة ألف، قال: وأنت في فقهك وفضلك تأخذ مائة ألف، ليس عندك قضاؤها!؟ قال: شب فتيان لي، فأحببت أن أبوئهم، وخشيت أن ينتشر على أمرهم، واتخذت لهم منازل، وأولمت عليهم، ثقة بالله وبأمير المؤمنين.

قال: فردد عليه: مائة ألف، استكثارًا لها، ثم قال: قد أمرنا لك بعشرة آلاف. قال: فأعطني ما تعطي وأنت طيب النفس، فقد سمعت أبي يحدث عن النبي قال: " من أعطى عطية وهو بها طيب النفس، بورك للمعطي والمعطى ".

(١) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ٣/٢٨٤.

قال: فإني طيب النفس بها. فأهوى ليقبل يده، فمنعه، وقال: إنا نكرمك عنها، ونكرمها عن غيرك.

يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق:

وقيل رأت جارية للمنصور قميصه مرقوعا، فكلمته فقال:

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه ::: خلق، وجيب قميصه مرقوع

أتؤمن بالله؟

قال عباد بن كثير لسفيان: قلت لأبي جعفر: أتؤمن بالله؟ قال: نعم. قلت: حدثني عن الأموال التي اصطفيتموها من بني أمية، فلئن صارت إليكم ظلمًا وغصبًا، فما رددتموها إلى أهلها الذين ظلموا، ولئن كانت لبني أمية، لقد أخذتم ما لا يحل لكم، إذا دعيت غدًا بنو أمية بالعدل، جاؤوا بعمر بن عبد العزيز، وإذا دعيتم أنتم، لم تجيئوا بأحد، فكن أنت ذاك الأحد، فقد مضت من خلافتك ست عشرة سنة. قال: ما أجد أعوانًا. قلت: عونك علي بلا مرزئة، أنت تعلم أن أبا أيوب المورياني يريد منك كل عام بيت مال، وأنا أجيئك بمن يعمل بغير رزق، آتيك بالأوزاعي، وآتيك بالثوري، وأنا أبلغك عن العامة. فقال: حتى أستكمل بناء بغداد، وأوجه خلفك. فقال له سفيان: ولم ذكرتني له؟. قال: والله ما أردت إلا النصح. قال سفيان: ويل لمن دخل عليهم، إذا لم يكن كبير العقل، كثير الفهم، كيف يكون فتنة عليهم وعلى الأمة.

ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى إلى يوم القيامة؟

قال ابن حميد: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكًا في مسجد رسول الله ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في المسجد، فإن الله تعالى أدب قوماً فقال:{لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: ٢].

ومدح قوما فقال:{إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾} [الحجرات: ٣].

وذم قوما فقال:{ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾} [الحجرات: ٤].

وإن حرمته ميتاً كحرمته حيًّا. فاستكان لها أبو جعفر، وقال: يا أبا عبد الله؛ أأستقبل القبلة وأدنو أم أستقبل رسول الله ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى إلى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به، فيشفعك الله؛ قال تعالى:{وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا } [النساء: ٦٤] اهـ [(١)].

---

(١) علق ابن تيمية علي هذه القصة فقال في " الفتاوى " (٢٢٨/١):
فهَذَا كُلُّهُ نقلهُ القاضِي عِيَاضٌ مِنْ كُتُبِ أَصْحَابِ مَالِكٍ المَعْرُوفةِ ثُمَّ ذكرَ حِكايَة بِإِسْنَادٍ غَرِيبٍ مُنْقطِعٍ رَوَاهَا عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ إجَازَةً.. فذكرها بسندها عن القاضي عياض، ثم قال: قُلت: وَهَذِهِ الحِكايَةُ مُنْقطِعَةٌ؛ فإنَّ مُحَمَّدَ بْنَ حميد الرَّازِيَّ لمْ يُدْرِكْ مَالِكًا، لا سِيَّمَا فِي زَمَنِ أَبِي جَعْفرٍ المَنْصُورِ، فإنَّ أَبَا جَعْفرٍ تُوُفِّيَ بِمَكَّةَ سَنَةَ ثمَانٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةٍ، وَتُوُفِّيَ مَالِكٌ سَنَة تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ. وَتُوُفِّيَ مُحَمَّدُ بْنُ حميد الرازي سَنَة ثمَانٍ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتيْنِ وَلمْ يَخْرُجْ مِنْ بَلدِهِ حِينَ رَحَلَ فِي طَلبِ العِلمِ إلا وَهُوَ كبِيرٌ مَعَ أَبِيهِ، وَهُوَ مَعَ هَذَا ضَعِيفٌ عِنْدَ أَكثرِ أَهْلِ الحَدِيثِ، كذبَهُ أَبُو زُرْعَة، وَمحمد بن مسلم بْنُ وارة.
وَقالَ صَالِحُ بْنُ مُحَمَّدٍ الأسدي: مَا رَأَيْت أَحَدًا أَجْرَأَ عَلى اللهِ مِنْهُ وَأَحْذَقَ بِالكذِبِ مِنْهُ.
وَقالَ يَعْقُوبُ بْنُ شَيْبَة: كثِيرُ المَنَاكِيرِ.
وَقالَ النسائي: ليْسَ بِثِقةٍ. وَقالَ ابْنُ حِبَّانَ: يَنْفرِدُ عَنْ الثِّقاتِ بِالمَقلوبَاتِ.
وقال ابن خراش: حدثنا ابن حميد، وكان والله يكذب!.
وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: فرأيت بعد ذلك أبي إذا ذكر ابن حميد: نفض يده!.
وَآخِرُ مَنْ رَوَى المُوَطَّأ عَنْ مَالِكٍ هُوَ أَبُو مُصْعَبٍ وَتُوُفِّيَ سَنَة اثْنَتيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَمِائَتيْنِ.
وَآخِرُ مَنْ رَوَى عَنْ مَالِكٍ عَلى الإِطْلاقِ هُوَ أَبُو حُذَيْفة أَحْمَدُ بْنُ إسْمَاعِيلَ السَّهْمِيُّ تُوُفِّيَ سَنَة تِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَتيْنِ، وَفِي الإِسْنَادِ أَيْضًا مَنْ لا تُعْرَفُ حَالُهُ.ا.هـ.
وقال أيضا في " الفتاوى " (٢٢٥/١):
وَكذلِكَ مَنْ نَقلَ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ جَوَّزَ سُؤَالَ الرَّسُولِ أَوْ غَيْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ أَوْ نَقلَ ذَلِكَ عَنْ إمَامٍ مِنْ أَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ - غَيْرِ مَالِكٍ - كالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ وَغَيْرِهِمَا فقدْ كذبَ عَليْهِمْ، وَلكِنْ بَعْضُ الجُهَّالِ يَنْقُلُ هَذا عَنْ مَالِكٍ، وَيَسْتنِدُ إلى حِكايَةٍ مَكذُوبَةٍ عَنْ مَالِكٍ.. وَأَصْلُهَا ضَعِيفٌ.ا.هـ.
وقال أيضا في " الفتاوى " (٣٥٣/١): وَالحِكايَةُ التِي تُذكرُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قالَ لِلمَنْصُورِ لمَّا سَأَلهُ عَنْ اسْتِقبَالِ الحُجْرَةِ فأَمَرَهُ بِذلِكَ، وقال: " هُوَ وَسِيلتُك وَوَسِيلةُ أبيك آدَمَ " كذِبٌ عَلى مَالِكٍ، ليْسَ لهَا إسْنَادٌ مَعْرُوفٌ.
من جهةِ نقلها عن أصحابِ مالك:
قال شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٢٨/١):

يا أمير المؤمنين روض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك:

قال الأوزاعي عبد الرحمن بن عمرو،: " بعث إلي المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل، فلما وصلت إليه سلمت عليه بالخلافة فرد علي وأجلسني " ثم قال: ما الذي بطأ بك عنا يا أوزاعي؟ قلت: " وما الذي تريد يا أمير المؤمنين؟ " قال: أريد الأخذ عنك والاقتباس منك، قال: " فانظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئا مما أقول لك " قال: وكيف أجهله وأنا أسألك عنه وقد وجهت إليك وأقدمتك له؟ قلت: " أن تسمعه ولا تعمل به، يا أمير المؤمنين من كره الحق فقد كره الله، إن الله هو الحق المبين " قال: فصاح ابن الربيع وأهوى بيده إلى السيف، فانتهره المنصور، وقال: هذا مجلس مثوبة لا مجلس عقوبة، فطابت نفسي وانبسطت في الكلام، فقلت: يا أمير المؤمنين حدثني مكحول، عن عطية،

وَهَذِهِ الحِكَايَةُ لَمْ يَذْكُرْهَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ المَعْرُوفِينَ ؟؟؟ بِالْأَخْذِ عَنْهُ، وَمُحَمَّدُ بْنُ حميد ضَعِيفٌ عِنْدَ أَهْلِ الحَدِيثِ إذَا أَسْنَدَ، فَكَيْفَ إذَا أَرْسَلَ حِكَايَةً لَا تُعْرَفُ إلَّا مِنْ جِهَتِهِ؟ هَذَا إنْ ثَبَتَ عَنْهُ، وَأَصْحَابُ مَالِكٍ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ بِمِثْلِ هَذَا النَّقْلِ لَا يَثْبُتُ عَنْ مَالِكٍ قَوْلٌ لَهُ فِي مَسْأَلَةٍ فِي الفِقْهِ؛ بَلْ إذَا رَوَى عَنْهُ الشَّامِيُّونَ كَالوَلِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ، وَمَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الطاطري ضَعَّفُوا رِوَايَةَ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى رِوَايَةِ المَدَنِيِّينَ وَالمِصْرِيِّينَ فَكَيْفَ بِحِكَايَةٍ تُنَاقِضُ مَذْهَبَهُ المَعْرُوفَ عَنْهُ مِنْ وُجُوهٍ رَوَاهَا وَاحِدٌ مِنْ الخُرَاسَانِيِّينَ لَمْ يُدْرِكْهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ عِنْدَ أَهْلِ الحَدِيثِ؟.ا.هـ.

سببُ إيرادِ القاضي عياضٍ لها:

قال في " الفتاوى " (٢٢٥/١ - ٢٢٦): وَالقَاضِي عِيَاضٌ لَمْ يَذْكُرْهَا فِي كِتَابِهِ فِي بَابِ زِيَارَةِ قَبْرِهِ؛ بَلْ ذَكَرَ هُنَاكَ مَا هُوَ المَعْرُوفُ عَنْ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَهَا فِي سِيَاقِ أَنَّ حُرْمَةَ النَّبِيِّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ وَتَوْقِيرَهُ وَتَعْظِيمَهُ لَازِمٌ؛ كَمَا كَانَ حَالَ حَيَاتِهِ وَكَذَلِكَ عِنْدَ ذِكْرِهِ وَذِكْرِ حَدِيثِهِ وَسُنَّتِهِ وَسَمَاعِ اسْمِهِ.ا.هـ.

الثابتَ عن مالكٍ خلافُ القصةِ:

قال في " الفتاوى " (٣٥٣/١): وَهُوَ خِلَافُ الثَّابِتِ الْمَنْقُولِ عَنْهُ بِأَسَانِيدِ الثِّقَاتِ فِي كُتُبِ أَصْحَابِهِ كَمَا ذَكَرَهُ إسْمَاعِيلُ بْنُ إسْحَاقَ القَاضِي وَغَيْرُهُ مِثْلَ مَا ذَكَرُوا عَنْهُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ أَقْوَامٍ يُطِيلُونَ القِيَامَ مُسْتَقْبِلِي الحُجْرَةِ يَدْعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ، فَأَنْكَرَ مَالِكٌ ذَلِكَ، وَذَكَرَ أَنَّهُ مِنْ البِدَعِ الَّتِي لَمْ يَفْعَلْهَا الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَقَالَ: لَا يُصْلِحُ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ إلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَهُ مَالِكٌ، فَإِنَّ الْآثَارَ الْمُتَوَاتِرَةَ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ تُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ عَمَلِهِمْ وَعَادَتِهِمْ، وَلَوْ كَانَ اسْتِقْبَالُ الحُجْرَةِ عِنْدَ الدُّعَاءِ مَشْرُوعًا لَكَانُوا هُمْ أَعْلَمَ بِذَلِكَ، وَكَانُوا أَسْبَقَ إلَيْهِ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَالدَّاعِي يَدْعُو اللَّهَ وَحْدَهُ.ا.هـ.

عن بشر قال: قال رسول الله : " أيما عبد أتاه موعظة من الله في دينه فإنما هي نعمة من الله سيقت إليه، فإن قبلها بشكر وإلا كانت حجة من الله ليزداد بها إثما، ويزداد عليه سخطا ﴿ يا أمير المؤمنين حدثني مكحول، عن عطية، عن بشر، قال: قال رسول الله : **أيما وال بات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة**﴾، يا أمير المؤمنين إن الذي لين قلوب أمتكم لكم حين ولوكم لقرابتكم من رسول الله ، فقد كان بهم رؤوفًا رحيمًا مواسيًا لهم بنفسه وذات يده، وعند الناس لحقيق أن يقوم له فيهم بالحق، وأن يكون بالقسط له فيهم قائمًا، ولعوراتهم ساترًا، لم يغلق عليه دونهم الأبواب، ولم يقم عليه دونهم الحجاب، يبتهج بالنعمة عندهم، ويبتئس بما أصابهم من سوء، يا أمير المؤمنين، قد كنت في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم، أحمرهم وأسودهم، مسلمهم وكافرهم، وكل له عليك نصيب من العدل، فكيف بك إذا اتبعك منهم فئام وراء فئام، ليس منهم أحد إلا وهو يشكو شكوى، أو بلية أدخلتها عليه، أو ظلامة سقتها إليه ".

يا أمير المؤمنين حدثني مكحول، عن عروة بن رويم، قال: " كانت بيد رسول الله جريدة رطبة يستاك بها، ويروع بها المنافقين، فأتاه جبريل فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التي كسرت بها قرون أمتك، وملأت بها قلوبهم رعبا؟ "، فكيف بمن شقق أبشارهم، وسفك دماءهم، وخرب ديارهم، وأجلاهم عن بلادهم، وغيبهم الخوف منه؟ ".

يا أمير المؤمنين حدثني مكحول، عن زياد بن حارثة، عن حبيب بن مسلمة، ﴿ أن رسول الله دعا إلى القصاص من نفسه في خدشة خدشها أعرابيًا لم يتعمده، فأتاه جبريل فقال: إن الله لم يبعثك جبارًا ولا متكبرًا، فدعاه النبي فقال:**اقتص مني**﴾ فقال الأعرابي: قد أحللتك بأبي أنت وأمي، ما كنت لأفعل ذلك أبدا ولو أتيت على نفسي، فدعا الله له بخير " " يا أمير المؤمنين روض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك، وارغب في جنة عرضها السماوات والأرض التي يقول فيها رسول الله :**لقاب قوس أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها**﴾، يا أمير المؤمنين إن الملك لو بقي لمن كان قبلك لم يصل إليك، وكذلك لا يبقى لك كما لا يبقى لغيرك،

يا أمير المؤمنين تدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك:{مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا} [الكهف: ٤٩]، قال: الصغيرة التبسم، والكبيرة الضحك، فكيف ما عملته الأيدي وأحصته الألسن يا أمير المؤمنين؟.

بلغني أن عمر بن الخطاب قال: لو ماتت سخلة على شاطئ الفرات ضيعة لخفت أن أسأل عنها فكيف بمن حرم عدلك وهو على بساطك يا أمير المؤمنين؟ تدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدك:{يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ} [ص: ٢٦]، قال: " يا داود، إذا قعد الخصمان بين يديك فكان لك في أحدهما هوى فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له فيفلح على صاحبه فأمحوك عن نبوتي ثم لا تكون خليفتي ولا كرامة، يا داود إنما جعلت رسلي إلى عبادي رعاة ترعى الإبل لعلمهم بالرعاية ورفقهم بالسياسة، ليجبروا الكسرة، ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء، يا أمير المؤمنين إنك قد بليت بأمر لو عرض على السماوات والأرض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه، يا أمير المؤمنين ".

حدثني يزيد بن يزيد بن جابر، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، أن عمر بن الخطاب استعمل رجلا من الأنصار على الصدقة فرآه بعد أيام مقيمًا، فقال له: ما منعك من الخروج إلى عملك؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهد في سبيل الله؟ قال: لا، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه بلغني أن رسول الله قال:**ما من وال يلي شيئا من أمور الناس إلا يؤتى به يوم القيامة يده مغلولة إلى عنقه، فيوقف على جسر من النار، ينتفض ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه ثم يعاد فيحاسب فإن كان محسنًا نجاه إحسانه، وإن كان مسيئًا انحرف به ذلك الجسر فهوى به في النار سبعين خريفًا** قال له: ممن سمعت هذا؟ قال: من أبي ذر، وسلمان، فأرسل إليهما عمر فسألهما فقالا: نعم سمعناه من رسول الله ، فقال عمر: واعمراه من يتولاها بما فيها؟ فقال أبو ذر: " من أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض "، قال: فأخذ المنديل فوضعه على وجهه ثم بكى وانتحب حتى أبكاني.

ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قد سأل جدك العباس رسول الله إمارة على مكة أو الطائف أو اليمن، فقال له النبي ﴿**يا عباس يا عم النبي، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها**﴾ نصيحة منه لعمه وشفقة منه عليه، وإنه لا يغني عنه من الله شيئا، إذ أوحي إليه:{وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾} [الشعراء: ٢١٤]، فقال: ﴿**يا عباس يا عم النبي، ويا صفية عمة النبي، ويا فاطمة بنت محمد، إني لست أغني عنكم من الله شيئا، لي عملي ولكم عملكم**﴾ وقد قال عمر بن الخطاب: " لا يقضي بين الناس إلا حصيف العقل، أرب العقدة، لا يطلع منه على عورة، ولا يحنق على جراءة، ولا يأخذه في الله لومة لائم ".

وقال علي رضي الله عنه: " السلطان أربعة: فأمير قوي طلق نفسه وعماله فذلك كالمجاهد في سبيل الله، يد الله باسطة عليه بالرحمة، وأمير طلق نفسه وأرتع عماله لضعفه، فهو على شفا هلاك، إلا أن يتركهم، وأمير طلق عماله وأرتع نفسه، فذلك الحطمة ".

الذي قال رسول الله :**شر الرعاة الحطمة فهو الهالك وحده، وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعا**﴾.

بلغني يا أمير المؤمنين " أن جبريل أتى النبي فقال: أتيتك بخبر من أمر الله تعالى ذكره بمفاتيح النار، فوضعت على النار تسعر إلى يوم القيامة، فقال النبي : صف لي النار، فقال: إن الله تعالى ذكره أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة، لا يطفأ لهبها ولا جمرها، والذي بعثك بالحق لو أن ثوبًا من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لماتوا جميعًا، ولو أن ذنوبًا من شرابها صب في مياه أهل الأرض جميعًا لقتل من ذاقه، ولو أن ذراعًا من السلسلة التي ذكرها الله عز وجل وضع على جبال الأرض لذابت وما اشتعلت، ولو أن رجلاً أدخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه وتشويه خلقه وعظمه، فبكى النبي ، وبكى جبريل لبكائه فقال: بلى يا محمد، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا؟ ولم بكيت يا جبريل وأنت الروح الأمين، أمين الله على وحيه؟ " فقال: إني

أخاف أن أبتلى بمثل ما ابتلي به هاروت، وماروت، فهو الذي منعني من اتكالي على منزلتي عند ربي عز وجل، فأكون قد أمنت مكره، فلم يزالا يبكيان حتى نودي من السماء: أن يا جبريل ويا محمد، إن الله عز وجل قد أمنكما أن تعصياه فيعذبكما ".

وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن عمر بن الخطاب قال: " اللهم إن كنت تعلم أني أبالي إذا قعد الخصمان بين يدي على من حال الحق من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين " يا أمير المؤمنين، إن أشد الشدة القيام لله عز وجل، وإن أكرم الكرم عند الله التقوى، وإن من طلب العز بطاعة الله رفعه وأعزه، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه، فهذه نصيحتي والسلام عليك، ثم نهضت، فقال: إلى أين؟ فقلت: إلى البلد والوطن بإذن أمير المؤمنين إن شاء الله، قال: " قد أذنت لك، وشكرت لك نصيحتك وقبلتها بقولها، والله عز وجل الموفق للخير والمعين عليه، وبه أستعين وعليه أتوكل، وهو حسبي ونعم الوكيل، فلا تخلني من مطالعتك إياي بمثلها، فإنك المقبول القول غير المتهم في نصيحته، قلت: أفعل إن شاء الله، قال محمد بن مصعب: فأمر له بمال يستعين به على خروجه فلم يقبله، وقال: أنا في غنى عنه، وما كنت أبيع نصيحتي بعرض من أعراض الدنيا كلها، وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه في رده "، قال الحاكم: " هذا حديث تفرد به أبو جعفر أحمد بن عبيد بن ناصح الأديب، وهو مقدم في أصحاب الأصمعي، يلقب بأبي حدث عن يحيى بن صاعد وغيره من الأئمة " (١)

والله ما أحدثك ولا أحدث قومًا أنت فيهم:

قال شريك: « كان أبو جعفر المنصور قد استخفى عند رجل فأكرمه، فلما أفضت الخلافة إليه قدم عليه ذلك الرجل يهنئه فأكرمه أبو

(١) أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م، ٩ /٥٠٣ - ٥٠٩.

جعفر، وقال له: " سل حاجتك "، فقال له: أنت تعلم أني من الله في نعمة، ما لي حاجة إلا أني أشتهي أن يحدثني الأعمش، فاكتب إليه كتابا ليحدثني »، فكتب له أبو جعفر كتابا بخطه إلى الأعمش يعرفه فيه وجوب حقه عليه، ويأمره بأن يحدثه، فلما مضى الرجل بالكتاب وافى [1] باب الأعمش فدقه، وكان الأعمش يكره أن يدق عليه بابه فقال: من ذا؟ ادخل فدخل والأعمش، يلخف كسبا للشاة - فقال له: ما لك؟ فقال: هذا كتاب أمير المؤمنين إليك، فقال: هاته فأخذه، ثم قال: يا بسرة - يعني أن اسم الشاة بسرة - فرفعت رأسها، فجعل يضفرها الكتاب حتى أكلته، ثم قال: إيش فيه؟ قال: فيه أن تحدثني، فقال: ما أحدثك بحرف، فقال: سبحان الله يا أبا محمد يكتب إليك أمير المؤمنين في شيء فلا تفعله، فقال: " والله ما أحدثك ولا أحدث قوما أنت فيهم " [2] يا أمير المؤمنين، إن الذي داخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وامتلأت بلاد الله بذلك بغياً وفساداً أنت هو.

وذكر الغزالي وابن بليان وغيرهما، أن أبا جعفر المنصور حج ونزل في دار الندوة، وكان يخرج سحراً فيطوف بالبيت، فخرج ذات ليلة سحراً، فبينما هو يطوف إذ سمع قائلاً يقول: اللهم أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فهرول المنصور في مشيته حتى ملأ سمعه ثم رجع إلى دار الندوة. وقال لصاحب شرطته: إن بالبيت رجلاً يطوف فائتني به. فخر صاحب الشرطة فوجد رجلاً عند الركن اليمني. فقال: أجب أمير المؤمنين. فلما دخل عليه، قال: أنا الذي سمعتك آنفاً تشكو إلى الله من ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع، فوالله لقد حشوت مسامعي ما أمرضني.

فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الذي داخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وامتلأت بلاد الله بذلك بغياً وفساداً أنت هو.

---

(١) وافى: أتى وأدرك ولحق.
(٢) الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، ٢ /٣٧٢.

فقال له المنصور: ويحك كيف يداخلني الطمع، والصفراء والبيضاء ببابي وملك الأرض في قبضتي.

فقال الرجل: سبحان الله يا أمير المؤمنين، وهل داخل أحداً من الطمع ما داخلك؟ استرعاك الله أمور المؤمنين وأموالهم فأهملت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم، واتخذت بينك وبين رعيتك حجاباً من الجبس والآجر وحجبة معهم السلاح وأمرت أن لا يدخل عليك إلا فلان وفلان، نفر استخلصتهم لنفسك وأمرتهم على رعيتك، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الجائع ولا العاري، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق. فلما رآك هؤلاء الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجمع الأموال وتقسمها، قالوا: هذا خان الله ورسوله فما لنا لا نخونه؟ فأجمعوا على أن لا يصل إليك من أموال الناس إلا ما أرادوا. فصار هؤلاء شركاءك في سلطانك، وأنت غافل عنهم، فإذا جاء المظلوم إلى بابك وجدك أوقفت رجلاً ينظر في مظالم الناس، فإن كان الظالم من بطانتك علل صاحب المظالم بالمظلوم وسوّفَ من وقت إلى وقت، فإذا اجتهد وظهرت أنت صرخ بين يديك، فضربه أعوانك ضرباً شديداً ليكون نكالاً لغيره، وأنت ترى ذلك ولا تنكر. لقد كانت الخلفاء قبلك من بني أمية إذا أتت إليهم الظلامة أزيلت في الحال، ولقد كنت أسافر إلى الصين يا أمير المؤمنين، فقدمت مرة فوجدت الملك الذي به قد فقد سمعه، فبكى، فقال له وزراؤه: ما يبكيك أيها الملك؟ لا أبكى الله لك عيناً إلا من خشيته.

فقال: والله ما بكيت لمصيبة نزلت بي وإنما أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمعه. ثم قال: إن كان سمعي ذهب فإن بصري لم يذهب. نادوا في الناس لا يلبس أحد ثوباً أحمر إلا مظلوم. وكان يركب الفيل طرفي النهار ويدور في البلد لعله يجد أحداً لابساً ثوباً أحمر فيعلم أنه مظلوم فينصفه. وهذا الأمير رجل مشرك غلبت عليه رأفته على شح نفسه بالمشركين، وأنت مؤمن بالله ورسوله وابن عم رسول الله .

يا أمير المؤمنين! لا تجعل الأموال إلا لإحدى ثلاث، فإن قلت: إنما أجمع الأموال لصالح الملك فقد أراك الله عبرةً في الملوك والقرون من قبلك ما أغنى عنهم ما أعدوا من الأموال والرجال والكراع، حين أراد

الله بهم ما أراد، وإن قلت: إنما أجمع للولد، فقد أراك الله عبرة فيمن تقدم ممن جمع المال للولد فلم يغن ذلك عنهم شيئاً بل ربما مات فقيراً ذليلاً حقيراً؛ وإن قلت: إنما أجمعه لغاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها، فوالله ما فوق منزلتك إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح.

فبكى المنصور بكاء شديداً ثم قال: وكيف أعمل وقد فرت مني العباد ولم تقربني، افتح الباب وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم وخذ المال مما حل وطاب، واقسمه بالحق والعدل، وأنا ضامن من هرب أن يعود إليك.

فقال المنصور: نفعل إن شاء الله تعالى.

وجاء المؤذن فأذن للصلاة فقام وصلى فلما قضى صلاته طلب الرجل فلم يجده، فقال لصاحب الشرطة: علي بالرجل الساعة.

فخرج يتطلبه فوجده عند الركن اليماني فقال له: أجب أمير المؤمنين.

فقال: ليس إلى ذلك من سبيل.

فقال: إذن يضرب عنقي.

فقال: ولا إلى ضرب رقبتك من سبيل. ثم أخرج من مزود كان معه رقًا مكتوباً فقال له: خذه فإن فيه دعاء الفرج من دعا به صباحاً ومات من يومه مات شهيداً، ومن دعا به مساء ومات من ليلته مات شهيداً. وذكر له فضلاً عظيماً وثواباً جزيلاً. فأخذه صاحب الشرطة وأتى به المنصور فلما رآه قال له: ويلك أو تحسن السحر؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين. ثم قص عليه القصة، فأمر المنصور بنقله وأمر له بألف دينار، وهو هذا.

اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمك بما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك. وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر في علمك، وانقاد كل شيء لعظمتك، وخضع كل ذي سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك، اجعل لي من كل هم وغم أصبحت أو أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً. اللهم، إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك على قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستوجبه مما قصرت فيه، أدعوك آمناً وأسألك مستأنساً، فإنك أنت المحسن إليَّ وأنا المسيء

إلى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد إليَّ بالنعم وأتبغض إليك بالمعاصي، ولكن الثقة بك حملتني على الجراءة عليك، فجد بفضلك وإحسانك علي، إنك أنت الرؤوف الرحيم(١).

واحدة بواحدة والبادي أظلم:

وحدث عبد الله البلتاجي، قال: دخل ابن أبي ليلى على أبي جعفر المنصور، وكان ابن أبي ليلى قاضياً فقال أبو جعفر: إن القاضي يرد عليه. من ظرائف الناس ونوادرهم أمور، فإن كان ورد عليك شيء فحدثنيه، فقد طال علي يومي.

قال: والله يا أمير المؤمنين، قد ورد علي منذ ثلاثة أيام أمر ما ورد علي مثله. أتتني عجوز تكاد تنال الأرض بوجهها أو تسقط من انحنائها فقالت: أنا بالله وبالقاضي أن يأخذ لي بحقي وأن يعينني على خصمي.

قلت: ومن خصمك؟ قالت: ابنة أخ لي.

فدعوت بها فجاءت امرأة ضخمة ممتلئة شحمًا فجلست منبهرة. فذهبت العجوز تتظلم، فقالت الشابة: أصلح الله القاضي، مرها فلتسكت حتى أتكلم بحجتي وحجتها فإن لحنت بشيء فلترد علي، فإن أذنت لي أسفرت.

فقالت العجوز: إن أسفرت قضيت لها.

فقلت لها: أسفري، فأسفرت عن وجه والله ما ظننت أنه يكون مثله إلا في الجنة. فقالت: أصلح الله القاضي، هذه عمتي مات والدي وتركني يتيمة في حجرها فربتني فأحسنت التربية، حتى إذا بلغت مبلغ النساء قالت لي: يا بنت أخي، هل لك في التزويج؟ قلت: ما أكره ذلك يا عمة.

قالت العجوز: نعم.

قالت: فخطبني وجوه أهل الكوفة فلم ترض إلا رجلاً صيرفيًّا، فتزوجني، فكنا كأننا ريحانتان ما أظن أن الله خلق غيره يغدو إلى سوقه ويروح علي بما رزقه الله تعالى. فلما رأت العمة موقعه مني وموقعي

(١) الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٣٥.

منه حسدتنا على ذلك، وكانت لها ابنة فشوفتها وهيأتها لدخول زوجي، فوقعت عينه عليها، فقال: يا عمة هل لك أن تزوجيني ابنتك؟ قالت: نعم بشرط.

فقال لها: وما الشرط؟ قالت: تصير أمر ابنة أخي إلي.

قال: قد صيرت أمرها إليك.

قالت: فإني قد طلقتها ثلاثاً بتةً.

وزوجت ابنتها زوجي، فكان يغدو عليها ويروح، فقلت لها: يا عمتي أتأذنين لي أن أنتقل عنك؟ قالت: نعم.

فانتقلت عنها وكان لعمتي زوج غائب فقدم فلما توسط منزلها قال: ما لي لا أرى ربيبتنا؟ قالت: طلقها زوجها فانتقلت عنا.

فقال: إن لها من الحق علينا أن نعزيها بمصيبتها.

فلما بلغني مجيئه إلي تهيأت له وتشوفت. فلما دخل علي عزاني بمصيبتي، ثم قال: إن فيك بقيةً من الشباب؛ فهل لك أن أتزوج بك؟ قلت: ما أكره ذلك ولكن على شرط.

قال لي: وما الشرط؟ قلت: تصير أمر عمتي بيدي.

قال: فإني قد فعلت وصيرت أمرها بيدك.

قلت: فإني قد طلقتها ثلاثاً بتة.

قالت: فقدم علي بثقله من الغد ومعه ستة آلاف درهم فأقام عندي ما أقام، ثم إنه اعتل وتوفي فلما انقضت عدتي جاء زوجي الأول الصيرفي يعزيني بمصيبتي فلما بلغني مجيئه تهيأت وتشوفت له، فلما دخل علي قال لي: يا فلانة إنك تعلمين أنك كنت أعز الناس علي وأحبهم إلي، وقد حلت المراجعة، فهل لك في ذلك؟ قلت: ما أكره ذلك، ولكن اجعل أمر ابنة عمتي بيدي.

قال: فإني قد فعلت.

قلت: فإني قد طلقتها ثلاثاً بتةً، أصلح الله القاضي، فرجعت إلى زوجي فما اعتدائي عليها.

فقالت العجوز: أنا فعلت مرة، وفعلت مرة بعد أخرى.

فقلت: إن الله لم يوقت في هذا وقتاً، وقد قال تعالى:{وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ هُوَ} [الحج: ٦٠]. فواحدة بواحدة والبادي أظلم.

فقال القاضي: إن زوج العمة لم يكن له أن يتزوج ابنة أخيها وهي في عدته؛ فأرادت العجوز أن تتولى التفريق بينه وبينها استيفاء لها ومجازاة لها على فعلها، فقلت لها: قد فرقت بينكما، قومي إلى منزلك، انتهى[1].

ولكنكم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما نهاكم الله عنه فسلبكم العز وألبسكم الذل ونصر أعداءكم عليكم:

وذكر المنصور يوماً في مجلسه زوال ملك بني أمية وما جرى عليهم، وأنهم عاشوا سعداء وماتوا فقراء، فقال له إسماعيل بن علي الهاشمي: إن عبد الله بن مروان بن محمد في حبسك، وله قصة مع ملك النوبة. فأحضره واسأله عنها. فأحضره، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فقال المنصور: رد السلام أمن ولم تسمح نفسي بذلك، ولكن اقعد! فقعد، فقال: ما قصتك مع ملك النوبة؟

فقال: يا أمير المؤمنين، كنت ولي عهد أبي فلما طلبتنا دعوت عشرة من غلماني ودفعت لكل واحد ألف دينار وأوسقت خمس بغال وشددت في وسطي جوهراً له قيمة عظيمة وخرجت هارباً إلى بلاد النوبة، فلما قربنا بعثت غلاماً لي، فقلت له: امض إلى هذا الملك وأقرئه السلام وخذ لنا منه الأمان وابتغ لنا ميرة. فمضى وأبطأ حتى أسأت به الظن، ثم أقبل ومعه رجل فدخل وسلم وقال: الملك يقرئك السلام ويقول لك: من أنت وما جاء بك إلى بلادي؟ أمحارب، أم راغب في ديني، أم مستجير بي؟ فقلت له: رد على الملك، ما أنا بمحارب ولا راغب في دينك ولا ممن يبتغي بدينه بدلاً بل مستجير به.

فذهب الرسول ورجع إلي وقال: الملك يقول لك إني أجيء إليك غداً

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٣٦.

فلا تحدث نفسك حدثاً ولا شيئاً من الميرة.

فقلت لأصحابي: افرشوا الفراش، ففرش لي وجلست من الغد أرقبه، وإذا هو قد أقبل وعليه بردان قد ائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر، حافي الرجلين، ومعه عشرة معهم الحراب: ثلاثة يقدمونه وسبعة خلفه، فاستصغرت أمره وسولت لي نفسي قتله، فلما قرب إذا سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ قالوا: الخيل. فوافى بها عشرة آلاف عنان، ووافت الخيل عند دخوله فأحدقوا بنا، فلما دخل جلس على الأرض، قال: فقلت لترجمانه: لِمَ لمْ يقعد على الموضع الذي وطئ له؟ فسأله، فقال: قل له: إنه ملك وكل ملك حقه أن يكون متواضعاً لله وعظمته إذ رفعه الله على عباده.

ثم نكت بإصبعه الأرض طويلاً ورفع رأسه وقال: قل له كيف سلبتم هذا الملك، فأخذ منكم وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم؟ فقلت: جاء من هو أقرب منا قرابة إليه، فسلبنا وغلبنا وطردنا فخرجت إليك مستجيراً بالله، ثم بك.

قال: فلم كنتم تشربون الخمر وهو محرم عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا في ديننا وفي ملكنا من غير رأينا.

قال: فلم تركبون على الديباج وعلى خيولكم سروج الذهب والفضة وهي محرمة عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا في ديننا وفي ملكنا بغير رأينا.

قال: فلم كنتم إذا خرجتم إلى الصيد مررتم على القرى وكلفتم أهلها ما لا طاقة لهم به بالضرب والإهانة ولا يقنعكم ذلك حتى تحطموا زرعهم في طلب دراج قيمته نصف درهم، والتكليف والعناء محرم عليكم؟ قلت: فعل ذلك عبيد وغلمان وأتباع.

قال: لا! ولكنكم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما نهاكم الله عنه فسلبكم العز وألبسكم الذل ونصر أعداءكم عليكم، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد، وإني أخاف أن تنزل بك النقمة إذ كنت من الظلمة فتشملني معك، فإن النقمة إذا نزلت شملت، فاخرج بعد ثلاث، فإن وجدتك بعدها أخذت ما معك وقتلتك ومن معك.

ثم وثب قائماً وخرج وقمت ثلاثاً ورجعت إلى مصر فأخذني عاملك وبعث بي إليك، وها أنا ذا والموت أحب إلي من الحياة.

فرق له المنصور وهم بإطلاقه، فقال له إسماعيل بن علي: في عنقي بيعة هذا.

قال: فما ترى؟ قال: ينزل في دار من دورنا ويجري عليه ما يجري على مثله.ففعل به ذلك، انتهى [١].

بليّتان: المنصور والطاعون:

وخطب المنصور يوماً بالشام، فقال: أيها الناس ينبغي لكم أن تحمدوا الله تعالى على ما وهبكم في فإني منذ وليتكم صرف الله عنكم الطاعون الذي كان يجيئكم.

فقال أعرابي: إن الله أكرم من أن يجمعك أنت والطاعون علينا.

فاجلده ثمانين، واجلد الذي جاء به مائة:

ودخل ابن هرمة على المنصور وامتدحه، فقال له المنصور: سل حاجتك؟ قال: تكتب إلى عاملك بالمدينة إذا وجدني سكران لا يحدني.

فقال له المنصور: هذا حد لا سبيل إلى تركه.

فقال: ما لي حاجة غيرها.

فقال لكاتبه: اكتب إلى عاملنا بالمدينة من أتاك بابن هرمة وهو سكران فاجلده ثمانين، واجلد الذي جاء به مائة.

فكان الشرطة يمرون عليه وهو سكران ويقولون: من يشتري ثمانين بمائة، فيمرون عليه ويتركونه، انتهى [٢] .

الرجل الثبت الجنان:

وحدث أحمد بن موسى قال: ما رأيت رجلاً أثبت جناناً ولا أحسن معرفة ولا أظهر حجة من رجل رفع فيه عند المنصور بأن عنده أموالاً لبني أمية، فأمر المنصور حاجبه الربيع أن يحضره، فلما حضر بين

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٣٦.
(٢) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٣٦.

يديه. قال المنصور: رفع إلينا أن عندك ودائع وأموالاً وسلاحاً لبني أمية فأخرجها لنا لنجمع ذلك إلى بيت المال.

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، أنت وارث لبني أمية؟ قال: لا.

قال: فلِمَ تسأل إذن عما في يدي من أموال بني أمية ولست بوارث لهم ولا وصي.

فأطرق المنصور ساعة، ثم قال: إن بني أمية ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين.

فقال الرجل: يحتاج أمير المؤمنين إلى بينة يقبلها الحاكم تشهد أن المال الذي لبني أمية هو الذي في يدي وأنه هو الذي غصبوه من الناس. وأن أمير المؤمنين يعلم أن بني أمية كانت لهم أموال لأنفسهم غير أموال المسلمين التي اغتصبوها على ما يتهم أمير المؤمنين؟ قال: فسكت المنصور ساعة، ثم قال: يا ربيع، صدق الرجل ما يجب لنا على الرجل شيء، ثم قال للرجل: ألك حاجة؟ قال: نعم.

قال: ما هي؟ قال: أن تجمع بيني وبين من سعى في إليك فوالله يا أمير المؤمنين ما لبني أمية عندي مال ولا سلاح. وإنما أحضرت بين يديك وعلمت ما أنت فيه من العدل والإنصاف واتباع الحق واجتناب المظالم، فأيقنت أن الكلام الذي صدر مني هو أنجح وأصلح لما سألتني عنه.

فقال المنصور: يا ربيع، اجمع بينه وبين الذي سعى به فجمع بينهما. فقال: يا أمير المؤمنين، هذا أخذ لي خمسمائة دينار وهرب، ولي عليه مسطور شرعي.

فسأل المنصور الرجل فأقر بالمال. قال: فما حملك على السعي كاذباً؟ قال: أردت قتله ليخلص لي المال.

فقال الرجل: قد وهبتها له يا أمير المؤمنين، لأجل وقوفي بين يديك وحضوري مجلسك ووهبته خمسمائة دينار أخرى لكلامك لي.

فاستحسن المنصور فعله وأكرمه ورده إلى بلده مكرماً.

وكان المنصور كل وقت يقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ قط، ولا

أثبت من جنانه ولا من حجني مثله ولا رأيت مثل حمله ومروءته، انتهى[١].

كتاب المنصور:

ذكر أبو الحسن الماوردي: أن أبا جعفر المنصور بلغه عن جماعة من كتاب دواوينه أنهم زوروا فيها وغيروا، فأمر بإحضارهم، وتقدم بتأديبهم، فقال حدث منهم وهو يضرب:

أطال الله عمرك في صلاحٍ ::: وعزٍّ يا أمير المؤمنينا
بعفوك نستجير فإن تجرنا ::: فإنك عصمةٌ للعالمينا
ونحن الكاتبون وقد أسأنا ::: فهبنا للكرام الكاتبينا

فأمر بتخليتهم، ووصل الفتى وأحسن إليه[٢].

يا ربيع لا ينصرف من مقامه إلا بمائة ألف درهم:

قال خزيمة بن يحيى: قدم رجل من أهل الشام من بني مرة على أبي جعفر المنصور فتكلم معه كلاما حسنا فقال له أبو جعفر: حاجتك؟ فقال: يبقيك الله يا أمير المؤمنين. قال: حاجتك فإنه ليس كل ساعة يمكنك هذا ولا تؤمر به، فقال: والله ما أستقصر عمرك ولا أخاف بخلك ولا أغتنم مالك وإن سؤالك لشرف وإن عطاءك لزين وما بامرئ بذل وجهه إليك نقص ولا شين فقال أبو جعفر يا ربيع لا ينصرف من مقامه إلا بمائة ألف درهم فحملت معه[٣].

فلا نكافئ الا بالتي هي أحسن:

ولما مدح ابن هرمة أبا جعفر المنصور أمر له بألفي درهم فاستقلها وبلغ ذلك أبا جعفر فقال أما يرضى أني حقنت دمه وقد استوجب إراقته ووفرت ماله وقد استحق تلفه وأقررته وقد استأهل الطرد وقربته وقد استحق البعد أليس هو القائل في بني أمية

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٣٧، ٣٨.
(٢) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص ٦.
(٣) أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمالي في لغة العرب، نشر دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م، ٢٢٨/٣.

إذا قيل من عند ريب الزمان ::: لمعتز فهز ومحتاجها
ومن يعجل الخيل يوم الوغى ::: بإلجامها قبل إسراجها
أشارت نساء بني مالك ::: إليك به قبل أزواجها

قال ابن هرمة فإني قد قلت فيك أحسن من هذا، قال: هاته، قال: قلت:

اذا قلت أي فتى تعلمون ::: أهش إلى الطعن بالذابل
وأضرب للقرن يوم الوغى ::: وأطعم في الزمن الماحل
أشارت إليك أكف الورى ::: إشارة غرقي إلى ساحل

قال المنصور: أما هذا الشعر فمسترق وأما نحن فلا نكافئ إلا بالتي هي أحسن [(1)].

سياسة المنصور في العفو عن المسيء:

لما احتال أبو الأزهر بالمهلب بن عبيثر المهري لعبد الحميد بن ربعي بن خالد بن مغداق وأسلمه إلى حميد بن قحطبة وأسلمه حميد إلى المنصور قال: لا عذر فأعتذر وقد أحاط بي الذنب وأنت أولى بما ترى قال: لست أقتل أحدا من آل قحطبة، بل أهب مسيئهم إلى محسنهم وغادرهم لوفيهم قال: إن لم يكن في مصطنع فلا حاجة لي في الحياة ولست أرضى أن أكون طليق شفيع وعتيق ابن عم، قال: اسكت مقبوحا مشقوحا اخرج فإنك أنوك جاهل أنت عتيقهم وطليقهم ما حييت [(2)].

اخرج إلى لعنة الله وأليم عذابه:

وحدث صباح بن خاقان، قال: حدثني أبي أن أبا جعفر المنصور لما أتي برأس إبراهيم بن عبد الله، فوضع بين يديه، جاء بعض أولئك الرويدية، فضرب الرأس بعمودٍ كان في يده. فقال المنصور للمسيب: دق وجهه! فدق المسيب أنفه. ثم قال المنصور له: يا بن اللخناء! تجيء إلى رأس ابن عمي وقد صار إلى حال لا يدفع ولا ينفع تضر به بعمودك،

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨، ١/٥٥٦.
(٢) الجاحظ، البيان والتبيين، ١/٥٥٧.

كأنك رأيته وهو يريد نفسي، فدفعته عني. اخرج إلى لعنة الله وأليم عذابه.

تطأ بساطي، وتترحم على عدوي؟

ويقال إن أبا جعفر وجه إلى شيخ من أهل الشام، وكان من بطانة هشام، فسأله عن تدبير هشام في بعض حروبه الخوارج، فوصف له الشيخ ما دبر، فقال: فعل، رحمه الله، كذا، وضع، رحمه الله، كذا.

فقال المنصور: قم، عليك لعنة الله! تطأ بساطي، وتترحم على عدوي؟ فقام الرجل، فقال وهو مول: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقي، لا ينزعها إلا غاسلي. فقال له المنصور: ارجع، يا شيخ! فرجع. فقال له: أشهد أنك نهيض حرةٍ وغراس شريف! عد إلى حديثك! فعاد الشيخ إلى حديثه، حتى إذا فرغ، دعا له بمالٍ ليأخذه، فقال: والله يا أمير المؤمنين، ما بي من حاجةٍ إليه؟ ولقد مات عني من كنت في ذكره آنفاً، فما أحوجني إلى وقوفٍ على باب أحدٍ بعده. ولولا جلالة عز أمير المؤمنين، وإيثار طاعته، ما لبست لأحدٍ بعده نعمةً.

فقال المنصور: مت إذا شئت، فلله أنت! فلو لم يكن لقومك غيرك، لكنت قد أبقيت لهم مجداً مخلداً [1].

هذا الذي أراد أن يكون غدًا فصار بعد غد:

قال أبو عبد الله بن عرفة: لما هم أبو جعفر المنصور بالبيعة للمهدي، دخل عليه الحسن بن قحطبة فقال: يا أمير المؤمنين! ما تنتظر بالفتى المقبل المبارك، جدد له البيعة فما أحد ممتنع وراء هذا الستر، ومن أبى فهذا سيفي، وبلغ الخبر عيسى بن موسى(ولي العهد)، فقال: والله لئن ظفرت به لأشرب البارد، وبلغ الحسن بن قحطبة الخبر والمنصور فدخل الحسن بن قحطبة على المنصور وعنده عيسى بن موسى، فتمثل المنصور بقول جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ::: أبشر بطول سلامة يا مربع [2]

(١) الجاحظ،التاج في أخلاق الملوك، ٢٤/١.

(٢) مربع رجل من بني جعفر بن كلاب، كان يروي شعر جرير فنذر الفرزدق دمه، فقال

فلما خلع المنصور عيسى بن موسى من ولاية العهد مر في موكب، فقال إنسان: من هذا؟ فسمعه مخنث، فقال: هذا الذي أراد أن يكون غداً فصار بعد غد[1].

ذاك قاتل حبيبي:

قال أبو الفضل العباس بن الفضل الربعي: كان أبو جعفر المنصور في بعض أسفاره في أيام بني أمية تزوج امرأة من الأزد بالموصل عن ضر شديد أصابه حتى أكرى نفسه مع الملاحين يمد في الحبل، حتى انتهى إلى الموصل
أو فعل ذلك لأمر خافه على نفسه، فتنكر وأكرى نفسه في مدادي السفن، فخطب هذه المرأة ورغبها في نفسه، ووعدها ومناها وأخبرنا أنه نابه القدر، وأنه من أهل بيت شرف، وأنها إن تزوجته سعدت به، فلم يزل يمنيها بهذا وشبهه حتى أجابته وأقام معها، وكان يختلف في أسبابه ويجعل طريقه عليها بما رزقه الله عز وجل، ثم اشتملت على حمل، فقال لها: أيتها المرأة! هذه رقعة مختومة عندك لا تفتحيها حتى تضعي ما في بطنك، فإن ولدت ابناً فسميه جعفراً وكنيه أبا عبد الله، وإن ولدت بنتاً فسميها فلانة، وأنا عبد الله ابن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، فاستري أمري فإنا قوم مطلوبون، والسلطان إلينا سريع، وودعها وخرج، فقضي أنها ولدت ذكراً وأخرجت الرقعة وقرأت النسب فسمته جعفراً وضرب الدهر على ذلك ما تسمع له خبراً، ونشأ الصبي مع أخواله وأهل بيت أمه، وكان كيساً ذهناً لقناً واستخلف أبو العباس فقيل للمرأة: إن كنت صادقة في رقعتك وكان من كتبها صادقاً فإن زوجك الخليفة أمير المؤمنين، قالت: ما أدري صفوا لي صفة هذا الخليفة، قالوا: غلام حين اتصل وجهه، قالت: ليس هو هو، قيل: فاستري إذاً أمرك، ولم يلبث أبو العباس أن مات واستحق عندها اليأس، وأقبل ابنها على الأدب

جرير:

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ::: أبشر بطول سلامة يا مربعُ
إن الفرزدق قد تبين لؤمه ::: حيث التقى حشاؤه والأخدعُ

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٥٩/١.

فتأدب وظرف وكتب ونزعت به همته إلى بغداد، فدخل ديوان أبي أيوب كاتب المنصور، وانقطع إلى بعض أهله فأتى عليه زمان يتقوت الكتب ويتزيد في أدبه وفهمه وخطه، حتى بلغ أن صار يكتب بين يدي أبي أيوب، إلى أن تهيأ أن خرج خادم يوماً إلى الديوان يطلب كاتباً يكتب بين يدي المنصور، فقال أبو أيوب للغلام: خذ دواتك وقم واكتب بين يدي أمير المؤمنين، فدخل الغلام فكتب وكانت تتهيأ من أبي جعفر إليه النظرة بعد النظرة يتأمله، وألقيت عليه محبته واستجاد خطه واسترشق فهمه، فلبث زماناً لا يزال الخادم قد خرج فيقول: يا غلام خذ دواتك وقم واكتب بين يدي أمير المؤمنين، واستراح أبو أيوب إلى مكانه، ورأى أنه قد حمل عنه ثقلاً، وبر الغلام ووصله وكساه كسوة تصلح أن يدخل بها إلى أمير المؤمنين، ثم إن أبا جعفر قال للغلام يوماً: ما اسمك؟ قال: جعفر، قال: ابن من؟ فسكت متحيراً، قال: ابن من ويحك؟ قال: ابن عبد الله قال: فأين أبوك؟ قال: لم أره ولم أعرفه، ولكن أمي أخبرتني أن أبي شريف، وأن عندها رقعة بخطه فيها نسبه، عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، فساعة ذكر الرقعة تغير وجه المنصور، فقال: وأين أمك؟ قال: بالموصل، قال: وأين تنزلون؟ قال: في موضع كذا، قال: فتعرف فلاناً؟ قال: نعم هو إمام مسجد محلتنا، قال: أفتعرف فلاناً؟ قال: نعم بقال في سكتنا، فلما رأى الغلام أبا جعفر ينزع بأسماء قوم يعرفهم أدركته هيبة له، وجزع وتدمع، فأدركت أبا جعفر الرقة عليه فلم يتمالك أن قال: فلانة بنت فلان من هي منك؟ قال: أمي، قال: ففلانة؟ قال: خالتي، قال: ففلان؟ قال: خالي، فضمه إليه وبكى، وقال: يا غلام! لا يعلمن أبو أيوب ولا أحد من خلق الله تعالى ما دار بيني وبنيك، انظر انظر احذر احذر، فنهض الغلام فخرج، فقال له أبو أيوب لقد احتبست عند أمير المؤمنين، قال: كتبت كتباً كثيرة وأملها علي، قال: فأين هي؟ قال: جعلها نسخاً يتردد فيها حتى يحكمها ثم تخرج إلى الديوان ثم إن أبا جعفر جعل يقول في بعض الأيام لأبي أيوب: هذا الغلام الذي يكتب بين يدي كيس فاستوص به، قال: فاتهم أبو أيوب الغلام أنه يلقي إلى أبي جعفر

الشيء بعد الشيء من خبره، ثم لم يلبث أن سأله عنه مرة بعد مرة فقذف في قلب أبي أيوب بغض الغلام، وأنه يقوم مقامه إن فقده أبو جعفر، وقذف في قلبه أنه يسعى عليه وأنه يخرج أخباره، فجعل إذا خرج الخادم يطلب كاتباً بعث معه غيره وأبو جعفر يزداد ولهاً إلى الغلام ويجن جنوناً وليس يمنعه من إدنائه وإظهار أمره إلا لأمر يريده، فلما رأى أن أبا أيوب يحبسه عنه عناداً، قال للخادم: اخرج إلى الديوان فجئني بفلان الغلام الذي كان يكتب بين يدي، فإن بعث معك أبو أيوب بغيره فقل:

لا، أمرني أمير المؤمنين ألا يدخل عليه غيره، ففعل الخادم ذلك فاستحق في قلب أبي أيوب ما حذره وحدثته به نفسه، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين - جعلني الله فداك - قد تعرفت من أبي أيوب البغض والاستثقال بمكاني، وله غوائل لا يحيط بها علمي وأنا أخافه على نفسي، فقال له أبو جعفر: بارك الله عليك، فما أخطأت الذي في نفسي وهذا كله يا بني قد جال في صدري، فإذا كان غد فتعرض لأن يغلظ لك، فإذا أغلظ فقم فانصرف كأنك مغضب، ولا تعد إلى الديوان واجعل وجهك إلى أمك، وأوصل إليها هذا العقد وهذا الكيس وكتابي هذا، واحمل أمك ومن اتبعها من قرابتك وأقبل فانزل موضع كذا، فإني منفذ إليك خادماً يتفقد أمورك ويعرف خبرك، ولا تطلعن أحداً من الخلق طلع ما معك، وامض بهذا المال وبهذا العقد وأحرزه أولاً قبل رجوعك إلى الديوان، ثم قال للخادم: أخرجه من باب كذا وكذا، فخرج الغلام فأحرز ما كان معه ثم رجع إلى الديوان، وأبو أيوب في فكره من احتباسه عند المنصور، ورجع الغلام بوجه بهج مسرور لا يخفي ذلك عليه وظهور الفرح في وجهه وشمائله، فقال أبو أيوب: أحلف بالله لقد رجع هذا الغلام بغير الوجه الذي مضى به، ولقد دار بينه وبين أمير المؤمنين من ذكرى ما سره، واستشعر الوحشة منه وصرف أكثر عمله عنه، ثم لم يلبث أن أغلظ له، فقال الغلام: أنا إنسان غريب أطلب الرزق وأنت تستخف بي، فكأني قد ثقلت عليك فأنتحي عنك قبل أن تطردني، ثم قام فانصرف وافتقده أبو أيوب أياماً، ورأى أن أبا جعفر لا يسأل عنه ولا يذكره، ثم إن نفس أبي أيوب نازعته إلى علم حقيقة خبره، فأرسل من يسأل عنه في الموضع الذي كان

نازلاً فيه، فقيل له: إنه قد تهيأ للسفر وتجهز جهازاً حسناً وشخص إلى أهله بالموصل، فقال أبو أيوب في نفسه: ومن أين له ما يتجهز به، وكم مبلغ ما ارتزق معي وارتفق به؟ لهذا الأمر نبأ، وجعلت نفسه تزداد وحشة منه ومن خبره إلى أن قيل له: قد كان أبو جعفر وصله بمال ووهب له شيئاً، فقال في نفسه: هذا الذي ظننت وقد ربصه لمكاني وينبغي أن يكون استأذنه في أن يخرج إلى أهله فيلم بهم ثم يرجع إليه فيقلده مكاني، فقال لرجل من أصحابه: اخرج إلى طريق الموصل قرية قرية براً وبحراً، فإذا عرفت موضعه فاقتله وجئني بما معه، فشخص وتهيأ، ثم إن الغلام لما خرج عن بغداد رأى أنه قد أمن فقصر في مسيره، وكان يقيم في الموضع فيستطيبه اليوم واليومين والأكثر والأقل، فلحقه رسول أبي أيوب وعرفه، فباتا بقرية فقام إليه الرسول فخنقه وطرحه في البئر وأخذ خرجه وخرائط كانت معه، وركب دابة له ورجع إلى أبي أيوب وسلم ذلك إليه وشرح الخبر له، ففتش متاعه أبو أيوب فإذا المال والعقد فعرفه، وإذا كتاب المنصور بخطه إلى أمه فوجم أبو أيوب وندم وعلم أنه قد عجل وأخطأ، وأن الخبر لم يكن كما ظن، وعزم على الحلف والمكابرة إن عثر على شيء من أمره، وأبطأ خبر الغلام على أبي جعفر، واستبطأه في الوقت الذي ضرب له، فدعا خادماً من ثقاته ورجلاً من خاصته، فقال لهما: استقرئا المنازل إلى الموصل منزلاً منزلاً وقرية قرية، وأعطيا صفة الغلام حتى تدخلا الموصل، ثم اقصدا موضع كذا من الموصل فسلا عن فلانة، ووصف لهما كل ما أراد ففعلا، فلما انتهيا إلى الموضع الذي أصيب فيه الغلام أعلما خبره، وذكروا الوقت الذي أصيب فيه فإذا التاريخ بعينه، ثم مضيا إلى الموصل فسألا عن أمه فوجداها أشد خلق الله تعالى ولهاً إلى ابنها، وحاجة إلى علم خبره، فأطلعاها طلع حاله، وأمراها أن تستر أمرها، ثم رجعا إلى أبي جعفر بجملة خبره، فكادت أمه أن تقتل نفسها ولم ترد الدنيا بعده، وكان المنصور يذكره فيكاد ذكره يصدع قلبه، وأجمع أبو جعفر على الإيقاع بأبي أيوب عند ذلك، فاستصفى ماله ومال أهل بيته، ثم قتلهم جميعاً وأباد عصراءهم، وكان إذا ذكر أبا أيوب لعنه وسبه، وقال: ذاك قاتل حبيبي، أمرني أمير المؤمنين

ألا يدخل عليه غيره، ففعل الخادم ذلك فاستحق في قلب أبي أيوب ما حذره وحدثته به نفسه، فقال الغلام: يا أمير المؤمنين - جعلني الله فداك - قد تعرفت من أبي أيوب البغض والاستثقال بمكاني، وله غوائل لا يحيط بها علمي وأنا أخافه على نفسي، فقال له أبو جعفر: بارك الله عليك، فما أخطأت الذي في نفسي وهذا كله يا بني قد جال في صدري، فإذا كان غد فتعرض لأن يغلظ لك، فإذا أغلظ فقم فانصرف كأنك مغضب، ولا تعد إلى الديوان واجعل وجهك إلى أمك، وأوصل إليها هذا العقد وهذا الكيس وكتابي هذا، واحمل أمك ومن اتبعها من قرابتك وأقبل فانزل موضع كذا، فإني منفذ إليك خادماً يتفقد أمورك ويعرف خبرك، ولا تطلعن أحداً من الخلق طلع ما معك، وامض بهذا المال وبهذا العقد وأحرزه أولاً قبل رجوعك إلى الديوان، ثم قال للخادم: أخرجه من باب كذا وكذا، فخرج الغلام فأحرز ما كان معه ثم رجع إلى الديوان، وأبو أيوب في فكره من احتباسه عند المنصور، ورجع الغلام بوجه بهج مسرور لا يخفي ذلك عليه وظهور الفرح في وجهه وشمائله، فقال أبو أيوب: أحلف بالله لقد رجع هذا الغلام بغير الوجه الذي مضى به، ولقد دار بينه وبين أمير المؤمنين من ذكرى ما سره، واستشعر الوحشة منه وصرف أكثر عمله عنه، ثم لم يلبث أن أغلظ له، فقال الغلام: أنا إنسان غريب أطلب الرزق وأنت تستخف بي، فكأني قد ثقلت عليك فأنتحي عنك قبل أن تطردني، ثم قام فانصرف وافتقده أبو أيوب أياماً، ورأى أن أبا جعفر لا يسأل عنه ولا يذكره، ثم إن نفس أبي أيوب نازعته إلى علم حقيقة خبره، فأرسل من يسأل عنه في الموضع الذي كان نازلاً فيه، فقيل له: إنه قد تهيأ للسفر وتجهز جهازاً حسناً وشخص إلى أهله بالموصل، فقال أبو أيوب في نفسه: ومن أين له ما يتجهز به، وكم مبلغ ما ارتزق معي وارتفق به؟ لهذا الأمر نبأ، وجعلت نفسه تزداد وحشة منه ومن خبره إلى أن قيل له: قد كان أبو جعفر وصله بمال ووهب له شيئاً، فقال في نفسه: هذا الذي ظننت وقد ربصه لمكاني وينبغي أن يكون استأذنه في أن يخرج إلى أهله فيلم بهم ثم يرجع إليه فيقلده مكاني، فقال لرجل من أصحابه: اخرج إلى طريق الموصل قرية قرية برًّا وبحرًا، فإذا عرفت موضعه فاقتله وجئني

بما معه، فشخص وتهيأ، ثم إن الغلام لما خرج عن بغداد رأى أنه قد أمن فقصر في مسيره، وكان يقيم في الموضع فيستطيبه اليوم واليومين والأكثر والأقل، فلحقه رسول أبي أيوب وعرفه، فباتا بقرية فقام إليه الرسول فخنقه وطرحه في البئر وأخذ خرجه وخرائط كانت معه، وركب دابة له ورجع إلى أبي أيوب وسلم ذلك إليه وشرح الخبر له، ففتش متاعه أبو أيوب فإذا المال والعقد فعرفه، وإذا كتاب المنصور بخطه إلى أمه فوجم أبو أيوب وندم وعلم أنه قد عجل وأخطأ، وأن الخبر لم يكن كما ظن، وعزم على الحلف والمكابرة إن عثر على شيء من أمره، وأبطأ خبر الغلام على أبي جعفر، واستبطأه في الوقت الذي ضرب له، فدعا خادماً من ثقاته ورجلاً من خاصته، فقال لهما: استقرئا المنازل إلى الموصل منزلاً منزلاً وقرية قرية، وأعطيا صفة الغلام حتى تدخلا الموصل، ثم اقصدا موضع كذا من الموصل فسلا عن فلانة، ووصف لهما كل ما أراد ففعلا، فلما انتهيا إلى الموضع الذي أصيب فيه الغلام أعلما خبره، وذكروا الوقت الذي أصيب فيه فإذا التاريخ بعينه، ثم مضيا إلى الموصل فسألا عن أمه فوجداها أشد خلق الله تعالى ولهاً إلى ابنها، وحاجة إلى علم خبره، فأطلعاها طلع حاله، وأمراها أن تستر أمرها، ثم رجعا إلى أبي جعفر بجملة خبره، فكادت أمه أن تقتل نفسها ولم ترد الدنيا بعده، وكان المنصور يذكره فيكاد ذكره يصدع قلبه، وأجمع أبو جعفر على الإيقاع بأبي أيوب عند ذلك، فاستصفى ماله ومال أهل بيته، ثم قتلهم جميعاً وأباد عصراءهم، وكان إذا ذكر أبا أيوب لعنه وسبه، وقال: ذاك قاتل حبيبي(١).

المتفضل جاوز حد المنصف:

حدث الأصمعي:أن أبا جعفر المنصور حين عفا عن أهل الشام، قال له رجلٌ، يا أمير المؤمنين! الانتقام عدلٌ والتجاوز فضل، والمتفضل قد جاوز حد المنصف، فنحن نعيذ أمير المؤمنين بالله عز وجل من أن

(١) الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص ١٠٦.

يرضى لنفسه بأوكس النصيبين، وألا يرتفع إلى أعلى الدرجتين[١].

ولد لأبي دلامة ابنة:

قال حدثني محمد بن حفص المعجلي: ولد لأبي دلامة ابنة فغدا على أبي جعفر المنصور فقال له: يا أمير المؤمنين إنه ولد لي الليلة ابنة، قال: فما سميتها؟ قال: أم دلامٍ. قال: وأي شيء تريد؟ قال: أريد أن يعينني عليها أمير المؤمنين، ثم أنشده:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ::: قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس
ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكم ::: إلى السماء فأنتم أكرم الناس

قال: فهل قلت فيها شيئاً؟ قال: نعم، قلت:

فما ولدتك مريم أم عيسى ::: ولم يكفلك لقمان الحكيم
ولكن قد تضمك أم سوءٍ ::: إلى لباتها وأب لئيم

قال: فضحك أبو جعفر، ثم أخرج أبو دلامة خريطةً من خرق فقال: ما هذه؟ قال: يا أمير المؤمنين أجعل فيها ما تحبوني به، فقال: املؤوها له دراهم فوسعت ألفي درهم[٢].

والله لَـتَلِيَنَّ الخِلافة أو أكون جاهلاً أو كذاباً:

يزعمون أنَّ أبا جعفر المنصور نزلَ في بعض القُرَى فقرض الفأرُ مِسْحاً له كان يجلسُ عليه فبعث به ليُرفَأ فقال لهم الرفَّاء: إنَّ هنا أهل بيتٍ يَعْرفون بقَرض الفأر ما ينال صاحب المتاع من خير أو شر فلا عليكم أن تعرضوه عليهم قبل أن تصلحوه فبعث المنصورُ إلى شيخهم فلما وقعت عينُه على موضع القرضِ وثَب وقام قائماً ثم قال: مَن صاحبُ هذا المِسح فقال المنصور: أنا فقام ثم قال: السلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمة الله وبركاته والله لَتَلِيَنَّ الخِلافة أو أكون جاهلاً أو كذاباً [٣].

ثم رجع إلى موضعه من الخطبة:

(١) المعافى بن زكريا،الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١٤٢/١.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٩٧/١.
(٣) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ٣٠٤/٥.

ومن حديث زياد عن مالك بن أنس قال: خطب أبو جعفر المنصور، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس اتقوا الله. فقام إليه رجل من عرض الناس، فقال: أذكرك الله الذي ذكرتنا به يا أمير المؤمنين. فأجابه أبو جعفر بلا فكرة ولا روية: سمعاً وطاعة لمن ذكر بالله، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه فتأخذني العزة بالإثم، فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين وأما أنت، فوالله ما الله أردت بها، ولكن ليقال: قال فعوقب فصبر، وأهون بها لو كانت، وأنا أحذركم أيها الناس أختها، فإن الموعظة علينا نزلت، ومنا أخذت. ثم رجع إلى موضعه من الخطبة[1].

أخشى أن تكتب بها معصية الله فأكون شريكك فيها:

عن مالك بن أنس قال: بعث أبو جعفر المنصور إلي وإلى ابن طاوس، فأتيناه فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فرش قد نضدت، وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلاوزة بأيديهم السيوف يضربون الأعناق. فأموا إلينا: أن اجلسا. فجلسنا. فأطرق عنا طويلاً، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس، فقال له: حدثني عن أبيك. قال: نعم، سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: **إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله**﴾. فأمسك ساعة. قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه. ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عظني يا بن طاوس. قال: نعم يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى يقول:{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾} [الفجر: ٦ - ١٤]. قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأ ثيابي من دمه. فأمسك ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه. ثم قال: يا بن طاوس، ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه، ثم قال: ناولني هذه الدواة: فأمسك عنه. فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بها معصية الله فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قومًا عني قال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي منذ

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١/١٥.

اليوم.

قال مالك: فما زلت أعرف لا بن طاوس فضله [١].

فقد أعيتني فيك الحيلة:

قال إبراهيم بن أحمد عن الشيباني: كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل مستتراً، فكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث. فلما أفضت الخلافة إليه، قدم عليه أزهر، فرحب به وقربه، وقال له ما حاجتك يا أزهر؟ قال: داري متهدمة، وعلي أربعة آلاف درهم، وأريد أن يبني محمد ابني بعياله، فوصله باثني عشر ألفاً، وقال. قد قضينا حاجتك يا أزهر، فلا تأتنا طالباً: فأخذها وارتحل. فلما كان بعد سنة أتاه. فلما رآه أبو جعفر، قال: ما جاء بك يا أزهر؟ قال جئتك مسلماً. قال: إنه يقع في خلد أمير المؤمنين أنك جئت طالباً. قال: ما جئت إلا مسلماً. قال: قد أمرنا لك باثني عشر ألفاً، واذهب فلا تأتنا طالباً ولا مسلماً. فأخذها ومضى. فلما كان بعد سنة أتاه، فقال: ما جاء بك يا أزهر؟ قال: أتيت عائداً. قال: إنه يقع في خلد أمير المؤمنين أنك جئت طالباً. قال: ما جئت إلا عائداً قال أمرنا لك باثني عشر ألفاً فاذهب ولا تأتنا لا طالباً ولا مسلماً ولا عائداً، فأخذها وانصرف. فلما مضت السنة أقبل، فقال له: ما جاء بك يا أزهر؟ قال: دعاء كنت أسمعك تدعو به يا أمير المؤمنين، جئت لأكتبه. فضحك أبو جعفر وقال: إنه دعاء غير مستجاب، وذلك أني قد دعوت الله تعالى به أن لا أراك، فلم يستجب لي، وقد أمرنا لك باثني عشر ألفاً، فاذهب وتعال متى شئت، فقد أعيتني فيك الحيلة [٢].

كيف ذلك؟ ويلك!:

ودخل أبو دلامة على أبي جعفر المنصور يوماً وعليه قلنسوة طويلة - وكان قد أخذ أصحابه بلبسها وأخذهم بلبس دراريع عليها مكتوب بين كتفي الرجل:{فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} [البقرة: ١٣٧]، وأمرهم بتعليق السيوف على أوساطهم - فدخل عليه أبو دلامة في ذلك

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١٦/١.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٧٢/١.

الزي، فقال له: كيف أصبحت أبا دلامة؟ قال: بشر حال يا أمير المؤمنين. قال: كيف ذلك؟ ويلك! قال: وما ظنك يا أمير المؤمنين بمن أصبح وجهه في وسطه، وسيفه في أسته، وقد نبذ كتاب الله عز وجل وراء ظهره. قال: فضحك أبو جعفر، وأمر بتغيير ذلك، وأمر لأبي دلامة بصلة (١).

لكن واللهّ لأتركن في مرضاتك الدُّنيا والآخرة:

محمد بن يزيد قال: أكل قائدٌ لأبي جعفر المنصور معه يوماً، وكان على المائدة محمدٌ المهديّ وصالحٌ ابناه، فبينا الرجلُ يأكل من ثَريدة بين أيديهم إذ سَقط بعضُ الطعام من فيه في الغَضَّارة، وكأن المهديّ وأخاه عافَا الأكل معه، فأخذ أبو جعفر الطّعام الذي سَقط من فم الرجل فأكله. فالتفتَ إليه الرجلُ، فقال: يا أميرَ المؤمنين أمّا الدُّنيا فهي أقلُّ وأيسر من أن أتركها لك، لكن والله لأتركن في مرضاتك الدُّنيا والآخرة(٢).

فأُحِب منك أن تُعَلِّمَنيه:

قال أبو الحسن المدائنيّ: لما حَجّ أبو جَعْفر المنصور مَر بالمدينة فقال للرَّبيع: عليَّ بجعفر بن مُحمد، قتلني الله إن لم أقتله. فمُطِل به، ثم ألَحَ فيه، فحَضر. فلما كُشِف السِّتْر بينه وبينه ومَثَّل بين يدَيْه، هَمَس جعفر بشَفَتيه، ثم تقَرَب وسلَم؛ فقال: لا سلَم اللهّ عليك يا عدو الله، تُعْمِل على الغوائلَ في مُلْكِي، قَتلني الله إن لم أقتُلك. فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إن سُليمان أعْطِيَ فشكر، وإن أيوب ابتلِيَ فَصَبَر، وإن يوسف ظُلِم فَغَفَر، وأنت على إرْثٍ منهم وأحَقُّ من تأسَّى بهم، فنكس أبو جعفر رأسه مَلِيًّا ثم رفع إليه رأسه وقال: إلي يا أبا عبد الله، فأنتَ القريبُ القرابة، وإنك ذو الرَّحم الواشِجة، السَّليم الناحية، القَليل الغائلة، ثم صافحه بيَمينه وعانقه بيَساره وأجْلسه معه على فِراشه وانحرف له عن بَعْضه وأقبل عليه بوَجْهه يُسائله ويُحادثه، ثم قال: عجلوا لأبي عبد الله إذنه وكُسْوته وجائزته. قال الرّبيع: فلما خرج وأسْدل الستر أمسكتُ بثَوْبه فارتاع، وقال: ما أرانا يا ربيع إلا قد حُبِسنا؟ قلتُ: هذه منِّي لا مِنْه؛ قال: فذلك أيْسر، قلْ حاجتَك؟

(١) المصدر السابق، ٧٤/١.
(٢) المصدر السابق، ٢٤١/١.

قلت: إنّي منذ ثلاثٍ أدافع عنك وأدَاري عليك، ورأيتُك إذ دخلتَ هَمَسْت بِشَفَتيك، ثم رأيتُ الأمرَ انجلى عنك، وأنا خادم سُلطان ولا غِنى بي عنه، فأحِب منك أن تُعلّمَنيه؛ قال: نعم، قُل: اللهم احرسني بعَيْنك التي لا تنام، واكنُفْني بكنَفَك الذي لا يُرام، ولا أهْلِك وأنت رجائي، فكم من نِعمة أنْعَمْتها عليّ قَلّ عندها شكْري فلم تَحْرِمْني، وكم من بليَّة ابتليتني بها قلّ عندها صبري فلم تَخْذُلني، اللهم بك أدْرأ في نحْره، وأعوذ بخيْرك من شرِّه[1].

بيت يلعب به الصبيان:

سأل أبو جعفر المنصور أبا دلامة فقال: أي بيت قالته العرب أشعر؟ قال: بيت يلعب به الصبيان، قال: وما هو ذلك؟ قال: قول الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ::: وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل[2]

احتيال المنصور:

قال أبو بديل بن حبيب: كنا إذا خرجنا من عند أبي جعفر المنصور صرنا إلى المهدي وهو يومئذٍ ولي عهد، ففعلنا ذلك يوماً فأبرز لي المنصور يده فانكببت عليها فقبلتها، فضرب يدي بيده، فعلمت أنه لم يفعل ذلك إلا لشيء في يده، فوضع في يدي كتاباً صغيراً تستره الكف، فلما خرجت قرأت الكتاب فإذا فيه: إذا قرأت كتابي هذا فاستأذن إلى ضياعك بالري، فرجعت فاستأذنت فقلت: يا أمير المؤمنين ضياعي بالري قد اختلت ولي حاجة إلى مطالعتها. فقال: لا ولا كرامة، فخرجت ثم عدت إليه اليوم الثاني فكلمته، فردّ عليّ مثل الجواب الأول، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما أردت صلاحها لأقوى بها على خدمتك، فقال: إذا شئت، فقلت: يا أمير المؤمنين فلي حاجة أذكرها. قال: قلت: أحتاج إلى خلوة، فنهض القوم وبقي الربيع، فقلت أحلني، قال: ومن الربيع؟ قلت نعم، فتنحى الربيع فقال: إن جدت لي بدمك ومالك، فقلت: يا أمير المؤمنين وهل أنا ومالي إلا من نعمتك؟ حقنت دمي ورددت علي مالي وآثرتني

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٣٣٨/١.
(٢) ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ١١٥/١.

بصحبتك، فقال: إنه يهجس في نفسي أن المرار بن جهور على خلعي وليس لي غيرك لما أعرف بينكما فاظهر إذا صرت إليه الوقيعة فيّ والتنقص لي حتى تعرف ما عنده فإذا رأيته يهمّ بخلعي فاكتب إليّ ولا تكتبن على بريد ولا مع رسول ولا يفوتني خبرك في كل يوم فقد نصبت لك فلاناً القطان في دار القطن فهو يوصل كتبك، قال: فمضيت حتى أتيت الري فدخلت على مرّار فقال: أفلتّ؟ قلت: نعم والحمد لله، ثم أقبلت أؤنسه بالوقيعة في المنصور حتى أظهر ما كان المنصور ظن به، فكتبت إليه بذلك، فلما وصلت منه إلى ما أردت أتيت ضياعي ثم رجعت إليه بعد أيام، فقال: نجّاك الله من الفاجر؟ قلت: نعم، وأرجو أن تقع عينه عليّ أبداً، فكنت أعرّض به فيزيدني مما عنده، ثم قال لي: هل لك أن تخرج إلى متنزه طيب؟ قلت: نعم، فخرجت أنا وهو نتساير حتى صرنا إلى موضع مشرف قد بنيت له عليه قبة، فأحدّ النظر إلى ما هناك ثم قال: يا أبا بديل أترى الفاجر يظن أني أعطيه طاعة أبداً ما عشت؟ اشهد أني قد خلعته كما خلعت خفّي هذا من رجلي! قال: فرجعت إلى منزلي وأنا في كل يوم أكتب بخبره، قال: وقد كنت أعددت تسعة فرسان من بني يربوع ورجلاً من بني أسد فواطأتهم أن نبطش به وكتبت إلى المصمغان أن يأتيه في جنده إلى الموضع الذي اتفقنا عليه، قال: وأخذ المرّار الدواء في ذلك اليوم، وسبق إليه الأسدي بالخبر وقال: احذر فقد اتخذ لك كيت وكيت، قال: فدخلت عليه فإذا هو على كرسي، فعرفت الشر في وجهه والمنكر في نظره، فقال: هيه يا أبا بديل مع إكرامي لك أردت أن تقتلني؟ قال فتضاحكت وقلت: بلغ من مكره أن دس إليك هذا الأسدي، لقد علمت فيك حيلته! ثم حرّكه بطنه فقام إلى الخلاء وقال: لا ترم، فلما ولى وثبت وخرجت مسرعاً، فقال الحاجب: أسرعت. قلت: نعم في حاجة للأمير، وركبت فرسي فرأيت القوم قد وافوا كلهم إلا الأسدي، فعلمت أنه صاحبي، فلما خرج سأل عني فأخبر بمضييّ، فوجّه خيلاً في طلبي، فمال اليربوعيون فدفعهم، ومضيت حتى صرت إلى المصمغان وكتبت إلى أبي جعفر المنصور كتاباً مكشوفاً، فكتب: إني قد عرفت ما وصفته

وقد صح الأمر، ثم كتب إلى خازم بن خزيمة فصار إليه حتى أخذه[١].

ما تصنيعن بهذا؟

قال عليّ بن بريهة الهاشمي: قال صاحب عذاب أبي جعفر: دعاني أبو جعفر المنصور ذات يوم وإذا بين يديه جارية صفراء وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك اصدقيني فوالله ما أريد إلا الألفة ولئن صدقتني لأصلن الرحم ولأتابعن البرّ إليه، وإذا هو يسائلها عن محمد بن عبد الله [٢] وهي تقول: ما أعرف مكانه، ودعا بالدَّهق [٣] وأمر به فوضع عليها فلما كادت نفسها أن تتلف قال: امسكوا عنها، وكره ما رأى وقال لأصحاب العذاب: ما دواء مثلها إذا صار إلى مثل حالها؟ قالوا: الطيب تشمه والماء البارد يصب على وجهها وتسقى السويق، فأمر لها بذلك وعالج بعضه بيده وقال لأصحاب العذاب: ألا أعلمتموني بما ينالها فأكف عنها؟ قالوا: قد علمنا أنها لا تقوى على هذا ولكنا هبناك، فما زالوا يردون عليها نفسها حتى أفاقت، وأعاد عليها المسألة فأبت إلا الجحود، فقال لها: أتعرفين فلانة الحجامة؟ فاسود وجهها وتغيرت، فقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك في بني سليم، قال: صدقت، هي والله أمتي ابتعتها بمالي ورزقي يجري عليها في كل شهر وكسوة شتائها وصيفها، أمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتتعرف أخباركم، ثم قال: أوتعرفين فلاناً البقال؟ قالت: نعم هو في بني فلان، قال: هو والله مضاربي بخمسة دنانير أمرته أن يبتاع بها كل ما يحتاج إليه من البيوع فأخبرني أن أمةً لكم يوم كذا وكذا من شهر كذا صلاة المغرب جاءت تسأله حناء وورقاً، فقال لها: ما تصنيعن بهذا؟ فقالت: كان محمد بن عبد الله في بعض ضياعه بناحية البقيع وهو يدخل الليلة فأردنا هذا لتتخذ منه النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب، فأسقط في يدها وأذعنت بكل ما أراد.

فالحمد لله الذي جعل منايانا جهاداً ولم يجعلها مهاداً:

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص ٧١.
(٢) وكان قد خرج عليه.
(٣) من أدوات التعذيب في السجون العباسية.

قيل: وإن أبا جعفر كتب في حمل عبد الله بن الحسن وأهل بيته من المدينة إلى حضرته، فلما أُخرجوا كثر عليهم البكاء، فقال عبد الله: أفيقوا من البكاء وأوغلوا في الدعاء، فإني أشهد الله على ما أردت من إحياء الحق وإماتة الباطل، فجرى القدر بما جرى، فجدي الحسن والحسين قتلا بسم وسيف، فالحمد لله الذي جعل منايانا جهاداً ولم يجعلها مهاداً (١).

إني شهدت تسعة عساكر كلها هزمت:

حدثني أبو مالك عبد الله بن محمد قال: لما توفي أبو العباس السفاح دخل أبو دلامة على أبي جعفر المنصور والناس عنده يعزونه فقال: يا أمير المؤمنين كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريض فلم أقبضها. فقال المنصور للخازن: ادفعها إليه وسيره إلى هذا الطاغية، يعني عبد الله بن عليّ. فقال أبو دلامة: يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن أخرج معهم فإني والله مشؤوم! فقال: لعله يغلب شؤمك فاخرج مع العسكر. فقال: والله ما أحب لك يا أمير المؤمنين أن تجرّب ذلك فإني لا أدري على أي الفريقين يكون.

فقال أبو جعفر: دعني من هذا ما نريد غير المسير. فقال: يا أمير المؤمنين والله لأصدقنك، إني شهدت تسعة عساكر كلها هزمت فأنا أعيذك بالله أن تكون العاشر. فاستفرغ أبو جعفر ضحكاً وأمره أن يتخلف(٢).

هكذا ينبغي أن تكون نساؤهم:

حدثنا الزبير بن بكار قال: حدثني عثمان بن عبد الرحمن، قال: عرضت عاتكة بنت عبد الملك بن الحارث المخزومية أم أدريس وسليمان وعيسى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام لأبي جعفر المنصور وقد وافى حاجاً، فصاحت يا أمير المؤمنين احمل عني كلك أو أعني على حمله لك معي بنو عبد الله بن الحسن صبية صغار لا مال لهم، وأنا امرأة لست بذات مال، فأناشدك الله أن نفارق احتمال ما

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص ٧٢.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٢٠٩/١.

يلزمك احتماله منهم عوناً لهم إلى أطراحهم فإني خائفة عليهم إن فعلت أن يضيعوا فقال: يا ربيع، من هذه؟ فنسبها له، فقال: هكذا ينبغي أن تكون نساؤهم، وأمر برد ضياع أبيهم وأمر لها بألف دينار[1].

لا تغضب لله بما يغضب الله:

شهد سوَّار القاضي مجلس أبي جعفر المنصور يوماً فرآه قد غضب على أهل البصرة، فقال له: يا أمير المؤمنين! لا تغضب لله بما يغضب الله [2].

عظني وأوجز:

قال شبيب بن شيبة: قال لي أبو جعفر المنصور - وكنت من سماره - عظني وأوجز. قال: فقلت يا أمير المؤمنين! إن الله لم يجعل فوقك أحداً من خلقه؛ فلا ترض من نفسك بأن يكون عبد هو أشكر منك. قال: والله لقد أوجزت وما قصرت. قلت: والله لئن كنت قصرت فما بلغت كنه النعمة فيك [3].

أبو جعفر المنصور والربيع:

وقال سعيد بن مسلم بن قتيبة: دعا المنصور بالربيع فقال: سلني ما تريد. فقد سكت حتى نطقت وخففت حتى ثقلت وقللت حتى أكثرت، فقال والله يا أمير المؤمنين: ما أرهب بخلك، ولا أستقصر عمرك، ولا أستصغر فضلك، ولا أغتنم مالك، وإن يومى بفضلك على أحسن من أمسى، وغدك في تأميلى أحسن من يومي، ولو جاز أن يشكرك مثلي بغير الخدمة والمناصحة لما سبقني لذلك أحد. قال: صدقت علمي بهذا منك أحلك هذا المحل، فسلني ما شئت قال: أسألك أن تقرب عبدك الفضل وتؤثره وتحبه، قال: يا ربيع، إن الحب ليس بمال يوهب، ولا رتبة تبذل، وإنما تؤكده الأسباب.قال: فاجعل لى طريقا إليه بالتفضل عليه، قال: صدقت، وقد وصلته بألف درهم، ولم أصل بها أحدا غير عمومتى لتعلم

(١) ابن طيفور، بلاغات النساء، ٦٥/١.
(٢) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ٨١/١.
(٣) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ٢٢٧/١.

ماله عندى فيكون منه ما يستدعى به محبتى، قال: فكيف سألت له المحبة يا ربيع؟ قال: لأنها مفتاح كل خير، ومغلاق كل شر تستر بها عندك عيوبه وتصير حسنات ذنوبه قال صدقت [(١)].

فاحذر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده:

دخل عمرو بن عبيد على المنصور بعد ما بايع للمهدى فقال له: يا أبا عثمان، هذا ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين فقال له عمرو: يا أمير المؤمنين، أراك قد وطدت له الأمور وهي تصير إليه، وأنت عنه مسؤول فاستعبر المنصور، وقال له: عظني يا عمرو، قال: يا أمير المؤمنين إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منها ببعضها، وإن هذا الذي في يديك لو بقى في يد غيرك لم يصل إليك فاحذر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده فوجم أبو جعفر من قوله فقال له الربيع، يا عمرو غممت أمير المؤمنين، فقال عمرو: إن هذا صحبك عشرين سنة لم ير لك عليه أن ينصحك يوما واحدا وما عمل وراء بابك بشيء من كتاب الله ولا سنة نبيه قال أبو جعفر: فما أصنع قد قلت لك خاتمى في يدك فتعال وأصحابك فاكفنى، قال عمرو: ادعنا بعدلك تسخ أنفسنا بعونك ببابك ألف مظلمة اردد منها شيئا نعلم أنك صادق [(٢)].

فكيف من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم:

قال الأوزاعى: دخلت على المنصور فقال لي: ما الذى بطأ بك عنى؟ قلت: يا أمير المؤمنين، وما الذى تريد منى؟ فقال: الاقتباس منك. قلت: انظر ما تقول فإن مكحولا حدثنى عن عطية بن بشير: أن رسول الله قال: من بلغه عن الله نصيحة في دينه فهى رحمة من الله سيقت إليه، فإن قبلها من الله بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ليزداد إثما وليزداد عليه غضبا، وإن بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا وإن سخط فله السخط، ومن كرهه فقد كره الله، لأن الله هو الحق المبين فلا تجهلن،

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ٣ /٣٧.
(٢) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ٣ /٤٥.

قال: وكيف أجهل؟ قال: تسمع ولا تعمل بما تسمع. قال الأوزاعى: فسل على الربيع السيف وقال: تقول لأمير المؤمنين هذا فانتهره المنصور وقال: أمسك. ثم كلمه الأوزاعى وكان في كلامه أن قال: إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذى أصبحت به، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها، وفتيلها ونقيرها، ولقد حدثنى عروة بن رويم أن رسول الله قال:**ما من راع يبيت غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة**﴾ فحقيق على الوالى أن يكون لرعيته ناظرا ولما استطاع من عوراتهم ساترا وبالقسط فيما بينهم قائما لا يتخوف محسنهم منه رهقا ولا مسيئهم عدوانا فقد كانت بيد رسول الله جريدة يستاك بها ويردع عنه المنافقين، فأتاه جبريل فقال: يا محمد ما هذه الجريدة بيدك اقذفها لا تملأ قلوبهم رعبا، فكيف من سفك دماءهم وشقق أبشارهم، وأنهب أموالهم

يا أمير المؤمنين، إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابيا لم يتعمده، فهبط جبريل فقال: يا محمد، إن الله لم يبعثك جبارا تكسر قرون أمتك، واعلم أن كل ما فى يدك لا يعدل شربة من شراب الجنة، ولا ثمره من ثمارها قال رسول الله :
﴿**لقاب قوس أحدكم من الجنة أو قذة خير له من الدنيا بأسرها**﴾ إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ولو بقى الملك لمن قبلك لم يصل إليك يا أمير المؤمنين، ولو أن ثوبا من ثياب أهل النار علق بين السماء والأرض لآذاهم فكيف من يتقمصه، ولو أن ذنوبا من صديد أهل النار صب على ماء الأرض لآجنه، فكيف بمن يتجرعه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف من سلك فيها ويرد فضلها على عاتقه، وقد قال عمر بن الخطاب: لا يقوم أمر الناس إلا حصيف العقدة بعيد الغرة لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق في الحق على جرة، ولا تأخذه في الله لومة لائم، واعلم أن السلطان أربعة: أمير يظلف نفسه وعماله، فذلك له أجر المجاهد في سبيل الله، وصلاته سبعون ألف صلاة، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف.

وأمير رتع ورتع عماله فذاك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله.

وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره.

وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس.

واعلم يا أمير المؤمنين أنك قد ابتليت بأمر عظيم عرض على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنه وأشفقن منه، وقد جاء عن جدك في تفسير قول الله عز وجل لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها أن الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك وقال: فما ظنكم بالكلام، وما عملته الأيدى، فأعيذك بالله أن يخيل إليك أن قرابتك برسول الله تنفع مع المخالفة لأمره فقد قال رسول الله :**يا صفية عمة محمد، ويا فاطمة بنت محمد استوهبا أنفسكما من الله إني لا أغني عنكما من الله شيئا**﴾ وكان جدك الأكبر سأل رسول الله إمارة فقال: أي عم نفس تحييها خير لك من إمارة لا تحصيها نظرا لعمه وشفقة عليه أن يلي، فيجور عن سنته جناح بعوضة، فلا يستطيع له نفعا ولا عنه دفعا هذه نصيحتى إن قبلتها فلنفسك عملت، وإن رددتها فنفسك نحست، والله الموفق للخير والمعين عليه، قال: بلى نقبلها ونشكر عليها وبالله نستعين (١).

لا يعز ملك يكون فيه مثل هذا:

ويروى أن يزيد بن عمر بن هبيرة للمنصور دخل يوما فقال له المنصور: حدثنا، فقال: يا أمير المؤمنين إن سلطانكم حديث، وإمارتكم جديدة فأذيقوا الناس حلاوة عدلها، وجنبوهم مرارة جورها، فوالله يا أمير المؤمنين لقد محضت لك النصيحة ثم نهض فنهض معه سبعمائة من قيس فأتأره المنصور بصره، ثم قال: لا يعز ملك يكون فيه مثل هذا (٢).

ذلك إليك يا أمير المؤمنين:

ودخل معن بن زائدة الشيباني على أبى جعفر المنصور، وقد أسن فقارب في خطوه فقال له المنصور: لقد كبرت سنك يا معن. قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين. قال: وإنك لجلد، قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين. قال: وإن فيك لبقية؟ قال: هي لك يا أمير المؤمنين. قال: فأي الدولتين أحب إليك هذه أم دولة بني أمية؟ قال: ذلك إليك يا أمير المؤمنين

---

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ٣ /٤٨.
(٢) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ٣ /٥١.

إن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلي [١].

لماذا خلق الله الذباب؟

حدث يحيى بن معاذ أن أبا جعفر المنصور كان جالساً، فألح على وجهه ذباب حتى أضجره، فقال: انظروا من بالباب فقالوا: مقاتل بن سليمان فقال: علي به، فلما دخل عليه، قال له: هل تعلم لماذا خلق الله الذباب؟ قال: نعم. ليذل به الجبابرة، فسكت المنصور [٢].

وأراك تفعل ما تقول:

قال المدايني: لما حج المنصور قال للربيع: ابغني فتًى من أهل المدينة أديباً ظريفاً عالماً بقديم ديارها ورسوم آثارها فقد بعد عهدي بديار قومي وأريد الوقوف عليها. فالتمس له الربيع فتى أعلم الناس بالمدينة وأفهمهم بظريف الأخبار وشريف الأشعار فعجب به المنصور وكان يسايره أحسن مسايرة ويحاضره أزين محاضرة ولا يبتدئه بخطاب إلا على وجه الجواب فإذا سأله أتى بأوضح دلالة وأفصح مقالة. فأعجب به المنصور غاية الإعجاب وقال للربيع: ادفع إليه عشرة آلاف درهم وكان الفتى مملقاً مضطراً فتشاغل الربيع عن القضاء واضطرته الحاجة إلى الاقتضاء وقيل قال له الربيع: لا بد من معاودته وإن أحببت دفعت إليك سلفاً من عندي حتى أعاوده فيما أمر لك.

فأبقى ذلك حتى إذا كان في بعض الليالي قال عند منصرفه مبتدئاً: وهذه الدار يا أمير المؤمنين يا بيت عاتكة الذي أتعزل ثم سكت فأنكر المنصور هذا من حاله وفكر فيأمره فعرض الشعر على نفسه فإذا فيه:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ::: مذق الحديث يقول ما لا يفعل

فقال للربيع: أدفعت للرجل ما أمرنا له به قال: لا يا أمير المؤمنين. قال: فليدفع إليه مضاعفاً.

وهذا أحسن إفهام من الفتى وأحسن فهم من المنصور. ولم يسمع في

---

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ٣ /٥٣.
(٢) الدميري، حياة الحيوان الكبرى، ٣٥٨/١.

التعريض بألطف منه [١].

إذاً لا تأتينا أبداً:

ودخل عمرو بن عبيد على أبي جعفر المنصور، فقال: عِظْني، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَ اللّه أعطاكَ الدنيا بأسْرها، فاشْتَر نفسَك منه ببعضها؛ يا أميرَ المؤمنين، إن هذا الأمرَ لو كان باقياً لأحَدٍ قبلَك ما وصل إليك،{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾} [الفجر: ٦ - ٧]، قال: فبكى المنصور حتى بَلّ ثوبه. ثم قال: حاجتَك يا أبا عثمان وكان المنصور لمَّا دخل عليه طرَح عليه طَيْلَساناً، فقال: يُرْفَعُ هذا الطيلسان عني فرُفع، فقال أبو جعفر: لا تَدَعْ إتياننا؛ قال: نعم، لا يضمُني وإياك بلد إلاّ دخلتُ إليك، ولا بَدَتْ لي حاجة إلاّ سألْتُكَ، ولكن لا تُعْطِني حتى أسألك، ولا تَدْعُني حتى آتيك، قال: إذاً لا تأتينا أبداً [٢]

فانظرْ على أي حالة تنقضي:

وقال رجل لأبي جعفر المنصور: أيْنَ ما تُحُدِّثَ به في أيام بني أمية؟ إن الخلافة إذا لم تقابل بإنصاف المظلومين، ولم تعامل بالعدل في الرعية، وقسمة الفيء بالسويَّة، صار عاقبةُ أمرها بَوارا، وحاقَ بوُلاتها سوءُ العذاب.

قال: فتنفس ثم قال: قد كان ما تقولُ، ولكنا يا أخي استعجَلْنا الفانية على الباقية، وكأن قد انْقَضَتْ هذه الدار. فقال له الرجل: فانظرْ على أي حالة تنقضي.[٣]

إذا سقط البيت على عمي فما ذنبي:

ولما خرج أبو جعفر المنصور يريد الحج بالناس قال لعيسى بن موسى الهادي: أنت تعلم أن الخلافة صائرة إليك وأريد أن أسلم لك عمي

---

(١) عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق محمد نبيل طريفي/إميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ٤٦/٢، ٤٧.

(٢) عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ١٠٦/١.

(٣) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، ٣٩٨/٢.

وعمك عبد الله بن علي فخذه وأقتله وإياك أن تجبن في أمره ثم مضى المنصور إلى الحج وكتب إليه من الطريق يستحثه على ذلك فكتب إليه قد أنفذت أمر أمير المؤمنين وكان الأمر بخلاف ذلك فلم يشك أبو جعفر أنه قتله ودعا عيسى بن موسى كاتبه يونس فقال له: إن المنصور دفع إلي عمه وأمرني بقتله فقال له يريد: أن يقتلك به، فإنه أمرك بذلك سرًّا ويدعي به عليك علانية والرأي أن تستره في منزلك، ولا تطلع عليه أحداً فإن طلبه منك علانية دفعته إليه علانية ولا تدفعه إليه سرًّا أبداً ففعل ذلك: وقدم المنصور فدس على عمومته من يحركهم أن يسألوا المنصور أن يهب لهم أخاهم عبد الله ففعلوا ذلك وكلموه فأجاب وقال: نعم علي بعيسى بن موسى فأتاه فقال: يا عيسى كنت دفعت إليك عمي وعمك عبد الله قبل خروجي إلى الحج وأمرتك أن يكون في منزلك مكرما قال: قد فعلت ذلك قال: قد كلمني فيه عمومتك فرأيت الصفح، عنه فائتني به قال: يا أمير المؤمنين ألم تأمرني؟ بقتله قال: لا، بل أمرتك بحبسه عندك، ثم قال المنصور لعمومته: إن هذا قد أقر لكم بقتل أخيكم وأدعى أني أمرته بذلك، وقد كذب. قالوا: فدعه إليه نقتله قال شأنك فأخرجوه إلى صحن الدار، واجتمع الناس واشتهر الأمر فقام أحدهم وشهر سيفه وتقدم إلى عيسى ليضربه فقال عيسى: لا تعجلوا فإن عمي حي ردوني إلى أمير المؤمنين، فردوه إليه فقال: يا أمير المؤمنين، إنما أردت بقتله قتلي هذا عمك حيا إن أمرتني بدفعه إليهم دفعته قال: ائتنا به، فأتى به، فجعله في بيت فسقط عليه فمات، وكان المنصور قد وضع في أساس البيت ملحاً لما شرع في عمارته وأعده لهذا المعنى، ولما جلس فيه عمه أجرى الماء في أساس البيت سرّاً بحيث لا يشعر به أحد، فذاب المليح وسقط البيت وركب المنصور بعد موت عمه وفي خدمته عباس ابن المتوفى وكان يباسطه في كل وقت فقال له المنصور وهو يحادثه: هل تعرف ثلاثة في أول أسمائهم عين؟ قال: لا أعرف إلا ما تقول العامة يا أمير المؤمنين، إن عليا قتل عثمان وكذبوا والله، وعبد الملك بن مروان قتل عبد الله بن الزبير، وسقط البيت على عم أمير المؤمنين، قال: فضحك المنصور، وقال: إذا سقط البيت على عمي فما ذنبي؟ قال: قلت ما لك ذنب يا أمير المؤمنين. وقتل

عبد الله كان بسبب البيعة التي تقدمت له مع السفاح[١]

وحدّث عن أبي ثوابة عن عمرو بن أبي عمرو الشيباني عن أبيه، قال: تكلم أبو جعفر المنصور في مجلس فيه أعرابي فلحن فصر الأعرابي أذنيه، فلحن مرة أخرى أعظم من الأولى، فقال الأعرابي: أف لهذا، ما هذا؟. ثم تكلم فلحن الثالثة، فقال الأعرابي: أشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر [٢]

ما كان أهون هذا القرشي على أهله:

وحدث بإسناد رفعه إلى الواقدي قال: صلى رجل من آل الزبير، خلف أبي جعفر المنصور وقرأ،{أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾} [التكاثر: ١]. فلحن في موضعين قال: فلما سلم التفت الزبيري إلى رجل كان إلى جانبه فقال: ما كان أهون هذا القرشي على أهله[٣]

أترغب عما نحن فيه؟

دعا أبو جعفر المنصور أبا حنيفة إلى القضاء. فأبى، فحبسه، ثم دعا به، فقال له: أترغب عما نحن فيه؟ فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، لا أصلح للقضاء. فقال: كذبت. فقال أبو حنيفة: قد حكم عليّ أمير المؤمنين أني لا أصلح للقضاء، لأنه نسبني إلى الكذب، فإن كنت كاذباً فأنا لا أصلح، وإن كنت صادقاً، فإني قد صدقت عن نفسي أني لا أصلح. فرده إلى الحبس[٤]

ولكن الشياطين كفروا:

لما ولى أبو جعفر المنصور سليمان بن راشد الموصل، ضم إليه ألف

---

(١) تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي المعروف بابن حجة، طيب المذاق من ثمرات الأوراق، تحقيق: أبو عمار السخاوي، دار الفتح - الشارقة - ١٩٩٧م،ص ٥٤ - ٥٥.

(٢) طيب المذاق من ثمرات الأوراق، ص ٥٤ ، ٥٥.

(٣) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٤/١.

(٤) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ١٢١/٢.

رجل من أهل خراسان وقال: قد ضممت إليك ألف شيطان. فلما دخل الموصل عاثوا، وبلغ الخبر المنصور فكتب إليه: يا سليمان، كفرت بالنعمة. فكتب في جوابه: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ} [البقرة: ١٠٢](١).

تقطعني لحيتي أعمل بها ما أريد:

قال المنصور يوماً لعبد الله بن عياش المنتوف: قد بغضت إليّ صورتك عشرتك، وحلفت بالله لئن نتفت شعرة من لحيتك لأقطعن يدك. فأعفاها حتى اتصلت، فكان عنده يوماً وحدثه بأحاديث استحسنها، فقال له: سل حاجتك. فقال: نعم يا أمير المؤمنين، تقطعني لحيتي أعمل بها ما أريد. فضحك المنصور وقال له: قد فعلت (٢)

لأنك لم تعرف حلاوة الآباء:

دخل شاب من بني هاشم على المنصور، فسأله عن وفاة أبيه، فقال: مرض رضي الله عنه يوم كذا، ومات رحمه الله يوم كذا، وترك رضي الله عنه من المال كذا؛ فانتهره الربيع وقال: بين يدي أمير المؤمنين توالى الدعاء لأبيك فقال الشاب له: لا ألومك؛ لأنك لم تعرف حلاوة الآباء. قال: فما علمنا أن المنصور ضحك في مجلسه قط ضحكاً افترّ عن نواجذه إلا يومئذ (٣).

ما مالك؟

قال المنصور لرجل: ما مالك؟ قال: ما يكف وجهي، ويعجز عن الصديق. قال له: لطفت في المسألة.

إن غضب العربي في رأسه:

قال المدائني: ورد على المنصور كتاب من مولى له بالبصرة أن سالماً ضربه بالسياط، فاستشاط غضباً وقال: أعليّ يجترئ سالم؟ والله لأجعلنه نكالاً يتعظ به غيره. فأطرق جلساؤه جميعاً، فرفع ابن عياش

(١) الآبي، نثر الدر، ١٣٦/٢.
(٢) الآبي، نثر الدر، ١٠٩/٢.
(٣) الآبي، نثر الدر، ١١٦/٢.

رأسه، وكان أجرأهم عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد رأينا من غضبك على سالم ما شغل قلوبنا، وإن سالماً لم يضرب مولاك بقوته ولا قوة أبيه، ولكنك قلدته سيفك، وأصعدته منبرك، فأراد مولاك أن يطامن منه ما رفعت، ويفسد ما صنعت، فلم يحتمل له ذلك. يا أمير المؤمنين، إن غضب العربي في رأسه، فإذا غضب لم يهدأ حتى يخرجه بلسان أو يد، وإن غضب النبطي في استه، فإذا خري ذهب عنه غضبه. فضحك المنصور، وكف عن سالم.

فتفسد علي مكيدتي:

قيل: خلا المنصور مع يزيد بن أسيد، فقال: يا يزيد ما ترى في قتل أبي مسلم؟ قال: أرى يا أمير المؤمنين أن تقتله، وتتقرب إلى الله بدمه، فوالله لا يصفو ملكك، ولا تهنأ بعيشٍ ما بقي بك عدوك. قال يزيد: فنفر مني نفرة ظننت أنه سيأتي علي، ثم قال: قطع الله لسانك وأشمت بك عدوك، أتشير علي بقتل أنصح الناس لنا، وأثقلهم على عدونا؟ أما والله لولا حفظي ما سلف منك، وأني أعدها هفوة من رأيك لضربت عنقك، قم لا أقام الله رجليك قال يزيد: فقمت وقد أظلم بصري، وتمنيت أن تسيخ الأرض بي. فلما كان بعد قتله بدهر قال لي: يا يزيد، أتذكر يوم شاورتك في أمر العبد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وما رأيتني قط ادنى إلى الموت مني يومئذ قال: فوالله لكان ذلك رأيي وما لا أشك فيه، ولكني خشيت أن يظهر ذلك منك، فتفسد علي مكيدتي.

أبأهل البصرة تهددني؟

استأذن سوار قاضي البصرة على المنصور، فأذن له، فدخل وسلم، فقال المنصور: وعليك السلام. أدن أبا عبد الله، فقال: يا أمير المؤمنين، أأدنوا على ما مضى عليه الناس أم على ما أحدثوا؟ فقال: بل على ما مضى عليه الناس، فدنا فصافحه ثم جلس، فقال المنصور: يا أبا عبد الله، قد عزمت على أن أدعو أهل البصرة بسجلاتهم، وأشربتهم، فقال: يا أمير المؤمنين، نشدتك الله ألا تعرض لأهل البصرة. فقال: يا سوار، أبأهل البصرة تهددني؟ والله لهممت أن أوجه إليهم من يأخذ بأفواه سككهم وطرقهم، ويضع السيف فيهم فلا يرفعه عنهم حتى يفنيهم، فقال: يا أمير

المؤمنين، ذهبت إلى غير ما ذهبت إليه، إنما كرهت لك أن تتعرض لدعاء الأرملة واليتيم، والشيخ الكبير الفاني، والحدث الضعيف. فقال: يا أبا عبد الله، أنا للأرملة بعل، ولليتيم أب، وللشيخ أخ، وللحدث الضعيف عم، وإنما أريد أن أنظر في سجلاتهم وأشريتهم لأستخرج ما في أيدي الأغنياء، مما أخذوه بقوتهم وجاههم من حقوق الضعفاء والفقراء. فقال: وفقك الله للخير، وأرشدك لما يحب ويرضى[١]

لا أكثر الله في عشيرتك مثلك:

قال السري بن عبد الله: إني لبمكة مع أبي جعفر المنصور والناس يذكرون معناً، وإراقته الدماء باليمن، فقلت: يا أمير المؤمنين غلامٌ من غلمان بني شيبان، ماله عندك يد تأصرك عليه، ولا رحم يعطفك عليه، قال: فبسر في وهي بسرةً تمنيت أن الأرض انشقت لي فدخلت فيها. قال: فمكثت أياماً ثم أتيته، فسألني عن تخلفي، فاعتذرت إليه، فقال لي: أتعرف رجلاً كان يصلي عن يمين منبر رسول الله ؟ فأخبرته به، ونسبته إلى عثمان، فقال: ما فعل؟ قلت: قتل بقديد. قال: فآخر كان يصلي قريباً منه؟ قلت: نعم، ذاك ابن أخيه. قال: فما فعل؟ قلت: قتل يوم قديد. قال: فآخر كان يصلي في موضع كذا؟ قلت: نعم. ونسبته إلى الزبير. قال: فما فعل؟ قلت: قتل يوم قديد، فما زال يقترع المجالس يذكر فيها رجلاً رجلاً قريعاً، ويسألني عنه، فأقول: قتل يوم قديد، فقال لي: لا أكثر الله في عشيرتك مثلك. عجزت عن ثأرك أن تطلب به، حتى إذا قام هذا الغلام الشيباني، فإذا بك تنفس عليه الرفعة[٢]

أنت أيسر العرب:

قال المنصور للوضين بن عطاء: ما عيالك؟. قال: ثلاث بناتٍ والمرأة. قال؛ فقال: أربعٌ في بيتك. قال: فردد ذلك حتى ظننت أنه سيصلني. قال: ثم رفع رأسه؛ فقال أنت أيسر العرب، أربعة مغازل تدور

---

(١) نثر الدر، ٣ /٥٨.
(٢) نثر الدر، ٣ /٥٨.

في بيتك[١]

لا تنفق هذا المال واحتفظ به:

أعطى المنصور بعضهم شيئاً ثم ندم؛ فقال له: لا تنفق هذا المال واحتفظ به؛ وجعل يكرر عليه ذلك؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن رأيت فاختمه حتى ألقاك به يوم القيامة؛ فضحك وخلاه [٢].

أعطه نصف درهم:

قال أبو سهل الرازي القاضي: دخلت على يحيى بن أكثم يوماً، والمائدة بين يديه، والغلام واقف؛ فقال لي: يا محمد، هذا غلامي، يأتي علي وقتٌ لا أدري ما اسمه؛ وهذا حدا سلم الحادي بالمنصور في طريقه إلى الحج؛ فحدا يوماً بقول الشاعر: أغر بين حاجبيه نوره... يزينه حياؤه وخيره ومسكه يشوبه كافوره. فطرب المنصور حتى ضرب برجله المحمل، ثم قال: يا ربيع؛ أعطه نصف درهم؛ فقال سلم: نصف درهمٍ يا أمير المؤمنين؟ والله لقد حدوت لهشامٍ فأمر لي بثلاثين ألف درهم؛ فقال له المنصور: ما كان له أن يعطيك ثلاثين ألف درهمٍ من بيت مال المسلمين. يا ربيع، وكل به من يستخرج منه هذا المال. قال الربيع: فما زلت أسفر بينهما حتى شرط عليه ألا يلزمه مئونةً في خروجه وقفوله، ويحدو له [٣].

هل يستقيم أمر خراسان بلا وال:

استعمل المنصور رجلاً على خراسان فأتته امرأة في حاجة فلم تر عنده غناء. فقالت: أتدري لم ولاك أمير المؤمنين؟ قال: لا. قالت: لينظر هل يستقيم أمر خراسان بلا وال[٤].

أفقه أهل الكوفة:

ومن نوادر الأعمش أن أبا جعفر المنصور وجه ببدرة، وأمر بأن

(١) نثر الدر، ١٩٧/٣.
(٢) نثر الدر، ٣/ ١٥٩.
(٣) نثر الدر، ٢٠٠/٣.
(٤) نثر الدر، ٤٤/٤.

تدفع إلى أفقه أهل الكوفة، فأتى بها أبو حنيفة وابن أبي ليلى فلم يعرضا لها وأتى الأعمش فقال للرسول: هاتها. فقال: حجتك. قال: تسأل أبا حنيفة وابن أبي ليلى عن أفقه أهل الكوفة بعدهما فإنهما يدلانك علي، فتجيز شهادتهما لي وتبطلها لأنفسهما فأتى الرجل المنصور فأخبره فقال: صدق[(١)].

قد عفوت:

خرج رجل من بني سليم على المنصور فظفر به فأمر أن يضرب بالسياط. فلما أقيم بين العاقبين. قال: يا أمير المؤمنين إن عقوبتي تجل عن السياط، وعفوك يجل عن التثريب. فإما عاقبتني عقوبة مثلي وإما عفوت عفو مثلك. قال: قد عفوت. وخلاه [(٢)].

المنصور وابن المقفع:

لما كتب المنصور أمان عبد الله بن علي واستقصى ابن المقفع وكان كاتب

أخيه سليمان بن علي - وأكد سليمان وأخوته الإيمان والعهود على المنصور في أمانه. قال لهم المنصور: هذا لازم لي إذا وقعت عيني عليه. فلما أدخل داره تقدم حتى عدل به، ولم يره المنصور فحبس. فكتب من الحبس إلى إخوته: هذه حيلة جرت علي بكم ومنكم فاحتالوا لي فيها. ولما كتب المنصور إلى عامله بالبصرة بحبس ابن المقفع وقتله جاء عمومته وأحضروا الشهود بأن ابن المقفع دخل إلى دار الوالي ولم يخرج منها وطالبوه بالقود منه. قال المنصور: إن أنا أقدت من عاملي وقتلته ثم خرج عليكم ابن المقفع من هذا الباب، من الذي يرضى بأن أقتله بعاملي قوداً منه؟ فسكت القوم وأهدر دم ابن المقفع [(٣)].

كيف رأيتَ حَدسي؟

دعا المنصورُ ابن أبي ليلى، فأرادَهُ على القضاء، فأبى، فتوعّده إن لم

(١) نثر الدر، ٩٤/٤.
(٢) نثر الدر، ١٠٠/٤.
(٣) نثر الدر، ١٠٣/٤.

يفعل، فأبى أن يفعل، ثم إنَّ غداء المنصور حضرَ، فأتى فيما أتى بصحفة فيها مثالُ رأس. فقال لابن أبي ليلى: خُذ أيها الرجلُ مِن هذا. قال ابنُ أبي ليلى: فجعلتُ أضرب بيدي إلى الشيء، فإذا وضعتُه في فَمي سال، لا أحتاجُ إلى أن أمضغهُ. فلما فَرغ الرجل جعل يلحسُ الصحفة. فقال لي: يا محمدُ. أتدري ما كنت تأكل؟ قلتُ: لا - والله - يا أمير المؤمنين. قال: هذا مخُّ النِّينان معقودٌ بالسكَّر الطَّبَرزَذ. وتدري بكم تقوَّم هذه الصَّحفةُ علينا؟ قلت: لا، يا أمير المؤمنين. فقال: تقومُّ بثلاث مائة وبضعة عشر. أتدري: لِمَ ألحسُها؟ هذه صفحةٌ رسول الله . وأنا أطلبُ البَركة بذلك. فلما خرج ابنُ ليلى من عنده رفعَ رأسَه إلى الربيع. فقال: لقد أكل الشَّيخ عندنا أكلةً لا يفلِحُ بعدها أبداً. فلما كان عَشي ذلك اليوم راح ابنُ أبي ليلى إلى المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، فكرتُ فيما عرضت علي، فرأيتُ أنه لا يسَعُني خِلافُك. فولاه القضاءَ. ثم قال للربيع: كيف رأيتَ حَدسي؟[1]

ألاَ مرةً على المؤمنين؟؟

ودخل سوَّارُ بن عبد الله على المنصور - والمصحفُ من حجره، وعيناهُ تهملان - فقال السلام عليكم. يا أمير المؤمنين فقال: يا سوَّارُ، ألاَ مرةً على المؤمنين؟؟ هدمتَ ديني، وذهبت بآخرتي، وأفسدت ما كان من صالح عملي. قال سَّوارُ: فانتهزتُها فُرصةً، وطلبتُ ثواب الله في عظته فقلت: يا أمير المؤمنين، إنك جديرٌ بالبُكاء، حقيقٌ بطُول الحُزن ما أقمت في الدنيا. وقد استرعاك اللهُ أمر المسلمين، واستحفظك أموالهم، يسألك عما عملت فيما أسترعاك في اليوم الذي أعلمت في كتابه، فقال:{يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾} [الزلزلة: ٦ - ٨]. فازداد بُكاءً، وقال:{يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا } [مريم: ٢٣]. ثم قال يا سوَّارُ إني أُعالج نفسي، وأُعاتبها منذ وليتُ أمور المسلمين على حمل الدِّرّة على عُنقي، والمشي في الأسواق على قدمي، وأن أسدَّ بالجريش من الطعام جوْعتي، وأوارىَ بأخشن الثِّياب عورتي، وأضعَ

(١) نثر الدر،٥ /١٠٢.

قدر من أراد الدُّنيا، وأرفع قدْر من أراد الآخرة، وسعى لها، فلم تُطْعني، وعصتْني، ونفرتْ نُفوراً شديداً.

قال سوّار: لا تجشّمها يا أمير المؤمنين صعاب الأمور، ولا تُحمِّلها ما لا تُطيق، وألزمها أربع خصال تسلمْ لك دنياك وأخرتُك: أقم الحدود واحكُم بالعدل، واجْبِ الأموال من وُجوهها، واقسمها على أهلها بالحقّ [(١)].

فاستحسن كلامه:

علم المنصور ابنه صالحاً خطبة فقام بها في الناس في مجلسه فلم يشيع كلامه أحد خوفاً من المهدي، فبدأ شبة بن عقال المجاشعي من الصف فقال: والله ما رأيتك اليوم خطيباً أبل ريقاً ولا أنبض عروقاً ولا أثبت جناباً ولا أعذب لساناً، وقليل ذلك لمن كان أمير المؤمنين أباه والمهدي أخاه، هو كما قال الشاعر:

هو الجواد فإن يلحق بشاوهما ::: على تكاليفه فمثله لحقا
أو يسبقاه على ما كان من مهل ::: فمثل ما قدما من صالح سبقا

فاستحسن كلامه وعلقه المنصور بيده [(٢)].

صوت صفير البلبل:

قيل: إنه كان يحفظ الشعر من مرة، وله مملوك يحفظه من مرتين، وكان له جارية تحفظه من ثلاث مرات، وكان بخيلاً جداً حتى إنه كان يلقب بالدوانيقي لأنه كان يحاسب على الدوانيق، فكان إذا جاء شاعر بقصيدة قال له: إن كانت مطوقة بأن يكون أحد يحفظها أو احد أنشأها: أي بأن كان أتى بها أحد قبلك، فلا نعطيك لها جائزة، وإن لم يكن أحد يحفظها نعطيك زنة ما هي مكتوبة فيه، فيقرأ الشاعر القصيدة فيحفظها الخليفة من أول مرة، ولو كانت ألف بيت، ويقول للشاعر اسمعها مني وينشدها بكمالها، ثم يقول له: هذا المملوك يحفظها، وقد سمعها المملوك مرتين، مرة من الشاعر ومرة من الخليفة فيقرؤها، ثم يقول الخليفة: وهذه

(١) نثر الدر،٦/٢٠.
(٢) نثر الدر،٥ /١٠٣.

الجارية التي خلف الستارة تحفظها أيضاً وقد سمعتها الجارية ثلاث مرات فتقرؤها بحروفها فيذهب الشاعر بغير شيء.

قال الراوي: وكان الأصمعي من جلسائه وندمائه فنظم أبياتاً صعبة وكتبها على قطعة عمود من رخام ولفها في عباءة وجعلها على ظهر بعير وغير حليته في صفة أعرابي غريب وضرب له لثاماً ولم يبين منه غير عينيه، وجاء إلى الخليفة وقال: إني امتدحت أمير المؤمنين بقصيدة. فقال: يا أخا العرب إن كانت لغيرك لا نعطيك عليها جائزة وإلا نعطيك زنة ما هي مكتوبة عليه. فأنشد الأصمعي هذه القصيدة:

صوت صفير البلبل ::: هيج قلبي الثمل
الماء والزهر معا ::: مع زهر لحظ المقل
وأنت يا سيد لي ::: وسيدي ومولي
وكم وكم تيمني غزيل ::: عقيقي قطفت من وجنته
بـاللثم ورد الخجل وقلت ::: بس بسبسني فلم يجد بالقبل
وقال لا لا للا وقد غدا ::: مهرولٍ والخود مالت طربا
من فعل هذا الرجل وولولت ::: ولولةً ولي ولي يا ويللي
فقلت لا تولولي وبيني ::: اللؤلؤلي لما رأته أشمطا
يريد غير القبل وبعده ما يكتفي ::: إلا بطيب الوصللي
قالت له حين كذا انهض وجد ::: بالنقلي وفتيةٍ سقونني
قهيوة كالعسللي شممتها ::: في أنفي أزكى منٍ القرنفل
في وسط بستان حلي بالزهر ::: والسرولي والعود دندن دنلي
والطبل طبطبطبلي والرقص ::: قد طبطلي والسقف قد سقسقلي
شووا شووا وشاهشوا على ورق ::: سفرجلي وغرد القمري يصيح
من ملل في مللي فلو تراني ::: راكباً على حمار أهزلي
يمشي على ثلاثة كمشية العرنجل ::: والناس ترجمجملي
في السوق بالقلقلي والكل كعكع ::: كعكع خلفي ومن حوللي
لكن مشيت هارباً من خشية ::: العقنقلي إلى لقاء ملك
معظم مبجلي أمر لي بخلعة ::: حمراء كالدمدملي

أجر فيها ماشياً مبغداً للذيل ::: أنا الأديب الألمعي
من حي أرض الموصل نظمت ::: قطعاً زخرفت تعجز الادبللي
أقول في مطلعها ::: صوت صفير البلبل

قال الراوي: فلم يحفظها الملك لصعوبتها، ونظر إلى المملوك وإلى الجارية فلم يحفظها أحد منهما فقال: يا أخا العرب هات الذي هي مكتوبة فيه نعطك زنته.

فقال: يا مولاي إني لم أجد ورقاً أكتب فيه وكان عندي قطعة عمود رخام من عهد أبي، وهي ملقاةٌ ليس لي بها حاجة، فنقشتها فيها.

فلم يسع الخليفة إلا أنه أعطاه وزنها ذهباً فنفد ما في خزينته من المال، فأخذه وانصرف، فلما ولى قال الخليفة: يغلب على ظني أن هذا الأصمعي، فأحضره وكشف عن وجهه. فإذا هو الأصمعي فتعجب منه ومن صنيعه وأجازه على عادته، قال: يا أمير المؤمنين، إن الشعراء فقراء وأصحاب عيال وأنت تمنعهم العطاء بشدة حفظك وحفظ هذا المملوك وهذه الجارية. فإذا أعطيتهم ما تيسر ليستعينوا به على عيالهم لم يضرك، انتهى[(١)].

أي نهاية لم يبلغها في الفساد والهلاك؟!:

كان مطيع بن إياس الكناني يخدم جعفر بن أبي جعفر المنصور وينادمه، فكره ذلك أبو جعفر لما شهر به مطيع في الناس، وخشي أن يفسده، فدعا بمطيع وقال له، قد عزمت على أن تفسد ابني علي وتعلمه زندقتك؟! قال: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين من أن تظن بي هذا فأهلك، والله ما يسمع مني إلا ما إذا وعاه جمله وزينه ونبله. قال: ما أرى ذلك ولا يسمع منك إلا ما يضره ويعره. فلما رأى مطيع لجاجة في أمره قال له: أتؤمنني من غضبك حتى أصدقك؟ قال: أنت آمن قال: وأي مستصلح فيه، أو أي نهاية لم يبلغها في الفساد والهلاك؟! قال: ويلك بأي شيء؟ قال: يزعم أنه يتعشق امرأة من الجن، وهو مجتهد في خطبتها، وقد جمع أصحاب العزائم عليها، وهم يغرونه ويعدونه بها ويمنونه، فوالله ما فيه

(١) الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٣٤.

فضل لغير ذلك من جد ولا هزل، ولا كفر ولا إيمان. فقال له المنصور: ويلك أتدري ما تقول؟ قال: الحق والله أقول، فسل عن ذلك. فقال: له: عد إلى صحبته واجتهد أن تزيله عن هذا الأمر، ولا تعلمه أني علمت بذلك حتى أجتهد في إزالته عنه.

والله لأنا أشبه بك منك بأبيك:

ودخل المنصور دار جعفر ابنه هذا، وخرج جعفر من دار حرمه، فقال لأبيه: ما حملك على أن دخلت علي بغير إذن؟ فقال له أبو جعفر: لعنك الله، ولعن من أشبهته، قال: والله لأنا أشبه بك منك بأبيك(١).

لا أقالني الله إن أقلتك:

حدث عقبة بن سلم قال: دعاني أبو جعفر المنصور فسألني عن اسمي ونسبي، فقلت: أنا عقبة بن سلم بن نافع الأزدي، قال: إني لأرى لك هيئة وموضعاً، وإني لأريدك لأمر أنا معني به، قلت: أرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين، قال: فأخف شخصك ائتني يوم كذا وكذا، فأتيته فقال: إن بني عمنا قد أبوا إلا كيداً لملكنا، ولهم شيعة بخراسان بقرية يقال لها كذا وكذا، يكاتبونهم ويرسلون إليهم بألطاف وصدقات، فاخرج بكسى وألطاف حتى تأتيهم متنكراً بكتاب أكتبه عن أهل تلك القرية، ثم تسير ناحيتهم، فإن كانوا نزعوا عن رأيهم علمت ذلك وكنت على حذر منهم حتى تلقى عبد الله بن حسن متخشعاً، فإن جبهك وهو فاعل فاصبر وعاوده أبداً حتى يأنس بك، فإذا ظهر لك ما في قلبه فاعجل إلي. ففعل ذلك حتى أنس عبد الله بناحيته، وقال له عقبة: الجواب، فقال: أما الكتاب فلا أكتب، ولكن أنت كتابي إليهم، فأقرئهم السلام، وأخبرهم أني خارج لوقت كذا وكذا. فشخص عقبة حتى قدم على أبي جعفر وأخبره الخبر. قال صالح صاحب المصلى: إني لواقف على رأس أبي جعفر وهو يتغذى بأوطاس وهو متوجه إلى مكة، ومعه على مائدته عبد الله بن الحسن، وأبو الكرام الجعفري وجماعة من بني العباس، فأقبل على عبد الله بن الحسن فقال: يا أبا محمد، محمد وإبراهيم قد استوحشا من ناحيتي، وإني أحب أن يأنسا

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٣٦١/١.

بي ويأتياني، فأصلهما وأزوجهما وأخلطهما بنفسي. قال: وعبد الله يطرق طويلاً ويقول: وحقك يا أمير المؤمنين ما لي بهما ولا بموضعهما من البلاد علم، ولقد خرجا عن يدي؛ فيقول: لا تفعل يا أبا محمد، واكتب إليهما وإلى من يوصل كتابك إليهما، قال: فامتنع أبو جعفر من غدائه ذلك اليوم إقبالاً على عبد الله، وعبد الله يحلف أنه لا يعرف موضعهما، وأبو جعفر يكرر عليه: لا تفعل يا أبا محمد، لا تفعل يا أبا محمد. وقال أبو جعفر لعقبة بن مسلم: إذا فرغنا من الطعام فلحظتك، فامثل بين يدي عبد الله، فإنه سيصرف بصره عنك، فدر حتى تغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك، ثم حسبك، وإياك أن يراك ما دام يأكل. ففعل عقبة ذلك، فلما رآه عبد الله وثب حتى جثا بين يدي أبي جعفر وقال: يا أمير المؤمنين أقلني أقالك الله، قال: لا أقالني الله إن أقلتك، ثم أمر بحبسه(1).

لا ينجيني منه إلا هذا الأعرابي:

حدث ابن أبي الخير العبسي قال: كنا مع أبي جعفر المنصور أيام خرج عليه عمه عبد الله بن علي وهو يحاربه، فخرج علينا أبو الخصيب - وهو إذ ذاك حاجب المنصور - فأدخل جماعةً من أصحابه وأنا فيهم، وفينا ابن عطية الثعلبي، وكان معروفاً بالشجاعة، فتقدم إلى المنصور، فقال له: يا ابن عطية، قد عرفت بلاء أمير المؤمنين عندك وإحسانه إليك. ثم جفاك أمير المؤمنين جفوةً، وأراد أن يعرض عن تلك الجفوة ويستقبل بك الكرامة، فسر في هذا الوجه، فرأي أمير المؤمنين فيك جميل، وادع من أطاعك من قومك، وخذل عن الفاسق من قبل منك، وليأت أمير المؤمنين عنك غناء يأتك منه جزاء. فقال ابن عطية في نفسه: هذا يوم شرفي وهذه مرتبتي، وقد عرفت أنه لا يستغني عن مثلي، فقال: حوائجي يا أمير المؤمنين، قال: هات حوائجك؛ قال: تبلغ بعطائي الشرف، قال: اكتب يا سليمان، يعني أبا أيوب المرياني، فكتب؛ قال: ويفرض لولدي في شرف العطاء، قال: وماذا؟ قال: ويقضى ديني، قال: وماذا؟ قال: وقطيعة عيالي، قال: نعم، فلما ولى قال: يا سليمان أنفذ لهذا الأعرابي جميع ما

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١٢/٣.

سأل، ولا يكون ممن يستعان به في هذا الوجه، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو أن عبد الله بن علي قائم على رأسي بالسيف لا ينجيني منه إلا هذا الأعرابي، ما استعنت به بعد هذا التسحب في حوائجه[1].

كيف اتصل نوبخت المنجم بأبي جعفر المنصور:

قال أبو سهل بن علي بن نوبخت: كان جدنا نوبخت على دين المجوسية، وكان في علم النجوم نهاية، وكان محبوساً في سجن الأهواز.

قال: رأيت أبا جعفر المنصور قد دخل السجن، فرأيت من هيبته، وجلالته، وسيماه، وحسن وجهه، وشأنه، ما لم أره لأحد قط، فصرت من موضعي إليه، فقلت: يا سيدي، ليس وجهك من وجوه أهل هذه البلاد.

فقال: أجل يا مجوسي.

قلت: من أي بلاد أنت؟ قال: من المدينة.

قلت: أي مدينة؟ قال: مدينة الرسول صلوات الله عليه وسلامه.

فقلت: وحق الشمس والقمر، من أولاد صاحب المدينة؟ قال: لا، ولكن من عرب المدينة. فلم أزل أتقرب إليه وأحدثه، حتى سألته عن كنيته. فقال: أبو جعفر.

فقلت: أبشر، وجدتك في الأحكام النجومية، تملكني، وجميع ما في هذا البلد، حتى تملك فارس، وخراسان، والجبال.

فقال لي: وما يدريك يا مجوسي؟ قلت: هو كما أقول، واذكر لي هذا.

قال: إن قضى الله، فسوف يكون.

قلت: قد قضى الله من السماء، فطب نفساً.

وطلبت دواة، فوجدتها، فقلت: اكتب، فكتب.

بسم الله الرحمن الرحيم. إذا فتح الله على المسلمين، وكفاهم معرة الظالمين، ورد الحق إلى أهله، فلا نغفلك.

فقلت: اكتب لي في خدمتك خطاً، وأماناً. فكتب لي.

---

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١٦٢/٣.

قال نوبخت: ولما ولي الخلافة، صرت إليه، فأخرجت الكتاب، فقال: أنا له ذاكر مع الأمان، والحمد لله الذي صدق وعده، ورد الحق إلى أهله.

قال: فأسلم نوبخت، وكان منجماً لأبي جعفر، ومولى له. [١]

من كلامه:

- الخليفة لا يصلحه إلا التقوى، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة، والرعية لا يصلحها إلا العدل، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه.

– أعظم الناس مؤونة أكثرهم مروءة.

– ورفع إليه رجل قصة في شكاية بعض عماله فوقع على ظهرها. اكفني أمره وإلا كفيته أمرك.

– ووقع إلى آخر. قد كثر شاكوك وقل حامدوك. فإما عدلت وإما عزلت[٢].

- وقَّع أبو جعفر المنصور في شكوى قوم من عاملهم:كما تكونوا يؤمَّر عليكم [٣].

- ليس بإنسان من أسدي إليه معروف فنسيه دون الموت.[٤]

خطب أبى جعفر المنصور :

– خطبته بمكة:

خطب أبو جعفر المنصور بمكة فقال: أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه فقد جعلني الله عليه قفلا إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم فإن شاء أن يقفلنى عليها أقفلنى فارغبوا إلى الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم

(١) القاضي التنوخي، نشوار المحاضرة، ٣٦٩/١ ، ٣٧٠.

(٢) أبو منصور عبد الملك عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، دار الغصون - بيروت / لبنان - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م الطبعة: الثالثة، ص ٧٨.

(٣) علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغةُ الواضِحَة، ص ٢٧٢.

(٤) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ص٢٦.

بـه إذ يقـول{ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا} [المائدة: ٣]، أن يوفقنى للرشاد والصواب وأن يلهمنى الرأفة بكم والإحسان إليكم أقول قولى هذا وأستغفر الله لي ولكم.

– خطبته بمكة بعد بناء بغداد

وحج بعد بناء بغداد فقام خطيبًا بمكة فكان مما حفظ من كلامه{وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ} [الأنبياء: ١٠٥]، أمر مبرم وقول عدل وقضاء فصل والحمد لله الذى أفلج حجته وبعدًا للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة غرضا والفىء إرثاً وجعلوا القرآن عضين لقد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون فكم ترى من بئر معطلة وقصر مشيد أمهلهم الله حتى بدلوا السنة واضطهدوا العترة وعندوا واعتدوا واستكبروا وخاب كل جبار عنيد ثم أخذهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا؟

خطبته بمدينة السلام:

وخطب بمدينة السلام بغداد فقال: يا عباد الله لا تظالموا فإنها مظلمة يوم القيامة والله لولا يد خاطئة وظلم ظالم لمشيت بين أظهركم في أسواقكم ولو علمت مكان من هو أحق بهذا الأمر منى لأتيته حتى أدفعه إليه.

– خطبته وقد أخذ عبد الله بن حسن وأهل بيته :

ولما أخذ عبد الله بن حسن وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي ثم قال:

يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا وإن أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبي طالب تركناهم والله الذي لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام فيها على بن أبى طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه ثم قام من بعده الحسن بن على فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الأموال فقبلها فدس إليه معاوية إني أجعلك ولى

عهدى من بعدى فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غداً فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ثم قام من بعده الحسين بن على فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة أهل الشقاق والنفاق والإغراق في الفتن أهل هذه المدرة السوداء وأشار إلى الكوفة فوالله ما هي بحرب فأحاربها ولا سلم فأسالمها فرق الله بيني وبينها فخذلوه وأسلموه حتى قتل ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة وغروه فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه وقد كان أتى محمد بن على فناشده في الخروج وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال له: إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب وناشده عمي داود بن علي وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا فقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله فيها وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا وبغياً لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه

جهلا علينا وجبنا عن عدوهم ::: لبئست الخلتان الجهل والجبن

فإني والله يا أهل خراسان ما أتيت من هذا الأمر ما أتيت بجهالة بلغني عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجالا فقلت: قم يا فلان قم يا فلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال فوالله ما بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلا يرون أني أتيت ذلك على غير يقين ثم نزل وهو يتلو

علـى درج المنبـر هـذه الآيـة {وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾} [سبأ: ٥٤].

- **خطبته حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن:**

ولما خرج محمد وإبراهيم ابنا عبد الله شن المنصور عليه درعه وتقلد سيفه وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

ما لي أكفكف عن سعد وتشتمني ::: ولو شتمت بني سعد لقد سكنوا
جهلا علينا وجبنا عن عدوهم ::: لبئست الخلتان الجهل والجبن

أما والله لقد عجزوا عما قمنا به فما عضدوا الكافي وما شكروا المنعم فإذا حاولوا أشرب رنقا على غصص وأبيت منهم على مضض كلا والله لا أصل ذا رحم حلول قطيعتها ولئن لم يرض بالعفو ليطلبن ما لم يوجد عندي فليبق ذو نفس على نفسه قبل أن تمضي فلا يبكى عليه.

- **خطبته وقد قتل أبا مسلم الخراساني :**

وخطب بالمدائن عند قتل أبي مسلم الخراساني فقال: أيها الناس، لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية، ولا تسروا غش الأئمة فإنه لم يسر أحد قط منكرة إلا ظهرت في آثار يده وفلتات لسانه وصفحات وجهه وأبداها الله لإمامه بإعزاز دينه وإعلاء حقه إنا لن نبخسكم حقوقكم ولن نبخس الدين حقه عليكم إنه من نازعنا عروة هذا القميص أجزرناه خبي هذا الغمد، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ثم نكث بنا فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه.

- **خطبة أخرى:**

وخطب فقال: أيها الناس، لا تنفروا أطراف النعمة بقلة الشكر فتحل بكم النقمة ولا تستروا غش الأئمة، فإن أحداً لا يستر منكراً إلا ظهر في فلتات لسانه، وصفحات وجهه وطوالع نظره وإنا لا نجهل حقوقكم ما عرفتم حقنا ولا ننسى الإحسان إليكم ما ذكرتم فضلنا ومن نازعنا هذا القميص أوطأنا أم رأسه خبء هذا الغمد والسلام.

- **قوله وقد قوطع في خطبته:**

وخطب يوم الجمعة فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أيها الناس، اتقوا الله، فقام إليه رجل، فقال: أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين، فقطع الخطبة ثم قال سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله وذكر به، وأعوذ بالله أن أكون جباراً عنيداً، وأن تأخذني العزة بالإثم، لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين، وأنت أيها القائل فوالله ما أردت بها وجه الله، ولكنك حاولت أن يقال قام فقال فعوقب فصبر وأهون بها ويلك لو هممت فاهتبلها إذ غفرت وإياك وأياكم معشر الناس أختها، فإن الحكمة علينا نزلت ومن عندنا فصلت فردوا الأمر إلى أهله توردوه موارده وتصدروه مصادره ثم عاد في خطبته فكأنه يقرؤها من كفه فقال: وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وصايا المنصور لابنه المهدى:

- وصية له:

قال المنصور لابنه المهدى: يا بنى، لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه، فإن فكرة العاقل مرآته تريه حسناته وسيئاته واعلم أن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة والرعية لا يصلحها إلا العدل وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه.

- وصية أخرى له:

ووصاه فقال له إنى لم أدع شيئاً إلا قد تقدمت إليك فيه وسأوصيك بخصال والله ما أظنك تفعل واحدة منها، وكان له سفط فيه دفاتر علمه وعليه قفل لا يأمن على فتحه ومفتاحه أحداً يصر، مفتاحه في كم قميصه، فقال للمهدى: انظر هذا السفط فاحتفظ به، فإن فيه علم آبائك ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة فإن أحزنك أمر فانظر في الدفتر الأكبر، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا فالثانى، والثالث حتى بلغ سبعة، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة فإنك واجد فيها ما تريد، وما أظنك تفعل وانظر هذه المدينة، فإياك أن تستبدل بها فإنها بيتك وعزك قد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق

الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور فاحتفظ بها، فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً وما أظنك تفعل وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتقدمهم وتكثر الإحسان إليهم وتعظم أمرهم وتوطئ الناس أعقابهم وتوليهم المنابر فإن عزك عزهم وذكرهم لك وما أظنك تفعل وانظر مواليك فأحسن إليهم وقربهم واستكثر منهم فإنهم مادتك لشدة إن نزلت بك وما أظنك تفعل وأوصيك بأهل خراسان خيراً فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم أن تحسن إليهم، وتتجاوز عن مسيئهم، وتكافئهم على ما كان منهم وتخلف من مات منهم في أهله وولده وما أظنك تفعل وإياك أن تبني مدينة الشرقية فإنك لا تتم بناءها وما أظنك تفعل وإياك أن تستعين برجل من بنى سليم وأظنك ستفعل وإياك أن تدخل النساء في مشورتك في أمرك وأظنك ستفعل.

- وصية أخرى له:

ووصى المهدى أيضا فقال: اتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدى يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجاً، ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب احفظ يا بنى محمداً في أمته يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام فإنه حوب عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم مقيم، والزم الحلال فإن فيه ثوابك في الأجل، وصلاحك في العاجل، وأقم الحدود ولا تعتد فيها فتبور، فإن الله لو علم أن شيئاً أصلح لدينه وأزجر عن معاصيه من الحدود لأمر به في كتابه، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب، والعقاب على من سعى في الأرض فساداً مع ما ذخر له عنده من العذاب العظيم فقال:{إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾} [المائدة: ٣٣]، فالسلطان يا بنى حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودين الله القيم فاحفظه وحطه وحصنه وذب عنه، وأوقع بالملحدين فيه، واقمع المارقين منه

واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم والمثلات بهم، ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن، واحكم بالعدل ولا تشطط، فإن ذلك أقطع للشغب وأحسم للعدو وأنجع في الدواء، وعف عن الفيء فليس بك إليه حاجة مع ما أخلفه لك، وافتتح عملك بصلة الرحم وبر القرابة وإياك والأثرة والتبذير لأموال الرعية، واشحن الثغور، واضبط الأطراف، وأمن السبل، وخص الواسطة، ووسع المعاش، وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم، واصرف المكاره عنهم، وأعد الأموال واخزنها، وإياك والتبذير، فإن النوائب غير مأمونة، والحوادث غير مضمونة وهي من شيم الزمان وأعد الرجال والكراع والجند ما استطعت وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد، فتتدارك عليك الأمور، وتضيع جد في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولا فأولا، واجتهد وشمر فيها، وأعدد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل، وباشر الأمور بنفسك، ولا تضجر، ولا تكسل، ولا تفشل، واستعمل حسن الظن بربك وأسئ الظن بعمالك وكتابك، وخذ نفسك بالتيقظ، وتفقد من يبيت على بابك، وسهل إذنك للناس وانظر في أمر النزاع إليك ووكل بهم عيناً غير نائمة ونفساً غير لاهية ولا تنم، فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ولا دخل عينه غمض إلا وقلبه مستيقظ هذه وصيتي إليك والله خليفتي عليك [(١)].

- وقال أبو جعفر المنصور: الحمد لله الذي أجارني بخلافته، وأنقذني من النار بها[(٢)].

– كان المنصور يقول: الملوك تحمل كل شيء إلا ثلاث خلالٍ: إفشاء السر، والتعرض للحرم، والقدح في الملك.

وقال: إذا مد عدوك يده إليك فاقطعها إن أمكنك، وإلا فقبلها.

وكتب إليه زياد بن عبيد الله يسأله الزيادة في أرزاقه، ويبالغ في الكتاب. فوقع المنصور في كتابه: إن الغنى والبلاغة إذا اجتمعا في رجلٍ

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ٣ /٣١ - ٣٧.
(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، المحاسن والأضداد، مكتبة الخانجي - القاهرة / مصر - الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ١٠٨/١.

أبطراه، وأمير المؤمنين مشفق عليك، فاكتف بالبلاغة(١).

- وقال أبو جَعْفَر المَنْصُور:

إذا كنتَ ذا رأيْ فكُـنْ ذا عَزِيمَـة ::: فـإنَّ فَـسادَ الـرَّأْيِ أنْ تَتَـردَّدا

ولا تُمْهِلِ الأَعْـداءَ يَوْمـاً لِقُـدْرَة ::: وبادِرْهُمُ أنْ يَمْلكُوا مِثْلَها غَـدا (٢)

- قال أبو جعفر المنصور: من أعطى إخوانه النصفة، وعاشرهم بجميل العشرة قوي بهم عضده، وزاد بهم جلده، وبذلوا دونه المهج، وخاضوا في رضاه اللجج(٣).

- حب الصديق إذا كانت مودته ::: في الله فرض على العلامة الفطن

ما إن يكون كعمرو صاحب أبداً ::: في كل أمر أخي رشد ولم يكن

مل - قال أبو جعفر المنصور: الذي عليّ للرعية أن أحفظ سبلهم،فينصرفون آمنين في سبيلهم ولا يصدّون عن حجهم، وقضاء نسكهم، وأن أضبط ثغورهم، وأحصّنها من عدوهم وأن أختار قضاتهم، وأعزل بالحق كيلا يصل ظلم بعضهم إلى بعض، وأن أرفع أقدار فقهائهم وعلمائهم، وأكف جهالهم عن حكمائهم(٤).

الفؤاد من الآداب وذو فكر ::: تنبيك آثاره عن فعله الحسن

إذا تنعتع قوم في حديثهم ::: أجدى الحديث لهم من مقول لسن (٥)

- قال أبو جعفر المنصور: الذي عليّ للرعية أن أحفظ سبلهم،فينصرفون آمنين في سبيلهم ولا يصدّون عن حجهم، وقضاء نسكهم، وأن أضبط ثغورهم، وأحصّنها من عدوهم وأن أختار قضاتهم، وأعزل بالحق كيلا يصل ظلم بعضهم إلى بعض، وأن أرفع أقدار فقهائهم وعلمائهم، وأكف جهالهم عن حكمائهم(٦).

* * *

(١) نثر الدر،٣ /٦٠.
(٢) أبو الحسن البصري، الحماسة البصرية، ١٣٤/١.
(٣) أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق، ٦/١.
(٤) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ٧٢/١.
(٥) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٧٢/١.
(٦) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ٧٢/١.

المهـدي

أعلام الخلفاء العباسيين

الخليفة العباسي المهدي

هو محمد المهدي بن الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، وأمه هي أروى بنت منصور الحميرية، وكانت تكنى أم موسى، ولد سنة ١٢٦ هـ بالحميمة من أرض الشراة، وكان سنه حينما جاءت الخلافة إلى العباسيين ست سنوات، ولما استخلف أبوه كان سنه عشر سنوات، ولما اشتد، ولاه أبوه مملكة طبرستان، وقد قرأ العلم، وتأدب، وتميز.

وولي بعد وفاة أبيه وبعهد منه (سنة ١٥٨ هـ) بعد أن أنفق أبوه أموالا كثيرة حتى استنزل ولي العهد ابن أخيه عيسى بن موسى من العهد للمهدي، ولما مات المنصور، قام بأخذ البيعة للمهدي الربيع بن يونس الحاجب.

كان محمود العهد والسيرة، محبباً إلى الرعية، حسن الخلق والخلق، جواداً، يقال: إنه أجاز شاعراً بخمسين ألف دينار؟ وكان يجلس للمظالم ويقول: أدخلوا علي القضاة فلو لم يكن ردي للمظالم إلا حياء منهم لكفى.وهو أول من مشي بين يديه بالسيوف المصلتة والقسي والنشاب والعمد، وأول من لعب بالصوالجة في الإسلام. ولكنه كان مستهتراً بمولاته الخيزران، وكان غارقاً كنحوه من الملوك في بحر اللذات، واللهو والصيد، ولكنه خائف من الله، معاد لأولي الضلالة، حنق عليهم.

حكم عشر سنين وشهراً ونصفاً، وعاش ثلاثاً وأربعين سنة، ومات بماسبذان، في المحرم، سنة تسع وستين ومائة، وبويع لابنه الهادي من بعده.

وهو الذي بنى جامع الرصافة، وتربته بها، وانمحى أثر الجامع والتربة بعد ذلك.

وقيل: إنه أثني عليه بالشجاعة، فقال: لم لا أكون شجاعاً؟ وما خفت أحداً إلا الله - تعالى [١].

---

(١) المعارف: ٣٧٩ - ٣٨٠، الطبري: ٣ / ١٧٢، و٦ / ١٨٣، ٤٢٥، ٧ / ٥٠٩، ٥١١، ٥٢٤، ٦٠٣، ٨ / ٧، ٩، ٢٥، ٢٩، ٣٧، ٣٩، الوزراء والكتاب: ١٤١ - ١٦٦، مروج

مواقف من حياته:

الرؤيا الصالحة:

قال داود بن رشيد: قلت للهيثم بن علي: بأي شيء استحق سعيد بن عبد الرحمن أن ولاه المهدي القضاء وأنزله منه تلك المنزلة الرفيعة؟ فقال: إن خبره باتصاله بالمهدي ظريف، فإن أحببت شرحته لك. قلت: والله قد أحببت.

قال: اعلم أنه وافى الربيع الحاجب حين أفضت الخلافة إلى المهدي وقال له: استأذن لي على أمير المؤمنين، فقال له: من أنت وما حاجتك؟ قال: أنا رجل قد رأيت لأمير المؤمنين أعزه الله رؤيا صالحة، وقد أحببت أن تذكرني له، فقال الربيع: يا هذا، إن القوم لا يصدقون فيما يرونه لأنفسهم فكيف بما يراه لهم غيرهم، فاحتل بحيلة غير هذه، فقال: إن لم تخبره بمكاني سألت من يوصلني إليه وأخبره أني سألتك الإذن لي عليه فلم تفعل؟ فدخل الربيع على المهدي، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنكم قد أطمعتم الناس في أنفسكم فقد احتالوا عليكم بكل ضرب.

فقال له المهدي: هكذا تصنع الملوك فماذا؟ قال: رجل بالباب يزعم أنه رأى لأمير المؤمنين أيده الله رؤيا حسنة، وقد أحب أن يقصها عليك.

فقال المهدي: يا ربيع، إني والله أرى الرؤيا لنفسي فلا تصح لي فكيف يمكن ادعاؤها ممن لعله قد افتعلها؟ قال: والله قلت له مثل هذا فلم يقبل.

قال: هات الرجل.

قال: فأدخل عليه سعيد وكان له رؤية وجمال ومروة ظاهرة ولحية عظيمة ولسان طلق، فقال له: ما رأيت بارك الله فيك؟ قال: رأيت يا أمير المؤمنين آتياً أتاني في منامي فقال: أخبر أمير المؤمنين أنه يعيش ثلاثين

الذهب: ٢ / ٢٤٦ - ٢٥٥، تاريخ بغداد: ٥ / ٣٩١ - ٤٠١، الكامل لابن الأثير: ٦ / ٣٢ - ٣٤، ٨١ - ٨٧، عبر الذهبي: ١ / ٢٣٠ - ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٠، ٢٤٧، ٢٥٤ - ٢٥٥، الوافي بالوفيات: ٣ / ٣٠٠ - ٣٠٢، البداية والنهاية: ١٠ / ١٢٩ - ١٣١، تاريخ الخلفاء: ٢٧١ - ٢٧٩، شذرات الذهب: ١ / ٢٣٠، ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٦٦ - ٢٦٩.

سنة في الخلافة، وآية ذلك أنه يرى في ليلته الآتية في منامه كأنه يقلب يواقيت ثم يعدها فيجد ثلاثين ياقوتة كأنها قد وهبت له.

فقال المهدي: ما أحسن ما رأيت، ونحن نمتحن رؤياك في ليلتنا المقبلة على ما أخبرتنا: فإن كان الأمر على ما ذكرت أعطيناك فوق ما تريد، وإن كان الأمر بخلاف ذلك لم نعاقبك لعلمنا أن الرؤيا الصالحة ربما صدقت وربما اختلفت.

قال: يا أمير المؤمنين، فما أصنع أنا الساعة إذا صرت إلى منزلي وعيالي وأخبرتهم أني كنت عند أمير المؤمنين أكرمه الله، ثم رجعت صفر اليد؟ فقال له المهدي: فكيف نعمل؟ فقال: يعجل لي أمير المؤمنين أعزه الله تعالى ما أحب وما أحلف له بالطلاق إني قد صدقت.

فأمر له بعِشرة آلاف درهم وأمر بأن يؤخذ له كفيل ليحضر من غد ذلك اليوم فقبض المال وقال له: من يكفلك؟ فمد عينه إلى خادم حسن الوجه والزي وقال: هذا يكفلني.

فقال له المهدي: اكفله يا غلام؟

فاحمر وخجل، وقال: نعم يا أمير المؤمنين، فكفله وانصرف سعيد بن عبد الرحمن بالعشرة آلاف درهم. فلما كانت تلك الليلة رأى المهدي ما ذكره له سعيد حرفاً بحرف وأصبح سعيد فوافى الباب واستأذن، فأذن له. فلما وقعت عين المهدي عليه قال له: أين مصداق ما قلت لنا عليه؟ فقلت له: وما رأى أمير المؤمنين. فضحك في جوابه، فقال له: امرأتي طالق إن لم تكن رأيت شيئاً؟ فقال: لأني أحلف على صدق.

قال له المهدي: فقد والله رأيت ذلك مبيناً.

فقال سعيد: الله أبر، فأنجز لي يا أمير المؤمنين ما وعدتني.

قال: حبًّا وكرامة.

ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار وعشر تخوت ثياب من كل صنف وثلاثة مراكب من أنفس دوابه محلاةً، فأخذ ذلك وانصرف فلحق به الخادم الذي كان كفله. وقال: سألتك بالله هل لهذه الرؤيا من أصل؟ فقال سعيد: لا والله.

فقال الخادم: كيف وقد رأى أمير المؤمنين ما ذكرته؟ قال: هذا من المخاريق التي لا أب لها، وذلك أني لما ألقيت هذا الكلام خطر بباله وحدث به نفسه وأسرى به قلبه واشتغل به فكره ففي ساعة نام خيل له ما حل في قلبه واشتغل به فكره فنام فرآه.

فقال له الخادم: قد حلفت بالطلاق.

قال: طلقة واحدة وبقيت معي على اثنتين وأزيد مهرها عشرة دراهم. وأتحصل على عشرة آلاف درهم وثلاثة آلاف دينار وعشرة تخوت من أصناف الثياب، وثلاثة مراكب فارهة.

فبهت الخادم وتعجب من ذلك. فقال له سعيد: قد صدقتك وجعلت ذلك مكافأتك على كفالتك فاستر علي.

ثم طلبه المهدي لمنادمته فنادمه وحظي عنده وقلده القضاء على العسكر. فلم يزل كذلك حتى مات.

لو شربت الرابع لادعيت أنك رسول الله:

يحكى أن المهدي خرج يتصيد، فسار به فرسه حتى دخل إلى خباء أعرابي، فقال: يا أعرابي. هل من قرى؟ قال: نعم، فأخرج له قرص شعير فأكله، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه، ثم أتاه بنبيذ في ركوة فسقاه قعباً. فلما شرب قال: يا أخا العرب أتدري من أنا؟ قال: لا والله.

قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة.

قال: بارك الله في موضعك.

ثم سقاه قعباً آخر فشربه فقال: يا أعرابي، أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة.

قال: لا، بل أنا من قواد أمير المؤمنين.

قال: رحبت بلادك وطاب مرادك.

ثم سقاه ثالثاً فلما فرغ منه قال: يا أعرابي، أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين.

قال: لا، ولكني أمير المؤمنين.

فأخذ الأعرابي الركوة وأوكأها وقال: والله لو شربت الرابع لادعيت أنك رسول الله.

فضحك المهدي حتى غشي عليه وأحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأشراف فطار قلب الأعرابي فقال له: لا بأس عليك ولا خوف ثم أمر له بكسوة ومال(١).

لم يخف علي مخاطبة الحائك والكاتب:

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد: بلغنى أن المهدي لما فرغ من عيساباذ ركب فى جماعة يسيرة لينظر فدخل مفاجأة فأخرج كل من كان هناك من الناس، وبقى رجلان خفيا عن أبصار الأعوان فرأى المهدي أحدهما وهو دهش لا يعقل فقال: من أنت؟ قال: أنا أنا أنا قال: ويلك من أنت قال: لا أدرى قال: ألك حاجة؟ قال: لا لا قال: أخرجوه أخرج الله نفسه فدفع في قفاه فلما خرج، قال لغلامه اتبعه من حيث لا يعلم، فسل عن أمره ومهنته فإني أخاله حائكا، فخرج الغلام يقفوه، ثم رأى الآخر فاستنطقه فأجابه بقلب قوي ولسان جرىء، فقال: من أنت؟ فقال: رجل من أبناء رجال دعوتك قال: فما جاء بك إلى هنا قال: جئت لأنظر هذا البناء الحسن، وأتمتع بالنظر وأكثر من الدعاء لأمير المؤمنين بطول المدة وتمام النعمة، ونماء العز والسلامة قال: ألك حاجة؟ قال: نعم ،خطبت ابنة عم لي فردني أبوها وقال: لا مال لك، والناس يرغبون فى المال، وأنا بها مشغوف. قال: قد أمرت لك بخمسين ألف درهم قال: جعلنى الله فداك يا أمير المؤمنين قد وصلت فأجزلت الصلة، ومننت فأعظمت المنة، فجعل الله باقي عمرك أكثر من ماضيه، وآخر أيامك خيراً من أولها ومتعك بما أنعم به، وأمتع رعيتك بك، فأمر أن يعجل صلته ووجه بعض خاصته معه وقال: سل عن مهنته فإني أخاله كاتباً فجاء الرسول الأول فقال: وجدته حائكاً وأخبر الآخر قال: وجدته كاتباً فقال المهدى: لم يخف علي مخاطبة الحائك والكاتب(٢).

---

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٣٩.
(٢) أخبار الحمقى والمغفلين، ص ٣١.

كيف تأمر من السواك؟

وعن سلمة قال: كان عند المهدي مؤدب يؤدب الرشيد فدعاه يوما المهدي وهو يستاك فقال: كيف تأمر من السواك؟ قال: استك يا أمير المؤمنين فقال المهدي: إنا لله ثم قال: التمسوا من هو أفهم من هذا قالوا: رجل يقال له علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة قدم من البادية قريباً فلما قدم على الرشيد قال له: يا علي قال: لبيك يا أمير المؤمنين قال: كيف تأمر من السواك؟ قال: سك يا أمير المؤمنين قال: أحسنت وأصبت وأمر له بعشرة آلاف درهم[١].

وما تعرفها يا أمير المؤمنين؟!:

دخل رجل على المهدي فأنشده شعرًا فقال فيه: وجوار زفرات، فقال المهدي أي شيء زفرات قال: وما تعرفها يا أمير المؤمنين؟! قال: لا والله قال فأنت أمير المؤمنين وسيد المرسلين ما تعرفها أعرفها أنا كلا والله ذكر[٢].

المهدي وحديث العشّاق:

وحكى الأصمعي قال: خرج المهديّ حاجًّا، حتّى إذا كنّا ببعض الطّريق، إذا أعرابيٌّ يقول: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك، أنا عاشقٌ - وكان المهدي يحبّ العشّاق وحديثهم - موكلٌ به بعض الغلمان. فلمّا نزل أمر بإحضاره، قال: أنت المنادي؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين. قال له: ما اسمك؟ قال: أبو ميّاس. قال أمير المؤمنين: من عشيقتك؟ قال له: ابنة عمّي، وقد أبى عليّ أبوها أن يزوّجنيها. قال: لعلّه أكثر منك مالاً؟ قال: أنا أكثر منه مالاً! قال له: فما قصّتك؟ قال له: أدن رأسك منّي. فجعل المهدي يضحك، وأصغى إليه برأسه. قال له: إنّي هجينٌ. قال له: ليس يضرّك ذلك أخو أمير المؤمنين وأكثر أولاده هجناء! ثمّ قال له: وأين عمّك؟ قال له: على ثلاثة أميالٍ.

قال: فأرسل أمير المؤمنين في طلبه فجيء به فقال له: ما لك لا

---

(١) أخبار الحمقى والمغفلين، ص ١٢١.
(٢) أخبار الحمقى والمغفلين، ص ١٦٥.

تزوّج أبا ميّاس، فإنّي أرى عليه نعمة؟ قال: متاع سوءٍ، وليس مثلي يزوّج مثله. قال: فإنّ الذي كرهت ليس ممّا يعاب به عندنا، وأنا معطٍ صداق ابنتك عشرة آلاف درهم، ومعوّضك ممّا ذكرت عشرة آلاف درهم! قال: فذلك لك! قال: فخرج أبو ميّاس وهو يقول:

واتّبعت ظبيةً بالغلاء وإنّما ::: يعطي الغلاء لمثلها أمثالي
وتركت أسواق القباح لأهلها ::: إنّ القباح وإن رخصن غوالي[1]

إذا استغنيت عن شيءٍ فدعه:

وذكر أبو الفرج الأصبهاني قال: دخل أبو عبيد الله على المهدي، وكان قد وجد عليه في أمر بلغه عنه، وأبو العتاهية حاضر المجلس، فجعل المهدي يشتم أبا عبيد الله ويتغيظ عليه، ثم أمر به فجروا برجله وحبس، ثم أطرق المهدي طويلاً، فلما سكن أنشده أبو العتاهية:

أرى الدنيا لمن هي في يديه ::: عذاباً كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بصغرٍ ::: وتكرم كلّ من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيءٍ فدعه ::: وخذ ما أنت محتاجٌ إليه

فتبسم المهدي، وقال لأبي العتاهية: أحسنت! فقام أبو العتاهية ثم قال: والله يا أمير المؤمنين، ما رأيت أحداً أشد إكراماً للدنيا، ولا أصون لها، ولا أشح عليها، من هذا الذي جر برجله الساعة، ولقد دخلت على أمير المؤمنين، ودخل هو، وهو أعز الناس، فما برحت حتى رأيته أذل الناس، ولو رضي من الدنيا بما يكفيه، لاستوت أحواله، ولم تتفاوت! فتبسم المهدي ودعا بأبي عبيد الله فرضي عنه، فكان أبو عبيد الله يشكر ذلك لأبي العتاهية[2].

أضمن ما تلف بقضيته:

ومن المنقول عن المهدي عن القاسم بن محمد بن خلاد عن علي بن صالح قال: كنت عند المهدي ودخل عليه شريك بن عبد الله القاضي فأراد أن يبخره فقال الخادم بالعود الذي يلهى به فوضعه في حجر شريك فقال

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص٦٤.
(٢) ابن الأبار، إعتاب الكتاب، ص٧.

شريك: ما هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا أخذه صاحب العسس البارحة فأحببت أن يكون كسره على يد القاضي فقال: جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين فكسره ثم أفاضوا في حديث حتى نسى الأمر ثم قال المهدي لشريك: ما تقول في رجل أمر وكيلاً له أن يأتي بشيء بعينه فأتى بغيره فتلف ذلك الشيء فقال: يضمن يا أمير المؤمنين فقال للخادم: أضمن ما تلف بقضيته.

نعلرسول الله :

ومن المنقول عن محمد بن الفضل قال: أخبرنا بعض أهل الأدب عن حسن الوصيف قال: قعد المهدي قعوداً عامًّا للناس فدخل رجل وفي يده نعل ملفوفة في منديل فقال: يا أمير المؤمنين هذه نعل رسول الله قد أهديتها لك فقال: هاتها فدفعها إليه فقبل باطنها ووضعها على عينيه وأمر للرجل بعشرة آلاف درهم فلما أخذها وانصرف قال لجلسائه: أترون أني لم أعلم أن رسول الله لم يرها فضلاً عن أن يكون لبسها ولو كذبناه قال للناس: أتيت أمير المؤمنين بنعل رسول الله فردها على وكان من يصدقه أكثر ممن يدفع خبره إذا كان من شأن العامة ميلها إلى أشكالها والنصرة للضعيف على القوى وإن كان ظالماً اشترينا لسانه وقبلنا هديته وصدقنا قوله ورأينا الذي فعلنا أنجح وأرجح(١).

منع الملوك أن يكون فيهم مثلك:

وقف المهدي على عجوز من العرب فقال لها: ممن أنت؟ فقالت: من طيء فقال: ما منع طيأ أن يكون فيهم آخر مثل حاتم فقالت مسرعة: الذي منع الملوك أن يكون فيهم مثلك فعجب من سرعة جوابها وأمر لها بصلة(٢).

سلني حاجتك:

وبلغنا عن أبي دلامة أنه دخل على المهدي فأنشده قصيدة فقال له: سلني حاجتك فقال: يا أمير المؤمنين تهب لي كلباً فغضب وقال: أقول لك

---

(١) ابن الجوزي، الأذكياء، ص١٨.
(٢) ابن الجوزي، الأذكياء، ص٤٣.

سلني حاجتك فتقول: تهب لي كلباً فقال: يا أمير المؤمنين الحاجة لي أم لك قال: لا بل لك قال: فإني أسألك أن تهب لي كلب صيد فأمر له بكلب فقال: يا أمير المؤمنين هبني خرجت إلى الصيد أعدو على رجلي فأمر له بدابة فقال: يا أمير المؤمنين فمن يقوم عليها فأمر له بغلام فقال: يا أمير المؤمنين فهبني قصدت صيداً وأتيت به المنزل فمن يطبخه فأمر له بجارية فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء أين يبيتون فأمر لهم بدار فقال: يا أمير المؤمنين قد صيرت في عنقي كفًّا أي جمعاً من عيال فمن أين ما يتقوت به هؤلاء قال: فإن أمير المؤمنين قد أقطعك ألف جريب عامر وألف جريب غامراً قال: أما العامر فقد عرفته فما الغامر قال: الخراب الذي لا شيء فيه قال: من ألقي جريب واحداً عامراً قال: من أين؟ قال من بيت المال فقال المهدي: حولوا المال وأعطوه جريباً فقال: يا أمير المؤمنين إذا حولوا منه المال صار غامرًا فضحك منه وأرضاه(١).

فقلبها عليه:

قال الجاحظ: قال المهدي لشريك القاضي وعيسى بن موسى عنده: لو شهد عندك عيسى كنت تقبله؟ وأراد أن يضرب بينهما فقال شريك: من سألت عنه لا يسأل عن عيسى غير أمير المؤمنين فإن زكيته قبلته فقلبها عليه(٢).

أخاف أن يملني ويدعني فأموت:

وحكى أبو بكر الصولي أن المهدي اشترى جارية فاشتد شغفه بها وكانت به أشغف وكانت تتجافاه كثير فدس إليها من عرف ما في نفسها فقالت: أخاف أن يملني ويدعني فأموت فأنا أمنع نفسي بعض لذتها منه لأعيش فقال المهدي:

ظفرت بالقلب مني ::: غادة مثل الهلال
كلما صح لها ود ::: ي جاءت باعتلال
لا تحب الهجر مني ::: والتنائي عن وصالي

(١) ابن الجوزي، الأذكياء، ص٤٩.
(٢) ابن الجوزي، الأذكياء، ص٦٤.

بـــــــل لمأمنــــــــها علـــــــــى ::: حـــبي لهـــا خــــوف المــــلال [1]

ما اسمك؟

وسأل المهدي السيد الحميري: ما اسمك؟ فقال: أنت السيد يا أمير المؤمنين. وهذا من الأدب إذا كان اسم المسؤول من صفات السائل[2].

ليس هذا في الكتاب:

قال أبو الحسن: قال ابن جابان: قال المهدي: كان شبيب بن شيبة يسايرني في طريق خراسان فيتقدمني بصدر دابته فقال لي يومًا ينبغي لمن ساير خليفة أن يكون بالموضع الذي إذا أراد الخليفة أن يسأله عن شيء لا يلتفت إليه ويكون من ناحية إن التفت لم تستقبله الشمس قال: فبينما نحن كذلك إذ انتهينا إلى مخاضة فأقحمت دابتي ولم يقف واتبعني فملأ ثيابي ماء وطينًا فقلت: يا أبا معمر ليس هذا في الكتاب[3].

واعظ بين يدي المهدي:

قال ودخل على المهدي صالح بن عبد الجليل فسأله أن يأذن له في الكلام فقال: تكلم. فقال: أنا لما سهل علينا ما توعر على غيرنا من الوصول إليك قمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله بإظهار ما في أعناقنا فريضة الأمر والنهي عند انقطاع عذر الكتمان في التقية ولا سيما حين اتسمت بميسم التواضع، ووعدت الله وحملة كتابه إيثار الحق على ما سواه فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التمحيص لينم مؤدبنا على موعود الأداء عنهم وقابلنا على موعد القبول أو يردنا تمحيص الله إيانا في اختلاف السر والعلانية ويحلينا بحلية الكاذبين، فقد كان أصحاب رسول الله يقولون: من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل وأشد منه عذابًا من أقبل إليه العلم وأدبر عنه ومن أهدى الله إليه علمًا فلم يعمل به فقد رغب عن هدية الله وقصر بها فاقبل ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل لا قبولا فيه سمعة ورياء فإنه لا يخلفك منا إعلام لما تجهل أو

(١) ابن الجوزي، الأذكياء، ص١٠٣.
(٢) أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر، ص٦٧.
(٣) أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ٣٨١/١.

مواطأة على ما تعلم أو تذكير لك من غفلة فقد وطن الله تبارك وتعالى نبيه على نزولها تعزية عما فات وتحصينا من التمادي ودلالة على المخرج فقال:{وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٦} [فصلت: ٣٦]، فاطلع الله على قلبك بما ينور الله به القلوب من إيثار الحق ومنابذة الأهواء فإنك إن لم تفعل ذلك يرى أثرك وأثر الله عليك فيه ولا حول ولا قوة إلا بالله [(١)].

أنت يا جوهر عندي جوهره:

وكان المهدي يحب القيان وسماع الغناء وكان معجبًا بجارية يقال لها: جوهر وكان اشتراها من مروان الشامي فدخل عليه ذات يوم مروان الشامي وجوهر تغنيه فقال مروان:

أنت يا جوهر عندي جوهره ::: في بياض الدرة المشتهره
فإذا غنت فنار ضرمت ::: قذفت في كل قلب شرره

فاتهمه المهدي وأمر به فدع في عنقه إلى أن خرج ثم قال لجوهر: أطربيني، فأنشأت تقول:

وأنت الذي أخلفتني ما وعدتني ::: وأشمت بي من كان فيك يلوم
وأبرزتني للناس ثم تركتني ::: لهم غرضا أرمى وأنت سليم
فلو أن قولا يكلم الجسم قد بدا ::: بجسمي من قول الوشاة كلوم

فقال المهدي:

(ألا يا جوهر القلب ::: لقد زدت على الجوهر...)
(وقد أكملك الله ::: بحسن الدل والمنظر...)
(إذا ما صلت ما ::: أحسن خلق الله بالمزهر...)
(وغنيت ففاح البيت ::: من ريقك بالعنبر...)
(فلا والله ما المهدي ::: أولى منك بالمنبر...)
(فإن شئت ففي كفك ::: خلع ابن أبي جعفر...) [(٢)]

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ١/٥٥٥ ، ٥٥٦.
(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ١/٣٤٠.

إليك عني، يا جاهل!:

وكان المهدي في أول أمره يحتجب عن الندماء، متشبهاً بالمنصور نحواً من سنة، ثم ظهر لهم. فأشار عليه أبو عونٍ بأن يحتجب عنهم، فقال: إليك عني، يا جاهل! إنما اللذة في مشاهدة السرور وفي الدنو من سرني. فأما من وراء وراء، فما خيرها ولذتها؟ ولو لم يكن في الظهور للندماء والإخوان إلا أني أعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطونني من فوائدهم، لجعلت لهم في ذلك حظًّا موفراً.

وكان كثير العطايا، وافرها، قل من حضره إلا أغناه. وكان لين العريكة، سهل الشريعة، لذيذ المنادمة، قصير المناومة، ما يمل نديماً ولا يتركه إلا عن ضرورة، قطيع الخنا، صبوراً على الجلوس، ضاحك السن، قليل الأذى والبذاء[١].

من سخاء المهدي:

حدث عبد الملك بن عبد العزيز، عن أبيه، قال: سألني المهدي أمير المؤمنين، فقال: يا ماجشون! ما قلت حين فقدت أصحابك، يعني الفقهاء، قال: قلت:

يا من لباك على أصحابه جزعا ::: قد كنت أحذر ذا من قبل أن يقعا
إن الزمان رأى إلف السرور بنا ::: فدب بالهجر فيما بيننا وسعى
فليصنع الدهر بي ما شاء مجتهداً ::: فلا زيادة شيءٍ فوق ما صنعا

فقال: والله لأغنينك، فأجازه بعشرة آلاف دينار فقدم بها المدينة فأكلها في السخاء والكرم[٢].

فكيف أخرج عنهم وهم أصلي في ديني؟

وكان شريكٌ قد دخل على المهدي، فقال له: ما ينبغي لك تقلد الحكم بين المسلمين، قال: ولم؟! قال: لخلافك على الجماعة، وقولك بالإمامة.

قال: أما قولك: لخلافك على الجماعة، فعن الجماعة أخذت ديني،

---

(١) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك، ص٦.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص١٣٧.

فكيف أخرج عنهم وهم أصلي في ديني؟ وأما قولك: بالإمامة، فما أعرف إماماً إلا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأما قولك: مثلك لا ينبغي له الحكم بين المسليمن، فهذا شيءٌ أنتم فعلتموه فإن كان خطأً فاستغفروا الله منه، وإن كان صواباً فأمسكوا عليه.

قال: ما تقول في علي بن أبي طالب؟ قال: ما قال عنه جداك العباس وعبد الله قال: وما قالا عنه؟

قال: أما العباس فمات وعلي عنده أفضل الصحابة، وقد كان يرى كبراء المهاجرين يسألونه عما ينزل من النوازل، وما احتاج هو إلى أحدٍ حتى لحق بالله تعالى، وأما عبد الله فإنه كان يضرب بين يديه بسيفين، وكان في حروبه رأساً متبعاً وقائداً مطاعاً، فإن كانت إمامة علي جوراً لكان أول من يقعد عنها أبوك لعلمه بدين الله تعالى وفقهه في أحكام الله.

فسكت المهدي وأطرق، ولم يمض بعد هذا المجلس إلا قليلٌ حتى عزل شريك[1].

الخلفاء يغارون من أبيات جيدة قيلت في غيرهم:

حدثنا أحمد بن العباس العسكري، قال: حدثنا عبد الله بن أبي سعد، قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن موسى بن حمزة، مولى بني هاشم، قال: حدثني أحمد بن موسى بن حمزة، قال: الفضل بن يزيغ، قال: رأيت مروان ابن أبي حفصة قد دخل على المهدي بعد موت معن بن زائدة في جماعةٍ من الشعراء وفيهم سلم الخاسر وغيره، فأنشده مديحاً، فقال: من؟ قال: شاعرك مروان بن أبي حفصة، فقال له المهدي: ألست القائل:

أقمنا باليمامة بعد معنٍ ::: مقاماً لا نريد به زيالا
وقلنا أين نرحل بعد معنٍ ::: وقد ذهب النوال فلا نوالا

قد جئت تطلب نوالنا وقد ذهب النوال، لا شيء لك عندنا، جروا برجله. قال: فجروا برجله حتى أخرج، فلما كان في العام المقبل تلطف حتى دخل مع الشعراء - وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء في ذلك الحين في كل عام مرة - قال: فمثل بين يديه وأنشده قصيدته التي يقول

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص١٤١ ، ١٤٢.

فيها:

طرقتــك زائـــرةٌ فحـــي خيالهـــا ::: بيـــضاء تخلـــط بالحيـــاء دلالهـــا
قـــادت فـــؤادك فاســـتقاد وقبلـــها ::: قـــاد القلـــوب إلى الـــصبا فأمالهـــا

قال: فأنصت لها حتى إذا بلغ إلى قوله:

هل تطمسون من الـــسماء نجومهـــا ::: بـــأكفكم أو تـــسترون هلالهـــا
أو تـــدفعون مقالـــةً عـــن ربكـــم ::: جبريـــل بلغهـــا الـــنبي فقالهـــا
شهدت مـــن الأنفـــال آخـــر آيـــةٍ ::: بتـــراثهم فـــأردتم إبطالهـــا

يعني بني علي وبني العباس، قال: فرأيت المهدي وقد زحف من صدر مصلاه حتى صار على البساط إعجاباً بما سمع، ثم قال له: فإنها لأول مائة ألف أعطيها شاعر في خلافة بني العباس.

قال: فلم تلبث الأيام أن أفضت الخلافة إلى هارون الرشيد، قال: فرأيت مروان بن أبي حفصة ماثلاً مع الشعراء، بين يدي الرشيد وقد أنشده شعراً، فقال له: من؟ قال: شاعرك مروان بن أبي حفصة، فقال له: ألست القائل البيتين اللذين له في معن اللذين أنشدهما المهدي: خذوا بيده فأخرجوه، فإنه لا شيء له عندنا، فأخرج.

فلما كان بعد ذلك بيومين تلطف حتى دخل عليه فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

لعمرك لا أنـــسى غـــداة المحـــصب ::: إشارة ســـلمى بالبنـــان المخـــضب
وقـــد صـــدر الحجـــاج إلا أقلـــهم ::: مصادر شتى موكباً بعـــد موكـــب

قال: فأعجبته، قال له: كم قصيدتك بيتاً؟ قال له: ستون أو سبعون بيتاً، فأمر له بعدد أبياتها ألوفاً، فكان ذلك رسم مروان حتى مات(١).

كيف تولى أبو الأحوص ولاية مصر:

عن الهيثم بن عدي، قال: وجه المهدي أمير المؤمنين إلى أبي الأحوص فأقدم عليه ليوليه مصر وأعمالها، قال: فلما حضر عرض عليه ذلك فامتنع منه امتناعاً شديداً، فاغتاظ من ذلك المهدي فهم بضرب عنقه،

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ص٢٠١.

وكان بحضرة المهدي محمد بن داود جليس خير، فقال له: يا أمير المؤمنين! تمهل عليه ثلاثة أيام، ففعل وأمره بالانصراف، فلما خرج من عنده اشتد غيظه وقال: أما ترى إلى هذا الشيخ، قد لبس خفًّا أحمر وخفًّا أسود ليوهم أنه مضطرب العقل! فقال له محمد بن داود الجليس الصالح: لا تقل ذلك، لعل الشيخ أخرج إليه ما يلبسه في الظلمة فلم يعلم، فسكن.

ومضى محمد بن داود إلى الشيخ أبي الأحوص فألفاه متشكياً يبكي، فقال له: ما شأنك؟ فقال: إنه خرج لي من الظلمة خف أحمر وخف أسود، فلبستها ولم أعلم، فلما خرجت من عند أمير أمير المؤمنين جعل الصبيان يصيحون ويضحكون، فلما تبينت ذلك نزعت الخفين ومشيت حافياً فلحقني وجعٌ عظيم في رجلي، فقال له محمد بن داود: إن أمير المؤمنين وقع له غير هذا فثنيته عما كان وقع له، فإذا حضرت عنده فإياك أن تأبى أو تمتنع، فمضى إلى المهدي فعرفه ذلك فسكن غضبه، واشتد حرصه على تقليد أبي الأحوص.

فلما حضر بين يديه في اليوم الرابع دعا بسفطٍ فأخرج منه كتاباً فيه عهده على مصر وأعمالها، ثم دفع إليه كتاباً ثانياً إلى صاحب الشرطة يأمره بحضور مجلسه وألا يخليه، ثم دفع إليه كتاباً ثالثاً، فقال: هذا تبيين برزقك على العامل، وهو ألف دينار في كل شهر، ومائتا دينار للمائدة، ثم دعا بسفطٍ آخر فأخرج منه ثياباً وطيباً فدفعه إليه، وأمر له بثلاثمائة دينار للنفقة، ثم قال له: الرزق تأخذه معجلاً هنياً تستعين به، وللمائدة مائتا دينار وكل الطيب لتقوي به نفسك، ولا تمل إلى شيءٍ بتة، لأن نفسك غنية بالرزق، وهذه الثلاثمائة دينار تستعين بها على نفقة الطريق، فلا تعترضن من أحد شيئاً فتستحش منه، وهذه الثياب والطيب تكون معك، فإن - وعائذ بالله تعالى - حدث حادث عليك كان هذا معدًّا، فانظر لنفسك وأعزها فقد أعززناك وأمددناك، وفقك الله تعالى للصواب.

فخرج أبو الأحوص إلى مصر فحكم بها سنين كثيرة فحسن أثره وحمد أمره[1].

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٢١٢.

لا آمن أن يكون معه حديدة:

قال محمد بن القاسم: دخل الربيع على المهدي وأبو عبيد الله جالس يعرض كتباً، فقال له أبو عبيد الله: يا أمير المؤمنين يتنحى هذا، يعني الربيع، فقال له المهدي: تنح، قال: لا أفعل، قال: كأنك تراني بالعين الأولى، قال: بل أراك بالعين التي أنت بها، قال: فلم لا تتنحى إذ أمرتك؟ قال: لا آمن أن يكون معه حديدة ينالك بها وأنت سعرة المسلمين وقد قتلت ابنه، فقام المهدي مذعوراً وأمر بتفتيشه، فوجدوا بين جوربه وخفه سكيناً، فردت الأشياء إلى الربيع، فجعل كاتبه يعقوب بن داود مكانه، فقال فيه الشاعر:

أدخلته فعلا عليـ ::: ك كذاك شؤم الناصية
يعقوب يحكم في الأمو ::: ر وأنت تنظر ناحيه [1]

منازعات اللغويين في مجلس المهدي:

وقد كانت تجري بين الكسائي واليزيدي منازعةٌ وهفوات، ومماراة وخصومات، عند الملاحاة في اللغة، والمجادلة في مقاييس النّحو وأبواب العربيّة، وما منهما إلاّ متقدم وعلمٌ مبرز في معرفته، ذو حظٍّ عظيم من علم القرآن وإعرابه، وجملة النّحو وأبوابه، رحمة الله علينا وعليهما وبركاته. فممَّا دار بينهما من الخصومة واللحاء، والمنازعة والمراء، ما حدّثنيه عبيد الله ابن أحمد الكاتب أحد إخواننا قال: حدثنا أبو عبد الله محمّد بن العباس اليزيدي قال، حدّثني عمّي عبيد الله بن محمد قال: أخبرني أبي محمّد بن أبي محمّد قال: أخبرني أبو محمد أبي قال: كنّا مع المهدّي ببلد في شهر رمضان قبل أن يستخلف بأربعة أشهر، وكان الكسائي معنا، فذكر المهدي العربيّة وعنده شيبة بن الوليد العبسيّ عمُّ دفافة، فقال المهدي: يبعث إلى اليزيدي وإلى الكسائي، وأنا يومئذ مع يزيد بن منصور خال المهدي، والكسائي مع الحسن الحاجب، قال: فجاءنا الرسول فجئت، وإذا الكسائيُّ على الباب، فقال لي: يا أبا محمّد أعوذ بالله من شرّك، قال: فقلت له: والله لا تؤتى من قبلي حتّى أوتى من قبلك، قال:

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٢٥٥.

فلمّا دخلنا عليه أقبل عليَّ فقال: كيف نسبوا إلى البحرين بحراني ونسبوا إلى الحصنين فقالوا: حصني ولم يقولوا حصناني كما قالوا بحراني؟ قال: قلت: أصلح الله الأمير، إنّهم لو نسبوا إلى البحرين فقالوا بحريّ لم يعرف إلى البحرين نسبوه أم إلى البحر، ولما جاءوا إلى الحصنين لم يكن موضع آخر يقال له الحصن ينسب إليه غير الحصنين فقالوا: حصني. قال أبو محمّد: فسمعت الكسائي يقول لعمر بن بزيع، وكان حاضراً: لو سألني الأمير لأخبرته بعلّةٍ هي أحسن من هذه. قال أبو محمّد فقلت: أصلح الله الأمير إن هذا يزعم أنّك لو سألته لأجاب بأحسن ممّا أجبت به. قال: فقد سألته، فقال الكسائي: إنّهم لمّا نسبوا إلى الحصنين كانت فيه نونان، فقالوا حصنيّ فاجتزءوا بإحدى النونين عن الأخرى، ولم يكن في البحرين إلاّ نون واحدة فقيل بحراني، فقلت: أصلح الله الأمير كيف ينسب رجلاً من بني جنان؟ يلزمه أن يقول: جنّي لأن في جنّان نونين، فإن قال ذلك فقد سوَّى بينه وبين المنسوب إلى الجنّ. قال المهدي: فتناظرا في غير هذا قال: فتناظرنا في مسائل حفظ قولي وقوله فيها قال: إلى أن قلت: كيف تقول إن من خير القوم أو خيرهم بتة فقلت: أعزّ الله الأمير لأن يجيب فيخطئ فيتعلّم أحسن من هذه الإطالة، قال فقال: إن من خير القوم أو خيرهم نية زيداً، قال: فقلت: أصلح الله الأمير ما رضي أن يلحن حتّى لحن وأحال قال: كيف؟ قال قلت: لرفعه قبل أن يأتي بالاسم ونصبه بعد رفعه، قال: فقال شيبة بن الوليد: أراد بأو بل، قال: فقلت: هذا تعني، فقال الكسائي: ما أردت غير ذلك، قال فقلت: قد أخطأ جميعاً أيّها الأمير، لو أراد بأو بل لرفع زيداً لأنّه لا يكون بل خيرهم زيداً. قال: فقال له المهديّ: يا كسائي لقد دخلت إليَّ مع سلمة النحوي وغيره فما رأيت كما أصابك اليوم. ثمّ قال المهدي: هذان عالمان ولا يقضي بينهما إلاّ أعرابيٌّ فصيح تلقى عليه المسائل التي اختلفا فيها فيجيب.

قال: فبعث إلى فصيح من فصحاء الأعراب. قال أبو محمّد: فإلى أن يأتي الأعرابي أطرقت، وكان المهديّ محبّاً لأخواله، ومنصور بن يزيد بن منصور خاله حاضراً. قال فقلت: أصلح الله الأمير كيف ينشد هذا البيت من هذه القصيدة:

يـــا أيّهـــا الـــسائلي لأخــبر ::: عمن بصنعاء مــن ذوي الحــسب
حمــير ســـادها تقـــرُّ لهـــا ::: بالفضل طــرًّا جحــاجح العــرب
وإنّ مـــن خيرهـــم وأكـــرمهم ::: أو خيرهـــم بتـــةً أبـــو كـــرب

فقال المهدي: كيف تنشد أنت؟ قال: فقلت: أو خيرهم بتةً أبو كرب على معنى إعادة " إنَّ ". قال فقال الكسائي: هو قالها السّاعة أصلح الله الأمير.

قال: فتبسَّم المهدي، وقال: إنّك لتجيد له وما تدري. قال: ثم طلع الأعرابي الّذي بعث إليه فألقيت المسائل عليه، وكانت ستَّ مسائل، فأجاب عنها كلّها بقولي. قال: فاستفزّني السّرور حتّى ضربت بقلنسوتي الأرض وقلت: أنا أبو محمّد. قال: فقال شيبة بن الوليد: تكنّى باسمك أيّها الأمير!! فقال المهدي: والله ما أراد مكروهاً ولكنه فعل ما فعل للظفر، ولعمري لقد ظفر. قال: فقلت: إن الله عز وجل أنطقك أيها الأمير بما أنت أهله، وأنطق غيرك بما هو أهله.

قال: فلمّا خرجنا قال لي شيبة: تخطِّئني بين يدي الأمير؟! أما لتعلمنّ. قال: فقلت: قد سمعت ما قلت وأرجو أن تجد غبّها. قال: ثم لم أصبح حتّى كتبت رقاعاً عدّة، فلم أدع ديواناً حتّى دسست إليه رقعةً فيها أبيات قلتها، فأصبح النّاس ينشدونها وهي:

عـــش بجـــدّ ولا يـــضرّك نـــوكٌ ::: إنّمـــا مـــن تـــرى بالجـــدود
عش بجدّ وكـــن هبنّقـــة القيـــسيَّ ::: نوكـــاً أو شـــيبة بـــن الوليـــد
شيب يا شـــيب يـــا جـــديَّ بـــني ::: القعقاع ما أنت بـــالحليم الرشـــيد:
لا ولا فيك خلَّةٌ من خـــلال الـــ ::: ـخـــير أحرزتهـــا بحـــزمٍ وجـــود
غـــير مـــا أنّـــك المجيـــد لتقطيـــع ::: غنـــاءٍ أو ضـــرب دفٍّ وعـــود
فعلـــى ذا وذاك يحتمـــل الـــد ::: هـــر مجيـــداً لـــه وغـــير مجيـــد

قال أبو عبد الله، وحدّثني عمّي عبيد الله قال، حدّثني أبو جعفر أخي قال، حدّثني أبو محمّد قال: كانت تحتبس أرزاق الكسائي فيصير إليّ فيقول لي: اكتب لي رقعةً إلى جعفر بن يحيى فأكتب له.

قال القاضي: وقد أحسن اليزيدي فيما أجاب به، وألطف في نظره

وقياسه، وأتى فيما بينه وبين الكسائي من الجفاء بما كان الأولى به خلافه، وما كان عليه لو حابى الكسائيَّ وأغضى له، فقد كان يعرف فضله وتمكُّنه من العلم ونبله. والمسألة التي سأله عنها بحضرة المهدي لطيفةٌ، وتعرض كثيراً في أمثالها الشبهة، وقد سأله عنها واستبطأه في جوابها وأنَّبه على تأخيره الجواب عنها، وما أرى الزيدي حصَّل جوابها عند ابتداء وقوعها إليه على البدار والبديهة حتّى أنعم فيها نظره وأعمل فيها فكره. وقد كنت أمللت في هذه المسألة كلاماً، وشرحت ما استدلَّ به اليزيدي فيها والوجه الذي تعلّق به الكسائي في إجابته عنها، كرهت إعادته والإطالة هاهنا بذكره(١).

فم الحوت وعلي بن يقطين:

قال العتبي: قدم فم الحوت من المدينة بغداد فنزل على علي بن يقطين، وكان لاعباً بالشطرنج، فقال له علي: لاعبني، قال: إنّ عليَّ يميناً ألا ألعب أبداً إلاّ في إمرة مطاعةٍ، قال: فها هنالك، فلاعبه فقمره فم الحوت، وكان مشوَّه الوجه أهدل الشفة السفلى مقلّص العليا مائل الشدق قبيح الأسنان، فقال له: احتكم، قال: تقبّلني قبلة، قال: أو الفدية قال: ذاك لك قال: ألف درهم قال: لا والله قال: ألفين قال: لا والله، قال: ثلاثة آلاف، قال: لا والله، قال: أربعة آلاف، قال: هاتها. فدفعها إليه وركب عليٌّ بن يقطين إلى المهدي فأخبره فاستضحك وقال: ويحك أرنيه من حيث لا يراني، فأدخلته عليه من موضع يراه المهدي: وهو لا يراه فلما نظر إليه وإلى تشويه خلقه وقبح فمه قال له المهدي: ويحك يا علي قد والله ربحت ستة وثلاثين ألفاً. قال: وكيف؟ قال: من لا يفتدي قبلة من هذا بأربعين ألفاً؟! قد ربحت ستة وثلاثين ألفاً (٢).

المهدي يستدعي مولى فائد ليغنيه صوتاً معيناً:

قال الربيع بن الفضل: أمرني أمير المؤمنين المهديُّ بالتقدُّم إلى خليفة العامل على الباب أن يكتب إلى صاحبه كتاباً عن نفسه في إشخاص أبي

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٤٤٧.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٤٥١.

سعيد مولى فائد، فلم يكتب شيئاً حتّى وافى أبو سعيد فأدخله خليفة العامل عليَّ. فتوهّمت عند نظري إليه أنّه قاضي الحرمين، فدخلت من ساعتي إلى أمير المؤمنين وأعلمته، فأمرني بصرف الناس وإدخاله. قال: فقرّب أمير المؤمنين مجلسه وأحفى سؤاله ثم قال له: غنني أبا سعيد:

لقد طفت سبعاً قلت لما قضيتها ::: ألا ليت سعيي لا عليَّ ولا ليا
وإنّ الّذي يبغي رضاي بذكرها ::: لأكرم من أهلي عليَّ وماليا

فقال: وأغنّيك أحسن منه يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك. قال: أنت وذاك، فغنّاه:

قدم الطويل فأشرقت واستبشرت ::: أرض الحجاز وبان في الأسحار
غيث الحيا وضياء كلِّ ملمّة ::: سهل القياد ومألف الزوّار

قال القاضي: فأجاده وأحسنه، غير أن المهدي قال: هذا حسن ولكن غنني**لقد طفت سبعاً**— قال له: وأحسن منه، جعلني الله فداك. قال له: أنت وذاك، فغناه:

إن هذا الطويل من آل حفصٍ ::: نشر الجود بعدما كان ماتا
وبنى المجد مشبهاً لأبيه ::: مثل ما يشبه النبات النباتا

قال القاضي: هكذا رواه، وأنشر أفصح. فأحسنه وأجاده، فقال المهدي: ويحك يا أبا سعيد، ما تركت في إحسانٍ مزيداً ولكن غنّني: " لقد طفت سبعاً " فغنّاه:

إنَّ الطويل من آل حفصٍ فاعلموا ::: ساد الحضور وساد في الأسفار

قال، فقال له المهدي: أنت تحسن يا أبا سعيد، ولكن ليس تغنيني الّذي أشتهي. فقال له الفضل منتهراً، غنِّ أمير المؤمنين ما يأمرك به. فقال أبوسعيد: يا أمير المؤمنين لا والذي أكرمك بخلافته ما لي إلى ذلك سبيل. قال: وكيف؟ قال: لأني رأيت رسول الله في المنام، وكان في يده شيء، فأهوى إليّ ليضربني به وهو يقول: لقد طفت سبعاً، ماذا صنعت يا بني؟ فقلت: اعف عنّي، فوباعثك بالحقّ لا غنَّيت هذا الصوت أبداً. قال: فردَّه عني وقال: عفا الله عنك. فرأيت المهدي يبكي وتغلبه دموعه وهو يكفُّها،

ثمّ وصله وصرفه[١] .

أحسنت!:

وقال عبد الله بن مالك الخزاعي: دخلت على أمير المؤمنين المهدي وعنده ابن دأب وهو ينشد قول الشماخ:

وأشعث قد قــد الــسفار قميــصه ::: يجر شــواء بالعــصا غــير منــضج

دعــوت إلى مــا نــابني فأجــابني ::: كريم مــن الفتيــان غــير مــزلج

فتى يملأ الــشيزي ويــروي ســنانه ::: ويضرب في رأس الكمــي المــدجج

فتى ليس بالراضي بــأدنى معيــشة ::: ولا في بيــوت الحــي بــالمتولج

فرفع رأس إلي المهدي وقال: هذه صفتك أبا العباس فقلت: بك نلتها يا أمير المؤمنين. فضحك إلي وقال: هل تنشد من الشعر شيئاً؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: فأنشدني. فأنشدته قول السموأل:

وإن هو لم يحمل على النفس ضــيمها ::: فلــيس إلى حــسن الثنــاء ســبيل

إذا المــرء أعيتــه المــروءة يافعــاً ::: فمطلبــها كهــلاً عليــه ثقيــل

تعيرنــا أنــا قليــل عديــدنا ::: فقلــت لهــا إن الكــرام قليــل

ومــا ضــرنا أنــا قليــل وجارنــا ::: عزيــز وجــار الأكثــرين ذليــل

ونحن أناس لا نــرى القتــل ســبة ::: إذا مــا رأتــه عــامر وســلول

يقرب حــب المــوت آجالنــا لنــا ::: وتكرهـــه آجــالهم فتطــول

وما مات منا ســيد حتــف أنفــه ::: ولا طل منــا حيــث كــان قتيــل

تسيل على حد الــسيوف نفوســنا ::: وليست على غير الــسيوف تــسيل

وننكر إن شئنا على النــاس قــولهم ::: ولا ينكرون القــول حــين نقــول

فنحن كماء المــزن مــا في نــصابنا ::: كهــام ولا فينــا يعــد بخيــل

وأسيافنا في كــل شــرق ومغــرب ::: بها مــن قــراع الــدارعين فلــول

فقال: أحسنت! اجلس، بهذا بلغتم، سل حاجتك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، تكتب لي في العطاء ثلاثين رجلاً من أهلي؟ قال: نعم، فرض علي إذا وعدت. فقلت يا أمير المؤمنين، إنك متمكن من القدرة وليس

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،ص ٤٨٠ ، ٤٨١.

دونك حاجز عن الفعل، فما معنى العدة؟ فنظر إلى بن دأب كأنه يريد منه كلاماً في فضل الموعد. فقال ابن دأب:

حـــلاوة الفعـــل بوعـــد ينجـــز ::: لا خير في العـــرف كنـــهب ينـــهز

فضحك المهدي وقال:

الفعــــل أحـــــسن مــــا يكــــو ::: ن إذا تقدمـــــــــه ضـــــــــمان[1]

تملأ هذه يا أمير المؤمنين:

إبراهيم الشيباني قال: ولدت لأبي دلامة ابنة ليلاً، فأوقد السراج وجعل يخيط خريطة من شقق. فلما أصبح طواها بين أصابعه وغدا بها إلى المهدي فاستأذن عليه، وكان لا يحجب عنه. فأنشده:

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم ::: قوم لقيل اقعـــدوا يـــا آل عبـــاس

ثم ارتقوا من شعاع الشمس في درج ::: إلى السماء فـــأنتم أكـــرم النـــاس

قال له المهدي: أحسنت والله أبا دلامة! فما الذي غدا بك إلينا؟ قال: ولدت لي جارية يا أمير المؤمنين. قال: فهل قلت فيها شعراً؟ قال: نعم، قلت:

فمــــا ولــــدتك مــــريم أم عيـــسى ::: ولم يكفلــــك لقمــــان الحكـــــيم

ولكــــن قــــد تــــضمك أم ســــوء ::: إلى لباتهـــــــا وأب لئـــــــيم

قال: فضحك المهدي. وقال: فما تريد أن أعينك به في تربيتها أبا دلامة؟ قال: تملأ هذه يا أمير المؤمنين، وأشار إليه بالخريطة بين إصبعيه. فقال المهدي: وما عسى أن تحمل هذه؟ قال: من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير. فأمر أن تملأ مالاً. فلما نشرت أخذت عليهم صحن الدار، فدخل فيها أربعة آلاف درهم.

من أدخلني مع الدجاج؟

وكان المهدي قد كسا أبا دلامة ساجاً. فأخذ به وهو سكران، فأتي به إلى المهدي. فأمر بتمزيق الساج عليه، وأن يحبس في بيت الدجاج، فلما كان في بعض الليل وصحا أبو دلامة من سكره ورأى نفسه بين الدجاج،

---

(١) العقد الفريد،١/٦٩ ، ٧٠.

صاح: يا صاحب البيت.

فاستجاب له السجان؛ فقال: ما لك يا عدو الله؟ قال له: ويلك! من أدخلني مع الدجاج؟ قال: أعمالك الخبيثة، أتى بك أمير المؤمنين وأنت سكران فأمر بتمزيق ساجك وحبسك مع الدجاج. قال له: ويلك! أو تقدر على أن توقد سراجاً، وتجيئني بدواة وورق ولك سلبي هذا. فأتاه بدواة وورق: فكتب أبو دلامة إلى المهدي:

أمن صهباء صافية المزاج ::: كأن شعاعها لهب السراج
تهش لها النفوس وتشتهيها ::: إذا برزت ترقرق في الزجاج
وقد طبخت بنار الله حتى ::: لقد صارت من النطف النضاج
أمير المؤمنين فدتك نفسي ::: علام حبستني وخرقت ساجي
أقاد إلى السجون بغير ذنب ::: كأني بعض عمال الخراج
ولو معهم حبست لهان وجدي ::: ولكني حبست مع الدجاج
دجاجات يطيف بهن ديك ::: يناجي بالصياح إذا يناجي
وقد كانت تخبرني ذنوبٍ ::: بأني من عذابك غير ناجي
على أني وإن لاقيت شراً ::: لخيرك بعد ذاك الشر راجي

ثم قال: أوصلها إلى أمير المؤمنين. فأوصلها إليه السجان. فلما قرأها، أمر بإطلاقه وأدخله عليه، فقال: أين بت الليلة أبا دلامة؟ قال: مع الدجاج يا أمير المؤمنين. قال: فما كنت تصنع؟ قال: كنت أقاقي معهن حتى أصبحت. فضحك المهدي وأمر بصلة جزيلة، وخلع عليه كسوة شريفة.

الاستعطاف والاعتراف:

لما سخط المهدي على يعقوب بن داود، قال له: يا يعقوب؛ قال: لبيك يا أمير المؤمنين، تلبية مكروب لموجدتك؛ قال: ألم أرفع من قدرك إذ كنت وضيعاً، وأبعد من ذكرك إذ كنت خاملاً، وألبسك من نعمتي ما لم أجد بها يدين من الشكر، فكيف رأيت الله أظهر عليك، ورد إليك مني؟ قال: إن كان ذلك بعلمك يا أمير المؤمنين فتصديق معترف منيب، وإن كان مما استخرجته دفائن الباغين فعائذ بفضلك؛ فقال: والله لولا الحنث

في دمك بما تقدم لك، لألبستك منه قميصاً لا تشد عليه زرًّا، ثم أمر به إلى الحبس. فتولى وهو يقول: الوفاء يا أمير المؤمنين كرم، والمودة رحم، وأنت بها جدير.

أخذت الشعراء معنى قول المهدي: لألبستك منه قميصاً لا تشد عليه زرًّا، فقال معلي الطائي:

طوقتــه بالحــسام طــوق ردى ::: مــا يــستطيع عليــه شــد أزرار

وقال حبيب:

طوقتــه بالحــسام طــوق داهيــة ::: أغناه عــن مــس طوقــه بيــده[1]

خير لك من أن تطيعك طاعة خوف:

دخل ابن خريم على المهدي، وقد عتب على بعض أهل الشام، وأراد أن يغزيهم جيشاً، فقال: يا أمير المؤمنين، عليك بالعفو عن الذنب، والتجاوز عن المسيء، فلأن تطيعك العرب طاعة محبة، خير لك من أن تطيعك طاعة خوف.

لا يجب عليه ضرب العنق:

أمر المهدي بضرب عنق رجل، فقام إليه ابن السماك، فقال: إن هذا الرجل لا يجب عليه ضرب العنق؛ قال: فما يجب عليه؟ قال: تعفو عنه، فإن كان من أجر كان لك دوني، وإن كان وزر كان علي دونك. فخلى سبيله[2].

قوم معوزون:

خَرج المهديّ يَطُوف بعد هَدْأة من اللّيل، فَسَمِع أعْرَابيّة من جانب المسجد، وهي تقول: قوم معوزون، نَبَت عنهم العُيُون، وفدَحَتْهم الدُّيون، وعَضَّتهم السِّنون، باد رجالُهم، وذهبت أموالهم، أبناء سَبيل، وأنْضاء طريق، وصيّة الله ووصية رسوله، فَهل من أمر بخَيْر، كَلأه اللّه في

(١) العقد الفريد، ١٣٧/١.
(٢) العقد الفريد، ١٥١/١.

سفره، وخَلفه في أهله. فأمر نُصَيراً الخادم فدفع إليها خَمْسمائة درهم[١].

وأنت خير من الذي حَمّلني عليك:

كان شَريك القاضي يُشاحن الربيعَ صاحبَ شُرْطة المهديّ، فحمل الربيعُ المهديَّ عليه، فدَخل شريك يوماً على المهديّ، فقال له المهديّ: بَلَغني أنك وُلدت في قَوْصرة؛ فقال: وُلدتُ يا أميرَ المُؤمنين بخراسان والقَواصر هناك عَزيزة؛ قال: إني لأراك فاطميّا خَبيثا؛ قال: واللّه إني لأحبِّ فاطمة وأبا فاطمة ، قال: وأنا والله أحبهما، ولكني رأيتُك في مَنامي مَصروفا وَجهك عنّي، وما ذاك إلا لبُغضك لنا، وما أراني إلا قاتلك لأنك زِنْديق؟ قال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ الدَماء لا تُسفك بالأحلام، ليس رُؤياك رُؤيا يوسفَ النبيِّ ، وأما قوْلُك بأني زِنْديق، فإن للزنادِقة علامةً وليس رؤياك رؤيا يوسف النبي وأما قولك بأني زنديق، فإن للزنادقة علامة يعرفون بها؟ قال: وما هي؟ قال: بشُرب الخمر والضّرب بالطنبور؛ قال: صدقت أبا عبد اللهّ، وأنت خير من الذي حمَلني عليك[٢].

تفاحة من عند تفاحة:

أهدت جارية من جواري المهدي تفاحة إلى المهدي وطيبتها. وكتبت فيها:

هديــــة مـــني إلى المهـــدي ::: تفاحـــة تقطـــف مـــن خـــدي
محمـــرة مـــصفرة طيبـــت ::: كأنهـــا مـــن جنـــة الخلـــد

فأجاب المهدي:

تفاحـــة مـــن عنـــد تفاحـــة ::: جـــاءت فمـــاذا صـــنعت بـــالفؤاد
والله مـــا أدري أأبـــصرتها ::: يقظـــان أم أبـــصرتها في الرقـــاد[٣]

كل امرئ يأكل زاده:

خرج أبو دلامة مع المهدي في مصاد لهم، فعن لهم ظبي فرماه المهدي فأصابه، ورمى علي بن سليمان فأخطأ وأصاب الكلب، فضحك

(١) العقد الفريد، ٢٤٦/١.
(٢) العقد الفريد، ٤٧٧/١.
(٣) العقد الفريد، ٤٣/٣.

المهدي وقال لأبي دلامة: قل. فقال:

قـــد رمـــى المهـــدي ظبيـــاً ::: شـــك بالـــسهم فـــؤاده
وعلـــي بـــن ســـليما ::: ن رمـــى كلبـــاً فـــصاده
فهنيئـــاً لهمـــا كـــل امـــرئ يأكـــل زاده

هجاء نفسه أقل ضرراً عليه:

ودخل أبو دلامة على المهدي، وعنده محمد بن الجهم وزيره، وكان المهدي يستثقله فقال له: أبا دلامة، والله لا تبرح مكانك حتى تهجو أحد الثلاثة. فهم أبو دلامة بهجاء ابن الجهم، خاف شره، فرأى أن هجاء نفسه أقل ضرراً عليه، فقال:

ألا أبلـــغ لـــديك أبـــا دلامـــه ::: فلـــيس مـــن الكـــرام ولا كرامـــه
إذا لـــبس العمامـــة كـــان قـــرداً ::: وخنزيـــراً إذا وضـــع العمامـــه
وإن لـــزم العمامـــة كـــان فيهـــا ::: كقـــرد مـــا تفارقـــه الدمامـــه [(١)]

أليس قد جلس هذا المجلس أبوك وعمك قبلك؟

ودخل صالح بن بشر على المهدي، فقال له: عظني فقال: أليس قد جلس هذا المجلس أبوك وعمك قبلك؟ قال نعم، قال: فكانت لهم أعمال ترجو لهم النجاة بها، قال: نعم قال: فكانت لهم أعمال تخاف عليهم الهلكة منها قال: نعم قال: فانظر ما رجوت لهم فيه فآته وما خفت عليهم فيه فاجتنبه[(٢)].

كم سنك يا فتى؟

حكى المسعودي في شرح المقامات: أن المهدي لما دخل البصرة رأى إياس بن معاوية وهو صبي وخلفه أربعمائة من العلماء وأصحاب الطيالسة وإياس يقدمهم، فقال المهدي لعامله: أما كان فيهم شيخ يتقدمهم غير هذا الحدث؟ ثم إن المهدي التفت إليه وقال: كم سنك يا فتى؟ فقال: سني أطال الله بقاء الأمير، سن أسامة بن زيد بن حارثة لما ولاه رسول

(١) العقد الفريد، ٥٤/٣.
(٢) الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، ١٩٤/١.

الله جيشاً فيهم أبو بكر وعمر، فقال له: تقدم بارك الله فيك [١].

أتهزأ بخالي؟

دخل بشار على المهدي وعنده خاله يزيد بن منصور الحميري: فأنشده قصيدة يمدحه بها فلما أتمها قال له يزيد: ما صناعتك أيها الشيخ فقال: أثقب اللؤلؤ، فقال له المهدي: أتهزأ بخالي؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما يكون جوابي له وهو يراني شيخاً أعمى ينشد شعراً فضحك المهدي وأجازه [٢].

كذاب أمير المؤمنين:

وكان المهدي قد غضب على رجل من القواد، واستصفى ماله، وكان يختلف إلى علي بن يقطين، رجاء أن يكلم له المهدي، وكان يرى قرب المديني، ومكانه من علي، فأتى المديني عشيًّا فقال: ما البشرى؟ قال: لك البشرى وحكمك، قال: أرسلني علي بن يقطين إليك وهو يقرئك السلام ويقول: قد كلمت أمير المؤمنين في أمرك، ورضي عنك، وأمر برد مالك وضياعك ويأمرك بالغدو إليه لتغدو معه إلى أمير المؤمنين متشكراً. فدعا له الرجل بألف دينار وكسوة وحملان، وغدا على علي مع جماعة من وجوه العسكر متشكراً، فقال له علي: وما ذاك؟ قال: أخبرني أبو فلان - وهو إلى جنبه - كلامك أمير المؤمنين في أمري ورضاه عني، فالتفت إلى المديني وقال: ما هذا؟ فقال: أصلحك الله، هذا بعض ذلك المتاع نشرناه، فضحك علي وقال: علي بدابتي، وركب إلى المهدي، وحدثه الحديث، فضحك المهدي وقال: إنا قد رضينا عن الرجل ورددنا عليه ماله، وأجرى على المديني رزقاً واسعاً، واستوصى به خيراً، ثم وصله، وكان يعرف بكذاب أمير المؤمنين [٣].

قد بات في جبة ملاح:

(١) الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، ٢٩٢/١.
(٢) الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، ٦١/٢.
(٣) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، المحاسن والأضداد، مكتبة الخانجي - القاهرة / مصر - ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، ص٣١.

قال أبو العتاهية: خرجت مع المهدي إلى الصيد فتفرق أصحابه وبقيت معه وقد أقبل علينا المطر، فانتهينا إلى ملاح معه زورق فقال لنا: ادخلا من هذا المطر. فدخلنا ووقعت الرعدة على المهدي من شدة البرد فقال له الملاح: هل لك أن ألقي عليك جبتي؟ فقال: نعم. فألقاها عليه. فما زال يتقرقف حتى نام، ثم أقبل الخدم والغلمان وألقوا عليه الخز والوشي، فلما انتبه أمر بدفع ذلك إلى الملاح وقال: يا أبا العتاهية ألا هجوتني! فقلت: يا أمير المؤمنين وكيف تطيب نفسي بهجائك؟ قال: فإني أسألك بالله، فقلت:

يا لابس الوشي على شيبه ::: ما أقبح الأشيب في الراح

فنقر نقرة ثم قال: زدني، فقلت:

لو شئت أيضاً جُلت في خامة ٍ ::: وفي وشاحين وأوضاح

فقال: ويلك زدني، فقلت:

كم من عظيم الشأن في نفسه ::: قد بات في جبة ملاح[1]

فمن أنت؟

وقال الحسن بن الفضل بن الربيع: خرج علينا المهديّ متنكراً ومعه الربيع والمسيّب بن زهير يطوف في الأسواق إذ نظر إلى أعرابي ينشد فقال الربيع: أخبرني عن أرق بيت قالته العرب، قال: بيت امرئ القيس بن حجر:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي ::: بسهميك في أعشار قلبٍ مقتّل

فقال المهدي: بيت قد داسته العامة وفيه غلطٌ. ثم قال للمسيب: هات ما عندك. فقال:

ومما شجاني أنها يوم أعرضت ::: تولت وماء العين في الجفن حائر

فلما أعادت من بعيد بنظرةٍ ::: إليّ التفاتاً أسلمتها المحاجر

وسلمتها أيضاً. فقال: وإن هذا قريبٌ من ذاك. وخلفهم شابّ من أهل المدينة له أدب وظرف وقدم متظلماً فطال مقامه على باب المهدي، فلما

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص١٢٤.

سمع ذلك منهم حمله ظرف الأدب على أن أدخل نفسه بينهم واتصل بهم وقال: أتأذنون أن أخوض معكم فيما أنتم فيه؟ قالوا: ماذا؟ قال: قال الأحوص:

إذا قلت إني مشتفٍ بلقائها ::: فحمُّ التلاقي بيننا زادني وجدا

فقال المهدي: أحسنت يا فتى، فمن أنت؟ قال: أنا رجل من أهل المدينة. قال: وما أقدمك العراق؟ قال: مظلمة لي أنا مقيم عليها بباب الخليفة منذ كذا وكذا وقد أضرّ بي ذلك. فقال للربيع: عليك بالرجل. فأخذه معه وسامره أياماً ثم أمر بردّ مظلمته وقضى حوائجه وأمر له بصلة عشرة آلاف درهم(١).

لم يرض لك إلا بأرفعها وأشرفها:

ودخل شبيب بن شيبة على المهدي فقال: يا أمير المؤمنين إن الله جل وعز حيث قسم الدنيا لم يرض لك إلا بأرفعها وأشرفها فلا ترض لنفسك من الآخرة إلا بمثل ما رضي لك من الدنيا، وأوصيك يا أمير المؤمنين بتقوى الله فإنها عليكم نزلت ومنكم قُبلت وإليكم تُردّ(٢).

إن الكريم إذا خادعته انخدعا:

وخط المهدي على بعض القحاطبة فقال: لا أراه إلا والسيف مسلول والنطع منشور. فأتي به وقد سل السيف ونشر النطع فبكى فقال: ألك مثل حركتك وتبكي؟ فقال: ما بكيت جزعاً من الموت ولكن بكيت أن ألقى الله وأنت ساخط عليّ. فقال المهدي: يا غلام أدرج النطع وأغمد السيف:إن الكريم إذا خادعته انخدعا.

قيل: وعاتب المهدي شبيب بن شيبة في شيء بلغه عنه. فاعتذر إليه وقال: والله لو كان لي ذنب لأقررت ولكن عفو أمير المؤمنين أسرع إلي من براءتي(٣).

خلّوا سبيله:

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص١٧٩.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص١٨٨.
(٣) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٢١٦.

قال: ولما خرج جعفر الأحمري من الحبس وأُدخل على المهدي في الحديد قال له: يا فاسق أزلّك الشيطان وأغواك، وفي غمرة الجهل أرداك، وعن الهدى بعد البصيرة أعماك، حتى تركت الطريقة ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة، كيف رأيت الله كشف أمرك وأعلن فسقك وأظهر ما كنت تخفي من سقم سريرتك وخبث نيتك فأوردك حوض منيتك وذلك بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد! قال جعفر: لا والذي لم يزل بعباده خبيراً، وبعث محمداً، عليه وعلى آله السلام، بالحق بشيراً، طهر أهله من دنس الريب تطهيراً، ووقفني بيد يديك أسيرًا، وجعلك علينا سلطاناً أميرًا، ما خنت الإسلام نقيرًا، ولا أضللت الهدى منذ كنت بصيرًا، فلا تقدم عليّ بالشبهة تقديرًا، بسعي ساعٍ سوف يجزي بسعيه سعيرًا.

فقال المهدي: ما يغني عنك وسواسك، فما تهذي من أم رأسك، قد تناهت إليّ أخبارك، وأدّاها من كان يقفو آثارك، ويعرف أسرارك، ومن بايعك من أعوانك الذين وازروك على ضلالك، فأقلل، لا أم لك، تشجعك، فقد حلّ قضاؤك، وحان حصادك.

فقال جعفر: إن تقتلني تقتل مني علماً فلا تجعل لي على ظهرك وزراً فأصير لك يوم القيامة خصمًا، وأنت تعلم أنك لا تجيء بقتلي عدلاً ولا تنال به فضلاً، فاتق الذي خلقك وأمر عباده ملكك وبالعدل فيهم أمرك، ولا تحكم عليّ بحكم عن الهدى مائل، فإنك للدنيا مفارق وعنها راحل، وكلّ ما أنت فيه فمضمحل زائل.

قال له المهدي: تطالبني وأنت المطلوب، وبباطلك تغلب حقي وأنت المغلوب، الآن ظهر فسادك، وبلغ غرسك، ودبّت عقاربك، اللهم إلا أن تقرّ بذنبك وتعترف بجرمك وتتوب إلى ربك وتحقن بالإنابة دمك، فإن فعلت ذلك أمهلنا أمرك وأطلنا حبسك وإلا فاحتسب نفسك ولا تلم إلا جهلك.

قال جعفر: ما لي ذنب فأستغفر ولا جرم فأعترف ولا لي بك قوة فأنتصر، وأنت على ظلمي مقتدر، فإن كنت تعلم أن ما بعد الموت مصدر ولا للعباد بعد البلى محشر ولا للظالم موعد يخاف منه ويحذر فاعمل من هذا ما شئت واستكثر.

قال المهدي: لا والذي بمكة بيته الحرام، وحوله الشعث العاكفون قيام، ما أخشى في إقامة الأحكام عليك وعلى أشباهك إثماً ولا زوراً، فاستسلم للقتل ودع الكلام، فإنه إذا عقر الأساس تداعى النظام، وإذا انكسرت القوس تعطلت السهام، وأنت فطال ما أعنت على إطفاء النور بريح الظلام.

قال جعفر: اعف فإنك كريم جواد سامح، ولا تقبل فيّ قول العدو الكاشح، فإني من الإسلام على الطريق الواضح، رفيق على أهله ولهم ناصح، أبرّ العالمين بفهم راجح، فلا تقدم عليّ بقول كلب نابح، فقتلك إيايّ عمل غير صالح.

قال المهدي: مذهبك واعتقادك تزعم أن الآخرة بعد فراق الساهرة، وأن الناس كانوا أعلاماً زاهرة، وأشجاراً ناضرة، وزروعاً غاضرة، تلبث يسيراً ثم تعود هشيماً، وإن من مات لا يعود كما أن ضوء المصباح إذا طفئ لا يرجع.

قال جعفر: لا والذي يخلق ويبيد، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد، ما قلت ذلك وهو له شهيد، وإني أخلص له التوحيد والتفريد والمشية والتحديد، وأشهد أنه الغفور الودود، يعلم منقلب العبيد.

قال المهدي: إن كنت تحب خلاص نفسك ورقبتك فأحضرني كتاب زندقتك الذي بالجهل ألفته وبالباطل زيّنته وبالضلال زخرفته، سميته أسّ الحكمة وبستان الفلسفة، زعمته مستخرجاً من ديوان الإلهام منظماً بحسن الكلام، عنّفت فيه الإسلام وأضللت فيه الأنام.

فقال جعفر: لا والذي خلق الظلمات والنور، ودبّر الأمور وهو قادر على أن يبعث من في القبور، ما هذا إلا إفك مجترح وزور، وإن ديني لظاهر منير تقديمي ذرية من هو مع الله جل وعز في كل فرض لازم أمام النبيين في البيت المعمور، فاتق الذي خلقك وأمر عبادك قلّدك يعلم خفيات الأمور.

قال المهدي: وأصفح لك عن هذا فما حجتك في كتابك الذي أضلّ أهل الشقاق والنفاق ومن منهم في الأندية والأسواق يقرأونه ويتدارسونه

في الآفاق، أما بعد أعلمكم أن الله جل وعز عدل لا يوالي الظالمين ولا يرضى فعال الجاهلين، وأنه ليس لله بوليّ من رضي بأحكام الجائرين، فسيحوا في الأرض حيث لا تنالكم أيدي المعتدين، فإن بني العباس طغاة كفرة، أولياؤهم فسقة وأعوانهم ظلمة، دولتهم شرّ الدول، عجّل الله بوارهم وهدم منارهم والعاقبة للمتقين.

قال جعفر: هذا والله بهتان عظيم جدًّا قذفني به قاذف عمداً وأنت تعلم أني ما خالفت لكم أمراً ولا غبت منكم أحداً، فاقبل المعذرة وأقل العثرة وتغمد الهفوة واغتفر الزلة فإنك راع مسؤول.

قال المهدي: أولم أُبلّغ أنك في الغوغاء تحثهم على شق العصا ومخالفة الأمر وتحيدهم عن طاعة الخلفاء، فأي داهية أدهى منك؟ قال جعفر: ما بُلّغت حقًّا ولقد طوى النصيحة من أودع قلبك بهتاناً وإفكاً فلا تقبل فيّ قول من ظلم واعتدى وبفسادي إليك سعى، فإن الله جلّ وعز سائله يوم يودّ الظالم يا ليته لم يكن أميراً، ولا كان المضلّ له وزيراً.

قال المهدي: إنك لجاهل أن تقيم اعوجاجك بكثرة احتجاجك، هيهات لا يكدر صفوتي مزاجك، وقد قيل: من ظفر بحية لا يأمن لسعها ثم لم يشدخ رأسها كانت سبب حتفه، ولعمري إن من يكون له عدو مثلك يرقب غرّته وينتظر فورته ولا يطلق يده بقتله لعاجز.

قال جعفر: وما بلغ الله بقدر النملة ونكاية النحلة وإنما يكتفي مثلي من مثلك بلحظة، فالكرماء رحماء بررة، والقسوة في اللئام الشررة. قال المهدي: من تنته أيامه لاحت في الظلام أعلامه وأسرع به أن يذوق حمامه، يا غلام سيفاً قاطعاً وضارباً حاذقاً! قال جعفر: إن كنت تؤمن بالمعاد وتتقي من الحشر يوم التناد، يوم يجمع الله فيه العباد، تعلم أن طالب ثأري لك بالمرصاد، ومن لم يكن له في الموت خير فلا خير له في الحياة، إن قدّمتني أمامك فأنا قاعد لك على الجادة التي ليس عنها مرحل الحاكم يومئذ غيرك.

قال: فسكت المهدي طويلاً ثم التفت إلى أصحابه فقال: كيف أقدم على قتل رجل لا يخاف مكيدتي ولا يرعبه سلطاني ولا يتقي سطوتي

وأعواني، يناصبني كلامي ويفسخ احتجاجي، كيف ولو كنا بين يدي من لا يخاف جوره ولا يُتقى ميله وحيفه كان لسانه أمضى وقلبه أجرى وخصمه أذلّ! خلّوا سبيله. فمضى[١].

مزاح الشعراء:

قيل: دخل أبو دلامة على المهدي فسلّم ثم قعد وأرخى عينيه بالبكاء. فقال له: ما لك؟ قال: ماتت أم دلامة. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ودخلت له رقةٌ لما رأى من جزعه، فقال له: أعظم الله أجرك يا أبا دلامة! وأمر أن يعطى ألف درهم وقال له: استعن بها في مصيبتك. فأخذها ودعا له وانصرف. فلما دخل إلى منزله قال لأم دلامة: اذهبي فاستأذني على الخيزران فإذا دخلت عليها فتباكي وقولي مات أبو دلامة. فمضت واستأذنت على الخيزران، فأذنت لها، فلما اطمأنت أرسلت عينها بالبكاء، فقالت لها: ما لك؟ فقالت: مات أبو دلامة. فقالت: إنا لله عظّم الله أجرك! وتوّجعت لها ثم أمرت لها بألفي درهم، فدعت لها وانصرفت. فلم يلبث المهدي أن دخل على الخيزران، فقالت: يا سيدي أما علمت أن أبا دلامة مات؟ قال: لا يا حبيبتي إنما هي امرأته أم دلامة. قالت: لا والله إلا أبو دلامة. فقال: خرج من عندي الساعة آنفاً. فقالت: خرجت من عندي الساعة. وأخبرته بخبرها وبكائها. فضحك وتعجّب من حيلهما[٢].

ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية؟!:

ولما وفد المهدي من الري إلى العراق امتدحه الشعراء فقال أبو دلامة:

إني نذرت لئن رأيتك قادما ::: أرض العراق وأنت ذو وقر
لتصلين على النبي محمد ::: ولتملأن دراهما حجري

فقال المهدي صلى الله على محمد، فقال أبو دلامة: ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية؟! فضحك وأمر ببدرة فصبت في حجره [٣].

---

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٢٢٢ - ٢٢٤.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٢٥٤.
(٣) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف،

أتاني آت في منامي:

ودخل على المهدي أعرابي فقال له: فيم جئت؟ قال: أتيتك برسالة قال هاتها. قال: أتاني آت في منامي فقال: ائت أمير المؤمنين فأبلغه هذه الأبيات:

لكم إرث الخلافة من قريش ::: تزف إليكمو أبدا عروسا
إلى هارون تهدى بعد موسى ::: تميس وما لها أن لا تميسا

فقال المهدي: يا غلام علي بالجواهر فحشا فاه حتى كاد ينشق ثم قال اكتبوا هذه الأبيات واجعلوها في بخانق صبياننا(١).

ليس إلا بكم يتم السرور:

كتب المهدي إلى الخيزران وهو بمكة:

نحن في أفضل السرور ولكن ::: ليس إلا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي ::: أنكم غبتم ونحن حضور
فأجدوا المسير، بل إن قدرتم ::: أن تطيروا مع الرياح فطيروا

فأجابته:

قد أتانا الذي وصفت من الشو ::: ق فكدنا وما فعلنا نطير
ليت أنّ الرياح كن يؤدين ::: إليكم ما قد يجنّ الضمير
لم أزل صبّةً فإن كنت بعدى ::: في سرورٍ فدام ذاك السرور(٢)

يا هذا هل أسأت إليك قط؟

وسمع المهدي إنسانًا يدعو عليه فقال: يا هذا هل أسأت إليك قط؟ قال: لا ولكنني مللتك! فقال: أو لم أتولّ منذ شهرين؟ فقال: أو لم يكن في ذلك ما يمل؟ إني لأمل كنيتي فأغيرها في الشهر مرتين (٣).

تحقيق د.مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ١٠/٢.

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ١٦٦/٢.

(٢) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ص١٧٣.

(٣) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٧٩/١.

خذ درهماً ومر في حفظ الله!:

خرج المهدي إلى الصيد فتفرد مع غلام فرأى أعرابياً فقال: إني أريد أن أضحك من هذا الأعرابي. فأتاه الغلام فقال: أجب أمير المؤمنين. فقال: ما لي ولأمير المؤمنين؟ فزناه وشتمه. فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين هذا شتمني فقال المهدي: يا غلام أعطه دانقاً. فقال الأعرابي: أدية فريتكم دانق يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: فأنت زان وابن زانية وابن زان، خذ درهماً ومر في حفظ الله! (١).

الغلام وجارية المهدي:

قال جحظة: حدثني ابن أخت الحاركي: أن خادماً ممن خدم أباه جاءه يخبره أن عند جاريةٍ في بعض قصوره رجلاً، فلبس حلةً وسار إلى القصر، فألفى عندها غلاماً شاباً، له ذؤابتان، كأنه قضيب فضة، فسأله عن دخوله وكيف كان، وما شأنه. فقال: إن هذه الجارية كانت لوالدتي، وكان بيني وبينها ألفة، فلما بيعت لأمير المؤمنين، صرت إلى الباب متعرضاً لها، فأذنت في الدخول، فدخلت على أحد أمرين: إما أن أظفر بما أريد أو أقتل فأستريح.

فأمر المهدي بإحضار سياط، ونصبه بينها، ثم ضربه عشرين سوطاً، ورفع عنه الضرب وقال: ما أصنع بتعذيبك، ولست بتاركك حيًّا، ولا تاركها، يا غلام، سيف ونطع! فلما أتي بذلك، وأجلس الغلام في النطع قال: يا أمير المؤمنين! قبل أن ينزل بي القتل، وهو دون حقي، اسمع مني ما أقول! قال: هات، فأنشأ يقول:

ولَقد ذكرْتُك والسّياطُ تنوشُني ::: عندَ الإمامِ وساعدي مَغلُولُ
وَلَقَد ذكرْتُكَ والذي أنا عبدُه ::: والسيفُ بينَ ذُؤابتي مَسلُولُ

فأطرق المهدي وتغرغرت عيناه بالدموع. ثم قال: يا غلام، ائتني بإزار! فأتي به، فقال: الففهما به جميعاً، بعد أن تنزع ثيابهما، وأخرجهما عن قصري، ففعل ذلك(٢).

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١/١٨٦.
(٢) السرّاج القارئ، مصارع العشاق، ص ٣٣ - ٣٤.

نومة عبود:

قال عبد الله بن محمد أبو جمعة الوراق: أخبرت أن المهدي دخل الكوفة فقال لأبي الأحوص محمدبن حيان الكوفي: حدثنا حديثاً من طرائف الأخبار بما حضرك، قال: كان في الزمان الأول رجل يقال له عبود وكان عاشقاً لابنة عم له فحضرتها الوفاة، فأزعجه ذلك، وأقلقه، فلما توفيت صار إلى المسيح، فسأله أن يحييها قال: لن يتهيأ ذلك أو تهب لها من عمرك شيئاً. قال: قد وهبت لها نصف عمري، فصار المسيح إلى تربتها، فوقف عليها، وسأل ربه أن يحييها فأحياها، فأخذ بيدها عبود، ومضى يريد بها أله، فأدركه الفتور في بعض الطريف، فحط رحله، ووضع رأسه في حجرها، واستقل نوماً.

فاجتاز بها ملك الناحية فرأى وجهاً جميلاً وخلقاً حسناً، فعرض عليها صحبته، فأجابته، فأمرها، فوضعت رأسه من حجرها، وحملها في قبة كانت معه، فلما انتبه عبود بقي متلدداً، فبينا هو كذلك إذ تلقاه نفر يتواصفون الجارية وبراعة خلقها، فسألهم عن الخبر، فأعلموه أنهم رأوا مع الملك امرأة لحقها فجعل يذكرها العهد، وهي ساكتة، ويسألها النزوع عما هي عليه، وهي مزورة عنه، إلى أن قال: ويحك قد كنت توفيت، فصرت في جملة الموتى، فسألت المسيح، فأحياك لي على أني أعطيتك من عمري نصفه، فإن كنت لا تساعدينني ولا تصيرين معي إلى أهلي وأهلك، فردي علي ما وهبت لك من عمري.

قالت: فإني قد رددته عليك، ولا حاجة لي فيه، فما أتمت هذه الكلمة حتى وقعت ميتة، وانصرف عبود إلى أهله مغتبطاً، فضربت العرب بنومة عبود مثلاً[1].

أعيذك بالله أن تكون النحس:

قال أبو سمير عبد الله بن أبي أيوب: لما خرج المهدي، فصار بعقبة حلوان، استطاب الموضع، فتغدى ودعا بحسنة، فقال لها: أما ترين طيب هذا الموضع، فغنيني، فأخذت محكةً كانت في يده وأوقعت بها على

(١) السرّاج القارئ، مصارع العشاق،ص ٨٧ - ٨٨.

مخدة، وغنته:

أيَا نَخلَتَــيْ وَادي بُوَانَــةَ! حَبّــذا ::: إذا نَامَ حُرّاسُ النّخيــلِ، جَناكُمَــا

فقال: أحسنت! لقد هممت بقطع هاتين النخلتين، يعني نخلتي حلوان. فقالت: أعيذك بالله أن تكون النحس. قال: وما ذاك؟ قالت: قول الشاعر فيهما:

أســعدَاني يَــا نَخلَتَــيْ حُلْــوَان، ::: وَابكيا لي من رَيــب هــذا الزّمَــان

وَاعْلَمَــا، إنْ بَقيتُمَــا، أنّ نَحــساً ::: سَــوْفَ يَأتيكُمَــا، فَتَفترِقَــانِ

فقال: لا أقطعهما أبداً، ووكل بهما من يحفظهما[١].

المهدي وأنسب بيت:

قال عبد الأعلى بن عبد الله بن صفوان الجمحي: حملت ديناً بعسكر المهدي، فركب المهدي يوماً بين أبي عبيد الله وعمر بن بزيع، وأنا وراءه، في موكبه على برذون قطوف، فقال: ما أنسب بيت قالته العرب؟ قال أبو عبيد الله: قول امرئ القيس:

وَمَا ذَرَفَــتْ عَيْنَــاكِ إلاّ لتَــضرِبي ::: بسَهمَيكِ في أعــشَارِ قَلــبٍ مُقَتَّــلِ

قال: هذا أعرابي قح. فقال عمر بن بزيع: قول كثير يا أمير المؤمنين:

أريــدُ لأنــسَى ذِكْرَهَــا، فكأنّمــا ::: تَمَثَّــلُ لي بلَيلــى بكــلّ سَــبيلِ

فقال: ما هذا بشيء، وما له يريد أن ينسى ذكرها، حتى تمثل له؟ فقلت: عندي حاجتك يا أمير المؤمنين! قال: الحق بي. قلت: لا لحاق لي، ليس ذلك في دابتي، قال: احملوه على دابة. قلت: هذا أول الفتح، فحملت على دابة، فلحقته، فقال: ما عندك؟ قلت: قول الأحوص:

إذا قُلــتُ إني مُــشتَفٍ بلقائهــا ::: فحَمّ التّلاقــي بَينَنَــا زَادَني سُــقمَا

فقال: أحسنت! حاجتك؟ قلت: علي دين. فقال: اقضوا دينه، فقضي دينه[٢].

(١) السرّاج القارئ، مصارع العشاق،ص ١٦٤.
(٢) السرّاج القارئ، مصارع العشاق،ص ١٧٧/١٧٨.

القباح غوال وإن رخصن:

قال الحسن الوصيف حاجب المهدي: كنا بزيالة، وإذا أعرابي يقول: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداءك! إني عاشق. قال: وكان يحب ذكر العشاق والعشق، فدعا الأعرابي، فلما دخل عليه قال: سلام عليك، يا أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته، ثم قعد. فقال له: ما اسمك؟ فقال: أبو مياس. قال: يا أبا مياس! من عشيقتك؟ قال: ابنة عمي، وقد أبى أبوها أن يزوجنيها. قال: لعله أكثر منك مالاً؟ قال: لا! قال: فما القصة؟ قال: أدن مني رأسك؟ قال: فجعل المهدي يضحك وأصغى إليه رأسه، فقال: إني هجين، قال: ليس يضرك ذاك، إخوة أمير المؤمنين وولده أكثرهم هجن. يا غلام علي بعمه.

قال: فأتي به، فإذا أشبه خلق الله بأبي مياس كأنهما باقلاة فلقت. فقال المهدي: ما لك لا تزوج أبا مياس وله هذا اللسان والأدب وقرابته منك؟ قال: إنه هجين. قال: فإخوة أمير المؤمنين وولده أكثرهم هجن، فليس هذا مما ينقصه، زوجها منه، فقد أصدقتها عنه عشرة آلاف درهم، قال: قد فعلت. فأمر له بعشرين ألف درهم، فخرج أبو مياس، وهو يقول:

ابتَعتُ أسوَاقَ القِبَاحِ لأهلِها ::: إنّ القِباحَ وَإنْ رَخُصْنَ غَوَالِ [1]

العمل للكفاءة:

قدم مرزبان من مرازبة فارس [2] باب السلطان في أيام المهدي يشكو عاملهم، فقال لأبي عبيد الله الوزير: أصلحك الله. إنك وليت علينا رجلاً، إن كنت وليته وأنت تعرفه، فما خلق الله رعية أهون عليك منا، وإن كنت لم تعرفه، فما هذا جزاء الملك الذي ولاك أمره، وأقامك مقامه. فدخل أبو عبيد الله على المهدي وأخبره، وخرج فقال: إن هذا رجل كان له علينا حق فكافأناه. فقال له: أصلحك الله، إنه كان على باب كسرى ساجة منقوشة بالذهب مكتوب عليها: العمل للكفاءة، وقضاء الحقوق على بيوت الأموال، فأمر المهدي بعزل العامل [3].

---

(١) السرّاج القارئ، مصارع العشاق،ص ١٨٩.
(٢) المرزبان أحد كبار رجال الدين المجوسي.
(٣) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ، دار

أنت نبي؟

ادّعى رجل في زمن المهدي النبوة، فأدخل إليه، فقال له المهدي: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: فإلى من بعثت؟ قال: وتركتموني أذهب إلى من بعثت؟ بعثت بالغداة وحبستموني بالعشي، فضحك المهدي حتى فحص برجله، وأمر له بجائزة وخلى سبيله [1].

فما تقول لجبريل؟

وتنبأ آخر في زمن المهدي، فقال له: إلى من بعثت؟ فقال: وتركتموني أذهب إلى من بعثت إليه؟ بعثت بالغداة ووضعتموني في السجن بالعشي، فضحك المهدي حتى ضرب برجليه. وقال: صدقت يا هذا. عاجلناك، فإن نحن خليناك تذهب إليهم؟ قال: لا والله، قد بدا لي، أخاف أن يصنعوا بي كما صنعتم. قال: فما تقول لجبريل؟ قال: أقول له: ابعثوا من شئتم فإني أحتاج أن أقتل الحبال. فضحك المهدي، واستتابه وخلاه.

أكافر أنا عندك أم مؤمن؟

وتنبأ آخر في زمن المهدي فأمر بإحضاره، فلما مثل بين يديه قال له: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: ومتى بعثت؟ قال: وما تصنع بالتاريخ؟ قال: ففي أي موضع جاءتك النبوة؟ قال: وقعنا. والله ليس هذا من مناظرات الأنبياء، إن كان عزمك أن تصدقني فكل ما قلت لك اعمل به، وإن عزمت أن تكذبني فدعني رأساً برأس. قال المهدي: هذا لا يجوز فإن فيه فساد الدين. فغضب وقال: واعجباه تغضب أنت لفساد دينك ولا أغضب أنا لفساد ديني؟ فوالله ما قويت إلا بمعن بن زائدة والحسن بن قحطبة ومن أشبههما، فضحك المهدي وقال لشريك القاضي: ما تقول فيه؟ قال المتنبئ: تشاور ذاك في أمري ولا تشاورني؟ قال: هات ما عندك. قال: أكافر أنا عندك أم مؤمن؟: قال: كافر. قال: فإن الله يقول:{ وَلَا تُطِعِ

الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ١٢٥/٢ - ١٢٦.

(١) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ١٥٥/٢.

ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ} [الأحزاب: ٤٨][(١)].

والله ما ذاك شأني:

قال الربيع: لما حبس المهدي موسى بن جعفر رضي الله عنه رأى في النوم عليًّا - رضي الله عنه - وهو يقول له: يا محمد،{ **فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢** } [محمد: ٢٢]، قال الربيع: فأرسل إلي ليلاً فراعني ذلك، وإذا هو يقرأ هذه الآية - وكان أحسن الناس صوتاً - فعرفني خبر الرؤيا. وقال: علي بموسى بن جعفر. فجئته به، فعانقه وأجلسه إلى جانبه، وقال: يا أبا الحسن، إني رأيت أمير المؤمنين رضي الله عنه فقرأ علي كذا. أفتؤمنني أن تخرج علي، أو على أحدٍ من ولدي؟ فقال: والله ما ذاك شأني. فقال: صدقت يا ربيع، أعطه ثلاثة آلاف دينار، ورده إلى أهله بالمدينة. قال الربيع: فأحكمت أثره ليلاً فلما أصبح كان على الطريق خوف العوائق.

وأمر بالحمام فذبحت:

وكان المهدي يحب الحمام، فأدخل عليه غياث بن إبراهيم، فقيل له: حدث أمير المؤمنين وكان قد بلغه استهتار المهدي بالحمام، فقال: حدثني فلان عن فلان عن أبي هريرة - رفعه - أنه قال:﴿ **لا سبق إلا في حافر أو نصل أو جناح**﴾ فأمر له بعشرة آلاف درهم فلما قام. قال المهدي، وهو ينظر في قفا غياث: أشهد أن قفاك كذاب على رسول الله وإنما استجلبت ذلك أنا، وأمر بالحمام فذبحت[(٢)].

دخل الأوزاعي على المهدي فقال له: إن الله قد أتاك فضيلة الدنيا، وكفاك طلبها؛ فاطلب فضيلة الآخرة فقد فرّغك لها [(٣)].

أخصب من صبيحة ليلة الظلمة:

هبت ببغداد ريح عاصف، جاءت بما لم تأت به ريح قط فألفي المهدي ساجدا يقول: اللهم احفظ فينا نبيك، ولا تشمت بنا أعداءنا من

(١) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ١٥٨/٢.
(٢) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ٦٤/٣.
(٣) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ٥٦/٧.

الأمم، وأن كنت يا رب أخذت العامة بذنبي، فهذه ناصيتي بيدك، يا أرحم الراحمين. فلما أصبح تصدق بألف ألف درهم، وأعتق مائة رقبة، وأحج مائة رجل. وفعلت الخيزران وجلة خاصته وفواده مثل ما فعل. فكان الناس بعد ذلك إذا ذكروا الخصب قالوا: أخصب من صبيحة ليلة الظلمة[١].

إدن مني أقبل عينيك اللتين رأيت بهما رسول الله:

مر المهدي في طريق بين المقدس بديراني قيل له رأى النبي ، فعدل إليه فقال: رأينه بعينك؟ قال: نعم، قال: إدن مني أقبل عينيك اللتين رأيت بهما رسول الله، فدنا مه فقبل عينيه[٢].

فعجب الناس من سماحة خلقه:

قدم المهدي البصرة وأراد أن يصلي بالناس في جامعها، فقال أعرابي: يا أمير المؤمنين لست على طهر، وقد رغبت إلى الله تعالى في الصلاة خلفك. فقال: انتظروه رحمكم الله، ودخل المحراب ووقف، إلى أن قيل له: قد جاء الرجل فكبر، فعجب الناس من سماحة خلقه[٣].

ثم خرجت من عنده بغير شيء:

قال الخليل: بعث إليَّ المهدي، فأتيته وهو جالسٌ في الماء على سريرٍ له إلى صدره، فسلمت عليه. فقال لي: إني اشتهيت الحديث الساعة، فحدثني! ثم قال: حدثني عن القمر! فلم أدر عن أيه أحدثه، ثم عرض لي أن قلت: قيل للقمر: كم أنت ابن ليله؟ قال: رضاع سخيله. قيل: لليلتين؟ قال: حديث أمتين بكذب ومين. قيل: ابن ثلاث؟ حديث فتيات مختلفات. قيل: ابن أربع؟ قال: عتمة أم الربع. قيل: ابن خمس؟ قال: سر وأمس. قيل: ابن ست؟ قال: سر وبت. قيل: ابن سبع؟ قال: عشية جمع. قيل: لثمان؟ قال: قمر إضحيان. قيل: لتسع؟ قال: مثقب الجزع. قيل: لعشر؟ قال: أبادر الفجر. ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قيل: لا يحفظ هذا الحديث إلا

(١) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٢٢/١.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١٥٢/١.
(٣) الزمخشري، ربيع الأبرار، ٦٦/١.

عاقل. قال: فخذه عليَّ! فأعاده كما حدثته. ثم دعا بثيابه فخرج، وأتينا بمائدة عليها خمسة قوالب كأنها الثلج، فأكل وقال: كل! فأكلت، فلم أر شيئاً قط أطيب منه. فقال لي: هذا المخ بالطبرزد، وأتي بشراب شديد الحمرة حسن اللون، فشرب ثم قال: اشرب! فظننت أنه الخمر فقلت: لأشرب من هذا. قال: اشرب، لا أم لك! فشربت شيئاً لم أشرب مثله قط فوجدت برده في عيني. فقال: هذا عصارة الرمان، وتفاح لبنان، وعسل إصبهان، وماء المسرقان، وثلج ماسبذان، بزعفران. ثم خرجت من عنده بغير شيء[١].

من كلامه:

- أقل ما يجب للمنعم إلا بتقوى نعمته على معصيته [٢].

- كن ليناً في غير ضعف، وشديداً من غير عنف[٣].

- وقال المهدي للربيع بن أبي الجهم، وهو والي أرض فارس: يا ربيع، آثر الحق، والزم القصد، وابسط العدل، وارفق بالرعية، واعلم أن أعدل الناس من أنصف من نفسه، وأظلمهم من ظلم الناس لغيره[٤].

مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان:

هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفت، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة، على أن نكثوا ببيعتهم ونقضوا موثقهم، وطردوا العمال، والتواوا بما عليهم من الخراج وحمل المهدي ما يحب من مصلحتهم، ويكره من عنتهم، على أن أقال عثرتهم، واغتفر زلتهم، واحتمل دالتهم؛ تطولا بالفضل، واتساعاً بالعفو، وأخذا بالحجة، ورفقاً بالسياسة. ولذلك لم يزل، منذ حمله الله أعباء الخلافة، وقلده أمور الرعية، رفيقا بمدار سلطانه، بصيراً بأهل زمانه؛ باسطاً للمعدلة في رعيته، تسكن

---

(١) المرزباني، نور القبس، ٢٤/١.
(٢) الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، ص٩٧.
(٣) الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ص ٣٢.
(٤) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٨/١.

إلى كنفه، وتأنس بعفوه، وتثق بحلمه. فإذا وقعت الأقضية اللازمة، والحقوق الواجبة، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولا مداهنة، أثرة للحق، وقيامًّا بالعدل، وأخذًا بالحرم. فدعا أهل خراسان الاغترار بحلمه، والثقة بعفوه، أن كسروا الخراج، وطردوا العمال، وسألوا ما ليس لهم من الحق. ثم خلطوا احتجاجًا باعتذار، وخصومة بإقرار، وتنصلاً باعتلال. فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلائه، وبعث إلى نفر من لحمته ووزرائه، فأعلمهم الحال، واستنصحهم للرعية، ثم أمر الموالى بالابتداء، وقال للعباس بن محمد: أي عم؛ تعقب قولنا، وكن حكماً بيننا. وأرسل إلى ولديه موسى وهارون فأحضرهما الأمر، وشاركهما في الرأي، وأمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم، وإثبات مقالتهم في كتاب.

فقال سلام صاحب دار المظالم: أيها المهدي: إن في كل أمر غاية ولكل قوم صناعة، استفرغت رأيهم، واستغرقت أشغالهم، واستنفدت أعمارهم، وذهبوا بها معونتنا عليها، أقوام من أبناء الحرب، وساسة الأمور، وقادة الجنود، وفرسان الهزاهز، وإخوان التجارب، وأبطال الوقائع، الذين رشحتهم سحالها، وفيأتهم ظلالها، وعضتهم شدائدها، وقرمتهم نواجذها. فلو عجمت ما قبلهم، وكشعت ما عندهم، لوجدت نظائر تؤيد أمرك، وتجارب توافق نظرك، وأحاديث تقوي قلبك. فأما نحن، معاشر عمالك، وأصحاب دواوينك، فحسن بنا وكثير منا أن نقوم بثقل ما حملتنا من عملك، واستودعتنا من أماناتك، وشغلتنا به من إمضاء عدلك، وإنفاذ حكمك، وإظهار حقك.

فأجابه المهدي: إن في كل قوم حكمة، ولكل زمان سياسة، وفي كل حال تدبيراً، يبطل الآخر الأول، ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطاننا.

قال: نعم، أيها المهدي، أنت متسع الرأي، وثيق العقدة، قوي المنة، بليغ الفطنة، معصوم النية، محضور الروية، مؤيد البديهة موفق العزيمة، معان بالظفر، مهدي إلى الخير. إن هممت ففي عزمك مواقع الظن، وإن أجمعت صدع فعلك ملتبس الشك. فاعزم يهد الله إلى الصواب قلبك، وقل ينطق الله بالحق لسانك؛ فإن جنودك جمة، وخزائنك عامرة، ونفسك سخية، وأمرك نافذ.

فأجابه المهدي: إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة، لا يهلك عليهما رأي، ولا يتفيل معهما حزم، فأشيروا برأيكم، وقولوا بما يحضركم، فإني من ورائكم، وتوفيق الله من وراء ذلك.

قال الربيع: أيها المهدي، إن تصاريف وجوه الرأي كثيرة وإن الإشارة ببعض معاريض القول يسيرة. ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة، متراخية الشقة، متفاوتة السبل. فإذا ارتأيت من محكم التدبير، ومبرم التقدير، ولباب الصواب، رأيا قد أحكمه نظرك، وقلبه تدبيرك، فليس وراءه مذهب الحجة طاعن، ولا دونه معلق لخصومة عائب؛ ثم خبت البرد به، وانطوت الرسل عليه، كان بالحري أن لا يصل إليهم محكمه، إلا وقد حدث منهم ما ينقضه. فما أيسر أن ترجع إليك الرسل، وترد عليك الكتب، بحقائق أخبارهم، وشوارد آثارهم، ومصاده أمورهم، فتحدث رأياً غيره، وتبتدع تدبيراً سواه، وقد انفرجت الحلق، وتحللت العقد، واسترخى الحقاب، وامتد الزمان. ثم لعلما موقع الآخرة كمصدر الأولى. ولكن الرأي لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تصرف إجالة النظر وتقليب الفطر، فيما جمعتنا له، واستشرتنا فيه، من التدبير لحربهم، والحيل في أمرهم، إلى الطلب لرجل ذي دين فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متهمًّا في أثره عليك، ولا ظنيناً على دخلة مكروهة، ولا منسوبا إلى بدعة محظورة، فيقدح في ملكك، ويربض الأمور لغيرك، ثم تسند إليه أمورهم، وتفوض إليه حربهم، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه، بلزوم أمرك ما لزمه الحزم؛ وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي، عند استحالة الأمور، واستدارة الأحوال، التي ينقض أمر الغائب عنها، ويثبت رأي الشاهد لها، فإنه إذا فعل ذلك فواثب أمرهم من قريب، وسقط عنه ما يأتي من بعيد، تمت الحيلة، وقويت المكيدة، ونفذ العمل وأحد النظر. إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس: أيها المهدي، إن ولي الأمور وسائس الحروب، ربما جند جنوده، وفرق أمواله في غير ما ضيق أمر حزبه، ولا ضغطة حال اضطرته، فيقعد عند الحاجة إليها، وبعد التفرقة لها، عديماً منها، فاقداً لها، لا يثق بقوة، ولا يصول بعدة، ولا يفزع إلى ثقة.

فالرأي لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تعفى خزائنك من الإنفاق للأموال، وجنودك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغرير القتال، ولا تسرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون، والإعطاء لما يسألون، فيفسد عليك أدبهم، وتجرئ من رعيتك غيرهم. ولكن اغزهم بالحيلة، وقاتلهم بالمكيدة، وصارعهم باللين وخاتلهم بالرفق، وأبرق لهم، وأرعد نحوهم بالفعل وابعث البعوث، وجند الجنود، وكتب الكتائب، واعقد الألوية، وانصب الرايات وأظهر أنك موجه إليهم الجيوش، مع أحنق قوادك عليهم، وأسوئهم أثراً فيهم. ثم ادسس الرسل وابثث الكتب، وضع بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف من وعيدك. وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم، وأغرض أشجار التنافس بينهم، حتى تملأ القلوب من الوحشة، وتنطوي الصدور على البغضة، ويدخل كلا من كل الحذر والهيبة، فإن مرام الظفر بالغيلة، والقتال بالحيلة، والمناصبة بالكتب والمكايدة بالرسل، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب، القوي الموقع من النفوس، المعقود بالحجج، الموصول بالحيل، المبني على اللين، الذي يستلب العقول، ويسترق القلوب؛ ويسبى الآراء، ويستميل الأهواء، ويستدعي المواتاة، أنفذ من القتال بظبات السيوف وأسنة الرماح. كما أن الوالي الذي يستنزل طاعة رعيته بالحيل، ويفرق كلمة عدوه بالمكايدة، أحكم عملاً، وألطف نظراً، وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال، وإتلاف الأموال، والتغرير والخطار. وليعلم المهدي - وفقه الله - أنه إن وجه لقتالهم رجلاً، لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة، وتقدم على أسفار صعبة، وأموال متفرقة، وقواد غششة، إن ائتمنهم استنفذوا ماله، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأي قد أسفر نوره، وبرق ضوؤه، وتمثل صوابه للعيون، وتجسد حقه في القلوب. ولكن فوق كل ذي علم عليم. ثم نظر إلى ابنه علي فقال: ما تقول؟

قال علي: أيها المهدي، إن أهل خراسان لم يخلعوا من طاعتك يداً، ولم ينصبوا من دونك أحداً يكدح في تغيير ملكك، ويربض الأمور لفساد

دولتك، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر، والشأن أصغر، والحال أذل؛ لأن الله مع حقه الذي لا يخذله، وعند موعده الذي لا يخلفه. ولكنهم قوم من رعيتك، وطائفة من شيعتك، الذين جعلك الله عليهم والياً، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً. طلبوا حقاً، وسألوا إنصافاً، فإن أجبت إلى دعوتهم،ونفست عنهم قبل أن تتلاحم منهم حالاً، أو يحدث من عندهم فتق، أطعت أمر الرب، وأطفأت نائرة الحرب، ووفرت خزائن المال، وطرحت تغرير القتال، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك، وسجية حلمك، وإسجاح خليقتك، ومعدلة نظرك. فأمنت أن تنسب إلى ضعف. وأن يكون ذلك لهم فيما بقى دربة. وإن منعتهم ما طلبوا، ولم تجبهم إلى ما سألوا، اعتدلت بك وبهم الحال، وساويتهم في ميدان الخطاب. فما أرب المهدي أن يعمد إلى طائفة من رعيته، مقرين بمملكته، مذعنين لطاعته، لا يخرجون أنفسهم عن قدرته، ولا يبرئونها من عبوديته، فيملكهم أنفسهم، ويخلع نفسه عنهم، ويقف على الجدل معهم، ثم يجازيهم السوء في جد المقارعة، ومضمار المخاطرة؟ أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال؟ فلعمري لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر مما يطلب منهم، وأضعاف ما يدعي قبلهم. ولو نالها فحملت إليه، ووضعت بخرائطها بين يديه، ثم تجافى لهم عنها، وطال عليهم بها، لكان ذلك مما إليه ينسب، وبه يعرف، من الجود الذي طبعه الله عليه؛ وجعل قرة عينه ونهمة نفسه فيه فإن قال المهدي: هذا رأي مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا، وتحامل ولاتنا؛ فأما الجنود الذين نقضوا مواثيق العهود، وأنطقوا لسان الإرجاف وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالاً لغيرهم وعظة لسواهم، فيعلم المهدي أنه لو أتي بهم مغلولين في الحديد، مقرنين في الأصفاد، ثم اتسع لحقن دمائهم عفوه، ولإقامة عثرتهم صفحه، واستقبالهم لما هم فيه من حربه، أو لمن بإزائهم من عدوه لما كان بدعاً من رأيه، ولا مستنكراً من نظره. لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً، وأشدها وقعاً، وأصدقها صولة، وأنه لا يتعاظمه عفو، ولا يتكاءده صفح، وإن عظم الذنب، وجل الخطب. فالرأي للمهدي - وفقه الله تعالى - أن يحل عقدة

الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم، وأن يذكر أولى حالاتهم، وضيعة عيالاتهم، براً بهم وتوسعاً لهم؛ فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته، وأساس حقه الذين بعزتهم يصول، وبحجتهم يقول. إنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مساخطه، وتعرضوا له من معاصيه، وانطووا فيه عن إجابته، ومثله في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم، أو نقل من حاله لهم، أو تغير من نعمته عليهم، كمثل رجلين أخوين متناصرين متوازرين، أصاب أحدهما خبل عارض، ولمم حادث، فنهض إلى أخيه بالأذى، وتحامل عليه بالمكروه، فلم يزد ذلك أخاه إلا رقة له، ولطفا به، واحتيالاً لمداواة مرضه، ومراجعة حاله، عطفاً عليه، وبراً به، ومرحمة له.

فقال المهدي: أما علي فقد نوى سمت الليان، وفض القلوب عن أهل خراسان، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون. ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ يعني موسى ابنه.

فقال موسى: أيها المهدي، لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم. الحال من القوم تنادى بمضرة شر، وخفية حقد، قد جعلوا المعاذير عليه ستراً، واتخذوا العلل من دونها حجاباً، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير، والأمور بالتطويل، فيكسروا حيل المهدي فيهم، ويثنوا جنوده عنهم، حتى يتلاحم أمرهم، وتتلاحق مادتهم، وتستفحل حربهم، وتستمر الأمور بهم. والمهدي من قولهم في حال غرة ولباس أمنة قد فتر لها، وأنس بها، وسكن إليها. ولولا ما اجتمعت به قلوبهم، وبردت عليه جلودهم، من المناصبة بالقتال، والإضمار للقراع، عن داعية ضلال، أو شيطان فساد، لرهبوا عواقب أحوال الولاة، وغب سكون الأمور. فليشدد المهدي - وفقه الله - أزره لهم، ويكتب كتائبه نحوهم، وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم، وليوقن أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم، إلا كانت دربة لفسادهم، وقوة على معصيتهم، وداعية إلى عودتهم، وسببًا لفساد من بحضرته من الجنود، ومن ببابه من الوفود، الذين أقرهم على تلك العادة، وأجراهم على ذلك الأدب، لم يبرح في فتق حادث، وخلاف حاضر، لا يصلح عليه دين، ولا تستقيم به دنيا. وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة، واستمرار

الدربة، لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة، والمؤونة الشديدة. والرأي للمهدي - وفقه الله - أن لا يقيل عثرتهم، ولا يقبل معذرتهم، حتى تطأهم الجيوش، وتأخذهم السيوف، ويستحر بهم القتل، ويحدق بهم الموت، ويحيط بهم البلاء، ويطبق عليهم الذل. فإن فعل المهدي بهم ذلك، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم، وهزيمة لكل بادرة شر منهم. واحتمال المهدي مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه مؤونة غزوات كثيرة، ونفقات عظيمة.

قال المهدي: قد قال القوم، فاحكم يا أبا الفضل.

فقال العباس بن محمد: أيها المهدي، أما الموالي فأخذوا بفروع الرأي، وسلكوا جنبات الصواب، وتعدوا أموراً قصر نظرهم عنها، لأنه لم تأت تجاربهم عليها.

وأما الفضل فأشار بالأموال أن لا تنفق، والجنود أن لا تفرق، وبأن لا يعطى القوم ما طلبوا، ولا يبذل لهم ما سألوا، وجاء بأمر بين ذلك، استصغاراً لأمرهم، واستهانة بحربهم، وإنما يهيج جسيمات الأمور صغارها.

وأما علي فأشار باللين وإفراط الرفق. وإذا جرد الوالي لمن غمط أمره، وسيفه حقه، اللين بحتاً، والخير محضاً، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب على لينه ولا بشر يحيشهم إلى خيره؛ فقد ملكهم الخلع لعذرهم، ووسع لهم الفرجة لثني أعناقهم. فإن أجابوا دعوته، وقبلوا لينه من غير ما خوف اضطرهم، ولا شدة حال أخرجتهم، لم يزل ذلك يهيج عزة في نفوسهم، ونزوة في رؤوسهم، يستعدون بها البلاء إلى أنفسهم، ويصرفون بها رأي المهدي فيهم. وإن لم يقبلوا دعوته، ويسرعوا لإجابته باللين المحض، والخير الصراح، فذلك ما عليه الظن بهم، والرأي فيهم، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم؛ لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم، والملك الكبير، ما لا يخطر على قلب بشر، ولا تدركه الفكر ولا تعلمه النفوس، ثم دعا الناس إليها، ورغبهم فيها. فلولا أنه خلق ناراً لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة، لما أجابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يعصبوا بشدة لا لين فيها، وأن يرموا بشر لا خير معه. وإذا أضمر الوالي لما فارق طاعته، وخالف جماعته، الخوف مفرداً، والشر مجرداً؛ ليس معهما طمع يكسرهم، ولا لين يثنيهم، امتدت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلهم الحمية من الشدة، والأنفة من الذلة، والامتعاض من القهر، فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف، الاستبسال في القتال، والاستسلام للموت؛ وإما أن ينقادوا بالكره، ويذعنوا بالقهر، على بغضة لازمة، وعداوة باقية، تورث النفاق، وتعقب الشقاق، فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويت لهم حال، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان.

وقال: في قول الفضل أيها المهدي، أكفى دليل، وأوضح برهان، وأبين خبر بان؛ قد اجتمع رأيه، وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم، وتوجيه البعوث نحوهم، مع إعطائهم ما سألوا من الحق، وإجابتهم إلى ما سألوا من العدل.

قال المهدي: ذلك رأى.

قال هارون: خلطت الشدة أيها المهدي باللين، فصارت الشدة أمر فطام لما تكره وعاد اللين أهدى قائد إلى ما تحب، ولكن أرى غير ذلك.

قال المهدي: لقد قلت قولاً بديعاً، خالفت به أهل بيتك جميعاً، والمرء متهم بما قال، وظنين بما ادعى، حتى يأتي ببينة عادلة، وحجة ظاهرة؛ فاخرج عما قلت.

قال هارون: أيها المهدي، إن الحرب خدعة، والأعاجم قوم مكرة، وربما اعتدلت الحال بهم، واتفقت الأهواء منهم، فكان باطن ما يسرون على ظاهر ما يعلنون؛ وربما افترقت الحالان، وخالف القلب اللسان، فانطوى القلب على محجوبة تبطن، واستسر بمدخوله لا تعلن. والطبيب الرفيق بطبه، البصير بأمره، العالم بمقدم يده، وموضع ميسمه، لا يتعجل بالدواء، حتى يقع على معرفة الداء. فالرأي للمهدي - وفقه الله - أن يفر باطن أمرهم فر المسنة، ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء، بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالاة العيون، حتى تهتك حجب غيوبهم،

وتكشف أغطية أمورهم، فإن انكشفت الحال له، وأفضت الأمور به، إلى تغيير حال، أو داعية ضلال، اشتملت الأهواء عليه، وانقاد الرجال إليه، وامتدت الأعناق نحوه، بدين يعتقدونه، وإثم يستحلونه، عصبهم بشدة لا لين فيها، ورماهم بعقوبة لا عفو معها. وإن انفرجت الغيوب واهتصرت الستور، ورفعت الحجب، والحال فيهم مريعة، والأمور بهم معتدلة، عن أرزاق يطلبونها، وأعمال ينكرونها، وظلامات يدعونها، وحقوق يسألونها، بماتة سابقتهم، ودالة مناصحتهم، فالرأي للمهدي - وفقه الله - أن يتسع لهم بما طلبوا، ويتجافى لهم عما كرهوا، ويشعب من أمرهم ما صدعوا، ويرتق من فتقهم ما فتقوا، ويولي عليهم من أحبوا، ويداوي بذلك مرض قلوبهم، وفساد أمورهم، فإنما المهدي وأمته وسواد أهل مملكته، بمنزلة الطبيب الرفيق، والوالد الشفيق، والراعي الحدب، الذي يحتال لمرابض غنمه، وضوال رعيته. حتى يبرئ المريضة من داء علتها، ويرد الضالة إلى أنس جماعتها. ثم إن خراسان بخاصة لهم دالة محمولة، وماتة مقبولة، ووسيلة معروفة، وحقوق واجبة، لأنهم أيدي دولته، وسيوف دعوته، وأنصار حقه، وأعوان عدله؛ فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم، ولا المؤاخذة لهم، ولا التوعر بهم، ولا المكافأة بإساءتهم، لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ، أحزم في الرأي. وأصح في التدبير، من التأخير لها، والتهاون بها، حتى يلتئم قليلها بكثيرها، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها.

قال المهدي: ما زال هارون يقع وقع الحيا، حتى خرج خروج القدح مما قال، وانسل انسلال السيف فيما ادعى. فدعوا ما قد سبق موسى فيه أنه هو الرأي، وثنى بعده هارون. ولكن من لأعنه الخيل، وسياسة الحرب، وقادة الناس، إن أمعن بهم اللجاج، وأفرطت بهم الدالة؟ قال الصالح: لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث، وطول الفكر، أدنى فراسة رأيك، وبعض لحظات نظرك، وليس ينفض عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل، ورأي كامل، وتدبير قوي، تقلده حربك، وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة، ويضطلع بالأعباء الثقيلة.

وأنت بحمد الله ميمون النقيبة مبارك العزيمة، مخبور التجارب، محمود العواقب، معصوم العزم، فليس يقع اختيارك، ولا يقف نظرك، على أحد توليه أمرك، وتسند إليه ثغرك، إلا أراك الله منه ما تحب، وجمع لك منه ما تريد.

قال المهدي: إني لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه، وحسن معونته عليه. ولكن أحب الموافقة على الرأي، والاعتبار بالمشاورة في الأمر المهم.

قال محمد بن الليث: أهل خراسان، أيها المهدي، قوم ذو عزة ومنعة، وشياطين خدعة زروع الحمية فيهم نابتة، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة. فالروية عنهم عازبة، والعجلة فيهم حاضرة، تسبق سيولهم مطرهم، وسيوفهم عذلهم، لأنهم بين سفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم، وبين رؤساء لا يلجمون إلا بالشدة، ولا يفطمون إلا بالقهر. وإن ولى المهدي عليهم وضيعاً لم تنقد له العظماء، وإن ولى أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء. وإن أخر المهدي أمرهم، ودافع حربهم، حتى يصيب لنفسه من حشمه ومواليه، أو بني عمه أو بني أبيه، ناصحاً يتفق عليه أمرهم، وثقة تجتمع له أملاؤهم، بلا أنفة تلزمهم، ولا حمية تدخلهم، ولا عصبية تنفرهم، تنفست الأيام بهم، وتراخت الحال بأمرهم، فدخل بذلك من الفساد الكبير، والضياع العظيم، ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد، ولا يستصلحه، وإن جهد، إلا بعد دهر طويل، وشر كبير. وليس المهدي - وفقه الله - فاطماً عاداتهم، ولا قارعاً صفاتهم، بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما، ولا عدل في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق، موصول بسمعك، ويد ممثلة لعينك، وصخرة لا تزعزع، وبهمة لا يثنى، وبازل لا يفزعه صوت الجلجل؛ تقي العرض، نزيه النفس، جليل الخطر، قد اتضعت الدنيا عن قدره، وسما نحو الآخرة بهمته؛ فجعل الغرض الأقصى لعينه نصباً، والغرض الأدنى لقدمه موطئاً، فليس يغفل عملاً، ولا يتعدى أملاً، وهو رأس مواليك، وأنصح بني أبيك، رجل قد غذي بلطيف كرامتك، ونبت في ظل دولتك، ونشأ على قويم أدبك. فإن قلدته أمرهم، وحملته ثقلهم، وأسندت إليه ثغرهم، كان قفلاً فتحه أمرك، وباباً أغلقه نهيك، فجعل العدل عليه وعليهم أميراً، والإنصاف بينه وبينهم

حاكماً، فأعطاهم مالهم، وأخذ منهم ما عليهم، غرس لك في الذي بين صدورهم، وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم، طاعة راسخة العروق، باسقة الفروع، متمثلة في حواشي عوامهم، متمكنة من قلوب خواصهم، فلا يبقى فيهم ريب إلا نفوه، ولا يلزمهم حق إلا أدوه، وهذا أحدهم. والآخر عود من غيضتك، ونبعة من أرومتك، فتي السن، كهل الحلم، راجح العقل، محمود الصرامة، مأمون الخلاف، يجرد فيهم سيفه، ويبسط عليهم خيره، بقدر ما يستحقون، وعلى حسب ما يستوجبون، وهو فلان أيها المهدي. فسلطه - أعزك الله - عليهم، ووجهه بالجيوش إليهم، ولا تمنعك ضراعة سنه، وحداثة مولده؛ فإن الحلم والثقة مع الحداثة، خير من الشك والجهل مع الكهولة وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه، واختصكم به، من مكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير، وصرامة الأنفس، كفراخ عتاق الطير المحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب، فالحلم والعلم والعزم والحزم والجود والتؤدة والرفق ثابت في صدوركم، مزروع في قلوبكم مستحكم لكم، متكامل عندكم، بطبائع لازمة، وغرائز ثابتة.

قال معاوية بن عبد الله: أفتاء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر، وأهل خراسان في حال عز على ما وصف، ولكن إن ولى المهدي عليهم رجلاً ليس بقديم الذكر في الجنود، ولا بنبيه الصوت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأمور ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة في الأعداء، دخل ذلك أمران عظيمان، وخطران مهولان، أحدهما: أن الأعداء يغتمزونها منه، ويحتقرونها فيه، ويجترئون بها عليه، في النهوض به والمقارعة له، والخلاف عليه، قبل الاختبار لأمره، والتكشف لحاله، والعلم بطباعه. والأمر الآخر: أن الجنود التي يقود، والجيوش التي يسوس، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة، ولم يعرفوه بالصوت والهيبة، انكسرت شجاعتهم، وماتت نجدتهم، واستأخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم، ووقوع معرفتهم، وربما وقع البوار قبل الاختبار. وبباب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب، نبيه حنيك صيت، له نسب زاك، وصوت عال، قد قاد الجيوش، وساس الحروب، وتألف أهل خراسان،

واجتمعوا عليه بالمقة، ووثقوا به كل الثقة، فلو ولاه المهدي أمرهم، لكفاه الله شرهم.

قال المهدي: جانيت قصد الرمية، وأبيت إلا عصبية، إذ رأي الحدث من أهل بيتنا، كرأي عشرة حلماء من غيرنا. ولكن أين تركتم ولي العهد؟ قالوا: لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده، ونسيج وحده، ومن الدين وأهله بحيث يقصر القول عن أدنى فضله، ولكن وجدنا الله عز وجل قد حجب عن خلفه، وستر من دون عباده، علم ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجري به المقادير، من حوادث الأمور، وريب المنون، المخترمة لخوالي القرون، ومواضي الملوك، فكرهنا شسوعه عن محلة الملك، ودار السلطان، ومقر الإمامة والولاية، وموضع المدائن والخزائن، ومستقر الجنود، وموضع الوجوه، ومجمع الأموال، التي جعلها الله عز وجل قطباً لمدار الملك، ومصيدة لقلوب الناس، ومثابة لإخوان الطمع، وثوار الفتن، ودواعي البدع، وفرسان الضلال، وأبناء المروق. وقلنا: إن وجه المهدي ولي عهده، فحدث في جيوشه وجنوده ما قد حدث بجنود الرسل من قبله، لم يستطع المهدي أن يعقبه بغيره، إلا أن ينهض إليهم بنفسه، وهذا خطر عظيم، وهول شديد، إن تنفست الأيام بمقامه، واستدامت الحال بأيامه، حتى يقع عرض لا يستغنى فيه، أو يحدث أمر لا بد فيه منه، صار ما بعده، مما هو أعظم هولاً وأجل خطراً، له تبعاً وبه متصلاً.

قال المهدي: الخطب أيسر مما تذهبون إليه، وعلى غير ما تصفون الأمر عليه. نحن - أهل البيت - نجري من أسباب القضايا، ومواقع الأمور، على سابق من العلم، ومحتوم من الأمر، قد أنبأت به الكتب، وتتابعت عليه الرسل، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا، وتكامل بحذافيره عندنا، فبه ندبر، وعلى الله نتوكل. إنه لا بد لولي عهدي، عقبي من بعدي، أن يقود إلى خراسان البعوث، ويتوجه نحوها بالجنود.

أما الأول فإنه يقدم إليهم رسله، ويعمل، فيهم حيله ثم يخرج نشطاً إليهم حنقاً عليهم يريد أن لا يدع أحد من إخوان الفتن، ودواعي البدع، وفرسان الضلال، إلا توطأه بحر القتل، وألبسه قناع القهر، وطوقه طوق

الذل؛ ولا أحداً من الذين عملوا في قص جناح الفتنة، وإخماد نار البدعة، ونصرة ولاة الحق، إلا أجرى عليهم ديم فضله، وجداول بذله. فإذا خرج مزمعاً له مجمعاً عليه، لم يسر إلا قليلاً حتى يأتيه أن قد عملت حيله. وكدحت كتبه، ونفذت مكايده؛ فهدأت نافرة القلوب، ووقعت طائرة الأهواء، واجتمع عليه المختلفون بالرضا، فيميل نظراً لهم، وبرًّا بهم، وتعطفاً عليهم، إلى عدو قد أخاف سبيلهم، وقطع طريقهم، ومنع حجاجهم بيت الله الحرام، وسلب تجارهم رزق الله الحلال.

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة بإعطاء ما يطلبون، وبذل ما يسألون، فإذا سمت الفرق بقرانها له، وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه، فأصغت إليه الأفئدة، واجتمعت له الكلمة، وقدمت عليه الوفود، قصد لأول ناحية بخعت بطاعتها، وألقت بأزمتها، فألبسها جناح نعمته، وأنزلها ظل كرامته وخصها بعظيم حبائه، ثم عم الجماعة بالمعدلة، وتعطف عليهم بالرحمة. فلا تبقى فيهم ناحية دانية، ولا فرقة قاصية، إلا دخلت عليها بركته، ووصلت إليها منفعته، فأغنى فقيرها، وجبر كسيرها، ورفع وضيعها، وزاد رفيعها، ما خلا ناحيتين: ناحية يغلب عليهم الشقاء، وتستميلهم الأهواء، فتستخف بدعوته، وتبطئ عن إجابته، وتتثاقل عن حقه، فتكون آخر من يبعث، وأبطأ من يوجه، فيضطمر عليها موجدة، ويبتغي لها علة، لا يلبث أن يجدها بحق يلزمهم، وأمر يجب عليهم، فتستلحمهم الجيوش، وتأكلهم السيوف، ويستحر فيهم القتل، ويحيط بهم الأسر، ويفنيهم التتبع، حتى يخرب البلاد، ويوتم الأولاد. وناحية لا يبسط لهم أماناً، ولا يقبل لهم عهداً، ولا يجعل لهم ذمة، لأنهم أول من فتح باب الفرقة، وتدرع جلباب الفتنة، وربض في شق العصا. ولكنه يقتل أعلامهم، ويأسر قوادهم، ويطلب هرابهم، في لجج البحار، وقلل الجبال، وخمر الأردية، وبطون الأرض، تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً، حتى يدع الديار خراباً، والنساء أيامى. وهذا أمر لا نعرف في كتبنا وقتاً، ولا نصحح منع غير ما قلنا تفسيراً.

وأما موسى ولي عهدي، فهذا أوان توجهه إلى خراسان، وحلوله بجرجان، وما قضى الله له من الشخوص إليها، والمقام فيها، خير

للمسلمين مغبة، وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يغمر في لجج بحورنا، ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا، فيتصاغر عظيم فضله، ويتذأب مشرق نوره، ويتقلل كثير ما هو كائن منه. فمن يصحبه من الوزراء، ومن يختار له من الناس؟ قال محمد بن الليث: أيها المهدي، إن ولي عهدك أصبح لأمتك وأهل ملتك علماً قد تثنت نحوه أعناقها، ومدت سمته أبصارها. وقد كان لقرب داره منك، ومحل جواره لك: عطل الحال، غفل الأمر، واسع العذر. فأما إذا انفرد بنفسه، وخلا بنظره، وصار إلى تدبيره، فإن من شأن العامة، وأمراء الأمة، أن تتفقد مخارج رأيه، وتستنصت لمواقع آثاره، وتسأل عن حوادث أحواله، في بره ومرحمته، وإقساطه ومعدلته، وتدبيره، وسياسته، ووزرائه وأصحابه، ثم يكون ما سبق إليهم، أغلب الأشياء عليهم، فلا يفتأ المهدي - وفقه الله - ناظراً له فيما يقوي عمد مملكته ويسدد أركان ولايته، ويستجمع رضا أمته، بأمر هو أزين لحاله، وأظهر لجماله، وأفضل مغبة لأمره، وأجل موقعاً في قلوب رعيته، وأحمد حالاً في نفوس أهل ملته. ولا أوقع مع ذلك باستجماع الأهواء له، وأبلغ في استعطاف القلوب عليه، من مرحمة تظهر من فعله؛ ومعدلة تنتشر من أثره، ومحبة للخير وأهله. وإن يختار المهدي - وفقه الله - من خيار أهل كل بلدة، وفقهاء أهل كل مصر، أقواماً تسكن العامة إليهم إذا ذكروا، وتأنس الرعية بهم إذا وصفوا، ثم تسهل لهم عمارة سبل الإحسان، وفتح باب المعروف، كما قد كان فتح له وسهل عليه.

قال المهدي: صدقت ونصحت. ثم بعث في ابنه موسى، فقال: أي بني، إنك قد أصبحت لسمت عيون العامة نصباً، ولمثنى أعطاف الرعية غاية، فحسنتك شاملة، وإساءتك نامية وأمرك ظاهر. فعليك بتقوى الله عز وجل وطاعته، فاحتمل سخط الناس فيهما، ولا تطلب رضاهم بخلافهما، فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه إيثارك رضاه، وليس بكافيك من يسخطه عليك إيثارك رضا من سواه. ثم اعلم أن لله تعالى في كل زمن عترة من رسله، وبقايا من صفوة خلقه، وخبايا لنصرة حقه؛ يجدد حبل الإسلام بدعواهم، ويشيد أركان الدين بنصرتهم، ويتخذهم لأولياء دينه

أنصاراً، وعلى إقامة عدله أعوانا يسدون الخلل، ويقيمون الميل، ويدفعون عن الأرض الفساد. وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا، وسيوف دعوتنا، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونصرف نزول العظائم بمناصحتهم، وندافع ريب الزمان بعزائمهم، ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم. فهم عماد الأرض إذا أرجفت كنفها، وحتوف الأعداء إذا برزت صفحتها، وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها. قد مضت لهم وقائع صادقات، ومواطن صالحات، أخمدت نيران الفتن، وقصمت دواعي البدع، وأذلت رقاب الجبارين، ولم ينفكوا كذلك ما جروا مع ريح دولتنا، وأقاموا في ظل دعوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعز الله بها ذلتهم، ورفع بها ضعتهم، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين، بعد لباس الذل، وقناع الخوف، وإطباق البلاء، ومحالفة الأسى، وجهد البأس والضر. فظاهر عليهم لباس كرامتك، وأنزلهم في حدائق نعمتك ثم اعرف لهم حتى طاعتهم، ووسيلة دالتهم، وماتة سابقتهم، وحرمة مناصحتهم بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، والإثابة لمحسنهم، والإقالة لمسيئهم. أي بني: ثم عليك العامة، فاستدع رضاها بالعدل عليها، واستجلب مودتها بالإنصاف لها، وتحسن بذلك لربك، وتزين به في عين رعيتك، واجعل عمال القدر، وولاة الحجج مقدمة بين يدي عملك، ونصفة منك لرعيتك؛ وذلك أن تأمر قاضي كل بلد، وخيار أهل كل مصر، أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم، فإن أحسن حمدت، وإن أساء عذرت، هؤلاء عمال القدر وولاة الحجج. فلا يضيعن عليك ما في ذلك - إذا انتشر في الآفاق، وسبق إلى الأسماع - من انعقاد ألسنة المرجفين، وكبت قلوب الحاسدين، وإطفاء نيران الحروب، وسلامة عواقب الأمور. ولا ينفكن في ظل كرامتك نازلاً، وبعراً حبلك متعلقاً رجلان: أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب، وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل، وحلم راجح، ودين صحيح. والآخر له دين غير مغمور، وموضع مدخول، بصير بتقلب الكلام، وتصريف الرأي، وإيحاء الأدب، ووضع الكتب عالم بحالات الحروب، وتصاريف الخطوب، يضع آداباً نافعة، وآثاراً باقية؛

من تجميل محاسنك، وتحسين أمرك، وتحلية ذكرك، فتستشيره في حربك، وتدخله في أمرك؛ فرجل أصبته كذلك فهو يأوي إلى محلتي، ويرعى في خضرة جناني: ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان، وخيار الأمصار، أقواماً يكونون جيرانك وسمارك، وأهل مشاورتك فيما تورد، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر. فسر على بركة الله، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك؛ وهادياً ينطق بالحق لسانك[١].

- إن الكريم إذا خادعته انخدعا [٢].

- - هاجت ريح سوداء في أيام المهدي، فرؤي وهو ساجد يقول: اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم، واحفظ فينا دعوة نبينا وإن كنت أخذت العامة بذنبي فهذه ناصيتي بيدك[٣] .

– **خطبة المهدى:**

الحمد لله الذى ارتضى الحمد لنفسه ورضى به من خلقه أحمده على الائه وأمجده لبلائه وأستعينه وأومن به وأتوكل راض بقضائه وصابر لبلائه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده المصطفى ونبيه المجتبى ورسوله إلى خلقه وأمينه على وحيه أرسله بعد انقطاع الرجاء وطموس العلم واقتراب من الساعة إلى أمة جاهلية مختلفة أمية أهل عداوة وتضاغن وفرقة وتباين قد استهوتهم شياطينهم وغلب عليهم قرناؤهم فاستشعروا الردى وسلكوا العمى يبشر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها{لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ } [الأنفال: ٤٢].

أوصيكم عباد الله بتقوى الله فإن الاقتصار عليها سلامة والترك لها ندامة وأحثكم على إجلال عظمته وتوقير كبريائه وقدرته والانتهاء إلى ما يقرب من رحمته وينجى من سخطه وينال به ما لديه من كريم الثواب

(١) العقد الفريد، ١ /٥٢ ــ ٥٩.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٢١٦.
(٣) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، ٦٤/٣.

وجزيل الماب فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب وأليم العذاب ووعيد الحساب يوم توقفون بين يدى الجبار وتعرضون فيه على النار{يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥)} [هود: ١٠٥]، {يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)} [عبس: ٣٤ - ٣٧]،{وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣)} [البقرة: ١٢٣]، {يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا} [لقمان: ٣٣]، {إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ} [لقمان: ٣٣]، فإن الدنيا دار غرور وبلاء وشرور واضمحلال وزوال وتقلب وانتقال قد أفنت من كان قبلكم وهى عائدة عليكم وعلى من بعدكم من ركن إليها صرعته ومن وثق بها خانته ومن أملها كذبته ومن رجاها خذلته عزها ذل وغناها فقر والسعيد من تركها والشقى فيها من آثرها والمغبون فيها من باع حظه من دار آخرته بها فالله الله عباد الله والتوبة مقبولة والرحمة مبسوطة وبادروا بالأعمال الزكية في هذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذ بالكظم وتندموا فلا تنالون الندم في يوم حسرة وتأسف وكآبة وتلهف يوم ليس كالأيام وموقف ضنك المقام إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله يقول الله تبارك وتعالى:{وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)} [الأعراف: ٢٠٤]، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم{أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ} [التكاثر: ١ - ٢]، إلى آخر السورة أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به وأنهاكم عما نهاكم عنه وأرضى لكم طاعة الله وأستغفر الله لي ولكم(١).

- قال المهدي للفضل بن الربيع: إني قد وَلّيتُك سَتْرَ وجهي وكَشْفَه، فلا تجعل الستر بيني وبين خواصّي سبباً لضغنهم بِقُبْح ردِّكَ، وعُبُوس وَجْهك، وقدم أبناء الدعوة، فإنهم أوْلى بالتقديم، وثَنِّ بالأولياء، واجعل

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت، ص٥٥ - ٥٦.

للعامة وَقتاً إذا دَخلوا أعجلَهُم ضِيقُه عن التلبّث، وصرَفَهم عن التمكُّث[(١)].

* * *

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، ٤٤٩/١.

الـهــادي

أعلام الخلفاء العباسيين

الخليفة العباسي الهادي

هو موسى الهادي بن محمد المهدي بن جعفر المنصور، أبو محمد: من خلفاء الدولة العباسية ببغداد. ولد بالري. وأمه أم ولد اسمها الخيرزان، كانت ملكًا للمهدي، وفي سنة ١٥٩هـ أعتقها وتزوجها، بعد أن ولدت له الهادي والرشيد، ولد الهادي سنة ١٤٤ هـ وولاه أبوه الهند وسنه ١٦ عام، وكان يوليه قيادة الجيوش في المشرق، فقادها في نواحي جرجان لمقاتلة الخارجين علي الدولة، وفي اليوم الذي توفي فيه أبوه كان مقيمًا بجرجان وكان مع المهدي ابنه هارون الرشيد، فأخذ له البيعة من الجند وأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة والتعزية والتهنئة، وكان ذلك في ٢٢ من المحرم سنة ١٦٩ هـ / ٤ من أغسطس سنة ٧٨٥ م، ولم يزل يلي الخلافة حتي توفي في ١٣ ربيع سنة ١٧٠ هـ / ١٣ سبتمبر سنة ٨٧٦ م فكانت مدة خلافته سنة واحدة وشهرًا و٢٢ يومًا، وسنه حين مات ٢٦ سنة.ويقال أنه أراد خلع أخيه هارون (الرشيد) من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر، فلم تر أمه ذلك، فزجرها فأمرت جواريها أن يقتلنه فخنقنه، ودفن في بستانه بعيسى آباذ.

كان الهادي يسير على خطى أبيه في محاربة الزنادقة [1]والتضييق

---

(١) الزّندقة كلمة معرّبة من اللّغة الفارسيّة استعملها العرب منذ فترة مبكّرة في التّاريخ الإسلاميّ للتّعبير عن طائفة من الملاحدة، والزّنادقة جمع زنديق، وهي حركة دينية سياسية، ابتغى أصحابها بعث الديانات الثنوية الفارسية، وكان أكثرهم يعتنقون ديانات المجوس خاصة المانوية، وكان أهل الإباحة منهم يتأثرون بالمزدكية أيضاً. وقد دبروا لطمس العقيدة الإسلامية، ونسف مثل الأمة العربية، ليقوضوا الدولة الإسلامية، ويعيدوا الدولة الفارسية الثنوية، وكان الزنادقة مخادعين أذكياء، ودُهاة خبثاء، فتستروا بالإسلام، وأسروا الكفر، إخفاء لعقائدهم، وتغطية لأهدافهم، وتيسيراً لعملهم، وكان رؤساؤهم وأتباعهم من الموالي الفرس، وكان شعراؤهم أهم من جد منهم في إحياء تراثهم الديني ونشره، وأكبر من لجّ منهم في تخريب الإسلام وتهديمه وأشهر من نشط منهم في تشويه الخلق العربي وتحطيمه. واشتط في ذلك منهم الشعراء الموالي الكوفيين أكثر من البصريين، لأن الكوفة سبقت البصرة في الزندقة، وفاقتها في الإباحة. وكان مطيع بن إياس وحماد عجرد.. أخطر الزنادقة من أهل الكوفة، وكان بشار بن برد، وصالح بن عبد القدوس أخطر الزنادقة الموالي من أهل البصرة. وكان بجانبهم مجانّ

عليهم،

فاهتم لأمرهم ونكل بهم تنكيلا وكان طويلا جسيما أبيض، في شفته العليا تقلص، شجاعاً جوادا، له معرفة بالادب، وشعر[1].

مواقف من حياته:

وفسقة وعصاة من الشعراء من أهل الكوفة مثل أبي دلامة وعلي بن الخليل، ووالبة بن الحباب، ومن أهل البصرة سلم الخاسر وأبان بن عبد الحميد، وأبي نواس.. وقد اتهموا جميعاً بالزندقة الدينية " ذكر بعض المؤرخين والباحثين أن تاريخ محاكمة الزنادقة وتتبعهم منذ عهد الخلفاء العباسيين الأول؛ المهدي والهادي والرشيد وسار على نفس الدرب المأمون والمعتصم. وقد حدد المؤرخون بداية محاكمة الزنادقة من سنة ١٦٣هـ إلى سنة ١٧٠هـ أي في السنوات الأخيرة من خلافة المهدي وإبان خلافة الهادي. " ففي سنة ١٦٣هـ بدأت حملة المهدي على الزنادقة بأن أمر عبد الجبار المحتسب، والذي يلقبه صاحب الأغاني بلقب (صاحب الزنادقة) بالقبض على الزنادقة الموجودين داخل البلاد. فقبض على من استطاع القبض عليه وأتوا به إلى الخليفة الذي كان حينئذ في دابق، وأمر بقتل بعضهم وتمزيق كتبه. واستمر الخليفة في هذا الجهاد في السنوات التالية حتى بلغ الاضطهاد غايته في الفترة ما بين ١٦٦هـ وسنة ١٧٠هـ وكان يقوم على أمر هذا الاضطهاد قضاة مخصوصون، أشهرهم عبد الجبار الذي ذكرناه آنفاً، وعمر الكلوزي الذي عُين في سنة ١٦٧هـ، ثم محمد بن عيسى حمدويه. ويرى بعض المؤرخين أن ظهور الزندقة كان قبل الخليفة المهدي أي في أواخر الخلافة الأموية.. فابن النديم المتوفى ٣٨٠هـ ذكر أسماء رؤساء المانوية قبل الخلافة العباسية: " كان الجعد بن درهم الذي ينسب إليه مروان بن محمد، فيقال مروان الجعدي، كان مؤدباً له ولولده، فأدخله في الزندقة، وقتل الجعدَ هشامُ بن عبد الملك في خلافته، بعد أن طال حبسه في يد خالد بن عبد الله القسري، فيقال إن آل الجعد، رفعوا قصة إلى هشام يشكون ضعفهم، وطول حبس الجعد، فقال هشام: أهو حي؟ وكتب إلى خالد في قتله، فقتله يوم أضحى وجعله بدلاً من الأضحية بعد أن قال ذلك على المنبر بأمر هشام وإن كنا لا نتفق معهم في رمي الخليفة الأموي مروان بن محمد بالزندقة لعدم وجود وثائق تاريخية تشير إلى زندقة هذا الخليفة.. ومثل هذه التهم يجب الحذر منها لأنها تهم يشنها الخصوم للتشنيع بالآخرين بغية بناء حواجز نفسية لدى الغير بمجرد سماع مثل هذه التهم!!.

(١) المعارف: ٣٨٠ - ٣٨١، الوزراء والكتاب: ١٦٧ - ١٧٥، مروج الذهب ٢ / ٢٥٥ - ٢٦٣، تاريخ بغداد: ١٣ / ٢١ - ٢٥، الكامل لابن الأثير: ٦ / ٨٧ - ٨٩، ٩٦ - ١٠٦، عبرالذهبي: ١ / ٢٥٧ - ٢٥٨، البداية والنهاية: ١٠ / ١٣١ - ١٣٣، ١٥٧، ١٥٩ - ١٦٢، تاريخ الخلفاء: ٢٧٩ - ٢٨٣، شذرات الذهب: ١ / ٢٦٦ - ٢٧١، الخضري، الدولة العباسية، ص ١٢٠.

إذا كنت ترجو في العقاب تشفّياً:

وذكر محمد بن عبدوس الجهشياري، في كتابه الوزراء: أن موسى الهادي سخط على بعض كتابه، ولم يسمه، فجعل يقرعه، ويؤنبه، ويتهدده، ويتوعده.

فقال له الكاتب: يا أمير المؤمنين، إن اعتذاري إليك فيما تقرعني به رد عليك، وإقراري بما بلغك عني، يوجب ذنباً لم أجنه، ولكني أقول كما قال الشاعر:

إذا كنت ترجو في العقاب تشفّياً ::: فلا تزهدن عند التجاوز في الأجر

فصفح عنه، وأمر بترك التعرض له، وأحسن إليه، وصرفه مكرماً[١].

القائد هرثمة بن أعين يتحدث عما أمره به الهادي في ليلة موته:

عن محمد بن الفضل: أن هرثمة بن أعين، قال: كنت اختصصت بموسى الهادي، وكنت - مع ذلك - شديد الحذر منه، لإقدامه على سفك الدماء.

فاستدعاني نصف نهار، في يوم شديد الحر، قبل أكلي، فتداخلني منه رعب، وبادرت فدخلت عليه، وهو في حجرة من دور حرمه، فصرف جميع من كان بحضرته، وقال لي: اخرج وأغلق الباب، وعد إلي، فازداد جزعي، ففعلت، وعدت إليه.

فقال لي: قد تأذيت بهذا الكلب الملحد، يحيى بن خالد، ليس له فكر غير تضريب الجيش، واجتذابهم إلى صاحبه هارون، يريد أن يقتلني، ويسوق إليه الخلافة، وأريد أن تمضي الليلة إلى هارون، وتقبض عليه، وتذبحه، وتجيني برأسه، إما في داره، وإما أن تخرجه برسالتي تستدعيه إلى حضرتي، ثم تعدل به إلى دارك، فتقتله، وتجيني برأسه.

فورد علي أعظم وارد، فقلت: تأذن يا أمير المؤمنين في الكلام؟ فقال: قل.

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ٥٤/١.

فقلت: أخوك، وابن أبيك، وله بعدك العهد، فكيف تكون صورتنا، أولاً عند الله، ثم عند الجيش؟ فقال: إنك إن فعلت هذا، وإلا ضربت عنقك الساعة.

فقلت: السمع والطاعة.

فقال: وأريد إذا فرغت منه هذه الليلة، أن تخرج من في الحبس من الطالبيين، فتضرب رقاب أكثرهم، وتغرق الباقين.

فقلت: السمع والطاعة.

قال: ثم ترحل إلى الكوفة، فتجمع من تقدر عليه من الجيش، فتخرج من بها من العباسيين، وشيعتهم، وعمالنا، والمتصرفين، ثم تضرمها بالنار، حتى لا يبقى فيها جدار.

فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا أمر عظيم.

فقال: هؤلاء أعداؤنا، وشيعة آل أبي طالب، وكل آفة ترد علينا، فهي من جهتهم، ولا بد من هذا.

فقلت: السمع والطاعة.

فقال: لا تبرح من مكانك إلى نصف الليل، لتمضي إلى هارون.

فقلت: السمع والطاعة.

ونهض عن موضعه، ودخل إلى دور النساء، وجلست مكاني، لا أشك أنه قد قبض علي ليقتلني، ويدبر هذه الأمور على يد غيري، لما أظهرت له من الجزع عند كل باب منها، والتخطئة لرأيه، والامتناع عليه، ثم الإجابة، وقد علم الله تعالى، أني ما أجبته إلا على أن أخرج من حضرته، فأركب فرسي من بابه، وألحق بطرف من الأرض، وأفارق جميع نعمتي، فأكون بحيث لا يصل إلي، حتى أموت، أو يموت.

فلما اعتقلني، ودخل دار الحرم، لم أشك في أنه قد فطن لغرضي، وأنه سيقتلني، لئلا يفشو السر، فوردت علي شدة شديدة، وغلبت علي، فطرحت نفسي في الحر مغموماً، جائعاً، على عتبة المجلس، ونمت.

فما انتبهت إلا بخادم قد أيقظني، وقال: أجب أمير المؤمنين، فنظرت

الوقت، فإذا هو نصف الليل.

فقلت: إنا لله، عزم والله على قتلي، فمشيت معه، وأنا أتشاهد، إلى ممرات سمعت منها كلام النساء.

فقلت: عزم على قتلي بحجة، يقول: من أذن لك في الدخول إلى حرمي، ويعتل علي بذلك، فوقفت.

فقال لي الخادم: ادخل.

فقلت: لا أدخل.

فقال لي: ادخل، ويحك.

فقلت: هو ذا أسمع صوت الحرم، ولا يجوز لي أن أدخل.

فجذبني، فصحت: والله، لا دخلت، ولو ضربت عنقي، أو أسمع كلام أمير المؤمنين، بالإذن لي.

وإذا امرأة تصيح: ويلك يا هرثمة، أنا الخيزران، وقد حدث أمر عظيم، استدعيتك له، فادخل.

فتحيرت، ودخلت، وإذا ستارة ممدودة، فقيل لي من ورائها: إن موسى قد مات، وأراحك الله منه، وجميع المسلمين، فانظر إليه، فأتيته، فإذا هو مسجى على فراشه، فمسست قلبه، ومجسه، ومناخره، فإذا هو ميت بلا شك.

فقلت: ما كان خبره؟ فقالت لي الخيزران: كنت بحيث أسمع خطابه لك في أمر ابني هارون، وأمر الطالبيين، وأهل الكوفة، فلما دخل علي، استعطفته، وسألته أن لا يفعل شيئاً من ذلك، فصاح علي، فلم أزل أرفق به، إلى أن بكيت، وتمرغت بين يديه، وناشدته الله أن لا يفعل، فانتهرني، وقال: والله، لئن لم تمسكي، لأضربن عنقك الساعة، فخفته، وقمت، فصففت قدمي في المحراب، أصلي، وأبكي، وأدعو عليه.

فلما كان منذ ساعة، طرح نفسه على فراشه لينام، فشرق، فتداركناه بكوز ماء، فازداد شرقه، إلى أن تلف، فامض إلى يحيى بن خالد، وعرفه ما جرى، وامضيا إلى هارون، وجيئا به قبل انتشار الخبر، وجددا له

البيعة على الناس.

فخرجت وجئت بالرشيد، فما أصبحنا إلا وقد فرغنا من بيعته، واستقام أمره، وتوطأت الخلافة له، وكفاني الله تعالى، والناس، ما كان أظلنا من مكروه موسى، وكان ذلك سبب اختصاصي العظيم بالرشيد، وتضاعف نعمتي ومحلي عنده(١).

فهات من وقته:

ذكر محمد بن عبدوس في كتاب الوزراء: أن إبراهيم بن ذكوان الحراني الأعور الكاتب، صاحب طاق الحراني ببغداد، كان خاصاً بالمهدي.

قال: وإن المهدي أنفذ موسى ابنه إلى جرجان، وأنفذ معه إبراهيم الحراني، فخص إبراهيم بموسى ولطف موضعه منه.

فاتصل بالمهدي عنه أشياء تزيد فيها عليه أعداؤه وكثروا، فكتب المهدي إلى موسى في حمله إليه، فضن به، ودافع عنه.

فكتب إليه المهدي: إن لم تحمله، خلعتك من العهد، وأسقطت منزلتك.

فلم يجد موسى من حمله بدًّا، وحمله مع بعض خدمه، مرفهاً، مكرماً، وقال للخادم: إذا دنوت من محل المهدي، فقيد إبراهيم، واحمله في محمل، بغير وطاء ولا غطاء، وألبسه جبة صوف، وأدخله إليه بهذه الصورة، فامتثل الخادم ما أمر به في ذلك.

واتفق أنه ورد إلى العسكر، والمهدي يريد الركوب إلى الصيد، وهو - إذ ذاك - بالروذبار، فبصر بالموكب، فسأل عنه فقيل خادم لموسى ومعه إبراهيم الحراني.

فقال: وما حاجتي إلى الصيد، وهل صيد أطيب من صيد إبراهيم الحراني؟ قال: فأدنيت منه، وهو على ظهر فرسه.

فقال: إبراهيم؟ قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

فقال: لا لبيك، والله لأقتلنك، ثم والله لأقتلنك، ثم والله لأقتلنك، إمض

---

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ١٦٨/١ ، ١٦٩.

يا خادم به إلى المضرب.

فحملت، وقد يئست من الفرج، ومن نفسي، ففزعت إلى الله تعالى بالدعاء والابتهال.

وانصرف المهدي، فأكل اللوزينج المسموم المشهور خبره، فمات من وقته، وتخلصت.

وذكر محمد بن عبدوس - بعد هذا - أن الهادي لما بلغه موت المهدي، نجا من جرجان إلى بغداد، على دواب البريد، وما سمع بخليفة ركب دواب البريد غيره، فدخل بغداد والربيع مولى المنصور على الوزارة، كما كان يتقلدها للمهدي، فصرفه وقلد إبراهيم بن ذكوان الحراني[١].

أو قد مات موسى؟

وحكي: أن موسى الهادي كان قد طالب أخاه هارون أن يخلع نفسه من العهد، ليصيره لابنه من بعده، ويخرج هارون من الأمر، فلم يجب إلى ذلك.

وأحضر يحيى بن خالد البرمكي، ولطف به، وداراه، ووعده ومناه، وسأله أن يشير على هارون بالخلع، فلم يجب يحيى إلى ذلك، ودافعه مدة.

فتهدده وتوعده، وجرت بينهما في ذلك خطوب طويلة، وأشفى يحيى معه على الهلاك، وهو مقيم على مدافعته عن صاحبه.

إلى أن اعتل الهادي، علته التي مات منها، واشتدت به، فدعا يحيى، وقال له: ليس ينفعني معك شيء، وقد أفسدت أخي علي، وقويت نفسه، حتى امتنع مما أريده، ووالله لأقتلنك، ثم دعا بالسيف والنطع، وأبرك يحيى، ليضرب عنقه.

فقال إبراهيم بن ذكوان الحراني يا أمير المؤمنين: إن ليحيى عندي يداً، أريد أن أكافئه عليها، فأحب أن تهبه لي الليلة، وأنت في غد تفعل به ما تحب.

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ٢٤٢/١ ، ٢٤٣.

فقال له: ما فائدة ليلة؟ فقال: إما أن يقود صاحبه إلى إرادتك يا أمير المؤمنين، أو يعهد في أمر نفسه وولده، فأجابه.

قال يحيى: فأُقمت من النطع، وقد أيقنت بالموت، وأيقنت أنه لم يبق من أجلي إلا بقية الليلة، فما اكتحلت عيناي بغمض إلى السحر.

ثم سمعت صوت القفل يفتح علي، فلم أشك أن الهادي قد استدعاني للقتل، لما انصرف كاتبه.

وانقضت الليلة، وإذا بخادم قد دخل إلي، وقال: أجب السيدة.

فقلت: ما لي وللسيدة؟ فقال: قم، فقمت، وجئت إلى الخيزران.

فقالت: إن موسى قد مات، ونحن نساء، فادخل، فأصلح شأنه، وأنفذ إلى هارون، فجئ به.

فأدخلت، فإذا به ميتاً، فحمدت الله تعالى على لطيف صنعه، وتفريج ما كنت فيه، وبادرت إلى هارون، فوجدته نائماً، فأيقظته.

فلما رآني، عجب، وقال: ويحك ما الخبر؟ قلت: قم يا أمير المؤمنين إلى دار الخلافة.

فقال: أو قد مات موسى؟ قلت: نعم.

فقال: الحمد لله، هاتوا ثيابي، فإلى أن لبسها، جاءني من عرفني أنه ولد له ولد من مراجل، ولم يكن عرف الخبر، فسماه عبد الله، وهو المأمون وركب، وأنا معه، إلى دار الخلافة.

ومن العجب أن تلك الليلة، مات فيها خليفة، وجلس خليفة، وولد خليفة[١].

يا غلام اضرب عنقه:

ذكر صاحب الكردان: أن الهادي كان يوماً في بستان يتنزه على حمار، ولا سلاح معه وبحضرته جماعة، من خواصه وأهل بيته، فدخل عليه حاجبه وأخبره أن بالباب بعض الخوارج له بأس ومكايد، وقد ظفر به بعض القواد فأمر الهادي بإدخاله فدخل عليه بين رجلين قد قبضا على

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ٢٨٤/١.

يديه. فلما أبصر الخارجي الهادي جذب يديه من الرجلين واختطف سيف أحدهما وقصد الهادي ففر كل من كان حوله وبقي وحده، وهو ثابت على حماره، حتى إذا دنا منه الخارجي وهم أن يعلوه بالسيف أومأ إلى وراء الخارجي وأوهمه أن غلاماً وراءه وقال: يا غلام اضرب عنقه، فظن الخارجي أن غلاماً وراءه والتفت الخارجي، فنزل الهادي مسرعاً عن حماره فقبض على عنق الخارجي وذبحه بالسيف الذي كان معه، ثم عاد إلى ظهر حماره من فوره، وأتباع الهادي ينظرون إليه ويتسللون عليه وقد ملئوا منه حياءً ورعباً، فما عاتبهم ولا خاطبهم في ذلك بكلمة، ولم يفارق السلاح بعد ذلك اليوم، ولم يركب إلا جواداً من الخيل. فانظر إلى هذا المقدار في ثبات جأش الملوك، فإنه قل من يفعل ذلك، وهذه مرتبة لم يصل إليها أحد إلا نادراً.

صدق الذي سماك غادر:

حكي عبد الحق أنه قال: مما ابتلي به الهادي من المحبة أنه كان مغرماً بجارية تسمى غادراً، وكانت من أحسن النساء وجهاً وأطيبهم غناءً، اشتراها بعشرة آلاف دينار، فبينما هو يشرب مع ندمائه إذ فكر ساعة وتغير لونه وقطع الشراب، فقيل له: ما بال أمير المؤمنين؟ قال: وقع في قلبي أني أموت وأن أخي هارون يلي الخلافة ويتزوج غادراً فامضوا وأتوني برأسه.

ثم رجع عن ذلك وأمر بإحضاره، وحكى له ما خطر بباله فجعل هارون يترفق به، فقال: لا أرضى حتى تحلف علي بكل ما أحلفك به أني إذا مت لا تتزوج بها. فرضي بذلك وحلف أيماناً عظيمة، ودخل إلى الجارية وحلفها أيضاً على مثل ذلك، فلم يلبث بعد ذلك سوى شهر ومات وولي الخلافة هارون الرشيد فطلب الجارية فقالت: يا أمير المؤمنين كيف تصنع بالإيمان؟ فقال: قد كفرت عنك وعني.

ثم تزوج بها ووقعت في قلبه موقعاً عظيماً وافتتن به أعظم من أخيه الهادي حتى كانت تسكر وتنام في حجره فلا يتحرك ولا ينقلب. فبينما هو في بعض الليالي وهي في حجره نائمة إذا بها انتبهت فزعة مرعوبة. فقال لها: ما بالك فديتك؟ قالت: رأيت أخاك الهادي الساعة في النوم

فأنشدني هذه الأبيات:

أخلفـــت عهـــدي بعـــدما ::: جـــاوزت ســـكان المقـــابر
ونـــسيتني، وحنثـــت في ::: إيمانـــك الـــزور الفـــواجر
ونكحـــت غـــادرة أخـــي ::: صـــدق الـــذي سمـــاك غـــادر
لا يهنـــك الإلـــف الجديـــ ::: د ولا تـــدر عنـــك الـــدوائر
ولحقتني قبـــل الـــصباح وصـــرت ::: حيـــث غـــدوت صـــائر

قالت: ثم ولى عني وكأن الأبيات مكتوبة في قلبي ما نسيت منها كلمة.

فقال لها: هذه أحلام الشيطان.

فقالت: كلا، والله يا أمير المؤمنين. ثم اضطربت بين يديه وماتت في تلك الساعة، ولا تسأل عن هارون الرشيد وما لقي بعدها[١].

إما أن تحملني وإما أن أحملك:

قال محمد بن يزيد بن عمر بن عبد العزيز: خرجت مع موسى الهادي أمير المؤمنين من جرجان، فقال لي: إما أن تحملني وإما أن أحملك. ففهمت ما أراد، فأنشدته أبيات ابن صرمة الأنصاري:

فأوصـــيكم بـــالله أول وهلـــة ::: وأحـــسابكم، والـــبر بـــالله أول
وإن قومكم سادوا فـــلا تحـــسدوهم ::: وإن كنتم أهل الـــسيادة فاعـــدلوا
وإن أنـــتم أعـــوزتم فتعففـــوا ::: وإن كان فضل المال فيكم فأفـــضلوا

فأمر لي بعشرين ألفاً[٢].

ما قَصَّر في الاجتهاد، ولكن حُرِم التوفيق:

وقيل: إن سعيد بن سَلْم راكَب موسى الهادي، والحَربةُ بيد عبد الله بن مالك، وكانت الريح تَسْفي التراب، وعبد الله يَلْحظ موضع مَسير موسى، فيتكلَّف أن يسير على مُحاذاته، وإذا حاذاه ناله ذلك التراب، فلما طال ذلك عليه أقبلَ على سَعيد بن سَلْم، فقال: أما ترى ما نَلقى من هذا الخائن؟ قال:

(١) الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ٤٠ ، ٤١.
(٢) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٦٤/١.

والله يا أميرَ المؤمنين ما قَصَّر في الاجتهاد، ولكن حُرِم التوفيق[١].

أتدرون ما شأنهما؟

وعن علي بن يقطين، قال: كنت عند موسى الهادي، ذات ليلة، مع جماعة من أصحابه، إذ أتاه خادم فساره بشيء، فنهض سريعاً فقال: لا تبرحوا؛ فمضى فأبطأ، ثم جاء وهو يتنفس ساعة، حتى استراح ومعه خادم يحمل طبقاً مغطى بمنديل، فقام بين يده، فأقبل يرعد، وعجبنا من ذلك، ثم جلس، وقال للخادم: ضع ما معك فوضع الطبق، وقال: ارفع المنديل فرفعه فإذا على الطبق رأسا جاريتين لم أر، والله، أحسن من وجهيهما قط، ولا من شعورهما، فإذا على رأسيهما الجوهر منظوم على الشعر، وإذا رائحة طيبة تفوح فأعظمنا ذلك، فقال: أتدرون ما شأنهما؟ قلنا: لا، قال: بلغني أنهما تحابا، فوكلت هذا الخادم بهما لينهي إلي أخبارهما، فجاءني وأخبرني أنهما قد اجتمعا، فجئت فوجدتهما كذلك في لحاف، فقتلتهما، ثم قال: يا غلام ارفع، ورجع في حديثه، كأنه لم يصنع شيئاً[٢].

كان والله ما ظننت!:

عن عبد الله بن مالك قال: كنت أتولى الشرطة للمهدي وكان يبعث إليّ في ندماء الهادي ومغنّيه أني أضربهم وأحبسهم صيانة له عنهم، فبعث الهادي يسألني الرفق بهم والترفيه عنهم، فلا ألتفتُ إلى ذلك وأمضي إلى ما يأمر به المهدي، فلما ولي الهادي الخلافة أيقنت بالتلف فبعث إليّ يوماً فدخلت عليه متكفّناً متحنّطاً، فإذا هو على كرسي والنطع والسيف بين يديه، فسلّمت فقال: لا سلم الله عليك! تذكر يوم بعثت إليك في أمر الحرّاني لما أمر أمير المؤمنين، رضي الله عنه، بضربه فلم تجبني في فلان وفي فلان، وجعل يعدّ ندماءه، ولم يلتفت إلى قولي؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في استيفاء الحجة؟ قال: نعم، قلت: نشدتك الله يا أمير المؤمنين أيسرك أن ولّيتني ما ولاني أبوك وأمرتني

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٢٣٣/١.
(٢) المحاسن والأضداد، ص ١٩٤.

بأمر فبعث إليّ بعض بنيك بأمر يخالف أمرك فاتبعت أمره وعصيت أمرك؟ قال: لا، قلت: فكذلك أنا لك وكذا لأبيك وأخيك. فاستدناني فقبّلت يده وأمر بخُلع فصبّت عليّ وقال: قد وليتك ما كنت تتولاه فامض راشداً. فخرجت من عنده وصرت إلى منزلي مفكراً في أمره وأمري وقلت حدثٌ والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكتّابه فكأني بهم حين يغلب عليه الشراب وقد أزالوه عن رأيه فيّ وحملوه في أمري ما كنت أتخوّفه، قال: فإني لجالس وبين يديّ بنيّة لي والكانون بين يدي ورقاق أشطره بكامخ وأسخنه وأطعمه الصبية حتى توهّمت أن الدنيا قد اقتلعت بي وزلزلت لوقع حوافر الدواب وكثرة الضوضاء فقلت: هاه كان والله ما ظننت! فإذا الباب قد فتح وإذا الخدم قد دخلوا وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار في وسطهم، فلما رأيتهم وثبت عن مجلسي مبادراً وقبّلت يده ورجله وحافر حماره، فقال: يا أبا عبد الله إني فكرت في أمرك فقلت يسبق إلى قلبك أني إذا شربت وجاءني أعداؤك أزالوا ما حسن من رأيي فيك فأقلقك وأوحشك فصرت إلى منزلك لأؤنسك وأعلمك أن السخيمة قد زالت عن قلبي فهات أطعمني ما كنت تأكل وافعل فيه ما كنت تفعل لتعلم أني قد تحرمت بطعامك وأنست بمنزلك فيزول خوفك ووحشتك. فأدنيت إليه ذلك الرقاق والسُّكُرّجة التي فيها الكامخ فأكل منها ثم قال: هاتوا الزلة التي زللتها لأبي عبد الله من مجلسي، فأدخل إليّ أربعمائة بغل موقرة دراهم، فقال: هذه زلّتك فاستعن بها على أمرك واحفظ هذه البغال عندك فلعلي أحتاج إليها لبعض أسفاري، وانصرف راجعاً. فأخبرني موسى بن عبد الله أن أباه أعطاه بستانه الذي كان وسط داره فبنى حوله معالف لتلك البغال وكان هو يتولى القيام عليها مدّة حياة الهادي[1].

عليّ بالجفلى لا بالنقرى:

قال علي بن صالح: كنت يوماً على رأس الهادي وأنا غلام وقد جفا المظالم ثلاثة أيام عاقر العقار فيها، فدخل عليه الحرانيّ فقال: يا أمير المؤمنين إن العامة لا تقاد، أو قال: لا تنقاد لما أنت عليه، لم تنظر في

---

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١/٨٥.

المظالم منذ ثلاثة أيام، فالتفت إليّ فقال: يا علي ائذن للناس عليّ بالجفلى لا بالنقرى، فخرجت من عنده وأنا أطير على وجهي لا أدري ما قال لي، فقلت: أرجع فأسأله عما قال فيقول: تحجبني ولا تعلم كلامي؟ ثم أدركني ذهني فبعثت إلى أعرابي كان وفد علينا فسألته عن الجفلى والنقرى، فقال: الجفلى جفالة الرجال والنقرى ترتيبهم، فأمرت بالستور فرفعت وبالأبواب ففتحت فدخل الناس على بكرة أبيهم فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل، فلما تقوض المجلس قلت: يا أمير المؤمنين كلمتني بكلام لم أعرفه فبعثت إلى أعرابي كان عندي ففسره لي وفهمني فكافئه عني يا أمير المؤمنين، فقال: نعم مائة ألف درهم تحمل إليه، فقلت: يا أمير المؤمنين أعرابي جلفٌ وفي عشرة آلاف درهم ما أغناه! فقال: ويحك أجود وتبخل؟[1]

وقد بررناه بالأمس لنرى أثر ذلك عليه؟

عن ابن دأب أنه كان يأكل مع الهادي وينادمه وكان يدعو له بتكاءٍ وما كان يفعل ذلك في مجلسه بغيره، وكان لذيذ المفاكهة طيب المسامرة كثير النادرة جيد الشعر حسن الانتزاع، قال: فأمر له ذات ليلة بثلاثين ألف دينار، فلما أصبح وجّه قهرمانه إلى باب موسى وقال له: الق الحاجب فقل له يوجه إلينا بهذا المال، فلقي الحاجب فأتاه برسالته فتبسم وقال: هذا ليس إلي، فانطلق إلى صاحب التوقيع ليخرج إليك كتاباً إلى الديوان فتدبره ثم تفعل فيه كذا وكذا، فرجع إلى ابن دأب فأخبره، فقال: دعها ولاتعرض لها، قال: فبينا موسى في مستشرف له إذ نظر إلى ابن دأب قد أقبل وليس معه إلا غلام واحد، فقال لإبراهيم الحراني: أما ترى ابن دأب ما غير من حاله شيئاً وقد بررناه بالأمس لنرى أثر ذلك عليه؟ فقال إبراهيم: إن أمرني أمير المؤمنين تعرضت له بشيء من أمره، قال: لا، هو أعلم بأمره، ودخل ابن دأب وأخذنا في حديثه إلى أن عرض له موسى بذكر ذلك فقال: أرى ثوبك غسيلاً وهذا شتاء يحتاج فيه إلى الثوب الجديد اللين، فقال: يا أمير المؤمنين باعي قصير عما أحتاج إليه، قال:

---

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٩٢/١.

وكيف وقد صرفنا إليك من برنا ما ظننا أن فيه صلاح شأنك؟ قال: ما وصل إلي ولا قبضته، فدعا صاحب بيت مال الخاصة وقال: عجل له الساعة ثلاثين ألف دينار، فأحضرت وجعلت بين يديه.

تؤمل الخلافة!:

قال محمد بن عمرو الرومي: حدثني أبي قال: جلس الهادي مجلساً خاصًّا فدعا بإبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر وإبراهيم بن سلم بن قتيبة بن مسلم والحراني فجلسوا عن يساره ومعهم خادم للهادي أسود يقال له أسلم، إذ دخل صالح صاحب المصلى فقال هارون بن المهدي: ائذن له، فدخل وسلم عليه وقبل يده وجلس عن يمينه بعيداً، فأطرق موسى ثم التفت إليه وقال: يا هارون كأني بك تحدث نفسك بتمام الرؤيا وتؤمل ما أنت منه بعيد ودون ذلك خرط القتاد، تؤمل الخلافة! قال: فبرك هارون على ركبتيه وقال: يا موسى إنك إن تجبرت وُضعت، وإن تواضعت رفعت، وإن ظلمت خُتلت، وإني أرجو أن يفضي إليّ الأمر فأُنصف من ظلمت وأصل من قطعت وأصيّر أولادك أعلى من أولادي وأزوجهم بناتي وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدي، فقال له موسى: ذلك الظن بك يا أبا جعفر، ادن مني، فدنا وقبل يده ثم ذهب يعود إلى مجلسه، فقال: لا والشيخ الجليل والملك النبيل أعني أباك المنصور لا جلست إلا معي، فأجلسه في صدر المجلس معه ثم قال: يا حرانيّ احمل إلى أخي ألف ألف دينار وإذا افتتح الخراج فاحمل إليه النصف واعرض عليه ما في الخزانة الخاصة وسائر الخزائن من مالنا وما أخذ من أهل بيت اللعنة فيأخذ منه ما أراد، قال: ففعل ذلك، فلما قام قال لصالح: أدن دابته إلى البساط، قال عمرو الرومي: وكان هارون يأنس به، قلت: يا سيدي ما الرؤيا التي قال لك؟ قال المهدي: رأيت في منامي كأني دفعت إلى موسى قضيباً وإلى هارون قضيباً أورق من قضيب موسى وأعلى منه، فأما قضيب هارون فأورق من أوله إلى آخره وكان قضيب موسى دون قضيب ذلك، فدعا المهدي الحكم بن موسى العنزي وهو الذي بنى أبوه واسطاً للحجاج فقال له: عبّر هذه الرؤيا، قال: يملكان جميعاً فأما موسى فتقل أيامه وأما هارون فيبلغ مدى آخر ما عاش خليفة وتكون أيامه أحسن أيامٍ وأنضرها

ودهره أحسن دهر، قال: فلم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى مات موسى وتولى الأمر هارون فزوج حمدونة من جعفر بن موسى وفاطمة من إسماعيل ووفى بكل ما قال، فكان دهره أحسن الدهور[(١)].

والله ما لقيت منك ما يدعو إلى إتيانك!:

وحدثنا يعقوب بن إسحاق قال: رأى رجل من الموالي ليحيى البرمكي رؤيا، وكان يحيى على حال الخوف والوجل من الهادي، فقص الرؤيا على أبيه، فقال: يا بني هذه والله رؤيا عجيبة وأخلق به لأن الرشيد في حجره وولاية العهد له، قال: يا أبت أفترى أن أخبره بها؟ قال: يا بني لا تفعل فإن السلطان غليظ عليه وهو يرميه بالزندقة وأنا أشفق عليه من إتيانه لأنه لا يقبل مثل هذا في هذا الوقت، فعصى الرجل أباه وأتاه، قال الرجل: فلما دخلت عليه رأيت المصحف بين يديه يقرأ فيه فعجبت مما قيل فيه، فلما خف من عنده دنوت منه فقصصت عليه الرؤيا، فقال: يا بن أخي ما أحسن بالرجل أن يلتمس الرزق بالأحسن الأجمل وأقبح به أن يلتمسه على هذا وربما تذكره مما يشبهه! فخرجت من عنده وقد سقط وجهي، فأتيت أبي فأعلمته، فقال: بُعداً لك وسحقاً! قد نصحت لك فلم تقبل، ثم أقبل يشتمه وتشتمه أمه وأهله ويقولون: نشهد عليك أنك من الزنادقة المعطلين! قال: ثم لم يلبث أن توفي الهادي وأفضى الأمر إلى الرشيد وصار يحيى إلى ما صار إليه، فبينا هو في موكبه يوماً إذ بصر بي فوجه إليّ ودعاني، فدخلت عليه وهو على كرسي قد طرح ثوبه وجعل يمسح وجهه، فلما دنوت منه قال: أين كنت عنا؟ قلت: أعزك الله، والله ما لقيت منك ما يدعو إلى إتيانك! قال: ويحك إنك أتيتنا ونحن في حال كنا نتخوف الجدُر أن يكون فيها من يسعى بنا والإخوان أن يسعوا بنا ويحتالوا علينا، ولم يكن الرأي أن أجيبك إلا بما أجبتك، ووالله ما فارقني الفكر في العناية بك والإيجاب لك والمعرفة بحقك منذ وقعت عليك عيني. ثم أمر سلاماً بإحضار عشرة آلاف درهم فأُحضرت، وأمر بالكتاب إلى سليمان بن راشد بأرمينية فدفع المال إليّ وحملني وخلع عليّ

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٩٣/١.

وقال: اذهب فأصلح شأنك وتعال فتسلم كتبك، وأمر لي بعشر من دواب البريد، فانصرفت إلى منزلي وتحتي دابة وعلي خلعة ومعي عشرة آلاف درهم، فقال أبي: ما هذا يا بني؟ فأعلمته الخبر، فما زلت وأهلي وأبي ندعو له ونشهد أنه من الصديقين والشهداء والصالحين، فقلت لبعض جيراننا: ما أصنع بعشر دواب البريد؟ فقال: أكرها فإنك تصيب في السكك من تقصر به دابته عن حاجته فيكتري منك، قال: فلما كان من الغد عدت إليه فأخذت كتبي وجوازي، فلما صرت إلى السكة وجدت رجلاً كبيراً قد وجّه إلى تلك الناحية ولم يكتف بما حمل عليه من الدواب، فأكريت منه ثماني دواب وخرجت على دابتين، أنا على دابة وغلامي على أخرى، ولم أزل في حشم المكتري حتى صرنا إلى أول العمل فإذا يحيى قد سبقني بالكتاب إلى سليمان أن رجلاً من حاله كيت وكيت وله عندي أيادٍ فاخترتك له فكن عند ظني بك في أمره وافعل به وافعل، قال: فوجه سليمان قائداً في جند عظيم لاستقبالي حتى إذا اتصل به دنوّي استقبلني في وجوه أهل البلد، فلما دنا منا بادر إلى الرجل المكتري مني ولم يشكّ أني هو وسأله، فأعلمه المكتري أنه فلان ابن فلان، فقال سليمان: توهمتك فلاناً! قال: لست هو لكنه ذاك، وأشار إليّ، فأقبل سليمان ركضاً إليّ وتضاءلت منه حياء لرثاثة حالي، فسألني وأعلمني أنه وجه إليّ وكيله وحمل معه هدايا، فقلت: ما وصل ذلك إليّ، فلما نزلنا وحططنا في بعض تلك المنازل إذا وكيله قد وافى بهداياه وإذا دواب وبغال موقرة وتخوت وثياب، فدخلت البلد وقد حسنت حالي ووكّد عليّ في كتابه وليس عندي إلا إطلاق العمل لك، وهاهنا نشوى الكبرى ونشوى الصغرى وهما من أجلّ الأعمال بأرمينية ونواحيها وإن شئت أن تخرج إليها فاخرج وإن شئت فهاهنا من يبذل عنهما خمسمائة ألف درهم، قلت: لا والله أبقاك الله إلا الخمس المائة الألف عجّلها لي فأنصرف إلى أب شيخ كبير وعيال قد خلّفتهم ورائي، قال سليمان: ذاك إليك، فلما خرج سليمان سألت عن نشوى ونشوى قال فقيل مقاطعتهما خمسمائة ألف درهم ويصير إلى المقاطع مثلها، ثم لم ألبث من الغد أن أتى رسوله بالمال فخرجت وأهديت إلى يحيى هدايا كثيرة وألطافاً جليلة مما كان برّني به

سليمان، فلما دخلت إليه تبسم لي وقال: إنا لم نوجهك لننتفع بك وإنما وجّهناك لتنتفع بنا وسيتصل معروفنا إليك فالزمنا، فكسبت تجاهه مع ما وصل إليّ منه ولم يزل يصلني به عشرين ألف ألف درهم[١].

أعياك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين!:

قال عمر بن شبّة النميري أبو زيد: كان علي بن الحسين بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، رضوان الله عليهم أجمعين، من آل الأفطس وكان يلقب بالجزري، فتزوج رقية بنت عمرو العثمانية وكانت تحت المهدي، فبلغ ذلك الهادي فأرسل إليه فحمله وقال: أعياك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين! فقال: ما حرم الله عز وجل على خلق إلا نساء جدي، ، فأما غيرهن فلا ولا كرامة. فشجه بمخصرة كانت في يده وأمر بضربه خمسمائة سوط وأراد على أن يطلقها فلم يفعل، فحمل من بين يديه في نطع فألقي ناحية، وكان في يده خاتم سريّ فرآه بعض الخدم وقد غشي عليه فأهوى إلى الخاتم، فقبض على يد الخادم فدقها، فصاح: الموت دقّ يدي! فسمعه الهادي فدعاه فرأى ما به فاستشاط فقال: تفعل هذا بخادمي مع استخفافك بي وقولك لي؟ قال: قل له وسله ومره أن يضع يده مرة على رأسك ليصدقنّ. ففعل ذلك موسى فصدقه الخادم. فقال: أحسن والله! أنا أشهد أنه ابن عمي، لو لم يفعل ذلك لانتفيت منه. وأمر بإطلاقه ووصله بمائة ألف درهم[٢].

أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟

قيل: وكانت لخيزران في خلافة موسى الهادي كثيراً ما تكلمه في الحوائج فكان يجيبها إلى كل ما تسأل، حتى مضت لذلك أربعة أشهر من خلافته فاجتمع الناس إليها وطمعوا فيما قبلها فكانت المواكب تغدو إلى بابها وتروح، قال: فكلمته يوماً في أمر فاعتل بعلة، فقالت: لا بد من إجابتي. قال: لا أفعل. قالت: فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك. قال: فغضب وقال: ويلي عليه ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها

(١) المحاسن والمساوئ، ٢٠٧/١.
(٢) المحاسن والمساوئ،ص ٩٦.

والله لا قضيتها له! قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً. فقال: إذاً والله لا أبالي. وحمي وغضب ثم قال: مكانك حتى تستوعبي كلامي والله وإلا فأنا نفيّ من قرابتي من رسول الله، ، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوادي وخاصتي وخدمي لأضربن عنقه ولأقبضنّ ماله فمن شاء فليلزم ذلك، ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ إياك ثم إياك أن تفتحي بابك لمليّ ولا ذميّ! فانصرفت ما تعقل ما تطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا بمرة بعد ذلك [(١)].

كيف رأيت الأرزة؟

قال يحيى بن الحسن: وحدثني أبي قال: سمعت خالصة تقول للعباس بن الفضل بن الربيع: بعث موسى الهادي إلى أمه الخيزران بأرزة فقال: اشتهيتها فأكلتها فكلي منها. قالت خالصة: فقلت: أمسكي حتى ننظر فإني أخاف أن يكون فيها شيء. فأرسل إليها بعد ذلك: كيف رأيت الأرزة؟ قالت: وجدتها طيبة. فقال: لِمَ لَمْ تأكلي منها؟ والله لو أكلت لقد كنت استرحت منك، فما أفلح خليفة له أم! قيل: وضرب إبراهيم بن بهنك العكي ابنه فذهب الابن فوشى بأبيه إلى الرشيد وذكر أنه يريد اغتياله، فدفعه الرشيد إلى ابنه، فقيده وحبسه في بيت ودعا بأمهات أولاده فجعل يشرب معهنّ ليغيظ أباه، فاستبطأ الرشيد فدعا به وقال له: إن كذبت على أبيك استرضيناه لك وإن كنت صدقت فلست أرى أفعالك تشاكل أفعال الصادقين. فلما انصرف من عنده دخل على أبيه بالسيف فضربه حتى قتله. ولذلك قيل: شرّ المرزئة سوء الخلف[(٢)].

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا:

وقيل كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند فكتب إلى موسى الهادي إن رجلا من أشراف أهل الهند من آل المهلب بن أبي صفرة اشترى غلاما أسود فرباه وتبناه فلما كبر وشب أشتد به هوى مولاته فراودها عن

(١) المحاسن والمساوئ،ص٢٣٥.
(٢) المحاسن والمساوئ،ص٢٣٦.

نفسها فأجابته فدخل مولاه يومًا على غفلة منه من حيث لا يعلم فإذا هو على صدر مولاته فعمد إليه فجب ذكره وتركه يتشحط في دمه ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك فعالجه إلى أن برئ من علته فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثأره من مولاه ويدبر عليه أمرًا يكون فيه شفاء غليله وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر فغاب الرجل يومًا عن منزله لبعض الأمور فأخذ الأسود الصبيين فصعد بهما على ذروة سطح عال فنصبهما هناك وجعل يعللهما بالمطعم مرة وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه فرفع رأسه فرأى في شاهق مع الغلام فقال: ويلك عرضت ابني للموت قال: أجل والله الذي لا يحلف العبد بأعظم منه لئن لم تجب ذكرك مثل ما جببتني لأرمين بهما فقال: الله الله يا ولدي في تربيتي لك قال: دع هذا عنك فوالله ما هي إلا نفسي وإني لأسمح بها في شربة ماء فجعل يكرر عليه ويتضرع له وهو لا يقبل ذلك ويذهب الوالد يريد الصعود إليه فيدليهما من ذلك الشاهق فقال أبوهما: ويلك فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أمرت ثم أسرع وأخذ مدية فجب نفسه وهو يراه فلما رأى الأسود ذلك رمى الصبيين من ذلك الشاهق فتقطعا وقال: إن جبك لنفسك ثأري وقتل أولادك زيادة فيه فأخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام وقال: ما سمعت بمثل هذا قط وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود فما ترى أردأ من العبيد ولا أقل خيرًا منهم وأكثرهم رداءة المولدون لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكره كأن لم ير منك شيئًا وكلما أحسنت إليه تمرد وإن أسأت إليه خضع وذل وقد جربت أنا ذلك كثيرًا وما أحسن ما قيل:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ::: وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا [1]

أربع كلمات فيهن صلاح الملك:

خرج الزهري يوماً من عند هشام بن عبد الملك فقال: ما رأيتُ

(١) شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف،تحقيق د.مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الثانية، ١٩٨٦، ١٧١/٢.

كاليوم، ولا سمعت كأربع كلمات تكلّم بهنّ رجلٌ عند هشام؛ دخل عليه فقال: يا أميرَ المؤمنين، اِحفظْ عني أرْبَع كلمات، فيهنّ صلاحُ مُلْكك، واستقامةُ رعيّتِك. قال: هاتهنَّ؟ قال: لا تَعِدن عِدةً لا تَثِقُ من نفسك بإنجازها، ولا يغرَّنك المرْتَقَى وإن كان سَهْلاً إذا كان المُنحَدرُ وَعْرًا، واعلمْ أن للأعمال جزاءً فاتّق العواقبَ، وأنَّ للأمور بَغَتَاتٍ فكُنْ على حذَر.

قال عيسى بن دَأب: فحدَّثت بهذا الحديث الهادي وفي يده لُقْمة قد رفعها إلى فِيهِ فأمسكها، وقال: ويحك أعِدْ عليّ فقلت: يا أمير المؤمنين، أسِغْ لقْمتك، فقال: حديثك أحب إليّ[١] .

أنا لا أتغدى في مكان لا أغسل يدي فيه:

كان ابن دأب أحفظ الناس للأنساب والأخبار وكان تياهاً فكان ينادم الهادي ولا يتغدى معه ولا بين يديه فقيل له في ذلك، فقال: أنا لا أتغدى في مكان لا أغسل يدي فيه، فقال له الهادي: فتغد، فكان الناس إذا تغدوا تنحوا لغسل أيديهم، وابن دأب يغسل يده بحضرة الهادي[٢].

كل عود ذي فنون منكسر:

وحدث بإسناد رفعه إلى أبي زهير قال: كان ابن دأب أحظى الناس عند الهادي، فخرج الفضل بن الربيع يوماً فقال: إن أمير المؤمنين يأمر من ببابه بالانصراف، فأما أنت يا بن دأب فادخل، قال ابن دأب: فدخلت وهو منبطح على فراشه، وإن عينيه لحمراوان من السهر وشرب الليل. فقال لي: حدثني بحديث من حديث الشراب، فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، خرج نفر من كنانة إلى الشام يجلبون الخمر فمات أحدهم فجلسوا على قبره يشربون، فقال أحدهم:

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م، ٢٤٤/٢.

(٢) تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي المعروف بابن حجة،طيب المذاق من ثمرات الأوراق، ص ٣٥٧.

لا تصرد هامة من شربها ::: اسقه الخمر وإن كان قبر
اسق أوصالاً وهاماً وصدى ::: ناشعاً ينشع نشع المنبهر
كان حرًّا فهوى فيمن هوى ::: كل عود ذي فنون منكسر

قال: فدعا بدواة فكتبها، ثم كتب إلى الخوان بأربعين ألف درهم وقال: عشرة آلاف لك، وثلاثون ألفاً للثلاثة الأبيات. قال: فأتيت الخزان فقالوا: صالحنا على عشرة آلاف أنك تحلف لنا ألا تذكرها لأمير المؤمنين، فحلفت ألا أذكرها حتى يبدأني فمات ولم يذكرها.

لا يسأل الرجل فيم يضرب امرأته؟

وحدث المرزباني فيما رفعه إلى مصعب الزبيري عن أبيه قال: كنا جماعة تجالس الهادي أنا وسعيد بن سلم الناهلي وابن دأب وعبد الله بن مسلم العزيزي وكان أجرأنا عليه، فخرج علينا مغيظاً متغيراً فسأله العزيزي عن خبره فقال: لم أر كصاحب الدنيا أكثر آفات ولا أدوم هموماً، قد عرفتم موضع لبانة بنت جعفر بن أبي جعفر مني، وأثرتها عندي، وأنها أغلظت لي بإدلالها في شيء فلم أجد صبراً فنلتها بيدي فندمت عليه. فسكتنا خوفاً من تعنيفه أو تصويب رأيه فيبلغها ذلك. فقال ابن دأب: وما في ذلك يا أمير المؤمنين؟ هذا الزبير بن العوام حواري رسول الله وابن عمته، ضرب امرأته أسماء بنت أبي بكر الصديق وهي من أفضل نساء زمانها حتى كسر يدها وكان ذلك سبب مفارقته إياها لأنه قال: أنت طالق إن حال عبد الله بيني وبينك يعني ابنه عبد الله بن الزبير، فلم يخله وخلصها، وهذا عمر رضي الله عنه يقول: لا يسأل الرجل فيم يضرب امرأته؟ وهذا كعب ابن مالك الأنصاري وهو أخو الزبير - آخى رسول الله بينهما - عتب على امرأته وهي من المهاجرات في شيء ضربها حتى حال بنوها بينهما فقال:

لولا بنوها حولها لخبطتها ::: إلى أن تداني الموت غير مذمم
ولكنهم حالوا بمنعي دونها ::: فلا تعدميهم بين ناه ومقسم
فمالت وفيها حائش من عبيطها ::: كحاشية البرد اليماني المسهم

قال: فضحك الهادي وسري عنه وأمر بالطعام، وأمر لابن دأب بخمسين ألف درهم وخمسين ثوباً. قال عبد الله بن مصعب: فتأسفت كيف سبقني إلى شيء أحفظه مثل حفظه[1].

وأنا أجيئك في غدٍ إن شاء الله:

اعتلت الخيزران أم الخليفة الهادي، فأراد الركوب إليها، فقال عمر بن بزيع ألا أدلك على ما هو أنفع من عيادتها، وأجلب لعافيتها؟ قال: بلى. قال: تجلس للمظالم، فقد احتاج الناس إلى ذلك، فرجع وجلس ووجه إليها: إني أردتك اليوم، فعرض من حق الله ما هو أوجب، فملت إليه، وأنا أجيئك في غدٍ إن شاء الله.

أليس منكم رجل رشيد:

قال سعيد بن سلم الباهلي صلى بنا الهادي صلاة الغداة فقرأ:{عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾} [النبأ: ١]، فلما بلغ قوله تعالى:{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾} [النبأ: ٦]، أرتج عليه، فرددها ولم يجسر أحدٌ أن يفتح عليه لهيبته، وكان أهيب الناس، فعلم ذلك فقرأ:{أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ} [هود: ٧٨]، ففتحنا عليه، وكنا نعده من محاسنه[2].

كان المجنون واحداً، صرنا اثنين:

ركب الهادي يوماً، فنظر إلى مجنون يلقب بكسرة؛ ويرمى من يقول هذا اللقب، ويعمل العجائب؛ فأمر بحمله إلى الدار، فقال له: لم تشتم الناس إذا قالوا لك: كسرة؟ قال: ولم تضرب الأعناق إذا قيل لك: موسى اطبق؟ قال: أنا لا أغضب من هذا. قال: فصح أنت بي ثلاث مراتٍ، وأصيح مرتين فننظر من يحرد. قال: قد رضيت. فقال الهادي: يا كسرة؛ يا كسرة. ثلاث مرات، وطولها، فلم يلتفت المجنون، ولم يتحرك ولم يحرد، ثم صاح: يا موسى اطبق. فلم يتحرك الهادي، فقال المجنون: ما يتغافل إلا من أمه قحبة. فحرد الهادي، ودعا بالنطع والسيف، فقال المجنون: كيف رأيت؟ كان المجنون واحداً، صرنا اثنين. وأنا أيضاً هكذا؛

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ٢/٢٣٧ - ٢٣٩.
(٢) نثر الدر، ٣ /٦٥ ، ٦٦.

لو قالوا: يا كسرة؛ يا رغيف. ألف سنة ما باليت، ولكن كذا يقولون لي إذا تغافلت. فضحك الهادي وأمر له بجائزة(١).

فلمن هو؟

قال عبد الله بن محمد البواب: سألت الخيزران موسى الهادي أن يولي خاله الغطريف اليمن، فوعدها بذلك ودافعها، ثم كتبت إليه يوماً رقعة تناجزه فيها أمره، فوجه إليها برسولها يقول لها: خيريه بين اليمن وطلاق ابنته، أو مقامي عليها ولا أوليه اليمن، فأيهما اختار فعلته. فدخل الرسول إليها، ولم يكن فهم عنه ما قال له فأخبرها بغيره، ثم خرج إليه فقال: تقول لك ولاية اليمن، فغضب وطلق ابنته وولاه اليمن. ودخل الرسول فأعلمه بذلك فارتفع الصراخ من داره فقال: ما هذا؟ فقالوا: من دار بنت خالك، قال: أو لم يختر ذلك؟ قالوا: لا ولكن الرسول لم يفهم ما قلت أدى غيره، وعجلت بذلك. فندم ودعا صالحاً صاحب المصلى وقال له: أقم على رأس كل رجل يحضرني من الندماء رجلاً بسيف، فمن لم يطلق امرأته فليضرب عنقه، ففعل ذلك، ولم يبرح من حضرته أحد منهم حتى طلق امراته. قال ابن البواب: فخرج الخدم إلي فأخبروني بذلك، وعلى الباب رجل واقف متلفع بطيلسانه يراوح بين رجليه فخطر ببالي من الطويل:

خليلي من سعد ألما فسلما ::: على مريم لا يبعد الله مريما
وقولا لها هذا الفراق عزمته ::: فهل من نوال قبل ذاك فيعلما

فأنشدته بالياء، فقال لي: فنعلما بالنون، فقلت له: وما الفرق بينهما؟ فقال: إن المعاني تحسن الشعر وتفسدهن وإنما قال: فنعلم ليعلم هو القصة، وليست به حاجة إلى أن يعلم الناس سره. فقلت له: أنا أعلم بالشعر منك، قال: فلمن هو؟ قلت: للأسود بن عمارة النوفلي قال: أو تعرفه؟ قلت: لا، قال: فأنا هو. فاعتذرت إليه من مراجعتي إياه ثم عرفته خبر الخليفة فيما فعله، فقال: أحسن الله جزاءك، وانصرف، وقال: هذا

(١) نثر الدر، ١٨٢/٣.

أحق منزل بترك[1].

يا جاهل!:

وحكى إسحاق الموصلي عن أبيه إبراهيم أنه غنى الهادي صوتاً أطربه فقال: سل ما شئت، فقال: تقطعني عين مروان بالمدينة، فقال: يا غلام جأ عنقه، يا جاهل! أردت ويلك أن تشيع في الناس أنك غنيتني فأقطعك على الغنائم! ثم قال لوزيره: أدخل هذا الجاهل الخزانة فأعطه ما شاء[2].

* * *

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية،١/٣٦٠.
(٢) الزمخشري، ربيع الأبرار، ١/٢٣٥.

هارون الرشيد

أعلام الخلفاء العباسيين

الخليفة العباسي هارون الرشيد

أكثر خلفاء الدولة العباسية جهادًا وغزوًا واهتمامًا بالعلم والعلماء، كثير البكاء على نفسه، تسيل دموعه كالسيل إذا وعظ، ولم يذكر له النبي إلا قال: صلى الله على سيدي.

هو أبو جعفر هارون بن المهدي محمد بن المنصور أبي جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي، كان مولده بالري حين كان أبوه أميرًا عليها وعلى خراسان في سنة ثمان وأربعين ومائة وأمه أم ولد تسمى الخيزران وهى أم الهادي.

نشأ هارون تحيطه رعاية والده الذي دربه منذ حياته المبكرة على الحياة العسكرية، فجعله أميرًا لحملة عسكرية كانت تسمى بالصوائف حيث كانت تخرج للجهاد في الصيف، والشواتي نسبة إلى الشتاء لتهديد العدو البيزنطي وتخويفًا له، وولاه المغرب كله، ثم عينه والده وليًّا للعهد بعد أخيه الهادي.

ولي الخلافة بعهد معقود له بعد الهادي من أبيهما المهدي في ليلة السبت السادس عشر من ربيع الأول سنة سبعين ومائة بعد الهادي، قال الصولي: هذه الليلة ولد له فيها عبد الله المأمون ولم يكن في سائر الزمان ليلة مات فيها خليفة وقام خليفة وولد خليفة إلا هذه الليلة وكان يكنى أبا موسى فتكنى بأبي جعفر.

تولى الرشيد خلافة المسلمين سنة ١٧٠هـ، وأصبحت بغداد في عصره من أعظم مدن الدنيا، فريدة في حضارتها وعمارتها، وشمل بعدله القوي والضعيف والعاجز والمريض وذا الحاجة، وازدهرت فترة ولايته بوجود الكثير من أئمة العلم العظام كالإمام مالك بن أنس، والليث بن سعد، والكسائي ومحمد بن الحسن من كبار أصحاب أبي حنيفة.

وكان يضرب به المثل في التواضع، يحكى أن أبي معاوية الضرير وهو من العلماء المحدثين قال: أكلت مع الرشيد ثم صبَّ على يدي الماء رجل لا أعرفه، فقال الرشيد: تدري من صب عليك؟ قلت: لا. قال: أنا،

إجلالاً للعلم.

وجاوزت خشيته من الله الحدود، فكان جسده يرتعد، ويسمع صوت بكائه إذا وعظه أحد من الناس، يحكى أنه جالس (أبا العتاهية) الشاعر، وكلف أحد جنوده بمراقبته، وإخباره بما يقول، فرآه الجاسوس يومًا وقد كتب على الحائط:

إلى ديـــان يـــوم الـــدين نمـــضي ::: وعنـــد الله يجتمـــع الخـــصوم

فأخبر الجاسوس الرشيد بذلك، فبكي وأحضر أبا العتاهية، وطلب منه أن يسامحه، وأعطاه ألف دينار.

وقال الأصمعي: وضع الرشيد طعامًا، وزخرف مجالسه وزينها، وأحضر أبا العتاهية وقال له: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا، فقال أبو العتاهية:

عـــش مـــا بـــدا لـــك ســـالمًا ::: في ظـــل شـــاهقة القـــصور

فقال الرشيد: أحسنت ثم ماذا؟ فقال:

يـــسعى إليـــك بمـــا اشـــتهيت ::: لـــدى الـــرواح وفي البكـــور

فقال: حسن؟ ثم ماذا؟ فقال أبو العتاهية مندفعًا:

فـــإذا النفـــوس تقعقعـــت ::: في ظـــل حـــشرجة الـــصدور
فهنـــاك تعلـــم موقنًـــا ::: مـــا كنـــت إلا في غـــرور

فبكى الرشيد، فزجر أحد الحاضرين أبا العتاهية لأن المقام مقام فرح وسرور، فقال الرشيد: دعه، فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا منه.

وكان كثير الغزو والحج يغزو سنة ويحج سنة، فإذا حج حجَّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج قام بالإنفاق على ثلاثمائة رجل ليؤدوا فريضة الحج، ورغم هذه الرقة والشفافية والزهد، كان شجاعًا لا يخاف في الله لومة لائم، غيورًا على دينه، صلبًا كالحديد في وجه أعداء الله، وظل طيلة حياته يحب الجهاد والفتوحات الإسلامية، فغزا الروم، وفتح هرقلة، وبلغ جيشه أنقرة، وسار الرشيد نحو خراسان ليغزوها، فوصل (طوس) فمرض بها ومات في ثالث جمادى الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة (١٩٣هـ).

وكان الرشيد يحب العلماء ويعظم حرمات الدين ويبغض الجدال والكلام، وقال القاضي الفاضل في بعض رسائله ما أعلم أن لملك رحلة قط في طلب العلم إلا للرشيد فإنه رحل بولديه الأمين والمأمون لسماع الموطأ على مالك رحمه الله.

ولما بلغه موت عبد الله بن المبارك حزن عليه وجلس للعزاء فعزاه الأكابر.

قال أبو معاوية الضرير ما ذكرت النبي بين يدي الرشيد إلا قال صلى الله على سيدي ورويت له حديثه: ﴿**وددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيى ثم أقتل**﴾ فبكى حتى انتحب .

وعن خرزاذ العابد قال: حدث أبو معاوية الرشيد بحديث:**احتج آدم وموسى...**﴾ فقال رجل شريف: فأين لقيه؟ فغضب الرشيد وقال: النطع والسيف زنديق يطعن في الحديث فما زال أبو معاوية يسكنه ويقول: بادرة منه يا أمير المؤمنين حتى سكن.

وكان العلماء يبادلونه التقدير، روي عن الفضيل بن عياض أنه قال: ما من نفس تموت أشد علي موتًا من أمير المؤمنين هارون ولوددت أن الله زاد من عمري في عمره، قال: فكبر ذلك علينا فلما مات هارون وظهرت الفتن وكان من المأمون ما حمل الناس على القول بخلق القرآن قلنا: الشيخ كان أعلم بما تكلم.

ومن مواقفه التي لا تنسى في سنة سبع وثمانين ومائة حينما جاءه كتاب من ملك الروم نقفور بنقض الهدنة التي كانت عقدت بين المسلمين وبين الملكة ريني ملكة الروم وصورة الكتاب [من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيذق فحملت إليك من أموالها أحمالا وذلك لضعف النساء وحمقهن فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بيننا وبينك].

فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضبًا حتى ما تمكن أحد أن ينظر إلى وجهه فضلاً أن يخاطبه وتفرق جلساؤه من الخوف واستعجم الرأي

على الوزير فدعا الرشيد بدواة وكتب على ظهر كتابه بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا بن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه ثم سار ليومه فلم يزل حتى نزل مدينة هرقل وكانت غزوة مشهورة وفتحًا مبينًا فطلب نقفور الموادعة والتزم بخراج يحمله كل سنة.

مات الرشيد في الغزو بطوس من خراسان ودفن بها في ثالث من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة وله خمس وأربعون سنة وصلى عليه ابنه الصالح قال الصولي: خلف الرشيد مائة ألف ألف دينار ومن الأثاث والجواهر والورق والدواب ما قيمته ألف ألف دينار وخمسة وعشرون ألف دينار.

وقيل: إن الرشيد رأى منامًا أنه يموت بطوس فبكى وقال: احفروا لي قبرًا فحفر له ثم حمل في قبة على جمل وسيق به حتى نظر إلى القبر فقال: يا ابن آدم تصير إلى هذا وأمر قومًا فنزلوا فختموا فيه ختمًا وهو في محفة على شفير القبر ولما مات بويع لوالده الأمين في العسكر وهو حينئذ ببغداد فأتاه الخبر فصلى الناس الجمعة وخطب ونعى الرشيد إلى الناس وبايعوه.

ولأبى الشيص يرثى الرشيد:

غربت في الشرق شمس ::: فلها عيني تدمع
ما رأينا قط شمسًا ::: غربت من حيث تطلع

وقال أبو النواس جامع بين العزاء والهناء:

جرت جوار بالسعد والنحس ::: فنحن في مأتم وفي عرس
القلب يبكي والعين ضاحكة ::: فنحن في وحشة وفى أنس
يضحكنا القائم الأمين ويبكينا ::: وفاة الإمام بالأمس

بدران بدر أضحى ببغداد في الخلد وبدر بطوس في الرمس[1]

(١) تاريخ خليفة ٤٣٧، ٤٦١، المعارف: ٣٨١، ٣٨٣، المعرفة والتاريخ ١ / ١٦١، ١٨٢، الأخبار الطوال: ٣٨٦، ٣٨٧، تاريخ اليعقوبي ٣ / ١٣٩، الطبري ٨ / ٢٣٠، تاريخ بغداد ١٤ / ٥، الكامل لابن الأثير ٦ / ١٠٦، المختصر في أخبار البشر ١ / ٣٠٥،

مواقف من حياته:

هارون الرشيد يأمر بقتل فتى علوي فينجيه الله تعالى:

أخبرني محمد بن الحسن بن المظفر، قال: أخبرني عيسى بن عبد العزيز الظاهري، قال: أخبرني أبو عبد الله قال:

أمر الرشيد بعض خدمه، فقال: إذا كان الليلة، فصر إلى الحجرة الفلانية، فافتحها، وخذ من رأيت فيها، فائت به موضع كذا وكذا، من الصحراء الفلانية، فإن ثم قليباً محفوراً، فارم به، وطمه بالتراب، وليكن معك فلان الحاجب.

قال: فجاء الغلام إلى باب الحجرة، ففتحه، فإذا فيها غلام كالشمس الطالعة، فجذبناه جذباً عنيفاً.

فقال له: اتق الله، فإني ابن رسول الله، فالله، الله، أن تلقى الله بدمي، فلم يلتفت إلى قوله، وأخرجه إلى الموضع.

فلما أشرف الفتى على التلف، وشاهد القليب، قال له: يا هذا، إنك على رد ما لم تفعل، أقدر منك على رد ما فعلت، فدعني أصلي ركعتين، وامض لما أمرت به.

فقال له: شأنك وما تريد.

فقام الفتى، صلى ركعتين، قال فيهما: يا خفي اللطف، أغثني في وقتي هذا، والطف بي بلطفك الخفي.

فلا والله ما استتم دعاءه، حتى هبت ريح وغبرة، حتى لم ير بعضهم بعضاً، فوقعوا لوجوههم، واشتغلوا بأنفسهم عن الفتى، ثم سكنت الريح والغبرة، وطلبنا الفتى، فلم يوجد، وقيوده مرمية.

فقال الحاجب لمن معه: هلكنا والله، سيقع لأمير المؤمنين أنا أطلقناه، فماذا نقول له؟ إن كذبناه لم نأمن أن يبلغه خبر الفتى فيقتلنا، ولئن صدقناه، ليعجلن لنا المكروه.

العبر ١ / ٣١٢، دول الإسلام ١ / ١١٣، ١٢١، تاريخ الخلفاء: ٢٨٣، شذرات الذهب ١ / ٣٣٤، الذهبي المتوفى، سير أعلام النبلاء، ٢٨٦/٩.

فقال له الآخر: يقول الحكيم: إن كان الكذب ينجي، فالصدق أرجى وأنجى.

فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما فعلتم فيما تقدمت به إليكم؟ فقال له الحاجب: يا أمير المؤمنين، الصدق أولى ما اتبع في جميع الأمور، ومثلي لا يجترئ أن يكذب بحضرتك، وإنه كان من الخبر كيت وكيت.

فقال الرشيد: لقد تداركه اللطف الخفي، والله، لأجعلنها في مقدمات دعائي، امض لشأنك، واكتم ما جرى[١].

الرشيد يمضي ما تعهد به وزيره جعفر البرمكي في مجلس أنس:

عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: لم أر قط مثل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، كانت له فتوة، وظرف، وأدب، وحسن غناء، وضرب بالطبل، وكان يأخذ بأجزل حظ، من كل فن.

إنه نائم، فرجع، وقال: سر بنا إلى المنزل، حتى نخلو جميعاً بقية يومنا، فأغنيك، وتغنيني، ونأخذ في شأننا، من وقتنا هذا.

فقلت: نعم.

فسرنا إلى مجلسه، فطرحنا ثيابنا، ودعا بالطعام، فأكلنا، وأمر بإخراج الجواري، وقال: ليبرزن، فليس عندنا من نحتشمه.

فلما رفع الطعام، وجيء بالشراب، دعا بقميص حرير فلبسه، ودعا لي بمثله، ودعا بخلوق، فتخلق، وخلقني، وجعل يغنيني، وأغنيه.

وكان قد دعا بالحاجب، فتقدم إليه أن لا يأذن لأحد من الناس كلهم، وإن جاء رسول أمير المؤمنين، فأعلمه أني مشغول، واحتاط في ذلك، وتقدم فيه إلى جميع الحجاب والخدم.

ثم قال: إن جاء عبد الملك، فائذنوا له، يعني رجلاً كان يأنس به، ويمازحه، ويحضره خلواته، ثم أخذنا في شأننا.

فبينما نحن على حالة سارة، إذ رفع الستر، فإذا عبد الملك بن صالح الهاشمي قد أقبل، وغلط الحاجب، فلم يفرق بينه وبين عبد الملك الذي

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ٤٤/١.

يأنس به جعفر.

وكان عبد الملك هذا من جلالة القدر والتقشف، على حالة معروفة، حتى إنه كان يمتنع من منادمة الخليفة، على اجتهاد من الخليفة أن يشرب معه قدحاً واحداً، فلم يفعل، ترفعاً.

فلما رأيناه مقبلاً، أقبل كل واحد منا ينظر إلى صاحبه، وكاد جعفر أن تنشق مرارته غيظاً.

وفهم الرجل حالنا، فأقبل نحونا، حتى صار إلى الرواق الذي نحن فيه، فنزع قلنسوته، فرمى بها مع طيلسانه جانباً، ثم قال: أطعمونا شيئاً.

فدعا له جعفر بطعام، وهو منتفخ غيظاً وغضباً، فأكل، ثم دعا برطل فشربه.

ثم أقبل إلى المجلس الذي كنا فيه، فأخذ بعضادتي الباب، ثم قال: أشركونا فيما أنتم فيه.

فقال له جعفر: ادخل، فدخل فدعا له بقميص حرير وخلوق، فلبس، وتخلق، ثم دعا برطل، ورطل حتى شرب ثلاثة أرطال، ثم اندفع يغنينا، فكان - والله - أحسننا غناءً.

فلما طابت نفس جعفر، وسري عنه ما كان به، التفت إليه، وقال: ارفع حوائجك.

فقال: ليس هذا موضع حوائج.

فقال: أقسم عليك، لتفعلن.

ولم يزل يلح عليه حتى قال له: أمير المؤمنين واجد علي كما قد علمت، فأحب أن تترضاه.

قال: فإن أمير المؤمنين قد رضي عنك، فهات حوائجك، كما أقول لك.

قال: علي دين فادح.

قال: كم مبلغه؟ قال: أربعة آلاف ألف درهم.

قال: هذه أربعة آلاف ألف درهم، فإن أحببت قبضها، قبضتها

الساعة، فإنه لا يمنعني من أعطائك إياها، إلا أن قدرك يجل عندي أن يصلك مثلي، ولكني ضامن لها، حتى تحمل لك في غد، من مال أمير المؤمنين، فسل أيضاً.

قال: تكلم أمير المؤمنين حتى ينوه باسم ابني.

قال: ولاه أمير المؤمنين مصر، وزجه ابنته الغالية، ومهرها عنه ألفي ألف درهم.

قال إسحاق: فقلت في نفسي، قد سكر الرجل - يعني جعفر.

فلما أصبحنا، حضرت دار الرشيد، فإذا بجعفر بين يديه، ووجدت في الدار جلبة، فإذا بأبي يوسف القاضي ونظرائه، وقد دعي بهم، ثم دعي بعبد الملك وابنه، فدخلا على الرشيد.

فقال الرشيد لعبد الملك: إن أمير المؤمنين كان واجداً عليك، وقد رضي عنك، وأمر لك بأربعة آلاف ألف درهم، فخذها من جعفر الساعة.

ثم دعا بابنه، وقال: اشهدوا علي أنني قد زوجته ابنتي الغالية، ومهرتها عنه ألفي ألف درهم، ووليته مصر.

فلما خرج جعفر سألته عن الخبر، فقال: بكرت إلى دار الرشيد، فحكيت له جميع ما جرى حرفاً حرفاً، ووصفت له دخول عبد الملك وما صنع، فعجب منه، وسر به.

فقلت له: وقد ضمنت له عن أمير المؤمنين ضماناً.

فقال: ما هو؟ فأعلمته.

فقال: نفي له بضمانك، وأمر بإحضاره، فكان ما رأيت؟[1].

الرشيد يرضى عن فرج الرخجي ويعيده إلى عمالة الأهواز:

ذكر ابن عبدوس في كتابه الوزراء، قال: كان الرشيد قد قلد فرجاً الرخجي الأهواز، فاتصلت السعايات به عنده، وكثرت الشكايات منه، وتظلم الرعية، وادعي عليه أنه اقتطع مالاً عظيماً، فصرفه بمحمد بن أبان الأنباري وقبض عليه.

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٦٤.

وحدث للرشيد سفر، فأشخصه معه، فلما كان في بعض الطريق دعا به، فقال مطر بن سعيد، كاتب فرج: فلما أمر بإحضاره، حضر وأنا معه، ولست أشك في الإيقاع به، وإزالة نعمته، فوقفت بباب مضرب الرشيد، ودخل فرج، ونحن نتوقعه أن يخرج منكوباً، إذ خرج وعليه الخلع، فتضاعفت النعمة عندي، وسرت معه إلى منزله.

فلما خلا سألته عن خبره، فقال: دخلت عليه ووجهه إلى الحائط، وظهره إلي، فلما أحس بي، شتمني أقبح شتم، وتوعدني أشد توعد.

ثم قال: يا بن الفاعلة، رفعتك فوق قدرك، وائتمنتك، فخنتني، وسرقت مالي، وفعلت، وصنعت، والله، لأفعلن بك، ولأصنعن.

فلما سكت، قلت: القول ما قاله أمير المؤمنين في إنعامه، وأكثر منه، وحلفت له بأيمان البيعة وغيرها، أني ناصحت وما سرقت، ووفرت وما خنت، واستقصيت حقوقه من غير ظلم، ولكني كنت إذا حضر وقت الغلات، جمعت التجار وناديت عليها، فإذا تقررت العطايا أنفذت البيع، وجعلت لي مع التجار حصة، فربما ربحت، وربما وضعت، إلى أن اجتمع لي من ذلك وغيره، في عدة سنين، عشرون ألف ألف درهم، فاتخذت أزجاً كبيراً، وأودعته المال، وسددته عليه فخذها، وحول وجهك إلى عبدك، وكررت عليه الأيمان، بأيمان البيعة على صدقي.

فقال لي: بارك الله لك في مالك، ارجع إلى عملك[١].

الرشيد يرضى عن العتابي الشاعر:

قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد: غضب الرشيد على العتابي، وحجبه، فدخل سرًّا مع المتظلمين، بغير إذن، فمثل بين يدي الرشيد، فقال له: يا أمير المؤمنين، قد أدبني الناس لك، ولنفسي فيك، وردني ابتلاؤهم إلى شكرك، وما مع ذكرك قناعة بأحد غيرك، ولعمري لنعم الصائن كنت لنفسي، لو أعانني الصبر عليك، ولذلك أقول:

أخضني المقام الغمر إن كان غرّني ::: سنا خلّب أو زلّت القدمان

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ٦٥.

أتتركني جدب المعيشة مقتراً ::: وكفّاك من ماء النّدى يكفان
وتجعلني سهم المطامع بعدما ::: بللت يميني بالنّدى ولساني

قال: فرضي عنه، وخلع عليه، وأمر له بجائزة سنية، فما رأيت العتابي أنشط منه في ذلك اليوم، ولا أفرح، ولا أبسط لساناً منه يومئذ.

قال أبو الفرج الأصبهاني: في البيتين الأولين غناء لمخارق، ثاني ثقيل بالوسطى، وقيل: إن فيه للواثق ثاني ثقيل آخر(١).

جعفر بن محمد بن الأشعث يهدئ من غضب الرشيد:

غضب الرشيد على جعفر بن محمد بن الأشعث، غضباً شديداً، من كلام جرى بينهما، فخاف جعفر أن يستفزه الغضب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما تغضب لله عز وجل، فلا تغضب له بما لا يغضب به لنفسه، فانعطف له الرشيد(٢).

الرشيد يرضى عن نصر بن مالك:

لما عزل الرشيد نصر بن مالك، بسعي البرامكة، أمره أن يلزم بيته، ولا يخرج منه، فكتب إلى الرشيد: قد قبضني سوء رأي أمير المؤمنين فيَّ، عن الاعتذار بحجة، أو نشر دلالة تنبئ بخلاف ما قرفت به عنده، فما أهتدي إلى وجه طلب الاعتذار، وما يجرأني على الإبانة عما لا أعلمه إلا حسن رأيه أعزه الله، واطلاعه على قلقي بضميره، فإني عبد نعمته، وغذي إحسانه، إن أسبغا علي، وفي شكري لهما، وإن أزيلا عني، اعتضت منهما الرجوع إلى الحرمة، ولزوم فائدة يتطول بها علي، من تطول على أمير المؤمنين برد ميراثه من الخلافة عليه.

فوقع الرشيد على ظهر رقعته: نصر بن مالك، أولى من ردت عليه النعمة، إذ كان معترفاً بسمتها، وبالغاً بالشكر حق قيمتها، فما شكرني أحد من أوليائي كشكره، فليهنه ما أوليناه من رأينا، ومنحناه من برنا. وأظهر الرضا عنه، وولاه ولاية أخرجه إليها(٣).

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ٦٧.
(٢) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ٦٩.
(٣) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ٧٠.

حبسه المهدي وأطلقه الرشيد:

قال بشر بن موسى الأسدي: حبس المهدي يعقوب بن داود وزيره، فطال حبسه، فرأى في منامه، كأن قائلاً يقول له: قل: يا رفيق، يا شفيق، أنت ربي الحقيق، ادفع عني الضيق، إنك على كل شيء قدير.

قال: فقلتها، فما شعرت إلا بالأبواب تفتح، ثم أدخلت على الرشيد، فقال: أتاني الذي أتاك، فاحمد الله عز وجل.

وخلِّ سبيلي.

وقد روي هذا الخبر بطريقة أخرى عن عبد الله بن يعقوب بن داود، قال: قال لي أبي: حبسني المهدي في بئر بنيت عليها قبة، فكنت فيها خمس عشرة سنة، حتى مضى صدر من خلافة الرشيد، وكان يدلى لي في كل يوم رغيف وكوز ماء، وأؤذن بأوقات الصلاة، فلما كان رأس ثلاث عشرة سنة، أتاني آت في منامي، فقال:

حنا على يوسفٍ ربٌّ فأخرجه ::: من قعر جبّ وبئر حولها غمم

فحمدت الله تعالى، وقلت: أتاني الفرج، ثم مكثت حولاً لا أرى شيئاً، فلما كان رأس الحول، أتاني ذلك الآتي، فقال:

عسى فرجٌ يأتي به اللّه إنّه ::: له كلّ يوم في خليقته أمر

ثم أقمت حولا لا أرى شيئاً، ثم أتاني ذلك الآتي، بعد الحول، فقال:

عسى الكرب الّذي أمسيت فيه ::: يكون وراءه فرج قريب
فيأمن خائف ويفكّ عانٍ ::: ويأتي أهله النائي الغريب

فلما أصبحت، نوديت، فظننت أني أؤذن بالصلاة، فدلي إلي حبل وقيل لي: شد به وسطك، ففعلت، فأخرجوني، فلما تأملت الضوء، غشي بصري، فأخذ من شعري، وألبست ثياباً، وأدخلت إلى مجلس، فقيل لي: سلم على أمير المؤمنين.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين المهدي، ورحمة الله وبركاته.

فقال: لست به.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الهادي، ورحمة الله وبركاته.

فقال: لست به.

فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين الرشيد، ورحمة الله وبركاته.

فقال: وعليك السلام، يا يعقوب بن داود، والله ما شفع أحد فيك إلي، غير أني حملت الليلة صبية لي على عنقي، فذكرت حملك إياي على عنقك، فرثيت لك من المحل الذي كنت فيه، فأخرجتك، ثم أكرمني، وقرب مجلسي.

ثم إن يحيى بن خالد تنكر لي، كأنه خاف أن أغلب على الرشيد دونه، فخفته، فاستأذنت في الحج، فأذن لي.

فلم يزل مقيماً بمكة، حتى مات بها.

حدثني أبي في المذاكرة بإسناد له، وكان في الخبر: أن المهدي حبسه في بئر، ووكل أمره إلى خادم له، واستحلفه ألاّ يخبر بخبره أحداً من الخلق كلهم، فكان الخادم الموكل به، ينزل إليه في كل يوم رغيفين، ودورق ماء، منه شربه وطهوره، وفي البئر موضع يتطهر فيه، فكان كذلك خمس عشرة سنة.

فلما كان بعد خمس عشرة سنة سأل عنه الرشيد فقيل له: سلم إلى فلان الخادم، وذكر أنه مات.

فأحضر الخادم، وسأله عنه، فقال: إنه مات.

فاستثبته، فرأى كلاماً مختلفاً، فجد به، فقال: لا أعرف غير موته، فهدده، فأقام على الإنكار، إلى أن استحضر الرشيد المقارع.

فقال: أنا أصدق، استحلفني أمير المؤمنين المهدي، ألا أخبر بخبره أحداً من الخلق أبداً.

فأكرهه الرشيد، فدل على البئر التي هو فيها، ثم تتفق الروايات.

قال: فلما وقف بين يدي الرشيد، وسلم، قال له الرشيد - مخفياً كلامه - من أمير المؤمنين؟ فقال: المهدي.

قال: قد مضى لحال سبيله، فسلم على أمير المؤمنين، فسلم.

فقال: قولوا له من أمير المؤمنين؟ قال: الهادي.

قال: قد مضى لحال سبيله، فسلم على أمير المؤمنين، فسلم.

فقال: قولوا له، من أمير المؤمنين؟ فقال: هارون، ثم تتفق الروايتان.

وروي لي هذا الخبر على وجه آخر، وهو أضعف عندي، غير أني أجيء به كما بلغني، فحدثت بروايات مختلفة، قالوا: حدث عبد الله بن أيوب، قال: رأيت يعقوب بن داود في الطواف، فقلت له: كيف كان سبب خروجك؟ قال: كنت في المطبق حتى خفت على بصري، فأتاني آت في منامي، فقال لي: يا يعقوب كيف ترى مكانك؟ فقلت: وما سؤالك؟ أما ترى ما أنا فيه، أليس يكفيك هذا؟ فقال: أسبغ الوضوء، وصل أربع ركعات، وقل: يا حسن، يا مجمل، يا منعم، يا مفضل، يا ذا الفضل والنعم، يا عظيم، يا ذا العرش العظيم، اجعل لي مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً.

فانتبهت، وقلت في نفسي: هذا في النوم، ورجعت إلى نفسي، فحفظت الدعاء، وقمت، فتوضأت، وصليت، ودعوت به، فلما أسفر الصبح، جاؤوني، فأخرجوني.

فقلت: ما دعاني إلا ليقتلني.

فلما رآني، أومأ إليهم، اذهبوا به إلى الحمام، فنظفوه، ائتوني به، فطابت نفسي، وسجدت شكراً لله تعالى، فأطلت السجود.

فقالوا لي: قم.

فقال لهم الرشيد: دعوه ما دام ساجداً، ثم رفعت رأسي، ثم مضى بي إلى الحمام.

فلما خرجت خلع علي، ثم ضرب بيده على ظهري، وقال لي: يا يعقوب، لا يمنن عليك أحد بمنة، فما زلت منذ الليلة قلقاً بأمرك[1].

الرشيد يولي أخاه إبراهيم بن المهدي دمشق:

بلغني عن إبراهيم بن المهدي، قال: كنت في جفوة شديدة من أخي الرشيد، أثرت في جاهي، ونقصت حالي، وأفضيت معها إلى الإضافة

---

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ١٢٧ - ١٢٨.

بتأخير أرزاقي، وظهور إطراحه إياي، فاختلت لذلك أحوالي، وركبني دين فادح، فبلغ بي القلق والفكر فيه ليلة من الليالي، مبلغاً شديداً، ونمت فرأيت في النوم كأني واقف بين يدي أبي المهدي، وهو يسألني عن حالي، وأنا أشكو إليه ما نكبني به الرشيد، وأنهيت إليه حالي، وأنا أقول: ادع الله عليه يا أمير المؤمنين.

فكأنه يقول: اللهم أصلح ابني هارون، يكررها ثلاثاً.

فكأني أقول: يا أمير المؤمنين أشكو إليك ظلم هارون لي، وأسألك أن تدعو عليه، فتدعو له.

فقال: وما عليك، إن أصلحه الله لك وللكافة، أن يبقى على حاله، هو ذا أمضي إليه الساعة، وآمره أن يرجع لك، ويقضي دينك، ويوليك جند دمشق.

فكأنني أومي إليه بسبابتي، وأقول له: دمشق، دمشق، استقلالاً لها.

فيقول لي: حركت مسبحتك استقلالاً لدمشق، فكلما خف منها حظك، كان في العاقبة أجود لك.

فانتبهت، وأحضرت رجلاً كان مؤدبي في أيام المهدي، فسألته عن المسبحة، فقال: كان عبد الله بن العباس، يسمي السبابة: المسبحة، فما سؤال الأمير لي عنها؟ فقصصت عليه الرؤيا، وامتنع النوم عني، فأخذ يحدثني وأنا جالس في فراشي، إذ جاءني رسول الرشيد، فارتعت له ارتياعاً شديداً، ولم أعبأ بالمنام، وخفت أن يريدني لسوء يوقعه بي.

فقلت: أدافعه إلى أن تطلع الشمس، ثم يكون دخولي الدار نهاراً، فإن كان أرادني لغيلة لم تتم.

فتقاطرت رسله حتى أعجلوني عن الرأي، واضطروني إلى الركوب في الحال، فدخلت إليه وأنا شديد الجزع، وهو جالس في فراشه ينتحب.

فلما رآني، قال: سألتك بالله يا أخي هل رأيت الليلة في منامك شيئاً؟ فقلت: نعم، الساعة رأيت أمير المؤمنين المهدي.

فلما قلت له ذلك ازداد بكاؤه، ثم قال لي: ويحك، بالله، شكوتني إليه وسألته أن يدعو علي؟ فقلت: قد كان ذلك، ولكنه قال كذا وكذا، وشرحت

له ما قال.

فقال: الساعة والله، جاءني في منامي، فقص علي جميع ما ذكرت، وقد وفى بوعد، والله لأمتثلن أمره، ولأصلن رحمك، كم دينك؟ قلت: كذا وكذا، فأمر بقضائه.

وقال: لا تبرح، حتى أصلي وأخرج، فأعقد لك على دمشق، فانتظرت حتى وجبت الصلاة، فصلى، وجاء وقت جلوسه، فجلس، واستدعاني فأظهر تكرمتي، وعقد لي لواء على دمشق، وأمر الناس، فساروا معي إلى منزلي، فعاد جاهي، وصلحت حالي.

مجلس غناء بمحضر الرشيد:

وروى حماد، عن أبي صدقة، وكان يحضر مجلس الرشيد مع المغنين، فربما غنى، وربما لم يغن، قال: فدعانا الرشيد يوماً، فدخلنا، والستارة دونه، وهو من خلفها جالس، فقال خادم من خلفها: غنّ يا بن جامع، فاندفع يغني بهذا الصوت:

قف بالمنازل ساعة فتأمّل ::: هل بالديار لزائر من منزل
أو لا ففيم توقّفي وتلدّدي ::: وسط الديار كأنّني لم أعقل
ما بالديار من البلى ولقد أرى ::: أن سوف يحملني الهوى في محمل
وأحقّ بمن يبكي بكلّ محلّة ::: عرضت له في منزل للمعول
عانٍ بكلّ حمامة سجعت له ::: وغمامة برقت بنوء الأعزل
يبكي فتفضحه الدموع فعينه ::: ما عاش مخضلة كفيض الجدول

فقال الخادم: ليغن هذا الصوت منكم من كان يحسنه، فغنى كل من أحسنه منهم، فكأنه لم يطرب له.

فأقبل الخادم علي، فقال: إن كنت تحسن أن تغنيه، فغنه.

فقلت: نعم، فعجبوا من إقدامي على صوت لم يستطب من جماعتهم، فغنيته.

فقال الخادم: أحسنت، والله، فأعده، فأعدته، وأعاد الاستحسان، والأمر بإعادته على ذلك سبع مرات.

ثم قال لي الخادم: قم يا أبا صدقة، فادخل، حتى تغني أمير المؤمنين بحيث يراك، فدخلت، والمغنون كلهم محجوبون، فغنيته إياه، ثلاث مرات، فطرب في جميعهن.

وقال: أحسنت يا أبا صدقة.

فلما سمعت ما خصني به من استحسانه، قلت: يا أمير المؤمنين، إن لهذا الصوت حديثاً عجيباً، أفلا أحدثك به يا أمير المؤمنين، لعله يزداد حسناً.

فقال: بلى، هات.

فقلت: كنت يا سيدي، عبداً لبعض آل الزبير، وكنت خياطاً مجيداً، أخيط القميص بدرهمين، والسراويل بدرهم، وأؤدي ضريبتي إلى سيدي في كل يوم درهمين، وآخذ ما فضل عن ذلك، فبينما أنا ذات يوم منصرفاً، وقد خطت قميصاً لبعض الطالبيين، وقد أخذت منه درهمين، وانصرفت إلى موضع يجتمع فيه المغنون، كنت أقصده إذا فرغت من شغلي، لشغفي بالغناء، فلما صرت بحذاء بركة المهدي، إذا أنا بسوداء على رقبتها جرة، تريد أن تملأها من ماء العقيق، وهي تغني بهذا الصوت، أحسن غناء يكون، فأصابني من الطرب بغنائها ما أذهلني عن كل شيء.

فقلت لها: فداك أبي وأمين ألقي علي هذا الصوت.

فقالت: استحسنته؟ فقلت: إي والله.

فقالت: وحق القبر ومن فيه، لا أعدته إلا بدرهمين.

فدفعت الدرهمين إليها، فأحدرت جرتها عن رقبتها فارغة، فوضعتها على الأرض، وجلست عليها، وكأني أنظر إلى فقحتها وقد برزت عن الجرة نحو ذراع، وأقبلت تلقيه علي، وتوقع على الجرة، حتى أخذته، ثم أخذت الجرة على رقبتها، وانصرفت.

فحين انصرفت، أنسيت الصوت ولحنه، حتى كأني لم أسمعه قط، فبقيت متحيراً لا أدري ما أصنع، وانصرفت إلى سيدي بأسوء حال، وأكسف بال.

فلما رآني، قال: هات ضريبتك.

فلجلجت في كلامي، وقلت: يا سيدي، اسمع حديثي.

فقال: يا بن اللخناء، أبي تتعرض؟ فبطحني، وضربني مائة مقرعة، وحلق رأسي ولحيتي، ومنعني قوتي، وكان أربعة أرغفة، فلم يكن شيء من ذلك، أشد علي، من ذهاب الصوت مني، وبت ليلتي أسوء خلق الله حالاً، وأنا لا أعرف الجارية، ولا موضعها، ولا لمن هي.

فلما أصبحنا، خرجت ولها أطلبها في الموضع الذي لقيتها فيه، وأسأل الله أن يحوج أهلها إلى الماء، حتى تخرج لتأتيهم به، فأراها، فلم أزل أطلبها، لا أعمل شيئاً إلى العصر.

فبينما أنا كذلك، وإذا بها قد أقبلت، فلما رأتني، وما بي من الوله، قالت لي: ما لك، أنسيت الصوت؟ فقلت: إي والله، وضربت مائة مقرعة، ومنعت قوتي ليلتي، وحلقت رأسي ولحيتي.

فقلت: دع هذا عنك، فورب الكعبة، لا سمعته مني، فضلاً عن أخذه، إلا بدرهمين.

فقلت: الله، الله، فيّ، فيمرن علي الليلة مثل ما مر علي البارحة، فارحميني.

فقالت: قد سمعت اليمين، وذهبت لتمضي.

فقلت: اصبري، وجئت إلى بقال كان يعاملني، فرهنت عنده الجملين، على درهمين، وجئت بهما إليها، فأخذتهما، وجعلتهما في فيها.

فلما بدأت بالصوت، ذكرته، فقلت: الله، الله، ردي علي الدرهمين، فلا حاجة بي إلى غنائك.

فقالت: أنت أحمق، ولست تعرف هذا الأمر، لئن لم أردده عليك مائة مرة ما حصل لك منه شيء، وجلست على الجرة، فغنته مائة مرة، أعدها عليها حتى فهمته، وصرت به أمهر منها، وانصرفت.

فساعة فارقتها، لحقتني الندامة، وقلت: سيلحقني الليلة أكثر مما لحقني البارحة، لفقد الجلمين.

فرجعت إلى مولاي، فحين رآني، قال: هات ضريبتك.

فقلت له: اسمع مني.

قال: أي شيء أسمع، يا بن الفاجرة، أما كفاك ما مر بك أمس، ووثب إلى السوط.

فقلت له: اسمع، واصنع ما شئت.

فقال: هات، فغنيته الصوت.

فقال: أحسنت، والله، يعز علي ما أصابك، أما الضرب فقد مضى، ولا حيلة فيه، وأما قوتك فمردود، وأما ضريبتك، فساقطة عنك ما عشنا ولو مت أنا وعيالي جوعاً، فأنت اليوم واحداً منا أبداً ما بقينا، فهذا خبر الصوت.

وكان المغنون الذين حضروا إبراهيم الموصلي، وابنه إسحاق، وابن جامع، ومسلم بن سلام.

فأمر لكل واحد منهم بألف دينار، وأمر لي بعشرة آلاف دينار، مثل ما أمر لجماعتهم، ثم استدعى ألف دينار، فقال: خذ هذه بدل المائة مقرعة التي ضربت.

فانصرفت، والمغنون يتعجبون مما جرى[1].

عبد الله بن مالك الخزاعي يتسلم كتاباً من الرشيد يخبره بمقتل جعفر البرمكي:

وجد في بعض الكتب: أن البرامكة، قصدت عبد الله بن مالك الخزاعي، بالعداوة، وكان الرشيد حسن الرأي فيه، فكانوا يغرونه به، حتى قالوا له: لا بد من نكبته.

فقال: ما كنت لأفعل هذا، ولكن أبعده عنكم.

فقالوا: ينفى.

فقال: لا، ولكن أوليه ولاية دون قدره، وأخرجه إليها.

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ١٦٣ ، ١٦٤.

فرضوا بذلك، فكتبوا له على حران والرها فقط، وأمروه بالخروج، عن الخليفة.

قال عبد الله: فودعتهم واحداً واحداً، حتى صرت إلى جعفر لأودعه.

فقال لي: ما على الأرض عربي أنبل منك يا أبا العباس، يغضب عليك الخليفة، فيوليك حران والرها؟.

فقلت: فما ذنبي حتى غضب علي، وأي شيء جرى مني حتى أوجب الذي أن يفعل بي هذا؟.

قال جزاؤك أن: يضرب وسطك، وتصلب نصفاً في جانب، ونصفاً في جانب.

فقلت: العجب مني حيث صرت إليك، ونهضت، وخرجت.

وقطعت طريقي بالهم، والغم، مما دفعت إليه، وأني لا آمنهم، مع غيبتي، على السعاية علي.

فبينما أنا في عشية يوم، على باب الدار التي نزلتها، جالساً على كرسي، إذ أقبل إلي مولى لي، فقال لي سرًّا: قد قتل جعفر بن يحيى البرمكي.

فتوهمت أنه هو أمره بذلك ليجد علي حجة ينكبني بها، فبطحته، وضربته ثلاثمائة مقرعة، وحبسته، وبت بليلة طويلة على السطح في داري.

فلما كان في السحر، إذا صوت حلق البريد، فارتعت، ونزلت عن السطح.

وقلت في نفسي: إن هجم علي صاحب البريد فهي بلية، وإن ترجل لي ففرج.

فلما بصر بي صاحب البريد ترجل لي، فطابت نفسي، ودفع إلي كتاباً من الرشيد، يخبرني فيه بقتله جعفر، وقبضه على البرامكة، ويأمرني بالشخوص إلى حضرته.

فشخصت، فلما وصلت إليه، عاملني من الإكرام والإنعام بما زاد على أمنيتي.

وخرجت، فأتيت الجسر، فوجدت جعفراً، قد ضرب وسطه، وصلب نصفه في جانب، ونصفه في الجانب الآخر[1].

غضب الرشيد على مروان بن أبي حفصة لمدحه معن بن زائدة وضربه مائة سوط:

قال عبد الرحمن بن أخي الأصمعي، عن عمه، قال: بعث إلي الرشيد في وقت لم تكن عادته أن يستدعيني في مثله، وجاءني الرسول بوجه منكر، فأحضرني إحضاراً عنيفاً منكراً مستعجلاً، فوجلت وجلاً شديداً، وخفت، وجزعت.

فدخلت، فإذا الرشيد على بساط عظيم، وإلى جانبه كرسي خيزران، عليه جويرية خماسية، فسلمت، فلم يرد علي، ولا رفع رأسه إلي، وجعل ينكت الأرض بإصبعه.

فقلت: سعي بي عنده بباطل، يهلكني قبل كشفه، وأيست من الحياة.

فرفع رأسه، وقال: يا أصمعي، ألا ترى الدعي بن الدعي، اليهودي، عبد بني حنيفة، مروان بن أبي حفصة، يقول لمعن ابن زائدة، وإنما هو عبد من عبيدنا:

أقمنا باليمامة بعد معنٍ ::: مقاماً لا نريد به زيالا
وقلنا أين نذهب بعد معنٍ ::: وقد ذهب النوال فلا نوالا
وكان النّاس كلّهم لمعنٍ ::: إلى أن زار حفرته عيالا

فقال: إن النوال قد ذهب، مع بقائنا، فما يصنع بنا إذن؟ ولم يرض حتى جعلني وخاصتي، عيالاً لمعن، والله، لأفعلن به ولأصنعن.

فقلت: يا أمير المؤمنين، عبد من عبيدك، أنت أولى بأدبه، أو العفو عنه.

فقال: علي بمروان، فدخل عليه.

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ١٩٤ ، ١٩٥.

فقال: السياط، فأخذ الخدم يضربونه بها، وهو يصيح: يا أمير المؤمنين، ما ذنبي؟ يا أمير المؤمنين، استبقني، إلى أن ضرب أكثر من مائة سوط.

فقال: يا أمير المؤمنين، اعف عني، واذكر قولي فيك، وفي آبائك.

فقال: يا غلام، كف عنه، ثم قال: ما قلت، يا كلب؟.

فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

هل تطمسون من السماء نجومها ::: بأكفّكم أم تسترون هلالها

أم تدفعون مقالة عن ربّه ::: جبريل بلّغها النّبيّ فقالها

شهدت من الأنفال آخر آية ::: بتراثهم فأردتم إبطالها

فدعوا الأسود خوادراً في غيلها ::: لا تولغنّ دماءكم أشبالها

قال: فأمر بإطلاقه، وأن يدفع إليه ثلاثون ألف درهم.

فلما خرج، قال: يا أصمعي تدري من هذه الصبية؟.

قلت: لا أدري.

قال: هذه مؤنسة بنت أمير المؤمنين، فدعوت له ولها، وتأملته، فإذا هو شارب ثمل.

قال: قم فقبل رأسها.

فقلت: أفلت من واحدة، ودفعت إلى أخرى أشد منها، إن أطعته أدركته الغيرة فقتلني، وإن عصيته قتلني بمعصيتي له، فلما أحب الله عز وجل من تأخير أجلي، ألهمني أن وضعت كمي على رأسها، وقبلت كمي.

فقال: والله يا أصمعي، لو أخطأتها لقتلتك، أعطوه عشرة آلاف درهم، والحق بدارك.

فخرجت وأنا ما أصدق بالسلامة، فكيف بالحباء والكرامة[1].

أول دخول الأصمعي إلى الرشيد:

وذكر أبو الحسين أن الأصمعي قال: لزمت باب الرشيد، فكنت أقيم

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ٢٠٠.

عليه طول نهاري، وأبيت بالليل مع الحراس أسامرهم، وأتوقع طالع سعد، حتى كدت أموت ضرًّا وهزالاً، وأن أصير إلى ملالة، ثم أتذكر ما في عاقبة الصبر من الفرج، فأؤمل صلاح حالي باتفاق محمود، فأصبر.

فبينا أنا ذات ليلة، وقد قاسيت فيها السهاد والأرق، إذ خرج بعض الحجاب، فقال: هل بالباب أحد يحسن الشعر؟ فقلت: الله أكبر، رب مضيق فكه التيسير، أنا ذلك الرجل.

فأخذ بيدي، وقال: ادخل، فإن ختم لك بالسعادة، فلعلها أن تكون ليلة تقر عينك فيها بالغنى.

فقلت: بشرك الله بخير، ودخلت، فواجهت الرشيد في البهو جالساً، والخدم قيام على رأسه، وجعفر بن يحيى البرمكي، جالس إلى جنبه.

فوقف بي الحاجب حيث يسمع تسليمي، فسلمت، ثم قال: تنح قليلاً حتى تسكن، إن كنت وجدت روعة.

فقلت في نفسي: فرصة تفوتني آخر الدهر، إن شغلت بعارض، فلا أعتاض منها إلا كمداً، حتى يصفق علي الضريح، فقلت: إضاءة كرم أمير المؤمنين، وبهاء جده، يجردان من نظر إليه من أذية النفس، يسألني - أيده الله - فأجيب، أو أبتدئ فأصيب؟ فتبسم إلي جعفر، وقال: ما أحسن ما استدعى الإحسان، وحري به أن يكون محسناً.

ثم قال لي: أشاعر أنت، أم راوية للشعر؟ قلت: راوية.

قال: لمن؟ قلت: لكل ذي جد وهزل، بعد أن يكون محسناً.

فقال: أنصف القارة من راماها.

ثم قال: ما معنى هذه الكلمة؟ قلت: لها وجهان، زعمت التبابعة، أنه كان لها رماة لا تقع سهامها في غير الحدق، فكانت تكون في الموكب الذي يكون فيه الملك، فخرج فارس معلم بعذبات سمور في قلنسوته، فنادى: أين رماة الحدق؟ فقالت العرب: أنصف القارة من راماها.

والوجه الآخر: الموضع المرتفع من الأرض، والجبل الشاهق، فمن ضاهاه بفعاله فقد راماه، وما أحسب هذا هو المعنى، لأن المراماة، كالمعاطاة، وكما أن المعاطاة للنديم، هي أن يأخذ كاساً، ويعطي كأساً،

كذلك المراماة، أن يرميها وترميه.

فقال: أصبت، فهل رويت للعجاج بن رؤبة شيئاً؟ قلت: الأكثر.

قال: أنشدني قوله:

أرّقني طـــارق هـــمٍّ طرقـــا

فمضيت فيها مضي الجواد، تهدر أشداقي، فلما بلغت مدحه لبني أمية، ثنيت عنان اللسان، لامتداحه المنصور.

فقال: أعن عمد، أو غير عمد؟ فقلت: عن عمد، تركت كذبه إلى صدقه، بما وصف فيه المنصور من مجده.

فقال جعفر: بارك الله عليك، مثلك يؤهل لمثل هذا الموقف.

ثم التفت إلي الرشيد، فقال: أرويت لعدي بن الرقاع شيئاً؟ قلت: الأكثر، قال: أنشدني قوله:

بانـــت سعـــاد وأخلفت ميعادهـــا

فابتدأت تهدر أشداقي، فقال جعفر: يا هذا أنشد على مهل، فلن تنصرف إلا غانماً.

فقال الرشيد: أما إذ قطعت علي، فأقسم، لتشركني في الجائزة.

قال: فطابت نفسي، فقلت: أفلا ألبس أردية التيه على العرب، وأنا أرى الخليفة والوزير يتشاطران لي المواهب، فتبسم، ومضيت فيها.

ثم قال: أرويت لذي الرمة شيئاً؟ قلت: الأكثر، قال أنشدني قوله:

أمـــن حذر الهجران قلبك يطمـــح

فقلت: عروس شعره.

قال: فأيه الختن؟ قلت: قوله، يا أمير المؤمنين:

مـــا بال عينيك منها الماء ينسكـــب

فقال: امض فيها، فمضيت فيها، حتى انتهيت إلى وصفه جمله.

فقال جعفر: ضيق علينا ما اتسع من مسامرة السهر، بجمل أجرب.

فقال الرشيد: اسكت، فهي التي سلبتك تاج ملكك، وأزعجتك عن

قرارك، ثم جعلت جلودها سياطاً، تضرب بها أنت وقومك عند الغضب.

فقال جعفر: الحمد لله، عوقبت من غير ذنب.

فقال الرشيد: أخطأت في كلامك، لو قلت: أستعين بالله، قلت صواباً، إنما يحمد الله تعالى على النعم، ويستعان على الشدائد.

ثم قال لي: إني لأجد مللاً، وهذا جعفر، ضيف عندنا، فسامره باقي ليلتك، فإذا أصبحت، فإن وضاء الخادم، يلقاك بثلاثين ألف درهم.

قال: ثم قربت إليه النعل، فجعل الخادم يصلح عقب النعل في رجله، فقال: ارفق ويحك، أحسبك قد عقرتني.

فقال جعفر: قاتل الله العجم، لو كانت سندية، ما احتاج أمير المؤمنين إلى هذه الكلفة.

فقال: هذه نعلي ونعل آبائي، ما تدع نفسك والتعرض لما تكره.

ثم قال لي جعفر: لولا أن المجلس مجلس أمير المؤمنين، ولا يجوز لي فيه أن آمر بمثل ما أمر به، لأمرت لك بثلاثين ألف درهم، ولكني آمر لك بتسعة وعشرين ألف درهم، فإذا أصبحت فاقبضها والزم الباب.

قال: فما صليت من غد الصبح، إلا وفي منزلي ما أمر لي به، فأيسرت ولزمتهما، وزال ما كنت فيه من الضر، وأتى الإقبال، والنعمة والسلامة، وأفلحت، ولله الحمد[1].

يحيى البرمكي يغري الرشيد بجعفر بن الأشعث:

قال علي بن محمد بن سليمان بن عبد الملك بن الحارث بن نوفل: حدثني أبي، أن بدء سعي يحيى بن خالد البرمكي، على موسى بن جعفر، كان سببه وضع الرشيد ابنه محمداً في حجر جعفر بن محمد بن الأشعث، فساء ذلك يحيى، وقال: إذا مات الرشيد، وأفضى الأمر إلى ولده محمد انقضت دولتي، ودولة ولدي، وتحول الأمر إلى جعفر وولده، وقد كان عرف مذهب جعفر في التشيع، فأظهر له أنه على مذهبه، فلما أنس به جعفر، أفضى إليه بجميع أمره، وذكر له ما هو عليه في موسى بن

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨.

جعفر.

وكان الرشيد يرعى له موضعه، وموضع أبيه من الخلفاء، فكان يقدم في أمره ويؤخر، ويحيى لا يألو أن يحطب عليه، إلى أن دخل يوماً على الرشيد، وجرى بينهما حديث، فمن جعفر بخدمته وخدمة أبيه، فأمر له بعشرين ألف دينار، فأمسك يحيى أياماً، ثم قال للرشيد: قد كنت أخبرك عن جعفر ومذهبه، فأكذب عنه، وها هنا أمر فيه الفصل، إنه لا يصير إليه مال إلا أخرج خمسه فوجه به إلى موسى بن جعفر، ولست أشك أنه فعل ذلك في العشرين ألف دينار التي أمرت له بها.

فأرسل الرشيد إلى جعفر ليلاً يستدعيه، وقد كان جعفر عرف سعاية يحيى عليه، مساساً للعداوة، فلما طرق جعفراً رسول الرشيد لم يشك أنه سمع من يحيى فيه، فأفاض عليه ماءً، ودعا بمسك وكافور، وتحنط بهما، ولبس بردة، وأقبل إلى الرشيد، فلما دنا منه ليخاطبه، شم منه رائحة الكافور، ورأى البردة، فقال: ما هذا يا جعفر؟ قال: يا أمير المؤمنين، قد علمت أنه يسعى علي عندك، فلما جاءني رسولك في هذه الساعة، علمت أنك أرسلت إلي لتقتلني.

قال: كلا، ولكن أخبرت أنك تبعث إلى موسى بن جعفر من كل ما يصير إليك بخمسه، وأنك قد فعلت ذلك في العشرين ألف دينار، وأحببت أن أعلم ذلك.

فقال جعفر: الله أكبر، يا أمير المؤمنين، مر بعض خدمك يذهب فيأتيك بها بخاتمها.

فقال الرشيد لبعض الخدم: خذ خاتم جعفر وانطلق حتى تأتي بهذا المال، وأسمى له جاريته التي ماله عندها، فدفعت إليه البدر بخواتمها، فأتى بها إلى الرشيد.

فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، هذا أول ما تعرف به كذب من سعى بي إليك.

فقال: صدقت، انصرف آمناً، فإني لا أقبل فيك، بعد هذا قول أحد[1].

اشترى الرشيد لطبيبه ضياعاً غلتها ألف ألف درهم:

وحدث جبريل بن بختيشوع، قال: كنت مع الرشيد، بالرقة، ومعه المأمون ومحمد، وكان الرشيد رجلاً كثير الأكل والشرب، فأكل في بعض الأيام أشياء خلط فيها، ودخل المستراح، فغشي عليه فيه.

فأخرج وقد قوي عليه الغشي، حتى لم يشك غلمانه في موته، وحضر ابناه، وشاع عند الخاصة والعامة خبره.

وأرسل إلي، فجئت، فجسست عرقه، فوجدت نبضاً خفيفاً، وأخذت عرقاً في رجله فكان كذلك، وقد كان قبل ذلك بأيام يشكو امتلاءً وحركة الدم.

فقلت لهم: إنه لم يمت، والصواب أن يحجم الساعة.

فقال كوثر الخادم، لما يعرف من أمر الخلافة وإفضائها إلى صاحبه محمد: يا ابن الفاعلة، تقول أحجموا رجلاً ميتاً؟ لا يقبل قولك ولا كرامة.

فقال المأمون: الأمر قد وقع، وليس يضر أن نحجمه.

وأحضر الحجام، فتقدمت، وقلت له: ضع محاجمك، ففعل، فلما مصها رأيت الموضع قد احمر، فطابت نفسي بذلك، وعلمت أنه حي.

فقلت للحجام: أشرط، فشرط، فخرج الدم، فسجدت شكراً لله تعالى، وجعل كلما خرج الدم، تحرك رأسه، وأسفر لونه، إلى أن تكلم.

فقال: أين أنا؟ فطيبت نفسه، وغديناه بصدر دراج، وسقيناه نبيذاً، وما زلت أسعطه بالطيب في أنفه، حتى تراجعت إليه قوته، وأدخل الخاصة والقواد إليه، فسلموا عليه من بعد، لما كان قد شاع من خبره، ثم تكاملت قوته، ووهب الله له العافية.

فلما برأ من علته، دعا صاحب حرسه، وحاجبه، وصاحب شرطته، فسأل صاحب الحرس عن غلته في كل سنة، فعرفه أنها ألف ألف درهم، وسأل صاحب شرطته عن غلته، فعرفه أنها خمسمائة ألف درهم.

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ٢٨٩.

ثم قال: يا جبريل: كم غلتك؟ فقلت: خمسون ألف درهم.

فقال: ما أنصفناك، حيث غلات هؤلاء وهم يحرسوني، ويحجبوني عن الناس، على ما هي عليه، وتكون غلتك ما ذكرت، وأمر بإقطاعي ما قيمته ألف ألف درهم.

فقلت: يا سيدي ما لي حاجة إلى الإقطاع، ولكن تهب لي ما أشتري به ضياعاً غلتها ألف ألف درهم، ففعل، وتقدم بمعاونتي على ابتياعها.

فابتعت بهباته، وجعالاته، ضياعاً غلتها ألف ألف درهم، فجميع ما أمتلكه ضياع لا إقطاع فيها[١].

موقف هارون مع نقفور:

هارون الرشيد كانت تسلم له الجزية من كل الأقاليم، وكان يحكم اثنين وعشرين دولة من دول العالم الآن، وهو في بغداد، وقد صعد مرة على قصره في بغداد، وكان مكتوباً على سيفه الحاج الغازي هارون الرشيد، يغزو سنة ويحج سنة، وكان يتنفل في النهار مائة ركعة، صعد على القصر وكان يستبشر بالمطر، فالناس في قحط، فمرت سحابة، قال: اللهم اسقنا الغيث، اللهم اسقنا الغيث، فمرت السحابة، فتبسم وقال: أمطري أنى شئت، فإن خراجك سوف يأتيني إن شاء الله، يقول: اذهبي حيثما شئت، إن تريدين الذهاب إلى إفريقيا، فإفريقيا في حكمي، وإن تريدين آسيا إلى السند، فالسند لنا، وإن تريدين الشمال إلى طاشقند فطاشقند لنا.

ماتت امرأة كانت تحكم الروم، فتولى نقفور بعدها، فكتب لهارون الرشيد كتاباً، وهو لا يعرف هارون الرشيد يقول: أمَّا بَعْد:

فإن المرأة التي كانت قبلي كانت ضعيفة العقل، وكانت تدفع لك الجزية، وأما أنا الآن فلن أدفع لك درهماً ولا ديناراً، فوصل الكتاب وقرأه هارون الرشيد، ومن الاستهتار به أنه لم يكتب في ورقة أخرى، بل أخرج القلم وكتب:

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص ٣١٢.

بسم الله الرحمن الرحيم

من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم.

أمَّا بَعْد فالجواب ما تراه لا ما تسمعه.

ثم قال لقائده: جهز جيشاً، فجهز جيشاً وما أمسى إلا وقد طوق الروم وأخذوا قائدهم وكتفوه، وقالوا له: هل تدفع الجزية؟ قال: أدفع الجزية، قالوا: مضاعفة، قال: مضاعفة، فقد كانوا يدفعون على الواحد عشرة دراهم، فجعل هارون على الواحد عشرين درهماً.

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه ::: يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلمِ

أما نصف البيت فنؤمن به، وأما نصفه الآخر فنكفر به، ولكن نقول:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له ::: وتتقى مربض المستأسد الضاري

فالأمة تعيش في سؤدد وقوة وعظمة حتى يتخلى الناس عن الجهاد، ويتولى جيلها وشبابها عن حمل السلاح، وحتى يكون الكافر المستعمر يدرب قوته، ويجرب سلاحه.

بين الرشيد ورجل أراد توليته القضاء:

أحضر الرشيد رجلاً ليولّيه القضاء فقال له: إني لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه.قال الرشيد: فيك ثلاث خلال: لك شرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة. ولك حلم يمنعك من العجلة، ومن لم يعجل قلّ خطؤه. وأنت رجل تشاور في أمرك ومن شاور كثر صوابه، وأما الفقه فسينضم إليك من تتفقه به. فولي ما وجدوا فيه مطعناً[(1)].

بين الرشيد والعماني الراجز:

دخل العماني الراجز على الرشيد لينشده وعليه قلنسوة طويلة وخفّ ساذج، فقال له الرشيد: يا عماني، إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفّان دلقمان فبكّر إليه من الغد وقد تزيّا بزيّ الأعراب ثم أنشده وقبّل يده وقال: يا أمير المؤمنين قد واللّه أنشدت مروان ورأيت وجهه وقبّلت يده وأخذت جائزته ثم يزيد بن الوليد

(١) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ٧/١.

وإبراهيم بن الوليد ثم السّفاح ثم المنصور ثم المهدي. كلّ هؤلاء رأيت وجوههم وقبّلت أيديهم وأخذت جوائزهم، إلى كثير من أشباه الخلفاء وكبار الأمراء والسادة والرؤساء، واللّه مارأيت فيهم أبهى منظراً ولا أحسن وجهًا ولا أنعم كفّاً وأندى راحةً منك يا أمير المؤمنين. فأعظم له الجائزة على شعره وأضعف له على كلامه وأقبل عليه فبسطه حتى تمنى جميع من حضر أنه قام ذلك المقام.

المديح فيك دون قدرك والشعر فيك فوق قدري:

قال الرشيد يوماً لبعض الشعراء: هل أحدثت فينا شيئاً؟ فقال: يا أمير المؤمنين المديح فيك دون قدرك والشعر فيك فوق قدري، ولكنّي أستحسن قول العتّابيّ:

ماذا يرى قائلٌ يثني عليك وقد ::: ناداك في الوحي تقديسٌ وتطهير
فتّ المدائح إلا أن ألسننا ::: مستنطقات بما تخفي الضمائر
في عترة لم تقم إلا بطاعتهم ::: من الكتاب ولك تقض المشاعير
هذي يمينك في قرباك صائلة ::: وصارمٌ من سيوف الهند مأثور[1]

الرشيد والمستقية:

ويحكى أن هارون الرشيد مر في بعض الأيام وبصحبته جعفر البرمكي وإذا هو بعدة بنات يستقون الماء فعرج عليهن يريد الشرب وإذا إحداهن تقول:

قولي لطيفك ينثني ::: عن مضجعي وقت المنام
كي أستريح وتنطفي ::: نار تأجج في العظام
دنفٌ تقلبه الأكف ::: على بساط من سقام

فأعجب أمير المؤمنين ملاحتها وفصاحتها. فقال لها: يا بنت الكرام هذا من قولك أم من منقولك؟ قالت: من قولي.

قال: إن كان كلامك صحيحاً فأمسكي المعنى وغيري القافية فأنشدت تقول:

---

(١) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، ٣٩/١.

قــــــولي لطيفـــــــك ينـــــــثني ::: عـــن مـــضجعي وقـــت الوســـن
كـــــي أســـــتريح وتنطفـــــي ::: نـــــارٌ تـــــأجج في البـــــدن
دنـــــف تقلبـــــه الأكـــــف ::: علـــى بـــساط مـــن شـــجن
أمـــا أنـــا فكمـــا علمـــت ::: فهـــل لوصـــلك مـــن ثمـــن؟

فقال لها: والآخر مسروق.

قالت: بل كلامي.

فقال: إن كان كلامك أيضاً فأمسكي المعنى وغيري القافية. فقالت:

قــــــولي لطيفـــــــك ينـــــــثني ::: عـــن مـــضجعي وقـــت الرقـــاد
كـــــي أســـــتريح وتنطفـــــي ::: نـــــار تـــــأجج في الفـــــؤاد
دنـــــف تقلبـــــه الأكـــــف ::: علـــى بـــساط مـــن حـــداد
أمـــا أنـــا فكمـــا علمـــت ::: فهـــل لوصـــلك مـــن ســـداد؟

فقال لها: والآخر مسروق.

فقالت: بل كلامي.

فقال لها: إن كان كلامك فأمسكي المعنى وغيري القافية. فقالت:

قــــــولي لطيفـــــــك ينـــــــثني ::: عـــن مـــضجعي وقـــت الهجـــوع
كـــــي أســـــتريح وتنطفـــــي ::: نـــــار تـــــأجج في الـــــضلوع
دنـــــف تقلبـــــه الأكـــــف ::: علـــى بـــساط مـــن دمـــوع
أمـــا أنـــا فكمـــا علمـــت ::: فهل لوصـــلك مـــن رجـــوع؟

فقال لها أمير المؤمنين: أنت من أي هذا الحي؟ قالت: من أوسطه بيتاً، وأعلاه عموداً.

فعلم أمير المؤمنين أنها بنت كبير الحي. ثم قالت: وأنت من أي راعي الخيل؟ فقال: من أعلاها شجرة وأينعها ثمرة.

فقبلت الأرض وقالت: أيد الله أمير المؤمنين ودعت له ثم انصرفت مع بنات العرب.

فقال الخليفة لجعفر: لا بد من أخذها فتوجه جعفر إلى أبيها، وقال له: أمير المؤمنين يريد بنتك.

فقال: حبًّا وكرامة، تهدى جارية إلى أمير المؤمنين مولانا.

ثم جهزها وحملها إليه فتزوجها ودخل بها فكانت عنده من أعز نسائه وأعطى والدها ما يستره بين العرب من الأنعام. ثم بعد مدة انتقل والدها بالوفاة إلى رحمة الله تعالى، فورد على الخليفة خبر وفاته فدخل عليها وهو كئيب، فلما شاهدته وعليه الكآبة، نهضت ودخلت إلى حجرتها وقلعت ما عليها من الثياب الفاخرة ولبست ثياب الحزن وقامت النعي له.

فقيل لها: ما سبب هذا؟ فقالت: مات والدي، فمضوا إلى الخليفة فأخبروه فقام وأتى إليها وسألها من أعلمها بهذا الخبر؟ قالت: وجهك يا أمير المؤمنين.

قال: كيف ذلك؟ قالت: منذ أنا عندك ما رأيتك هكذا ولم يكن لي من أخاف عليه إلا والدي لكبره، ويعيش رأسك أنت يا أمير المؤمنين. فترغرغت عيناه بالدموع وعزاها فيه، وقامت مدة، وهي حزينة على والدها ثم لحقت به رحمة الله عليهم أجمعين.

الضيف الطارق:

ويحكى أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة فقام يتمشى في قصره بين المقاصير، فرأى جارية من جواريه نائمة فأعجبته، فداس على رجليها فانتبهت فرأت أمير المؤمنين، فاستحيت منه وقالت: يا أمين الله ما هذا الخبر.

فأجابها بقوله:

قلت ضيف طارق في أرضكم ::: هل تضيفوه إلى وقت السحر

فأجابته تقول:

بسرور وهناء سيدي ::: أخدم الضيف بسمعي والبصر

فبات عندها إلى الصباح، فسأل أمير المؤمنين من بالباب من الشعراء؟ قيل له: أبو نواس. فمر به فدخل عليه. فقال: هات علي يا أمين الله ما هذا الخبر، فأنشأ يقول:

طال ليلي حين وافاني السهر ::: فتفكرت فأحسنت الفكر

قمت أمشي في المجالي ساعة ::: ثم أجري في مقاصير الحجر
فإذا وجه جميل مشرقٌ ::: زانه الرحمن من بين البشر
فلمست الرجل منها موطئاً ::: فدنت مني ومدت للبصر
وأشارت لي بقول مفصحٍ ::: يا أمين الله ما هذا الخبر؟
قلت ضيف طارق في أرضكمٌ ::: هل تضيفوه إلى وقت السحر
فأجابت بسرور سيدي ::: أخدم الضيف بسمعي والبصر

قال: فتعجب أمير المؤمنين من ذلك وأمر له بصلة(١).

كلام الليل يمحوه النهار:

يحكى أن هارون الرشيد هجر جارية له ثم لقيها في بعض الليالي في القصر سكرى تدور في جوانب القصر وعليها مطرف خز، وهي تسحب أذيالها من التيه والعجب، وسقط رداؤها عن منكبيها، والريح أبان نهديها كأنهما رمانتان، ولها ردفان ثقيلان، فراودها عن نفسها، فقالت: يا أمير المؤمنين! هجرتني هذه المدة وليس لي علم بملاقاتك فأنظرني إلى غد حتى أتهيأ وآتيك.

فلما أصبح قال للحاجب: لا تدع أحداً يدخل علي إلا فلانة، وانتظرها فلم تجئ فقام ودخل عليها وسألها إنجاز الموعد فقالت: يا أمير المؤمنين، كلام الليل يمحوه النهار. فقام واستدعى من بالباب من الشعراء فدخل عليه أبو نواس والرقاشي وأبو مصعب فقال لهم: هاتوا علي، كلام الليل يمحوه النهار. فقال الرقاشي: أنا قائل في ذلك ثلاثة أبيات، وأنشأ يقول:

أتسلوها، وقلبك مستطار ::: وقد منع القرار فلا قرار
وقد تركتك صباً مستهاماً ::: فتاة لا تزور ولا تزار
فولت وانثنت تيهاً، وقالت ::: كلام الليل يمحوه النهار

وقال أبو مصعب: وأنا قائل في ذلك ثلاثة أبيات، وأنشأ يقول:

أما والله لو تجدين وجدي ::: لما وسعتك في بغداد دار
أما يكفيك أن العين عبرى ::: ومن ذكراك في الأحشاء نار

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٤٢.

تبسمت الفتاة بغير ضحك ::: كلام الليل يمحوه النهار

وقال أبو نواس: أنا قائل في ذلك أربعة أبيت، وأنشأ يقول:

وخود أقبلت في القصر سكرى ::: ولكن زين السكر الوقار
وهز الريح أردافاً ثقالاً ::: وغصناً فيه رمانٌ صغار
وقد سقط الردا عن منكبيها ::: من التخميش وانحل الإزار

فقلت: الوعد سيدتي، فقالت: كلام الليل يمحوه النهار

فقال الرشيد: قاتلك الله كأنك كنت معنا أو مطلعاً علينا.

وأمر لكل بخلعة سنية وخمسة آلاف درهم، ولأبي نواس بعشرة آلاف درهم.

أمعنا كنت؟

وذكر الخطيب في بعض مصنفاته أن الرشيد دخل يوماً قبل وقت الظهر، في مقصورة جارية تسمى الخيزران على غفلة منها، فوجدها تغتسل، فلما رأته تجللت بشعرها حتى لم ير من جسدها شيئاً، فأعجبه ذلك الفعل واستحسنه، ثم عاد إلى مجلسه وقال: من بالباب من الشعراء؟ قالوا له: أبو نواس وبشار.

فقال: ليحضرا جميعاً.

فأحضرا، فقال الرشيد ليقل كل منكما أبياتاً توافق ما في نفسي، فأنشأ بشار يقول:

تحببتكم والقلب صار إليكمو ::: بنفسي ذاك المترل المتحبب
إذا ذكروا الهجران لا عن ملالة ::: وذكراهم، ينمي إلي محبب
وقالوا تجنبنا، ولا قرب بيننا ::: فكيف وأنتم حاجتي تتجنبوا
على أهم أحلى من الشهد عندنا ::: وأعذب من ماء الحياة وأطيب

فقال: أحسنت، ولكن ما أصبت ما في نفسي، فقل أنت يا أبا نواس، فجعل يقول:

نضت عنها القميص لصب ماء ::: فورد خدها فرط الحياء
وقابلت الهواء، وقد تعرت ::: بمعتدلٍ أرق من الهواء

ومــدت راحــة، كالمــاء منــها ::: إلى مــــاء معــــد في إنــــاء
فلمــا أن قــضت وطــراً وهمــت ::: علــى عجــل إلى أخــذ الــرداء
رأت شخص الرقيب على التــداني ::: فأســبلت الظــلام علــى الــضياء
فغاب الــصبح منــها تحــت ليــلٍ ::: وظــل المــاء يقطــر فــوق مــاء
فــسبحان الإلـــه وقـــد براهـــا ::: كأحسن ما يكــون مــن النــساء

فقال الرشيد: سيفاً ونطعاً.

فقال له: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: أمعنا كنت؟ قال: لا والله ولكن شيء خطر ببالي.

فأمر له بأربعة آلاف درهم وصرفه[1].

أجود أخبار النساء:

ويحكى أن أمير المؤمنين الرشيد أرق ذات ليلة أرقاً شديداً، فقام من فراشه وتمشى من مقصورة إلى مقصورة، وقلقه زائد ونفسه محصورة، فلما أصبح قال: علي بالأصمعي، فخرج الطواشي إلى البوابين، فقال لهم: يقول لكم أمير المؤمنين أرسلوا أحداً خلف الأصمعي. فلما حضر أعلم الخليفة فأجلسه ورحب به وقال: يا أصمعي أريد منك أن تحدثني بأجود ما سمعت من أخبار النساء وأشعارهن؟ فقال: سمعاً وطاعة: لقد سمعت كثيراً ولم يعجبني سوى ثلاثة أبيات أنشدهن ثلاث بنات.

فقال له: حدثني حديثهن.

فقال: اعلم إذًا أمير المؤمنين، أني توجهت سنة إلى البصرة فاشتد علي الحر فطلبت مقيلاً أقيل فيه فلم أجد، فبينما أنا أتلفت يميناً وشمالاً، إذا أنا بساباط مكنوس مرشوش، وفيه دكة من خشب، وعليها شباك مفتوح تفوح منه رائحة المسك، فدخلت الساباط وجلست على الدكة وأردت الاضطجاع، فسمعت كلاماً عذباً من فم جارية حسناء، وهي تقول: يا أختي! إنا جلسنا يومنا هذا على وجه الصبوح، تعالين نطرح ثلاثمائة دينار وكل منا تقول بيتاً من الشعر، فكل من قالت البيت الأعذب

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٤٣.

الأملح كانت الثلاثمائة دينار لها، فقلن: حبًّا وكرامة، فقالت الكبرى:

عجبت له أن زار في النوم مضجعي ::: ولو زارني مستيقظًا كان أعجبا

فقالت الوسطى:

وما زارني في النوم إلا خياله ::: فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحبا

فقالت الصغرى:

بنفسي وأهلي من أرى كل ليلةٍ ::: ضجيعي ورياه من المسك أطيبا

فقلت: إن كان لهذا المقال جمالٌ، فقد تم الأمر على كل حال. فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف، وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه جارية، وهي تقول: اجلس يا شيخ، فطلعت على الدكة ثانياً وجلست، فدفعت إلي ورقة فنظرت خطًّا في نهاية الحسن مستقيم الألفات مجوف الهاءات مدور الواوات مضمونه: نعلم الشيخ، أطال الله بقاءه، أننا ثلاث بنات أخواتٍ جلسنا على وجه الصبوح وطرحنا ثلاثمائة دينار، وشرطنا أن كل من قالت البيت الأعذب الأملح كان لها الثلاثمائة دينار، وقد جعلناك الحكم في ذلك، فاحكم بما تراه والسلام.

فقلت للجارية: علي بدواة وقرطاس.

فغابت قليلاً وخرجت إلي بدواة مفضضة وأقلام مذهبة، فأنشأت أقول:

أحدث عن خود تحدثن مرةً ::: حديث امرئ ساس الأمور وجربا
ثلاث كبكرات الصحاري جحافل ::: حللن بقلب للمشوق معذبا
خلون وقد نامت عيونٌ كثيرةٌ ::: من الراقدينَ المشتهين التغيبا
فبحن بما يخفين من داخل الحشا ::: نعم، واتخذن الشعر لهواً وملعبا
فقالت عروبٌ ذات عز غريرة ::: وتبسم عن عذب المقالة أنسبا
عجبت له أن زار في النوم مضجعي ::: ولو زارني مستيقظاً كان أعجبا
فلما انقضى ما زخرفت وتضاحكت ::: تنفست الوسطى، وقالت تطربا
وما زارني في النوم إلا خياله ::: فقلت له: أهلاً وسهلاً ومرحبا
وأحسنت الصغرى، وقالت مجيبة ::: بلفظ لها قد كان أشهى وأعذبا
بنفسي وأهلي من رأى كل ليلة ::: ضجيعي، ورياه من المسك أطيبا

فلما تدبرت الـــذي قلـــن وانـــبرى ::: لي الحكم لم أترك لذي اللب معتبـــا
حكمت لصغراهن في الـــشعر أنـــني ::: رأيت الذي قالت جمـــيلاً وأصـــوبا

قال الأصمعي: ثم دفعت الرقعة إلى الجارية، فلما صعدت إلى القصر، فإذا برقص وتصفيق ودنيا دانية وقيامة قائمة، فقلت: ما بقي لي إقامة، فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف، وإذا بالجارية تنادي وتقول: اجلس يا أصمعي.

فقلت: ومن أعلمك أنني الأصمعي؟ فقالت: يا شيخ إن خفي علينا اسمك فما خفي علينا نظمك.

فجلست، وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه الجارية الأولى وعلى يدها طبق من فاكهة وطبق من حلوى، فتفكهت وتحليت وشكرت صنعها، وأردت الانصراف، وإذا بالجارية تنادي وتقول: اجلس يا أصمعي، فرفعت بصري إليها فنظرت كفًّا أحمر في كم أصفر فخلته البدر يشرف من تحت الغمام، ورمت لي صرة فيها ثلاثمائة دينار، وقالت: هذا صار لي وهو مني لك هبة في نظير حكومتك.

فقال لي أمير المؤمنين: لأي شيء حكمت للصغرى ولم تحكم للكبرى ولا للوسطى؟

فقلت: يا أمير المؤمنين إن بيت الكبرى قالت:

عجبت له أن زار في النوم مضجعي

وهو محمول معلق على شرط قد يقع ولا يقع، وأما الوسطى، فمر بها طيف خيال في النوم فسلمت عليه، وبيت الصغرى ذكرت أنها ضاجعته مضاجعة حقيقية وشمت منه أنفاساً أطيب من المسك وفدته بنفسها وأهلها ولا يفدى بالنفس إلا من هو أعز من النفس.

فقال الخليفة: أحسنت يا أصمعي.

ثم دفع إلي ثلاثمائة دينار فأخذتها وانصرفت فكنت أقول لله درك من شعر أخذت في حكومتي منه ثلاثمائة دينار، وفي حكايته مثلها، والله

أعلم[١].

إبراهيم الموصلي وإبليس:

وعن أبي إسماعيل إبراهيم الموصلي قال: استأذنت الرشيد أن يهب لي يوماً من الأيام للانفراد بجواري وإخواني، فأذن لي في يوم السبت، فأتيت منزلي وأخذت في إصلاح طعامي وشرابي وما احتجت إليه وأمرت البوابين بإغلاق الأبواب وأن لا يأذنوا لأحد بالدخول علي.

فبينما أنا في مجلسي والحريم قد حففن بي، وإذا بشيخ ذي هيبة وجمال وعليه جبتان قصيرتان وقميص ناعم وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بفضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق، فداخلني غيظ عظيم لدخوله علي وهممت بطرد البوابين فسلم علي أحسن سلام، فرددت عليه وأمرته بالجلوس، فجلس وأخذ يحدثني بأحاديث العرب وأشعارها حتى ذهب ما بي من الغضب وظننت أن غلماني تحروا مسرتي لإدخال مثله علي لأدبه وظرفه، فقلت: هل لك في الطعام؟ قال: لا حاجة لي فيه.

قلت: فالشراب؟ قال: ذلك إليك.

فشربت رطلاً وسقيته مثله، ثم قال: يا أبا إسحاق، هل لك أن تغنينا شيئاً فنسمع من صنعتك ما قد فقت به العام والخاص.

فغاظني قوله، ثم سهلت الأمر على نفسي، فأخذت العود وضربت وغنيت، فقال: أحسنت يا إبراهيم، فازددت غيظاً فقلت: ما رضي بما فعله في دخوله بغير إذني واقتراحه علي حتى سماني باسمي ولم يجمل مخاطبتي.

ثم قال: هل تزيد نكافئك؟ فترنمت وأخذت العود وغنيت وتحفظت فيما غنيته، قمت به قياماً تامًّا لقوله: ونكافئك. فطرب وقال: أحسنت يا سيدي، ثم قال لي: أتأذن لي في الغناء؟ فقلت: شأنك، واستضعفت عقله في أن يغني بحضرتي بعد الذي سمعه مني. فأخذ العود وجسه فوالله خلت أن العود ينطق بلسان عربي واندفع يغني هذه الأبيات:

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٤٤.

ولي كبدٌ مقروحةٌ من يبيعني ::: بها كبداً ليست بذات قروح
أباها على الناس لا يشترونها ::: ومن يشتري ذا علة بصحيح
أئن من الشوق الذي في جوانحي ::: أنين غصيص بالشراب طريح

قال إبراهيم: فوالله لقد ظننت أن الأبواب والحيطان وكل ما في البيت تجيبه وتغني معه، وبقيت مبهوتاً لا أستطيع الكلام والحركة لما خالط قلبي، ثم اندفع يغني، فقال:

ألا يا حمامات اللوى عدن عودةً ::: فإني إلى أصواتكن حزين
فعدن ولما عدن كدن يمتنني ::: وكدت بأسراري لهن أبين
دعون بترداد الهدير كأنما ::: شربن الحميا أو بهن جنون
فلم تر عيني مثلهن حمائماً ::: بكين ولم تدمع لهن عيون

قال: ثم سكت قليلاً وغنى هذه الأبيات:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ::: فقد زادني مسراك وجداً على وجدي
أإن هتفت ورقّاء في رونق الضحى ::: على فنن من غصن بان ومن رند
بكيت كما يبكي الوليد صبابةً ::: وأبديت من شكواي ما لم تكن تبدي
وقد زعموا أن المحب إذا دنا ::: تمل وأن البعد يشفي من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ::: على أن قرب الدار خيرٌ من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ::: إذا كان من تهواه ليس بذي ود

ثم قال: يا إبراهيم هذا الغناء الماخوري خذه وانح نحوه في غنائك وعلمه جواريك.

فقلت: أعده علي؟ فقال: لست تحتاج إلى إعادة فقد أخذته وفرغت منه.

ثم غاب من بين يدي فارتعبت منه وقمت إلى السيف وجردته ثم غدوت نحو أبواب الحريم فوجدتها مغلقة، فقلت للجواري: أي شيء سمعتن؟ فقلن: سمعنا غناء أطيب شيء وأحسنه.

فخرجت متحيراً إلى باب الدار فوجدته مغلقاً فسألت البوابين عن الشيخ فقالوا: أي شيخ، فوالله ما دخل إليك اليوم أحد.

فرجعت أتأمل أمره، فإذا هو قد هتف بي من جوانب البيت، وقال: لا

بأس عليك يا أبا إسحاق، فإنما هو أبو مرة قد كنت نديمك اليوم، فلا تفزع.

فركبت إلى الرشيد فأخبرته الخبر، فقال: أعد الأصوات التي أخذتها، فأخذت العود وضربت، فإذا هي راسخة في صدري، فطرب الرشيد عليها وجعل يشرب، ولم يكن له همة على الشراب، وقال: كأن الشيخ علم أنك قد أخذت الأصوات وفرغت منها فليته متعنا بنفسه يوماً واحداً كما متعك، ثم أمر لي بصلة فأخذتها وانصرفت، انتهى[١] .

الرشيد وإسماعيل بن صالح:

وقال الرشيد يوماً للفضل بن يحيى، وهو بالرقة: قد قدم إسماعيل بن صالح بن علي، وهو صديقك، وأريد أن أراه؟ فقال: إن أخاه عبد الملك في حبسك وقد نهاه أن يجيئك.

قال الرشيد: فإني أتعلل حتى يجيئني عائداً؟ فتعلل، فقال الفضل لإسماعيل: ألا تعود أمير المؤمنين؟ قال: بلى.

فجاءه عائداً فأجلسه، ثم دعا بالغداء، فأكل وأكل إسماعيل بين يديه، فقال له الرشيد: كأني قد نشطت برؤيتك إلى شرب قدح، فشرب وسقاه، ثم أمر فأخرج جوار يغنين وضربت ستارة وأمر بسقيه، فلما شرب أخذ الرشيد العود من يد جارية ووضعه في حجر إسماعيل وجعل في عنقه سبحة، وفيها عشرة حبات من در شراؤها بثلاثين ألف دينار، وقال: غن يا إسماعيل، وكفر عن يمينك بثمن هذه السبحة، فاندفع يغني شعر الوليد بن يزيد في غالية أخت عمر بن عبد العزيز، وكانت تحته، وهي التي ينسب إليها سوق الغالية، فقال:

فأقسم ما أدنيت كفي لريبة ::: ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ::: ولا دلني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبةٌ ::: من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلي

فسمع الرشيد أحسن غناء من أحسن صوت. فقال: الرمح يا غلام.

---

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٤٥.

فجيء بالرمح، فعقد له لواء على إمارة مصر.

قال إسماعيل: فوليتها سنتين فأوسعتها عدلاً. وانصرفت بخمسمائة ألف دينار، وبلغ أخاه عبد الملك ولايته، فقال: غنى والله الخبيث لهم، ليس هو بصالح[١].

أعرابي يزاحم الرشيد:

يروى أنه لما دخل هارون الرشيد إلى مكة، شرفها الله تعالى، وابتدأ بالطواف ومنع الخاص والعام من ذلك لينفرد بالطواف. فسبقه أعرابي، فشق ذلك على الرشيد فالتفت إلى حاجبه منكراً عليه، فقال الحاجب للأعرابي: تخل عن الطواف حتى يطوف أمير المؤمنين.

فقال الأعرابي: إن الله قد ساوى بين الإمام والرعية في هذا المقام، فقال عز وجل:{سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُـرِدْ فِيـهِ بِإِلْحَـادٍۭ بِظُـلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الحج: ٢٥].

فلما سمع الرشيد من الأعرابي ذلك راعه أمره فأمر حاجبه بالكف عنه، ثم جاء الرشيد إلى الحجر الأسود ليستلمه فسبقه الأعرابي فاستلمه، ثم أتى الرشيد إلى المقام للمصلي فسبقه الأعرابي فصلى فيه، فلما فرغ الرشيد من صلاته قال لحاجبه: ائتني بهذا الأعرابي، فأتاه الحاجب فقال: أجب أمير المؤمنين.

فقال: ما لي إليه من حاجة إن كان له حاجة فهو أحق بالقيام إلي والسعي.

فقام الرشيد حتى وقف بإزاء الأعرابي وسلم عليه، فرد عليه السلام، فقال له الرشيد: يا أخا العرب اجلس هنا بأمرك.

فقال الأعرابي: ليس البيت بيتي ولا الحرم حرمي وكلنا فيه سواء.

فإن شئت تجلس، وإن شئت تنصرف.

قال الراوي: فعظم ذلك على الرشيد وسمع ما لم يكن في ذهنه، وما ظن أنه يواجهه أحد بمثل هذا الكلام. فجلس الرشيد وقال: يا أعرابي،

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٤٦.

أريد أن أسألك عن فرضك، فإن أنت قمت به فأنت بغيره أقوم، وإن أنت عجزت عنه فأنت عن غيره أعجز.

فقال الأعرابي: سؤالك هذا سؤال تعلم أم سؤال تعنت؟ فتعجب الرشيد من سرعة جوابه وقال: بل سؤال تعلم.

فقال له الأعرابي: قم فاجلس مقام السائل من المسؤول.

قال: فقام الرشيد وجثا على ركبتيه بين يدي الأعرابي، فقال: قد جلست فاسأل عما بدا لك.

فقال له: أخبرني عما افترض الله عليك؟ فقال له: تسألني عن أي فرض عن فرض واحد، أم عن خمسة، أم عن سبعة عشر، أم عن أربعة وثلاثين، أم عن خمسة وثمانين، أم عن واحدة في طول العمر، أم عن واحدة من أربعين، أم عن خمسة من مائتين.

قال: فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه استهزاء به، ثم قال: له: سألتك عن فرضك فأتيتني بحساب الدهر؟ قال: يا هارون لولا أن الدين بالحساب لما أخذ الله الخلائق بالحساب يوم القيامة، فقال تعالى:{وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾} [الأنبياء: ٤٧].

قال: فظهر الغضب في وجه الرشيد واحمرت عيناه حين قال: يا هارون، ولم يقل له: يا أمير المؤمنين، وبلغ مبلغاً شديداً غير أن الله تعالى عصمه منه وحال بينه وبينه لما علم أنه هو الذي أنطق الأعرابي بذلك، فقال له الرشيد: يا أعرابي، إن فسرت ما قلت نجوت وإلا أمرت بضرب عنقك بين الصفا والمروة.

فقال له الحاجب: يا أمير المؤمنين اعف عنه وهبه لله تعالى ولهذا المقام الشريف؟ قال: فضحك الأعرابي من قولهما حتى استلقى على قفاه، فقال: مم تضحك؟ قال: عجباً منكما إذ لا أدري أيكما أجهل الذي يستوهب أجلاً قد حضر أم من يستعجل أجلاً لم يحضر؟

قال: هال الرشيد ما سمعه منه وهانت نفسه عليه، ثم قال: الأعرابي: أما سؤالك عما افترض الله علي، فقد افترض علي فرائض كثيرة، فقولي

لك عن فرض واحد: فهو دين الإسلام، وأما قولي لك: عن خمسة فهي الصلوات؛ وأما قولي لك عن سبعة عشرة: فهي سبعة عشرة ركعة؛ وأما قولي لك عن أربعة وثلاثين: فهي السجدات؛ وما قولي لك: عن خمسة وثمانين: فهي التكبيرات؛ وأما قولي لك عن واحدة في طول العمر: فهي حجة الإسلام واحدة في طول العمر كله، وأما قولي لك واحدة في أربعين: فهي زكاة الشياه، شاة من أربعين، وأما قولي لك: خمس من مائتين فهي زكاة الورق.

قال: فامتلأ الرشيد فرحاً وسروراً من تفسير هذه المسائل، ومن حسن كلام الأعرابي وعظم الأعرابي في عينه وتبدل بغضه محبة، ثم قال: الأعرابي: سألتني فأجبتك وأنا أريد أن أسألك فأجبني.

قال: قل.

فقال الأعرابي: ما تقول في رجل نظر إلى امرأة في وقت صلاة الفجر فكانت عليه محرمة، فلما كان وقت الظهر حلت له، فلما كان في وقت العصر حرمت عليه، فلما كان وقت المغرب حلت له، فلما كان وقت العشاء حرمت عليه، فلما كان وقت الصبح حلت له، فلما كان وقت الظهر حرمت عليه، فلما كان وقت العصر حلت له، فلما كان وقت المغرب حرمت عليه، فلما كان وقت العشاء حلت له.

فقال: والله يا أخا العرب لقد أوقعتني في بحر لا يخلصني منه غيرك.

فقال له: أنت خليفة ليس فوقك شيء ولا ينبغي أن تعجز عن مسألة فكيف عجزت عن مسألتي وأنا رجل بدوي لا قدرة لي؟ فقال الرشيد: قد عظم قدرك العلم ورفع ذكرك فأشتهي إكراماً لي، ولهذا المقام تفسير ذلك.

فقال: حبًّا وكرامة ولكن على شرط أن تجبر الكسير وترحم الفقير ولا تزدري الحقير.

فقال: حبًّا وكرامة، ثم قال: إن قولي لك عن رجل نظر إلى امرأة وقت صلاة الفجر فكانت عليه حراماً فهو رجل نظر إلى أمة غيره وقت الفجر فهي حرام عليه، فلما كان وقت الظهر اشتراها فحلت له، فلما كان

وقت العصر أعتقها، فحرمت عليه، فلما كان وقت المغرب تزوجها فحلت له، فلما كان وقت العشاء طلقها فحرمت عليه، فلما كان وقت الفجر رجعها فحلت له، فلما كان وقت الظهر ظاهر منها فحرمت عليه، فلما كان وقت العصر أعتق عنها، فحلت له، فلما كان وقت المغرب ارتد عن الإسلام فحرمت عليه. فلما كان وقت العشاء تاب ورجع إلى الإسلام فحلت له.

قال: فاغتبط الرشيد وفرح به واشتد إعجابه، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم، فلما حضرت قال: لا حاجة لي بها ردها إلى أصحابها.

فقال له: أريد أن أجري لك جراية تكفيك مدة حياتك؟ قال: الذي أجرى عليك يجري علي.

قال: فإن كان عليك دين قضيناه عنك؟ قال: لا، ولم يقبل منه شيئاً، ثم أنشد يقول:

هب الدنيا توافينا سنينا ::: فتكدر ساعة وتلذ حينا

فما أبغي لشيء ليس يبقى ::: وأتركه غداً للوارثينا

كأني بالتراب علي يحثى ::: وبالإخوان حولي نادبينا

ويوم تزفر النيران فيه ::: وتقسم جهرةً للسامعينا

وعزة خالقي وجلال ربي ::: لأنتقمن منهم أجمعينا

وقد شاب الصغير بغير ذنب ::: فكيف يكون حال المجرمينا

فلما فرغ من إنشاده تأوه الرشيد وسأله عن أهله وبلاده، فأخبره أنه موسى الرضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وكان يتزيا بزي أعرابي زهداً في الدنيا وتباعداً عنها، فقام إليه الرشيد وقبل ما بين عينيه، ثم قرأ:{ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ} [الأنعام: ١٢٤]، وانصرف رحمة الله عليهم أجمعين[1].

الحسين الخليع والجارية العاشقة:

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٤٧.

قال السجستاني: أرق الرشيد ليلة، فوجه إلى الأصمعي وإلى حسين الخليع فأحضرهما وقال: علاني وابدأ أنت يا حسين.

فقال حسين: نعم يا أمير المؤمنين؟ خرجت في بعض السنين منحدراً إلى البصرة ممتدحاً محمد بن سليمان الزينبي بقصيدتي، فقبلها وأمرني بالمقام، فخرجت ذات يوم إلى المبربد وجعلت المهالبة طريقي فأصابني حر شديد فدنوت من باب دار كبيرة لأستسقي، فإذا أنا بجارية كأنها قضيب ينثني، واسعة العينين، زجاء الحاجبين، مفتوحة الجبين، عليها قميص جلناري ورداء عدني قد غلب شدة بياض بدنها على حمرة قميصها، تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمانتين وبطن كطي القباطي، وعكن كالقراطيس، لها جمة جعدة بالمسك محشوة، وهي يا أمير المؤمنين متقلدة خرزاً من الذهب والجوهر، يزهو بين نهديها وعلى صحن جبينها طرة كالسبج وحاجبان مقرونان وعينان نجلاوان وخدان أسيلان وأنف أقنى تحته ثغر كاللؤلؤ، وأسنان كالدر، وقد غلب عليها الطيب، وهي والهة حيرى ذاهبة في الدهليز ورائحة تخطر على أكباد محبيها في مشيتها، وقد خالط أصوات نعلها خلاخلها، فهي كما قال الشاعر فيها:

كل جزء منم محاسنه ::: كائن من حسنها مثلا

فهبتها يا أمير المؤمنين، ثم دنوت منها لأسلم عليها، فإذا الدهليز والدار والشارع قد عبق بالمسك، فسلمت عليها فردت بلسان منكسر وقلب حزين حريق مسعر. فقلت لها: يا سيدتي، إني شيخ غريب أصابني عطش، أفتأمرين بشربة من ماء تؤجرين عليها؟ قالت: إليك عني يا شيخ، فإني مشغولة عن الماء وادخار الزاد.

قلت: لأي علة يا سيدتي؟ قالت: لأني عاشقة لمن لا ينصفني، وأريد من لا يريدني، ومع ذلك فإني ممتحنة برقباء فوق رقباء.

قلت: وهل يا سيدتي على بسيطة الأرض من تريدينه ولا يريدك؟ قالت: نعم، وذلك لفضل ما ركب فيه من الجمال والكمال والدلال.

قلت: وما وقوفك في هذا الدهليز؟ قالت: ههنا طريقه وهذا أوان

اجتيازه.

فقلت لها: يا سيدتي، فهل اجتمعتما في وقت من الأوقات ووجد حديث في هذا القرب؟ فتنفست الصعداء وأرخت دموعها على خدها كطل سقط على ورد، ثم أنشدت تقول:

وكنا كغصني بانــة فــوق روضــة ::: نشم جنى اللذات في عيــشة رغــد
فأفرد هذا الغصن مــن ذاك قطــع ::: فيا من رأى فــرداً يحــن إلى فــرد

قلت: يا هذه، فما بلغ من عشقك لهذا الفتى؟ قالت: أرى الشمس على حائطهم أحسب أنها هو، وربما أراه بغتة فأبهت ويهرب الدم والروح من جسدي وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل.

فقلت لها: فاعذريني، فأنت على ما بك من الصبا وشغل البال بالهوى ونحول الجسم وضعف القوى أرى بك من اللون ورقة البشرة فكيف لو لم يمسك الهوى لكنت مفتنةً في أرض بصرة.

قالت: والله قبل محبتي هذا الغلام كنت تحفة الدلال والجمال والكمال، ولقد فتنت جميع ملوك البصرة حتى فتنني هذا الغلام.

قلت: يا هذه، فما الذي فرق بينكما؟ قالت: نوائب الدهر ولحديثي وحديثه شأن من الشؤون، وذلك أني كنت قعدت في ويم نيروز، ودعوت عدة من مستظرفات البصرة من النساء الجميلات وكانت فيهن الحوراء جارية شيرا، وكان شراؤها عليه من عمان بثمانية آلاف درهم، وكانت بي والعة، فلما دخلت رمت بنفسها علي تقطعني قرصاً وعضاً، ثم خلونا نتمرن القهوة إلى أن يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا وكانت تلاعبني وألاعبها، فتارة أنا فوقها، وتارة هي فوقي، فحملها السكر إلى أن ضربت يدها إلى تكتي فحلتها من غير زيبةٍ كانت بيننا، وأنزلت سراويل ملاعبة، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا حبيبي فرأى ذلك فاشمأز لذلك وصدف عني صدوف المهرة العربية إذا سمعت صلاصل لجامها، فولى خارجاً، فأنا يا شيخ منذ ثلاث سنين أسأل الاجتماع به فلا ينظر إلي بطرف ولا يكتب لي بحرف ولا يكلم لي رسولاً ولا يسمع مني قيلاً.

فقلت لها: يا هذه، من العرب هو أم من العجم؟ فقالت: ويحك هو من

جملة ملوك البصرة.

فقلت لها: شيخ هو أم شاب؟ فنظرت إلي شزراً وقالت: إنك أحمق، هو مثل القمر ليلة البدر، أجرد أمرد له طرة كحلك الغراب لا يعيبه شيء غير انحرافه عني.

قلت لها: ما اسمه؟ قالت: ماذا تصنع به؟ أجتهد في لقائه فأتعرف الفضل بينكما.

قالت: على شرط أن تحمل إليه رقعة.

قلت: لا أكره ذلك.

فقالت: اسمه ضمرة بن المغيرة ويكنى بأبي السخاء، وقصره بالمربد.

ثم صاحت في الدار: يا جواري، الدواة والقرطاس، وشمرت عن ساعدين كأنهما طوقان من فضة، وكتبت بعد البسملة: سيدي ترك الدعاء في صدر رقعتي ينبئ عن تقصيري، ودعائي، إن دعوته، هجنة ورعونة، ولولا أن بلوغ المجهود يخرج من حد التقصير لكان لما تكلفته خادمتك من كتابة هذه الرقعة معنى مع يأسها منك لعلمها تركك الجواب.

سيدي، جد بنظرة وقت اجتيازك في الشارع إلى الدهليز تحيي بها نفساً ميتة، واخطط بخط يدك، بسطها الله بكل فضيلة، رقعة واجعلها عوضاً عن تلك الخلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنت ذاكر لها.

سيدي، ألست لك محبة مدنفة؟ فإن رجعت إلى الآيسة كنت لك شاكرة وبعد خادمة. والسلام.

فتناولت الكتاب وخرجت فأصبحت غدوة إلى باب محمد بن سليمان فوجدت مجلساً محتفلاً بالملوك ورأيت غلاماً زان المجلس وفاق على من فيه جمالاً وبهجة، قد رفعه الأمير فوقه، فسألت عنه فإذا هو ضمرة بن المغيرة، فقلت في نفسي: يا لحقيقة حل بالمسكينة ما حل بها. ثم قمت وقصدت المربد ووقفت على باب داره، فإذا هو قد ورد في موكب فوثبت إليه وبالغت في الدعاء له وناولته الرقعة، فلما قرأها وفهم معناها قال لي: يا شيخ! قد استبدلنا بها، فهل لك أن تنظر إلى البديل؟ قلت: نعم.

فصاح في الدار أخرجوا الربداء، فإذا أنا بجارية خابوطية الكمين، ناهدة الثديين تمشي مشية مستوحل من غير وحل، فناولها الرقعة، وقال: أجيبي عنها، فلما قرأتها اصفرت وعرفت وقالت: يا شيخ أستغفر الله مما جئت به.

فخرجت يا أمير المؤمنين وأنا أجر رجلي حتى أتيتها واستأذنت عليها فقالت: ما وراءك؟ فقلت: البؤس واليأس.

فقالت: ما عليك منه، فأين الله والقدر؟ ثم أمرت لي بخمسمائة دينار ثم جزت بعد أيام ببابها فوجدت غلماناً وفرساناً فدخلت فإذا أصحاب ضمرة يسألونها الرجوع إليه؟ فقالت: لا والله لا نظرت له وجهاً، فسجدت لله يا أمير المؤمنين، شماتةً بضمرة ونفرته من الجارية، فأوردت علي منه رقعة فإذا فيها، بعد التسمية، سيدتي، لولا إبقائي عليك، أدام الله حياتك، لوصفت شطراً من غدرك شطر غبني عليك، وسلكت ظلامتي فيك، إذ كنت الجانية، على نفسك ونفسي والمظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء والمؤثرة علينا غيرنا، فخالفت هواي، والله المستعان، على ما كان من سوء اختيارك والسلام.

وأوقفتني على ما حمله إليها من الهدايا والتحف العظيمة فإذا هو بمقدار ثلاثين ألف دينار ثم رأيتها بعد ذلك، وقد تزوج بها ضمرة[١].

جميل والفتى العذري وحبيبته:

وحكى مسرور الخادم قال: أرق الرشيد أرقاً شديداً ليلة من الليالي، فقال: يا مسرور من على الباب من الشعراء؟ فخرجت إلى الدهليز فوجدت جميل بن معمر العذري فقلت: أجب أمير المؤمنين فقال: سمعاً وطاعة. فدخلت ودخل معي إلى أن صار بين يدي هارون الرشيد فسلم بسلام الخلافة، فرد عليه وأمره بالجلوس، فقال له الرشيد: يا جميل، أعندك شيء من الأحاديث العجيبة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أيما أحب إليك، ما عاينته ورأيته أو ما سمعته ووعيته؟ فقال: بل حدثني عما عاينته ورأيته.

---

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٤٨ - ٤٩.

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، أقبل علي بكلك واصغ إلي بأذنك قال: فقعد الرشيد إلى مخدة من الديباج الأحمر المزركش بالذهب، محشوة بريش النعام، فجعلها تحت فخذه ثم مكن منها مرفقيه، وقال: هلم بحديثك.

فقال: اعلم يا أمير المؤمنين، أني كنت مفتوناً بفتاة محباً لها، وكنت آلفها إذ هي سؤلي وبغيتي من الدنيا، وإن أهلها رحلوا بها لقلة المرعى، فأقمت مدة لا أراها، ثم إن الشوق أقلقني وجذبني إليها، فراودتني نفسي بالمسير إليها فلما كانت ذات ليلة من الليالي، هزني الوجد إليها، فقمت وشددت رحلي على ناقتي واعتممت بعمتي ولبست أطماري وتقلدت بسيفي وتنكبت حجفتي، وركبت ناقتي وخرجت طالباً لها، وكنت أجد في السير، فسرت وكانت ليلة مظلمة مدلهمة، وأنا مع ذلك أكابد هبوط الأودية وصعود لجبال، أسمع زئير الأسد وعواء الذئاب، وأصوات الوحوش من كل جانب، وقد ذهل عقلي وطاش لبي، ولساني لا يفتر عن ذكر الله تعالى.

فبينما أنا أسير كذلك إذ غلبني النوم فأخذت بي الناقة على غير الطريق التي كنت فيها، وزاد علي النوم، وإذا أنا بشيء لطمني في رأسي فانتبهت فزعاً مرعوباً، وإذا بأشجار وأنهار وماء وأطيار على تلك الأغصان تترنم بلغاتها وألحانها، وشجار ذاك المرج مشتبكة بعضها ببعض، فنزلت عن ناقتي وأخذت زمامها بيدي، ولم أزل أتلطف بها إلى أن خرجت بها من تلك الأشجار إلى أرض فلاة، فأصلحت كورها، واستويت راكباً على ظهرها، ولا أدري إلى أين أذهب ولا إلى ما تسوقني الأقدار؟ فمددت نظري في تلك البرية، فلاحت لي نار في صدرها فوكزت ناقتي وسرت طالباً إلى أن وصلت إلى تلك النار، فقربت نفسي منها وتأملت وإذا بخباء مضروب ورمح مركوز، وراية قائمة وخيل واقفة، وإبل سائمة، فقلت في نفسي: يوشك أن يكون لهذا الخباء شأن عظيم، فإني لا أرى في هذه البرية سواه، ثم تقدمت خلف الخباء وقلت: السلام عليكم يا أهل الخباء ورحمة الله وبركاته.

فخرج إلي من الخباء غلام من أبناء تسعة عشر، كأنه البدر إذا أشرق، والشجاعة لائحة بين عينيه، فقال: وعليك السلام ورحمة الله

وبركاته يا أخا العرب، إني أظنك ضالاً عن الطريق؟ فقلت: الأمر كذلك، أرشدني يرحمك الله تعالى.

فقال: يا أخا العرب إن أرضنا هذه مسبعةٌ، وهذه الليلة مظلمة وحشة شديدة الظلمة والبرد ولا آمن عليك من الوحش أن يفترسك، فانزل عندي على الرحب والسعة، فإذا كان الغد أرشدتك إلى الطريق.

قال: فنزلت عن ناقتي وعقلتها بفاضل زمامها ونزعت ما كان علي من أطمار، وجلست ساعة، وإذا بالشاب قد عمد إلى شاة فذبحها وإلى نار فأضرمها وأججها ثم دخل الخباء وأخرج أزاراً ناعمة ولحماً مطيباً وأقبل يقطع من اللحم ويشوي على النار ويطعمني ويتنهد تارة، ويبكي تارة أخرى، ثم شهق شهقة عظيمة وبكى بكاء شديداً وأنشد يقول:

لم يبق إلا نفس خافت ::: ومقلة إنسانها باهت
لم يبق في أعضائه مفصل ::: إلا وفيه سقم ثابت
فدمعه جار وأحشاؤه ::: توقد، إلا أنه ساكت
تبكي له أعداؤه رحمةً ::: يا ويح من يرثي له الشامت

قال جميل: فعند ذلك يا أمير المؤمنين علمت أن الغلام عاشق ولهان، ولا يعرف الهوى إلا من ذاق طعم الهوى، فقلت في نفسي: أنا في منزل الرجل وأتهجم عليه في السؤال؟ فردعت نفسي وأكلت من ذلك اللحم بحسب الكفاية، فلما فرغت من الأكل قام الشاب ودخل الخباء وأخرج طشتاً نظيفاً وإبريقاً حسناً ومنديلاً من الحرير أطرافه مزركشة بالذهب الأحمر وقمقماً مملوءاً من الماورد الممسك. فتعجبت من ظرفه ورقة حاشيته، وقلت في نفسي: ما أغرب الظرف في البادية. ثم غسلنا أيدينا وتحدثنا ساعة ثم إنه قام ودخل الخباء وقطع بيني وبينه بمقطع من الديباج الأحمر، ثم خرج وقال: ادخل يا وجه العرب وخذ مضجعك فقد لحقك في هذه الليلة تعب وفي سفرك هذا نصب مفرط.

قال جميل: فدخلت فإذا أنا بفراش من الديباج الأخضر، فعند ذلك نزعت ما كان علي من الثياب ونمت بليلة لم أنم عمري مثلها، فلم أزل كذلك، وأنا متفكر في أمر هذا الشاب إلى أن جن الليل ونامت العيون، فلم

أشعر إلا بحس خفي لم أسمع ألطف منه ولا أرق حاشية، فرفعت سجاف المضرب، ونظرت فإذا أنا بصبية لم أر أحسن منها وجهاً وهي إلى جانبه، وهما يبكيان ويتشاكيان ألم الهوى والصبابة والجوى وشدة اشتياقهما إلى التلاقي، فقلت: يا الله؛ العجب من هذا الشخص الثاني، وهذا بيت فرد فإني لم أر فيه غير هذا الفتى، وليس حوله أحد، ثم قلت في نفسي: لا شك أن هذه الجارية من بنات الجن تهوى هذا الغلام، وقد تفرد بها في هذا المكان وتفردت به، فحققتها فإذا هي إنسية عربية إذا رمقت تخجل الشمس المضيئة، وقد أضاء الخباء من نور وجهها، فلما تحققت أنها محبوبته غلبتني الغيرة على الحب، فأرخيت الستر وغطيت وجهي ونمت، فلما أصبحت لبست ثيابي، وتوضأت لصلاتي، وصليت ما كان علي من الفرض، ثم قلت له: يا أخا العرب، هل لك أن ترشدني إلى الطريق، فقد تفضلت علي.

فنظر إلي وقال: على رسلك يا وجه العرب، الضيافة ثلاثة أيام وما كنت بالذي يدعك إلى الثلاثة أيام.

قال جميل: فأقمت عنده ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع جلسنا للحديث فحادثته وسألته عن اسمه ونسبه فقال: أما نسبي فأنا من بني عذرة، وأنا فلان ابن فلان وعمي فلان، فإذا هو ابن عمي، يا أمير المؤمنين، وهو من أشرف بيت في بني عذرة، قال: فقلت: يا بن العم، ما حملك على ما أراه منك من الانفراد في هذه البرية، وكيف تركت عبيدك وإماءك وانفردت بنفسك في هذا المكان؟ فلما سمع يا أمير المؤمنين كلامي، ترغرغت عيناه بالدمع ثم قال: يا بن العم إنني كنت محبًّا لابنة عمي، مفتوناً بها هائماً بحبها مجنوناً عليها لا أطيق الفراق عنها، فزاد عشقي لها، فخطبتها من عمي، فأبى أن يزوجنيها وزوجها من رجل من بني عذرة ودخل بها وأخذها إلى المحلة التي هو فيها من العام الأول، فلما بعدت عني وحجبت عن النظر إليها حملتني لوعات الهوى وشدة الشوق والجوى على تركي أهلي ومفارقتي عشيرتي وخلاني وجميع أمتعتي، وانفردت بهذا البيت في هذه البرية وألفت وحدتي.

فقلت: وأين أبياتهم؟ قال: هم قريب في ذروة هذا الجبل، وفي كل ليلة

عند نوم العيون وهدوء من الليل تنسل من الحي سرًّا بحيث لا يشعر بها أحد فأقضي منها بالحديث وطراً وتقضي هي كذلك، وها أنا مقيم كذلك على هذا الحال أتسلى بها ساعة من الليل ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، أو يأتيني الأمر على رغم الحاسدين، أو يحكم الله لي، وهو خير الحاكمين.

قال جميل: فلما حدثني الغلام يا أمير المؤمنين، غمني أمره وصرت من ذلك في حيرة لما أصابني عليه من الغيرة، فقلت له: يا بن العم، هل لك أن أدلك على حيلة أشير بها عليك، وفيها إن شاء الله عين الصلاح وسبيل الرشد والنجاح، وبها يفرج الله عليك الذي تخشاه.

فقال لي: قل يا بن العم.

فقلت له: إذا كان الليل وجاءت الجارية فاطرحها على ناقتي، فإنها سريعة الرواح، واركب أنت جوادك، وأنا أركب بعض هذه النوق وأسير بكم الليلة جميعها. فما يصبح الصباح إلا وقد قطعت بكم براري وقفاراً وتكون قد بلغت مرادك وظفرت بمحبوبة قلبك، وأرض الله واسعة فضاؤها، وأنا والله مساعدك ما حييت بروحي ومالي وسيفي.

فلما سمع ذلك قال لي: يا بن العم، حتى أشاورها في ذلك، فإنها عاقلة لبيبة بصيرة بالأمور.

قال جميل: فلما جن الليل وحان وقت مجيئها وهو منتظر الوقت لمعلوم فأبطأت عن عادتها فرأيت الفتى، وقد خرج من باب الخباء وفتح فاه وجعل يتنسم هبوب الريح التي تهب من نحوها وأنشد يقول:

ريح الصبا تهدي إلي نسيماً ::: من بلدة فيها الحبيب مقيم
يا ريح فيك من الحبيب علاقةٌ ::: أفتعلمينَ متى يكون قدوم

ثم دخل الخباء وقعد ساعة زمانية، وهو يبكي، ثم قال لي: يا بن العم، إن لبنت عمي في هذه الليلة نبأ وقد حدث لها حادث وعاقها عني عائق، ثم قال لي: كن مكانك حتى آتيك بالخبر. ثم أخذ سيفه وحجفته ثم غاب عني ساعة من الليل ثم أقبل وعلى يديه شيء يحمله ثم صاح إلي فأسرعت إليه. فقال: أتدري يا بن العم ما الخبر؟ فقلت: لا والله.

فقال: فجعت في ابنة عمي في هذه الليلة لأنها كانت توجهت إلينا

كعادتها إذ عرض لها في طريقها أسد فافترسها ولم يبق منها إلا ما ترى.

ثم إنه طرح ما كان على يده. فإذا هو مشاش الجارية وما فضل من عظامها. ثم بكى بكاء شديداً ورمى الترس من يده وأخذ كساء على يده ثم قال لي: لا تبرح إلى أن آتيك إن شاء الله تعالى.: ثم سار فغاب عني ساعة ثم عاد وبيده رأس الأسد فطرحه عن يده ثم طلب ماء فأتيته به فغسل فم الأسد وجعل يقبله ويبكي ويئن وزاد حزنه عليها وأنشد يقول:

ألا أيها الليث المدل بنفسه ::: هلكت لقد هيجت لي بعدها شجنًا

وصيرتني فرداً وقد كنت إلفها ::: وصيرت بطن الأرض لي ولها وطنًا

أقول لدهر خانني بفراقها ::: وغار عليها أن أكن لها حزنًا

ثم قال: يا بن العم، سألتك بالله وبحق القرابة والرحم التي بيني وبينك إلا حفظت وصيتي؟ إنك ستراني الساعة ميتاً بين يديك، فإذا كان كذلك، فغسلني وكفني أنا وهذا الفاضل من مشاش الجارية في هذا الثوب وادفنا في قبر واحد واكتب على قبرنا هذه الأبيات، وأنشد يقول:

كنا على ظهرها، والعيش في رغد ::: والشمل مجتمع والدار والوطن

ففرق الدهر والتصريف ألفتنا ::: وصار يجمعنا في بطنها الكفن

قال: ثم بكى بكاء شديداً. ثم دخل المضرب وغاب عني ساعة وخرج وجعل يتنهد ويصيح ثم شهق شهقة فارق الدنيا، فلما رأيت ذلك منه عظم علي وكبر عندي حتى كدت ألحق به من شدة حزني عليه، ثم تقدمت إليه وفعلت به ما أمرني من الغسل وكفنتهما جميعاً ودفنتهما في قبر واحد، وأقمت عند قبرهما ثلاث أيام ثم ارتحلت وأقمت سنين أتردد إلى زيارتهما.

وهذا ما كان من حديثهما، يا أمير المؤمنين قال: فلما سمع الرشيد كلامه استحسنه وخلع عليه وأجازه جائزة حسنة، والله أعلم[1].

الرشيد والرجل الأموي:

من غريب ما يحكى، ما حكاه القاضي أبو الحسن التنوخي في كتاب

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٥١ - ٥٩.

الفرج بعد الشدة: أن منارة وكان صاحب شرطة الرشيد قال: رفع إلى هارون الرشيد أن رجلاً بدمشق من بقايا بني أمية عظيم المال كثير الجاه، مطاعاً في البلد، له جماعة وأولاد ومماليك يركبون الخيل ويحملون السلاح ويغزون الروم، وأنه سمح جواد كثير البذل والضيافة، وأنه لا يؤمن منه، فعظم ذلك على الرشيد.

قال منارة: وكان وقوف الرشيد على هذا، وهو بالكوفة في بعض حججه، في سنة ست وثمانين ومائة، وقد عاد من الموسم، وقد بايع للأمين والمأمون والمعتصم أولاده، فدعاني، وهو خال، وقال: إني دعوتك لأمر يهمني، وقد منعني النوم، فانظر كيف يكون؟ ثم قص علي خبر الأموي. وقال: اخرج الساعة فقد أعددت لك الخيول وأزحت علتك في الزاد والنفقة والآلة، وتضم إليك مائة غلام واسلك البرية، وهذا كتابي إلى نائب دمشق، وهذه قيود فابدأ بالرجل، فإن سمع وأطاع فقده وجئني به، وإن عصى فتوكل عليه أنت ومن معك لئلا يهرب، وأنفذ الكتاب إلى أمير دمشق ليكون مساعداً لك، واقبضا عليه وجئني به، وأجلت لذهابك ستًّا ولإيابك ستًّا ويوماً لمقامك، وهذا محمل تجعله في شقة منه، إذا قيدته، وتقعد أنت في الشقة الأخرى، ولا تكل حفظه إلى غيرك، حتى تأتيني به في اليوم الثالث عشر من خروجك. فإذا دخلت داره فتفقدها وجميع ما فيها من أهله وولده وحاشيته وغلمانه، وقدر نعمته والحال والمحل واحفظ ما يقوله الرجل حرفاً بحرف من ألفاظه منذ يقع طرفك عليه حتى تأتيني به، وإياك أن يشكل عليك شيء من أمره. انطلق.

قال منارة: فودعته وانطلقت وخرجت فركبت الإبل وسرت أطوي المنازل أسير الليل والنهار ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين والبول وتنفيس النفس قليلاً إلى أن وصلت إلى دمشق في أول الليلة السابعة، وأبواب البلد مغلقة فكرهت طروقها ليلاً فبت بظاهر البلد إلى أن فتح بابها من غد، فدخلت حتى أتيت باب الرجل، وعليها صف عظيم وحاشية كثيرة، فلم أستأذن ودخلت بغير إذن، فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض من معي عني. قال: هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صاحبكم.

قال: فلما صرت في صحن الدار نزلت ودخلت مجلساً رأيت فيه قوماً

جلوساً فظننت أن الرجل فيهم فقاموا ورحبوا بي فقلت: أفيكم فلان؟ قالوا: نحن أولاده وهو في الحمام.

فقلت: استعجلوه.

فمضى بعضهم يستعجله وأنا أتفقد الدار والأحوال والحاشية فوجدتها ماجت بأهلها موجاً كبيراً فلم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال مكثه واستربت منه واشتد قلقي وخوفي من أن يتوارى إلى أن رأيت شخصاً بزي الحمام يمشي في صحن الدار وحواليه جماعة كهول وأحداث وصبيان، وهم أولاده وغلمانه، فقلت: إنه الرجل، فجاء وجلس وسلم علي سلاماً خفيفاً وسألني عن أمير المؤمنين واستقامة أمر حضرته، فأخبرته بما وجب وما قضى كلامه حتى جاءوا بأطباق فاكهة فقال: تقدم يا منارة وكل معنا.

فقلت: ما لي إلى ذلك من سبيل.

فلم يعاودني فأكل هو ومن معه ثم غسل يديه ودعا بالطعام، فجاءوا إليه بمائدة حسنة لم أر مثلها إلا للخليفة، فقال: يا منارة ساعدنا على الأكل. لا يزيد على أن يدعوني باسمي كما يدعوني الخليفة، فامتنعت عليه، فما عاودني فأكل هو ومن معه، وكانوا تسعة من أولاده، فتأملت أكله في نفسه فوجدته يأكل أكل الملوك ووجدت ذلك الاضطراب الذي كان في داره قد سكن ووجدتهم لا يرفعون شيئاً من بين يديه قد وضع على المائدة لا تهيأ غيره حالاً أعظم وأحسن منه. وقد كان غلمانه أخذوا لما نزلت إلى الدار مالي وغلماني وعدلوا بهم إلى دار أخرى فما أطاقوا ممانعتهم، وبقيت وحدي وليس بين يدي إلا خمس أو ست غلمان وقوف على رأسي فقلت في نفسي: هذا جبار عنيد. فإن امتنع من الشخوص لم أطق إشخاصه بنفسي ولا بمن معي ولا حفظ إلى أن يلحقني أمير البلد، وجزعت جزعاً شديداً ورابني منه استخفافه وتهاونه بأمري، يدعوني باسمي ولا يفكر في امتناعي من الأكل ولا يسأل عما جئت به ويأكل مطمئناً، وأنا مفكر في ذلك، فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا بالبخور فتبخر وقام إلى الصلاة وصلى الظهر، وأكثر من الدعاء والابتهال، ورأيت صلاته حسنة، فلما انتقل من المحراب أقبل علي وقال: ما أقدمك

يا منارة؟ فأخرجت كتاب أمير المؤمنين ودفعته إليه، ففضه وقرأه، فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته فاجتمع منهم خلق كثير فلم أشك أنه يريد أن يوقع بي فلما تكاملوا ابتدأ فحلف أيماناً غليظة فيها الطلاق والعتاق والحج والصدقة والوقف أن لا يجتمع اثنان في موضع واحد. وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم، ولا يظهروا إلى أن ينكشف لهم أمر يعتمدون عليه. وقال: هذا كتاب أمير المؤمنين بالمضي إليه، ولست أقيم بعد نظري فيه ساعة واحدة، فاستوصوا بمن ورائي من الحريم خيراً وما لي حاجة أن يصحبني أحد منكم هات قيودك يا منارة.

فدعوت بها وكانت في سفط ومد يده فقيدته وأمرت غلماني بحمله حتى صار في المحمل وركبت في الشق الآخر، وسرت من وقتي ولم ألاق أمير البلد ولا غيره، وسرت بالرجل وليس معه أحد إلى أن صرنا بظاهر دمشق فابتدأ يحدثني بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن في الغوطة، فقال لي: أترى هذا؟ قلت: نعم.

قال: إنه لي، وقال: إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت. ثم انتهى إلى آخر، فقال مثل ذلك. ثم انتهى إلى مزارع حسان وقرى، فقال مثل ذلك! هذا لي، فاشتد غيظي منه، وقلت: ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك وأخرجك فريداً مقيداً مغلولاً ما تدري إلى ما تصير إليه أمرك ولا كيف يكون،وأنت فارغ القلب من هذا حتى تصف ضياعك وبساتينك بعد أن جئتك؛ وأنت لا تفكر فيما جئت به، وأنت ساكن القلب قليل التفكر. لقد كنت عندي شيخاً فاضلاً.

فقال لي مجيباً: إنا لله وإنا إليه راجعون. أخطأت فراستي فيك. لقد ظننت أنك رجل كامل العقل وأنك ما حللت من الخلفاء هذا المحل إلا لما عرفوك، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام، والله المستعان. أما قولك في أمير المؤمنين وإزعاجه وإخراجه إياي إلى بابه على صورتي هذه، فإني على ثقة من الله عز وجل الذي بيده ناصية أمير المؤمنين، ولا يملك أمير المؤمنين لنفسه نفعاً ولا ضرًّا إلا بإذن الله عز وجل، ولا ذنب لي عند أمير المؤمنين أخافه، وبعد فإذا عرف أمير المؤمنين أمري وعرف

سلامتي وصلاح ناصيتي سرحني مكرماً، فإن الحسدة والأعداء رموني عنده بما ليس في وتقولوا علي الأقاويل، فإما أن يستحل دمي أو يخرج من إيذائي وإزعاجي ويردني مكرماً، أو يقيمني ببلاده معظماً مبجلاً؟ وإن كان قد سبق في علم الله عز وجل أن هذا يبدو لي منه سوء وقد اقترب أجلي وكان سفك دمي على يده، فلو اجتهدت الملائكة والأنبياء وأهل الأرض والسماء على صرف ذلك عني ما استطاعوا، فلم أتعجل الفكرة فيما فرغ الله منه، وإني أحسن الظن بالله الذي خلق ورزق وأحيا وأمات، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة أولى، وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا فإذن قد عرفت مبلغ فهمك، فإني لا أكلمك بكلمة واحدة حتى يفرق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى.

ثم أعرض عني فما سمعت منه لفظة غير القرآن والتسبيح أو طلب ماء أو حاجة حتى شارفنا الكوفة في اليوم الثالث عشر بعد الظهر، والنجب قد استقبلتني قبل ستة فراسخ من الكوفة يتجسسون خبري، فحين رأوني رجعوا عني متقدمين بالخبر إلى أمير المؤمنين، فانتهيت إلى الباب في آخر النهار فحططت رحلي، ودخلت على الرشيد وقبلت الأرض بين يديه ووقفت، فقال: هات ما عندك يا منارة وإياك أن تغفل منه عن لفظة واحدة.

فسقت الحديث من أوله إلى آخره حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور وما حدثني به نفسي من امتناعه، والغضب يظهر في وجه أمير المؤمنين ويتزايد حتى انتهيت إلى فراغ الأمور من الصلاة والتفاته إلي وسؤاله عن سبب قدومي ودفعي الكتاب إليه ومبادرته إلى إحضار ولده وأهله وأصحابه، وحلفه عليهم أن لا يتبعه أحد وصرفه إياهم ومد رجليه، فقيدته فما زال وجه الرشيد يسفر، فلما انتهيت إلى ما خاطبني به عند توبيخي له لما ركبنا في المحمل، فقال: صدق والله ما هذا إلا رجل محسود على النعمة، مكذوب عليه، ولعمري، لقد أزعجناه وأذيناه وروعنا أهله فبادر بنزع قيوده وائتني به.

قال: فخرجت فنزعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يجول في وجه الرشيد فدنا الأموي وسلم بالخلافة

ووقف فرد عليه الرشيد ردًّا جميلاً وأمره بالجلوس فجلس، وأقبل عليه الرشيد فسأله عن حاله، ثم قال له: بلغنا عنك فضل هيئة وأمور أحببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك، فاذكر حاجتك؟ فأجاب الأموي جواباً جميلاً وشكر ودعا، ثم قال: ليس لي عند أمير المؤمنين إلا حاجة واحدة.

فقال: مقضية، فما هي؟ قال: يا أمير المؤمنين، تردني إلى بلدي وأهلي وولدي.

قال: نفعل ذلك، ولكن سل ما تحتاج إليه من مصالح جاهك ومعاشك فإن مثلك لا يخرج إلا ويحتاج إلى شيء من هذا.

فقال: يا أمير المؤمنين، عمالك منصفون وقد استغنيت بعدلهم عن مسألتي فأموري مستقيمة وكذلك أهل بلدي بالعدل الشامل في ظل أمير المؤمنين.

فقال الرشيد: انصرف محفوظاً إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك.

فودعه الأموي، فلما ولى خارجاً قال الرشيد: يا منارة، احمله من وقتك وسر به راجعاً كما سيرته حتى إذا وصلت إلى مجلسه الذي أخذته منه فودعه وانصرف.

قال منارة: فما زلت معه حتى انتهى إلى محله، ففرح به أهله وأعطاني عطاء جزيلاً وانصرفت، والله أعلم، وهذه الحكاية على سبيل الاختصار [١].

الرشيد والخليفة الثاني الكاذب:

حكي أن الخليفة هارون الرشيد قلق في بعض الليالي قلقاً شديداً فاستدعى بوزيره جعفر البرمكي وقال له: يا وزيري إن صدري ضيق ومرادي الليلة التفرج في شوارع بغداد والنظر في مصالح العباد بشرط أن لا يعرفنا أحد من الناس ونتزيا بزي تجار الأكياس.

---

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٥٥، ٥٦.

فقال له الوزير: السمع والطاعة.

فقاموا في الوقت والساعة وقلعوا ما عليهم من ثياب الملك والافتخار ولبسوا ثياب التجار: الخليفة والوزير جعفر ومسرور السياف الأكبر، وتمشوا من مكان إلى مكان حتى وصلوا إلى الدجلة فرأوا بالأمر المقدور شيخاً قاعداً في شختور، فتقدموا إليه وسلموا عليه، وقالوا: يا شيخ، نشتهي من فضلك وإحسانك أن تفرجنا الليلة في مركبك، وخذ هذين الدينارين أجرتك انتفع بهما.

فقال لهم الشيخ: ومن يقدر على الفرجة، والخليفة هارون الرشيد ينزل كل ليلة في حراقة صغيرة إلى الدجلة ومعه مناد ينادي: يا معشر الناس كافة من جيد ورديء شيخ وصبي خاص وعام عبد وغلام، كل من نزل في مركب بالليل وشق الدجلة ضربت عنقه أو يشنق على صاري مركبه، وكأنكم الساعة بالحراقة وهي مقبلة.

فقال له الخليفة هارون الرشيد وجعفر البرمكي: يا شيخ خذ هذين الدينارين وادخل بنا قبواً من هذه الأقبية إلى أن تروح الحراقة.

فقال لهم الشيخ: هاتوا الذهب والله المستعان.

فأخذ الذهب وعوم بهم قليلاً، وإذا بالحراقة قد أقبلت من كبد الدجلة وفيها الشموع والمشاعل فقال لهم الشيخ: أما قلت لكم! يا ستار لا تكشف الأستار؟

فدخل إلى قبو ووضع عليهم مئزراً أسود، وصاروا يتفرجون من تحت المئزر، وإذا بالحراقة قد أقبلت والشمع يوقد فيها، وإذا في مقدم الحراقة مشاعلي بيده مشعل من الذهب الأحمر يوقد فيه بالعود القاقلي وعلى المشاعلي قباء أطلس أحمر بطراز مزركش أصفر وعلى رأسه شاش موصلي وعلى كتفيه مخلاة من الحرير الأخضر ملأى من العود القاقلي. وهو يوقد به عوض الحطب، ومشاعلي آخر في مؤخر الحراقة مثله، ومائتا مملوك واقفون ميمنة وميسرة، وكرسي منصوب من الذهب الأحمر وعليه شاب حسن جالس كالقمر وعليه خلعة سوداء بطرازين من الذهب الأصفر، وبين يديه إنسان كأنه الوزير جعفر. وعلى رأسه خادم

واقف كأنه مسرور بسيف مشهر، وعشرون نديماً. فقال الخليفة: يا جعفر.

قال: لبيك، أمير المؤمنين.

قال: لعل أن يكون هذا أحد أولادي إما المأمون أو محمد الأمين.

فلما وصلت الحراقة إليهم وإذا بالمشاعلي ينادي: معاشر الناس كافة الخاص والعام، الجيد والرديء والعبد والغلام، جهاوات وغير جهاوات قد رسم خليفتنا هذا أن كل من تفرج في الدجلة أو فتح طاقته حل ماله وضربت رقبته ومن لا يصدق يجرب.

قال: فتأمل الخليفة هارون الرشيد في الشاب وهو جالس على كرسي من الذهب قد كمل بالحسن والجمال والبهاء والكمال فلما تأمله هارون الرشيد التفت إلى الوزير وقال: يا وزير.

قال له: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: والله ما أبقى شيئاً من شكل الخلافة، وهذا الذي بين يديه كأنه أنت يا جعفر لا محالة، والخادم الذي على رأسه كأنه مسرور، هذا، وهؤلاء الندماء كأنهم ندمائي، وقد حار عقلي في هذا الأمر.

فقال له الوزير: وأنا والله يا أمير المؤمنين كذلك.

ثم تقدمت الحراقة إلى أن غابت عن العين فعند ذلك خرج الشيخ بالشختور الذي فيه الجماعة من تحت القبوة. وقال: الحمد لله على السلامة، فإنه لم يصادفنا.

فقال له الخليفة: يا شيخ! وهذا الخليفة ينزل كل ليلة الدجلة؟ قال: نعم يا سيدي، له على هذه الحالة سنة كاملة.

فقال له الخليفة: يا شيخ! نشتهي من فضلك وإحسانك أن تقف لنا ليلة غد في هذه المكان، ونحن نعطيك خمسة دنانير، فإنا قوم غرباء وقصدنا التنزه، ونحن نازلون في الفندق.

فقال الشيخ: السمع والطاعة.

ثم إن الخليفة وجعفراً ومسروراً توجهوا من عند الشيخ المراكبي إلى القصر وقلعوا ما عليهم من لبس التجار ولبسوا ثياب الملك والافتخار،

وجلس كل واحد في مرتبته، ودخلت الأمراء والحجاب والنواب. وانعقد المجلس بالناس، ولما انقضى النهار وتفرقت الأجناد قال الخليفة هارون الرشيد لوزيره: يا جعفر! انهض بنا للفرجة على الخليفة الثاني.

فضحك جعفر ومسرور، ولبسوا لبس التجار وخرجوا منشرحي الصدور، وكان خروجهم من باب السر، فلما وصلوا إلى الدجلة وجدوا الشيخ صاحب الشختور لهم في الانتظار فنزلوا عنده في المركب. فلما استقروا مع الشيخ المراكبي، وإذا بالخليفة الثاني في الحراقة، وقد أقبلت عليهم فتأملوها وإذا فيها مائتا مملوك غير المماليك الأول والمشاعلية تنادي على عادتهم، فقال الخليفة: يا وزير، هذا شيء لو سمعت به ما صدقت، ولكن رأيت هذا عياناً.

ثم إن الخليفة قال لصاحب الشختور: يا شيخ! هذه عشرة دنانير وسر بنا في مساواتهم، فإنهم في النور ونحن في الظلام ننظرهم ونتفرج عليهم. وهم لا ينظروننا.

فأخذ الشيخ العشرة دنانير وأطلق الشختور في مساواتهم وصار في ظلام الحراقة، ولم يزالوا سائرين في أثرهم إلى آخر البساتين، وإذا بزريبة بطول الحراقة التصقت عليها، وإذا بغلامين واقفين، ومعهما بغلة مسرجة ملجمة، فطلع الخليفة الثاني وركب البغلة وسار بين الندماء، وزعقت المشاعلية والجاويشية، واشتالت الغاشية، وطلع هارون الرشيد وجعفر ومسرور إلى البر وشقوا بين المماليك وساروا قدامهم، فلاحت من المشاعلية لتفاتة فرأوا ثلاثة أنفار لبسهم لبس التجار، وهم غرباً فأنكروهم غمزوا عليهم فمسكوهم وأحضروهم بين يدي الخليفة الثاني، فلما نظرهم قال: كيف وصلتم إلى هذا المكان وما الذي جاء بكم في مثل هذا الوقت؟ قالوا: يا مولانا! اليوم كان قدومنا، ونحن قوم غرباء تجار، وخرجنا نتمشى الليلة، وإذا بكم قد أقبلتم وجاء هؤلاء وقبضوا علينا وأوقفونا بين أيديكم، وهذا خبرنا.

فقال لهم الخليفة الثاني: طيبوا قلوبكم، فلا بأس عليكم لأنكم قوم غرباء، ولو كنتم من بغداد لضربت أعناقكم للمخالفة.

ثم التفت إلى وزيره وقال: خذ هؤلاء صحبتك ليكونوا ضيوفنا الليلة.

فقال: سمعاً وطاعة.

ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى قصر عظيم الشأن محكم البنيان ما حواه سلطان، قصر قام من التراب وتعلق بأكتاف السحاب، بابه من خشب الساج، مرصع بالذهب الوهاج، يدخل منه إلى إيوان بفسقية وشاذروان، وحصر عبدانية ومخدات إسكندرانية، وستر مسبول وفرش يذهل العقول، وعلى عتبة الباب مكتوب هذان البيتان:

قصر عليه تحية وسلام ::: نشرت عليه جمالها الأيام
فيه العجائب والغرائب نوعت ::: فتحيرت في نعتها الأقلام

قال: فدخل الخليفة الثاني إلى القصر، والجماعة في خدمته، إلى أن جلس على كرسي من الذهب مرصع بالدر والجوهر، وعلى الكرسي بشخانة من الحرير الأخضر لا يرى مثلها إلا عند كسرى وقيصر، مزركشة بالذهب الأحمر، معلقة في بكرة من الصندل، رباطاتها من الحرير الأصفر، هذا وقد جلس الندماء في مراتبهم، وصاحب سيف النقمة واقف بين يديه، فمدوا السماط وأكلوا ورفعوا الخوان، ولأيديهم غسلوا، وأحضرت آلة المدام، ووضعت الطاسات والأواني وصففت الأباريق والكاسات والقناني، ودار الدور إلى أن وصل إلى الخليفة هارون الرشيد، فامتنع من الشراب فقال الخليفة الثاني لجعفر: ما بال صاحبك لا يشرب.

فقال: يا مولاي له مدة ما شرب.

فقال الشاب: عندي مشروب غير هذا يصلح لصاحبك. علي بشراب التفاح! ففي الحال أحضر فقدم بين يدي هارون الرشيد وقال: كلما وصل إليك الدور فاشرب من هذا، ولا يزالون يشربون في انشراح وتعاطي أقداح إلى أن تمكن الشراب من رؤوسهم واستولى على عقولهم ونفوسهم فقال الرشيد لوزيره: والله يا وزير ما عندنا آنية مثل هذه الآنية، فيا ليت شعري من يكون هذا الشاب.

فبينما هما يتحدثان بلطافة إذ لاحت من الشاب التفاتة فوجد الوزير

يسار الخليفة، فقال: المسارة عربدة.

فقال الوزير: ما ثم عربدة، إلا أن رفيقي هذا يقول: سافرت غالب البلاد، ونادمت الملوك وعاشرت الأجناد ما رأيت أحسن من هذا النظام ولا مثل آنية هذا المدام، إلا أن أهل بغداد يقولون: الشراب بلا سماع من جملة المجون.

فلما سمع الخليفة الثاني هذا الكلام تبسم وانشرح، وكان بيده قضيب، فضرب به على مدورة، وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم يحمل كرسيًّا من العاج مصفحاً بالذهب الوهاج، وخلفه جارية قد كملت بالحسن والجمال والبهاء والكمال، فنصب الخادم الكرسي وجلست عليه الجارية وهي كالشمس الضاحية، وبيدها عود من صنعة الهنود، وشدته وحنت إليه بعد أن ضربت أربعة وعشرين طريقة عليه، فأذهلت العقول وعادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول:

لسان الهوى من مقلتي لـك نـاطق ::: يخـبر عـني أنـني لـك عاشـق
ولي شاهد من طرف قلـبي معـذب ::: وقلبي جريح مـن فراقـك خـافق
وكم أكتم الحب الذي قـد أذابـني ::: وقلـبي جـريح والـدمع سـوابق
وما كنت أدري قبل حبك ما الهوى ::: ولكن قضا الرحمن في الخلق سـابق

قال: فلما سمع الخليفة الثاني هذا الشعر من الجارية صرخ صرخة عظيمة، وشق البذلة التي كانت عليه إلى الذيل، فأسبلت عليه البشخانة، وأتي ببذلة غيرها أحسن منها، فلبسها وجلس على عادته، فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدورة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم حامل كرسيًّا من الذهب، وخلفه جارية أحسن من الأولى، وجلست على الكرسي وبيدها عود يكمد الحسود، وأنشدت تقول:

كيف اصطباري! ونار العشق في كبدي ::: والدمع من مقلـتي صـوفانه مـدد
والله ما طاب لي عـيش أسـر بـه ::: وكيف يفرح قلب حـشوه كمـد

قال: فصرخ الشاب صرخة عظيمة، وشق ما عليه إلى الذيل وأسبلت عليه البشخانة على العادة وأتي ببذلة غيرها أحسن منها فلبسها، واستوى جالساً، ودار المدام وانبسط الكلام، فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب

على المدور ففتح الباب وخرج منه خادم على العادة ومعه كرسي وخلفه جارية، فجلست على الكرسي، ومعها عود يذهل الأسود فغنت، وأنشدت تقول:

أقصروا هجركم وقولا جفاكم ::: ففؤادي وحقكم ما سلاكم
وارحموا مدنفاً كئيباً حزيناً ::: ذا غرام متيماً في هواكم
قد براه السقام من عظم وجد ::: يتمنى من الإله رضاكم
يا بدور محكم في فؤادي ::: كيف أختار في الأنام سواكم

قال: فصرخ الشاب وشق ما عليه من الثياب فأرخوا عليه البشخانة وأتوا ببذلة غيرها، وعاد إلى حالته مع ندمائه ودارت الأقداح وطاب الانشراح، فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدورة، ففتح باب وخرج منه خادم حامل كرسياً وخلفه جارية فجلست على الكرسي، وأخذت العود وغنت تقول:

هل ينقضي حال التهاجر والقلى ::: ويعود لي ما قد تقضى أولا
أيام كنا والديار تلمنا ::: في طيب عيش والحواسد غفلا
غدر الزمان بنا وفرق شملنا ::: من بعد هاتيك المنازل والحلا
أتروم مني يا عذولي سلوةً ::: وأرى فؤادي لا يطيع العذلا
فدع الملام وخلني بصبابتي ::: فالقلب من أنس المحبة ما خلا
يا سادة نقضوا العهود وبدلوا ::: لا تحسبوا قلبي لبعدكم سلا

قال: فلما فرغت الجارية صرخ الشاب صرخةً عظيمة، وشق ما عليه من الثياب، ووقع إلى الأرض مغشيًّا عليه، وسقط منه القوى والحبل، فأرادوا أن يرخوا عليه البشخانة على العادة، فتعوقت حبالها بالإرادة، فلاحت من هارون الرشيد التفاتة فنظر على أجناب الشاب أثر مقارع، فقال الرشيد بعد النظر والتأكد لجعفر: إنه شاب مليح إلا أنه لص قبيح، وما عند أحد منه خبر. هل رأيت ما على جنبيه من الأثر.

وقد أسبلت البشخانة عليه على العادة وأتي ببذلة غيرها فلبسها وقد أفاق من غشيته فاستوى جالساً على العادة مع الندماء، فحانت منه التفاتة فوجد جعفراً والخليفة يتحدثان، فقال لهما: ما الخبر يا فتيان؟ فقال جعفر:

يا مولاي خير، لا شك ولا خفاء، إن رفيقي هذا من التجار الكبار، وسافر إلى جميع الأمصار، وصحب الملوك والأخبار، قال: إن الذي حصل من مولانا الخليفة في هذه الليلة إسراف عظيم لم أر أحداً فعل هذا الفعل في هذه الأقاليم لأنه شق كل بذلة بخمسمائة دينار، وهذا شيء زائد في العيار.

فقال الشاب: يا هذا! المال مالي والقماش قماشي، وهذا من بعض إنعامي على الخدم والحواشي، فإن كل بذلة شققتها هي لواحد من الندماء الحضار، وقد رسمت لهم أن العوض على كل بذلة خمسمائة دينا.

فأنشد عند ذلك الوزير جعفر وقال:

بنت المكارم وسط كفك منزلاً ::: فجميع مالك للأنام مباح

وإذا المكارم أغلقت أبوابها ::: يوماً، فأنت لقفلها مفتاح

قال: فلما سمع الشاب من الوزير جعفر ذلك، رسم له بألف دينار وبذلة، ثم دارت بينهم الأقداح وطاب لهم شراب الراح، فقال الرشيد: يا جعفر، اسأله عن الضرب الذي رأيناه على جنبيه حتى ننظر ما يقول في جوابه.

فقال الوزير: يا مولاي لا تعجل وترفق بنفسك فالصبر أجمل.

فقال: وحياة رأسي وتربة العباس إن لم تسأله أخمدت منك الأنفاس.

فعند ذلك التفت الشاب إلى الوزير وقال: مالك مع رفيقك وما الخبر؟
فقال: خير يا مولانا.

فقال: سألتك بالله إلا ما أخبرتني بخبره، ولا تكتم عني شيئاً من أمره.

فقال: يا مولاي! إنه أبصر على جنبيك أثر سياط، فتعجب من ذلك غاية العجب وقال: يا لله العجب! الخليفة يضرب؟ وقصده يعلم ما السبب؟ فلما سمع الشاب هذا الكلام تبسم وقال: اللهم فنعم، واعلموا أن حديثي عجيبٌ وأمري غريبٌ لو كتب بالإبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر، ثم تأوه وأن واشتكى وبكى وأنشد:

حديثي عجيب فاق كل العجائب ::: وحق إله غامر بالمواهب

فإن شئتمو أن تسمعوا إلي فأنصتوا ::: فيطرب هذا الجمع من كل جانب

وأصغوا إلى قــولي، ففيــه إشــارة ::: وإن كلامي صــادق غــير كــاذب
لأني قتيــل مــن غــرام ولوعــة ::: وقاتلتي فاقــت جميــع الكواعــب
لهــا مقلــة كحــلا وخــد مــورد ::: ويقــتلني منــها قــسيُّ الحواجــب
وقد حس قلــبي أن فــيكم إمامنــا ::: خليفة هذا الوقت ابــن الأطايــب
وثانيكمو يــدعى الــوزير بجعفــر ::: وفي الحق يدعى صاحباً وابن صاحب
وثالثكم مــسرور ســيفاف نقمــة ::: فإن كان هذا القول حقــاً بــصائب
فقد نلت ما أرجو على كــل حالــةٍ ::: وجاء سرور القلب من كل جانــب

قال: فعند ذلك حلف له جعفر أنهم لم يكونوا المذكورين، فضحك الشاب وقال: الذي أعرفكم به أني ما أنا أمير المؤمنين، وإنما سميت نفسي بهذا الاسم لأبلغ ما أريد من أبناء المدينة، واسمي علي بن محمد الجوهري، وإن أبي كان من الأعيان، ومات وخلف لي أموالاً لا تأكلها النيران من ذهب وفضة ولؤلؤ ومرجان وياقوت وجوهر وزمرد وبهرمان وحمامات وغيطان وبساتين وفنادق وطواحين وعبيد وجوار وغلمان، فلما كان في بعض الأيام وأنا جالس في حانوتي وحولي الحشم والخمد، وإذا أنا بجارية قد أقبلت على بغلة وفي خدمتها ثلاث جوار كأنهن الأقمار، ونزلت على دكاني وجلست وقالت: أنت علي بن محمد الجوهري.

فقلت لها: مملوكك وعبد رقك.

فقالت: هل عندك عقد جوهر يصلح لمثلي؟ فقلت: يا ستي الذي عندي يحضر بين يديك، فإن أعجبك شيء كان بسعد المملوك، وإن لم يعجبك شيء منه فبسوء حظي.

وكان عندي مائة عقد جوهر فعرضت عليها الجميع فلم يعجبها شيء منها، وقالت: أريد أحسن مما رأيت؛ وكان عندي عقد صغير شراؤه على والدي بمائة ألف دينار لم يوجد مثله عند أحد السلاطين الكبار، فقلت: يا سيدتي بقي عندي عقد الفصوص والجواهر الذي لم يملكه أحد من الأصاغر والأكابر.

فقالت: أرني إياه.

فلما رأته قالت: هذا الذي طول عمري أتمناه. ثم قالت: بكم ثمنه في الأسعار؟ فقلت: شراؤه على والدي بمائة ألف دينار.

فقالت: ولك خمسة آلاف زائدة.

فقلت لها: يا سيدتي العقد وصاحبه في الرق بين يديك، ولا خلاف.

فقالت: لا بد من الفائدة ولك الجميلة الزائدة.

وقامت من وقتها عجلة وركبت البغلة بسرعة، وقالت: يا سيدي نور الدين، باسم الله فلتكن في صحبتنا لتأخذ الثمن، فإن نهارك اليوم بنا مثل اللبن.

فقمت وأقفلت الدكان وسرت معهن في أمان إلى أن وصلنا إلى الدار، فوجدتها داراً عليها السعادة لائحة والافتخار وعلى بابها مكتوب بالذهب واللازورد العجيب هذه الأبيات:

ألا يا دار لا يدخلك حزنٌ ::: ولا يغدر بصاحبك الزمان

فنعم الدار أنت لك ضيفٍ ::: إذا ما ضاق بالضيف المكان

فنزلت الجارية، ودخلت الدار وأمرت بجلوسي إلى أن يأتي الصيرفي، فجلست على باب الدار ساعة لطيفة، وإذا بجارية خرجت إلي وقالت: يا سيدي ادخل إلى الدهليز فإن جلوسك على الباب قبيح.

فقمت إلى الدهليز وجلست على الدكة ساعة، وإذا بجارية خرجت إلي، وقالت: يا سيدي! تقول لك سيدتي ادخل واجلس على جانب الإيوان حتى تقبض مالك.

فقمت فدخلت وجلست حيث أمرتني، وإذا بكرسي من الذهب وعليه ستارة من الحرير الأحمر، وإذا بتلك الستارة قد رفعت فبان من تحتها تلك الجارية التي اشترت مني العقد، وقد أسفرت عن وجه كأنه دائرة القمر، والعقد في عنقها فدهش عقلي وحار ذهني ولبي من رؤية تلك الجارية وحسنها، فلما رأتني قامت من على الكرسي، وسعت نحوي، وقالت: يا نور الدين! هل رأيت جميلة مثلي؟ فقلت: يا سيدتي الحسن كله فيك، وهو من بعض معانيك.

فقالت: يا علي، اعلم أني أحبك وما صدقت أنك صرت عندي.

ثم إنها طوقتني وعانقتني، فقبلتها وقبلتني ثم جذبتني وعلى صدرها رمتني. فلما علمت مني أني أريد أن أهم بها قالت: يا علي، أتريد أن تجتمع بي في الحرام، والله لا كان من يفعل الآثام ويرضى بقبيح الكلام، فإني بكر عذراء ما دنا مني أحد، ولست مجهولةً في البلد، أتعلم من أنا؟ فقلت: لا والله، وحلفت لها يميناً.

فقالت: أنا الست دنيا بنت يحيى بن خالد البرمكي، وأخي جعفر.

فلما سمعت منها ذلك جمعت خاطري عنها، وقلت: يا سيدتي ما لي ذنب في التهجم عليك، أنت التي أطمعتني في إحسانك والوصول إلى جنابك.

فقالت: لا بأس عليك ولا بد من الإحسان إليك فإن أمري بيدي، والقاضي ولي عقدي، والقصد أن أكون لك وتكون لي.

ثم إنها دعت بالقاضي والشهود وبذلت المجهود، فلما حضروا قالت لهم: هذا نور الدين علي بن الجوهري قد طلب زواجي ودفع لي هذا العقد مهري، وأنا قد قبلت ورضيت.

ثم إن القاضي حمد الله تعالى وأثنى عليه وكتب الكتاب فدخلت عليها بعد أن أعطت للقاضي شيئاً ما له حساب، وأحضرت المدام وأحضرت الأقداح بأحسن نظام، فلما لعبت الخمرة في رؤوسنا أمرت جارية عوديةً أن تغني فأنشأت تقول:

قلبي وآمالي بباب رجاكمو ::: لا أبتغي في الكون غير رضاكمو
يا جيرة جاروا علي ببعدهم ::: حنوا علينا وارحموا مضناكمو
حاشاكمو، يا سادتي، أن تهجروا ::: صبًّا معنى مغرماً بهواكمو
بالله جودوا وارحموا لمتيم ::: لم يستمع فيكم حديث سواكمو
مرسى فؤادي فوق بحر رضاكمو ::: فإذا شجاه حسنكم ناجاكمو

قال: فأطربتنا الجارية بحسن غنائها ولم تزل الجواري يغنين جارية بعد جارية وينشدن الأشعار إلى أن غنت عشر جوارٍ، فعند ذلك أخذت العود الست دنيا وأنشدت تقول:

قسماً بلين قوامك المياس ::: إني لنار الهجر منك أقاسي

فـارحم لـصب في هـواك متـيم ::: يـا بـدر تم أنـت سـيد النـاس
أنعم بوصلك كـي أبيـت بليلـة ::: أجلو جمالـك في ضـياء الكـاس
مـا بـين ورد جمعـت ألوانـه ::: مع نـرجس أيـضاً وحـسن الآس

قـال الشاب: ثم إنـي أخذت منها العود وضربت عليه وغنيت هذه الأبيات:

سبحان ربي جميع الحـسن أعطـاكِ ::: حتى بقيت أنا من بعـض أسـراك
يا من لها ناظر تـسبي الأنـام بـه ::: خذي الأمان لنا من سـحر عينـاك
فالماء والنار في خـديك قـد جمعـا ::: والورد جوري نبت وسـط خـداك
أنت الغـرام لقلـبي والنعـيم لـه ::: فمـا أمـرك في قلـبي وأحـلاك

قال: فلما سمعت مني ما قلت فرحت فرحاً شديداً، ثم إنها صرفت الجواري وقمنا إلى أحسن مكان قد فرش لنا فيه من سائر الألوان، ونزعت ما عليها من الثياب وخلوت بها خلوة الأحباب، فوجدتها بنتاً بكراً بختم ربها، ففرحت بي وفرحت بها فرحاً لم أجد في عمري ليلة أطيب منها، وفيها أنشدت أقول:

يا ليـل! دم لي لا أريـد صـباحاً ::: يكفـي بوجـه معـانقي مـصباحا
طوقته طـوق الحمـام بـساعدي ::: وجعلـت كفـي للمنـام مباحـا
هذا هـو الفـوز العظـيم فخلنـا ::: متعـانقين، فـلا نريـد براحـا

فأقمت عندها شهراً كاملاً، وقد نسيتُ الدكان والأهل والأوطان إلى ذات يوم من الأيام قالت: يا نور الدين قد عزمت اليوم على المسير إلى الحمام، وأنت اقعد على هذا السرير إلى أن أرجع إليك.

فقلت: سمعاً وطاعةً.

وحلفتني ألا أنتقل من موضعي، فأخذت جواريها وذهبت إلى الحمام، فوالله يا إخواني ما لحقت أن تخرج من رأس الزقاق، إلا والباب قد فتح ودخلت منه عجوز وأي عجوز، وقالت: يا نور الدين الست زبيدة تدعوك، فقد سمعت بشبابك وطيب غنائك.

فقلت: والله علي يمين أنني ما أقوم من مقامي حتى تأتي الست دنيا.

فقالت العجوز: يا نور الدين لا تخل الست زبيدة تصير عدوتك، فقم

كلمها وارجع.

فقمت من وقتي إليها والعجوز أمامي إلى أن أوصلتني إلى الست زبيدة، فلما وصلت إليها، قالت: يا نور الدين أنت معشوق الست دنيا؟ فقلت: مملوكك وعبد رقك.

فقالت: صدق الذي وصفك بالحسن والجمال، فإنك فوق الوصف والمقال، ولكن غنِّ لي شيئاً حتى أسمعك؟ فقلت: السمع والطاعة، فأتتني بعود فغنيت عليه وأنشدت أقول:

قلب المحب مع الأحباب متعوب ::: وجسمه بيد الأسقام منهوب
ما في الركائب من زمت حمولهم ::: إلا وكان له في الظعن محبوب
أستودع الله لي في حبكم قمراً ::: يهواه قلبي وعن عيني محجوب
يرضى ويغضب، ما أحلى تدلله ::: وكل ما يفعل المحبوب محبوب

فقالت لي: حفظ الله بدنك وطيب أنفاسك، فلقد كملت في الحسن والظرف والمعنى، فقم إلى مكانك قبل أن تجيء إليه الست دنيا فلا تجدك فتغضب عليك.

فقبلت الأرض وخرجت العجوز أمامي إلى أن أوصلتني إلى الباب الذي خرجت منه، فدخلت وجئت إلى السرير لأجلس فوجدتها جاءت من الحمام ونامت على السرير، فقعدت عند رجليها وصرت أكبسها، ففتحت عينيها فرأتني فجمعت رجليها ورفستني فرمتني من على السرير وقالت: يا نور الدين! خنت اليمين وكذبت. وذهبت إلى الست زبيدة؟ ووالله لولا خوفي من الهتيكة والفضيحة لخربت قصرها على رأسها. ثم قالت لعبدها: يا صواب، قم اضرب رقبة هذا النذل الكذاب، فلا حاجة لنا به.

فتقدم ذلك الخادم إلي وشرط ذيلي وعصب عيني، وأراد أن يضرب رقبتي فقامت إليها الجواري الكبار والصغار، وقلن لها: يا ستاه، ما هو بأول من أخطأ ما عرف خلقك، وأنت ما تبغضينه، وما فعل ذنباً يوجب أن تقتليه.

فقالت: والله لا بد أن أؤثر فيه أثراً. ثم أمرت بضربي فضربت على أضلاعي الضرب الذي رأيتموه، وأمرت بإخراجي. فأخرجوني

وأبعدوني عن القصر، ورموني ورجعوا وتركوني، فلمت نفسي: فمشيت قليلاً قليلاً إلى أن وصلت إلى منزلي، وأحضرت جراحاً وأريته الضرب فلاطفني وسعى في مصالحي. فلما صح جسمي دخلت الحمام وزالت عني الأوجاع والأسقام. وجئت إلى الدكان وأخذت جميع ما فيه وبعته وجمعت ثمنه واشتريت أربعمائة مملوك ما جمعهم أحد من الملوك يركب معي في كل يوم مائتان، وعملت هذا المركب الحراقة بألف ومائتين من الذهب العين، وسميت نفسي بالخليفة، ورتبت من معي من الخدام كل واحد في وظيفة وناديت: كل من تفرج في الدجلة ضربت عنقه بلا مهلة. ولي على هذه الحالة سنة كاملة ولم أسمع لها بخبر ولا وقفت لها على أثر، ثم إنه بكى وأن واشتكى وأنشد يقول:

والله ما كنت طول الدهر ناسيها ::: ولا دنوت إلى من ليس يدنيها
كأنها البدر في تكوين خلقتها ::: سبحان خالقها سبحان باريها
صدت ولا ذنب لي إلا محبتها ::: فكيف حال الذي قد بات نابيها
وصيرتني حزيناً ساهياً دنفاً ::: والقلب قد حار مني في معانيها

قال: فلما سمع هارون الرشيد كلام الشاب وما أبداه من الخطاب تعجب غاية العجب. وقال: سبحان من جعل لكل شيء سبباً.

ثم إنهم طلبوا من الشاب الانصراف وأضمر الرشيد للشاب الإنصاف وأن يتحفه غاية الإتحاف، فانصرفوا من عنده سائرين وإلى قصر الخلافة طالبين، ولما استقر بهم في منزلهم الجلوس غيروا ما كان عليهم من الملبوس ولبسوا أثواب الموكب والملك والزينة، وكذلك مسرور سياف النقمة والعطب، فقال الخليفة لجعفر المهيب: يا وزير! علي بالشاب.

فخرج إليه في الحشم والخدم وسار إلى منزل الشاب فخرج إليه وسلم عليه فقال له الوزير جعفر: أجب أمير المؤمنين.

فقال: سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين وحامي حوزة الدين.

فسار معه إلى القصر وهو من الترسيم عليه في حصر، فلما دخل إلى الخليفة ورفع الوزير الستر عن السدة الشريفة ورأى الشاب الخليفة عرفه، فقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العز وأثنى عليه وقال:

السلام عليك يا أمير المؤمنين وحامي حوزة الدين وقامع المفسدين وإمام المتقين هناك الله بما أعطاك وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لأعدائك وأنشد يقول:

لا زال بابك كعبة مقصودةً ::: وترابها فوق الجباه رسوم
حتى ينادى في البلاد بأسرها ::: هذا المقام وأنت إبراهيم

فعند ذلك تبسم الخليفة في وجهه، ورد عليه السلام وأظهر له الإحسان والإكرام وقربه إليه، وأجلسه بين يديه وقال له: يا نور الدين أريد أن تحدثني بحديثك الليلة يا مسكين، فإنه من أعجب الأمور.

فقال الشاب: العفو يا أمير المؤمنين، أعطني منديل الأمان ليهدأ روعي ويطمئن قلبي.

فقال الخليفة: لك الأمان.

فشرع الشاب يتحدث بالذي جرى له من أوله إلى آخره، فعلم الخليفة من غير إطالة أن الصبي عاشق لا محالة، فقال الخليفة: أتحب أن أردها إليك يا مسكين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ثم أنشد يقول:

إن رمت إحساناً فهذا وقته ::: أو رمت معروفاً فهذا حينه

فعند ذلك التفت الرشيد إلى الوزير وقال له: أحضر أختك الست دنيا بنت الوزير يحيى.

فقال له: السمع والطاعة.

فأحضرها في الوقت فلما مثلت بين يديه قال لها: أتعرفين هذا من؟ فقالت: أين للنساء معرفة بالرجال؟

فتبسم وقال: يا دنيا قد عرفنا الحال وسمعنا الحكاية من أولها إلى آخرها وفهمنا باطنها وظاهرها، والأمر لا يخفى وإن كان مستوراً.

فقالت: كان ذلك في الكتاب مسطوراً، وأنا أستغفر الله مما جرى مني، وأسأل من فيض الفضل العفو عني.

فضحك الخليفة وأحضر القاضي والشهود وعقد له ثانياً عليها. وحصل له سعد السعود، وأكمد العدو والحسود وجعله نديمه وزاد

تكريمه، وعاش بقية عمره في أهنإ عيش ونعمةٍ، يجالس الخليفة في الليل والنهار، تؤانسه الست دنيا ذات الفخار[١].

الرشيد وجارية جعفر:

ويحكى أن جعفراً البرمكي نادم الرشيد ليلة، فقال: يا جعفر بلغني أنك اشتريت الجارية الفلانية، ولي مدة أطلبها، فإنها بديعة الجمال، ولي شوق زائد إليها فبعنيها.

قال: ليس علي فيها بيع.

قال: هبنيها.

قال: ولا أهبها.

فقال الرشيد: زبيدة طالق مني ثلاثاً إن لم تبعنيها أو تهبنيها.

وقال جعفر: زوجتي طالق مني ثلاثاً إن بعتها أو وهبتها.

ثم أفاقا من نشوتهما وعلما أنهما وقعا في أمر عظيم وعجزا عن تدبير الحيلة فقال الرشيد: هذه واقعة ليس لها غير أبي يوسف، فاطلبوه، فكان قد انتصف الليل. فلما طلب قام فزعاً وقال: ما طلبت في هذا الوقت إلا لأمر حدث في الإسلام.

ثم خرج مسرعاً وركب بغلته وقال لغلامه: اصحب معك المخلاة، واجعل فيها بعض شعير، فإذا دخلنا دار الخلافة ودخلت فضع بين يدي الدابة شيئاً منه تشتغل به إلى حين خروجي، فإنها لم تستوف علفها في هذه الليلة.

فقال: سمعاً وطاعةً.

فلما دخل على الرشيد قام له وأجلسه على سريره بجانبه وكان لا يجلس معه غيره، وقال له: ما طلبناك إلا لأمر مهم، وهو كذا وكذا، وقد عجزنا عن تدبير الحيلة.

فقال: يا أمير المؤمنين، هذا من أسهل ما يكون. يا جعفر! بع أمير المؤمنين نصفها وهبه نصفها تبرآ من يمينكما.

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٥٧ - ٦٣.

فسر بذلك أمير المؤمنين وفعلا، فقال الرشيد: أحضر الجارية في هذا الوقت فإني شديد الشوق إليها.

فأحضرت، فقال للقاضي أبي يوسف: أريد وطأها في هذا الوقت، ولا أطيق الصبر إلى مضي مدة الاستبراء، انظر لي الحيلة في ذلك؟ فقال أبو يوسف: ائتوني بمملوك من مماليك أمير المؤمنين الذين لم يجر عليهم العتق.

فأحضر مملوك، فقال أبو يوسف: يا أمير المؤمنين، ائذن لي أن أزوجها منه، ثم يطلقها قبل الدخول فيحل وطؤها في الحال من غير استبراء.

فأعجب الرشيد ذلك أكثر من الأول، فقال: أذنت لك.

فأوجب القاضي النكاح، ثم قبله المملوك، فقال له القاضي طلقها.

فقال له: هذه صارت لي زوجة وأنا لا أطلقها.

فردد عليه القول فأبى وضاق صدر الخليفة لذلك، وقال: قد اشتد الأمر أعظم مما كان.

فقال القاضي أبو يوسف: يا أمير المؤمنين رغبه بالمال.

فقال: طلقها ولك مائة دينار.

قال: لا أفعل.

قال: مائتا دينار.

قال: لا أفعل.

إلى أن عرضوا عليه ألف دينار وهو يمتنع، وقال القاضي: الطلاق بيدي أم بيد أمير المؤمنين أم بيدك؟ قال: بل بيدك أنت.

قال: والله لا أفعل أبداً.

فاشتد غضب أمير المؤمنين، فقال القاضي: يا أمير المؤمنين لا تجزع فإن الأمر هين أعتق الجارية، ثم ملك هذا العبد للجارية؟ قال: أعتقتها وملكته لها.

فقال لها القاضي: قولي: قبلت؟ فقالت: قبلت.

فقال القاضي: حكمت بالتفريق بينكما لأنه دخل في ملكها فانفسخ النكاح.

فقام أمير المؤمنين على قدميه، وقال: مثلك من يكون قاضياً في زماني. واستدعى بأطباق الذهب فأفرغت بين يديه، وقال للقاضي: هل معك شيء توعيه؟ فتذكر مخلاة البغلة. فاستدعى بها، فملئت له ذهباً، فأخذها وانصرف. فلما أصبح قال لخلانه: انظروا إلى من علم العلم فليتعلمه كذلك، فإني أعطيت هذا المال العظيم في مسألتين أو ثلاث.

فانظر أيها المتأدب إلى لطف هذه الواقعة فإنها اشتملت على محاسن منها إدلال الوزير على قلب أمير المؤمنين وحلم الخليفة، وزيادة علم القاضي فرحم الله أرواحهم أجمعين.

ولكن مسألة الاستبراء لم تتخرج إلا على مذهب أبي حنيفة فخرجها أبو يوسف على قواعد مذهبه لأنه حنفي المذهب. والله أعلم[١].

الست بدور والأمير عمرو:

يحكى أن الرشيد أرق ذات ليلة أرقاً شديداً، فاستدعى جعفراً وقال: أريد منك أن تزيل ما بقلبي من الضجر.

فقال الوزير: يا أمير المؤمنين، كيف يكون على قلبك ضجر، وقد خلق الله أشياء كثيرة، تزيل الهم عن المهموم، والغم عن المغموم، وأنت قادر عليها؟ فقال الرشيد: وما هي يا جعفر؟ فقال له: قم بنا الآن، حتى نطلع فوق سطح هذا القصر ونتفرج على النجوم واشتباكها وارتفاعها والقمر وحسن طلعته كأنه وجه من تحب كما قيل:

فكأنما حسن السماء ولونها ::: قد رقمت فيها أفانين الصور

كأن هذا البدر حين بدا لنا ::: في بعض ليل من غلاف قد ظهر

فقال الرشيد: يا جعفر، ما تلفتت نفسي إلى شيء من ذلك، فقال: يا أمير المؤمنين، افتح شباك القصر الذي يطلع على البستان وتفرج على

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٦٣.

حسن تلك الأشجار واسمع صوت تغريد الأطيار وانظر إلى هدير الأنهار وشم روائح تلك الأزهار واسمع الناعورة التي كأنها أنين محب فارق محبوبه، وهي كما قال فيها بعض واصفيها:

وناعورة حنت وغنت وقد غدت ::: تعبر عن حال المشوق وتعرب
وترقص عطف البان تيهاً لأنها ::: تغني له طول الزمان ويشرب

وإما أن تنام يا أمير المؤمنين، إلى أن يدركنا الصباح.

فقال: يا جعفر، ما تلفتت نفسي إلى شيء من ذلك.

فقال: يا أمير المؤمنين، افتح الشباك الذي يطلع على الدجلة حتى تتفرج على تلك المراكب والملاحين، فهذا يصفق، وهذا ينشد موالياً، وهذا يقول دوبيت، وهذا يقول كيت وكيت.

فقال الرشيد: ما تلفتت نفسي إلى شيء من ذلك.

فقال جعفر: قم يا أمير المؤمنين، حتى ننزل إلى الإصطبل الخاص وننظر إلى الخيل العربيات وتتفرج على حسن ألوانها، ما بين أدهم كالليل إذا أظلم، وأشقر، وأشهب، وكميت أحمر، وأبيض، وأخضر، وأبلق، وأصفر، وألوان تحير العقول.

فقال الرشيد: ما تلفتت نفسي إلى شي من ذلك.

فقال جعفر: يا أمير المؤمنين، عندك في قصرك ثلاثمائة جارية، ما بين جنكية، إلى عودية، إلى دفية، إلى قانونية، إلى زامرة، إلى مغنية، إلى راقصة، إلى سنطيرية، أحضر الجميع، وأحضر العقار المروق، فعل أن يزول ما بقلبك من الضجر.

فقال: ما تهم نفسي إلى شيء من ذلك.

فقال جعفر: يا أمير المؤمنين ما بقي إلا ضرب عنق مملوكك جعفر، فإني قد عجزت عن إزالة هم مولانا.

فقال: يا جعفر، أما سمعت قول ابن عمي رسول الله ؟ فقال: من فم مولانا أسمع.

فقال الرشيد: قال رسول الله : **﴿فرح أمتي في ثلاث: أن يرى بعينه شيئاً ما**

رآه، **أو يسمع شيئاً ما سمعه، أو يطأ مكاناً ما وطئه﴾**، فيتفق يا جعفر أن يكون في بغداد مكان ما وطئناه، أو شيء ما سمعناه، أو موضع ما رأيناه.

فقال جعفر: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أطلع إلى مجلس النوبة وأنظر أحداً من المسافرين أحضره بين يدي أمير المؤمنين، لعله أن يحدثك بحديث ما سمعته؟ فقال الرشيد: قم وافعل.

فقام جعفر وطلع وعاد بسرعة بالشيخ أبي الحسن الخليع الدمشقي المسامر. قال: فلما رأى أمير المؤمنين سلم فأحسن وترجم فأبلغ، ثم قال: يا أمير المؤمنين وحامي حوزة الدين وابن عم سيد المرسلين وخاتم النبي وعلى آله وصحبه أجمعين، أطال الله بقاك وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لأعداك لا خمدت لك نار ولا أغيظ لك جار، ثم أنشد يقول:

دام لك العز والبقاء ::: ما اختلف الصبح والمساء
ودمت ما دامت الليالي ::: بمدة ما لها انقضاء
الناس ناس بكل أرض ::: وأنت من فوقهم سماء

قال: فرد الشيخ السلام وقال له: اجلس يا أبا الحسن، وحدثنا بحديث عجيب مليح لم نسمعه قط؟ فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، أحدثك بشيء سمعته بأذني أو بشيء رأيته بعيني؟ قال الرشيد: يا شيخ أبا الحسن الذي تراه العين أحسن من الذي تسمعه الأذن.

فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين، أفرغ لي عن ثلاثة أشياء منك؟ فقال: ما الثلاثة؟ فقال: ذهنك وسمعك وقلبك.

فقال الرشيد: هات يا أبا الحسن.

فقال: يا أمير المؤمنين لي عادة أني أسافر في كل سنة إلى البصرة للأمير محمد بن سليمان الزينبي، وأقعد عنده أحدثه الأسمار، وأورد له الأخبار، وأنشد له الأشعار، ولي عليه رسم ألف دينار آخذها وأعود إلى بغداد. فاتفق لي من سنة من السنين أني سافرت إلى البصرة على عادتي ودخلت على الأمير محمد بن سليمان وجلست عنده اليوم الأول والثاني والثالث، فركب إلى الصيد وتركني في منزله وأوصى أرباب دولته بخدمتي وإكرامي إلى أن يعود، وأوصى الطباخ الذي له أن لا يطعمني

إلا شيئاً تشتهيه نفسي، فاشتهيت السمك فقلت للطباخ: فعمل لي من السمك عدة ألوان فأكلت وطاب لي الأكل حتى ثقل على فؤادي، فقلت: ما يصرف عني هذا إلا المشي، ولي عدة أسفار إلى البصرة ما أعرف فيها مكاناً، وأريد اليوم أن أجعلها حجة وفرجة. ثم إني نزلت أتمشى في شوارع البصرة فعطشت عطشاً شديداً وناهيك بعطش السمك، فقلت في نفسي: إن تناولت شربة من السقاء لا تطيب نفسي لأنه يشرب منه أصحاب الأمراض، وكبر على نفسي أن أحملها إلى شاطئ الدجلة، وقلت: ما لي إلا أن أقصد بعض دور المحتشمين وأطلب منها شربة من ماء، فأتيت إلى درب وفي ذلك الدرب خمسة دور داران مقابلتان لدارين ودار صدرانية قد قامت من التراب وتعلقت بأذيال السحاب، ولها باب مقنطر مزخرف بمصاطب طولانية، مفروش عليها حصر عبدانية، والباب ساج مصفح بصفائح الذهب الوهاج ومسامير الفضة وستر من الحرير الأصفر المدثر مكتوب عليه هذه الأبيات:

ألا يـــا دارُ لا يـــدخلك حـــزنٌ ::: ولا يغـــدر بـــصاحبك الزمـــان
فنعم الـــدار أنـــت لكـــل ضـــيفٍ ::: إذا مـــا ضـــاق بالـــضيف المكـــانُ

قال: فقلت في نفسي، من هذه الدار أشرب الماء، فأتيت إلى الباب فسمعت صوتاً ضعيفاً من فؤاد نحيف، وقائلاً يقول:

بالله ربكما عوجـا علـى سـكني ::: وعاتبـاه لعـل العتـب يعطفـه
وعرضـا بي وقـولا في حـديثكما ::: ما بـال عبـدك بـالهجران تتلفـه
فـإن تبـسم قـولا في ملاطفـة ::: ما ضر لو بوصـال منـك تـسعفه
وإن بدا لكمـا في وجهـه غـضبٌ ::: فغالطـاه وقـولاً لـيس نعرفـه

قال: فقلت، يا حبذا إن كان قائل هذا الصوت شخصاً صورته على قدر صوته واحتشمت، ثم إني قويت قلبي ورفعت الستر ودخلت الدهليز إلى أن انتهيت إلى آخره ومديت طرفي، وإذا أنا بدار قد أقبلت عليها السعادة، وزالت عنها الشقاوة، ورأيت في صدر ذلك المكان إيواناً وبركة وشاذرواناً، وفي ذلك الإيوان تخت من الساج، وقوائمه من العاج، ومصفح بالذهب الوهاج، وفوق التخت فراش من الحرير الأطلس، ومسند مزركش، وعليه جارية نائمة خماسية القد، قائمة النهد لا بالطويلة

الشاهقة ولا بالقصيرة اللاصقة، أشهر من علم، تربية العجم على أكتاف الخدم، بخد أسيل، وطرف كحيل، وخصر نحيل، وردف ثقيل، إن أقبلت فتنت، وإن ولت قتلت، كما قال فيها بعض واصفيها:

كما اشتهت خلقت حتى إذا اعتدلت ::: في قالب الحسن لا طول ولا قصر
جرى بها الشحم حتى دار أعكنها ::: طي القباطي فلا سمن ولا غور
كأنها أفرغت من ماء لؤلؤة ::: في كل جارحة من حسنها قمر

إلا أن الجارية، يا أمير المؤمنين، قد حكمت عليها يد الأيام ونزلت بها جميع الأسقام وعند رأسها طبيب، وهو يجس يدها ويقول: يا ست بدور، الضارب ضارب والساكن ساكن ولا برد ولا حمى ولا شيء تشتكينه أكثر من سهر الليل وجريان الدمع لعل الست في قلبها هوى من أحد، فلما سمعت كلام الطبيب أنشدت تقول:

إذا هممت بكتمان الهوى نطقت ::: مدامعي بالذي أخفي من الألم
فإن أبح افتضح من غير منفعة ::: وإن كتمت فدمعي غير منكتم
لكن إلى الله أشكو ما أكابده ::: من طول وجد ودمع غير منصرم

قال: فنهض الطبيب قائماً على قدميه فناولته صرة فيها عشرون ديناراً، ثم التفتت إلي وقالت: من أين يا شيخ؟ فقلت لها: من بغداد، حملني العطش إلى أن أتيت إلى هنا.

فقالت: لعل أن يكون على يدك فرجي، فأنا أكتب لك ورقة فتسال عن بيت الأمير عمرو وتعطيه إياها، فإن رددت علي الجواب فأنا أعطيك خمسمائة دينار.

ثم استدعت بدواة وورق وكتبت، وهي تقول: أما بعد، يعجز لساني ويكل جناني عن بث الأشواق، ولكن أسأل الكريم الخلاق أن يمن علينا بالتلاق بالسعد الرائق والأمر الموافق، وأنا القائلة حيث أقول:

سروري من الدنيا لقاكم وقربكم ::: وحبكم فرض وما منكم بد
ولي شاهد دمعي إذا ما ذكرتكم ::: جرى فوق خدي لا يطاق له رد
إذا الريح من نحو الحبيب تنسمت ::: وجدت لمسراها على كبدي برد
فوالله ما أحببت ما عشت غيركم ::: ولا كنت إلا ما حييت لكم عبد

سلام عليك ما أمر فراقكم ::: فلا كان منكم ما جرى آخراً عهد

أما بعد، فهذا كتاب ممن ليلها في نحيب، ونهارها في تعذيب، لا أتركن إلى عاذلٍ ولا تصغي إلى قائل، قد غلبتها أيدي الفراق، ولو شرحت بعض ما عندها للفسيح ضاق وما وسعته الأوراق، ولكن أسأل الكريم الخلاق، رافع السبع الطباق، أن يمن علينا بالتلاق، وأنشدت تقول:

أحبة قلبي وإن جرتم ::: علي فكل المنى أنتم
رحلتم وفي القلب خلفتم ::: لهيباً فهلا ترفقتم
وأودعتم يوم ودعتم ::: بأحشاي ناراً وأضرمتم
وما كنتم تعرفون الجفا ::: على شؤم بختي تعلمتم

فألف ألف لا أوحش الله منكم والسلام مني عليكم عدد شوقي إليكم ما حن الغريب إلى الأوطان، وغرد حمام الأيك على البان، فرحم الله من قرأ كتابي وتعطف برد جوابي، وأنشدت تقول:

أحبابنا ما رقا دمعي لفرقتكم ::: يوم الفراق ولا كفت غواديه
بنتم فلم يبق لي من بعدكم جلد ::: ولا فؤاد ولا صبر أرجيه
فكم أمني فؤادي بالهوى كذباً ::: ولست أول من بانت غواشيه

قال: ثم إنها طوت الكتاب وختمته بعد أ، نثرت فيه فتات المسك والعنبر، وناولتني إياه فأخذته، وأتيت إلى دار الأمير عمرو فوجدته في الصيد والقنص، فجلست على بابه ساعة أنتظره وإذا به قد أقبل، وهو راكب على حصان أشقر، من الخيل الضمر يساوي ملك كسرى وقيصر، من أولاد الأبجر، الذي كان لعنتر، إن طلب لحق، وإن طلب لم يلحق، والأمير في ظهره كأنه البدر في منزلته، والمماليك قد أحدقوا به كما تحدق النجوم بالقمر، وهو بخد أسيل وطرف كحيل وخصر نحيل وردف ثقيل وله عذار أخضر فوق خد أحمر وثغر جوهر وعنق مرمر كما قال فيه ابن معشر:

قمر تكامل في نهاية حسنه ::: مثل القضيب على رشاقة قده
فالبدر يطلع من ضياء جبينه ::: والشمس تغرب في شقائق خده
ملك الجمال بأسره فكأنما ::: حسن البرية كلها من عنده

قال أبو الحسن: فما أمهلته دون أن قبلت ركابه، فلما نظر إلي ترجل واعتنقني وأخذ بيدي وأدخلني الدار وأنشد يقول:

ما أظن الزمان يأتي بهذا ::: غير أني رأيته في منامي

قال: فلما جلس على حافة البركة أقبل علي يحدثني ساعة، وإذا بالمائدة قد وضعت بين أيدينا، وإذا عليها من ألوان الطعام ما درج وتطاير في الأسحار، وتناكح في الأوكار من قطاً وسماني وأفراخ حمام وبط مسمن ودجاج محمر وأفراخ رضع وبعلبكات السكر فقال لي: بسم الله يا شيخ يا أبا الحسن، فقلت: لا والله يا مولاي، ما أكلت لك طعاماً ولا شربت لك مداماً، إلا أن قضيت لي حاجتي.

فقال: يا أبا الحسن كان هذا من الأول. أين الكتاب الذي للست بدور؟ فقلت: يا سيدي وما هي الست بدور.

فقال: التي جئت من عندها تطلب شربة من الماء منها، ووجدت عندها الطبيب وجرى لك معها ما هو كيت وكيت.

فقلت: يا مولاي أكنت حاضراً؟ فقال: لو كنت حاضراً فلأي شيء كتبت الكتاب؟ فقلت: هل جاء أحدُ من عندها وأعلمك؟ فقال: إنه لا يجسر أحدٌ من غلمانها أن يقابلني.

فقلت: ولا راح أحد من عندك إليها.

فقال: هي أخس وأحقر من أن يمضي إليها أحد من عندي.

فقلت: يا سيدي! الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى والوحي ما نزل إلا على رسول الله .

فقال: يا عاقل أما سمعت قول القائل:

قلوب العاشقين لها عيونٌ ::: ترى ما لا يراه الناظرونا
وأجنحة تطير بغير ريشٍ ::: إلى ملكوت رب العالمينا

فقلت: صدقت يا مولاي، ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه ثم بصق فيه وداسه برجله ورماه في البركة فصعب علي، فلما علم مني ذلك قال: مم غيظك؟ اقعد الليلة عندي كل واشرب وخذ مني الخمسمائة دينار التي وعدتك بها الست بدور، وأنا أحب إليك منها وأنشد يقول:

رأيت شاة وذئباً وهي ماسكة ::: بأذنه وهو منقاد لها ساري
فقلت: أعجوبة ثم التفت رأى ::: ما بين نابيه ملقى نصف دينار
فقلت للشاة: ماذا الإلف بينكما ::: والذئب يسطو بأنياب وأظفار
تبسمت ثم قالت وهي ضاحكة ::: بالتبر يكسر ذاك الضيغم الضاري

قال: فلما سمعت كلامه، يا أمير المؤمنين تقدمت وأكلت بحسب الكفاية والنهاية. ثم انتقلنا إلى مجلس الشراب وقدمت بين أيدينا البوطي والسلاحيات، فتناول الأمير عمرو وشرب وسقاني، وأنا أحدثه وأنادمه إلى أن قرب الغروب فقال: يا أبا الحسن، ما لذة الأمير إذا شرب إلى المساء من غير غناء؟ فقلت: يقال: الشراب بلا طرب ولا سماع، الدن أولى به.

فقال لي: قم بسم الله.

فقمت معه إلى مجلس وحضيرة تنقط بالذهب واللازورد العجيب، وهي مزخرفة قد عبقت أزهارها وضحكت سلاحيتها وصفت بواطيها ورفعت أقداحها فجلس الأمير عمرو وأجلسني بجانبه وقدمت بين أيدينا الشموع وأسرجت القناديل فنظرت إلى مجلس عجيب وحضيرة مليحة ثم قلت: يا مولاي، قد تقدم القول: إن الشراب بلا سماع، الدن أولى به، فصفق بكف وإذا بثلاث جوار قد أقبلن كأنهن الأقمار. الواحدة تحمل عوداً، والثانية تحمل دفاً، والثالثة تحمل مزماراً ثم نقرت الدفية على دفها، وألحت العودية عودها وزمرت الزامرة بمزمارها فخيل إلي أن المجلس الذي نحن فيه يرقص بنا ثم إن الدفية غنت تقول:

أحبابنا إنني من يوم فرقتكم ::: على فراش الضنا ما زلت مضطجعا
داويت قلبي بحسن الصبر بعدكم ::: عسى يفيق من الأسقام ما نفعا

فوالله يا أمير المؤمنين لقد طربت غاية الطرب من حسن صوتها. فلما فرغت الدفية ضربت العودية على عودها طرقاً عديدة، ثم رجعت إلى الطريقة الأولى وأنشدت تقول:

أمؤنس طرفي لا خلا منك ناظري ::: وجامع شملي لا خلا منك مجلسي
ويا ساكناً قلبي وما فيه غيره ::: يحل فما استوحشت فيه لمؤنسي

وبالله يا أغنى الورى من ملاحة ::: تصدق على صب من الصبر مفلس
أنلني الرضا حتى أغيظ به العداً ::: ويا موحشي من بعد ما كان مؤنسي
رضاك الذي إن نلته نلت رفعةً ::: وألبسني في الناس أشرف ملبس

قال: والله يا أمير المؤمنين لم نتمالك عقولنا من الطرب، ثم التفتت العودية نحو الدفية وقالت لها: يا فلانة أتحسني أن تقولي مثل هذا؟ فقالت الدفية: أنا أحفظ أبياتاً ما أظن أنك تحفظين لهن وزناً ولا قافية ولا عَروضاً.

فقالت العودية: هات ما عندك.

فنقرت الدفية على دفها بأناملها ورفعت صوتها وهي تقول:

كرر وردد ذكرهم في مسمعي ::: فهم الشفا لتألمي وتوجعي
أقصر بعذلك يا عذول فإن لي ::: قلباً لعذلك لا يفيق ولا يعي

فقالت لها العودية: أنا أحفظ الوزن والقافية والعروض.

فقالت الدفية: هات.

فضربت العودية طريقة من اثنين واثنين وأربعة وأربعة وثمانية وثمانية وستة عشرة وستة عشرة ثم عادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول:

إن لم أَلِ وادي إلا سيل بأدمعي ::: أعلم بأني في الصبابة مدعي
يا سعدُ إن جئت الغوير وعاينت ::: عيناك بأن المنحنى فلترجع
وخذ الحذار من الغزال المختفي ::: واحذر يصيدك لحظ ذات البرقع

قال: والله يا أمير المؤمنين فلقد طربنا حتى قام كل منا ورقص. فلما فرغت الجارية قال لها سيدها: عن لي على الذي بقلبي وحدي، فعندها ساوت عودها وقالت:

ما كنت أول رامق صبا صبا ::: نحو التصابي، وهو في عمر الصبا
فعلام يعذلني العذول على البكا ::: لولا الغرام لما غدوت معذبا
حم الغرامُ بحكمه في مهجتي ::: ولقد غدا قلبي به متقلبا
يا للرجال خبا الهوى بحشاشتي ::: ناراً، فما تخبو على ذاك الخبا

ولقد سبى قلبي غزال لو رأت ::: بلقيس طلعته لما سكنت سبا
ولقد هربت من الغرام فقال لي: ::: مهلاً! فلن تجدن مني مهربا

فلما سمع الأمير عمرو ذلك صرخ ووقع على الأرض مغشيًّا عليه. فقالت الجارية: يا مولاي، إنه قد نام سيدي، فإن اخترت أن تنام فقم نم في مرقدك، وإن اخترت الشراب فدونك، ونحن بين يديك إلى الصباح.

فقمت ونمت فلما أصبحت قمت وسألت عن الأمير عمرو فقال بعض الجواري: إنه قد سرح إلى الصيد والقنص فأخذت شاشاً لألبسه فرأيت تحته كيساً فيه ألف دينار، فأخذته وأتيت إلى الست بدور، وإذا بها واقفة خلف الباب تنظر وهي تقول:

يا رسولي إلى الحبيب اعتذر لي ::: فلعل الحبيب بقبل عذري
ثم قل للحبيب عني بلطف: ::: أي ذنب جرى فأوجب هجري

فلما رأتني قالت: يا شيخ أقمح أم شعير؟ فقلت: لا والله ما هو إلا زوان، والله ما رضي يقرأ مكتوبك ولا يرد جوابك.

فرمت إلي الصرة وفيها مائة دينار، وقالت: اذهب يا أبا الحسن، ما مضى الليل وأتى النهار على شيء إلا وأزاله وغيره ويغير الله ما في القلوب.

ثم إنها أغلقت الباب في وجهي ومضت وعدت إلى دار الأمير محمد بن سليمان الزينبي فلقيته قد جاء من الصيد فقعدت عنده أياماً وأخذت رسمي وعدت إلى بغداد. ثم إني في السنة الثانية سافرت إلى البصرة على ما جرت العادة به ومضيت إلى الأمير عمرو بن جبير الشيباني لأتمتع بذلك الوجه المليح والقد الرجيح، فوجدت الدار متغيرة الآثار والعبيد لابسين السواد فلما رأيت ذلك بكيت وأنشدت أقول:

يا دار أين ترحل السكان ::: وسرت بهم من بعدها الأظعان
بالأمس كان بك الضياء مع الهنا ::: واليوم عرصاتك الغربان

فسمعني بعض الغلمان، فظهر لي وقال: من ذا الذي يبكي على ديارنا ويندب منازلنا؟ كفى بنا ما عندنا.

فقلت له: يا عبد الخير، إن صاحب هذه الدار كان من أصدق الناس

إلي فما فعل به الزمان؟ فقال لي الغلام: يا مولاي هو في قيد الحياة. وهو يطلب الموت فلا يجده.

فقلت له: بالله عليك خذ لي الطريق.

فقال لي الغلام: يا مولاي من أقول.

فقلت: قل الشيخ أبو الحسن الخليع الدمشقي المسامر.

قال: فعبر الغلام وغاب ساعة وعاد وقال لي: بسم الله أدخل. ويقول له: يا مولاي الضارب ضارب والساكن ساكن لا برد ولا حمى ولا تشتكي غير سهر الليل وجريان الدمع، لا يكون المولى إلا مسحوراً.

فلما سمع الأمير عمرو كلام الطبيب بكى وأنشد يقول:

قال الطبيب لقومي، حين جس يدي ::: هذا فتاكم ورب البيت مسحور

فقلت: ويحك قد قاربت في صفتي ::: عين الصواب فهلا قلت مهجور

ثم إنه ناوله كاغداً فيه بعض دنانير، فأخذها الطبيب وانصرف ثم التفت الأمير عمرو إلي وقال: يا شيخ أبي الحسن أما تنظر إلى هذا الحال الذي وقعت فيه؟

فقلت له: حاشاك من الأسوأ ما سبب ذلك؟ قال: ما أعرف له سبباً إلا أن هجر الست بدور قد قتلني وحبها أضنى فؤادي.

فقلت: يا مولاي، بالعام الماضي تركتك أميراً، واليوم أتيت لقيتك أسيراً فما السبب؟ فقال الأمير عمرو: يا شيخ إني في ليلة من الليالي ركبت في الشط، وقد شحنت مركبي من سائر الأزهار والفواكه والرياحين والطعام والمدام، وأوقدت الشموع حتى صارت مثل ضوء النهار، وقد غرقنا في البسط، وبقينا في لعب وضحك إلى ثلث الليل الأول، وإذ قد أقبل من صدر الشط مركب وهو يعزف بالطارات والدفوف ويضيء كضوء الشمس وفيه وهج عظيم، فقلت للملاح: قدم بنا حتى نتفرج وننظر أينا أحسن تعبية مركبنا أو هذا المركب؟ فمددت عيني فرأيت صاحبتي الست بدور، وهي بين جواريها وغلمانها تلعب وتضحك، وهي مثل اسمها، اسم على مسمى، فلما وقعت عيني عليها، كأنما رمت في قلبي جمرة نار فقلت في نفسي: ما فارقت هذا الوجه

المليح بذنب. ثم إني تذكرت العهد القديم الذي كان بيننا فلم أقدر أن أصبر، فمددت يدي وأخذت تفاحة ورميتها إلى الست بدور فالتفتت فرأتني. فقالت للملاح: ارجع بنا إلى البر، نحن خرجنا هذه الليلة ننشرح، فأرسل الله لنا هذا الفتى ينغص علينا عيشنا. فلما سمعتها تشتمني أضرمت النار في قلبي ثم قلت لنفسي: أنت كنت المطلوب فصرت الطالب، فلم يهن لي عيش في هذه الليلة فقلت للملاح: ارجع إلى الشط. ثم إني نزلت ومضيت إلى منزلي وما ذقت طعم المنام. فلما أصبحت لم يقر لي قرار وصرت أترقب أن يأتي أحد من عندها، ثلاثة أيام، فلم يأت أحد فبعثت من يعرض بذكري لها، فدعت عليهم وشتمتهم. فكتبت لها بعد ذلك ألف كتاب، فلم ترد لي جواباً، وقد رميت روحي على كل كبير في البصرة، فيدخلون عليها فلم تقبل ولم تزدد إلا جفاء، ولي مدة أنتظرك يا شيخ أبا الحسن حتى أبعث معك كتاباً وأنا أحلف لك إن هي ردت لك جوابه أعطيتك ألف دينار، وإن لم ترد جوابه أعطيتك مائة دينار.

فقلت له: اكتب!.

فدعا بدواة وقرطاس وكتب في أول الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من متيم يشكو إليك الصبابة ويسألك بالله أن تردي جوابه. أما بعد، فإنه يعجز لساني ويكل جناني مما أنا فيه من طول السهر ودوام الفكر، وبكى لبكائي أصم الحجر فألف ألفٍ لا أوحش الله منك والسلام عليك.

ثم ختم الكتاب وناولني إياه فأخذته وأتيت به إلى دار الست بدور، فلقيت الباب على غير تلك الحالة الأولى عليه ستر مرخي وبواب وخادم. فقلت: لا إله إلا الله، كان هذا الباب بالأمس خالياً من الأصحاب، واليوم عليه خادم وبواب، ثم إني تقدمت إلى الخادم، وقلت له: قم يا ولدي ادخل واستأذن على مولاتك الست بدور وقل لها: الشيخ أبو الحسن الخليع الدمشقي قد أتى ويطلب المثول بين يديك.

فغاب الخادم ثم عاد مسرعاً وقال: بسم الله ادخل.

فدخلت الدهليز فسمعت الست بدور وهي تقول:

ولأصبرن علــى الزمــان وجــوره ::: حتى يعود كمـا أريــد وأشــتهي

قال: فلما دخلت رأيتها قاعدة على حافة البركة، وبين يديها جارية تروح لها، فتقدمت وقبلت يدها وجلست فنظرت، وإذا عليها غلالة لازوردية، وجميع جسدها بائن من تحت الغلالة كأنه عمود مرمر، وعلى الغلالة مكتوب هذه الأبيات:

أقبلــت في غلالــة زرقــاء ::: لازورديــة كلــون سمــاء
فتأملــت في الغلالــة ألقــى ::: قمــر الــصيف في ليــالي الــشتاء
ليــتني كنــت للمليحــة عقــداً ::: أو لثامــاً للوجــه مثــل الــرداء
أو قميــصاً مــن الحريــر خفيفــاً ::: لاصــقاً بــالفؤاد والأحــشاء
ضــربتني بخنجــر العــشق حــتى ::: صــرت ملقــى مخــضباً بــدمائي
تــركتني علــى الطريــق ونــادت ::: من يــصلي علــى قتيــل هــوائي

ثم إني لما فرغت من قراءة الأشعار قالت لجاريتها: هات لي بذلة قماش، ثم غيرت ما كان عليها، وجلست ثم أمرت بإحضار المائدة وقالت: بسم الله، كل يا أبا الحسن.

فقلت: لا والله لا أكلت لك طعاماً ولا شربت عندك مداماً حتى تقضي حاجتي.

فقال: كان هذا من الأول لكن والله قد وقعت من عيننا برواحك إلى الأمير عمرو قبل مجيئك إلينا.

فقلت لها: أنا ما رحتُ.

فقالت: تكون شيخاً وتكذب، أنت ما عبرت عليه ولقيت الطبيب، وهو يقول له: كيت وكيت، وجرى لك معه كذا وكذا، وهذا الكتاب في طي عمامتك وبالأمارة قال لك: إن ردت الجواب أعطيتك ألف دينار وإن لم ترد لي الجواب أعطيتك مائة دينار؟ فقلت: يا ستي من أعلمك بهذا؟ فقالت: أليس القائل يقول:

قلــوب العاشــقين لهــا عيــون ::: تــرى مــا لا يــراه الناظرونــا

وأنا يا شيخ أبا الحسن أعشق منه وأرى أكثر مما يراه.

فقلت: صدقت يا مولاتي، كان ذلك.

ثم ناولتها الكتاب ففضته وقرأته ثم إنها مزقته وبصقت عليه، وداسته ورمته في البركة. فلما رأيت ذلك قلت في نفسي: هذا بذاك وفرض الدين لا بد له من وفاء إلا أني حصل لي بعض غيظ على الألف دينار التي تفوتني، فنظرت إليَّ وعرفت مني ذلك فقالت: يا شيخ أبا الحسن مم غيظك؟ إن كان وعدك بألف دينار، فبت الليلة عندي وكل واشرب والتذ واطرب، وخذ لك غداً مني ألف دينار وامض في حفظ الله.

فقلت: يا سيدتي يكاد الأمير عمرو أن يموت.

فقالت: دعنا من هذا الكلام.

ثم إن المائدة حضرت فأكلنا بحسب الكفاية، فلما فرغنا قالت: يا شيخ أتعرف لعب الشطرنج.

قلت: ما ألعب إلا على الحكم والرضا.

فقالت: نعم. ثم دعت بالشطرنج فوضع بين أيدينا ولعبت معها الدست الأول، غلبتني فأمرت الجواري أن يرموني في البركة، فمسكوني ورموني في البركة، فضحكت علي ساعة. ثم أخرجوني وقد ابتلت جميع حوائجي. فلما رأتني على تلك الحالة أمرت ببذلة من القماش من أفخر الملبوس فلبست فقالت: أتلعب أيضاً على الحكم والرضا؟ قلت: نعم، فلعبنا فاحتلت عليها، وأتيت لها بحكاية لطيفة مضحكة وشغلتها وسرقت القطع إلى أن غلبتها وتحكمت فيها وقلت: أريد الألف دينار وجواب الكتاب فأعطتني الألف دينار، وطلبت دواة والقرطاس، ثم إنها أطرقت ساعة ورفعت رأسها وكتبت تقول:

ألا يا عمرو كم هذا العناء ::: وكم هذا التجلد والجفاء
كتبت إلي تشكو ما تلاقي ::: من الأسقام إذ نزل القضاء
فسقم لا يزال بطول دهر ::: وداء ما له أبداً دواء
ولو ساعدتنا يا عمرو يوماً ::: لساعدناك إذ نزل البلاء
فعش ضبًّا ومت كمداً حزيناً ::: فواحدةٌ بواحدةٍ جزاء

فلما فرغت ناولتني الورقة فقرأتها فقلت: يا ستي، بالله عليك لا تفعلي وارحمي الأمير عمراً واكتبي له غير هذا.

فقالت: يا شيخ أبا الحس، أنت رسول أو فضولي؟ فقلت لها: رسول وفضولي وطفيلي، ويعظ القطط ويحلف أنه ما يبيت إلا في الوسط ويغني بليت بكم.

قال: فضحكت من كلامي، وقالت: حكمتك في نفسي.

فقلت: ست بدور أين تلك المحبة التي كنت تحبينها للأمير عمرو؟ فلو أبصرته ما عرفته من شدة ما يقاسي من الأسقام والآلام والأمراض.

فلما سمعت ذلك قالت: أخبرني عن أقوى شيء به من المرض؟ فقلت: يا سيدتي، ما أقدر أصف لك بعض ما فيه من ألم المرض. فترغرغت عيناها بالدموع ثم قالت: يعز علي ما وصفت لي عنه وروحي لروحه الفداء فالحمد لله الذي جعل اجتماعنا على يديك. ثم دعت بدرج غير تلك الورقة وكتبت في أول الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم إنها ابتدأت تنشد وتقول:

وصل الكتاب فلا عدمت أناملاً ::: عنيت به حتى تضوع طيبا
ففضضته وقرأته، فوجدته ::: لخفي أوجاع القلوب طبيبا
فكأن موسى قد أعيد لأمه ::: أو ثوب يوسف قد أتى يعقوبا

المملوكة تقبل الأرض وتنهي أن شوقها شديد، وغرامها ما عليه من مزيد، ومأمولها من الحميد المجيد أن يجمع شملها بك قبل أن تريد، وأقول:

أشتاقكم حتى إذا نهض الهوى ::: لمقامكم قعدت بي الأيام
والله إني لو وصفت صبابتي ::: فني المداد وقلت الأقلام

ثم إنها نثرت فتات المسك والطيب في رسالتها وطوتها وحققتها وناولتني إياها فأخذتها وقمت مسرعاً وأنا فرحان إلى أن أتيت دار الأمير عمرو ودخلت الدهليز فسمعته يقول:

ترى حرمت كتب المحبة بيننا! ::: أسحر أم القرطاس أصبح غاليا

فاستأذنت عليه ودخلت فلما رآني قال لي: أقمح أم شعير؟ فقلت له: قمح مغربل ليس فيه كدر. ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه فلما فهم معناه تهلل وجهه بالفرح فبكى وقال:

هجم السرور علي حتى إنه ::: من فرط ما قد سرني أبكاني
يا عين! قد صار البكا لك عادةُ ::: تبكين في فرح وفي أحزانِ

فلما فرغ من البكاء قال لي: يا شيخ ما أظن الحديد يلين ولا الصخر يذوبُ نعل أن تكون صنت هذا الكتاب من عندك؟ فقلت:يا مولاي والله ما صنعته ولا كتبته بل هو خطها بيدها.

فبينما هو يخاطبني، إذ هي عبرت علينا وهي تخطر لفي قوامها وهي تنشد وتقول:

نزوركم لا نجازيكم بجفوتكم ::: إن الكريم إذا لم ستزر زارا

فلما رآها الأمير عمرو نهض قائماً على قدميه ورمى بروحه عليها واعتنقها واعتنقته ساعة زمانية، فقمت لأخلي لهما المكان، فقالت الست بدور: إلى أين تروح يا شيخ؟ قلت: أخلي لكما المكان لأنكما ما اجتمعتما من مدة سنة كاملة.

فقالت: لا تفارقني من الساعة إلى الصباح.

فقام الأمير عمرو وأخذنا ومضى بنا إلى مجلس مليح وقدم لنا الطعام المفتخر وأمر بإزالة كل شيء كان عليه من آلة الحزن وجيء له بالماء فغسل يديه وغسلنا أيدينا، وانتقلنا إلى مجلس الشراب، وبتنا في لذة ورأيت الماوية تدب في وجه الأمير عمرو. فلما أصبحت قالت: يا شيخ أبا الحسن، امض وائتنا بالقاضي والشهود.

فلم يكن بأسرع مما أن ضرتهم. فقالت الست بدور للقاضي: اكتب كتابي على الأمير عمرو، وقد وليت الشيخ أبا الحسن عقد النكاح.

فخطب القاضي خطبة النكاح وعقد العقد بينهما، فرسم الأمير عمرو للقاضي بألف دينار وللشهود بمائتي دينار، وعمل الوليمة وطبخ الطعام وعمل الحلاوات وجمع الناس ووضع بين أيديهم الموائد وأطعم الشارد والوارد، وزفت الست بدور تلك الليلة إلى الأمير عمرو، فلما وقفوا على المنصة قلت: ما تصلح إلا له ولا يصلح إلا لها، ولو رآها غيره لزلزلت الأرض زلزالها، ثم تقدمت إلى الأمير عمرو وقلت له: يا مولاي، المثل يقول: العصفور يتقلى والصياد يتقلى، وأنتم تقولون: واطرباه وأنا أقول:

وا حزناه.

فقالت الست بدور: ما معنى كلامك هذا؟ قلت: يا سيدتي الأمير عمرو وعدني بوعد والوعد على الكرماء دين.

فقالت الست بدور: صدق الشيخ أعطه الذي وعدته به. فقال الأمير عمرو لبعض غلمانه: أعط الشيخ أبا الحسن ألفاً وخمسمائة دينار، يستحق أكثر من ذلك.

فمضى الغلام وعاد بسرعة ومعه كيس وناولني إياه وأعطتني الست بدور مثله. ثم إني ودعتهم وخرجت إلى أن أتيت إلى الأمير محمد بن سليمان الزينبي، وقعدت عنده على عادتي، وأخذت رسمي الذي عليه في كل سنة وعدت إلى بغداد فما رأيت سنة أبرك علي منها، حصل لي فيها أربعة آلاف دينار.

وهذا جملة الحديث فتعجب الخليفة وقال: ما قصرت يا شيخ أبا الحسن خذ من جعفر ألف دينار لأنك أنت الذي أزلت عني ما بقلبي.

فقال جعفر: ومن عند أمير المؤمنين ألف دينار لأنه هو الذي زال عنه ما كان يجده.

فقال أبو الحسن: صدق الوزير أبقاه الله تعالى، ثم إنه قبض الألفين ديناراً ومضى إلى منزله والله أعلم(١):

الرشيد يبكي على البرامكة:

قال يحيى بن سلام الأبرش، قال: حدثني أبي قال: خرج الرشيد للصيد يوماً بعدما أباد البرامكة فاجتاز بجدار خراب من جدران بني برمك فرأى لوحاً مكتوباً عليه هذه الأبيات:

يا منزلاً لعب الزمان بأهله ::: فأبادهم بتفرق لا يجمع
إن الذين عهدتهم فيما مضى ::: كان الزمان بهم يضر وينفع
أصبحت تفزع من رآك، وطالما ::: كنا إليك من المخاوف نضرع
ذهب الذين يعاش في أكنافهم ::: وبقي الذين حياتهم لا تنفع

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٦٤ - ٦٩.

قال: فبكى الرشيد، وأقبل على الأصمعي وقال: أتعرف شيئاً من أخبار البرامكة تحدثني به؟ فقال الأصمعي: ولي الأمان.

قال: ولك الأمان.

فقال: أحدثك بشيء شاهدته بعيني من الفضل بن يحيى، وذلك أنه خرج يوماً للصيد والقنص، وهو في موكبه، إذ رأى أعرابيًّا على ناقة قد أقبل من صدر البرية يركض في سيره، قال: هذا يقصدني.

فقلت: ومن أعلمك؟ قال: لا يكلمه أحدٌ غيري.

فلما دنا الأعرابي ورأى المضارب تضرب والخيام تنصب والعسكر الكثير، والجم الغفير، وسمع الغوغاء والضجة، ظن أنه أمير المؤمنين، فنزل وعقل راحلته وتقدم وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

قال: الآن قاربت، اجلس.

فجلس الأعرابي فقال له الفضل: من أين أقبلت يا أخا العرب؟ قال: من قضاعة.

قال: من أدناها أم من أقصاها؟ قال: من أقصاها.

قال الأصمعي: فالتفت إلي الفضل وقال: كم من العراق إلى أرض قضاعة.؟ فقلت: ثمانمائة فرسخ.

فقال: يا أخا العرب، مثلك لم يقصد من ثمانمائة فرسخ إلى العراق إلا لشيء.

قال: قصدت هؤلاء الأماجد الأنجاد الذين قد اشتهر معروفهم في البلاد.

قال: من هم؟ قال: البرامكة.

قال الفضل: يا أخا العرب البرامكة خلق كثير، وفيهم جليل وخطير، ولكن منهم خاصة وعامة، فهلا أفردت لنفسك منهم من اخترت لنفسك وأتيته لحاجتك؟ قال: أجل! أطولهم باعاً وأسمحهم كفًّا.

قال: من هو؟ قال: الفضل بن يحيى بن خالد.

فقال له الفضل: يا أخا العرب، إن الفضل جليل القدر عظيم الخطر، إذا جلس للناس مجلساً عامًّا لم يحضر مجلسه إلا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب والمناظرون للعم، أعالم أنت؟ قال: لا.

قال: أفأديب أنت؟ قال: لا.

قال: أفعارفٌ أنت بأيام العرب وأشعارها؟ قال: لا.

قال: هل وردت على الفضل بكتاب وسيلة؟ قال: لا.

فقال: يا أخا العرب غرتك نفسك، مثلك يقصد الفضل بن يحيى، وهو كما عرفتك عنه من الجلالة، بأي ذريعة أو وسيلة تقدم عليه؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما قصدته إلا لإحسانه المعروف وكرمه الموصوف وبيتين من الشعر قلتهما فيه.

فقال الفضل: يا أخا العرب أنشدني البيتين فإن كانا يصلحان أن تلقاه بهما أشرت عليك بلقائه، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما بررتك بشيء من مالي ورجعت إلى باديتك وإن كنت لم تستحق بشعرك شيئاً. قال: أفتفعل أيها الأمير؟ قال: نعم.

قال: فإني أقول:

ألم تر أن الجود من عهد آدم ::: تحدر حتى صار يملكه الفضل

ولو أن أمًّا قضها جوع طفلها ::: ونادت على الفضل بن يحي اغتذى الطفل

قال: أحسنت يا أخا العرب. فإن قال لك هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعر، وأخذ الجائزة عليهما، فأنشدني غيرهما فما تقول؟ قال: أقول:

قد كان آدم حين حان وفاته ::: أوصاك، وهو يجود بالحوباء

بنيه أن ترعاهمو، فرعيتهم ::: وكفيت آدم عيلة الأبناء

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك: الفضل ممتحناً: هذان البيتان أخذتهما من أفواه الناس، فأنشدني غيرهما ما تقول، وقد رمقتك الأدباء بالأبصار، وامتدت الأعناق إليك، وتحتاج أن تناضل عن نفسك؟ قال: إذن أقول:

ملت جهابذ فضل وزن نائله ::: ومل كاتبه إحصاء ما يهب

والله لــــولاك لم يمـــدح بمكرمـــة ::: خلق، ولم يرتفع مجـــد ولا حـــسب

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك هذان البيتان أيضاً أخذتهما من أفواه الناس ما كنت قائلاً؟ قال: أقول:

وللفضل صولات على مال نفـسه ::: يرى المـال منـه بالمذلـة والعنـا
ولـو أن رب المـال أبـصر مالـه ::: لصلى علـى مـال الأمـير وأذنـا

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل: هذان البيتان مسروقان، أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال: إذن أقول:

ولو قيل للمعروف ناد أخـا العـلا ::: لنادى بأعلي الصوت يا فضل يا فضل
ولو أنفقت جدواك من رمل عـالج ::: لأصبح من جدواك قد نفد الرمـل

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل: هذان البيتان مسروقان أيضاً أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال: أقول:

وما الناس إلا اثنان: صـب وبـاذلٌ ::: وإني لذاك الصب والباذل الفـضل
على أن لي مثلاً كما ذكـر الـورى ::: ولـيس لفـضلٍ في سماحتـه مثـل

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل: أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال: أقول أيها الأمير:

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالـد ::: فقامت به التقوى وقام بـه العـدل
وقام به المعـروف شـرقاً ومغربـاً ::: ولم يك للمعـروف بعـدٌ ولا قبـل

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك: قد ضجرنا من الفاضل والمفضول أنشدني بيتين على الكنية لا على الاسم ما تقول؟ قال: إذن أقول:

ألا يا أبا العباس يا واحـد الـورى ::: ويا ملكاً خـد الملـوك لـه نعـل
إليك تسير النـاس شـرقاً ومغربـاً ::: فـرادى وأزواجـاً كـأنهم نحـل

قال: أحسنت يا أخا العرب، فإن قال لك الفضل: أنشدنا غير الاسم والكنية والقافية.

قال: والله لئن زادني الفضل وامتحنني بعد هذا لأقولن أربعة أبيات ما سبقني إليها عربي ولا أعجمي، ولئن زادني بعدها لأجمعن قوائم ناقتي

هذه وأجعلها في حر أم الفضل وأرجعن إلى قضاعة خاسراً، ولا أبالي. فنكس الفضل رأسه، وقال للأعرابي: يا أخا العرب أسمعني الأبيات الأربعة: قال: أقولك

ولائمة لامتك، يا فضل، في الندى ::: فقلت لها: هل يقدح اللوم في البحر
أتنهين فضلاً عن عطاياه للغنى ::: فمن ذا الذي ينهى السحاب عن القطر
كأن نوال الفضل في كل بلدة ::: تحدر هذا المزن في مهمة قفر
كأن وفود الناس في كل وجهة ::: إلى الفضل لاقوا عنده ليلة القدر

قال: فأمسك الفضل عن فيه، وسقط على وجهه ضاحكاً، ثم رفع رأسه وقال: يا أخا العرب، أنا والله الفضل بن يحيى، سل ما شئت.

فقال: سألتك بالله أيها الأمير إنك لهو؟ قال: نعم.

قال له: فأقلني.

قال: أقالك الله، اذكر حاجتك.

قال: عشرة آلاف درهم.

قال الفضل: ازدريت بنا وبنفسك، يا أخا العرب، تعطى عشرة آلاف درهم في عشرة آلاف.

وأمر بدفع المال، فلما صار المال إليه حسده وزيره الفضل، وقال: يا مولاي هذا إسراف يأتيك جلف من أجلاف العرب بأبيات استرقها من أشعار العرب فتجزيه بهذا المال؟ فقال: استحقه بحضوره إلينا من أرض قضاعة.

قال الوزير: أقسمت عليك يا مولاي إلا أخذت سهماً من كنانتك وركبته في كبد قوسك وأومأت به إلى الأعرابي فإن رد عن نفسه ببيت من الشعر، وإلا استعدت مالك، ويكون له في بعضه كفاية.

فأخذ الفضل سهماً وركبه في كبد قوسه وأومأ به إلى الأعرابي وقال له: رد سهمي ببيت من الشعر؟ فأنشأ يقول:

لقوسك قوس الجود والوتر والندى ::: وسهمك سهم العز فارم به فقري

قال: فضحك الفضل وأنشأ يقول:

إذا ملكت كفــي منــالاً ولم أنــل ::: فلا انبسطت كفي ولا نهضت رجلي
على الله إخلاف الذي قــد بذلتــه ::: فلا مسعدي بخلي ولا متلفي بــذلي
أروني بخــيلاً نــال مجــداً ببخلــه ::: وهاتوا كريماً مات من كثرة البــذل

ثم قال الفضل لوزيره: أعط الأعرابي مائة ألف درهم لقصده وشعره، ومائة ألف درهم ليكفينا شر قوائم ناقته.

فأخذ الأعرابي المال وانصرف، وهو يبكي فقال له الفضل: مم بكاؤك يا أعرابي استقلالاً بالمال الذي أعطيناك؟ قال: لا، ولكني أبكي على مثلك يأكله التراب وتواريه الأرض، وتذكرت قول الشاعر:

لعمــرك مــا الرزيــة فقــد مــال ::: ولا فــرس يمــوت ولا بعــير
ولكــن الرزيــة فقــد حــر ::: يمــوت لموتــه خلــقٌ كــثير

وتوجه الأعرابي بالمال مسروراً رحمة الله عليهم أجمعين(١).

الرشيد وذقن أبي نواس:

ويحكى أن الرشيد قال لأبي نواس: بعني ذقنك؟ قال: بكم؟ قال: بألف دينار.

قال: بعتك.

فقال الرشيد لخازن داره: ادفع له ألف دينار، فدفعها له فأخذها وربطها وقال: يا أمير المؤمنين خذ ما اشتريت.

قال: لا، ولكن جعلتها وديعة عندك.

قال: فمضى أبو نواس واشتغل بأمره ولهوه، وهو خائف على ذقنه من أمير المؤمنين. قال: فبينما هو متفكر في شيء يفعله إذ جاء قاصد أمير المؤمنين، فلم يقدر أن يتكلم دون أن قام معه ودخل إلى دار الخلافة، فوجده في جمع كثير من خواص المملكة وأعوان الدولة، وكان من شأنه أن يجلس بالقرب من أمير المؤمنين، فتحادثوا وتماجنوا فضرط أبو نواس ضرطة مزعجة أزعجت الحاضرين، فضحكوا جميعاً، وضحك أمير المؤمنين وقال له: في ذقنك يا معرص.

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٨٠ - ٨٢.

فقال له في الحال: الله أعلم هي ذقن من؟ فقال أمير المؤمنين: قد وهبتها لك يا ملعون.

فأخذها وانصرف وكسب الألف دينار بهذه الحيلة والله أعلم، انتهى[(١)].

يضرب الشاة الحد:

وكان نصر بن مقبل عاملاً على الرقة، فأتى برجل من الظرفاء وجده ينكح شاة فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: أيها الأمير، إنها والله ملك يميني، وقد قال الله تعالى:{أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ} [النساء: ٣].

فأطلقه وأمر بضرب الشاة الحد، فإن ماتت تصلب.

قالوا: أيها الأمير إنها بهيمة.

قال: وإن كانت بهيمة فإن الحدود لا تعطل وإن عطلتها فبئس الوالي أنا.

فانتهى إلى الرشيد خبرها ولم يكن رآه قبل فدعا به فلما حضر بين يديه، قال: من أنت؟ قال: مولى لكلب.

فضحك منه ثم قال: كيف بصرك بالحكم؟ فقال: يا أمير المؤمنين، البهائم عندي والناس سواء، ولو وجب حد على بهيمة، وكانت أمي أو أختي لحديتها ولم تأخذني في الله لومة لائم. فأمر الرشيد أن لا يستعان به على عمل فلم يزل معطلاً إلى أن مات، والله أعلم.

الرشيد يأمر بقتل أبي نواس:

ويحكى أن هارون الرشيد أمر بقتل أبي نواس فقال: أتقتلني شهوةً لقتلي؟ فقال: لا، بل أنت مستحق للقتل.

قال: فيم استحقيت القتل؟ قال: بقولك:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ::: ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهر

فقال: يا أمير المؤمنين، أفتعلم أنه سقاني وشربت؟ فقال له أمير المؤمنين: أظن ذلك.

---

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٨٣، ٨٤.

فقال: يا أمير المؤمنين، أفتقتلني على الظن، وقد قال الله تعالى:{إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ} [الحجرات: ١٢].

فقال له الرشيد: قد قلت ما تستحق به القتل.

فقال: ما هو؟ فقال له: قولك:

ما جاءنا أحدٌ يخبر أنه ::: في جنةٍ من ماتَ أو في نار

فقال له: يا أمير المؤمنين! هل جاءنا أحدٌ؟ قال: لا.

قال: أتقتلني على الصدق؟ فقال له الرشيد: أولست القائل:

يا أحمدُ المرتجى في كل نائبة ::: قم سيدي نعص جبار السماوات

فقال له: يا أمير المؤمنين! أو صار القول فعلاً؟ قال: لا أعلم.

قال: أفتقتلني على ما لم تعلم.

فقال له أمير المؤمنين: دع هذا كله، فقد اعترفت في مواضع كثيرة من شعرك بالزنا.

قال أبو نواس: قد علم الله هذا قبل علم أمير المؤمنين بقوله تعالى: {وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾} [الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦].

فقال الرشيد: خلوا عنه.

ومن هذا أخذ الصفي الحلي فقال:

نحن الألى جاء الكتاب مخبراً ::: بعفاف أنفسنا وفسق الألسن

تغفر ذنوبه بأبياتٍ:

وعن محمد بن نافع، قال: رأيت أبا نواس في النوم بعد موته، فقلت: يا أبا نواس!.

فقال: لا حين كنيت.

فقلت: الحسن بن هانئ.

قال: نعم.

قلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بأبياتٍ قلتها على علتي قبل موتي

هي تحت الوسادة.

فسألت أهله فقلت: هل قال أخي شعراً؟ قالوا: لا نعلم! إلا أنه دعا بدواة وقرطاس وكتب شيئاً لا ندري ما هو.

فدخلت ورفعت وسادته وإذا أنا برقة مكتوب فيها:

يا رب! إن عظمت ذنوبي كثرةً ::: فلقد علمت بأن عفوك أعظم

إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ ::: فمن الذي يدعو ويرجو المجرم

ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرجا ::: وجميل عفوك ثم إني مسلم (١)

وما جرى بينهما على يد القاضي بسبب الجراب:

قيل: إن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة، فاستدعى بوزيره جعفر البرمكي، فلما حضر عنده قال له: يا جعفر، إني قلقت وضاق صدري وأريد منك شيئاً يشرح خاطري.

فقال له جعفر: يا أمير المؤمنين، إن لي صديقاً اسمه علي العجمي، وعنده من جميع الحكايات والأخبار.

فقال: علي به.

فقال: سمعاً وطاعةً.

ثم إن جعفراً خرج من عند الخليفة في طلب علي العجمي، فأرسل خلفه فلما حضر قال: أجب أمير المؤمنين.

قال: سمعاً وطاعة.

فأتى الخليفة فسلم وترحم، فقال له: اجلس فجلس، فقال له الخليفة: اسمع يا علي، إنني الليلة ضيق الصدر، وسمعت عنك أن في ذهنك حكاياتٍ وأخباراً وأريد منك أن تسمعني ما يزل همي وفكري.

فقال: يا أمير المؤمنين، تريد أن أحكي لك شيئاً سمعته أو رأيته؟ فقال: إن كنت رأيت شيئاً فاحكه.

فقال: سمعاً وطاعة؟! اعلم يا أمير المؤمنين أني سافرت في بعض السنين من بلدي إلى هذه المدينة، وهي بغداد، وصحبني غلام ظريف

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٨٤.

ومعه جراب نظيف، فأودعني إياه. فبينا أنا أبيع وأشتري، وإذا أنا برجل كردي ظالم معتد هجم علي وأخذ الجراب مني وقال: هذا الجراب جرابي، وكل ما فيه قماشي وثيابي.

فقلت: يا معشر الناس قد اعتراني الوسواس.

فقال الناس جميعاً: امضوا إلى القاضي، وكل بحكمه راضي.

فدخلنا عليه، وتمثلنا بين يديه، فقال القاضي: في أي شيء جئتما؟ فقال الكردي: نحن خصمان.

قال: أيكما المدعي؟ فتقدم الكردي، وقال: أيد الله مولانا القاضي! هذا الجراب جرابي، وكل ما فيه قماشي وثيابي، وقد ضاع ووجدته مع هذا الرجل.

فقال القاضي: ومتى ضاع منك؟ فقال الكردي: ضاع مني بالأمس.

فقال القاضي: إن كنت عرفته فصف لي ما فيه.

فقال الكردي: إن في جرابي هذا مرودين من لجين، وأكحالاً لعينين، ومنديلاً لليدين، ومشربتين مذهبتين، وشمعدانين ومكبتين وطبقين، وإبريقين، وصينية وطشتين، وقدر ودستين، ومغرفة وملعقتين، ومسلة ومقلمةً وملبتين، وقعباً وقصعتين، ومخدة ونطعين، وجبة وفروتين، وبقرة وعجلتين، وعنزاً وشاتين، ونعجة وخروفين، وقطين أبلقين، وجملاً وناقتين، وبقرة وثورين، ولبوة وسبعين، ودبة وثعلبين، ومرتبة وسريرين، وطبقة وقاعتين، ورواقاً ومقعدين، ومطبخاً ببابين، وجماعة أكرادٍ يشهدون أن الجراب جرابي.

فقال القاضي: فما تقول أنت يا علي؟ فتقدمت يا أمير المؤمنين، وقد بهتني كلامه فقلت: أعز الله مولانا القاضي، أنا ما في جرابي إلا دويرة حراب وأخرى بلا باب ومقصورة للكلاب وفيه للصبيان كتاب وشبان يلعبون بالكعاب، وفيه عساكر وأطناب ومدينة بصرى وبغداد، وقصر كنعان بن شداد، وكور وحداد، وشبكة وصياد وعصا وأوتاد، وبنات وأولاد وألف قواد يشهدون أن الجراب جرابي.

فلما سمع الكردي هذا الكلام بكى وانتحب وقال: يا سيدي القاضي،

جرابي هذا معروف، وكل ما فيه موصوف، في جرابي هذا حصون وقلاع وقرى وضياع وطابق للصِراع ووحوش وضباع ورجال يلعبون الطابة والرقاع، وإن في جرابي هذا حجرة ومهرين وفحلاً وحصانين ورمحين طويلين وسبعاً وأرنبين، وسكيناً وخنجرين، وبحراً وخليجين، وكمراً وجوختين، وعشاري وموكبين، وصاري وقريتين، وكوراً ودكانين، ومنقلة ونردين، وعجوزاً وقحبتين، وقواداً وشاطرين ومخنثاً وعلقين وأعمى وبصيرين وأعرج وكسيحين وعياراً وأزعرين وجامعاً ومدرستين وديراً وكنيستين وقسيساً وشماسين وبطركاً وراهبين وقاضياً وشاهدين يشهدون أن الجراب جرابي.

فقال القاضي: ما تقول أنت يا علي.

فبادرت يا أمير المؤمنين، وقد امتلأت غيظاً وزدت في الحمق وقلت: أيد الله مولانا القاضي! إن في جرابي هذا زردخانات صِفاح، وخزائن سلاح، وألف كبش نطاح في عشرين مراح، وأربعين كلباً نباح، وبساتين وكروم عنب وتين وتفاح، وصوراً وأشباحاً وقناني وأقداحاً وعرائس ملاحاً ومغاني وأفراحاً وهرجاً وصياحاً وعبداً وفلاحاً وأخاه نجاحاً ورفيقه صباحاً، ومعهم سيوف ورماح، وقسي ونشاب وأصدقاء وأحباب وخلان وأصحاب ومجلس للعتاب وندمان للشراب، وطنبور مع رباب، ونايات وقنان مصفوفات، وصبيان ودايات، وأخوات معلمات، وبنات متجليات وجوار مغنيات وجوار حبشيات وثلاث هنديات وأربع بدويات وخمس روميات وست تركيات وسبع عجميات وثماني قفجيات وتسع كرجيات وعشر كلبات، والدجلة الفرات وشبكة وصياد وقداحة وزناد، وإرم ذات العماد، وألف جواد، وقصر شداد بن عاد، وخانات مع حمامات، وقدوم ونجار وخشبة مع مسمار وتاجر مع عطار، وبزار مع بيطار، وعبد أسود بمزمار ومقدم وركبدار ومدن وأمصار ومائة ألف دينار، وبواب وكشدار ورأس نوبة، وعلم دار، والكوفة مع الأنبار وعشرين صندوقاً ملأى قماشاً ودكان نحاس، وحاصل معاش، وبرجان للحمام وغزة وعسقلان، ومن دمياط إلى أسوان وإيوان كسرى وملك سليمان، ومن كوش نعمان إلى أرض خراسان وبلخ وأصبهان ومن الهند

إلى بلاد السودان، وفيه أطال الله عمر مولانا القاضي، قماش وغلائل وعراض وموسى بحد ماض، يحلق ذقن مولانا القاضي، إن حكم أن الجراب ما هو جرابي.

فعند ذلك يا أمير المؤمنين حار القاضي مما سمع ثم قال: ما أراكما إلا شخصين نحسين تلعبان بالقضاة والحكام لأنه ما وصف الواصفون ولا سمع السامعون ما وصفتم في هذا الجراب، ما هذا إلا بحر ليس له قرار.

ثم أمر القاضي بفتح الجراب ففتحه الكردي، فإذا فيه خبز وليمون، وجبن وزيتون، ثم إني رميت الجراب قدام القاضي والكردي، ومضيت إلى حال سبيلي.

فلما سمع أمير المؤمنين ذلك ضحك حتى استلقى على قفاه وقد زال همه وغمه، وأحسن جائزة علي العجمي، وانصرف والله أعلم(١).

الرشيد في منزل إبراهيم الموصلي:

وحكى مسرور الخادم أن الرشيد قصد الركوب في غير عادته، فقلت له: أين تريد يا أمير المؤمنين في هذا الوقت؟ قال: إلى منزل إبراهيم الموصلي.

قال: فمضى حتى انتهى إلى منزل إبراهيم الموصلي، فخرج وتلقاه وقبل حافر حماره، وقال: يا أمير المؤمنين في مثل هذه الساعة تظهر؟ قال: نعم، شوق طرق بي إليك. ثم نزل وجلس في طرف الإيوان وأجلس إبراهيم، فقال له إبراهيم: يا سيدي استنبطنا شيئاً نأكله قبل الشراب.

قال: نعم. فجاء بمطعوم كأنما كان معداً له، فأصاب منه يسيراً، ثم دعا بشراب حمل معه، فقال له الموصلي: يا سيدي أغنيك أم تغنيك إماؤك؟ قال: بل الجواري.

فخرجت جواري إبراهيم فأخذن صدر الإيوان وجانبيه، فقال إبراهيم: أيضربن كلهن أم واحدة واحدة؟ فقال: بل يضربن اثنتان اثنتان، وواحدة

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٨٤ - ٨٥.

واحدة تغني.

قال: فضربن اثنتان وغنت واحدة منهن، فقالت:

إذا دعــا باسمهــا داعٍ يحــدثني ::: كادت لها مهجتي من حرهــا تقــع
لو أن لي صبرها أو عنــدها جزعــي ::: لكنــت أعقــل مــا آتي ومــا أدع
لا أحمل اللوم فيهــا، والغــرام بهــا ::: ما كلف الله نفساً غــير مــا تــسع

ثم غنت أخرى، فقالت:

طرقتــك زائــرةٌ فحــي خيالهــا ::: بيــضاء تخلــط بالجمــال دلالهــا
هل يطمسون من الــسماء نجومهــا ::: بــأكفهم أو يطمــسون هلالهــا
شهدت مــن الأنفــال آخــر آيــةٍ ::: فــأردتموا بمحــالكم إبطالهــا

ثم غنت أخرى، فقالت:

شطت سعاد وأضحى البين قد أبــدا ::: وأورثتك ســقاماً يــصدع الكبــدا
فما احتيالك في جد الرحيــل بهــم ::: وخلفــوك غــداة الــبين، منفــردا
لا أستطيع لهــم صــبراً ولا جلــداً ::: ولا تــزال أحــاديثي بهــم جــددا

قال: فقام حتى وصل إلى صدر الإيوان، وأخذ بجانبيه والرشيد يسمع ولا ينصت لشيء من غنائهن، إلى أن غنته صبية من صدر الإيوان من حاشية الصفة هذين البيتين لأبي نواس:

يا موري الزند قد أعيــت قوادحــه ::: أقبس بما شئت من قلــبي بمقبــاس
ما أقبح الناس في عــيني وأسمجهــم ::: إذا نظرت فلم أنظــرك في النــاس

فطرب الرشيد لغنائهما واستعاد الصوت مراراً وشرب أرطالاً، وسأل الجارية عن صانعه، فأمسكت فاستدناها، فتقاعست، فأمر بها، فأقبلت بين يديه، فأخبرته بشيء أسرته إليه، فدعا بحماره فركبه، ثم التفت إلى إبراهيم الموصلي، فقال له: ما ضرك أن تكون خليفة.

فكادت روحه تخرج حتى دعاه بعد ذلك وأدناه. قال: وكان الذي أخبرته به سراً أن الصنعة في الصوت لأخته علية بنت المهدي، وكانت الجارية لها، فوجهتها إلى إبراهيم الموصلي يطارحها، ومن قول أبي نواس:

دع عنك لومي فإن اللومَ إغراءُ ::: وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ::: لو مسها حجر مسته سراء
من كف ذات حر في زي ذي ذكر ::: لها محبان لواطٌ وزناءُ
قامت بإبريقها، والليل معتكرٌ ::: فلاح من وجهها في البيت لألاء
أرسلت من فم الإبريقِ صافيةً ::: كأنما أخذُها بالعين إغفاءُ
رقت عن الماء حتى ما يلائمها ::: لطافةً وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها ::: حتى تَولد أنوارٌ وأضواءُ
دارت على فتية دان الزمان لهم ::: فما يُصيبهمو إلا بما شاؤوا
فقل لمن يدعي في العلم فلسفةً ::: حفظت شيئاً وغاب عنك أشياء

وقال الشاعر:

كعصفورة في كف طفلٍ يهينها ::: تذوق مرار الموت، والطفل يلعب
فلا الطفلُ ذو عقل يرِق لحالها ::: ولا الطيرُ مطلوق الجناحين يهرب (١)

يا أحمق:

قال المأمون تدرون ما جرى بيني وبين أمير المؤمنين هارون الرشيد كان لي إليه ذنب فدخلت مسلمًا عليه فقال: اغرب يا أحمق فانصرفت مغضبًا ولم أدخل إليه أيامًا فكتب إلي رقعة يقول:

ليت شعرى وقد تمادى بك الهجر أمنك التفريط أم كان منى إن تكن خنتنا فعنك عفا الله وان كنت خنتكم فاعف عنى فسرت إليه فقال: إن كان الذنب لنا فقد استغفرناك وان كان لك فقد غفرناه فقلت له: قلت لي يا أحمق ولو قلت لي: يا أرعن كان أسهل علي فقال ما الفرق بينهما؟ قلت له الرعونة: تتولد عن النساء فتلحق الرجل من طول صحبتهن فإذا فارقهن وصاحب فحول الرجال زالت عنه وأما الحمق فإنه غريزة (٢).

هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله:

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ١٣١ - ١٣٢.
(٢) ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص٢٤.

حدث عبد الرحمن بن مسهر قال ولاني القاضي أبو يوسف القضاء بجبل وبلغني أن الرشيد منحدر إلى البصرة فسألت أهل جبل أن يثنوا علي فوعدوني أن يفعلوا ذلك وتفرقوا فلما آيسوني من أنفسهم سرحت لحيتي وخرجت فوقفت له فوافى وأبو يوسف في الحراقة فقلت: يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضي جبل قد عدل فينا وفعل وصنع وجعلت أثني على نفسي فرآني أبو يوسف فطأطأ رأسه وضحك فقال هارون: مم تضحك؟ فقال: إن المثني على نفسه هو القاضي فضحك هارون حتى فحص برجليه وقال: هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله فعزلني (١).

والله لقد كنت أسوأ الناس حالا:

وعن محمد بن المبرد عن الحسن بن رجاء أن الرشيد لما غضب على ثمامة دفعة إلى سلام الأبرش وأمره أن يضيق عليه وأن يدخله بيتا ويطين عليه ويترك فيه ثقبًا ففعل دون ذلك وكان يدس إليه الطعام فجلس سلام عشية وهو يقرأ في المصحف فقرأ: ويل يومئذ للمكذبون فقال ثمامة: إنما هو المكذبين، وجعل يشرح ويقول المكذبون هم الرسل والمكذبين هم الكفار، فقال: قد قيل لي: إنك زنديق ولم أقبل ثم ضيق عليه أشد الضيق.

قال ثم رضي الرشيد عن ثمامة، فجالسه فقال: أخبروني عن أسوأ الناس حالا، فقال: كل واحد شيئا قال ثمامة وبلغ القول إلي فقلت يا أمير المؤمنين عاقل يجري عليه حكم جاهل فتبينت الغضب في وجهه فقلت: يا أمير المؤمنين ما أحسبني وقعت بحيث أردت قال: لا والله فانشرح فحدثته بحديث سلام فضحك حتى استلقى وقال: صدقت والله لقد كنت أسوأ الناس حالا(٢).

جمال الوجه فتنةٌ لعباد الله:

قال حليّلان المغنّي: دخلت دار هارون الرّشيد فإذا أنا بجاريةٍ خماسيّةٍ، أحسن النّاس وجهاً، على يدها سطران مكتوبان بالغالية،

---

(١) المصدر السابق، ص١٠١ - ١٠٢.

(٢) ابن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، ص١٥١، ١٥٢.

فقرأتهما فإذا هما ممّا عمل في طران الله، فتنة لعباد الله وقال بعضهم: سمعت يحيى بن سفيان يقول: رأيت بمصر جاريةً بيعت بألف دينارٍ، فما رأيت وجهاً قط أحسن من وجهها صلّى الله عليها. قال: فقلت له يا أبا زكريّا، مثلك يقول هذا مع ورعك وفقهك؟ فقال: وما تنكر عليّ من ذلك؟ صلّى الله عليها وعلى كلّ مليحٍ: يا بن أخي الصّلاة رحمة[1].

على العهد باقيةٌ:

قال الأصمعي: قال لي الرّشيد: امض إلى بادية البصرة فخذ من تحف كلامهم وطرف حديثهم. فانحدرت، فنزلت على صديقٍ لي بالبصرة، ثمّ بكّرت أنا وهو على المقابر، فلمّا صرت إليها إذا بجاريةٍ نادى إلينا ريح عطرها قبل الدّنوّ منها، عليها ثيابٌ مصبغاتٌ وحلى، وهي تبكي أحرّ بكاء. فقلت: يا جارية ما شأنك؟ فأنشأت تقول:

فإن تسألاني فيم حزني؟ فإنّني ::: رهينة هذا القبر يا فتيان.
أهابك إجلالاً، وإن كنت في الثّرى، ::: مخافة يومٍ أن يسؤك مكاني
وإنّي لأستحييك، والتّرب بيننا، ::: كما كنت أستحييك حين تراني

فقلنا لها ما رأينا أكثر من التّفاوت بين زيّك وحزنك فأخبري بشأنك؟ فأنشأت تقول:

يا صحب القبر، يا من كان يؤنسني ::: حيّاً، ويكثر في الدّنيا مواساتي،
أزور قبرك في حليٍّ وفي حلل، ::: كأنّني لست من أهل المصيبات؛
فمن رآني، رأى عبرىً مفجعةً ::: مشهورة الزّيّ تبكي بين أمواتي.

فقلنا لها: وما الرّجل منك قالت: بعلي، وكان يجب أن يراني في مثل هذا الزّيّ، فآليت على نفسي أن لا أغشى قبره إلاّ في مثل هذا الزّيّ لأنّه كان يحبّه أيّام حياته، وأنكرتماه أنتما عليّ.

قال الأصمعي: فسألتها عن خبرها ومنزلها. وأتيت الرّشيد فحدّثته بما سمعت ورأيت، حتّى حدّثته حديث الجّارية. فقال: لا بدّ أن ترجع حتّى تخطبها إليّ من وليّها، وتحملها إليّ، ولا يكون من ذلك بد. ووجّه معي خادماً ومالاً كثيراً. فرجعت إلى قومها فأخبرتهم الخبر، فأجابوا وزوّجوها

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء،ص٤.

من أمير المؤمنين وحملوها معنا وهي لا تعلم. فلمّا صرنا إلى المدائن نما إليها الخبر، فشهقت شهقة فماتت، فدفنّاها هنالك. وسرت إلى الرّشيد فأخبرته الخبر، فما ذكرها وقتاً من الأوقات إلاّ بكى أسفاً عليها[١].

زوجة الرّشيد ومخارق:

قال إسحاق بن إبراهيم: كان مخارق يهوى البهار جارية أمّ جعفر وشغف بها حتّى أفضى غايته في حبّها. فبينما هو منصرفٌ ذات ليلةٍ من دار المأمون في دجلة، وقد عمل الشّراب فيه، وأمّ جعفر جالسة في دارها على دجلة إذ رفع عقيرته يغنّي شعر عبّاس بن الأحنف:

إن يمنعوني ممرّي قرب داركم، ::: فسوف أنظر من بعد إلى الدّار
ما ضرّ جيرانكم، والله يكلؤهم، ::: لولا شقائي إقبالي وإدباري
لا يقدرون على منعي، وإن جهدوا ::: إذا مررت، وتسليمي بإجهاري

فسمعت أمّ جعفر صوته فأمرت خدّامها فصاحوا بملاحة فقدم وصعد إليها، فدعت له بكرسيٍّ وصينيّةٍ فيها نبيذٌ فشرب، وخلعت عليه وقالت لجواريها: أضربن معه. فكان أوّل ما تغنّى به:

أغيب عنك بودٍّ لا يغيره ::: نأي المحلّ ولا صرفٌ من الزّمن
فإن أعش فلعلّ الدّهر يجمعنا ::: وإن أمت فبطول الشّوق والحزن
قد حسّن في عينيّ ما صنعت ::: حتّى أرى حسناً ما ليس بالحسن

قال، فاندفعت البهار تباريه في الصّوت وتغنّي:

تعتلّ بالشّغل عنّا لا تكلّمنا ::: والشّغل للقلب ليس الشّغل للبدن

فضحكت أمّ جعفر، وقالت، ما رأيت ولا سمعت قط بأحسن من هذا. ووهبت له الجّارية فأخذها وانصرف[٢].

أخذ الجّارية والعتيدة والدّنانير:

قال إبراهيم بن الخطيب: حدّثني مخارق قال: كنت عند الرّشيد فلمّا أراد الانصراف قال لي: يا مخارق بكّر عليّ. فقلت: نعم يا أمير

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء،ص٣٧.
(٢) ابن الجوزي، أخبار النساء،ص٥٤.

المؤمنين. فلمّا أصبحت بكّرت أريد ما ذكره، فإذا جارية راكبة وهي أحسن النّاس عينين في النّقاب، فنظرت إليها، ونظرت إليّ، فلم أملك نفسي وتعشّقتها وتبعتها حتّى دخلت منزل المعبدي الهاشمي، فقلت لغلماني: إذا كان المغرب فصيروا إليّ، فإذا كنت في الدّنيا خرجت إليكم، وإذا كنت متّ فقد قضيت وطراً. قال: واقتحمت ودخلت الدّار، فإذا جماعةٌ مجتمعون وقد أحضروا طعاماً فأكلت معهم، وأحضر الشّراب، وغنّت الجّارية فإذا هي أحذق النّاس وأطيبهم، فغنّيت، فقال المعبدي: ما أحسنه وأبهاه، فمن هو؟ فقال له القوم: ما نعرفه. فقال: ما أظرف هذا يدخل منزلي بغير أمري أبغوا إليّ صاحب الشّرطة. وكلّ ذلك بمسمعي، قالت الجّارية: يا مولاي لا تفعل، لعلّ له عذراً. فبحياتي هب لي جرمه فقد رحمته، وأحسب أنّ هذه صناعته. قال: فطابت نفسي فلمّا خرجت قال لي: يا فتى تغنّي؟ فقلت: نعم. فغنّيت، فطرب القوم وقال المعبدي: إن كان في الدّنيا مخارق فأنت هو! قلت: نعم أنا مخارق وحدّثته حديثي والسّبب في دخول منزله، فسرّ وفرح ودعا بدواةٍ وقرطاسٍ وأقبل يكتب ويعود إليه الجواب، ثمّ وزن مالاً ووجّه به.

فلمّا كان بالعشيّ قال: يا غلام هات تلك العتيدة. فأحضر عتيدةً مملوءةً طيباً، وقال: هات ذلك التّخت. فأحضره إيّاه، فقال: أتدري ما نحن فيه: قلت: لا. قال: قد اشتريت لك الجّارية بأربعين ألف دينار، وهذه عتيدةٌ فيها طيب، وتخت ثياب. فأخذت بيدها وانصرفت بها عروساً، فلمّا أصبحت بكّرت على الرّشيد فقال لي: يا بن الفاعلة أين كنت؟ فحدّثته الحديث فسرّ به، وقال: ما توهّمت أنّ في أهلي مثل هذا. وأمر من ساعته أن يحمل إليه أربعون ألف دينار[1].

دخل وأجبر على تركها:

وروي عن يحيى بن خالد بن برمك قال: كنت أهوى جاريتي دنانير، وهي لمولاتها زهراء، فلمّا وضع المهدي الرّشيد في حجري اشتريتها؛ فلم أسرّ بشيءٍ من الدّنيا مثل سروري بها وبملكها، فما لبثت إلاّ يسيراً

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء،ص٥٥.

حتّى وجّه المهدي ابنه الرّشيد غازياً إلى بلد الرّوم، فخرجت معه، فعظم على فراقها، فأقبلت لا أتهنّأ بطعام ولا شرابٍ صبابة بها وذكراً لها. فأنا ليلةً في مضربي، وقد أصابني بردٌ شديدٌ وثلجٌ كثيرٌ، وأنا أتقلّب على فراشي أذكر الجّارية، إذ سمعت غناءً خفيّاً وصوت عودٍ بالقرب منّي. فأنكرت ذلك وجلست على فراشي فأشجاني الصّوت من غير أن أفهم حتّى أبكاني. فقمت، ولم أوقظ أحداً من العسكر، حتّى انتهيت إلى خيمةٍ صغيرةٍ من خيام الجند، فإذا فيها سراجٌ، فدنوت منها، فإذا فتىً جالسٌ، وإذا بين يديه ركوةٌ فيها شرابٌ وفي حجره عودٌ يضرب عليه ويتغنّى بهذا الصّوت:

ألا يا لقومي أطلقوا غلّ مرقمن ::: ومنّوا على مستشعر الهمّ والحزن.
ألم ترها بيضاء، روداً شبابها ::: لطيفةٌ طيّ البطن كالشّادن الأغن

قال: فكلّما غنّى بيتاً بكى وتناول قدحاً فصبّ فبه من ذلك الشّراب، وشرب، ثمّ يعود إلى مثل ذلك.

قال: فأقمت طويلاً أرى ما يفعل وأبكي لبكائه، ثمّ سلّمت فردّ السّلام، واستأذنت فأذن لي فدخلت، فلمّا رآني أجلّني وأوسع لي. فقلت: يا فتى خبّرني بخبرك، وما أنت فيه، وما سبب هذا البكاء؟ قال: أنا فتًى من الأبناء، لي ابنة عمٍّ قد نشأنا جميعاً فعلقتها وعلقتني، ثمّ بلغنا فحجبت عنّي، فسألت عمّي ليزوّجنيها فأجاب، فمكثت حيناً أحتال لمهرها حتّى تهيّأ فأدّيته، فدخلت بها، فلمّا أن كان يوم سابعها ضرب عليّ البعث وخرجت وبي من الشّوق إليها ما لا أجده، فحملت معي هذا العود، فإذا أصبت شراباً في بعض هذا القرى أخذت منه شيئاً، ثمّ أفعل ما ترى تذكاراً إليها.

فقلت: فهل تعرفني؟ فأنكرني، فما أدري أتعمّداً أم حقيقةً.

قال: فقلت له: أنا يحيى بن خالد، فلمّا قلت له ذلك نهض قائماً. فقلت: اجلس، فإذا كان غداً فألقني، فهذا مضربي بالقرب منك، فإنّي أصير منك إلى ما تحب.

قال: ووافق ذلك رسولاً قد هيّأناه إلى المدينة، فما كان أسرع شيءٍ

حتّى دنا الصّبح وتهيّأ النّاس للرّحيل، فأوّل من لقيني ذلك الفتى، فأثبت وجهه وقلت له: من أنت، وفي قيادة من أنت؟ فخبّرني، فمضيت حتّى دخلت على الرّشيد ومعي المؤتمرات، فكنت آمرها على سمعة من عنوانٍ يكون له فيها، فقلت وفتىً من الأنباء فلان بن فلان يطلق سراحه ويعطى عشرة آلاف درهمٍ معونةً له ويصحب فلاناً الرّسول. ففعل ذلك وانصرف إلى أهله[١].

زوّجها الرّشيد وأمر لها بالمال:

قال إبراهيم بن المهدي: حجت مع الرّشيد، فلمّا كنّا بالمدينة خرجت إلى العقيق أسير على دابّتي وليس معي غلامٌ، فوقفت على بئر عروة وعليها جاريةٌ سوداء وفي يدها دلوٌ تملأ قربةً لها، فقلت: يا هذه اسقني. فنظرت إليّ وقالت: أنا مشغولةٌ عنك. فقرعت قربوسي بمقرعتي موقّعاً بها على القربوس، وغنّيت. فلمّا سمعت ذلك منّي ملأت دلوها وبادرت به إليّ وقالت: اشرب يا عمّ فشربت، فقالت: بالله يا عم أين أهلك أحمل إليهم هذه القربة؟ فقلت: بين يدي. فمضت معي حتّى أتت المضرب فلمّا رأت الولدان والخدم ذعرت، فقلت لها: لا بأس عليك. وأخذت الماء وأمرت من وصله، فقال لي الغلمان: قد جاء رسول أمير المؤمنين مراراً فمضيت إليه، فقال لي: أين كنت؟ فأخبرته بخبر الجّارية، فأمر بطلبها، فأتي بها، فأمر بابتياعها من مولاها، وأعتقها، وقال لها: هل من تودّينه يودّك وتحبّينه يحبّك؟ قالت: نعم عبدٌ لآل فلان. فأمر بابتياعه وأعتقه ثمّ زوّجها إيّاه، وأمر لهما بمالٍ.

أرجعه من اليمن وزوّجه من يحب:

حجّ الرّشيد سنة إحدى عشرة من خلافته، فلمّا نزل بالكوفة، بعد قفوله من الحج، دعا إسماعيل بن صبيح فقال: إنّي أردت الليلة أن أطوف في محال الكوفة وقبائلها فتأهبّ لذلك، قلت: نعم. فلمّا مضى ثلث الليل قام وقمت معه، وركب حماراً وركبت أنا آخر، ومعي خادمٌ ومعه خادمٌ من خاصّة خدمه. فلم نزل نطوف المحال والقبائل حتّى انتهينا إلى النّخع

---

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء،ص٦١.

فسمعنا كلاماً. فقال الرّشيد لأحد الخادمين: أدن من الباب وتعرّف ما هذا الكلام؟ فتطلّع من موضع في الباب فرأى نسوةً يغزلن حول مصباح وجاريةٍ منهنّ تنشد شعراً وتردّد أبياته وتتبّع كلّ بيتٍ برنةٍ وأنّةٍ، وتبدي زفرةً: وتفيض عبرةً، والنّسوان اللواتي معها يبكين لبكائها فحفظ الخادم من شعرها هذه الأبيات:

هل أرى وجه حبيبٍ شفني ::: بعد فقدانيه، أفراط الجزع

قد برى شوقي إليه أعظمي، وبلى قلبي هواه وفزع.

ليت دهراً مرّ، والقلب به ::: جذلٌ، والعيش حلوٌ قد رجع

وعفت آثاره منه فيا ::: ليت شعري، ما به الدّهر صنع؟

قد تمسّكت على وجدي به ::: بجميل الصّبر، لو كان نفع

فقال للخادمين: اعرفا الموضع إلى غد. ورجعنا إلى البصرة، فلمّا طلع الفجر وفرغ من صلاته وتسبيحه، قال للخادمين: أمضيا إلى الدّار فإن كان فيها رجلٌ من وجوه الحيّ فجيئا به حتّى أسأله عمّا أريده. فسار الخادمان إلى الدّار فلم يجدا فيها رجلاً، فدخلا إلى مسجد الحيّ فقالا لأهله: أمير المؤمنين يقرأ عليكم السّلام ويقول لكم: أحببت أن يجيئني منكم أربعةٌ أسألهم عن أمرٍ. قالوا: سمعاً وطاعةً. وقاموا معهما فدخلوا على الرّشيد، فقرّبهم وأدناهم، وقال لهم: طفت البارحة في بلدكم تفقداً لأحوالكم، فسمعت في دارٍ من دياركم امرأةً تنشد شعراً وتبكي. وقد خفت أن تكون مغيبةً، وأنّ نزاع النّفس أهون من نزاع الشّوق، وقطع الأوصال أهون من قطع الوصال، وقد أحببت أن أعرف خبرها منكم.

قالوا: يا أمير المؤمنين، هذه البارعة بنت عوف بن سهم كان أبوها زوّجها ابن عمٍّ لها يقال له سليمان بن همام على عشرة آلاف درهمٍ، فهلك أبواهما من قبل أن يجتمعا، فاكتتب زوجها مع عاملك إلى اليمن لقلّة ذات يده، وخرج منذ خمس سنين، فحزنت عليه، وطال شوقها إليه، فهي تنشد الأشعار فيه وتستريح إلى ذكره. فأمر الرّشيد من ساعته أن يكتب إلى عامله باليمن في حمل سليمان بن همام على البريد إلى حضرته إلى بغداد.

فما مضت أيّامٌ بعد وصول الرّشيد حتّى دخل عليه إسماعيل بن صبيح، فقال: يا أمير المؤمنين قد وصل النّخعي الذي أمرت بحمله إليك. فأمر بإدخاله عليه، فنظر إلى رجلٍ معتدل القامة، ظاهر الوسامة، ذرب اللسان، حسن البيان، فقال: أنت سليمان بن همام؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين. قال له: أقصص عليّ خبرك! فقصّ عليه الخبر فوجده مطابقاً لمّا خبّره به الأربعة النّفر، فأمر له بعشرين ألف درهمٍ، فأخذ ذلك من يومه ورحل إلى الكوفة فدخل بأهله وكان الرّشيد يتعاهده ببرّه[1].

ما هذه؟

وبلغنا عن الرشيد أنه رأى يوماً في داره حزمة خيزران فقال لوزيره الفضل بن الربيع ما هذه؟ فقال عروق الرماح يا أمير المؤمنين، ولم يرد أن يقول الخيزران لموافقته اسم أم الرشيد[2].

ولكن هكذا قال لي أبو يوسف:

كان عند الرشيد جارية من جواريه وبحضرته عقد جوهر فأخذ يقلبه ففقده فاتهمها فسأله عن ذلك فأنكرت فحلف بالطلاق والعتاق والحج لتصدقنه فأقامت على الإنكار وهو متهم لها وخاف أن يكون قد حنث في يمينه فاستدعى أبا يوسف وقص عليه القصة فقال أبو يوسف: بتخليني مع الجارية وخادم معنا حتى أخرجك من يمينك ففعل ذلك فقال لها أبو يوسف: إذا سألك أمير المؤمنين عن العقل فأنكريه فإذا أعاد عليك السؤال فقولي قد أخذته فإذا أعاد عليك الثالثة فأنكري وخرج فقال للخادم: لا تقل لأمير المؤمنين ما جرى وقال للرشيد: سلها يا أمير المؤمنين ثلاث دفعات متواليات عن العقد فإنها تصدقك فدخل الرشيد فسألها فأنكرت أول مرة وسألها الثانية فقالت: نعم قد أخذته فقال: أي شيء تقولين؟ فقالت: والله ما أخذته، ولكن هكذا قال لي أبو يوسف: فخرج إليه، فقال:

(١) ابن الجوزي، أخبار النساء، ص ٧٩.
(٢) ابن الجوزي، الأذكياء، ص٢٢.

ما هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، قد خرجت من يمينك لأنها أخبرتك أنها قد أخذته وأخبرتك أنها لم تأخذه فلا يخلو أن تكون صادقة في أحد القولين وقد خرجت أنت من يمينك فسر ووصل أبو يوسف فلما كان بعد مدة وجد العقد [١].

هذه أجرة لوصفتك فإن نفعتنا زدناك:

قال ابن خلف: حدثني بعض أصحابنا، قال: بلغني أن الرشيد خرج يوماً متنزهاً وانفرد عن عسكره والفضل بن الربيع خلفه، فإذا هو بشيخ قد ركب حماراً له وفي يده لجام كأنه مبعر محشو فنظر إليه، فإذا هو رطب العينين فغمز الفضل عليه فقال له الفضل: أين تريد؟ قال: حائطاً لي. قال: هل لك أن أدلك على شيء تداوي به عينيك فتذهب هذه الرطوبة؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك قال له خذ عيدان الهواء، وغبار الماء وورق الكماة فصيره في قشر جوزة واكتحل به، فإنه يذهب عنك ما تجد قال فاتكأ على قربوسة فضرط ضرطة طويلة، ثم قال: تأخذ هذه أجرة لوصفتك فإن نفعتنا زدناك قال: فاستضحك الرشيد حتى كاد أن يسقط عن ظهر دابته [٢].

ما سلم الظبي على حسنه:

قال الأصمعي كنت عند أمير المؤمنين الرشيد إذ دخل رجل ومعه جارية للبيع فتأملها الرشيد ثم قال: خذ جاريتك فلولا كلف في وجهها وخنس في أنفها لاشتريتها فانطلق بها فلما بلغت الستر قالت: يا أمير المؤمنين، اردني إليك أنشدك بيتين حضراني فردها فأنشأت تقول:

ما سلم الظبي على حسنه ::: كلا ولا البدر الذي يوصف
الظبي فيه خنس بين ::: والبدر فيه كلف يعرف

فأعجبته بلاغتها فاشتراها، وقرب منزلها، وكانت أحظى جواريه عنده[٣].

(١) ابن الجوزي، الأذكياء، ص٣٦.
(٢) المصدر السابق، ص٦٤.
(٣) ابن الجوزي، الأذكياء، ص١٠٣.

يا أحسن الناس خلقاً وخلقاً؟

عن العباس بن رستم قال: دخلت أنا وأبان اللاحقي على جارية الناطفي في يوم صائف، وهي جالسة في الخيش فقال لها أبان:

لذة عيش الصيف في الخيش فقالت: لا في لقاء الجيش بالجيش.

فقلت لها معرضاً لها: ما أحسن ما قال جرير:

ظللت أراعي صاحبي تجلداً ::: وقد علقتني من هواك علوق

فقالت غير متوقفة:

إذا عقل الخوف اللسان تكلمت ::: بأسراره عين عليه نطوق

ثم عرضت على الرشيد، فدخلت عليه تتبختر، فقال لها: أتحبين أن أشتريك؟ قالت: ولم لا أحب ذلك يا أحسن الناس خلقاً وخلقاً؟ فقال لها: أما الخلق فظاهر فما علمك بالخلق؟ قالت: رأيت شرارة، قد طاحت على ثوبك من المجمر، لما جاء الخادم بالبخور إليك فسقطت على ثوبك فأحرقته، فو الله ما قطبت لها وجهاً، ولا راجعت من جناها حرفاً! فقال لها: والله لولا أن العيون قد ابتذلتك إبتذالاً، مشتركاً كبيراً، لاشتريتك ولكنه لا يصح للخليفة، من هذه سبيله! وردها إلى مولاها، فاشتراها طاهر بن الحسين بعد ذلك، وجعلها على خزانة طيبه، فقالت: عرضتني للغيرة! فاعفني من ذلك، واجعل إلي كسوتك، ففعل(١).

من زهد رجال الحديث:

قال محمد بن المنذر الكندي: وكان جاراً لعبد الله بن إدريس قال: حج الرشيد ومعه الأمين والمأمون فدخل الكوفة فقال لأبي يوسف: قل للمحدثين يأتونا يحدثونا، فلم يتخلف عنه من شيوخ الكوفة إلا اثنان عبد الله بن إدريس وعيسى بن يونس، فركب الأمين والمأمون على عبد الله بن إدريس فحدثهما بمائة حديث، فقال المأمون لعبد الله: يا عم! أتأذن لي أن أعيدها عليك ومن حفظي؟ قال: افعل، فأعادها كما سمعها فكان ابن إدريس من أهل الحفظ يقول: لولا أنني أخشى أن ينفلت مني القرآن ما

(١) أبو الفرج الأصبهاني، الإماء الشواعر، ٣/١.

رويت العلم، يعجب عبد الله من حفظ المأمون، وقال المأمون: يا عم! إلى جنب مسجدك دارٌ إن أذنت لنا اشتريناها ووسعنا بها المسجد، فقال: ما بي إلى هذا حاجة قد أجزأ من كان قبلي وهو يجزئني، فنظر إلى قرح في ذراع الشيخ فقال: إن معنا متطبين وأدوية، أتأذن لي أن يجيئك من يعالجك؟ قال: لا، قد ظهر بي مثل هذا وبرأ، فأمر له بمال وجائزة فأبى أن يقبلها وصار إلى عيسى بن يونس فحدثهما، فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم، فأبى أن يقبلها فظن أنه استقلها، فأمر له بعشرين ألفاً، فقال عيسى: لا ولا إهليلجة ولا شربة ماء على حديث رسول الله ، ولو ملأت لي هذا المسجد ذهباً إلى السقف، فانصرفا من عنده(١).

وكيف لا يكون ذلك؟

حدثنا محمد بن القاسم الأنباري، قال: حدثني أبي قال: حدثنا أبو محمد ابن أبي سعد، قال: حدثنا عبد الله بن الربيع، قال: حدثني بعض أصحابنا، قال: صنع الرشيد ذات ليلة بيتاً واضطرب عليه الثاني، فقال: علي بالعباس ابن الأحنف، فأتي به في جوف على حال من الذعر عظيمة، فقال له الرشيد: لا ترع، قال: وكيف لا يكون ذلك؟ وقد طرقت في منزلي في مثل هذا الوقت فلم أخرج من منزلي إلا والراعبة فيه، وأهلي لا يشكون في قتلي، فقال: إنما أحضرتُك لبيت قلته صعب علي أن أشفعه بمثله، قال: ما هو؟ قال:

جنانٌ قد رأيناها ::: فلم نر مثلها بشراً

فقال العباس:

يزيدك وجهها حسناً ::: إذا ما زدته نظراً

إذا ما الليل جن عليك ::: ك بالإظلام واعتكرا

ودج فلم تر قمرا ::: فأبرزها ترى قمرا

فقال الرشيد: أقل ما يجب علينا أن ندفع إليك دينك إذ نزل بك هذا الروع بعيالك منا. فأمر له بعشرة آلاف درهم وصرفه(٢).

---

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١/١٥.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١/٤٥.

من مخارج أبي يوسف الفقيهة:

قال حماد بن إسحاق الموصلي، قال: حدثني أبي، قال: حدثني بشر بن الوليد وسألته من أين جاء؟ قال: كنت عند أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي، وكنا في حديث طريف، قال: فقلت له: حدثني به قال: قال لي يعقوب: بينا أنا البارحة قد أويت إلى فراشي، فإذا داقٌّ يدق الباب دقاً شديداً، فأخذت علي إزاري وخرجت، فإذا هرثمة بن أعين فسلمت عليه فقال: أجب أمير المؤمنين، قلت: يا أبا حاتم! لي حرمة وهذا وقت كما ترى، ولمت آمن أن يكون أمير المؤمنين دعاني لأمر من الأمور، فإنك أمكنك أن تدفع بذلك إلى غدٍ فلعله أن يحدث له رأي، فقال: ما إلى ذلك سبيل، قلت: فما كيف كان السبب؟ قال: خرج إلي مسرور الخادم فأمرني أن آتي أمير المؤمنين بك، قلت: تأذن لي أن أصب علي ماء وأتحنط، فإن كان أمر من الأمور كنت قد أجدت وأحكمت أمري، وإن رزق الله تعالى العافية فلن يضر، فأذن لي فدخلت فلبست ثياباً جدداً وتطيبتُ بما أمكن من الطيب، ثم خرجنا حتى أتينا دار أمير المؤمنين الرشيد، فإذا مسرور واقف فقال له هرثمة: قد جئت به، فقلت لمسرور: يا أبا هاشم! خدمتي وحرمتي وميلي، وهذا وقتٌ ضيق، لِمَ طلبني أمير المؤمنين؟ قال: لا، قلت: فمن عنده؟ قال: عيسى بن جعفر، قلت:ومن؟ قال: ما عنده ثالث، قال: مر، فإذا صرت في الصحن فأته في الرواق وهو ذاك جالسٌ، فحرك رجلك بالأرض فإنه سيسألك، فقل له: أنا، فجئت ففعلت، قال: من هذا؟ قلت: يعقوب، قال: ادخل، فدخلت فإذا هو جالس وعن يمينه عيسى بن جعفر، فسلمت فرد علي السلام، وقال: أظننا روعناك؟ قلت: إي والله وكذاك من خلفي، قال: اجلس فجلست حتى سكن روعي، ثم التفت إلي فقال: يا يعقوب تدري لم دعوتك؟ قلت: لا. قال: دعوتك لأشهدك على هذا، إن عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع، وسألته أن يبيعها فأبى، ووالله لئن لم يفعل لأقتلنه، قال: فالتفتُّ إلى عيسى، فقلت: وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة؟ قال: فقال: عجلت علي في القول قبل أن تعرف ما عندي؟ قلت: وما في هذا الجواب؟ قال: إن علي يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك

ألا أبيع هذه الجارية ولا أهبها، فالتفت الرشيد فقال: هل له في ذلك مخرج؟ قلت: نعم، يهب لك نصفها ويبيعك نصفها، فيكون لم يهب ولم يبع، قال عيسى: ويجوز ذلك؟ قلت:نعم، قال: فأشهدك أني قد وهبت له نصفها وبعته النصف الباقي بمائة ألف دينار، فقال: الجارية، فأتي بالجارية وبالمال، فقال: خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها، قال: يا يعقوب؟ بقيت واحدة، قلت: وما هي؟ قال: هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ، ووالله لئن لم أبت معها ليلتي إني لأظن نفسي ستخرج، فقلت: يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها فإن الحرة لا تستبرأ، قال: فإني قد عتقتها فمن يزوجنيها؟ قلت: أنا، قال: فافعل، فدعا بمسرور الخادم وحسين فخطبت فحمدت الله وزوجته على عشرين ألف دينار، ودعا بالمال ودفعه إليها، ثم قال: يا يعقوب؟ انصرف، ورفع رأسه إلى مسرور فقال: يا مسرور؟ قال لبيك يا أمير المؤمنين، قال: احمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختاً ثياباً، فحمل ذلك معي. قال: فقال بشر بن الوليد: فالتفت إلي يعقوب فقال: هل رأيت بأساً فيما فعلت؟ قلت: لا، قال: فخذ منها حقك، قال: وما حقي؟ قال: العشر. فشكرته ودعوت له، ذهبت لأقوم فإذا بعجوز قد دخلت فقالت: يا أبا يوسف؟ ابنتك تقرئك السلام وتقول لك والله ما وصل إلي في ليلتي هذه من أمير المؤمنين سوى المهر الذي قد عرفته، وقد حملت إليك النصف منه وخلفت الباقي لما أحتاج إليه فقال: رديه فوالله لا قبلتها، أخرجتها من الرق وزوجتها أمير المؤمنين وترضى لي بهذا، فلم نزل نطلب إليه أنا وعمتي حتى قبلها وأمر لي بألف دينار(١).

خبر مقدم وكيع وابن إدريس وحفص على الرشيد:

قال أبو جعفر الضرير الكلبي، حدثني شيخ على باب بعض المحدثين، قال: سألت وكيعاً عن مقدمه وهو وابن إدريس وحفص على هارون الرشيد، فقال لي: ما سألني عن هذا أحد قبلك، قدمنا على هارون أنـــــــــــــــــــا

وعبد الله بن إدريس وحفص بن غياث، فأقعدنا بين السريرين فكان أول

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٧٠/١.

من دعا به أنا، فقال لي هارون: يا وكيع! فقلت: لبيك يا أمير المؤمنين قال: إن أهل بلدك طلبوا مني قاضياً وسموك لي فيمن سموا، وقد رأيت أن أشركك في أمانتي وصالح ما أدخل فيه من أمر هذه الأمة، فخذ عهدك وامض. فقلت: يا أمير المؤمنين! وإحدى عيني ذاهبة والأخرى ضعيفة؟ فقال هارون: اللهم غفراً، خذ عهدك أيها الرجل وامض، فقلت: يا أمير المؤمنين والله لئن كنت صادقاً إنه لا ينبغي أن تقبل مني وإن كنت كاذباً فلا ينبغي أن تولي القضاء كذاباً، فقال: اخرج، فخرجت، فدخل ابن إدريس فكأن هارون قد وسم له من ابن إدريس واسم، يعني خشونة جانبه، فدخل فسمعنا صوت ركبتيه على الأرض حين برك، وما سمعناه يسلم إلا سلاماً خفياً، فقال له هارون: أتدري لم دعوتك؟ قال: لا، قال: إن أهل بلدك طلبوا مني قاضياً وأنهم سموك لي فيمن سموا، وقد رأيت أن أشركك في أمانتي وأدخلك في صالح ما أدخل فيه من أمر هذه الأمة، فخذ عهدك وامض، فقال له ابن إدريس: لست أصلح للقضاء، فنكث هارون بإصبعه وقال له: وددت أني لم أكن مثلتك، قال له ابن إدريس: وأنا وددت أني لم أكن رأيتك، فخرج ثم دخل حفص بن غياث، فقال له كما قال لنا، فقبل عهده وخرج، فأتانا خادم معه ثلاثة أكياس في كل كيس خمسة آلاف دينار، فقال: إن أمير المؤمنين يقرئكم السلام ويقول لكم: قد لزمتكم مؤونة في شخوصكم فاستعينوا بهذه في سفرتكم، قال وكيع: أقرئ أمير المؤمنين السلام وقل: قد وقعت مني بحيث يحب أمير المؤمنين وأنا عنها مستغن، وفي رعية أمير المؤمنين من هو أحوج إليها مني، فإن رأى أمير المؤمنين أن يصرفها إلى من أحب، وأما ابن إدريس فصاح به: مر من ها هنا وقبلها حفص، وخرجت الرقعة إلى ابن إدريس من بيننا، عافانا الله وإياك سألناك أن تدخل في أعمالنا فلم تفعل، ووصلناك من أموالنا فلم تقبل، فإذا جاءك ابني المأمون فحدثه إن شاء الله، فقال للرسول: إذا جاء مع الجماعة حدثنا إن شاء الله، ثم مضينا، فلما صرنا إلى الياسرية حضرت الصلاة فنزلنا نتوضأ للصلاة، قال وكيع: فنظرتُ إلى شرطي محموم نائم في الشمس عليه سواده فطرحت كسائي عليه، وقلت: تدفأ إلى أن نتوضأ، فجاء ابن إدريس فاستلبه ثم قال: رحمته لا

رحمك الله، في الدنيا أحد رحم مثل ذا؟ ثم التفت إلى حفص وقال: قد علمت حين دخلت إلى سوق أسد فخضبت لحيتك ودخلت الحمام أنك ستلي القضاء، ولا والله لا كلمتك حتى تموت، فما كلمه حتى مات[١].

زبيري يقُتُّ بهاشم:

قال أبو زيد عمر بن شبة: لما قال الزبيري للرشيد فيما أغراه بيحيى بن عبد الله بن حسن وعند الرشيد يحيى، فقال: إن هذا يخبرني عنك بأمور إن صحت وجب علي تأديبك وإن أتى التأديب على نفسك. قال يحيى: يا أمير المؤمنين! إنما الناس نحن وأنتم، فإن خرجنا عليكم فيما أكلتم وأجعتمونا، ولبستم وأعريتمونا، وركبتم وأرحلتمونا، فوجدنا بذلك مقالاً فيكم ووجدتم بخروجنا عليكم مقالاً فينا يتكافأ فيه القول، ويعود أمير المؤمنين فيه على أهله بالفضل، يا أمير المؤمنين! فلم تجرئ هذا وضرباؤه على أهل بيتك؟ يسعى بهم عندك، والله ما يسعى بنا إليك نصيحة منه لك، وإنه ليأتينا فيسعى بك عندنا من غير نصيحة منه لنا، يريد أن يباعد بيننا ويشتفي من بعض ببعض، ووالله يا أمير المؤمنين إنه للخائن ابن الخائن، يسقط بين اللحاء والقضيب، يريد أن يوهنهما جميعاً حسداً وبغياً وغلاً، ثم التفت إلى الزبيري متمثلاً بقول الشاعر:

وقد يسود عصر السوء مثلكم ::: وقد يعود رءوس الناس أذنابا

وقد قال بعض أهلك:

أليس من إلقاء الزمان على استه ::: وقوف زبيري يقت بهاشم
إذا ما رآهم كان همزاً ولامزاً ::: لأعراضهم مينا وبغياً لحازم

قوله: يقت معناه ينم، وقال: لا يدخل الجنة قتات، وروي عن النبي أنه لعن القتات يعني النمام[٢].

أبو إسحاق الفزاري يرد على اتهام الرشيد له:

قال الأصمعي: كنت جالساً بين يدي هارون الرشيد أنشده شعراً، وأبو يوسف القاضي جالس على يساره، فدخل الفضل بن الربيع، فقال:

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٧٣/١.
(٢) المصدر السابق، ٧٩/١.

بالباب أبو إسحاق الفزاري، فقال: أدخله، فلما دخل قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال له الرشيد: لا سلم الله عليك ولا قرب دارك ولا حيا مزارك، قال: لم يا أمير المؤمنين؟ قال: أنت الذي يحرم لبس السواد، قال: يا أمير المؤمنين، من أخبرك بهذا؟ لعل ذا أخبرك؟ وأشار إلى أبي يوسف - فعلى هذا لعنة الله وعلى أستاذه من قبله، والله يا أمير المؤمنين لقد خرج إبراهيم على جدك المنصور فخرج أخي معه، وعزمت على الغزو فأتيت أبا حنيفة فذكرت ذلك له، فقال لي: مخرج أخيك أحب إلي مما عزمت عليه من الغزو، ووالله ما حرمت السواد. فقال الرشيد: فسلم الله عليك وقرب دارك وحيا مزارك، اجلس يا أبا إسحاق، يا مسرور! ثلاثة آلاف دينار لأبي إسحاق، فأتى بها ووضعها في يده وخرج وانصرف، فلقيه ابن المبارك فقال: من أين أقبلت؟ فقال من عند أمير المؤمنين، وقد أعطاني هذه الدنانير، وأنا عنها غني، قال: فإن كان في نفسك منها شيء فتصدق بها فما خرج من سوق الرافقة حتى تصدق بها كلها(١).

كأس أم حكيم:

قال إبراهيم بن إسماعيل، أبو أحمد إبراهيم: ركب الرشيد يوماً بكراً فنظر إلى محمد الأمين يميل به سرجه، فقال: ما أصارك إلى هذا يا محمد؟ قال: أصارني إليه البارحة:

علـــلاني بعاتقـــات الكـــروم ::: واســـقياني بكـــأس أم حكـــيم

قال: فانصرف يا محمد، فلما رجع الرشيد وجه إليه بخادم ومعه كأس أم حكيم، وكان كأساً كبيراً فرعونيًّا، قد جعل فيه طوق ذهب ومقبض من ذهب، فإذا هو مملوء دنانير، وقال له: يقول لك أمير المؤمنين بعثت إليك بالذي أسهرك لتشرب فيه وتنتفع بما يصل معه، قال: فأعطى الخادم قبضة من دنانير، وفرق نصفه ما فيه على جلسائه وأعطى النصف خازنه وشرب في القدح ثلاثة أرطال رطلاً بعد رطل ورده، فكان مبلغ

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٧٩/١.

الدنانير عشرة آلاف دينار[١].

رأي أبي يوسف القاضي فيمن يشهدون عنده:

قال الرشيد لأبي يوسف القاضي: بلغني أنك تقول إن هؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنعة، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، قال وكيف ذلك؟ قال: لأن من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه، ومن ظهر أمره وانكشف ستره لم يأتنا ولم نقبله، وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره، فتبسم الرشيد وقال: صدقت[٢].

الرشيد يحبس محمد بن الليث ثم يطلقه ويكرمه:

قال ثمامة بن أشرس: أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره، أن محمد بن الليث أبي الربيع الكاتب كتب إلى الرشيد رسالة يعظه فيها ويذكر فيها يحيى ابن خالد ويقول: يا أمير المؤمنين إن يحيى بن خالد لا يغني عنك من الله شيئاً، وقد جعلته فيما بينك وبين الله عز وجل، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلت: أي رب! استكفيت يحيى ابن خالد أمور عبادك، أتراك تحتج بحجة يرضاها؟ مع كلام فيه توبيخ وتقريع، فلما قرأها الرشيد دعا يحيى بن خالد وقد تقدم إلى يحيى خبر هذه الرسالة، فقال له: أتعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم، قال: فأي الرجال هو؟ قال: متهم على الإسلام. فأمر الرشيد بمحمد بن الليث فوضع في المطبق فأقام دهراً، فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذكره فأمر بإخراجه فأحضر، فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد! أتحبني، قال: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: أوتقول هذا؟ قال: نعم، وضعت في رجلي الأكبال وحلت بيني وبين العيال بلا ذنب ولا حدث أحدثت سوى قول حاسد يكيد الإسلام وأهله، ويحب الإلحاد وأهله، فكيف أحبك؟قال: صدقت، وأمر بإطلاقه، ثم قال له: يا محمد بن الليث أتحبني، قال لا والله يا أمير المؤمنين، ولكن قد ذهب بعض ما كان في قلبي، فأمر أن يدفع

(١) المصدر السابق، ١٠٧/١.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١١٨/١.

إليه من ساعته مائة ألف درهم فأحضرت، فقال: يا محمد أتحبني؟ قال: أما الآن فنعم، قد أنعمت وأحسنت، فقال: انتقم الله لك ممن ظلمك وأخذ بحقك ممن بغى عليك، فكان هذا أول ما ظهر من الرشيد في أمر يحيى بن خالد ثم تزيد الأمر بعد ذلك[١].

تصميم قاضي الرقة على إنصاف المظلوم:

قال مصعب بن عبد الله: كان عبيد الله بن ظبيان قاضي الرقة، وكان الرشيد إذ ذاك بها، فجاء رجل فاستعدى إليه من عيسى بن جعفر، فكتب إليه ابن ظبيان: " أما بعد، أبقى الله الأمير وحفظه، وأتم نعمته عليه، أتاني رجلٌ يذكر أنه فلان ابن فلان، وأن له على الأمير - أبقاه الله - خمس مائة ألف درهم - فإن رأى الأمير - أبقاه الله - أن يحضر معه مجلس الحكم أو يوكل وكيلاً يناظر خصمه فعل ".

قال: ودفع الكتاب إلى الرجل، فأتى باب عيسى بن جعفر فدفع الكتاب إلى حاجبه فأوصله إليه، فقال له: كل هذا الكتاب.

فرجع إلى القاضي فأخبره، فكتب إليه: أبقاك الله وحفظك وأمتع بك، حضر رجلٌ يقال له فلان بن فلان، فذكر أن له عليك حقًّا فصر معه إلى مجلس الحكم أو وكيلك إن شاء الله.

ووجه بالكتاب مع عونين من أعوانه، فحضرا باب عيسى بن جعفر ودفعا الكتاب إليه، فغضب ورمى به، فانطلقا إليه فأخبراه.

فكتب إليه: حفظك الله وأبقاك وأمتع بك، لا بد أن تصير أنت وخصمك إلى مجلس الحكم، فإن أنت أبيت رفعت أمرك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله.

ووجه الكتاب مع رجلين من أصحابه العدول، فقعدوا على باب عيسى ابن جعفر حتى خرج، فقاما إليه ودفعا إليه كتاب القاضي، فلم يقرأه ورمى به، فأبلغاه ذلك.

فختم قمطره وانصرف وقعد في بيته، وبلغ الخبر الرشيد فدعاه فسأله

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١٢٧/١.

عن أمره، فأخبره بالقصة حرفاً حرفاً، فقال لإبراهيم بن عثمان: صر إلى باب عيسى بن جعفر فاختم عليه أبوابه كلها، ولا يخرجن أحدٌ ولا يدخلن أحدٌ عليه حتى يخرج إلى الرجل من حقه أو يصير معه إلى الحاكم.

قال: فأحاط إبراهيم بداره ووكل بها خمسين فارساً وأغلقت أبوابه، وظن عيسى أنه قد حدث للرشيد رأيٌ في قتله، فلم يدر ما سبب ذلك، وجعل يكلم الأعوان من خلف الباب، وارتفع الصياح من داره، وصرخ النساء، فأمرهن أن يسكتن، وقال لبعض غلمان إبراهيم: ادع لي أبا إسحاق لأكلمه، فأعلموه ما قال: فجاء حتى صار إلى الباب، فقال له عيسى ويلك ما حالنا؟ فأخبره خبر ابن ظبيان، فأمر أن تحضر خمسمائة ألف درهم من ساعته ويدفع بها إلى الرجل.

فجاء إبراهيم إلى الرشيد فأخبره، فقال: إذا قبض الرجل ماله فافتح أبوابه[١].

عدل سوار القاضي وانتصار الرشيد له:

كان حماد بن موسى صاحب أمر محمد بن سليمان والغالب عليه، فحبس سوار القاضي رجلاً في بعض ما يحبس فيه القضاة، فبعث حمادٌ فأخرج الرجل من الحبس فجاء خصمه إلى سوار حتى دخل، فأخبره أن حماداً قد أخرج الرجل من الحبس.

وركب سوار حتى دخل على محمد بن سليمان وهو قاعدٌ للناس، والناس على مراتبهم، فجلس بحيث يراه محمد بن سليمان، ثم دعا آخر من نظرائه، فقال له كما قال للأول، فأجاب مثل جواب الأول فأقعده مع صاحبه، ففعل ذلك بجماعةٍ منهم، ثم قال لهم: انطلقوا إلى حماد بن موسى فضعوه في الحبس، فنظروا إلى محمد بن سليمان فأعلموه ما أمرهم به، فأشار إليهم: أن افعلوا ما يأمركم به، فانطلقوا إلى حماد فوضعوه في الحبس، وانصرف سوار إلى منزله، فلما كان بالعشي أراد محمد بن سليمان الركوب إلى سوار، فجاءته الرسل فقالوا: إن الأمير على الركوب إليك، فقال: لا، نحن بالركوب أولى إلى الأمير.

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١/١٤٥.

فركب إليه فقال: كنت على المجيء إليك أبا عبد الله، قال: ما كنت لأجشم الأمير ذاك، قال: بلغني ما صنع هذا الجاهل حماد، قال: هو ما بلغ الأمير، قال: فأحب أن تهب لي ذنبه، قال: أفعل أيها الأمير، اردد الرجل إلى الحبس، قال: نعم، بالصغر له والقماءة.

فوجه إلى الرجل فحبسه وأطلق حماداً، وكتب بذلك صاحب الخبر إلى الرشيد، فكتب إلى سوارٍ يجريه ويحمده على ما صنع، وكتب إلى محمد بن سليمان كتاباً غليظاً يذكر فيه حماداً ويقول: الرافضي ابن الرافضي، والله لولا أن الوعيد أمام العقوبة ما أدبته إلا بالسيف، ليكون عظةً لغيره ونكالاً.

يفتات على قاضي المسلمين في رأيه، ويركب هواه لموضعه منك، ويعرض في الأحكام استهانةً بأمر الله تعالى، وإقداماً على أمير المؤمنين، وما ذاك إلا بك، وبما أرخيت من رسنه، فأنا والله لئن عاد إلى مثلها ليجدني أغضب لدين الله تعالى، وأنتقم من أعدائه لأوليائه[١].

ربما نفع الحمق:

انفرد الرشيد وعيسى بن جعفر بن المنصور والفضل بن الربيع في صيد من الموكب، فلقوا أعرابياً مليحاً فصيحاً فولع به عيسى إلى أن قال له: يا بن الزانية! فقال: بئس ما قلت، قد وجب عليك ردها أو العوض، فارض بهذين المليحين يحكمان بيني وبينك، فقال: قد رضيت، فقالا: يا أعرابي! خذ منه دانقين عوضاً من شتمك، فقال: أهذا الحكم؟ فقالا: نعم، فقال: هذا درهمٌ وأمكم جميعاً زانية، وقد أرجحت لكما بترك ما وجب ليغلب عليهم الضحك، وما كان لهم سرور يومهم ذلك غير الأعرابي، وضم الرشيد الأعرابي إليه وخص به، وكان يدعوه في أكثرالأوقات، فكان الأعرابي بعد ذلك يقول للرشيد: لو عرفت لأبقيت، ولربما نفع الحمق [٢].

إنهن يكفرن العشير:

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١٤٨/١.
(٢) المصدر السابق، ١٦٢/١.

خرج أمير المؤمنين الرشيد من عند زبيدة - وقد تغذى عندها ونام وشرب - وهو يضحك، فقلت: قد سرني سرور أمير المؤمنين، فقال: ما أضحك إلا تعجباً، أكلت عند هذه المرأة ونمت وشربت فسمعت رنةً، فقلت: ما هذا، قالوا: ثلثمائة ألف دينار وردت من مصر، فقالت: هبها لي يا بن عم، فدفعتها إليها فما برحت حتى عربدت، وقالت: أي خير رأيت منك؟ قال القاضي: قد روى عن النبي أنه قال في النساء:**إنهن يكفرن العشير**، وفسره بما ذكرت من إحسان الرجل إليها وأنها ترب منزلها، وتكشف وجهها بعد الحجر والخطر، وتقول لزوجها: ما رأيت منك خيراً قط[1].

ألا أن تحج ثانية يا أمير المؤمنين:

عن إبراهيم الجرجاني، قال: حججت مع أمير المؤمنين الرشيد فدخلت مسجد رسول الله ، فبينا أنا بين القبر والمنبر، إذ أنا عن يميني برجل حسن الهيئة خاضب، معه رجلٌ في مثل حاله، فحانت مني لفتة نحوه فإذا هو يكسر حاجبه، ويفتح فاه، ويلوي عنقه، ويشير بيده، فتجوزت في صلاتي وسلمت، فقلت: أفي مسجد رسول الله تتغنى؟ قال: قنعك الله دار مخرمة، ما أجهلك! - قال: ودار مخرمة صخرة - أما في الجنة غناء؟ قلت: بلى، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، قال: فأنا في روضة من رياض الجنة، قلت: لا، قال: واحرباه! أترد على رسول الله قوله:**بين قبري ومنبري روضةٌ من رياض الجنة**، فنحن في تلك الروضة، فقلت: قبح الله شيخاً وشارة، ما أسفهك! فقال: بالقبر لما أنصت إلي، فتخوفت إلا أنصت إليه، فاندفع فتغنى بصوتٍ يخفيه:

فليست عشيات الحمى برواجع ::: عليك ولكن خل عينك تدمعا

فوالله إن قمت للصلاة مما دخل علي، فلما رأى ما نزل بي، قال: يا بن أمي! أرى نفسك قد استجابت وطابت، فهل لك في زيادة؟ قلت: ويحك! مسجد رسول الله ، قال: أنا أعرف بالله ورسوله منك، فدعنا من جهلك، وتغنى:

---

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١/١٧٣.

فلـــو كــــان واشٍ باليمامـــة داره ::: وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا
وما بالهم لا أحــــسنَ الله حفظهـــم ::: من الحظ هم في نصر هم ليلى حياليا

قال: فقال له صاحبه: يا بن أخي! أحسنت والله، عتق ما يملك لو أن هذا في موضع أمير المؤمنين الرشيد لخلع عليك ثيابه مشقومةً طرباً، قال: فقمت وهما لا يعلمان من أنا، فدخلت على أمير المؤمنين الرشيد، فحدثته، فقال: أدركهما لا يفوتانك، فوجهت من أتى بهما، فلما دخلا عليه ودخلا بوجوهٍ قد ذهب ماؤها، وأنا قائمٌ على رأسه، فقال: يا إبراهيم! هذان هما؟ قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، فنظر المغني منهما إلي وقال: سعاية في جوار قبر رسول الله ؟ فسري عن أمير المؤمنين بعض غضبه، فقال: ما كنتما فيه؟ قالا: خيرٌ، قال: فما من ذلك الخير؟ فسكتا، فقال للمغني منهما: من أنت؟ فابتدره جماعة فقالوا: يا أمير المؤمنين! هذا ابن جريج فقيه أهل مكة، فقال: فقيه يتغنى في مسجد رسول الله ؟ قال: يا أمير المؤمنين! لم يكن ذلك بالقصد مني، ولكني سمعت من هذا المخزومي - يعني صاحبه - صوتين لم يزالا في قلبي حتى التقينا وأحببت أن يأخذهما علي فأخذهما علي، وحلفت إني قد أحسنت وأنه لو كان في موضع أمير المؤمنين لخلع علي، وسكت.

فقال: إن كنت تركت من الحديث شيئاً فهاته، فقال: ما تركت يا أمير المؤمنين شيئاً، قال: والله لتقولن ما قال أو لأضربن عنقك.

قال: يا أمير المؤمنين! قال: لو كنت في موضعه لخلعت عليه ثيابك مشقوقة طرباً، فتبسم الرشيد وقال: أما هذا فلا، ولكن سأنبذها لك صحيحة فهو خيرٌ لك، ثم دعا بثيابٍ ونبذ إليه ثيابه، وأمر له بعشرة آلاف درهم، ولصاحبه بخمسة آلاف درهم، وقال: لا تعود لمثل هذا.

قال: فقال صاحب ابن جريج: إلا أن تحج ثانيةً يا أمير المؤمنين، فضحك وقال: ألحقوه بصاحبه في الجائزة[1].

محمد البيدق ينتقم من النمري:

قال محمد البيدق - وكان أحسن الشعراء إنشاداً كان إنشاده أحسن من

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢١٨/١، ٢١٩.

الغناء - قال: دعاني هارون الرشيد في عشي يوم وبين يديه طبقٌ وهو يأكل مما فيه ومعه الفضل بن الربيع، فقال لي الفضل: يا محمد! أنشد أمير المؤمنين ما يستحسن من مديحه، فأنشدته للنمري، فلما بلغت إلى هذا الموضع.

أي امرئ بات من هارون في سخط ::: فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن المكارم والمعروف أوديةٌ ::: أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت أمراً فالله رافعه ::: ومن وضعت من الأقوام متضع
نفسي فداؤك والأبطال معلمةٌ ::: يوم الوغى والمنايا بينهم قرع

قال: فأمر برفع الطعام، وقال: هذا والله أطيب من كل الطعام ومن كل شيء، وأجاز النمري بجائزة سنية، قال محمد البيدق: فأتيت النمري فعرفته أني كنت سبب الجائزة فلم يعطني شيئاً، وشخص إلى رأس عين فأحفظني وأغاظني، ثم دعاني الرشيد يوماً آخر، فقال: أنشدني يا محمد، فأنشدته:

شاءٌ من الناس راتعٌ هامل ::: يعللون النفوس بالباطل

فلما بلغت إلى قوله:

إلا مساعير يغضبون لها ::: بسلة البيض والقنا الذابل

قال: أراه يحرض علي، ابعثوا إليه من يجيئني برأسه، فتكلم الفضل بن الربيع فلم يغن كلامه شيئاً، فوجه الرسول إليه فوافاه في اليوم الذي مات فيه وقد دفن، فأراد نبشه وصلبه فكلم في ذلك فأمسك عنه [1].

الرشيد ولحم الجزور:

عن إبراهيم بن المهدي أنه كان يتغدى مع الرشيد في يوم شاتٍ، وإن الرشيد سأل صاحب المطبخ: هل عنده برمة من لحم الجزور؟ فأعلمه أن عنده عدة ألوان منه، فأمر بإحضار ما عنده منه، فقدمت إليه صحفة ومد يده إلى لقمة منها فأدخلها في فيه، فلما حرك لحييه عليها مرتين ضحك جعفر بن يحيى، فسأله الرشيد عن سبب ضحكه، وأمسك عن المضغ،

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١/٢٥٥، ٢٥٦.

فقال: ذكرت كلاماً دار بيني وبين جاريتي البارحة فضحكت منه، فقال له الرشيد: هذا محال، فأخبرني عن السبب بحقي عليك، فقال له جعفر: إذا ابتلع أمير المؤمنين لقمته حدثته السبب، فأخرج لقمته من فيه وألقاها تحت المائدة، فلما فعل ذلك قال له جعفر: بكم يتوهم أمير المؤمنين أن هذا اللون يقوم عليه؟ فقال له الرشيد: أتوهمه يقوم علي بأربعة آلاف درهم، فقال له جعفر: والله إن هذا اللون ليقوم عليك بأربع مائة ألف درهم، فقال: وكيف ويحك؟ فقال جعفر: سأل أمير المؤمنين صاحب المطبخ منذ أكثر من أربع سنين عن برمةٍ من لحم الجزور فأخبره أنه لم يتخذها، فأنكر ذلك علي أمير المؤمنين وقال: لا يفت مطبخي لون يتخذ من لحم الجزور في كل يوم، فأنا منذ ذلك اليوم أنحر جزوراً في كل يومٍ لأن الخلفاء لا يبتاع لهم لحم الجزور من السوق، ولم يدع أمير المؤمنين بشيءٍ من لحمها إلى يومه هذا. قال إبراهيم: وكان الرشيد في أول طعامه ولم يكن أكل إلا ملهوجة واحدةً، وكان أشد خلق الله تقززاً، فصعق حين قال له جعفر ما قال، وضرب بيده اليمنى وفيها الغمر وجهه ومد بها لحيته ثم قال: هلكت ويلك يا هارون، واندفع يبكي، وأمر برفع المائدة وطفق يبكي حتى أذنه المؤذنون بصلاة الظهر، وأمر بألف ألف درهم وأن يفرق في كل جانب من جانبي بغداد خمسمائة ألف درهم وأن يفرق في كل مدينةٍ من الكوفة والبصرة خمسمائة ألف درهمٍ، وقال: لعل الله تعالى أن يغفر لي هذا الذنب. وقام يصلي الظهر، ثم عاد في مكانه فلم يزل باكياً حتى أذنه المؤذنون بصلاة العصر وقام فصلى: وعاد لمكانه إلى أن قرب ما بين صلاة العصر والمغرب، فأخبره القاسم بن الربيع مولاه أن أباه يوسف القاضي بالباب فأمره بإدخاله، فدخل وسلم فلم يرد عليه وأقبل يقول: يا يعقوب هلك هارون، فسأله يعقوب عن القصة فقال: يخبرك جعفر بهان وعاد لبكائه. وحضر جعفر فسأله أبو يوسف عن القصة والسبب المخرج للرشيد إلى ما خرج إليه، فحدثه جعفر عن الجزور التي كانت تنحر في كل يوم طول تلك المدة ومبلغ ما أنفق في أثمانها من الأموال، فقال له أبو يوسف:

أخبرني عن هذه الإبل التي كانت تبتاع بهذه الدراهم هل كانت تترك إذا نحرت حتى تفسد، ولا تؤكل لحومها حتى تنتن فيرمى بها؟ قال جعفر: اللهم لا، قال أبو يوسف: فكان يصنع بها ماذا؟ قال: يأكلها الحشم والموالي وعيال أمير المؤمنين، فقال أبو يوسف: الله أكبر الله أكبر، أبشر يا أمير المؤمنين بالثواب الجزيل من الله عز وجل على نفقتك، وأبشر بثواب الله تعالى على ما فتح لك من الصدقة في يومك هذا، ومن البكاء للتقية من ربك، فإني لأرجو يا أمير المؤمنين أن لا يرضى الله تعالى من ثوابه على ما قد داخلك من الخوف من سخطه عليك إلا الجنة، فإنه يقول تعالى:{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]، وأنا أشهد بالله تعالى أنك خفت مقام ربك، فسري عن الرشيد وطابت نفسه ووصل أبا يوسف بأربعمائة ألف درهم، ثم صلى المغرب ودعا بطعامه فأكل، فكان غداؤه في اليوم عشاءه[١].

حسد إسحاق الموصلي للأصمعي:

قال أحمد بن علي بن أبي نعيم: كان الرشيد يحب الوحدة، فكان إذا ركب حماره عادله الفضل بن الربيع، وكان الأصمعي يسير قريباً منه بحيث يحادثه، وإسحاق الموصلي على دابةٍ يسير قريباً من الفضل. فأقبل الأصمعي لا يحدث الرشيد شيئاً إلا سر به وضحك منه، فحسده إسحاق.

وكان فيما حدثه الأصمعي قال: يا أمير المؤمنين مررت على رجلٍ زانكي جالس على بابه قال: ويحك فما الزانكي؟ فوصفه له قال العسكري: هو الشارط قال: فقلت له: يا فتى أيسرك أنك أمير المؤمنين؟ قال: لا، قلت: ولم؟ قال: لا يدعوني أذهب حيث شئت، قال فقال الرشيد: صدق والله ما يدعونا نذهب حيث شئنا. قال: فاستضحك الرشيد. قال: فقال إسحاق للفضل: ما يقول كذب، فقال الرشيد: أي شيء قال؟ فأخبره فغضب فقال: والله إن كان ما يقول كذباً إنه لأظرف الناس، وإن كان حقًّا

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٨٣/١.

إنه لأعلم الناس فمكث بينهما شر دهراً من الدهر[(١)].

صدق أبو هريرة:

قال عمر بن حبيب: كنا عند هارون أمير المؤمنين، وبين يديه قوم يتناظرون، فذكروا حديثاً فقالوا: رواه أبو هريرة عن رسول الله ، وكذب أبو هريرة، وارتفعت أصواتهم بتكذيب أبي هريرة، فرأيت هارون قد نحا نحوهم ومال إلى قولهم، فقلت أنا: صدق أبو هريرة، وأبو هريرة الصادق في روايته عن رسول الله ، وقمت فانصرفت.

فلما دخلت منزلي وافيى بريد فأدخلته فقال: أجب أمير المؤمنين أجابة مقتول لأنك لا ترجع، فقلت في نفسي: الله يعلم أني قمت بحقٍّ، ونصرت صاحب رسول الله ، ومضيت إلى هارون فدخلت عليه وهو جالس على كرسي من ذهب حاسراً عن ذراعية، بيده سيف، فقال: يا عمر بن حبيب،تقبل علي بالرد بما أقبلت به؟! فقلت: يا أمير المؤمنين، الذي قلته إزراء على رسول الله ، إذا كان أصحاب رسول الله كذابين فأمر الإسلام كله باطل، والصلاة الصوم والطلاق والحدود. قال: صدقت يا عمر بن حبيب، أحييتني أحياك الله، أحييتني أحياك الله[(٢)].

خبر ابن جامع في مجلس الرشيد:

قال إسماعيل بن جامع السهمي: ضمني الدهر ضماً شديداً بمكة، فانتقلت منها بعيالي إلى المدينة، فأصبحت يوماً لا أملك إلا ثلاثة دراهم، فخرجت وهي في كمي، فإذا بجاريةٍ حميراء على رقبتها جرة تريد الركي، تمشي بين يدي وتترنم بصوتٍ شجيٍ تقول فيه:

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا ::: فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذلك أن النوم يغشى عيونهم ::: سراعاً وما يغشى لنا النوم أعينا
إذ ما دنا الليل المضر بذي الهوى ::: جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما ::: نلاقي لكانوا في المضاجع مثلنا

فوالله ما دار لي منه حرف واحد فقلت لها: يا جارية ما أدري أوجهك

(١) المصدر السابق ٢٨٥/١، ٢٨٦.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٣٠١/١.

أحسن أم صوتك أم جرمك، فإن شئت أعدتيه علي، فقالت: حباً وكرامة، ثم أسندت ظهرها إلى جدارٍ كان بالقرب منها ورفعت إحدى رجليها فوضعتها على ركبتها وحطت الجرة فوضعتها على ساقها واندفعت تغني بأحسن صوت، فو الله ما دار لي منه حرف واحد، فقلت لها: لقد أحسنت وتفضلت فلو شئت أعدتيه مرةً أخرى، فقطبت وكلحت وقالت: ما أعجب هذا، أحدكم يجيء إلى الجارية عليها ضريبة فيقول لها: أعيدي مرةً بعد أخرى،فضربت يدي إلى الثلاثة الدراهم فدفعتها إليها وقلت لها: أقيمي بهذا وجهك اليوم إلى أن نلتقي، فأخذتها شبه المتكرهة ثم قالت: الآن تريد أن تأخذ عني صوتاً أحسبك تأخذ عليه ألف دينارٍ، وألف دينارٍ وألف دينارٍ، ثم انبعثت تغني وأعملت فكري في غنائها فدار لي الصوت وفهمته، وانصرفت به مسروراً إلى منزلي المكاري على باب المحول، فدخلت لا أدري أين أتوجه ولا من أقصد، وانتهى بي الناس إلى الجسر، فعبرت في من عبر حتى انتهوا بي إلى شارع الميدان عند دار الفضل بن الربيع، فرأيت هناك مسجداً مرتفعاً فقلت: هذا مسجد قوم سراةٍ، وحضرت المغرب فصعدت المسجد فما لبثت أن جاء المؤذن فأذن وأقام وصليت، وانصرف الناس وأقمت مكاني إلى أن رجع المؤذن فأذن وأقام، وصليت وانصرف الناس وأقمت مكاني إلى أن رجع المؤذن فأذن وأقام، وصليت مع الناس على تعبٍ وجوع، وانصرف الناس وبقي رجل يصلي مليًّا وخلفه جماعة من الخدم والفحولة ينتظرونه، فلما فرغ من صلاته انصرف إلي ببدنه كله فقال: أحسبك غريباً، قلت: أجل، قال: متى كنت بهذه المدينة؟ قلت: آنفاً دخلتها، وليس لي بها معرفة، وليست صناعتي من الصنائع التي يمت بها إلى أهل الخير، قال: وما صناعتك؟ قلت: الغناء، فوثب مبادراً ووكل بي رجلاً، فقلت للموكل بي: من هذا؟ قال: أوما تعرفه؟ هذا سلام الأبرش قال: وإذا رسول قد جاء في طلبي ثم مشينا حتى انتهى بي إلى قصرٍ من قصور الخلافة وجعل يجاوز بي مقصورةً بعد مقصورةٍ إلى أن دخلنا مقصورةً في آخر الدهليز، فدعا لي بالطعام، فأتيت بمائدةٍ عليها من كل شيء، فأقبلت على أكلي حتى تراجعت إلي نفسي، وسمعت ركضاً في الدهليز، فإذا إنسان يقول: أين الرجل، أين

الرجل؟ فقيل: ها هو ذا، فقال يدعى له بغسول وطيب وخلعةٍ، فغلفت وخلع علي وأخذ الرجل بيدي فحملني على دابةٍ وأتى بنا منزل الخليفة فاستدللت على ذلك بالحرس والتكبير والنيران، فما زال يدخلني من دار إلى دار إلى أن دخلت إلى دارٍ قوراء وإذا فيها أسرة مضاف بعضها إلى بعض، فلما انتهيت إلى الأسرة أمرني بالصعود فصعدت، وإذا رجل جالس على يمينه ثلاث جوارٍ في حجورهن العيدان، وإذا في حجر الرجل عود فسلمت فرحب بي وأمرني بالجلوس فجلست، وإذا مجالس خالية قد كان فيها قوم فقاموا عنها، فما لبثت أن خرج خادم من وراء الستر فقال للرجل: تغنه، فاندفع يغني بصوتٍ لي يقول فيه:

لم تمش ميلاً ولم تركب على جملٍ ::: ولم تر الشمس إلا دونها الكلل
تمشي الهوينا كأن الشوك يجسها ::: مشي اليعافير في جيئاتها الوجل

فوالله ما أحسن الغناء، ولقد غنى بغير إصابةٍ وأوتارٍ متنافرة ودساتين مختلفةٍ، ثم عاد ذلك الخادم إلى الجارية التي تلي الرجل فقال لها: تغني فانبعثت تغني بصوت لي كانت فيه أحسن حالاً من الرجل تقول فيه:

يا دار أضحت خلاءً لا أنيس بها ::: إلا الظباء وإلا الناشط الفرد
أين الذين إذا ما زرتهم جذلوا ::: وطار عن قلبي التشواق والكمد

ثم عاد الخادم إلى الجارية الثانية فقال لها: تغني فانبعث تغني بصوت حكم الوادي تقول فيه:

فوالله ما أدري أيغلبني الهوى ::: إذا جد وشك البين أم أنا غالبه
فإن أستطع أغلب وإن يغلب الهوى ::: ففي دون ما لاقيت يغلب صاحبه

ثم عاد الخادم إلى الجارية الثالثة فقال لها: تغني فغنت بصوت لحنين تقول فيه:

مررنا على قيسية عامرية ::: لها بشر صافي الأديم هجان
فقالت وألقت جانب السجف دونها ::: من آية حي أو من الرجلان
فقلت لها أما تميم فأسرتي ::: هديت وأما صاحبي فيماني
رفيقان ضم السفر بيني وبينه ::: وقد يلتقي الشتى فيأتلفان

قال فعاد الخادم إلى الرجل فقال له: تغنه، فغنى بصوتٍ لي شبه فيه،

والشعر لعمر بن أبي ربيعة الغناء للغريض يقول فيه:

أمس بأسماء هذا القلب معمودا ::: إذا أقول صحا يعتاده عيدا

كأن أحور من غزلان شيهمة ::: أعارها شبها خديه والجيدا

قامت تراءى وقد جد الرحيل بنا ::: لتنكأ القرح من قلب قد اصطلدا

بمشرق كشعاع الشمس بهجته ::: ومسبكر على لبّاتها سودا

ثم عاد الخادم إلى الجارية التي تليه فقال لها: تغني، فغنت بصوتٍ لحكم الوادي يقول فيه:

تعيرنا أنا قليل عديدنا ::: فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا ::: عزيز وجار الأكثرين ذليل

وإنا لقوم ما نرى القتل سبةً ::: إذا كرهته عامر وسلول

يقرب حب الموت آجالنا لنا ::: وتكرهه آجالهم فتطول

وتغنت الجارية الثانية عند قول الخادم لها تغني:

وددتك لما كان ودك خالصاً ::: وأعرضت لما صار نهباً مقسما

ولن يلبث الحوض الوثيق بناءه ::: إذاكثر الوراد أن يتهدما

وتغنت الثالثة بشعر الخنساء بنت عمرو بن الحارث في أخيها صخر:

وما كر إلا كان أول طاعن ::: ولا أبصرته العين إلا اقشعرت

فيدرك ثأراً ثم لم يخطه الغنى ::: فمثل أخي يوماً به العين قرت

وإن طلبوا وتراً بدا بتراتهم ::: ويضربهم شزراً إذا الخيل ولت

فلست أرزا بعده برزية ::: فأذكره إلا سلت وتجلت

وكان غناء الرجل في الدور الثالث:

لحا الله صعلوكاً يبيت وهمه ::: من الدهر أن يلقى لبوساً ومطعما

ينام الضحى حتى إذا نومه استوى ::: تنبه مسلوب الفؤاد مورما

ولكن صعلوكاً يساور همه ::: ويمشي على الهيجاء ليثاً مصمما

فذلك إن يلق المنية تلقه ::: كريماً وإن يستغن يوماً فربما

وكان غناء الجارية في الدور الثالث بشعر لحاتم يقول فيه:

إذا كنت رباً للقلوص فلا تدع ::: رفيقك يمشي خلفها غير راكب

أنخهـــا فأردفـــه فـــإن حملتكمـــا ::: فذاك وإن كـــان العقـــاب فعاقـــب

وكان غناءالجارية الثانية في الدور بشعر عمرو بن معدي كرب:

ألم تر لمـــا ضـــمني البلـــد القفـــر ::: سمعت نداءً يصدع القلب يا عمـــرو

أغثنـــا فإنـــا معـــشر مذحجيـــة ::: نزار على وفـــرٍ ولـــيس لنـــا وفـــر

وكان غناء الثالثة بشعرٍ لعمر بن أبي ربيعة والغناء فيه للغريض:

فلما تلاقينـــا وســـلمت أشـــرقت ::: وجوه زهاهـــا الحـــسن أن تتقنعـــا

تبـــالهن بالعرفـــان لمـــا رأيـــنني ::: وقلن امرؤ بـــاغ أكـــل وأوضـــعا

فلما تواضعنا الأحاديـــث قلـــن لي ::: أخفـــت علينـــا أن نغـــر ونخـــدعا

قال: فقلت في نفسي: أي شيء أنتظر؟ يجيء الخادم الساعة يطالبني بمثل ما طالب به أصحابي، فقلت للرجل: بأبي أنت خذ العود إليك وشد وتر كذا وارفع الطبقة وغير وتر كذا وحط دستان كذا، فعلم ما أريد فوزنه، فلم ألبث أن خرج الخادم فقال لي تغنه، عافاك الله، فانبعثت أغني بصوت الرجل الأول على غير ما غنى به فإذا بنحوٍ من خمسين أو ستين خادماً يحضرون حتى استندوا إلى الأسرة ثم قالوا: ويحك لمن هذا الغناء؟ قلت: لي، فانصرفوا عني بتلك السرعة، فخرج إلي الخادم فقال: كذبت هذا الغناء لابن جامع، فسكت، ودار الدور فلما انتهى إلي خرج الخادم فقال تغنه، فقلت للجارية التي تلي الرجل: خذي العود فانبعثت أغني صوتها، فخرجت الجماعة من الخدم فقالوا: ويحك لمن هذا؟ فقلت: لي، فمضوا ورجع الخادم فقال لي: كذبت، هذا لابن جامع. فأمسكت عنه ودار الدور، فلما بلغ إلي خرج الخادم فقال: تغنه، فقلت في نفسي، وقد شربت وقويت منتي: ما أنتظر؟ فاندفعت أغني بصوتٍ لا يعرف إلا بي:

عـــوجي علـــي فـــسلمي جـــبر ::: فـــيم الوقـــوف وأنـــتم ســـفر

مـــانلتقي إلا ثـــلاث مـــنى ::: جـــتى يفـــرق بيننـــا النفـــر

قال: فتزلزلت والله عليهم الدار، وخرج الخادم فقال: ويحك، لمن هذا؟ فقلت: لي، قال: فرجعوا فقالوا: هذا لابن جامع، فقلت: أنا إسماعيل بن جامع، قال: فما شعرت إلا وأمير المؤمنين وجعفر بن يحيى قد أقبلا من وراء الستر، فلما صعدا السرير وثبت على قدمي، فابتدأني أمير

المؤمنين فقال: ابن جامع؟ فقلت: ابن جامع جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين، قال: ويحك متى كنت في هذه المدينة؟ قلت: آنفا دخلتها في الوقت الذي علم بي أمير المؤمنين قال: اجلس ويحك يا بن جامع، وجلس أمير المؤمين وجعفر بن يحيى في بعض تلك المجالس الفرغ وقال لي: يا بن جامع، أبشر وابسط أملك، فدعوت له دعواتٍ ثم قال: عن يا بن جامع، قال: فخطر بقلبي صوت الجارية المدينية، فقلت للرجل: أصلح عودك وارفع طبقته، قال: فعلم ما أريد فوزن العود وزناً، وتعهدته حتى استقامت الأوتار وأخذت الدساتين مواضعها، وانبعثت أغني بصوت الجارية الحميراء، فنظر أمير المؤمنين إلى جعفر بن يحيى فقال له: أسمعت كذا قط؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما سمعت ولا خرق سمعي مثله قط، ولا ظننت أن الله عز وجل خلق على وجه الأرض مثل ما أسمع، قال: فرفع الرشيد رأسه إلى خادم بالقرب منه فقال له: كيس فيه ألف دينارٍ قال: فمضى الخادم فلم يلبث أن عاد بكيسٍ فيه ألف دينارٍ، فصيرته تحت فخذي ودعوت لأمير المؤمنين، فقال لي: يا بن جامع رد على أمير المؤمنين هذا الصوت، فرددته وتزيدت في غنائي وأعانني على ذلك استواء الأوتار، قال: فنظر جعفر إلى أمير المؤمنين فقال: يا سيدي أما تسمعه كيف يتزايد في الغناء؟ هذا خلاف الذي سمعنا أولاً، على أن الأمر فيه واحد، قال: فرفع الرشيد رأسه إلى الخادم فقال: كيس فيه ألف دينار، فمضى الخادم وجاء بكيس فيه ألف دينار فرمى به إلي فصيرته تحت فخذي، ثم قال لي أمير المؤمنين: تغن ما حضرك، فأقبلت أقصد إلى الصوت بعد الصوت مما كان يبلغني أنه يشتري عليه الجواري فأغنيه، فلم أزل أفعل ذلك إلى أن عسعس الليل، فقال: يا إسماعيل قد أتعبناك في هذه الليلة لسروري بغنائك، فتعيد علي الصوت الذي تغنيت به أولاً يعني صوت الجارية فغنيته إياه، فرفع رأسه إلى الخادم فقال: كيس فيه ألف دينار، وذكرت قول الجارية: إني أحسبك تأخذ عليه ألف دينار وألف دينار وألف دينارٍ، فكان مني شبه التبسم، ولحظني من بين الشمع فقال لي: مم تبسمت؟ قال: فجثوت على ركبتي ثم قلت: يا أمير المؤمنين الصدق منجاة، فقال لي بانتهار: قل، فحدثته حديث الجارية

فقال: صدقت قد يكون هذا وأعجب منه؛ ثم قال لي: انصرف مودعاً، فقمت لا أدري إلى أين انفذ ذلك الوقت، فما هو إلا أن نزلت من الأسرة حتى وثب إلي غفيران من الفراشين، فأخذ أحدهما بيدي اليمنى والآخر باليسرى ومضيا بي لا أدري أين يتوجهان بي، حتى وقفا بي على باب داري هذه، فإذا أمير المؤمنين قد أمر سلاماً فابتاع لي هذه الدار وحول أهلها، وحشيت بالفرش والوصائف والوصفاء والطعام والشراب، ودفع إلي أحدهما إضبارة مفاتيح وقال لي: ادخل بارك الله لك فيها، وهذا مفتاح بيت كذا، وهذا مفتاح بيت مالك، وهذا مفتاح سبرة الجواري، وهذا مفتاح بيت فرشك وآنيتك، وأوقفني على ما أردت، فأصبحت وأنا من مياسير أهل بغداد، ودخلتها وأنا أفقر أهلها، والحمد لله رب العالمين(١).

أعرابي معه نصيحة يدخل على الرشيد:

عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: بينا أنا جالس مع الرشيد على المائدة إذ دخل الحاجب فأعلمه أن بالباب أعرابيًّا معه نصيحة، فأمر بإحضاره، فلما دخل أمره بالجلوس على المائدة ففعل، وكان معه صباحة وفصاحة، فلما تم الغداء ورفعت الموائد وجاء الغسل غسل يده، ثم أمر بالشراب فأحضر، فقال: يا أمير المؤمنين ما حالتي في اللباس، فاستحسن هارون ذلك من فعله وأمر بثياب حسنةٍ فطرحت عليه، وقال له: يا أعرابي من أين؟ قال: من الكوفة قال: أعرابي أم مولى؟ قال: بل عربي قال: فما الذي قصد بك إلينا وما نصيحتك؟ قال: قصد بي إليك قلة المال وكثرة العيال، وأما نصيحتي فإني علمت أني لا أصل إليك إلا بها، قال: فأخذ إسحاق العود فغنى صوتاً يشتهيه الرشيد ويطرب عليه وهو:

ليس لي شافع إليك ::: سوى الدمع يشفع
عشت بعدي ومت قبلك ::: هل فيك مطمع
قسم الحب خمسة ::: صار لي منه أربع
فإلى الله أشتكي ::: كبداً لي تقطع

فقال الرشيد كالمازح: كيف ترى هذا يا أعرابي؟ قال: بئس والله ما

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٣٤٥/١ - ٣٤٧.

غنى، فغضب من ذلك هارون وصعب عليه، قال إسحاق: وسقط في يدي، فقال هارون: ويلك يا أعرابي، وهل يكون شيء أحسن من هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قولي حيث أقول:

لا وحبيـــــك لا أصـــــا ::: فـــح بالـــدمع مـــدمعا

مـــن بكـــى شـــجوه اســـترا ::: ح وإن كـــان موجعـــا

كبـــدي في هـــواك أس ::: قـــم مـــن أن تقطعـــا

لم تـــدع ســـورة الهـــوى ::: للبلـــى في مطمعـــا

قال: فاستملح هارون ذلك منه وأمر إسحاق أن يغنيه به شهراً لا يقطعه عنه، وأمر للأعرابي بعشرة آلاف درهمٍ وصرفه [(١)].

أعرابياً ما أدهاه!!:

قال أبو الفضل الربعي: خرج الرشيد في بعض متنزهاته فلما أسرع السير في بعض البراري انفرد من الناس على نحو من ميل، فرفع له خباء منصوب فأمه حتى وقف عليه، فإذا فيه أعرابي جالس، فسلم عليه الرشيد، فرد عليه الأعرابي السلام ثم رفع رأسه إليه فقال: من أنت يا حسن الوجه؟ فقال له الرشيد: أنا من أبغض الناس إلى الناس، قال الأعرابي: أنت إذاً من معد، قال نعم، قال: من أي معد؟ قال: من أبغض معد إلى معد، قال: فأنت إذاً من مضر، قال: نعم، قال: فمن أي مضر أنت؟ قال: من أبغض مضر إلى مضر، قال: فأنت إذاً من كنانة، قال: نعم، قال: من أي كنانة؟ قال: من أبغض كنانة إلى كنانة، قال: فأنت إذاً من قريش، قال: نعم، قال: من أي قريش أنت؟ قال: من أبغض قريش إلى قريش، قال: فأنت إذاً من بني هاشم، قال نعم، قال: فمن أي بني هاشم أنت؟ قال: من أبغض بني هاشم إلى بني هاشم، قال: فأنت إذاً من ولد العباس، قال: نعم، قال: فمن أي ولد العباس؟ قال: من أبغض بني العباس إلى بني العباس، قال: فوثب الأعرابي قائماً ثم قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، وتوافت الجيوش، فقال الرشيد: احملوه

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٣٤٩/١.

قاتله الله أعرابيًّا ما أدهاه!! [١].

كيف سار المثل "الخير يبقى والشر أخبث زاد":

عن الشرقي بن القطامي قال الرشيد للمفضل الضبي: أخبرني يا مفضل عن قول العرب:

الخير يبقى وإن طال الزمان به ::: والشر أخبث ما أوعيت من زاد

فقال: يا أمير المؤمنين هذا مثل لهم سائر قبل الإسلام، وكان من حديث هذا المثل أن عبيد بن الأبرص الأسدي كان حكيماً من حكماء العرب وشاعراً مجيداً، قتله المنذر بن ماء السماء من أجل الغريين وكان من حديث هذا المثل قبل أن يقتله المنذر بثلاثة أحوال أن ناساً نزلوا عليه فقراهم وأحسن ضيافتهم وكان يقري الضيف ويحسن إلى المنقطع به، فلما أراد القوم الرحيل خرج معهم يشيعهم، فشيعهم حتى أبعدوا ونزلوا في موضع وقال غيره: فلما نزل القوم وعرسوا خرج عبيد وصاحب له يمشيان في الموضع الذي نزل القوم فيه، وسارا حتى أتيا حبًّا هناك فرأيا شجاعاً عظيماً أقرع يلهث قد أدلع لسانه من العطش، فأخذ صاحب عبيدٍ حجراً وهم أن يشدخه به، فقال له عبيد: ما أنت صانع؟ قال: أقتل هذا الشجاع فإنه عدو، قال عبيد: لا تفعل فإن الأسير قد يجار وإن كان عدواً، ثم استقى من الحب ماءً فسقى الشجاع، فجعل يشرب حتى روي، ثم تسبسب في الرمل فغاب، قال: ورجع عبيد إلى القوم فودعهم ثم رحلوا، ورجع عبيد إلى منزله فأقام حولين، فأتاه بعض الرعاة فخبره أن إبله قد شردت فركب راحلة له وخرج في طلب الإبل، وكان شجاعاً بطلاً، فسار عشر مراحل لا يرى لها أثراً ولا يعرف لها خبراً، حتى إذا كان في بعض الليالي وقد كلت راحلته وتعب وأظلم الليل وهبت الرياح فلم ير سهلاً ولا جبلاً نفقت الراحلة، فقال:

يا لك من ليلٍ ديجور ومن نفوق راحلةٍ بالليل، وكان الموضع الذي هو فيه يقال له الصادي وهناك ماء، فقال: والله ما أرى إلا الإقامة على هذا الماء والموت، ثم حط رحله عن راحلته وأسند ظهره إليه وطأطأ رأسه

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٣٦٧/١.

إلـى الأرض وجمـع أثوابـه عليـه، فـإذا هـاتف يهتـف بـه مـن خلفـه، يـسمع صوته ولا يرى شخصه وهو يقول:

يا أيها الـــشخص المـــضل مذهبـــه ::: وليس معـــه مـــن أنـــيس يـــصحبه

دونك هذا البكـــر خـــذه فاركبـــه ::: حـــتى إذا الليـــل تـــوارى مغربـــه

بـــساطع الـــصبح ولاح كوكبـــه ::: فحـــط عنـــه رحلـــه وسبـــسبه

قال القاضـي: ويروى تواري غيهبه، والغيهب الظلمة. فالتفت وراءه فإذا بكر معقول عليه رحل، فوثب حتى حل عقاله وصار في متنه، فوثب البكـر مـن غيـر أن يثيـره حتـى استقام علـى الطريـق يـسير بـه كـالبرق الخاطف وكالريح العاصف لا يلوي على شيءٍ ولا يفتر من السير، حتى إذا كان في وجه الصبح ونظر عبيد إلى بياض الحيرة برك البكر فلم يقم، فاستحثه فلم يقم، فقال: إنـه لمـأمور، وثنـى رجلـه فنـزل عنـه وولـى ناحيـة فثـار البكـر يجـر بزمامـه، فقـال عبيـد: بكـر يـسري فـي ليلـةٍ واحـدةٍ عشر مراحل لا أسأله مـا أنـت ولا مـن الـذي أرسلك إلـي؟! ثـم أدار وجهـه إليـه وهو يقول:

يا أيها الكبر قد أنجيت مـــن كـــربٍ ::: ومن فياف تـــضل المـــدلج الهـــادي

ألا أنبـــت لنـــا بـــالقول نعرفـــهُ ::: من الذي جاد بالنعماء في الـــوادي

اذهب سليماً فقـــد بلغـــت مأمننـــا ::: بوركت من ذي سنامٍ حامل حـــادي

قال: فأجابه البكر وهو يقول:

أنا الشجاع الـــذي ألفيتـــه رمـــضاً ::: ينازع الماء من ذي المورد الـــصادي

فجدت بالمـــاء لمـــا ضـــن حاملـــه ::: رويت هـــامي ولم تولـــع بإنكـــادي

الخير يبقى وإن طـــال الزمـــان بـــه ::: والشر أخبث ما أوعيـــت مـــن زاد

قال القاضي ويرى: ما أوعبت في الزاد

هـــذا جـــزاؤك مـــن لا أمـــن بـــه ::: فسر سليماً وقـــاك الله مـــن هـــاد

فقال له الرشيد: أحسنت يا مفضل، يا ربيع أعطه عشرين ألفاً، عشرة آلاف لمعرفته بالمثل وأصله، وعشرة آلاف لحسن روايته له.

قـال القاضـي: فـي هذا الخبـر نفقت الراحلـة وإنمـا يقـال نفق الفـرس

وتنبل البعير[١].

تجز ذؤابتيها للجهاد:

قال العتبيّ: سبا الروم نساءً مسلماتٍ فبلغ الخبر الرقة وبها الرشيد ومنصور بن عمّار هناك، فقصّ منصور يحضُّ على الغزو، فإذا خرقةٌ مصرورةٌ مختومة قد طرحت إلى منصور، وإذا كتاب مضمومٌ إلى الصرّة فقرأه فإذا فيه: إنّي امرأةٌ من بيوتات العرب، بلغني ما فعل الروم بالمسلمات، وبلغني تحضيضك على الغزو، فعمدت إلى أكرم شيء في بدني عليّ، وهما ذؤابتاي، فجززتهما وصررتهما في هذه الصرّة المختومة، فأنشدك بالله العظيم لما جعلتهما قيد فرس غازٍ في سبيل الله، فعلَّ الله ينظر إليَّ نظرةً على تلك الحال فيرحمني، فبلغ ذلك الرشيد فبكى ونادى النفير.

تعليق:

قد أتت هذه المرأة بما دلّ على خلوص دينها وصحَّة يقينها، وغضبها لربّها، وغيرتها على أهل ملّتها، وامتعاضها عندما بلغها من انتهاك أعداء الله محارمه التي حرَّمها، واستخفافهم بحدود الإسلام الّتي عظّمها، وقصدت بما أتته من جزّها ذؤابتيها التقرُّب إلى خالقها ورجاء مغفرته لها، والله يحقق برأفته وسعة رحمته رجاءها، ويغفر لنا ولها، ولم تقصد بما فعلته الأمر الّذي حرِّم عليها فيؤثمها، فقد جاء عن النبيّ ﷺ أنّه لعن الغارفة وهي التي تجزُّ ناصيتها عند المصيبة، وإلى الله نرغب في أن يجعلنا ممّن يغضب له ويحام عن دينه ويوالي ويعادي فيه، بتوفيقه[٢].

والحكم لله:

حبس الرشيد رجلاً، فلما طال حبسه كتب إليه: إن كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بؤسي مثله، والأمد قريب، والحكم لله، فأطلقه[٣].

جبار الأرض كيف يتضرع إلى جبار السماء؟

---

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٣٩٢/١.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٤١٤/١، ٤١٥.
(٣) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ١٤١/١.

حكى عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الخراساني، قال: حججت مع أبي سنة حج الرشيد، فإذا نحن بالرشيد، واقف حاسر حاف على الحصباء وقد رفع يديه وهو يرتعد ويبكي ويقول: يا رب أنت أنت، وأنا أنا، أنا العواد بالذنوب وأنت العواد بالمغفرة، اغفر لي فقال لي أبي: انظر إلى جبار الأرض كيف يتضرع إلى جبار السماء؟ [١].

قيل: وأمر الرشيد يحيى بن خالج بحبس رجل جنى جناية فحبسه، ثم سأل عنه الرشيد فقيل: هو كثير الصلاة والدعاء، فقال للموكل به: عرض له بأن تكلمني وتسألني إطلاقه، فقال له الموكل ذلك، فقال لأمير المؤمنين:
إن كل يوم يمضي من نعمتك ينقص من محنتي، والأمر قريب، والموعد الصراط، وإلحاحك الله، فخر الرشيد مغشياً عليه ثم أفاق وأمر بإطلاقه[٢].

أرق الرشيد:

قال السجستاني: أرق الرشيد ذات ليلة، فوجه إلى عبد الملك الأصمعي، وإلى الحسين الخليع، فأحضرهما، وشكا إليهما مدافعة نومه، وشدة أرقه، وقال لهما: عللاني بأحاديثكما، وابدأ أنت يا حسين. قال: نعم يا أمير المؤمنين خرجت في بعض السنين منحدراً إلى البصرة، وممتدحاً لآل سليمان، فقصدت محمد بن سليمان بقصيدتي، فقبلها وأمرني بالمقام، فخرجت ذات يوم إلى المربد، وجعلت المهالبة طريقي، فأصابني حر وعطش، فدنوت من باب دار كبير لأستسقي، فإذا بجارية أحسن ما يكون كأنها قضيب يتثنى، وسناء العينين، زجاء الحاجبين، مهفهفة الخصر، حاسرة الرأس، مفتوحة الجربان، عليها قميص لاذ جلناري، ورداء عدني، قد علت شدة بياض بدنها حمرة قميصها، تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمانتين، وبطن كطي القباطي، وعكن مثل القراطيس، لهما جمة جعدة، بالمسك محشوة، وهي، يا أمير المؤمنين، متقلدة خرزاً من ذهب،

(١) الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، ١/١٨٥.
(٢) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري، المحاسن والأضداد، ١/٣٢.

والجوهر يزهو بين ترائبها، وعلى صحن جبينها طرة كالسبج، وحاجبان مقرونان، وعينان كحلاوان، وخدان أسيلان، وأنف أقنى، تحته ثغر كاللؤلؤ وأسنان كالدر، وقد غلب جريانها سواد المسك والغالية ودابر العود الهندي، على لبتها، عبق الخلوق وهي والهة حيرى، واقفة في الدهليز، وجائية تخطر في مشيتها، قد خالط صرير نعلها أصوات خلخالها كأنها تخطر على أكباد محبيها، فهي كما قال الأفوه الأودي: ليس منها ما يقال لها... كملت لو أن ذا كملا كل جزءٍ من محاسنها... كائنٌ من حسنها مثلا لو تمنت في براعتها... لم نجد في حسنها بدلا فهبتها، والله، يا أمير المؤمنين؛ ثم دنوت منها لأسلم عليها، فإذا الدار والدهليز والشارع قد عبقت بالمسك. فسلمت عليها، فردت السلام بلسان منكسر، وقلب حزين محرقٍ، فقلت لها: يا سيدتي إني شيخ غريب أصابني عطش، فأمري لي بشربةٍ من ماءٍ، تؤجري. قالت: إليك عني، يا شيخ، فإني مشغولة عن سقي الماء وادخار الأجر فقلت لها: يا سيدتي، لأية علة؟ قالت: لأني عاشقة من لا ينصفني، وأريد من لا يريدني، ومع ذلك فإني ممتحنة برقباء فوق رقباء. قلت لها: يا سيدتي، هل على بسيط الأرض من تريدينه ولا يريدك؟ قالت: إنه لعمري على ذلك الفضل الذي ركب الله فيه من الجمال والدلال. قلت لها: يا سيدتي، فما وقوفك في الدهليز؟ قالت: هو طريقه، وهذا أوان اجتيازه. قلت لها: يا سيدتي، هل اجتمعتما في خلوة في وقت من الأوقات، أم حب مستحدث فتنفست الصعداء، وأرخت دموعها على خديها كطل على ورد، وأنشأت تقول:

وكنا كغصني بانة وسط وردة ::: نشم جنة اللذات في عيشة رغد
فأفرد هذا الغصن من ذاك قاطعٌ ::: فيا من رأى فرداً يحن إلى فرد

قلت لها: يا هذه، ما بلغ من عشقك هذا الفتى؟ قالت: أرى الشمس على حائطهم أحسن منها على حائط غيرهم؛ وربما أراه بغتة، فأبهت وتهرب الروح عن جسدي، وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل؛ قلت لها: عزيز علي، وأنت على مابك من الضنى وشغل القلب بالهوى، وانحلال الجسم وضعف القوى، ما أرى من صفاء اللون، ورقة البشرة فكيف لو لم يكن بك من الهوى شئ، أراك كنت مفتنة في أرض البصرة.

قالت: كنت، والله، يا شيخ، قبل محبتي لهذا الغلام، تحفه الدلال والجمال والكمال، ولقد فتنت جميع ملوك البصرة، وفتنني هذا الغلام. فقلت: يا هذه، ما الذي فرق بينكما قالت: نوائب الدهر، وأوابد الحدثان، ولحديثي وحديثه شأنٌ من الشان، وأنبيك أمري: إني كنت أفصدت، في بعض أيام النيروز، فأمرت، فزين لي وله مجلس بأنواع الفرش، وأواني الذهب؛ ونضدنا الرياحين والشقائق والمنثور وأنواع البهار، وكنت دعوت لحبيبي عدة من متظرفات البصرة، فيهن من الجواري، جارية شهران، وكان شراؤها عليه من مدينة عمان ثمانمائة ألف درهم؛ وكانت الجارية ولعت بي، وكانت أول من أجابت الدعوة، وجاءتني منهن؛ فلما حصلت عندي، رمت بنفسها علي، تقطعني عضاً وقرصاً. ثم خلونا نتمزز القهوة إلى أن يدرك طعامنا، ويجتمع من دعونا، فتارة هي فوقي، وتارةً أنا فوقها، فحملها السكر على أن ضربت يدها على تكتي فحلتها، ونزعت هي سراويلها، وصارت بين فخذي كمصير الرجال من النساء. فبينا نحن كذلك، إذ دخل علي حبيبي، وقد التزق قرطي بخلخالي؛ فلما نظر إلينا، اشمأز لذلك، وصدف عني وعنها صدوف المهرة العربية إذا سمعت صلاصل اللجم، وعض على أنامله، وولى خارجاً. فأنا، يا شيخ، منذ ثلاث سنين، اسل سخيمته، وأستعطفه فلا ينظر إلي بعين، ولا يكتب إلى بحرف، ولا يكلم لي رسولاً. قلت لها: يا هذه، أفمن العرب هو أم من العجم؟ قالت: هو من جلة ملوك البصرة. قلت: من أولاد نيابها أو من أولاد تجارها. قالت: من عظيم ملوكها. قلت لها: أشيخ هو أم شاب؟ فنظرت إلي شزراً وقالت: إنك لأحمق. أقول: هو مثل القمر ليلة البدر، أمرد أجرد، وطرة رقعاء كحنك الغراب، تعلوه شقرة في بياض، عطر لباس، ضارب بالسيف، طاعن بالرمح، لاعب بالنرد والشطرنج، ضارب بالعود والطنبور، يغني وينقر على أعدل وزن، لا يعيبه شيء إلا انحرافه عني، لا نقصاً لي منه بل حقداً لما رآني عليه. قلت: يا هذه، وكيف صبرك عنه؟ فأنشأت تقول:

أما النهار، فمستهامٌ والهٌ ::: وجفون عيني ساجفاتٌ تدمع
والليل، قد أرعى النجوم مفكراً ::: حتى الصباح ومقلتي لا تهجع

كيف اصطباري عن غزال شادن ::: في لحظ عينيه سهامٌ تصدع
وجهٌ يضيء وحاجبانِ تقوسا ::: وكأن جبهته سراجٌ يلمع
وبياض وجه قد أشيب بحمرة ::: في وجنتيه كأنه مستجمع
والقد منه كالقضيب إذا زهاً ::: والغصن في قنوائه يترعرع
تمت خلائقه، وأكمل حسنه ::: كمثال بدرٍ، بعد عشرٍ، أربع

قلت لها: يا سيدتي، ما اسمه، وأين يكون؟ قالت: تصنع به ماذا؟ قلت: أجهد في لقائه، وأتعرف الفضل بينكما في الحال، قالت: على شريطة قلت: وما هي؟ قالت: تلقانا إذا لقيته، وتحمل لنا إليه رقعة. قلت: لا أكره ذاك. قالت: هو ضمرة بن المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة، يكنى بأبي شجاع، وقصره في المربد الأعلى، وهو أشهر من أن يخفى. ثم صاحت في الدار: يا جواري، دواةً وقرطاساً وشمرت عن ساعدين كأنهما طومارا فضة، ثم حملت القلم وكتبت: بسم الله الرحمن الرحيم، سيدي: تركي الدعاء في صدر رقعتي، ينبئ عن تقصيري، ودعائي، إن دعوت، يكون هجنة. فلولا أن بلوغ المجهود يخرج عن حد التقصير، لما كان لما تكلفته خادمتك من كتب هذه الرقعة معنى، مع إياسها منك، وعلمها بتركك الجواب. سيدي، فجد بنظرة، وقت اجتيازك في الشارع إلى الدهليز، تحيي بها أنفساً ميتةً أسرى؛ واخطط بخط يدك، بسطها الله بكل فضيلة، رقعة فأجعلها عوضاً من تلك الخلوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنا ذاكرتها. سيدي، ألست لك محبة، وبك مدنفة؟ فإن رجعت، مولاي، إلى الأشبه بك، وأنقذتني من عوارض التلف، كنت لك خادمة، ولك شاكرة. فلما فرغت من الكتاب، يا أمير المؤمنين، ناولتني إياه، فقلت لها: يا سيدتي، قد وجب حقك علي، ولزمتك حرمتي لطول وقوفي عليك. وكنت قد سألت شربة ماء. قالت: استغفر الله، ما فهمنا عنك. ثم صاحت في الدار: أخرجن إلينا شراباً من ماء وغير ماء. فما كان إلا أن أقبل ثلاثون وصيفة، بأيديهن الطاسات والجامات والأقداح، مملوءة ماء وثلجاً وفقاعاً وشراباً، فشربت الماء ثم قلت: يا سيدتي، مع قدرتك على هذا من استواء الحال، وكثرة الخدم والعبيد والجواري، فلم لا تأمرين إحدى الجواري أن تقف مراعية للغلام، حتى إذا مر أعلمتك،

فتخرجين إليه؟ قالت: لا تغلط يا شيخ، فتمثلت؟

عبالة عنق الليث من أجل أنه ::: إذا رام أمراً قام فيه بنفسه

ثم انصرفت عنها، يا أمير المؤمنين؛ فلما أصبحت غدوت على محمد بن سليمان فوجدت مجلسه محتفلاً بالملوك، ورأيت غلاماً قد زان المجلس، وفاق من فيه حسناً وجمالاً، قد رفعه الأمير فوقه، فسألت عنه، فقيل: ضمرة بن المغيرة، فقلت في نفسي: بالحقيقة حل بالمسكينة ما حل، هو، والله، قاتلها فيما أرى. ثم قمت فقصدت المربد، ووقفت على باب داره، فإذا هو قد ورد في موكب جليل، فوثبت إليه، وبالغت في الدعاء والثناء؛ ثم دنوت منه، وفاوضته في الذي بيني وبينها، وناولته الرقعة، فلما قرأها ضحك، ثم قال: يا شيخ قد استبدلنا بها، فهل لك في أن تنظر إلى البديل؟ قلت: نعم. فصاح في الدار: يا جواري، أخرجن إلينا لذيذاً. فما كان إلا أن طلعت جارية وضيئة الكمين، ناهدة الثديين، تمشي مشية مستوحل، ترتج من دقة خصرها على كبر عجزه ذات فخذين وعجيزتين تختطفان الأنفس اختطافاً، على رأسها بطيخة من الكافور، مكتوب على جبينها:

آه من الحب آه ::: ما أقتل الحب وأضناه

ودون ذلك مكتوب:

عيارةٌ قياسةٌ في الخط ::: رخيمة الدل، صيودٌ للرجال

وقد كتبت بالغالية على عصابتها ثلاثة أسطر، وهي:

إذا غضبت رأيت الناس قتلى ::: وإن رضيت فأرواحٌ تعود

لها في عينها لحظات سحرٍ ::: تميت بها، وتحيي من تريد

وتسبي العالمين بمقلتيها ::: فكل العالمين لها عبيد

فناولها الرقعة، وقال: اقرئي وأجيبي صاحبتك. فلما قرأت الرقعة، اصفرت، وعرقت، ومزقتها، وضربت بها في وجه الغلام، وغابت في الستر. فقال لي: أما أنت، يا شيخ، فاستغفر الله مما مشيت فيه. قلت: بل أنت استغفر الله من هجرانك إياها، وتركك إتيانها. والله ما أرى لها في البشر نظيراً. قال: لا أفعل، ولو أنها في حسن يوسف وكمال حواء.

فخرجت، يا أمير المؤمنين، وأنا أجر ذيلي حتى وردت عليها؛ فاستأذنت ودخلت، فبدأت بي، فقالت: ما وراء الشيخ؟ قلت: البؤس واليأس. قالت: لا عليك. فأين الله والقدر؟ ثم أمرت لي بخمسمائة دينار، وعشرة أثواب، وخرجت من عندها وأنا ممتدح لآل سليمان. فلم يكن لي، والله، إلا معرفة خبرها في العام الذي عدت فيه إلى البصرة، فوردت عليها، فوجدت على بابها أمراً، ونهياً، وأسباباً لا تكون إلا على باب الخلفاء. فاستأذنت، فدخلت، فإذا فوق رأسها ثلاثون رجلاً من شيوخ وشبان وخدم، وقوف بسيوفهم، فلما نظرت إلي، عرفتني، ووثبت إلي، وقبلت رأسي، وقالت: يا شيخ الحمد لله الذي جعل العبيد بالصبر ملوكاً، وجعل الملوك بالتيه عبيداً، إن الذين تراهم وقوفاً، أصحاب ضمرة، يسلون سخيمتي، ويسألونني الرجوع له، والله، لا نظرت إليه في وجه، ولو أنه في حسن يوسف وكمال حواء. فسجدت، يا أمير المؤمنين، شماتة بضمرة، وتقرباً إلى الجارية. فقال بعض حجاب ضمرة: مهلاً يا شيخ، فمن طاب محضره، طاب مولده. ثم انصرفوا. فناولتني خريطة فيها أوراق، فقالت: هذا أول ما ورد علينا منه، فإذا ثوب خز أبيض يفق، مكتوب فيه بماء الذهب: بسم الله الرحمن الرحيم. لولا تغاضي عليك، أدام الله حياتك، لو صفت شطراً من غدرك، ولبسطت سوط عتبي عليك، وحكمت سيف ظلامتي فيك، إذ كنت الجانية على نفسك، والمظهرة لسوء العهد وقلة الوفاء، المؤثرة علينا غيرنا، فخالفت هواي، وفرشت نفسك لها، على حالتي جد وهزل، وصحو وسكر، والمستعان الله على ما كان من سوء اختيارك. وقد ضمنت رقعتي هذه، أبيات شعر، أنت المتفضلة بالنظر إليها، وهي:

قطع قلبي فراقكم قطعا ::: وكدت أقضي بينكم جزعا

ما تكحل العين بالرقاد ولا ::: ينام جنبي في الليل مضطجعا

لا عيش لي مذ نأت ولا وجدت ::: عيناي في الأرض قط متسعا

قلت لها: أفلا تحدثينني كيف سليت عنه، وابتلى؟ قالت: كيف لا أحدثك؟ افتصدت تفاحة، جارية محمد بن سليمان، فدعينا إلى خورنق لمحمد بن سليمان، فلما طعمنا، دعت لنا بالشراب، فبينا نحن كذلك، إذا بحراقة سلطانية قد وردت، وفيها عدة من أبناء الملوك، وفيهم هذا العيار،

ولا علم لي بمكانه، وكنت حملت العود وغنيت:

أبلـــى فـــؤادي وشـــفني الأرق ::: والـــدمع مـــن مقلـــتي يـــستبق
من حـــب ظـــبيٍ أغـــن ذي دعـــجٍ ::: وقلبـــــه للـــــشفاء منطبـــــق

فلما وجبت العتمة انصرفنا، وأبطأت الجارية، وأتاني هؤلاء القوم من عنده يسلون سخيمتي، ويستعطفونني عليه. ثم انصرفت عنها، يا أمير المؤمنين، ودخلت الحمام من ساعتي، فما كان إلا دخلت، حتى أتاني غلامي، فقال: جماعة من جلة الناس قد طرقوا دارك يطلبونك. فلبست ثيابي، وخرجت مسرعاً، فإذا بضمرة قد كبس داري في عدة من الرؤساء، فقال: والله، لا برحنا، حتى تنفق علينا الخمسمائة دينار التي أخذتها من الجارية، سيدتي. قلت: أي والله، بالسمع والطاعة. ثم جذبني إلى نفسه، فلم يزل يناظرني في أمرها حتى أقبل المساء، ثم انصرف إلى رحله. فلما كان من الغد، وردت له رقعة مع خادم، وكيس فيه الف دينار، واستزارني، فقبلت ذلك، وصرت معه إليه. فلما نظر إلي، تنحى عن مقعده، وأقعدني، ثم قال: هذا قد أعددته، للنيروز، لسيدتي هدية، وأنت أولى من تجشم مع الخادم إليها. قلت: السمع والطاعة. ثم صاح في الدار: هاتوا الهدية. فإذا مائة تخت من ثياب، وصندوق من ذهب مقفل عليه، فقال لي: في التخت والصندوق مبلغ ثلاثين ألف دينار، وأنت أولى من تفضل بالإيصال. فصرنا إليها، واستأذنا، فلما مثلنا بين يديها، أنكرتني وقالت: من الشيخ؟ قلت: الخليع، شاعر العراق؛ ومعي هدية عبدك ضمرة. فصاحت في الدار: تملك فإذا جارية كأنها الظبية المنفلتة من الشبكة، قالت لها: خذي هذه الهدايا، وفرقيها على جواري الدار، ثم قالت: أيطمع الخنوص أن يجتمع معي، بعد قبولي الهدية، في ثلاثين سنة؟ قلت لها: العفو عند المقدرة يعدل عتق رقبة، قالت: ففي خمس عشرة سنة؟ قلت لها: أنقصيها، أولى بك. قالت: ففي ثلاث سنين، قلت لها: حطة أخرى، وقد اجتمعنا، قالت: لا، والله، لا آكل ولا أشرب حتى آتيه. وأمرت أن يسرج؛ وبادرت إلى باب ضمرة مبشراً،فما وصلت أو سمعت صلاصل اللجم، فإذا هي قد سبقتني في جواريها وخدمها. فدخلت، فإذا هما يتعانقان ويتعاقبان، فقلت: يا سيدتي، ما أنتما إلى شيء أحوج منكما

إلى خلوة. قالا: هو ذاك فانصرفت عنهما، ثم بكرت عليهما، فإذا هي في المرقد الأول جالسة، عليها جبة وشيء مطير، وهي تعصر الماء عن ذوائبها، وتصلح قرونها، فاستحيتني وقالت: لا تفكرن في ريبة، فوالله ما صلينا البارحة، حتى بعثت إلى عبد الرحمن بن أبي ليلى القاضي، فزوجت نفسي سيدي. ولكن صر إليه في المرقد الثاني. فصعدت إليه، فلما نظر إلي، وثب إلي، وقبل بين عيني وقال: يا شيخ، قد جمع الله بيني وبين سيدتي بك. ثم دعا بدواة وقرطاس، وكتب إلى ابن نوح الصيرفي في ثلاثة آلاف دينار؛ فرجعت إليها، فقالت: بماذا برك سيدي؟ فأقرأتها الرقعة، فقالت: نعجل إليك مثلها، فدعت بمال وطيار ووزنت ثلاثة آلاف دينار، ودعت بعشرة أثواب من ثياب مصر، وقالت: هذه وظيفتك علينا كل عام، فخرجت من عندي، وأخذت مرفوعي من آل سليمان، وانصرفت إلى العراق. وكان الرشيد متكئاً، فاستوى جالساً وقال: أوه يا حسين لولا أن ضمرة سبقني إليها، لكان لي ولها شأن من الشأن (١).

أفأفهمه وأنا وحدي!؟:

قيل: دخل رجل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين إني هجوت الروافض.

قال: هات، فقال:

شمساً ورغماً وزيتوناً ومظلمةً ::: من أن ينالوا من الشيخين طغيانا

فقال: فسّر. قال: يا أمير المؤمنين أنت في مائة ألف لا تفهم هذا أفأفهمه وأنا وحدي! فضحك وأمر له بصلة (٢).

هذا عقوبة من عصى:

قال: وكتب يحيى بن خالد البرمكي إلى الرشيد: من الحبس لأمير المؤمنين وخلف المهديين وخليفة رب العالمين، من عبد أسلمته عيوبه وأوبقته ذنوبه وخذله شقيقه ورفضه صديقه وزال به الزمان ونزل به الحدثان وحلّ به الضيق بعد السعة والشقاء بعد السعادة وعالج البؤس بعد

(١) المحاسن والأضداد، ٢٠٨ - ٢١١.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١٨٧/١.

الدعة ولبس البلاء بعد الرخاء وافترش السخط بعد الرضى واكتحل السهود وفقد الهجود، ساعته شهر وليلته دهر، قد عاين الموت وشارف الفوت، جزعاً يا أمير المؤمنين قدمني الله قبلك من موجدتك وأسفاً على ما حرمته من قربك لا على شيء من المواهب، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وعارية في يديّ منك، والعارية لا بد مردودة، فأما ما اقتصصته من ولدي فبذنبه وعاقبته بجرمه وجريرته على نفسه فإنما كان عبداً من عبيدك لا أخاف عليك الخطأ في أمره ولا أن تكون تجاوزت به فوق ما كان أهله ولا كان مع ذلك بقاؤه أحبّ إلي من موافقتك، فتذكر يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك وحجب عني فقدك، كبر سني وضعف قوتي وارحم شيبتي وهب لي رضاك عني ولتمل إليّ بغفران ذنبي، فمن مثلي يا أمير المؤمنين الزلل ومن مثلك الإقالة، ولست أعتذر إليك إلا بما تحب الإقرار به حتى ترضى، فإذا رضيت رجوت أن يظهر لك من أمري وبراءة ساحتي ما لا يتعاظمك معه ما مننت به من رأفتك بي وعفوك عني ورحمتك لي، زاد الله في عمرك يا أمير المؤمنين وقدمني للموت قبلك. وكتب في أسفله:

قـــل للخليفـــة ذي الـــصنا ::: ئــــع والعطايــــا الفاشــــيه
وابـــن الخلائـــف مـــن قـــري ::: شٍ والملـــــوك الهاديـــــه
ملـــك الملـــوك وخـــير مـــن ::: ســـاس الأمـــور الماضـــيه
إن البرامكــــــة الذيـــــــ ::: ن رمـــوا لـــديك بداهيـــه
عمّتـــهم لـــك ســـخطةٌ ::: لم تبـــق منـــهم باقيـــه
فكـــأنهم ممـــا بهـــم ::: أعجـــاز نخـــلٍ خاويـــه
صـــفر الوجـــوه علـــيهم ::: خلـــع المذلـــة باديـــه
متفـــرقين مـــشتتيــ ::: ن بكـــل أرضٍ قاصـــيه
بعـــد الإمـــارة والـــوزا ::: رة والأمـــور الـــساميه
ومنـــازل كـــانوا بهـــا ::: فـــوق المنـــازل عاليـــه
وتحـــرّمٍ برضـــاعٍ أو ::: في مُرضـــعٍ لـــك فاديـــه
فـــاليوم قـــد رمـــوا لديـــ ::: ك بمـــا يـــشيب الناصـــيه
أضـــحوا وجـــلٌ منـــاهم ::: منـــك الرضـــى والعافيـــه

فـــإذا رضـــيت فـــإن أن ::: فـــسهم بحكمـــك راضـــيه
فـــاليوم قـــد ســـلب الزمـــا ::: ن كـــــرامتي وبهائيــــــه
واليـــوم قـــد ألقـــى الزمـــا ::: ن جرانـــــه بفنائيـــــه
ورمـــى ســـواد مقلـــتي ::: فأصـــاب حـــين رمانيـــه
يـــا مـــن يـــود لي الـــردى ::: يكفيـــك ويحـــك مـــا بيـــه
يكفيـــك مـــا أبـــصرت مـــن ::: ذلّـــــي وذلّ مكانيـــــه
يكفيــــــك أني مـــــستبا ::: حٌ معــــــشري ونــــــسائيه
ورزئـــــت مـــــالي كلـــــه ::: وفـــدى الخليفـــه ماليـــه
إن كــــان لا يرضــــيك إ ::: لا أن أذوق حماميـــــــــــه
فلقـــد رأيـــت المـــوت مـــن ::: قبـــل الممـــات علانيـــه
وفجعـــت أعظـــم فجعـــة ::: وفنيـــت قبـــل فنائيـــه
ولبـــست أثـــواب الذليـــً ::: ل ولم تكـــــن بلباســـــيه
وعطبـــت في ســـخط الإمـــا ::: م علـــى رفيـــع بنائيـــه
فـــانظر بعينـــك هـــل تـــرى ::: إلا قـــــصوراً خاليـــــه
وذخـــــائراً مقـــــسومةً ::: قُـــسّمن قبـــل مماتيـــه
وحرائـــراً مـــن بـــين صـــا ::: رخـــة علـــيّ وباكيـــه
ونوادبـــــاً ينـــــدبني ::: تحـــتً الـــدجى بكنائيـــه
يابـــا علـــيّ البرمكـــــ ::: يّ فمـــا أُجيـــب الداعيـــه
وبكـــاؤهن وقـــد سمعـــ ::: ت مقلقـــــلٌ أحـــــشائيه
أخليفـــــة الله الرضـــــى ::: لا تـــــشتمن أعدائيـــــه

اذكر عهودك لي وما أعطيتني بوفائيه

اذكـــر مقاســـاتي الأمـــو ::: ر وخـــــدمتي وعنائيـــــه
ارحـــم جعلـــت لـــك الفـــدا ::: كـــبري وشـــدة حاليـــه
ارحـــم أخـــاك الفـــضل والـــ ::: بـــاقين مـــن أولاديـــه
فلقـــد دعـــوك وقـــد دعـــو ::: تـــك إن سمعـــت دعائيـــه
أخليفــــة الرحمــــان إ ::: نـــك لـــو رأيـــت بناتيـــه
وبكـــاء فاطمـــة الكئـــي ::: بـــة والمـــدامع جاريـــه

ومقاهـــــــا بترجّـــــــــع ::: وا شــــــــقوتا وشـــــــقائيه
مـــــن لي ولا مــــن لي وقـــــد ::: فـــــصم الزمـــــان قناتيـــــه
وعــــدمت صـــــفو معيــــشتي ::: وتغـــــــيرت حالاتيــــــــه
مـــن لي وقـــد غـــضب الزمـــا ::: ن علـــــى جميــــع رجاليــــه
أودى الزمـــــــان بجــــــوره ::: بــــــساستي وحماتيــــــه
يـــا عطفـــة الملـــك الرّضـــى ::: عـــــودي علينــــا ثانيــــه

فوقــع الرشــيد فــي رقعتــه:{وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾} [النحل: ١١٢]، وقد قلت:

يـــــا آل برمــــك إنمــــا ::: كنـــــتم ملوكــــاً عاديـــــه
فطغيــــــــــتم وبغيـــــــــتم ::: وكفـــــــرتم نعمائيـــــــــه
هــــذا عقوبـــة مـــن عـــصى ::: مــــن فوقــــه وعــــصانيه
كنـــتم كـــشيء قـــد مـــضى ::: أحــــلام نــــومٍ ســــاريه

وتمثل بقول مهلهل:

بـــات ليلـــي بـــالأنعمين طـــويلا ::: أرقب الـنجم سـاهراً أن يـزولا
أزجر العـين أن تُبكّـي الطلـولا ::: إن في الصدر مـن كليـب غلـيلا
إن في الـصدر غلـةً لـن تقـضّى ::: ما دعـا في الغـصون داعٍ هـديلا
لم يطيقـــوا أن يترلـــوا فترلنـــا ::: وأخو الحرب من أطـاق الـترولا[1]

أحسبه صادقاً:

وحكي عن الرشيد في عبد الله بن مالك الخزاعي حين غضب عليه فأمر أهله وحشمه وجميع قراباته أن يتجنبوا كلامه ومعاملته ومعاطاته حتى أثر ذلك في بدنه وتحاماه أقرب الناس إليه من ولد وأهل فلم يدن منه أحد ولم يطف به.

فجاءه محمد بن إبراهيم الهاشمي وكان أحد أودّائه، في جوف الليل،

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٢٢٩/١.

فقال له: إن لك عندي يداً ما أنساها ومعروفاً ما أكفره وقد علمت ما تقدم به أمير المؤمنين في أمرك وها أنا بين يديك ونصب عينيك فمرني بأمرك فوالله لأجعلن نفسي وقاية لك. فقال له عبد الله خيراً وأثنى عليه وأخبره بعذره فيما وجد عليه الرشيد.

فلما دخل عليه قال له: أين كنت في هذه الليلة؟ قال: عبدك يا أمير المؤمنين عبد الله بن مالك كنت عنده وهو يحلف بطلاق نسائه وعتق مماليكه وصدقة ماله مع عشرين بدنة يهديها إلى بيت الله الحرام حافياً راجلاً إن كان ما بلغ أمير المؤمنين سمعه الله جل وعز من عبد الله ولا اطّلع عليه ولا همّ به أو أظهره. قال: فأطرق الرشيد مليًّا مفكراً ومحمد يلحظه ووجهه يشرق مرة ويسفر أخرى وكان قد حال لونه حين دخل عليه، ثم رفع رأسه فقال: أحسبه صادقاً يا محمد فمره بالرواح إلى الباب. قال: وأكون معه؟ قال: نعم. فانصرف محمد إلى عبد الله فبشّره وأمره بالركوب رواحاً. فدخلا جميعاً، فلما أبصر عبد الله بالرشيد انحرف نحو القبلة وخرّ ساجداً ثم رفع رأسه، فاستدناه الرشيد فدنا وعيناه تهملان فأكب عليه وقبّل بساطه ورجليه وموطئ قدميه ثم طلب أن يأذن له في الاعتذار. فقال: ما بك حاجة إلى أن تعتذر إذ قد عرفت عذرك.

قال: فكان عبد الله يرى بعد ذلك إذا دخل على الرشيد بعض الانقباض، فشكا ذلك إلى محمد، فقال محمد: يا أمير المؤمنين، إن عبدك عبد الله يشكو أثراً باقياً من تلك النبوة التي كانت من أمير المؤمنين ويسأل الزيادة في بسطه. فقال الرشيد: إنا معشر الملوك إذا غضبنا على أحد من بطانتنا ثم رضينا عنه بقي لتلك الغضبة أثر لا يخرجه ليل ولا نهار.

قيل: ومدح شاعر أبا حاتم كاتب الديوان فلم يصله بشيء فأنشأ يقول:

لتُنصفنّي يا أبا حاتم ::: أو لأُصيرنّ إلى حاكم
أول ما أتلفت من ماله ::: خمسين ألفاً في شرى هاشم
خمسين ألفاً وضحاً كلها ::: من مال هذا الملك النائم

فاحتفظها صاحب الخبر ورفعها إلى الرشيد فقال: صدق، لولا أني

نائم ما كانت أموري تجري على هذا السبيل: وأمر بإخراج الجرائد من الدار إليه. فأول ما وجد على منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم.

عذره له أحسن من إحيائه إياه:

فحدّث صالح صاحب المصلّى قال: دعاني الرشيد وهو على كرسي فقال: اذهب الساعة فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم فإن لم يوردها بينك وبين المغرب فاضرب عنقه وجئني برأسه وأنا نفيّ من المهدي لئن أنت دافعت عنه لأضربنّ عنقك. قلت: يا سيدي فإن أعطاني بعضها ووقّت لي في بعضها وقتاً؟ قال: لا. فخرجت فأعلمته الخبر فأُسقط في يده وقال: ما أراد إلا قتلي لأنه يعلم أن مقدار مالي لا يبلغ ما به طالبني، ولكن تأذن لي أن أدخل بيتي فأودّع أهلي؟ فأذنت له فدخل ودخلت معه وبقيت واقفاً فبعث إلى أمهات أولاده وبناته ونسائه أن اخرجن إلي كما كنتن تخرجن عند موتي فإن هذا آخر أيامي ولا ستر لكن بعدي. فخرجن إليه مشققات الجيوب مخمّشات الوجوه بصراخ شديد. فبكى إليهن وبكين إليه وبكيت معهن ثم ودعهن وخرج وهنّ في أثره واضعات التراب على رؤوسهن، ثم قال: يا أبا مقاتل لو أذنت لي في المصير إلى أبي عليّ يحيى بن خالد البرمكي فكنت أوصيه بولدي وأهلي؟ فقلت: امض.

وصرنا إليه وقد نزل في ساعته وهو على كرسي يغسل يده، فلما توسطنا الدار جعل منصور يبكي ويمشي إليه حتى دنا منه وهو يسأله عن الحال فيمنعه البكاء من إخباره، فأقصصت عليه قصته فقال: ارجع إلى أمير المؤمنين وسله أن يهبه لي. قلت: ما لي إلى ذلك سبيل ولا يراني إلا والمال معي أو رأس منصور كما أمرني. فقال لخادم له: ائت فلانة فسلها كم لنا عندها من المال. فانصرف وذكر أن عندها خمسة آلاف ألف درهم. فقال لي: احملها وابلغ أمير المؤمنين رسالتي في باقيها. فأعلمته أن لا سبيل إلى حمل بعضها دون بعض. فأطرق ثم رفع رأسه ثم قال: يا غلام ائت دنانير فقل لها تبعث إلي بالجوهر الذي وهبه لها أمير المؤمنين. فبعثت إليه بحقّ فقال: هذا جوهر ابتعناه لأمير المؤمنين بمائتي ألف دينار وهو عارف به وقد جعلته له بمائة ألف دينار وهو ألفا

ألف درهم، واحمل إليه هذه السبعة الآلاف الألف والرسالة. فأبيت.

فوجّه إلى الفضل ابنه: إنك كنت أعلمتني أنك على ابتياع ضيعة نفيسة وقد أصبتها ولا يوجد مثلها في كل وقت وابتياعها فرصة فاحمل إلي مالها. فعاد الرسول ومعه ألفا ألف درهم. ووجه إلى جعفر ابنه أن يوجّه إليه بألف ألف درهم. فأنفذ إليه صكاً أو صكاكاً إلى الجهبذ بها. فقبضت المال ووافيت الرشيد قبل المغرب وهو منتصب على حالته ينتظر رجوعي إليه. فأخبرته الخبر فلما انتهيت إلى خبر الحقة قال: صدق وقد ظننت أنه لا ينجيه غيرهم، احمل هذا المال أجمع إلى أبي عليّ واردده عليه وأعلمه أني قد قبلت ذلك عن منصور ورددته عليه. ففعلت ذلك.

ولقيني بعد ذلك يحيى منصرفاً من الدار ومنصور معه يسايره ويضاحكه والناس خلفه فقلت: والله لأنصحن هذا الشيخ الكريم. فدخلت معه ودخل منصور ودعا بغدائه، فلما نهض منصور قلت: يا أبا علي إني والله ما رجعت معك إلا لنصحك وقد رأيت مكان هذا الرجل منك وكنا حين حملت المال أنهضته معي فوالله ما قطع نصف الصحن من الدار حتى تمثل بهذا البيت:

فما بُقيا علي تركتماني ::: ولكن خفتما صرد النبال

فعارض أكرم فعلك بألأم خصلة فيه فدعاني الامتعاض من ذلك إلى إخبارك، فإني من تعلم في مودتك وطاعتك. فأكب على الأرض ساعة ثم رفع رأسه فقال: اعذره فقد كان عقله عزب عنه في ذلك الوقت. قال: فكان عذره له أحسن من إحيائه إياه[1].

أتدرون ما قالت هذه المرأة؟!:

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه فقالت: يا أمير المؤمنين، أقر الله عينك، وفرحك بما آتاك، وأتم سعدك لقد حكمت فقسطت. فقال لها: من تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك ممن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم. فقال: أما الرجال فقد

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١/٢٢٩.

مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟! فقالوا: ما نراها قالت إلا خيرا. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها وفرحك بما آتاك فأخذته من قوله تعالى:{حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً} [الأنعام: ٤٤]، وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

(إذا تم أمر بدا نقصه ::: ترقب زوالا إذا قيل تم)

وأما قولها لقد حكمت فقسطت فأخذته من قوله تعالى:{وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥} [الجن: ١٥]، فتعجبوا من ذلك [١].

فلما جاءك المال والجائزة جلست:

وحج هارون الرشيد، فأرسل إلى سفيان بن عيينة فأمره أن يحدث بنيه، فقال: يا أمير المؤمنين، قد سألني الناس فامتنعت عليهم، ولكني أجلس لبنيك وللناس، فقال: نعم. فلما جلس صاح به الناس: سألناك الجلوس لنا فأبيت علينا، فلما جاءك المال والجائزة جلست.فقال للمستملي: أنصتهم لي.فصاح المستملي: صه صه. فسكت الناس، فأخرج سفيان بن عيينة رأسه إليهم،وقال: حدثني الزهري، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: **ما شيءٌ أحل وأطيب من ثلاثة:﴿صداق الزوجة، والميراث، وما أتاك الله به من غير مسألة، فإنه رزق ساقه الله إليك﴾**. والله ما جئت هذا الرجل ولا سألته شيئاً من ماله، ولو وجّه إليّ شطر ماله لقبلته، ثم أدخل رأسه ولم يحدثهم في ذلك الموسم بشيء. [٢]

بعثت فيك لرؤيا رأيتها:

رأى الرشيد رؤيا فهمته، فوجه في الكرماني بريداً، فلما أتاه ومثل بين يديه خلا به وقال: بعثت فيك لرؤيا رأيتها. فقال: وما هي؟ قال: رأيت كلبين ينهشان قبل جارية من جواري. فقال له الكرماني: ما رأيت إلا خيراً يا أمير المؤمنين، فقال له الرشيد: قل ما تراه وهات ما عندك، فقال

(١) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ١/١٠١، ١٠٢.
(٢) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ٣٢/١.

له: هذه جارية دعوتها لتجامعها، وكان لا عهد لك معها بذلك، وكانت ذات شعر، فكرهت أن تحلق فتجد أثر الموسي، وكرهت أن تبقى على هيئتها، فأخذت جلماً فحلقت بعض الشعر وتركت بعضه، فأشار الرشيد إليه بالقعود، وقام فدخل إلى نسائه، ودعا بتلك الجارية فسارها مستفهماً منها عن ذلك، فأقرت به وصدقت الكرماني، فخرج إليه الرشيد، فقال له: أصبت وسررتني، وأمر له بصلة سنية، ثم قال له: إياك أن تحدث بها ما كنت حيّا. قال: فوالله ما حدثت بها ما دام الرشيد حيا[1].

ابن السماك والرشيد:

وذكر محمد بن هارون عن أبيه قال: حضرت الرشيد، وقال له الفضل بن الربيع: يا أمير المؤمنين، قد أحضرت ابن السماك كما أمرتنى قال: أدخله. فدخل فقال له: عظنى. قال: يا أمير المؤمنين، اتق الله وحده لا شريك له، واعلم أنك واقف غدا بين يدى الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لا ثالثة لهما: جنة أو نار. فبكى هارون حتى اخضلت لحيته، فأقبل الفضل على ابن السماك فقال: سبحان الله وهل يتخالج أحدا شك في أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله في عباده وفضله، فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله: ولم يلتفت إليه وأقبل على أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا يعنى الفضل بن الربيع ليس والله معك ولا عندك في ذلك اليوم فاتق الله، وانظر لنفسك، فبكى هارون حتى أشفقنا عليه وأفحم الفضل بن الربيع فلم ينطق بحرف حتى خرجنا.

قال: ودخل ابن السماك على الرشيد يوما فبينا هو عنده إذ استسقى ماء فأتى بقلة من ماء فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها قال له ابن السماك: على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها قال بنصف ملكي قال: اشرب هنأك الله فلما شربها قال له: أسألك بقرابتك من رسول الله لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها؟ قال: بجميع ملكى قال ابن السماك: إن ملكًا قيمته شربة ماء

(١) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ٢٠٣/١.

لجدير ألا ينافس فيه فبكى هارون فأشار الفضل بن الربيع إلى ابن السماك بالانصراف فانصرف [١].

وفي بدنك أربعة أسياف لا بد أن يقتلك أحدها؟!:

وعن أبي يعقوب قال: كنت قائماً بين يدي الرشيد وقد قدم إليه جماعة من الملحدين، فدعا بالسيَّاف لقتلهم، فلما رآه شيخٌ منهم اضطرب وجزع، فقال له شاب منهم: يا شيخ، ترتاع من سيف هذا وفي بدنك أربعة أسياف لا بد أن يقتلك أحدها؟! وهي: الدم والبلغم والصفراء والسوداء؟! فتماسك الشيخ. فأمر الرشيد بأن يقدم قتل الشاب، وقال: هذا الغلام فتنة من فتنهم [٢].

من إجلال الله تعالى إجلال العلم:

وجه الرشيد إلى مالك بن أنس رحمه الله ليأتيه فيحدثه فقال مالك: إن العلم يؤتى! فسار الرشيد إلى منزله فاستند معه إلى الجدار، فقال: يا أمير المؤمنين، من إجلال الله تعالى إجلال العلم، فقام وجلس بين يديه وبعث إلى سفيان بن عيينة فأتاه وقعد بين يديه وحدثه، فقال الرشيد بعد ذلك: يا مالك تواضعنا لعلمك فانتفعنا به، وتواضع لنا علم سفيان فلم ننتفع به[٣].

أقتله فلأن يموت خير من أن يموق:

وضرب أبو مريم مؤدب الأمين والمأمون الأمين بعود فخدش ذراعه. فدعاه الرشيد إلى الطعام فتعمد أن حسر عن ذراعه، فرآه الرشيد، فسأله فقال: ضربني أبو مريم، فبعث إليه ودعاه قال: فخفت، فلما حضرت قال: يا غلام وضئه. فسكنت وجلست آكل فقال: ما بال محمد يشكوك؟ فقلت: قد غلبني خبثاً وعرامة! قال: أقتله فلأن يموت خير من أن يموق[٤].

فقير عرض عليه مال فتزهد فيه:

(١) جمهرة خطب العرب، ٣ /١٠٠.
(٢) أسامة بن منقذ، لباب الآداب، ص٦٠.
(٣) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١٠/١.
(٤) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١٩/١.

لما رجع الرشيد عن الحج كان قد نذر أن يتصدق بألف دينار على أحق من يجده، فدفع يوماً ألف دينار إلى بعض ثقاته وأمره أن يطلب فقيراً مستحقاً فيعطيه، فأخذ يطوف في الأسواق، فإذا رأى فقيراً مستحقاً للإعطاء قال: لعلي أجد أفقر منه، فانتهى بالعشي إلى عريان محلوق الرأس في خربة فقال في نفسه: لا أجد أفقر من هذا. فقال: يا فتى خذ هذا المال واستغن به. فقال: لا حاجة لي فيه. قال: أحب أن تأخذه. قال: إن كان ولا بد فثم حجام حلق رأسي، ولم يكن معي شيء فأدفعه إليه. قال: فقصدت الحجام فامتنع من أخذه، فقلت: هو ألف دينار! فقال: ما حلقت رأسه إلا للوثاب فلا آخذه عليه أجرة. قال: فعدت وما وجدت أكرم منهما وأهون مني، فأخبرت الرشيد بأمرهما فبعثني في طلبهما، فكأن الأرض ابتلعتهما ولم أظفر بهما، ولما حج الرشيد دخل على الفضيل فوعظه بما وعظه، وأراد الخروج فقال: يا فضيل هل عليك دين؟ فقال: نعم دين ربي لو يحاسبني عليه، فالويل لي إن حاسبني عليه، والويل لي إن ناقشني. فقال الرشيد: إني أسألك عن دين العباد. فقال: عندنا بحمد الله خير كثير لا نحتاج معه إلى ما في أيدي الناس. قال: هذه ألف دينار فاستعن بها. فقال: يا حسن الوجه أدلك على النجاة وتكافئني بالهلاك، أسأل الله التوفيق! فلما خرج عاتبته بنيته فقالت: لو أخذتها فاستعنا بها. فقال: إن مثلي ومثلكم مثل قوم كان لهم بعير يكدونه ويأكلون من كسبه، فلما كبر وسقط عن العمل نحروه فأكلوه. ومر الإسكندر ببلد كان ملكه سبعة ملوك من صلب واحد ففنوا، فقال لأهله: هل بقي من نسل الأملاك السبعة أحد؟ قالوا: نعم رجل يكون في المقابر. فقصده وقال: ما دعاك إلى ملازمة المقابر؟ فقال: أردت أن أعزم عظام الملوك من عظام عبيدهم، فوجدت عظامهم سواء. قال: لهل لك أن تبتغي فأحيي لك شرف آبائك إن كان لك همة؟ قال: إن همتي عظيمة إن كانت بغيتي عندك. قال: وما بغيتك؟ قال: حياة لا موت فيها، وشباب لا هرم فيه، وغنى لا فقر بعده، وسرور لا يغيره مكروه. فقال: لا أقدر من رأيت. فقال: امض لشأنك ودعني أطلب بغيتي ممن عنده ذلك. قال الإسكندر: هذا أحكم من رأيت. وقف أعرابي على محمد بن معمر وكان محمد جواداً، فسأله فخلع خاتمه ودفعه إليه، فلما ولى قال:

يا أعرابي لا تخدعن عن هذا الفص فإن شراءه علي مائة دينار. فمضغ الأعرابي الخاتم وقلع فصه وقال: دونكه فالفضة تكفيني أياماً. فقال: هذا والله أجود مني[١].

من كلامه:

- وعن الأصمعى قال سمعت الرشيد يقول النوادر تشحذ الأذهان وتفتق الآذان [٢].

محاسن ما قيل في الشيب:

قال: دخل منصور النميري على الرشيد فأنشده:

ما كنت أوفي شبابي كنه عزته ::: حتى مضى فإذا الدنيا له تبع

فبكى الرشيد وقال: يا نميري لا خير في دنيا لا يخطر فيها بحلاوة الشباب ويستمتع بأيامه، وأنشد:

ولو أن الشيب رزءٌ حل بي ::: وقت ما استحققت شيباً لم أبل
بل أتاني والصبا يرمقني ::: مثل ما يأتي الكبير المكتهل

وأنشد:

حسرت عني القناع ظلوم ::: وتولت ودمعها مسجوم
أنكرت ما رأت برأسي فقالت ::: أمشيبٌ أم لؤلؤٌ منظوم
قلت شيبٌ وليس عيباً، فأنّت ::: أنّةً يستثيرها المهموم
واكتست لون مرطها ثم قالت ::: هكذا من توسدته الهموم
إن أمراً جنى عليك مشيب الـ ::: رأس في جمعه لأمر عظيم
شدّ ما أنكرت تصرف دهرٍ ::: لم يداوم وأي شيءٍ يدوم [٣]

- وحدث الأصمعي قال: دخلت ذات يوم على الرشيد فقال لي: اكتب يا أصمعي ولو على تِكّتك أو طرف ثوبك:

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ٢٤٤/١.
(٢) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين،المكتب التجاري - بيروت، ص١٩.
(٣) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١٥٧/١.

كن موسراً إن شئت أو معسراً ::: لا بد في الدنيا من الهم
وكلما زادك في نعمة ::: زاد الذي زادك في الغم

قال: فكتبت البيتين [١].

قيل: ودخل الأمين على أبيه الرشيد وقد عرضت له وصيفة جميلة فلم يزل محمد ينظر إليها وفطن له أبوه فقال: يا محمد ما ترى في هذه الوصيفة؟ قال: ما أرى بأساً. قال: فهل لك فيها؟ قال: أمير المؤمنين أحق بها مني. قال: فقد آثرك على نفسه فخذها. فأخذها. فقال الرشيد:

ولي ولدٌ لم أعصه مذ ولدته ::: ولا شكّ في بري به مذ ترعرعا
تخيرته للملك قبل فطامه ::: وأقطعته الدنيا فطيماً ومُرضعا
فلا الملك يخلو باعه من محمد ::: ولا هو منه بل هما هكذا معا

فنهض محمد ومعه الجاريةً فأتبعه طرفه فلما غاب قال:

وإنما أودلانا بيننا ::: أكبادنا تمشي على الأرض[٢]

- قال يحيى بن خالد: دخلت على الرشيد يوماً فأصبته متكئاً يسطر في ورقةٍ فيها كتابة بالذهب، فلما رآني تبسم، فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين؟ قال: نعم، وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية، وقد أضفت إليهما ثالثاً، وأنشدني:

إذا سد باب عنك من دون حاجة ::: فدعه لأخرى ينفتح لك بابها
فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ::: ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها
ولا تك مبذالا لعرضك واجتنب ::: ركوب المعاصي يجتنبك عقابها[٣]

خطبة هارون الرشيد:

الحمد لله نحمده على نعمه ونستعينه على طاعته ونستنصره على أعدائه ونؤمن به حقًّا ونتوكل عليه مفوضين إليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله بعثه على فترة من الرسل ودروس من العلم وإدبار من الدنيا وإقبال من الآخرة بشيرًا بالنعيم

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،١/١٨١.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،١/٢٣٣.
(٣) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ١/٢٤١.

المقيم ونذيرًا بين يدى عذاب أليم فبلغ الرسالة ونصح الأمة وجاهد في الله فأدى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين فعلى النبى من الله صلاة ورحمة وسلام.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن في التقوى تكفير السيئات وتضعيف الحسنات، وفوزا بالجنة ونجاة من النار، وأحذركم يوما تشخص فيه الأبصار وتعلن فيه الأسرار يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاق ويوم التناد يوم لا يستعتب من سيئة ولا يزداد من حسنة يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.

عباد الله إنكم لم تخلقوا عبثا، ولن تتركوا سدى، حصنوا إيمانكم بالأمانة ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخبر أن النبي قال: **لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له ولا صلاة لمن لا زكاة له** — إنكم سفر مجتازون وأنتم عن قريب تنقلون من دار فناء إلى دار بقاء فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة وإلى الرحمة بالتقوى وإلى الهدى بالأمانة، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين ومغفرته للتائبين وهداه للمنيبين قال الله عز وجل وقوله الحق: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ} [الأعراف: ١٥٦]، وقال: {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾} [طه: ٨٢]، وإياكم والأماني فقد غرت وأردت وأوبقت كثيرا حتى أكذبتهم مناياهم، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون فأخبركم ربكم عن المثلات فيهم وصرف الآيات وضرب الأمثال فرغب بالوعد وقدم إليكم الوعيد وقد رأيتم وقائعهم بالقرون الخوالى جيلا فجيلا وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باحتطاف الموت إياهم من بيوتكم ومن بين أطهركم لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم فزالت عنهم الدنيا وانقطعت بهم الأسباب فأسلمتهم إلى أعمالهم عند المواقف والحساب والعقاب: {لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} [النجم: ٣١]، إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله يقول الله عز وجل: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ

وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾} [الأعراف: ٢٠٤]، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم:{قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾} [الإخلاص: ١ - ٤]، آمركم بما أمركم الله به وأنهاكم عما نهاكم عنه وأستغفر الله لى ولكم.

وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين:

ووصى الرشيد مؤدب ولده الأمين فقال: يا أحمر إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرئه القرآن وعرفه الأخبار وروه الأشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك إلا فى أوقاته وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة[١].

* * *

(١) جمهرة خطب العرب، ٣ /٨٤ - ٨٥.

الأميــن

أعلام الخلفاء العباسيين

الخليفة العباسي الأمين

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه هي زبيدة بنت جعفر المنصور، فهو هاشمي أباً وأماً، ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ولابنه الحسن.

ولد المأمون سنة ١٧٠ من الهجرة، وولاه أبوه العهد سنة ١٧٥ هـ، وكان قائمًا مقام أبيه ببغداد حينما سافر إلى خراسان، ولما مات الرشيد بطوس بويع له في عسكر الرشيد بالخلافة، ولما وصل الخبر إلى بغداد بايعه الخاصة والعامة، واستمر في الخلافة إلى أن قتل في ٢٥ محرم سنة ١٩٨ هـ / ٥ سبتمبر سنة ٨١٣، فكانت مدة ولايته أربع سنوات إلا أربعة أشهر تقريباً.

كانت مدة خلافته مليئة بالخلافات والمشاكل والاضطرابات مع أخيه المأمون، وكادت الأمة تذهب بينهما ضياعًا وسبب ذلك ما فعله أبوه الرشيد في ولاية العهد بأن أوصي بأن تكون ولاية العهد لأبنائه الثلاثة أحدهم بعد الآخر وقسمته البلاد بينهم [1].

مواقف من حياته:

قضي الأمر الذي فيه تستفتيان:

لما حوصر الأمين قال لجاريته غني فغنت:

كليب لعمري كان أكثر ناصرا ::: وأيسر جوما منك ضرج بالدم

فاشتد ذلك عليه ثم قال غني غير هذا فغنت:

شكت فراقهم عيني فارقها ::: إن التفرق للأحباب بكاء

فقال: لعنك الله أما تعرفين غير هذا فغنت:

ما اختلف الليل والنهار وما ::: دارت نجوم السماء في الفلك

إلا لنقل السلطان من ملك قد ::: غاب تحت الثرى إلى ملك

(١) الخضري، الدولة العباسية، ص ١٩٠.

فقال قومي فقامت فعثرت بقدح بلور فكسرته فإذا قائل يقول: قضي الأمر الذي فيه تستفتيان.

ولما دخل المأمون على زبيدة ليعزيها في الأمين قالت: أرأيت أن تسليني في غدائك اليوم عندي فتغدى وأخرجت إليه من جواري الأمين من تغنيه فغنت:

هم قتلوه كي يكونوا مكانه ::: كما فعلت يومًا بكسرى مرازبه

فوثب مغضبًا فقالت له: يا أمير المؤمنين، حرمني الله أجره إن كنت علمت أو دسست إليها فصدقها [1].

الأمين يتوجع لإصابة خادمه كوثر:

حدثنا الصولي، قال: حدثنا محمد بن القاسم بن خلاد، قال: حدثني محمد بن عمر، قام كوثر خادم الأمين ليرى الحرب، فأصابته رجمةٌ في وجهه فجلس يبكي فوجه محمد من جاء به، وجعل يمسح الدمع عن وجهه، ثم قال:

ضربوا قرة عيني ::: ولأجلي ضربوه

أخذ الله لقلبي ::: من أناسٍ أحرقوه

فأراد زيادة في الأبيات، فقال للفضل بن الربيع: من هاهنا من الشعراء؟ فقال: الساعة رأيت عبد الله بن أيوب التيمي. فقال: علي به، فلما دخل أنشده البيتين وقال: قل عليهما، فقال:

ما لمن أهوى شبيه ::: فيه الدنيا تتيه

وصله حلو ولكن ::: هجره مر كريه

من رأى الناس له الفضـ ::: ـل عليهم حسدوه

مثل ما قد حسد القا ::: ئم بالملكِ أخوه

فقال: قد أحسنت، هذا والله خير مما أردت، بحياتي عليك يا عباسي إلا نظرت فإن كان جاء على الظهر ملأت أحمال ظهره دراهم، وإن كان

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، المكتب التجاري - بيروت، ص٦٧، ٦٨.

جاء في زورق ملأته له، فأوقر له ثلاثة أبغل دراهم [(١)].

كأس أم حكيم:

قال إبراهيم بن إسماعيل: ركب الرشيد يوماً بكراً فنظر إلى محمد الأمين يميل به سرجه، فقال: ما أصارك إلى هذا يا محمد؟ قال: أصارني إليه البارحة:

علـــلاني بعاتقـــات الكـــروم ::: واســـقياني بكـــأس أم حكـــيم

قال: فانصرف يا محمد، فلما رجع الرشيد وجه إليه بخادم ومعه كأس أم حكيم، وكان كأساً كبيراً فرعونياً، قد جعل فيه طوق ذهب ومقبض من ذهب، فإذا هو مملوء دنانير، وقال له: يقول لك أمير المؤمنين بعثت إليك بالذي أسهرك لتشرب فيه وتنتفع بما يصل معه، قال: فأعطى الخادم قبضة من دنانير، وفرق نصفه ما فيه على جلسائه وأعطى النصف خازنه وشرب في القدح ثلاثة أرطال رطلاً بعد رطل ورده، فكان مبلغ الدنانير عشرة آلاف دينار.

قال سهل: وكان الأمين محمدُ بن زبيدة رضيعَ يحيى بن جعفر، فمتَّ إليه يحيى بنُ خالد بذلك، فوعد استيهاب أمه إياهم وتكلمها لهم، ثم شَغله اللهوُ عنهم. فكتب إليه يحيى، ويقال إنها لسليمان الأعمى أخي مُسلم بن الوليد، وكان مُنقطعاً إلى البرامكة، يقول:

يا مَـــلاذي وعــصْمتي وَعمَـــادي ::: ومُجيري مـــن الخُطـــوب الـــشداد
بكَ قـــام الرجَـــاءُ في كـــلِّ قلـــب ::: زاه فيـــه الـــبلاءُ كـــل مَـــزادَ
إنمـــا أنـــت نعمـــة أعْقبتـــها ::: نعَـــم نفعُهـــا لكـــلِّ العبـــاد
وَعْدَ مولاك أتممنــه فــأبهى الــ ::: ـدر مـــا زيـــن حـــسنه بانعقـــاد
مـــا أظلـــت ســـحائب اليـــأس إلا ::: كان في كَشْفها عليـــك اعتمـــادي
إن تراخـــتْ يـــداك عنّـــي فُوَاقـــاً ::: أكَلَـــتني الأيـــامُ أكـــلَ الجَـــراد

وبعث بها إلى الأمين محمد، فبعث بها الأمينُ إلى أمه زُبيدة، فأعطتها هارون وهو في موضع لذّته، وعندَ إقبال أريحيته، وتهيأت للاستشفاع لهم، وعبّأت جواريها ومُغنياتها وأمرتهنَ بالقيام معها إذا

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٥٦/١.

قامت. فلما فَرغ الرشيدُ من قراءتها لم يَنقض حَبوته حتى وقَّع في أسفلها: عِظَم ذنبك أمات خواطرَ العفو عنك، ورَمى بها إلى زُبيدة. فلما رأت توقيعَه علمت أنه لا يرجع عنه(١).

كلام الليل يمحوه النهار:

حدث أبو جعفر قال: بينا محمد بن زبيدة الأمين يطوف في قصر له، إذ مر بجارية له سكرى، وعليها كساء خز تسحب أذياله، فراودها عن نفسها، فقالت: يا أمير المؤمنين، أنا على حال ما ترى، ولكن إذا كان من غد إن شاء الله. فلما كان من الغد مضى إليها، فقال لها: الوعد. فقالت له: يا أمير المؤمنين: أما علمت أن كلام الليل يمحوه النهار؟ فضحك، وخرج إلى مجلسه، فقال: من بالباب من شعراء الكوفة؟ فقيل له: مصعب والرقاشي وأبو نواس. فأمر بهم فأدخلوا عليه، فلما جلسوا بين يديه قال: ليقل كل واحد منكم شعراً يكون آخره:

كلام الليل يمحوه النهار

فأنشأ الرقاشي يقول:

متى تصحو وقلبك مستطار ::: وقد منع القرار فلا قرار

وقد تركتك صبًّا مستهاماً ::: فتاة لا تزور ولا تزار

إذا استنجزت منها الوعد قالت ::: كلام الليل يمحوه النهار

هذا أمر يريده الله جل وعز:

وحدثنا ابن المكي عن أبيه قال: قال محمد الأمين في آخر أيامه: يا مكي والله أحب أن أقعد يوماً قبل أن يحال بيننا وبين ما نريد. فقلت: يا أمير المؤمنين افعل ذلك، فقال: اغد عليّ في غد. قال: فانصرفت وغدا عليّ رسوله في السحر فجئت إليه وهو في صحن داره وعليه جبة وشي مذهبة تأتلق وعمامة مثلها ما رأيت لأحد قط مثل ذلك وتحته كرسي من ذهب مرصّع بالجوهر.

---

(١) العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، ٢٢٧/٢.

فدعا بكرسي فجلست عليه عن يساره. ثم قال لخادم على رأسه: ادع لي فلانة وفلانة، حتى عدّ أربع جوار ما منهن جارية إلا وأنا أعرف حذقها وجودة غنائها. فخرجن وجلسن عن يمينه. ثم قال: يا غلام عليّ برطلٍ، فأتي برطل وقدح بلّور مكلل بالجوهر. فالتفت إلى التي تليه فقال لها: غني، فضربت ضرباً حسناً وتغنت بشعر الوليد بن عقبة بن أبي معيط:

هم قتلوه كي يكونوا مكانه ::: كما قتلت كسرى بليل مرازبه
بني هاشمٍ ردوا سلاح أخيكم ::: ولا تنهبوه لا تحلّ مناهبه

قال: فرمى بالقدح في وسط الدار ثم قال: لعنك الله! ما هذا؟ قالت: لا والله يا سيدي ما جاء على لساني غير هذا. ثم التفت إلى الغلام فقال: اسقني. فأتاه بقدح مثل الأول. وقال للأخرى: غني. فغنت ما قيل في كليب وائل:

كليب لعمري كان أكثر ناصراً ::: وأيسر ذنباً منك ضُرّج بالدم

فرمى بالقدح في صحن الدار وكسره ثم قال: يا غلام عليّ برطل. وقال للثالثة: غني، فغنت:

أتقتل عمراً لا أبا لك شارداً ::: وتزعم بعد القتل أنك هارب
فلو كنت بالأقطار ما فتّ ضربتي ::: وكيف تفوت الحين والدم طالب

قال: فرماها بالقدح وقال: يا غلام عليّ برطل. وقال للرابعة: غني. فغنت:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ::: أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ::: صروف الليالي والجدود العوائر

قال: فالتفت إلي وقال: قد سمعت هذا أمر يريده الله جل وعز. قال: فما مضت أيام حتى رأيت رأسه بين شرفتين من شرف قصره[١].

والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع علي الموت.:

- قال أبو سهل الرازي: كنت واقفاً على رأس الأمين فقال لكاتب بين

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١٥١/١.

يديه: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله محمد أمير المؤمنين إلى طاهر بن الحسين؛ أما بعد، فإن الأمر قد خرج بيني وبين أخي إلى هتك الستور، وكشف الحرم، ولست آمن أن يطمع في هذا الأمر السحيق البعيد، لشتات ألفتنا، واختلاف كلمتنا، وقد رضيت أن تكتب لي أماناً فأرج إلى أخي به، فإن تفضل علي بالعفو فأهل ذلك هو، وإن قتلني فمروة كسرت مروة، وصمصامة قطعت صمصامة، وأن يفترسني الأسد أحب إلي من أن تنهشني الكلاب. وأمر بختم الكتاب وأرسله مع ثقة إلى طاهر، فلما قرأه طاهر قال: الآن حين انحرف عنه مراقه وفساقه، وبقي مخذولاً معلولاً، يلوذ بالآمال؟! لا والله، أو يجعل في عنقه ساجوراً ويقول: ها أنا ذا قد نزلت على حكمك، فقلنا له: فما الجواب؟ قال: ما سمعتم، فانصرفنا إلى محمد بالخبر فقال: كذب العبد السوء العاض هن أمه، والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع علي الموت[(١)].

غاظني أبوك الساعة:

قال إسحاق الموصلي: دخلت يوماً على الأمين فرأيته مغضباً كالحاً، فقلت له: يا أمير المؤمنين ما لي أراك كالخاثر؟ قال: غاظني أبوك الساعة، لا رحمه الله، والله لو كان حياً لضربته خمسمائة سوط، ولولاك لنبشت الساعة قبره وأحرقت عظماه. فقمت على رجلي وقلت: أعوذ بالله من سخطك يا أمير المؤمنين. ومن أبي وما مقداره حتى تغتاظ منه؟ وما الذي غاظك؟ فلعل له فيه عذراً. فقال: شدة محبته للمأمون وتقديمه إياه علي حتى قال في الرشيد شعراً يقدمه علي فيه وغناه فيه، وغنيته الآن فأورثني هذا الغيظ، فقلت: والله ما سمعت هذا قط ولا لأبي غناء إلا وأنا أرويه، فما هو؟ قال: قوله: من الوافر

أبو المأمون فينا والأمين ::: له كنفان من كرم ولين

فقلت له: يا أمير المؤمنين، لم يقدم المأمون في هذا الشعر لتقديمه إياه في الموالاة، ولكن الشعر لم يصح له وزنه إلا هكذا، فقال: كان ينبغي إذا لم يصح له الشعر إلا هكذا أن يدعه إلى لعنة الله. فلم أزل أداريه وأرفق

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ٣٤١/١.

به حتى سكن. فلما قدم المأمون سألني عن هذا الحديث، فحدثته به فجعل يعجب مه ويضحك[١].

كيف ترى سفينتي؟

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: عمل محمدٌ الأمين سفينةً فأعجب بها وركب فيها يريد الأنبار وأنا معه. فقال لي: يا إسحاق كيف ترى سفينتي؟ قلت حسنةٌ يا أمير المؤمنين، عمرها الله ببقائك. وقام يريد الخلاء، وقال: قل فيها أبياتاً، فقلت: نعم، وخرج. فقمت بالأبيات إليه فاشتهاها جدًّا وقال لي: أحسنت يا إسحاق، وحياتي لأهبن لك عشرة آلاف دينارٍ، فقلت: متى يا أمير المؤمنين، إذا وسع الله عليك؟ فضحك ودعا بها على المكان[٢].

أزنديق أنت؟

ولما حبس الأمين أبا نواس دخل عليه خال الفضل بن الربيع، وكان يتعهد المحبوسين، ويسأل عنهم وكانت فيه غفلة، فأتى أبا نواس وقال: ما جرمك حتى حبست في حبس الزنادقة؟ أزنديق أنت؟ قال: معاذ الله. قال: أتعبد الكبش؟ قال: ولكني آكله بصوفه. قال: أتعبد الشمس؟ قال: والله ما أجلس فيها من بغضها، فكيف أعبدها! قال: أفتعبد الديك؟ قال: لا والله، بل آكله، ولقد ذبحت ألف ديك، لأن ديكاً نقرني مرة، فحلفت ألا أجد ديكاً إلا ذبحته. قال: فلأي شيء حبست؟ قال: لأني أشرب شراب أهل الجنة، وأنام خلف الناس. قال: وأنا أيضاً أفعل ذلك، ثم خرج إلى الفضل فقال: ما تحبسون جوار الله تحبسون من لا ذنب له، سألت رجلاً في الحبس عن خبره، فقال كذا وكذا، وعرفه بكل ما جرى بينه وبين أبي نواس، فضحك ودخل على الأمين فأخبره الخبر، فأمر بتخليته للحال.

الأمين يحبس أبا نواس:

وكان أبو نواس حبس في أيام الأمين مرتين؛ إحداهما أنه بلغ الأمين قوله:

ومستعبد إخوانه بثرائه ::: لبست له كبراً أبرّ على الكبر

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ٣٦٦/٢.
(٢) المصدر السابق، ٣٦١/١.

إذا ضمّني يوماً وإياه مجلسٌ ::: رأى جانبي وعراً يزيد على الوعر
أُخالفه في شكله وأجرّه ::: على المنطق المتزور والنّظر الشّزر
فواللّه لا ألوي لساني بحاجة ::: إلى أحد حتى أُوسّد في قبري
وقد زادني تيهاً على الناس أنني ::: أراني أغناهم وإن كنت ذا فقر
فلو لم أنل فخراً لكانت صيانتي ::: فمي عن جميع الناس حسبي من فخر
فلا يطمعنّ في ذاك منّي طامعٌ ::: ولا صاحب التاج المحجّب في القصر

فقال: وبلغ بك الأمر إلى أن تعرض بي في شعرك يابن اللخناء! فقال سليمان بن أبي جعفر: هو والله يا أمير المؤمنين زنديق، وقد شهد عندي جماعة أنه شرب ماء مطر مع خمر، فقيل له: لم فعلت ذلك؟ قال: لأشرب الملائكة فإنه كان مع كل قطرة ملك، فأمر بحبسه فقال:

يا ربّ إنّ القوم قد ظلموني ::: وبلا اقتراف خطيئة حبسوني
وإلى الجحود بما عليه طويّتي ::: بالزور والبهتان قد نسبوني
أما الأمين فلست أرجو دفعه ::: عنّي فمن لي اليوم بالمأمون

فقال المأمون لما بلغه ذلك: والله لئن أدركته لأحسنن إليه، فمات قبل دخول المأمون بغداد.

ولما دخل بها سنة أربع ومائتين وأتاه الشعراء يمدحونه قال: ما فعل أبو علي الحسن بن هانئ؟ قالوا: توفي، فلم يسمع منهم شعراً وتوجع وقال: لقد ذهب ظرف الزمان بموته، وانحطت رتبة الشعر بذهابه.

وكان أبو نواس في آخر أيام الأمين مستخفياً فلم يظهر حتى قتل؛ لأنه كان أملح الناس وجهاً، وكان أبو نواس إذا نظر إليه بقي باهتاً فقال فيه:

عذّب قلبي ولا أقول بمن ::: أخاف من لا يخاف من أحد
إذا تفكّرت في هواي له ::: مسست رأسي هل طار عن جسدي
إني على ما ذكرت من فرقي ::: لآمل أن أناله بيدي

وقال:

يا قاتل الرجل البريّ ::: وسالباً عزّ المليك
كيف السبيل للثم سا ::: لفتيك أو تقبيل فيك
اللّه يعلم أنني ::: أهوى هواك وأشتهيك

وأصـــدّ عنـــك حـــذار أن ::: تقـــع الظنـــون علـــيّ فيـــك

فظهر الشعر، فلم يزل أبو نواس مستخفياً.

وحبسه الأمين قبل ذلك: وذلك لأن المأمون لما خلعه بخراسان ووجه طاهر بن الحسين إليه ليحاربه، كان يعمل بعيوب الأمين كتباً لتقرأ على المنابر بخراسان، وكان مما عابه به أنه قال: احتبس شاعراً ماجناً كافراً يقال له الحسن بن هانئ، واستخلصه معه لشرب الخمر وارتكاب المآثم وانتهاك المحارم، وهو القائل:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمــر ::: ولا تسقني سرّاً إذا أمكــن الجهــر
وبح باسم من أهوى ودعني من الكنى ::: فلا خير في اللذّات من دونها ســتر

ثـم يـذكر الأمـين فـي خطبـة العـراق، فيقـول: أهـل فـسق وخمـور وفجـور ومـاخور، ويقـوم رجـل بـين يديـه فينـشد أعـابيس أبـي نـواس كقوله:

يا أحمـــد المرتجـــى في كـــل نائبـــة ::: قم سيدي نعص جبّـــار الـــسماوات
فقام والليل يجلـــوه النـــهار كمـــاً ::: يجلي التبـــسّم عـــن غـــرّ الثنيّـــات

ومـن هنـا أخـذ ابـن الرومـي، فجـاء بأبـدع عبـارة، وأنـصع اسـتعارة، وأصح تشبيه، وأملح تنبيه. فقال يصف سوداء:

يفتـــرّ ذاك الـــسواد عـــن يقـــق ::: مـــن ثغرهـــا كـــاللآلئ اليقـــق
كأنّهـــا والمـــزاح يـــضحكها ::: ليـــلٌ تعـــرّى دجـــاه عـــن فلـــق

فاتصل بالأمين خبر المأمون، فـأغراه الفضل بن الربيع بـأبي نـواس فحبسه، فكتب أبو نواس إلى الفضل من الحبس:

أنت يابن الربيـــع علّمـــتني الخيـــ ::: ـر وعوّدتنيـــه والخـــير عـــاده
فارعوى بـــاطلي وعـــاودني حلـــ ::: ـمـــي وأحـــدثت رغبـــةً وزهـــاده
لو تراني شبهتني الحـــسن البـــصـ ::: ـريّ في حـــال نـــسكه أو قتـــاده
المـــسابيح في ذراعـــي والمـــصـ ::: ـحـــف في لبّـــي مكـــان القـــلاده
فإذا شئت أن تـــرى طرفـــةً تعـــ ::: ـجـــب منـــها مليحـــةً مـــستفاده
فادع بي لا عـــدمت تقـــويم مثلـــي ::: فتأمّـــل بعينـــك الـــسّجّاده
ترى أثراً مـــن الـــصلاة بـــوجهي ::: توقن الـــنفس أنّهـــا مـــن عبـــاده

لو رآهـا بعـض الـرائين يومـاً ::: لاشـتراها يعـدّها للـشهاده
ولقـد طالمـا شـقيت ولكـن ::: أدركتني علـى يـديك الـسعاده

فلما بلغ الشعر الفضل ضحك، وقال: من علم أن السجادة تصلح للشهادة بعد؛ وكلم فيه الأمين فتركه بعد أن أخذ عليه ألا يشرب الخمر فقال:

ما مـن يـد في النـاس واجـدة ::: كيـدي أبي العبـاس مولاهـا
نـام الثقـاتُ علـى مـضاجعهم ::: وسـرى إلى نفـسي فأحياهـا
قـد كنـت خفتـك ثم أمّـنني ::: مـن أن أخافـك خوفـك اللّـه
فعفـوت عنّـي عفـو مقتـدرٍ ::: وجبـت لـه نقـمٌ فألفاهـا

ومن قوله في ترك الشرب:

أيّهـا الرائحـان بـاللوم لومـا ::: لا أذوق المـدام إلاّ شميمـا [١]

من كلامه:

- لما حوصر محمد الأمين وشغب عليه جنده أصبح ذات يوم فسمع أصوات المحاصرين من ناحية وأصوات الشاغبين من اخرى. فقال:

لعن الله الفريقين أما أحدهما فيطلب دمي وأما الآخر فيطلب مالي[٢].

- وقال محمد الأمين عليكم بالإيجاز فإن له إفهاما وللإطالة استبهاماً[٣]

- وقال الأمين:

يـا نفـس قـد حـق الحـذر ::: أيـن المفـر مـن القـدر
كـل امـرئ ممـا يخـاف ::: ويرتجيـه علـى خطـر [٤]

وصية الأمين لابن ماهان:

---

(١) الحُصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر، ص٦٢، ٦٣.
(٢) الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، ص٨٠ - ٨١.
(٣) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ١٧٣/١.
(٤) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف،١٣٧/٢.

وخرج علي بن عيسى بن ماهان من بغداد في ٧ من شعبان سنة ١٩٥هـ وخرج معه الأمين يشيعه وأقبل يوصيه فقال:

امنع جندك من العبث بالرعية والغارة على أهل القرى، وقطع الشجر وانتهاك النساء، وول الرى يحيى بن علي، واضمم إليه جندًا كثيفًا ومره ليدفع إلى جنده أرزاقهم مما يجيء من خراجها، وول كل كورة ترحل عنها رجلا من أصحابك، ومن خرج إليك من جند أهل خراسان، ووجوهها فأظهر إكرامه وأحسن جائزته، ولا تعاقب أخا بأخيه، وضع عن أهل خراسان ربع الخراج ولا تأمن أحدا رماك بسهم، أو طعن في أصحابك برمح، ولا تأذن لعبد الله في المقام أكثر من ثلاثة أيام من اليوم الذى تظهر فيه عليه فإذا أشخصته فليكن مع أوثق أصحابك عندك فإن غره الشيطان فناصبك، فاحرص على أن تأسره أسرا وإن هرب منك إلى بعض كور خراسان فتول إليه المسير بنفسك، أفهمت كل ما أوصيك به؟ قال: نعم. أصلح الله أمير المؤمنين، قال: سر على بركة الله وعونه [١].

وصية الأمين لأحمد بن مزيد:

ثم ندب عمة أحمد بن مزيد فلما أراد الشخوص دخل على الأمين فقال أوصنى أكرم الله أمير المؤمنين فقال:

أوصيك بخصال عدة إياك والبغى فإنه عقال النصر ولا تقدم رجلا إلا باستخارة ولا تشهر سيفًا إلا بعد إعذار ومهما قدرت عليه باللين فلا تتعده إلى الخرق والشره وأحسن صحابة من معك من الجند وطالعني بأخبارك في كل يوم ولاتخاطر بنفسك في طلب الزلفة عندى ولا تستقها فيما تخوف رجوعه علي وكن لعبد الله أخا مصافيًا وقرينًا برًّا وأحسن مجامعته وصحبته ومعاشرته ولا تخذله إن استنصرك ولا تبطئ عنه إذا استصرخك ولتكن أيديكما واحدة وكلمتكما متفقة [٢].

خطبة الأمين وقد تولى الأمر عنه:

ولما رأى الأمين الأمر قد تولى عنه وأنصاره يتسللون فيخرجون

(١) أحمد زكي صفوت جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة،١٠٥/٣.
(٢) المصدر السابق ١١١/٣.

إلى طاهر أمر بإحضار كل من كان معه في المدينة من القواد والجند فأشرف عليهم وقال: الحمد لله الذي يرفع ويضع ويعطي ويمنع ويقبض ويبسط وإليه المصير، أحمده على نوائب الزمان وخذلان الأعوان وتشتت الرجال وذهاب الأموال وحلول النوائب وتوفد المصائب حمدا يدخر لى به أجزل الجزاء ويرفدنى أحسن العزاء.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كما شهد لنفسه وشهدت له ملائكته، وأن محمدا عبده الأمين ورسوله إلى المسلمين آمين رب العالمين، أما بعد: يا معشر الأبناء وأهل السبق إلى الهدى، فقد علمتم غفلتى كانت أيام الفضل بن الربيع وزير على ومشير، فمادت به الأيام بما لزمنى به من الندامة في الخاصة والعامة إلى أن نبهتمونى فانتبهت، واستعنتمونى في جميع ما كرهتم من نفسي وفيكم فبذلت لكم ما حواه ملكى ونالته مقدرتى مما جمعته وورثته عن آبائى، فقودت من لم يجز واستكفيت من لم يكف واجتهدت علم الله في طلب رضاكم بكل ما قدرت عليه، واجتهدتم علم الله في مساءتى في كل يوم ما قدرتم عليه من ذلك توجيهي إليكم على بن عيسى شيخكم وكبيركم وأهل الرأفة بكم والتحنن عليكم، فكان منكم ما يطول ذكره فغفرت الذنب وأحسنت واحتملت وعزيت نفسى عند معرفتى بشذوذ الظفر، وحرصى على مقامكم مسلحة بحلوان مع ابن كبير صاحب دعوتكم ومن على يدي أبيه كان فخركم وبه تمت طاعتكم عبد الله بن حميد بن قحطبة، فصرتم من التألب عليه إلى ما لا طاقة له به، ولا صبر عليه يقودكم رجل منكم وأنتم عشرون ألفا إلى عامين، وعلى سيدكم متوثبين مع سعيد الفرد سامعين له مطيعين، ثم وثبتم مع الحسين على فخلعتموني وشتمتموني، وانتهبتموني وحبستموني وقيدتموني وأشياء منعتموني من ذكرها حقد قلوبكم وتلكى طاعتكم أكبر وأكثر، فالحمد لله حمد من أسلم لأمره ورضى بقدره والسلام [1].

- لما مات الرشيد رقي الأمين المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس وخصوصاً يا بني العباس، إن المنون مراصد ذوي الأنفاس،

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، ٣ /١١٨.

حتم من الله تعالى لا يدفع حلوله، ولا ينكر نزوله، فارتجعوا قلوبكم من الحزن على الماضي إلى السرور بالباقي تجزون ثواب الصابرين، وتعطون أجور الشاكرين. فتعجب الناس من جرأته وبلة ريقه وشدة عارضته[1].

* * *

(١) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ٤٨٩/١.

المأمــون

أعلام الخلفاء العباسيين

الخليفة العباسي المأمون

هو الخليفة أبو العباس، عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي.

ولد سنة سبعين ومائة.

وقرأ العلم والأدب والأخبار والعقليات وعلوم الأوائل، وأمر بتعريب كتبهم، وبالغ، وعمل المرصد فوق جبل دمشق، ودعا إلى القول بخلق القرآن وبالغ نسأل الله السلامة.

وسمع من: هشيم، وعبيد بن العوام، ويوسف بن عطية، وأبي معاوية، وطائفة.

روى عنه: ولده الفضل، ويحيى بن أكثم، وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي، وعبد الله بن طاهر الأمير، ودعبل الشاعر، وأحمد بن الحارث الشيعي.

وكان من أشد رجال بني العباس حزمًا وعزمًا ورأيًا وعقلاً وهيبة وحلما، ومحاسنه كثيرة في الجملة.

قال ابن أبي الدنيا: كان أبيض ربعة، حسن الوجه، تعلوه صفرة، قد وخطه الشيب، وكان طويل اللحية، أعين، ضيق الجبين، على خده شامة.

أتته وفاة أبيه وهو بمرو سائرًا لغزو ما وراء النهر، فبايع من قبله لأخيه الأمين، ثم جرت بينهما أمور وخطوب وبلاء وحروب تشيب النواصي، إلى أن قتل الأمين، وبايع الناس المأمون في أول سنة ثمان وتسعين ومائة.

قال الخطبي: كنيته أبو العباس، فلما استخلف، اكتنى بأبي جعفر، واسم أمه مراجل، ماتت في نفاسها به.

قال: ودعي له بالخلافة في آخر سنة خمس وتسعين، إلى أن قتل الأمين، فاجتمع الناس عليه، فاستعمل على العراق الحسن بن سهل، ثم بايع بالعهد لعلي بن موسى الرضي، ونوه بذكره، ونبذ السواد، وأبدله بالخضرة فهاجت بنو العباس، وخلعوا المأمون، ثم بايعوا عمه إبراهيم بن

المهدي ولقبوه المبارك، وعسكروا، فحاربهم الحسن بن سهل، فهزموه، فتحيز إلى واسط، ثم سار جيش المأمون عليهم حميد الطوسي، وعلي بن هشام، فالتقوا إبراهيم، فهزموه، فاختفى زمانًا وانقطع خبره إلى أن ظفر به بعد ثمان سنين، فعفا عنه المأمون.

وكان المأمون عالمًا فصيحًا مفوهًا، وكان يقول: معاوية بن أبي سفيان بعمره، وعبد الملك بحجاجه، وأنا بنفسي. وقد رويت هذه أن المنصور قالها.

وعن المأمون: أنه تلا في رمضان ثلاثا وثلاثين ختمة.

حدث يحيى بن أكثم: قال لي المأمون: أريد أن أحدث. قلت: ومن أولى بهذا منك؟ قال: ضعوا لي منبرًا، ثم صعد.

قال: فأول ما حدثنا عن هشيم، عن أبي الجهم، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة مرفوعًا: امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار ثم حدث بنحو من ثلاثين حديثًا. ونزل، فقال: كيف رأيت أبا يحيى مجلسنا؟ قلت: أجل مجلس، تفقه الخاصة والعامة. قال: ما رأيت له حلاوة، إنما المجلس لأصحاب الخلقان والمحابر.

وكان جوادًا ممدحًا معطاء، ورد عنه أنه فرق في جلسة ستة وعشرين ألف ألف درهم، وكان يشرب نبيذ الكوفة، وقيل: بل يشرب الخمر - فالله أعلم.

وقيل: إنه أعطى أعرابيا مدحه ثلاثين ألف دينار.

وعن يحيى بن أكثم قال: كان المأمون يجلس للمناظرة يوم الثلاثاء، فجاء رجل قد شمر ثيابه، ونعله في يده، فوقف على طرف البساط، وقال: السلام عليكم. فرد المأمون، فقال: أتاذن لي في الدنو؟ قال: ادن، وتكلم، قال: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت فيه، جلسته باجتماع الأمة أم بالغلبة والقهر؟ قال: لا بهذا ولا بهذا، بل كان يتولى أمر الأمة من عقد لي ولأخي، فلما صار الأمر إلي، علمت أني محتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين على الرضا بي، فرأيت أني متى خليت الأمر، اضطرب حبل الإسلام، ومرج عهدهم، وتنازعوا، وبطل الحج والجهاد، وانقطعت

السبل، فقمت حياطة للمسلمين، إلى أن يجمعوا على من يرضونه، فأسلم إليه. فقال: السلام عليك ورحمة الله. وذهب، فوجه المأمون من يكشف خبره، فرجع، فقال: مضى إلى مسجد فيه خمسة عشر رجلا في هيئته، فقالوا: لقيت الرجل؟ قال: نعم، وأخبرهم بما جرى، فقالوا: ما نرى بما قال بأسا، وافترقوا. فقال المأمون: كفينا مؤنة هؤلاء بأيسر الخطب.

وقيل: إن المأمون استخرج كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرس، وقدم دمشق مرتين.

قال أبو معشر المنجم: كان أمارًا بالعدل، محمود السيرة، ميمون النقيبة، فقيه النفس، يعد من كبار العلماء.

وروى عن الرشيد، قال: إني لأعرف في عبد الله ابني حزم المنصور، ونسك المهدي، وعزة الهادي، ولو أشاء أن أنسبه إلى الرابع - يعني نفسه - لفعلت، وقد قدمت محمدًا عليه، وإني لأعلم أنه منقاد إلى هواه، مبذر لما حوته يداه، يشارك في رأيه الإماء، ولولا أم جعفر وميل الهاشميين إليه، لقدمت عليه عبد الله.

عن المأمون قال: لو عرف الناس حبي للعفو، لتقربوا إلي بالجرائم وأخاف ألا أؤجر فيه.

وعن يحيى بن أكثم: كان المأمون يحلم حتى يغيظنا، قيل: مر ملاح، فقال: أتظنون أن هذا ينبل عندي وقد قتل أخاه الأمين؟! فسمعها المأمون، فتبسم، وقال: ما الحيلة حتى أنبل في عين هذا السيد الجليل؟.

قيل: أهدى ملك الروم للمأمون نفائس، منها مائة رطل مسك، ومائة حلة سمور. فقال المأمون: أضعفوها له ليعلم عز الإسلام.

وقيل: أدخل خارجي على المأمون، فقال: ما حملك على الخلاف؟ قال: قوله:{وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ } [المائدة: ٤٤]، قال: ألك علم بأنها منزلة؟ قال: نعم. قال: وما دليلك؟

قال: إجماع الأمة. قال: فكما رضيت بإجماعهم في التنزيل، فارض بإجماعهم في التأويل. قال: صدقت. السلام عليك يا أمير المؤمنين.

دخل المأمون ديوان الخراج، فرأى غلاما جميلا على أذنه قلم،

فأعجبه جماله، فقال: من أنت؟ قال: الناشئ في دولتك، وخريج أدبك، والمتقلب في نعمتك يا أمير المؤمنين، حسن بن رجاء، فقال: يا غلام، بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول، ثم أمر برفع رتبته، وأمر له بمائة ألف. وعن المأمون قال: أعياني جواب ثلاثة:

صرت إلى أم ذي الرياستين الفضل بن سهل أعزيها فيه، وقلت: لا تأسي عليه، فإني عوضه لك، قالت: يا أمير المؤمنين، وكيف لا أحزن على ولد أكسبني مثلك.

قال: وأتيت بمتنبئ، فقلت: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران. قلت: ويحك، موسى كانت له آيات، فائتني بها حتى أومن بك. قال: إنما أتيت بالمعجزات فرعون، فإن قلت: أنا ربكم الأعلى كما قال، أتيتك بالآيات.

وأتى أهل الكوفة يشكون عاملهم، فقال خطيبهم: هو شر عامل، أما في أول سنة، فبعنا الأثاث والعقار، وفي الثانية بعنا الضياع، وفي الثالثة نزحنا وأتيناك، قال: كذبت، بل هو محمود، وعرفت سخطكم على العمال. قال: صدقت يا أمير المؤمنين، وكذبت، قد خصصتنا به مدة دون باقي البلاد، فاستعمله على بلد آخر ليشملهم من عدله وإنصافه ما شملنا. فقلت: قم في غير حفظ الله، قد عزلته.

وعن المأمون قال: الناس ثلاثة: رجل منهم مثل الغذاء لا بد منه، ومنهم كالدواء يحتاج إليه في حال المرض، ومنهم كالداء مكروه على كل حال.

وعنه قال: لا نزهة ألذ من النظر في عقول الرجال.

وعنه: غلبة الحجة أحب إلي من غلبة القدرة.

وعنه: الملك يغتفر كل شيء إلا القدح في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم.

وعنه: أعيت الحيلة في الأمر إذا أقبل أن يدبر، وإذا أدبر أن يقبل.

وقيل له: أي المجالس أحسن؟ قال: ما نظر فيه إلى الناس، فلا منظر أحسن من الناس.

قيل: إن المأمون لتشيعه أمر بالنداء بإباحة المتعة - متعة النساء -

فدخل عليه يحيى بن أكثم، فذكر له حديث علي - رضي الله عنه - بتحريمها، فلما علم بصحة الحديث، رجع إلى الحق، وأمر بالنداء بتحريمها.

أما مسألة القرآن، فما رجع عنها، وصمم على امتحان العلماء في سنة ثمان عشرة، وشدد عليهم، فأخذه الله.

وكان مرض بأرض الثغر، فلما احتضر، طلب ابنه العباس ليقدم، فوافاه بآخر رمق، وقد نفذت الكتب إلى البلدان، فيها: " من المأمون وأخيه أبي إسحاق الخليفة من بعده " فقيل: وقع ذلك بغير أمر المأمون، وقيل: بل بأمره.

وأشهد على نفسه عند الموت أن عبد الله بن هارون أشهد عليه أن الله وحده لا شريك له، وأنه خالق، وما سواه مخلوق، ولا يخلو القرآن من أن يكون شيئا له مثل، والله لا مثل له، والبعث حق، وإني مذنب، أرجو وأخاف، وليصل علي أقربكم، وليكبر خمسًا، فرحم الله عبدًا اتعظ وفكر فيما حتم الله على جميع خلقه من الفناء، فالحمد لله الذي توحد بالبقاء، ثم لينظر امرؤ ما كنت فيه من عز الخلافة، هل أغنى عني شيئا إذ نزل أمر الله بي؟ لا والله، لكن أضعف به على الحساب، فيا ليتني لم أك شيئا، يا أخي، ادن مني، واتعظ بما ترى، وخذ بسيرة أخيك في القرآن، واعمل في الخلافة إذ طوقكها الله عمل المريد لله، الخائف من عقابه، ولا تغتر فكأن قد نزل بك الموت، ولا تغفل أمر الرعية، الرعية الرعية، فإن الملك بهم، الله الله فيهم وفي غيرهم، يا أبا إسحاق، عليك عهد الله، لتقومن بحقه في عباده، ولتؤثرن طاعته على معصيته، فقال: اللهم نعم. هؤلاء بنو عمك من ذرية علي رضي الله عنه، أحسن صحبتهم، وتجاوز عن مسيئهم.

ثم مات في رجب، في ثاني عشره، سنة ثمان عشرة ومائتين وله ثمان وأربعون سنة، توفي بالبذندون فنقله ابنه العباس، ودفنه بطرسوس في دار خاقان خادم أبيه.

قال الأصمعي: كان نقش خاتمه: عبد الله بن عبيد الله.

وله من الأولاد: محمد الكبير، والعباس، وعلي، ومحمد، وعبيد الله،

والحسن، وأحمد، وعيسى، وإسماعيل، والفضل، وموسى، وإبراهيم، ويعقوب، وحسن، وسليمان، وهارون، وجعفر، وإسحاق، وعدة بنات[١].

مواقف من حياته:

بين المأمون وعمرو بن مسعدة:

قال علي ابن محمد النوفلي: أن المأمون ذكر عمر بن مسعدة، فاستبطأه في أشياء، وقال: أيحسب عمرو أني لا أعرف أخباره، وما يجبى إليه، وما يعامل به الناس، بلى والله، ثم يظن أنه لا يسقط علي منه شيء؟، وكان أحمد بن أبي خالد حاضراً لذلك، فمضى إلى عمرو، فأخبره بما قال المأمون.

فنهض من ساعته، ودخل إلى المأمون، فرمى بسيفه، وقال: أنا عائذ بالله من سخط أمير المؤمنين، وأنا أقل من أن يشكوني إلى أحد، أو يسر علي ضغناً يظهر منه بكلامه ما ظهر.

فقال له المأمون: وما ذاك؟ فأخبره بما بلغه.

فقال: لم يكن الأمر كذلك، وإنما جرى معنىً أوجب ذكر ما ذكرت، فقدمته قبل أن أخبرك به، وكان ذلك عزمي، وما لك عندي إلا ما تحب، فليفرخ روعك، وليحسن ظنك، وسكن منه حتى شكره، وجعل ماء الحياة يدور في وجهه.

فلما دخل أحمد بن أبي خالد إلى المأمون، قال له: أشكو إليك من بحضرتي من خدمي وأهلي، أما لمجلسي حق ولا حرمة ليكتم ما يجري فيه، حتى يؤدى إلى عمرو بن مسعدة، فإنه قد أبلغ أشياء قلتها فيه، واتهمت فيها بعض بني هاشم ممن كان حاضراً، وذلك أن عمراً دخل

---

(١) المعارف لابن قتيبة: ٣٨٧، الأخبار الطوال: ٤٠٠، تاريخ اليعقوبي ٣ / ١٧٢، الطبري ٨ / ٤٧٨، مروج الذهب للمسعودي ٢ / ٢٤٧ - ٢٦٩، البدء والتاريخ ٦ / ١١٢، الفهرست: ١٢٩، تاريخ بغداد ١٠ / ١٨٣، الكامل لابن الأثير ٦ / ٢٨٢، النبراس لابن دحية ٤٦ - ٦٣، عيون التواريخ ٨ / لوحة ١٢، البداية والنهاية ١٠ / ٢٤٤، الذهب المسبوك: ١٨٦، النجوم الزاهرة ٢ / ٢٢٥، تاريخ الخلفاء: ٣٠٦ - ٣٣٣، تاريخ الخميس ٢ / ٣٣٤، شذرات الذهب ٢ / ٣٩، فوات الوفيات ٢ / ٢٣٥ - ٢٣٩.

علي، وأعاد ما كان، فاعتذرت له بعذر لم يبن الحق نسجه، ولم يتسق القول مني فيه، وإن لسان الباطل، لعي الظاهر والباطن، وما نعش الباطل أحداً قال له أحمد: لا يتهم أمير المؤمنين أحداً، أنا أخبرت عمراً، قال: وما دعاك إلى ذلك؟ قال: الشكر لله، ولك لاصطناعك، والنصح لك، والمحبة لتمام نعمتك على أوليائك وخدمك، وقد علمت أن أمير المؤمنين يحب استصلاح الأعداء والبعداء، فكيف بالأولياء والقرباء، ولا سيما مثل عمرو، في موضعه من الدولة، وموقعه من الخدمة، ومكانه من رأي أمير المؤمنين، فخبرته بما أنكره عليه، ليقوم أود نفسه، ويتلافى ما فرط منه، وإنما العيب لو أفشيت كلاماً فيه لأمير المؤمنين سر، أو قدح على السلطان، أو نقض تدبير له.

فقال له: أحسنت والله يا أحمد، إذ كفيتني مخاضة الظن، وصدقتني عن نفسك، وأزلت التهمة عن غيرك [1].

المأمون يعفو عن الحسين بن الضحاك ويمتنع عن استخدامه:

حدث حماد بن إسحاق، عن أبيه قال: كنت بين يدي المأمون قائماً فدخل ابن البواب الحاجب، برقعة فيها أبيات، فقال له: أتأذن في إنشادها؟ قال: هات، فأنشد:

أجرني فإنّي قد ظمئت إلى الوعد ::: متى ينجز الوعد المؤكّد بالعهد
أعيذك من خلف الملول وقد ترى ::: تقطّع أنفاسي عليك من الوجد
رأى اللّه عبد اللّه خير عباده ::: فملّكه واللّه أعلم بالعبد
ألا إنّما المأمون للنّاس عصمة ::: مميّزة بين الضلالة والرّشد

فقال له المأمون: أحسنت يا عبد الله، وظنها له.

فقال: بل أحسن قائلها يا أمير المؤمنين.

قال: ومن هو قائلها؟ قال: عبدك الحسين بن الضحاك.

فقطب، وقال: لا حيا الله من ذكرت، ولا بياه، ولا قربه، أليس هو القائل:

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٥٢.

أعــينيّ جــودا وابكيــا لي محمّــدا ::: ولا تدخرا دمعــاً عليــه وأســعدا
فلا تمّــت الأشــياء بعــد محمّــد ::: ولا زال شمل الملــك فيــه مبــدّدا
ولا فرح المــأمون بــالعيش بعــدهُ ::: ولا زال في الدّنيا طريــداً مــشرّدا

هذا بذاك، ولا شيء له عندنا.

فقال ابن البواب: فأين فضل أمير المؤمنين، وسعة حلمه، وعادته في العفو؟ فأمر بإحضاره.

فلما حضر، سلم، فرد عليه السلام رداً خفياً، ثم قال: أخبرني عنك، هل عرفت - يوم قتل أخي - هاشمية قتلت، أو هتكت؟ قال: لا. قال: فما معنى قولك؟:

ومما شجى قلبي وكفكــف عــبرتي ::: محــارم مــن آل الــنّبي اســتحلّت
ومهتوكة بالخلــد عنــها ســجوفها ::: كعاب كقرن الشمس حين تبــدّت
إذا خفرتهــا روعــة مــن منــازع ::: لها المرط عاذت بالخــضوع ورنّــت
وسرب ظباء مــن ذؤابــة هاشــم ::: هتفن بدعوى خــير حــيّ وميّــت
أردّ يــداً منّــي إذا مــا ذكرتــه ::: على كبــد حــرّى وقــل مفتّــت
فلا بــات ليــل الــشامتين بغبطــة ::: ولا بلغــتْ آمالهــا مــن تمنّــت

فقال: يا أمير المؤمنين، لوعة غلبتني، وروعة فاجأتني، ونعمة فقدتها بعد أن غمرتني، وإحسان شكرته فأنطقني.

فدمعت عينا المأمون، وقال: قد عفوت عنك وأمرت لك بإدرار أرزاقك عليك، وإعطائك ما فات منها، وجعلت عقوبة ذنبك، امتناعي عن استخدامك(١).

وال مستعطف خير من وال مستأنف:

ووقف أحمد بن عروة بين يدي المأمون، لما عزله عن الأهواز، فقال له: أخربت البلاد، وقتلت العباد، لأفعلن بك وأصنعن.

فقال: يا أمير المؤمنين، ما تحب أن يفعله الله بك إذا وقفت بين يديه، وقد قرعك بذنوبك؟.

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٥٥، ٥٦.

قال: العفو، والصفح.

قال: فافعل بعبدك، ما تحب أن يفعله الله بك.

قال: قد فعلت، ارجع إلى عملك، فوال مستعطف، خير من وال مستأنف[١].

المأمون يصفح عن دعبل الخزاعي الشاعر ويصله:

قرئ على أبي بكر الصولي، سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، بالبصرة، وأنا أسمع: حدثكم هارون بن عبد الله المهلبي، سنة ثمانين ومائتين، قال: لما هجا دعبل، المأمون، قال لهم: أسمعوني ما قال، فأنشدوه هذين البيتين من أبيات، وهما:

إنّي من القوم الّذين سيوفهم ::: قتلت أخاك وشرّفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله ::: واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فقال المأمون: قبحه الله، ما أبهته، متى كنت خامل الذكر، وفي حجر الخلافة ربيت، وبدرها غذيت، خليفة، وأخو خليفة، وابن خليفة.

ثم جد في طلب دعبل، حتى ظفر به، فلم يشك أحد في أنه قاتله.

فلما دخل عليه، قال له: يا دعبل، واستنقذوك من الحضيض الأوهد.

فقال: يا أمير المؤمنين، قد عفوت عمن هو أعظم مني جرماً.

فقال: صدقت، لا بأس عليك، أنشدني مدارس آيات.

فقال: أنشدها وأنا آمن؟ قال: نعم.

فأنشده إياها، فجعل المأمون يبكي، لما بلغ قوله:

بنات زياد في القصور مصونة ::: وبنت رسول الله في الفلوات

ثم وصله وأمنه[٢].

المأمون يهب عمرو بن مسعدة ستة آلاف ألف درهم فيهبها عمرو لأحد أتباعه:

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٦٦.
(٢) المصدر السابق، ص٦٦.

أمر المأمون محمد بن يزداد، وأحمد بن أبي خالد، أن يناظرا عمرو بن مسعدة، في مال الأهواز، فناظراه، فتحصل عليه ستة عشر ألف ألف درهم، فأعلما المأمون بذلك.

فقال: اقبلا منه كل حجة، وكل تعلق، وكل ادعاء.

فقالا: قد فعلنا.

فقال: عودا. فعادا، فتعلق عمرو بن مسعدة بأشياء لا أصل لها، فسقط من المال عشرة آلاف ألف درهم، وبقي ستة آلاف ألف درهم واجبة عليه، لا حجة له فيها، وأخذ خطه بذلك.

فأحضر المأمون عمراً، بعد خروجهما، فقال له: هذه رقعتك؟ قال: نعم.

قال: وهذا المال واجب عليك؟ قال: نعم.

قال: خذ رقعتك، فقد وهبته لك.

فقال: أما إذ تفضل أمير المؤمنين علي به، فإنه واجب على أحمد بن عروة، وأشهدك أني قد وهبته له.

فاغتاظ المأمون، وخرج عمرو وقد عرف غيظ المأمون، وعلم خطأه في عمله، فلجأ إلى أحمد بن أبي خالد، فأعلمه بذلك، وكان يختصه.

فقال: لا عليك، ودخل إلى المأمون.

فلما رآه المأمون، قال: ألا تعجب يا أحمد من عمرو، وهبنا له ستة آلاف ألف درهم، بعد أن تجاوزنا له عن أضعافها، فوهبها بين يدي لأحمد ابن عروة، كأنه أراد أن يباريني، ويصغر معروفي؟ فقال له أحمد: أو قد فعل ذلك يا أمير المؤمنين؟ فقال: نعم.

قال: لو لم يفعل هذا، لوجب أن يسقط حاله.

قال: وكيف؟ قال: لأنه لو استأثر به على أحمد بن عروة، وأخذ أحمد بأداء هذا المال، لكان قد أخرجه من معروفك صفراً، ولما كانت نعمتك على عمرو، نعمة على أحمد، وهما خادماك، فكان الأجمل أن يتضاعف معروفك عندهما، فقصد عمرو ذلك، فصار المال تفضلاً منك على

عمرو، وعلى أحمد بن عروة، ومع ذلك، فأنت سيد عمرو لا يعرف سيداً غيرك، وعمرو سيد أحمد، فاقتدى في أمر أحمد بما فعلت في أمره، وأراد أيضاً أن ينتشر في ملوك الأمم، أن خادماً من خدمك اتسع قلبه لهبة هذا المال، من فضل إحسانك إليه، فيزيد في جلالة الدولة، وجلالة قيمتها، فيكسر ذلك الأعداء الذين يكاثرونك.

فسري عن المأمون، وزال ما بقلبه على عمرو(1).

المأمون يصفح عن الفضل بن الربيع:

لما ظفر المأمون بالفضل بن الربيع، ومثل بين يديه، قال له: يا فضل، أكان من حقي عليك، وحق آبائي، ونعمتهم عندك، وعند أبيك، أن تثلبني، وتشتمني، وتحرض على دمي؟ أتحب أن أفعل بك مع القدرة، ما أردته بي؟.

فقال له الفضل: يا أمير المؤمنين، إن عذري يحقدك إذا كان واضحاً جميلاً، فكيف إذا عفته العيوب، وقبحته الذنوب، فلا يضيق عني من عفوك ما وسع غيري منه، فأنت - والله - يا أمير المؤمنين، كما قال الشاعر:

صفوح عن الإجرام حتّى كأنّه ::: من العفو لم يعرف من النّاس مجرماً
وليس يبالي أن يكون به الأذى ::: إذا ما الأذى لم يغش بالكره مسلماً

قال الصولي: والشعر للحسن بن رجاء(2).

المأمون يرضى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

عن إسحاق، قال: أقام المأمون بعد دخوله بغداد عشرين شهراً، ولم يسمع حرفاً من الأغاني، ثم كان أول من تغنى بحضرته أبو عيسى بن الرشيد أول مرة، ثم واظب على السماع متستراً، متشبهاً بالرشيد في أول أمره، فأقام المأمون كذلك أربع سنين، ثم ظهر للندماء والمغنين.

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: وكان حين أحب السماع، سأل

(1) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٦٦.
(2) المصدر السابق، ص٦٨.

عني، فجرحت بحضرته، وقال الطاعن علي: ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتيه على الخلفاء، ما بقى هذا من التيه شيئاً إلا استعمله.

فأمسك عن ذكري، وجفاني من كان يصلني لسوء رأيه فيّ، فأضر ذلك بي، حتى جاءني علويه يوماً، فقال لي: أتأذن لي في ذكرك بحضرة المأمون، فإنا قد دعينا اليوم.

فقلت: لا، ولكن غنه بهذا الشعر، فإنه يبعثه على أن يسألك لمن هو؟ فإذا سألك انفتح لك ما تريده، وكان الجواب أسهل عليك من الابتداء.

قال: هات، فألقيت عليه لحني في شعري:

يا سرحة الماء قد سدّت موارده ::: أما إليك طريق غير مسدود

لحائم حام حتّى لا حيام به ::: مشرّد عن طريق الماء مطرود

قال أبو الفرج الأصبهاني: والغناء فيه لإسحاق الموصلي، رمل بالوسطى، عنه، وعن عمرو بن بانة.

رجع الحديث، قال: فمضى علويه، فلما استقر به المجلس، غناه بالشعر، الذي أمره به إسحاق.

فقال المأمون: ويلك يا علويه، لمن هذا الشعر؟.

فقال: يا سيدي لعبد من عبيدك، جفوته، وأطرحته، من غير ذنب.

فقال: إسحاق تعني؟ قال: نعم.

فقال: يحضر الساعة.

قال إسحاق: فجاءني رسول المأمون، فصرت إليه، فلما دخلت إليه استدناني، فدنوت منه، فرفع يديه إلي مادهما، فانكببت عليه، فاحتضنني بيديه، وأظهر من بري وإكرامي، ما لو أظهره صديق مؤانس لصديق، لسر به.

وقد ذكر القاضي أبو الحسين هذا الخبر، في كتابه بغير إسناد، وبأقل من هذا الشرح، والمعنى متقارب[١].

يهب أحد أتباعه خمسة آلاف ألف درهم:

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٦٨.

قال أبو عبد الله محمد بن عيسى المروروذي صاحب يحيى بن خاقان، عنه، قال: كان المأمون ألزمني خمسة آلاف ألف درهم، فأعلمته أني لا أملك إلا سبعمائة ألف درهم، وحلفت له على ذلك، بأيمان مغلظة، اجتهدت فيها، فلم يقبل مني، وحبسني عند أحمد بن هشام، وكان بيني وبينه شر قد اشتهر وعرف، وكان يتقلد الحرس.

فقال أحمد للموكلين بي: احفظوه، واحذروا أن يسم نفسه.

ففطن المأمون لمراده، فقال: لا يأكل يحيى بن خاقان، ولا يشرب إلا ما يؤتى به من منزله.

قال: فأقمت على ذلك مدة، فوجه إلي الحسن بن سهل بألف ألف درهم، ووجه إلي فرج الرخجي بألف ألف درهم، ووجه إلي حميد الطوسي بألف ألف درهم، وأضفت ذلك إلى ما كان عندي، واضطربت حتى جمعت خمسة آلاف ألف درهم.

فلما اجتمعت، كتبت إلى المأمون بحضور المال الذي ألزمني إياه، فأمر بإحضاري، فدخلت إليه وبين يديه أحمد بن أبي خالد، وعمرو بن مسعدة، وعلي بن هشام.

فلما رآني، قال لي: أولم تخبرني وتحلف لي أنك لا تملك إلا سبعمائة ألف درهم، فمن أين لك هذا المال؟ فصدقته عن أمره، وقصصت القصة عليه.

فأطرق طويلاً، ثم قال لي: قد وهبته لك.

فقال له الحضور: أتهب له خمسة آلاف ألف، وليس في بيت المال درهم واحد، وأنت محتاج إلى ما دون ذلك بكثير؟ فلو أخذته منه قرضاً، فإذا جاءك مال رددته عليه.

فقال لهم: أنا على المال أقدر من يحيى، وقد وهبته له.

فرددت إلى القوم ما كانوا حملوه، وتخلصت.

يتنازل لأحد أتباعه عن عشرة آلاف ألف درهم:

قال محمد بن عبدوس في كتابه أخبار الوزراء: ذكر الفضل بن

مروان، أن محمد بن يزداد سعى إلى المأمون بعمرو بن بهنوى.

فقال له المأمون: يا فضل، خذ عمراً إليك، وقيده، وضيق عليه، ليصدق عما صار إليه من مال الفيء، فقد اختان مالاً عظيماً، وطالبه به.

فقلت: نعم، وأمرت بإحضار عمرو، فأحضر، فأخليت له حجرة في داري، وأقمت له ما يصلحه، وتشاغلت عنه بأمور السلطان، في يومي وفي الغد.

فلما كان في اليوم الثالث، أرسل إلي عمرو يسألني الدخول عليه، فدخلت، فأخرج إلي رقعة، قد أثبت فيها كل ما يملكه من الدور، والضياع، والعقار، والأموال، والفرش، والكسوة، والجوهر، والقماش، والكراع، وما يجوز بيعه من الرقيق، وكان قيمة ذلك عشرون ألف ألف درهم، وسألني أن أوصل رقعته إلى المأمون، وأعلمه أن عمراً قد جعله من ذلك كله في حل وسعة.

فقلت له: مهلاً، فإن أمير المؤمنين أكبر قدراً من أن يسلبك مالك كله، ونعمتك عن آخرها.

فقال عمرو: إنه لكما وصفت، في كرمه، ولكن الساعي لا ينام عني ولا عنك، وقد بلغني ما أمرت به في أمري من الغلظة، وما عاملتني بضد ذلك، وقد طبت نفساً بأن أشتري عدل أمير المؤمنين في أمري، ورضاه عني، بجميع مالي.

فلم أزل أنزله، حتى وافقته على عشرة آلاف ألف درهم، وقلت له: هذا شطر مالك، وهو صالح للفريقين، وأخذت خطه بالتزام ذلك صلحاً عن جميع ما جرى على يده.

وصرت إلى المأمون فوجدت محمد بن يزداد وقد سبقني إليه وهو يكلمه، فلما رآني قطع الكلام وخرج.

فقال لي المأمون: يا فضل.

قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: ما هذه الجرأة منك علينا؟.

قلت: يا أمير المؤمنين، أنا عبد طاعتك وغرسك.

فقال: أمرتك بالتضييق على النبطي عمرو بن بهنوى، فقابلت أمري بالضد، ووسعت عليه، وأقمت له الأنزال.

فقلت له: يا أمير المؤمنين، إن عمراً يطالب بأموال عظيمة، ولم آمن أن أجعل محبسه في بعض الدواوين فيبذل مالاً يرغب في مثله، فيتخلص، فجعلت محبسه في داري، وأشرفت على طعامه وشرابه، لأحرس لك نفسه، فإن كثيراً من الناس خانوا السلطان، وتمتعوا بالأموال، ثم طولبوا بها، فاحتيل عليهم أن يتلفوا، ويفوز بالأموال غيرهم.

قال الفضل: وإنما أردت بذلك تسكين غضب المأمون علي، ولم أعرض الرقعة عليه، ولا أعلمته ما جرى بيني وبين عمرو، لأني لم آمن سورته في ذلك الوقت، لاشتداد غضبه.

فقال لي: سلم عمراً إلى محمد بن يزداد، قال: فوجهت من ساعتي، من سلم عمراً إلى محمد بن يزداد، فلم يزل يعذبه بأنواع العذاب، ليبذل له شيئاً، فلم يفعل.

فلما رأى أصحابه وعماله، ما قد ناله، جمعوا له بينهم ثلاثة آلاف ألف درهم، وسألوا عمراً أن يبذلها لمحمد بن يزداد، فبذلها، فصار محمد إلى المأمون متبجحاً بها، فأوصل الخط بها إلى المأمون، وأنا واقف.

فقال المأمون: يا فضل، ألم أعلمك، أن غيرك أقوم بأمورنا منك، وأطوع لما نأمره به؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، أرجو أن أكون في حال استبطاء أمير المؤمنين أعزه الله، أبلغ في طاعته من غيري.

فقال المأمون: هذه رقعة عمرو بن بهنوى بثلاثة آلاف ألف درهم.

فقلت، وما اجترأت عليه قط، جرأتي عليه في ذلك اليوم، فإني خرجت إلى إضبارة كانت مع غلامي، فأخذت الرقعة منها مسرعاً، وقلت: والله، لأعلمن أمير المؤمنين، أني مع رفقي، أبلغ في حياطة أمواله من غيري مع غلظته، وأريته رقعة عمرو التي كان كتبها لي، وحدثته بحديثه عن آخره.

فلما تبين المأمون الخطين، وعلم أنهما جميعاً خط عمرو، قال: ما

أدري أيكما أكرم، عمرو حين شكر برك، وطاب نفساً بالخروج عن ملكه بهذا السبب، أم أنت، ومحافظتك على أهل النعم، وسترك عليه في ذلك الوقت، والله، لا كنتما يا نبطيان، أكرم مني.

ودفع الرقعة التي أخذها محمد بن يزداد من عمرو إلي، وأمرني بتخريقها، وتخريق الأولة، وأنفذ من سلم عمراً من محبسه إلي، وأمرني بإطلاقه.

فخرجت من بين يديه، وفعلت ذلك من وقتي(١).

المأمون يغضب على فرج الرخجي ثم يرضى عنه ويقلده فارس والأهواز:

وكان المأمون قد غضب على فرج الرخجي، فكلمه عبد الله بن طاهر، ومسرور الخادم، في إطلاقه.

قال فرج: فبت ليلتي، فأتاني آت في منامي، فقال لي:

لّما أتى فرجاً من ربّه فرج ::: جئنا إلى فرجٍ نبغي به الفرجا

فلما كان من الغد، لم أشعر إلا واللواء قد عقد لي على ولاية فارس والأهواز، وأطلق لي خمسمائة ألف درهم معونة.

فإذا أبو الينبغي الشاعر على الباب، وقد كتب هذا البيت في رقعة.

فقلت له: متى قلته؟ قال لي: البارحة، في الوقت الذي رضي عنك فيه.

فأمرت له بعشرة آلاف درهم(٢).

ما قصتك؟

وحدث أبو القاسم علي بن محمد بن أبي حسان الزيادي، وكان محدثاً ببغداد، ثقة، مشهوراً، قال: حدثني أبي، عن أبيه، قال:

كنت وليت القضاء من قبل أبي يوسف القاضي رحمه الله، ثم صرفت، وتعطلت، وأضقت إضاقة شديدة، وركبني دين فادح، لخباز، وبقال، وقصاب، وعطار، وبزاز، وغيرهم، حتى قطعوا معاملتي لكثرة

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص١٠٢، ١٠٣.
(٢) المصدر السابق، ص١٠٩.

مـالهم علـي، وإياسـهم مـن أن أقـضيهم، فتـضاعفت إضـاقتي، واشـتدت حيرتي.

فـإني يومـاً بمـسجدي، قـد صـليت بأهلـه الغـداة، ثـم انفتلـت أدرس أصـحابي الفقـه إذ جـاءني رجـل خراسـاني، وذكـر الحـديث علـى نحـو مـا ذكره طلحة، إلا أنه لم يقل فيه حملة: فإلى...

وقـال أبـو الفـرج فـي حديثـه: فلمـا بلغت مربعـة الخرسـي، استقبلني موكـب فيـه شـموع ونفاطـات، قـد أضـاء منـه الطريـق، فـصار كالنهـار، فطلبت زقاقاً أستخفي فيه، حتى يجوز الموكب، فلم أجد، فـإذا برجـل مـن الموكـب، يقـول: أبـو حـسان واالله، فتأملتـه، فـإذا هـو دينـار بـن عبـد االله، فسلمت عليه.

فقـال: إليـك جئـت، أرسـل إلـي أميـر المـؤمنين الـساعة، وأمرنـي أن أركب إليك بنفسي، وأحضره إياك.

فمضيت معه، حتى أدخلني على المأمون.

فقال لي المأمون: ما قصتك؟ فإني رأيتك في النوم البارحة، والنبـي ، يأمرني بإغاثتك.

فحدثته بحديثي.

فقال المأمون: أعطوا أبا حسان ثـلاث بـدر، وولانـي الـري، وأمرنـي بالخروج إليها.

قـال: فعدت إلـى بيتـي ومـا طلـع الفجـر، فلمـا كـان وقـت صـلاتي فـي مـسجدي، خرجـت، وإذا بالخراسـاني، فلمـا قـضيت الـصلاة، أدخلتـه إلـى البيت، فأخرجت إليه البدر.

فلما رآها، قال: ما هذا؟ فقصصت عليه القصة، وأعطيته بـدرة منهـا، فأخذها وانصرف.

وذكر محمد بن عبدوس، في كتاب الوزراء، في أخبار دينار بن عبد االله: أن رسوله لقـي أبـا حـسان فـي الطريـق، فقـال لـه: قسمت شيئاً علـى عيالنـا، فذكرت عيالك، فأنفذت إليك عشرة آلاف درهم، فأخذها، ورجـع من الطريق، وبـاكره الخراسـاني، فأعطـاه إياهـا كلهـا، لأنـه كـان قد أنفق

جميع مال الخراساني، ثم عاد من غد إلى دينار، فعرفه، وشكره، وعرفه الحديث.

فقال: فكأنما قضينا الخراساني في ماله، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم أخرى، ولم يذكر ابن عبدوس في خبره ذكر المنام.

وحدثني أبي هذا الحديث في المذاكرة، قال: حدثني شيخ - ذكره أبي وأنسيته أنا، عن أبي حسان الزيادي، بنحو ما ذكره محمد بن جعفر في حديثه، إلا أنه قال فيه: إن الخراساني قال في حديثه لأبي حسان: إن رجع الحجاج ولم ترني قد رجعت إليك، فاعلم أني هلكت، والبدرة هبة مني إليك، وإن رجعت فهي لي، ثم يتقارب لفظ الحديثين، إلى أن لقيه في الجانب الشرقي قوم فلما رآهم تنحى عن طريقهم، فلما رأوه بطيلسان، بادروا إليه، وقالوا له: أتعرف منزل رجل يقال له أبو حسان الزيادي؟ فقال: أنا هو.

فقالوا له: أجب أمير المؤمنين، وحمل فأدخل إلى المأمون.

فقال له: من أنت؟ فقال: رجل من أصحاب أبي يوسف القاضي من الفقهاء وأصحاب الحديث.

قال: بأي شيء تكنى؟ فقال: بأبي حسان.

فقال: بماذا تعرف؟ فقال: بالزيادي، ولست منهم، وإنما نزلت فيهم، فنسبت إليهم.

فقال: قصتك، فشرحت له قصتي.

فبكى بكاء شديداً، وقال: ويحك، ما تركني رسول الله أن أنام بسببك، أتاني في أول الليل فقال: أغث أبا حسان الزيادي، فانتبهت ولم أعرفك، واعتمدت السؤال عنك، وأثبت اسمك ونسبك ونمت، فأتاني، فقال كمقالته، فانتبهت منزعجاً، ثم نمت، فأتاني، وقال: ويحك، أغث أبا حسان، فما تجاسرت على النوم، وأنا ساهر، وقد بثثت في طلبك، ثم أعطاني عشرة آلاف درهم، وقال: هذه للخراساني، ثم أعطاني عشرة آلاف درهم أخرى، وقال: اتسع بهذه، وأصلح أمرك، وعمر دارك، واشتر مركوباً سريًّا، وثياباً حسنة، وعبداً يمشي بين يدي دابتك، ثم أعطاني ثلاثين ألف

درهم، وقال: جهز بها بناتك، وزوجهن، فإذا كان يوم الموكب، فصر إلي، حتى أقلدك عملاً جليلاً، وأحسن إليك.

فخرجت والمال بين يدي محمول، حتى أتيت مسجدي، فصليت الغداة، والتفت فإذا الخراساني بالباب، فأدخلته إلى البيت، وأخرجت بدرة فدفعتها إليه.

فقال: ليس هذه بدرتي، أريد مالي بعينه.

فقصصت عليه قصتي، فبكى، وقال: والله لو صدقتني في أول الأمر عن خبرك لما طالبتك، وأما الآن، فوالله لا دخل مالي شيء من مال هؤلاء، وأنت في حل، وانصرف.

فأصلحت أمري، وبكرت يوم الموكب إلى باب المأمون، فدخلت، وهو جالس جلوساً عاماً.

فلما مثلت بين يديه استدناني، ثم أخرج عهداً من تحت مصلاه، وقال: هذا عهدك على قضاء المدينة الشرقية من الجانب الغربي من مدينة السلام، وقد أجريت عليك في كل شهر كذا وكذا، فاتق الله تدم عليك عناية رسول الله .

فعجب الناس من كلام المأمون وسألوني عن معناه، فأخبرتهم الخبر، فانتشر.

فما زال أبو حسان قاضي الشرقية، إلى آخر أيام المأمون[1].

المأمون بخراسان ينقلب حاله من أشد الضيق إلى أفسح الفرج:

وذكر في كتابه عن جبريل بن بختيشوع، في خبر طويل، أنه سمع المأمون يقول: كان لي بخراسان يوم عجيب، فأولى الله فيه بإحسانه جميلاً، لما توجه طاهر بن الحسين إلى علي بن عيسى بن ماهان، كما قد عرفتموه من ضعف طاهر وقوة علي، وقر في نفوس عسكري جميعاً، أن طاهراً ذاهب، ولحق أصحابي إضاقة شديدة، وظهرت فيهم خلة عظيمة، ونفد ما كان معي، فلم يبق منه لا قليل ولا كثير، وأفضيت إلى حال كان

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص١٢٦، ١٢٧.

أصلح ما فيها الهرب، فلم أدر إلى أين أهرب، ولا كيف آخذ، وبقيت حائراً متفكراً.

فأنا - والله - كذلك وكنت نازلاً في دار أبوابها حديد، ولي مستشرفات أجلس فيها إذا شئت، وعدد غلماني ستة عشر غلاماً، لا أملك غيرهم، وإذا بالقواد والجيش جميعاً قد شغبوا، وطلبوا أرزاقهم، ووافوا جميعاً يشتموني، ويتكلمون بكل قبيح.

فكان الفضل بن سهل بين يدي، فأمر بإغلاق الأبواب، وقال لي: قم فاصعد إلى المجلس الذي يستشرف فيه، إشفاقاً علي من دخولهم، وسرعة أخذهم إياي، وتعليلاً لي بالصعود.

فقلت: القوم يدخلون الساعة، فيأخذوني، فلأن أكون بموضعي، أصلح.

فقال لي: يا سيدي اصعد، فوالله، ما تنزل إلا خليفة.

فجعلت أهزأ به، وأعجب منه، وأحسب أنه إنما قال ما قال، ليسمعني، وأركنت للهرب من بعض أبواب الدار، فلم يكن إلى ذلك سبيل، لإحاطة القوم بالدار والأبواب كلها.

فألح علي أن أصعد، فصعدت وأنا وجل، فجلست في المستشرف، وأنا أرى العسكر.

فلما علموا بصعودي اشتد كلبهم، وشتمهم، وضجيجهم، وبادروني بالوعيد والشتم، فأغلظت على الفضل بن سهل وقلت له: أنت جاهل، غررتني، لو تدعني أعمل برأيي، وليس العجب إلا ممن قبل منك، وهو في هذا كله، يحلف أنني لا أنزل إلا خليفة، وغيظي عليه، وتعجبي من حمقه، ومواصلة الأيمان أنني لا أنزل إلا خليفة، مع ما أشاهده، والحال يزيد، أشد علي مما أقاسيه من الجند.

ثم وضع القوم النار في شوك جمعوه، وأدنوه من الدار، ونقبوا في سورها عدة نقوب، وثلموا منه قطعة، فذهبت نفسي خوفاً وجزعاً، وعلمت أني بين أن أحترق، وبين أن يصلوا إلي فيقتلوني، فهممت بأن ألقي نفسي إليهم، وقدرت أنهم إذا رأوني استحيوا مني، وأقصروا.

وجعل الفضل بن سهل يقبل يدي ورجلي، ويناشدني أن لا أفعل، ويحلف لي أني لا أنزل إلا خليفة، وفي يده الإسطرلاب، ينظر فيه في الوقت بعد الوقت.

فلما اشتد علي الأمر، واستحكم اليأس، قال لي: يا سيدي، قد - والله - أتاك الفرج، أرى شيئاً في الصحراء قد أقبل، ومعه فرجنا، فازددت من قوله غيظاً، وأمرت غلماني بتأمل الصحراء، فلم أر، ولم يروا شيئاً.

وجد القوم في الهدم والحريق، حتى هممت - لما داخلني - أن أرمي بالفضل إليهم.

فقال الغلمان: إنا نرى في الصحراء شيئاً يلوح، فنظرت فإذا شبح، وجعل يزيد تبياناً، إلى أن تبينوا رجلاً على بغلة، ثم قرب، فإذا هو يلوح، وقرب من العسكر، وقويت له قلوبنا، ورأى الجند ذلك فتوقفوا، وخالطهم، فإذا هو يقول: البشرى، هذا رأس علي بن عيسى بن ماهان معي في المخلاة، فلما رأوا ذلك أمسكوا عنا، وانقلبوا بالدعاء، والسرور بالظفر والفتح.

فقال لي الفضل بن سهل: يا سيدي، ائذن لي في إدخال بعضهم، فأذنت له، فشرط عليهم أن لا يدخل إلا من يريد، فأجابوا إلى ذلك، وسمى قوماً من القوم، فأدخلهم.

فكان أول من دخل علي، عبد الله بن مالك الخزاعي، فقبل يدي، وسلم علي بالخلافة، ثم أدخل القواد بعده، واحداً، واحداً، ففعلوا مثل ذلك، فأطفأ الله - عز وجل - النائرة، ووهب السلامة، وقلدني الخلافة، فظفرت من أموال علي بن عيسى بن ماهان، وما في عسكره، بما أصلحنا به أمور جندنا[١].

ألمعية المأمون وذكاؤه:

قال: دعا المأمون يوماً بأبي عباد، فدفع إليه كتاباً مختوماً، وأمره أن يأتي عمرو بن مسعدة، فيناظره على ما فيه باباً، باباً، ويأخذ تحت كل باب خطه فيه، ويختمه بخاتمه، وخاتم عمرو، ويحتفظ به إلى أن يسأله

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص١٢٦، ١٢٧.

عنه، ولا يذكره ابتداءً، وأكد على ذلك.

قال: فعلمت أنها وقيعة، وقد كنت شاركت عمراً في أشياء، فصارت إلينا منها أموال، فخفت أن تكون مذكورة في الكتاب.

فقصدت عمراً، فوجدته في بستان أحمد بن يوسف، يلعب بالشطرنج مع بعض أصحابه، فعرفته أني محتاج إلى الخلوة معه.

فقال: دعني الساعة، فقد استوى لي هذا الدست.

فضاق صدري، وقلبت الشطرنج، وقلت: قد سال السيل، وهلكنا وأنت غافل، اقرأ هذا الكتاب، فقرأه، فطالبته أن يكتب خطه، تحت كل فصل منه، بحجته.

فضحك، وقال: ويحك، أما تستحي، تخدم رجلاً طول هذه المدة، ولا تعرف أخلاقه، ولا مذهبه؟.

فقلت: يا هذا، أخبرني عنك، إن أقدمت على جحد ما في هذا الكتاب، لتعذر حجة ما شاركتك فيه، أما أنا فوالله أجحد، ولكن أصبر لأمر الله تعالى.

قال: فتحب أن أطلعك على ما هو أشد عليك من هذا؟.

قلت: وما هو؟.

فقال: كتاب دفعه إلي أمير المؤمنين منذ سنة، وأمرني فيه بمثل ما أمرك في هذا، فعرفت ضيق صدرك، فلم أذكره لك.

فكدت أموت إلى أن فرغ من كلامه، فقلت له: أرني إياه، فأحضره، وقرأته، وأنا أنتفض، وعمرو يضحك.

فلما فرغت منه، قلت: عند الله أحتسب نفسي ونعمتي.

فقال: أنت والله مجنون.

فقلت: دعنا من هذا، ووقع تحت كل فصل.

فنظر إلى جملة ما نسب إليه في الكتاب، فوجده أربعين ألف ألف درهم، فوقع في آخره: لو قصرت همتنا في هذا القدر وأضعافه، لوسعتنا منازلنا، وما يفي هذا، بدلجة في برد، أو روحة في حر، وأرجو أن يطيل

الله بقاء أمير المؤمنين، ويبلغنا فيه ما نؤمله به، وعلى يده.

وكان جملة ما رفع علي سبعة وعشرين ألف ألف درهم.

فقال: يا هذا، إن صاحبنا ليس ببخيل، ولكنه رجل يكره أن يطوى معروفه، وإنما أراد أن يعلمنا أنه قد علم بما صار إلينا، فأمسك عنه على علم.

ثم ختم الكتاب بخاتمه، وخاتمي، وانصرفت وأنا في الموت، فلم ألبث أن كتبت وصيتي، وأحكمت أمري، وكنت سنة مغموماً، وذاب جسمي.

فقال لي المأمون يوماً: يا أبا عباد، قد أنكرت حالك، أتشكو علة؟ فقلت: لا، يا أمير المؤمنين، ولكني منذ سنة، حي كميت، لأجل الكتاب الذي دفعه إلي أمير المؤمنين، لأناظر عليه عمرو بن مسعدة.

فقال: أمسك عني، حتى أعيد عليك جميع ما جرى بينكما، فحدثني بجميع ما دار بيننا، كأنه كان ثالثنا.

فقلت: لقد استقصى لك الذي وكلته بخبرنا، والله، ما خرم منه حرفاً.

فقال: والله، ما وكلت بكما أحداً، ولكن ظنًّا ظننته، وعلمت أنه لا يدور بينكما غيره، ولقد عجبت من غير عجب، لأن عقول الرجال يدرك بعضها بعضاً، وهذا عمرو بن مسعدة، أعرف بنا منك، وأوسع صدراً، وأبعد همة، وما أردت بما فعلت، إلا أن تعلما أني قد عرفت ما صار إليكما، وتستكثرانه، فأحببت أن أزيل عنكما غم المساترة، وثقل المراقبة، وأني لمتذمم لكما، خجل من ضعف أثري عليكما.

فسررت، وصرت كأني أطلقت من عقال، فشكرته ودعوت له.

ثم قلت: ما أصنع بذلك الكتاب؟.

قال: خرقه إلى لعنة الله، وامض مصاحباً، آمناً، في ستر الله عز وجل[1].

المأمون يهب أحد كُتابه اثني عشر ألف ألف درهم:

وجدت في كتاب عتيق فيه أخبار جمعها يعقوب بن بيان الكاتب:

---

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص١٢٦، ١٢٧.

حدثني أبو القاسم علي بن داود بن الجعد، قال: حدثني يزيد بن دينار بن عبد الله، قال: حدثني أبي، عن يحيى بن خاقان، قال: كنت كاتب الحسن بن سهل، فقدم المأمون مدينة السلام، فقال لي: يا يحيى، خلوت بالسواد، ولعبت بالأموال التي لي، واحتجنتها، واقتطعتها.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إنما أنا كاتب الرجل، والمناظرة في الأموال، والأعمال، مع صاحبي، لا معي.

فقال: ما أطالب غيرك، ولا أعرف سواك، فصالحني على مائة ألف ألف درهم.

قال: فضحكت.

فقال: يا يحيى، أجد وتهزل؟.

فقلت: لا، يا أمير المؤمنين، إنما ضحكت تعجباً، وبالله، ما أملك إلا سبعمائة ألف درهم.

فقال: دع هذا عنك، وأعطني خمسين ألف ألف درهم.

قال: فما زلت أجاذبه، ويجاذبني، إلى أن بلغ اثنا عشر ألف ألف درهم، فلما بلغ إليها، قال: نفيت من الرشيد، إن نقصتك شيئاً منها.

فقلت: السمع والطاعة.

قال: أقم لي ضميناً، إن لم تف لي بها، طالبته.

قلت: صاحبي يا أمير المؤمنين يضمنني.

فقال: أتراني إن دافعت الأداء، أطالب الحسن بن سهل عنك؟ هذا ما لا يكون.

فقلت: عبد الله بن طاهر.

فقال: عبد الله بن طاهر، سبيله سبيل صاحبك.

قلت: فحميد.

قال: وهذه سبيله.

قلت: ففرج مولاك يا أمير المؤمنين.

قال: مليء - والله - وثقة، ثم التفت إلى فرج، فقال: أتضمنه يا فرج؟.

قال: نعم، يا أمير المؤمنين، قد ضمنته.

فقال: أنا والله محرجه بالإلحاح في المطالبة، حتى يهرب، أو يستتر، ثم آخذك بالمال، فتؤديه، فإنك ملي به.

فقال فرج: صاحبي ثقة، وهو لا يخفرني، إن شاء الله.

قال يحيى: فكتبت إلى الحسن بن سهل، وعبد الله بن طاهر، وحميد، ودينار بن عبد الله، وغسان، ورجال المأمون، أسألهم إعانتي في المال.

قال: فحملوا لي ذلك عن آخره، حمل كل إنسان منهم، على قدره، قال يحيى: فكتبت رقعة إلى المأمون، أعرفه أن المال قد حضر، وأسأله أن يأمر من يقبضه.

قال: فأحضرني، فلما وقعت عينه علي، قال لي: يا خائن، الحمد لله الذي بين لي خيانتك، وأظهر لي كذبك، ألم تذكر أنك لا تملك إلا سبعمائة ألف درهم؟ فكيف تهيأ لك أن حملت في عشرة أيام اثني عشر ألف ألف درهم؟ قال: فقلت: حملت، يا أمير المؤمنين من هذه الجريدة، ودفعت إليه جريدة بأسماء من حمل إلي المال، ومبلغ ما حمل كل واحد منهم.

قال: فقرأ الجريدة، ثم أطرق مليًّا، ورفع رأسه، فقال: لا يكون أصحابنا، أجود منا، هذا المال قد وهبناه لك، وأبرأنا ضمينك.

قال يحيى: فانصرفت، فرددت المال إلى أصحابه، فأبوا أن يقبلوه، وقالوا: قد وهبناه لك، فاصنع به ما أحببت.

قال: فحلفت، ألاَّ أقبل منه درهماً، وقلت لهم: أخذته في وقت حاجتي، ورددته عند استغنائي عنه، وقبولي إياه في هذا الوقت ضرب من التغنم، فرددته عليهم[1].

جيء به مذنب وخرج وهو مثاب:

حدث أبو نصر بن أبي داؤد، قال: حدثني أبي، عن أبيه، قال: كنت يوماً عند المأمون، وقد جاءوه بإبراهيم بن المهدي، وفي عنقه ساجور،

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص١٧٦، ١٧٧.

وفي رجله قيدان، فوقف بين يدي المأمون.

فقال له: هيه، يا إبراهيم، إني استشرت في أمرك، فأُشير علي بقتلك، فرأيت ذنبك يقصر عن واجب حق عمومتك.

فقال: يا أمير المؤمنين، أبيت أن تأخذ حقك إلا من حيث عودك الله تعالى، وهو العفو عن قدرة.

فقال المأمون: مات - والله - الحقد، عند هذا العذر، يا غلام، لا يتخلف أحد من أهل المملكة عن الركوب بين يديه، ويحمل بين يديه عشر بدر، وعشرة تخوت ثياب.

قال: ما رأيت إنساناً جيء به وهو مذنب، فخرج وهو مثاب، وأهل المملكة بين يديه، إلا هو[1].

قبض عليه وهو بزي امرأة:

وجد في كتاب أبي الفرج المخزومي الحنطي: أن إبراهيم بن المهدي، لما طال استتاره من المأمون، ضاق صدره، فخرج ليلة من موضع كان فيه مستخفياً، يريد موضعاً آخر، في زي امرأة، وكان عطراً.

فعرض له حارس، فلما شم منه رائحة الطيب، ارتاب به، فكلمه، فلم يجب، فعلم أنه رجل، فضبطه.

فقال له: خذ خاتمي، فثمنه ثلاثون ألف درهم وخلني، فأبى، وعلق به، وحمله إلى صاحب الشرطة، فأتى به المأمون.

فلما أدخله داره، وعرف خبره، أمر بأن يدخل إليه، إذا دعي، على الحال التي أخذ عليها.

ثم جلس مجلساً عامًّا، وقام خطيب بحضرة المأمون، يخطب بفضله، وما رزقه الله، جلت عظمته، من الظفر بإبراهيم.

وأدخل إبراهيم بزيه، فسلم على المأمون، وقال: يا أمير المؤمنين، إن ولي الثأر محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ومن تناولته يد الاغترار، بما مد له من أسباب الرجاء، لم يأمن عادية الدهر، ولست

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص١٧٦، ١٧٧.

أخلو عندك من أن أكون عاقلاً أو جاهلاً، فإن كنت جاهلاً فقد سقط عني اللوم من الله تعالى، وإن كنت عاقلاً، فيجب أن تعلم أن الله عز وجل، قد جعلت فوق كل ذي عفو، كما جعل كل ذي ذنب دوني، فإن تؤاخذ، فبحقك، وإن تعف، فبفضلك، ثم قال:

ذنـــــبي إليــــــك عظــــــيم ::: وأنــــــت أعظــــــم منــــــه
فخــــــذ بحقّــــــك أو لا ::: فاصــــــفح بحلمــــــك عنــــــه
إن لم أكـــــن في فعـــــالي ::: مــــــن الكــــــرام فكنــــــه

وقال:

أذنبـــــت ذنبـــــاً عظيمـــــاً ::: وأنـــــت للعفـــــو أهـــــل
فـــــإن عفـــــوت فمـــــنٌّ ::: وإن جزيـــــت فعـــــدل

قال: فرق له المأمون، وأقبل على أخيه أبي إسحاق وابنه العباس والقواد، وقال: ما ترون في أمره؟ فقال بعضهم: يضرب عنقه.

وقال البعض: تقطع أطرافه، ويترك إلى أن يموت، وكل أشار بقتله، وإن اختلفوا في القتلة.

فقال المأمون، لأحمد بن أبي خالد: ما تقول أنت يا أحمد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن قتلته، وجدت مثلك قد قتل مثله، وإن عفوت عنه، لم تجد مثلك قد عفا عن مثله، فأي أحب إليك، أن تفعل فعلاً تجد لك فيه شريكاً، أو أن تنفرد بالفضل؟ فأطرق المأمون طويلاً، ثم رفع رأسه، فقال: أعد علي ما قلت يا أحمد، فأعاد.

فقال المأمون: بل ننفرد بالفضل، ولا رأي لنا في الشركة.

فكشف إبراهيم المقنعة عن رأسه، وكبر تكبيرة عالية، وقال: عفا - والله - أمير المؤمنين عني، بصوت كاد الإيوان أن يتزعزع منه، وكان طويلاً، آدم، جعد الشعر، جهوري الصوت.

فقال له المأمون: لا بأس عليك يا عم، وأمر بحبسه في دار أحمد بن أبي خالد.

فلما كان بعد شهر، أحضره المأمون، وقال له: اعتذر عن ذنبك.

فقال: يا أمير المؤمنين، ذنبي أجل من أن أتفوه معه بعذر، وعفو أمير المؤمنين، أعظم من أن أنطق معه بشكر، ولكني أقول:

تفديك نفسي أن تضيق بصالح ::: والعفو منك بفضل جود واسع
إنّ الذي خلق المكارم حازها ::: في صلب آدم للإمام السابع
ملئت قلوب الناس منك مهابة ::: وتظلّ تكلؤهم بقلبٍ خاشع
فعفوت عمّن لم يكن عن مثله ::: عفو ولم يشفع إليك بشافع
ورحمت أطفالاً كأفراخ القطا ::: وحنين والدة بقلب جازع
ردّ الحياة إليّ بعد ذهابها ::: كرم المليك العادل المتواضع

فقال له المأمون: لا تثريب عليك يا عم، قد عفوت عنك، فاستأنف الطاعة متحرزاً من الظنة، يصف عيشك، وأمر بإطلاقه، ورد عليه ماله وضياعه، فقال إبراهيم يشكره في ذلك:

رددت مالي ولم تبخل عليّ به ::: وقبل ردّك مالي قد حقنت دمي
فأبت عنك وقد خوّلتني نعماً ::: هما الحياتان من موت ومن عدم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به ::: والمال، حتى أسلّ النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عاريّة رجعت ::: إليك لو لم تعرها كنت لم تلم
وقام علمك بي فاحتجّ عندك لي ::: مقام شاهد عدل غير متّهم
فإن جحدتك ما أوليت من نعم ::: إنّي لباللؤم أولى منك بالكرم

فقال المأمون: إن من الكلام، كلاماً كالدر، وهذا منه، وأمر لإبراهيم بخلع ومال، قيل أنه ألف ألف درهم.

وقال له: يا إبراهيم، إن أبا إسحاق، وأبا عيسى، أشارا علي بقتلك.

فقال إبراهيم: ما الذي قلت لهما يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت لهما: إن قرابته قريبة، ورحمه ماسة، وقد بدأنا بأمر، وينبغي أن نستتمه، فإن نكث فالله مغير ما به.

قال إبراهيم: قد نصحا لك، ولكنك أبيت إلا ما أنت أهله يا أمير المؤمنين، ودفعت ما خفت، بما رجوت.

فقال المأمون: قد مات حقدي بحياة عذرك، وقد عفوت عنك، وأعظم

من عفوي عنك أنني لم أجرعك مرارة امتنان الشافعين[١].

إن من أعظم المحنة أن تسبق أمية هاشماً إلى مكرمة:

لما دخل إبراهيم بن المهدي على المأمون وقد ظفر به، كلمه بكلام كان سعيد بن العاص كلم به معاوية بن أبي سفيان في سخطة سخطها عليه، واستعطفه به، وكان المأمون يحفظ الكلام.

فقال له المأمون: هيهات يا إبراهيم، هذا كلام قد سبقك به فحل بني العاص، وقارحهم، سعيد بن العاص، خاطب به معاوية.

فقال له إبراهيم: وأنت إن عفوت عني، فقد سبقك فحل بني حرب، وقارحهم، إلى العفو، ولم تكن حالي في ذلك، أبعد من حال سعيد عند معاوية، فإنك أشرف منه، وأنا أشرف من سعيد، وأنا أقرب إليك من سعيد إلى معاوية، وإن من أعظم المحنة أن تسبق أمية هاشماً إلى مكرمة.

فقال له: صدقت يا عم، وقد عفوت عنك[٢].

لما قدم للقتل تماسك فلما عفي عنه بكى:

لما حصل إبراهيم بن المهدي في قبضة المأمون، لم يشك هو وغيره في أنه مقتول، فأطال حبسه في مطمورة، بأسوأ حال وأقبحها.

قال إبراهيم: فأيست من نفسي ووطنتها على القتل، وتعزيت عن الحياة، حتى صرت أتمنى القتل، للراحة من العذاب، وما أؤمله في الآخرة، من حصول الثواب.

فبينا أنا كذلك، إذ دخل علي أحمد بن أبي خالد مبادراً، فقال: أعهد، فقد أمرني أمير المؤمنين بضرب عنقك.

فقلت: أعطني دواة وقرطاساً، فكتبت وصية ذكرت فيها كل ما احتجت إليه، وأسندتها إلى المأمون، وشكلة والدتي، وتوضأت، فتطوعت ركعات، ومضى أحمد.

وفرغت من الصلاة، وجلست أتوقع القتل، فعاد إلي أحمد بعد

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٢٢٥.
(٢) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص١٧٦، ١٧٧.

ساعتين، فقال: أمير المؤمنين، يقرؤك السلام، ويقول لك: أنا أحمد الله - جلت عظمته - الذي وفقني لصلة رحمك، والصفح عنك، وقد أمنك، ورد عليك نعمتك، وجميع ضياعك وأملاكك، فانصرف إلى دارك.

قال: فبدأت أدعو للمأمون، وغلب البكاء علي والانتحاب، وهو يطالبني بالجواب، وأنا غير متمكن منه.

فقال لي أحمد: لقد رأيت منك عجباً، أخبرتك أني أمرت بضرب عنقك، فلم تجزع، ولم تبك، ثم أخبرتك بتفضل أمير المؤمنين عليك، وصفحه عنك، فلم تتمالك من البكاء.

فقلت له: أما السكوت عند الخبر الأول، فلأني لم أتوسم - منذ ظفر بي - أن أسلم من القتل، فلما ورد علي ما لم أشك فيه، لم أجزع له، ولم أبك.

وأما بكائي عند الخبر الثاني، فوالله العظيم شأنه، ما هو عن سرور بالحياة، ولا لرجوع النعمة، وما بكائي إلا لما كان مني في قطيعة رحم من عنده - بعد استحقاقي منه القتل - مثل هذا الصفح الذي لم يسمع في جاهلية ولا إسلام، بأن أحداً أتى بمثله، فقد حاز أمير المؤمنين الثواب من الله تعالى، في صلة رحمه، وبؤت أنا بالإثم، في قطيعة رحمي، وقد أظهر إحسانه إساءتي، وحلمه جهلي، وفضله نقصي، وجوابي هو ما شاهدت وسمعت.

فرجع أحمد إلى المأمون فأخبره، ثم عاد إلي بمال وخلع، ومركوب، فانصرفت إلى داري ونعمتي[(١)].

قال المأمون: لقد حبب إلي العفو حتى خفت أن لا أؤجر عليه، ووجدت الخبر على خلاف هذه الرواية، فأخبرني أبو الفرج الأموي المعروف بالأصبهاني، قال: أخبرني علي بن سليمان الأخفش، قال: حدثنا محمد بن يزيد النحوي، عن الجاحظ، قال: أرسل إلي ثمامة، يوم حبس المأمون إبراهيم بن المهدي، وأمر بإحضار الناس على مراتبهم، فحضروا، وجيء بإبراهيم.

وفي رواية أنه لما ظفر المأمون بإبراهيم المهدي، أحب أن يوبخه

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٢٤٥.

على رؤوس الأشهاد، فأمر بإحضار الناس على مراتبهم، وجيء بإبراهيم يرسف في قيوده، فوقف على طرف البساط في طرف الإيوان، يحجل في قيوده.

فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، ورحمة الله تعالى وبركاته.

فقال له المأمون: لا سلم الله عليك، ولا كلأك، ولا حفظك، ولا رعاك.

فقال له إبراهيم: على رسلك يا أمير المؤمنين، فلقد أصبحت ولي الثأر، والقدرة تذهب الحفيظة، وقد أصبح ذنبي فوق كل ذنب، كما أصبح عفوك فوق كل عفو، ولم يبق إلا عفوك، أو انتقامك، فإن تعاقب فبحقك، وإن تعف فبفضلك، وأنت للعفو أقرب.

فأطرق المأمون مليًّا، ثم رفع رأسه، فقال: إن هذين أشارا علي بقتلك، يعني أخاه المعتصم، وابنه العباس، وكانا يشيران عليه في معظم تدبير الخلافة والسياسة.

فقال إبراهيم: لقد نصحا لك يا أمير المؤمنين فيما أشارا عليك به، وما غشاك، إذ كان مني ما كان، ولكن الله عز وجل، عودك في العفو عادة جريت عليها، دافعاً ما تخاف بما ترجو، فكفاك الله كل مكروه، ودفع عنك كل محذور.

قال: فتبسم المأمون، وأقبل على ثمامة، وقال: إن من الكلام ما يفوق الدر، ويغلب السحر، وكلام عمي منه، أطلقوه، وفكوا عن عمي حديده، وردوه إلي مكرماً.

فلما رد إليه، قال: يا عم، صر إلى المنادمة، وارجع إلى الأنس، فلن ترى مني أبداً إلا ما تحب، فلقد حبب إلي العفو، حتى خفت أن لا أوجر عليه، أما أنه لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة، لتقربوا إلينا بالذنوب، لا تثريب اليوم عليك يا عم، يغفر الله لنا ولك، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن إساءتك، ولو لم يكن في حق قرابتك، ما يستحق العفو عن جرمك، لبلغت ما أملت بحسن تنصلك، ولطف توصلك، ثم أمر برد ضياعه وأمواله إليه.

فلما كان من الغد، بعث إليه إبراهيم درجاً فيه هذه الأبيات:

يا خـير مـن ذملـت يمانيـة بـه ::: بعـد الرسـول لآيـس أو طـامع
واللّـه يعلـم مـا أقـول فإنّهـا ::: جهد الأليّـة مـن حنيـف راكـع
قـسماً ومـا أدلي إليـك بحجّـة ::: إلاّ التـضرّع مـن مقـرّ خاشـع
ما إن عـصيتك والغـواة تمـدّ لي ::: أسـبابها إلاّ بقلـب طـائع
حتى إذا علقـت حبائـل شـقوتي ::: بردى على حفـر المهالـك هـائع
لم أدر أنّ لمثـل ذنـبي غـافراً ::: فأقمت أرقب أيّ حتـف صـارعي
ردّ الحيـاة علـيّ بعـد ذهابهـا ::: عفـو الإمـام القـادر المتواضـع
أحيـاك مـن ولاّك أطـول مـدّة ::: ورمى عـدوّك في الـوتين بقـاطع
إنّ الذي قـسم الفـضائل حازهـا ::: في صـلب آدم للإمـام الـسابع
كم من يـد لـك لا تحـدّثني بهـا ::: نفـسي إذا آلـت إليّ مطـامعي
أسـديتها عفـواً إليّ هنيئـة ::: فشكرت مصطنعاً لأكـرم صـانع
ورحمت أطفـالاً كـأفراخ القطـا ::: وحـنين والهـة كقـوس النـازع
وعفوت عمّن لم يكـن عـن مثلـه ::: عفـوٌ ولم يـشفع إليـك بـشافع
إلاّ العلـوّ عـن العقوبـة بعـدما ::: ظفرت يـداك بمـستكين خاشـع

قال: فبكى المأمون، ثم قال: علي به، فأتي به، فخلع عليه، وأمر له بخمسة آلاف درهم، وكان ينادمه، لا ينكر منه شيئاً[1].

الفضل بن الربيع يتحدث عما لاقى أيام استتاره من المأمون:

عن أبي طالوت كاتب ابن طاهر، قال: سمعت الفضل بن الربيع، يقول: لما استترت من المأمون، أخفيت نفسي حتى عن عيالي وولدي، وكنت أنتقل وحدي.

فلما اقترب المأمون من بغداد، ازداد حذري، وخوفي على نفسي، فتشددت في الاحتياط والتواري، وأفضيت إلى منزل بزاز كنت أعرفه في درب بباب الطاق، وشدد المأمون في طلبي فلم يعرف لي خبراً.

فتذكرني يوماً، فاغتاظ على إسحاق بن إبراهيم، وجد به في طلبي،

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٢٤٦.

فأغلظ له، فخرج إسحاق من حضرته، وجد بأصحاب الشرط، وأوقع ببعضهم المكاره، ونادى في الجانبين، من جاء به فله عشرة آلاف درهم وإقطاع غلته ثلاثة آلاف دينار في السنة، وإن من وجد بعد النداء ضرب خمسمائة سوط وهدمت داره وأخذ ماله وحبس طول الدهر، فنودي بذلك عشيًّا.

فما شعرت، إلا وصاحب الدار قد دخل علي وأخبرني الخبر، وقال: والله، ما أقدر بعد هذا على سترك، ولا آمن من زوجتي، وجاريتي، وغلامي، وأن تشره نفوسهم إلى المال، فيدلون عليك، وأهلك بهلاكك، وإن صفح الخليفة عنك، لم آمن من أن تتهمني بأني دللت عليك، فيكون ذلك أقبح وأشنع، وليس الرأي لي ولك إلا أن تخرج عني.

فورد علي ذلك أعظم مورد، وقلت: إذا جاء الليل خرجت عنك.

قال: ومن يطيق الصبر على هذا الضرر إلى الليل، فإنك إن وجدت عندي قبل الليل أهلكتني وأهلكت نفسك، وهذا وقت حار، وقد طال عهد الناس بك، فقم وتنكر واخرج.

فقلت: كيف أتنكر؟

فقال: تأخذ أكثر لحيتك، وتغطي رأسك وبعض وجهك، وتلبس قميصاً ضيقاً، وتخرج.

فقلت: أفعل.

فجاء بمقراض فأخذت أكثر لحيتي، وتنكرت، وخرجت من عنده في أول أوقات العصر، وأنا ميت خوفاً.

فمشيت في الشارع، حتى بلغت الجسر، فوجدته قد رش، وهو خال من الناس، متزلق.

فلما توسطته، إذا أنا بفارس من الجند الذين كانوا في داري في أيام وزارتي، قد قرب مني، فعرفني، وقال: طلبة أمير المؤمنين، وعدل إلي ليقبض علي.

فلحلاوة النفس دفعته ودابته، فزلق، ووقع في بعض السفن التي في الجسر، وتعادى الناس لخلاصه، وظنوا أنه زلق بنفسه.

وتشاغل عني بهم، وزدت أنا في المشي، ولم أعد لئلا ينكر حالي من يراني، إلى أن عبرت الجسر ودخلت درب سليمان.

فوجدت امرأة على باب دار مفتوح، فقلت لها: يا امرأة، أنا خائف من القتل، فأجيريني وأحقني دمي.

فقالت: أدخل، وأومأت إلى غرفة، فصعدتها.

فلما كان بعد ساعة، إذا بالباب يدق، ففتحته، وإذا زوجها قد دخل، فتأملته، فإذا هو صاحبي على الجسر، وهو مشدود الرأس يتأوه من شجة لحقته، وثيابه مغموسة بالدم.

وسألته المرأة عن خبره، فأخبرها بالقصة، وقال لها: قد زمنت دابتي وأنفذتها لتباع في سوق اللحم، وقد فاتني الغنى، وجعل يشتمني، وهو لا يعلم بوجودي معه في الدار، وأقبلت المرأة تترفق به إلى أن هدأ.

فلما صليت المغرب، وأقبل الظلام، صعدت المرأة إلي، وقالت: أظنك صاحب القصة مع هذا الرجل.

فقلت: نعم.

فقالت: قد سمعت ما عنده، فاتق الله في نفسك واخرج، فدعوت لها.

فنزلت، ففتحت الباب فتحاً رفيقاً، وقالت: اخرج، وكانت الدرجة في الدهليز، فأفضيت إلى الباب، فلما انتهيت إلى آخر الدرب وجدت الحراس قد أغلقوه، فتحيرت.

ثم رأيت رجلاً يفتح باباً بمفتاح رومي، فقلت: هذا رومي، وهو ممن يقبل مثلي.

فدنوت منه وقلت: استرني، سترك الله.

فقال: ادخل، فدخلت، فرأيته رجلاً فقيراً وحيداً، فأقمت ليلتي عنده، وبكر من غد، وعاد نصف النهار ومعه حمالان يحمل أحدهما حصيراً ومخدة، وجرار، وكيزان، وغضائر جدداً، وقدراً جديداً، ويحمل الآخر خبزاً وفاكهة، ولحماً، وثلجاً، فدخل، وترك ذلك كله عندي، وأغلق الباب.

فنزلت، وعذلته، وقلت له: لم كلفت نفسك هذا؟ فقال: أنا رجل مزين،

وأخاف أن تستقذرني، وقد أفردت لك هذا، فاطبخ أنت وأطعمني في غضارة أجيء بها من عندي، فشكرته على ذلك، وأقمت عنده ثلاثة أيام.

فلما كان آخر اليوم الثالث، ضاق صدري، فقلت له: يا أخي الضيافة ثلاثة أيام، وقد أحسنت وأجملت، وأريد الخروج.

فقال: لا تفعل، فإني وحيد، ولست ممن يطرق، وخبرك لا يخرج من عندي أبداً، فأقم إلى أن يفرج الله عنك، فلست أتثاقل بك.

فأبيت للحين، وخرجت على وجهي أريد منزل عجوز بباب التبن من موالينا، فدققت الباب عليها، فخرجت، فلما رأتني بكت، وحمدت الله على رؤيتي، وأدخلتني الدار.

فلما كان في السحر، وأنا نائم، بكرت العجوز فغمزت علي بعض أصحاب إسحاق بن إبراهيم، فما شعرت إلا بإسحاق نفسه، في خيله ورجله، قد أحاط بالدار، ثم كبسها واستخرجني منها، حتى أوقفني بين يدي المأمون حافياً حاسراً.

فلما رآني سجد طويلاً ثم رفع رأسه، وقال: يا فضل، أتدري لم سجدت؟ فقلت: نعم، شكراً لله تعالى الذي أظفرك بعدو دولتك، المغري بينك وبين أخيك.

قال: ما أردت هذا، ولكني سجدت شكراً لله على ما ألهمنيه من العفو عنك، فحدثني بخبرك؟ فشرحته له من أوله إلى آخره.

فأمر بإحضار العجوز مولاتنا، وكانت في الدار تنتظر الجائزة، فقال لها: ما حملك على ما فعلت، مع إنعامه وإنعام أهله عليك؟ قالت: رغبة في المال.

قال: هل لك زوج أو ولد أو أخ؟ قالت: لا، فأمر بضربها مائة سوط، وتخليدها في السجن.

ثم قال لإسحاق: أحضر الساعة الجندي، وامرأته، والمزين، فحضروا في مجلس واحد، فاستثبتني فيهم، فعرفته أنهم القوم بأعيانهم.

فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على فعله، فقال: الرغبة في المال، ووالله، إنه الذي أثبتني في الجيش، ولكني رغبت في المال

العاجل.

فقال: أنت بأن تكون حجاماً أولى بأن تكون من أوليائنا، وأمر بأن يسلم للمزينين في الدار، ويوكل به من يعسفه حتى يتعلم الحجامة.

وأمر باستخدام زوجته قهرمانة في دور حرمه، وقال: هذه المرأة عاقلة أديبة.

قالت له: وكيف ذلك؟ قال لها: مر بي الفضل، فمددت يدي لأقبض عليه، فابتلعته الأرض.

فقالت له امرأته: الحمد لله - عز وجل - الذي كفاك أمره وأبقى دينك عليك، ولم تكن سبباً لسفك دمه، أو مكروه يلحقه.

فلما خرج، صعدت إليه، فقالت: قد سمعت، وما هذا المكان لك بموضع، فخرج إلى بعض منازل معامليه، فلما صار إليه، نبه العامل عليه، وأسلمه إلى طالبيه، فحمل إلى المأمون، فلما رآه، وسأله عن خبره، شرح له قصته، فأمر للمرأة بثلاثين ألف درهم وقال للرسول: قل لها، يقول لك الفضل: هذا جزاء لك على ما فعلته من الجميل، فردتها، وأبت قبولها، وقالت: لست آخذ على شيء فعلته لله عز وجل، جزاءً، إلا منه[1].

إسحاق الموصلي يتطفل ويقترح:

حدث حماد بن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، قال: حدثني أبي، قال: غدوت يوماً، وأنا ضجر من ملازمة دار الخلافة، والخدمة فيها، فركبت بكرة، وعزمت على أن أطوف الصحراء، وأتفرج بها.

فقلت لغلماني: إن جاء رسول الخليفة، فعرفوه أني بكرت في مهم لي، وأنكم لا تعرفون أين توجهت.

ومضيت، وطفت ما بدا لي، ثم عدت وقد حمي النهار، فوقفت في شارع المخرم، في الظل، عند جناح رحب في الطريق، لأستريح.

فلم ألبث أن جاء خادم يقود حماراً فارهاً، عليه جارية راكبة، تحتها منديل دبيقي، وعليها من اللباس الفاخر ما لا غاية وراءه، ورأيت لها

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٣٢٩، ٣٣٠.

قواماً حسناً، وطرفاً فاتناً، وشمائل ظريفة، فحدست أنها مغنية.

فدخلت الدار التي كنت واقفاً عليها، وعلقها قلبي في الوقت علوقاً شديداً، لم أستطع معه البراح.

فلم ألبث إلا يسيراً، حتى أقبل رجلان شابان جميلان، لهما هيأة تدل على قدرهما، راكبان، فاستأذنا، فأذن لهما، فحملني حب الجارية على أن نزلت معهما، ودخلت بدخولهما، فظنا أن صاحب الدار دعاني، وظن صاحب الدار أني معهما.

فجلسنا، فأتي بالطعام فأكلنا، وبالشراب فوضع، وخرجت الجارية، وفي يدها عود، فرأيتها حسناء، وتمكن ما في قلبي منها، وغنت غناء صالحاً، وشربنا.

وقمت قومة للبول، فسأل صاحب المنزل من الفتيين عني، فأخبراه أنهما لا يعرفاني، فقال: هذا طفيلي، ولكنه ظريف، فأجملوا عشرته.

وجئت، فجلست، وغنت الجارية في لحن لي:

ذكرتك إذ مرّت بنا أمّ شادن ::: أمام المطايا تستريب وتطمح
من المولعات الرمل أدماء حرّة ::: شعاع الضحى في متنها يتوضّح

فأدته أداءً صالحاً، ثم غنت أصواتاً فيها من صنعتي:

الطلول الدوارس ::: فارقتها الأوانس
أوحشت بعد أهلها ::: فهي قفر بسابس

فكان أثرها فيه أصلح من الأول، ثم غنت أصواتاً من القديم والمحدث، وغنت في أضعافها من صنعتي، في شعري:

قل لمن صدّ عاتبا ::: ونأى عنك جانبا
قد بلغت الذي أرد ::: ت وإن كنت لاعبا
واعترفنا بما أدّعيـ ::: ـت وإن كنت كاذبا

فكان أصلح ما غنته، فاستعدته منها لأصححه لها، فأقبل علي رجل منهم، فقال: ما رأيت طفيلياً أصفق منك وجهاً، لم ترض بالتطفيل حتى اقترحت، وهذا تصديق للمثل: طفيلي ويقترح، فأطرقت، ولم أجبه، وجعل

صاحبه يكفه عني، فلا يكف.

ثم قاموا إلى الصلاة، وتأخرت، فأخذت العود وشددت طبقته، وأصلحته إصلاحاً محكماً، وعدت إلى موضعي، فصليت، وعادوا، وأخذ الرجل في عربدته علي، وأنا صامت.

وأخذت الجارية العود، وجسته، فأنكرت حاله، وقالت: من مس عودي؟ فقالوا: ما مسه أحد.

قالت: بلى، والله، قد مسه حاذق متقدم، وشد طبقته، وأصلحه إصلاح متمكن من صنعته.

فقلت لها: أنا أصلحته.

قالت: بالله عليك، خذه، فاضرب به.

فأخذته، وضربت به مبدأ عجيباً، فيه نقرات محركة، فما بقي في المجلس أحد إلا وثب فجلس بين يدي.

وقالوا: بالله عليك يا سيدنا، أتغني؟ قلت: نعم، وأعرفكم نفسي أيضاً، أنا إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وإني - والله - لأتيه على الخليفة، وأنتم تشتموني اليوم، لأني تملحت معكم بسبب هذه الجارية، ووالله، لا نطقت بحرف، ولا جلست معكم، أو تخرجوا هذا المعاند.

ونهضت لأخرج، فتعلقوا بي، فلم أرجع، فلحقتني الجارية، فتعلقت بي، فلنت، وقلت: لا أجلس، حتى تخرجوا هذا البغيض.

فقال له صاحبه: من هذا كنت أخاف عليك، فأخذ يعتذر.

فقلت: أجلس، ولكني، والله، لا أنطق بحرف وهو حاضر، فأخذوا بيده، فأخرجوه.

فبدأت أغني الأصوات التي غنتها الجارية من صنعتي، فطرب صاحب البيت طرباً شديداً، وقال: هل لك في أمر أعرضه عليك؟ فقلت: وما هو؟ قال: تقيم عندي شهراً، والجارية لك بما لها من كسوة.

فقلت: أفعل.

فأقمت عنده ثلاثين يوماً، لا يعرف أحد أين أنا، والمأمون يطلبني في

كل موضع، فلا يعرف لي خبراً.

فلما كان بعد ذلك، سلم إلي الجارية والخادم، وجئت بها إلى منزلي، وكان أهل منزلي في أقبح صورة لتأخري عنهم.

وركبت إلى المأمون من وقتي، فلما رآني، قال لي: يا إسحاق، ويحك، أين كنت؟ فأخبرته بخبري.

فقال: علي بالرجل الساعة، فدللتهم على بيته، فأحضر، فسأله المأمون عن القصة، فأخبره بها.

فقال: أنت ذو مروءة، وسبيلك أن تعان عليها، فأمر له بمائة ألف درهم.

وقال: لا تعاشر ذلك المعربد السفل.

فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين.

وأمر لي بخمسين ألف درهم، وقال لي: أحضر الجارية، فأحضرته إياها، فغنته.

فقال لي: قد جعلت لها نوبة كل يوم ثلاثاء، تغنيني من وراء الستارة، مع الجواري، وأمر لها بخمسين ألف درهم.

فربحت - والله - بتلك الركبة، وأربحت[1].

بعض صنائع البرامكة:

ومما وضع في بطون الدفاتر، واستحسنته عيون البصائر، ونقلته الأصاغر عن الأكابر، ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال: طلبني أمير المؤمنين المأمون ليلةً، وقد مضى من الليل ثلثه، فقال لي: خذ معك فلاناً وفلاناً، وسماهما لي: أحدهما، علي بن محمد، والآخر، دينار الخادم، واذهب مسرعاً لما أقول لك، فإنه بلغني أن شيخاً يحضر ليلاً إلى آثار دور البرامكة، وينشد شعراً ويذكرهم ذكراً كثيراً ويندبهم ويبكي عليهم، ثم ينصرف فامض أنت وعلي ودينار حتى تردوا تلك الخرائب فاستتروا خلف بعض الجدران، فإذا الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٣٤٨، ٣٤٩.

أبياتاً فآتوني به.

قال: فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرائب، فإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساطٌ وكرسي حديد، وإذا شيخ قد جاء وله جمال وعليه مهابة ولطف، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول هذه الأبيات:

ولما رأيت السيف جندل جعفراً ::: ونادى منادٍ للخليفة يا يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي ::: عليهم وقلتٌ الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها. فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعاً شديداً وقال: دعوني حتى أوصي بوصية فإني لا أوقن بعدها بحياة.

ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية وسلمها إلى غلامه ثم سرنا به، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين قال: حين رآه: من أنت، وبم استوجبت منك البرامكة ما تفعله في خرائب دورهم؟ قال الخادم: ونحن نستمع.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن للبرامكة أيادي خضرة عندي، أفتأذن لي أن أحدثك بحالي معهم؟ قال: قل.

فقال: يا أمير المؤمنين؟؟! أنا المنذر بن المغيرة، من أولاد الملوك، وقد زالت عني نعمتي، كما تزول عن الرجال، فلما ركبني الدين، واحتجت إلى بيع ما على رأسي ورؤوس أهلي وبيتي الذي ولدت فيه، أشاروا علي بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبيًّا وصبية، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب، حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت ببعض ثياب كنت أعددتها لأستتر بها، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعاً لا شيء عندهم، ودخلت شوارع بغداد سائلاً عن البرامكة، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخ بأحسن زي وزينة، وعلى الباب خادمان، وفي الجامع جماعة جلوس، فطمعت في القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم، وأنا أقدم رجلاً وأوخر أخرى، والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد،

فدخلت معهم، وإذا بيحيى جالس على دكة له وسط بستان، فسلمنا، وهو يعدنا مائة وواحداً، وبين يديه عشرة من ولده، وإذا بأمرد نبت العذار في خديه قد أقبل من بعض المقاصير، وبين يديه مائة خادم متمنطقون، في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، مع كل خادم مجمرة من ذهب، في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر، وقد قرن به مثله من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام، وجلس إلى جنب يحيى، ثم قال للقاضي: تكلم وزوج ابنتي عائشة من ابن أخي هذا. فخطب القاضي خطبة النكاح وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر، فالتقطت، والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت، وإذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر، وإذا بمائة واثني عشر خادماً قد أقبلوا ومع كل خادم صينية من فضة، على كل صينية ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يضعون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدي لا أجسر على أخذ الصينية، فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي والصينية في يدي وقمت وجعلت أتلفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب، فبينما أنا كذلك إلى أن وصلت إلى صحن الدار، ويحيى يلاحظني، فقال للخادم: ائتني بهذا الرجل، فأتيته، فقال: ما لي أراك تلتفت يميناً وشمالاً؟ فقصصت عليه قصتي فقال للخادم: ائتني بولدي موسى، فأتاه به. فقال له: يا بني! هذا رجل غريب، فخذه إليك واحفظه بنفسك وبنعمتك.

فقبض موسى ولده على يدي وأدخلني إلى دار من دوره فأكرمني غاية الإكرام، وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش وأتم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه العباس، وقال له: الوزير أمرني بالعطف على هذا الفتى، وقد علمت اشتغالي في بيت أمير المؤمنين، فاقبضه إليك، وأكرمه.

ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام ثم لما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني مدة عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني أفي الأموات هم أم في الأحياء، فلما كان اليوم الحادي

عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا: قم فاخرج إلى عيالك بسلام.

فقلت: وا ويلاه، أسلب الدنانير والصينية، وأخرج على هذه الحالة؟ إنا لله وإنا إليه راجعون.

فرفع الستر الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادم الستر الأخير قال لي: مهما كان لك من الحوائج فارفعها إلي فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به.

فلما رفع الستر الأخير رأيت حجرة كالشمس حسناً ونوراً واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك، وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج، وحمل إلي مائة ألف درهم، وعشرة آلاف دينار، ومنشور بضيعتين، وتلك الصينية التي كنت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقمت يا أمير المؤمنين، مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب، فلما جاءتهم البلية ونزل بهم يا أمير المؤمنين، من الرشيد ما نزل أجحف بي عمرو بن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل علي الدهر كنت في آخر الليل أقصد خرائب دورهم، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إلي وأبكي على إحسانهم.

فقال المأمون: علي بعمرو بن مسعدة.

فلما أتي به قال له: تعرف هذا الرجل؟ قال: يا أمير المؤمنين، هو بعض صنائع البرامكة.

قال: كم ألزمته في ضيعتيه؟ قال: كذا وكذا.

فقال له: رد إليه كل ما أخذته منه في مدته، وأفرغهما له ليكونا له ولعقبه من بعده.

قال: فعلا نحيب الرجل، فلما رأى المأمون كثرة بكائه قال له: يا هذا! قد أحسنا إليك، فما يبكيك؟ قال: يا أمير المؤمنين، وهذا أيضاً من صنيع البرامكة، لو لم آت خرائبهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري إلى أمير المؤمنين، ففعل بي ما فعل من أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين؟ قال

إبراهيم ابن ميمون: فرأيت المأمون، وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه وقال: لعمري هذا من صنائع البرامكة، فعليهم فابك، وإياهم فاشكر، ولهم فأوف ولإحسانهم فاذكر، انتهى.

المأمون والورد:

وقال إسحاق: دخلت يوماً على المأمون في زمن الورد، فقال لي: يا إسحاق! هل قلت شيئاً في الورد؟ قلت: أقول بسعادة أمير المؤمنين.

وفكرت ساعة فلم تسمح قريحتي في ذلك الوقت بشيء، فخرجت من عنده وبقيت ليلتي ساهراً متفكراً، فلم يفتح علي بشيء، فلما أصبحت غدوت إلى دار الخلافة، وإذا غلام الفضل بن مروان على باب المأمون، ومعه سبع وردات على صينية فضة، ينتظر الإذن في الدخول بها عليه، فسألته المهلة بها قليلاً، فامتنع، سألته ثانياً، وقلت: أمهل قليلاً، ولك بكل وردة دينار.

فأجابني إلى ذلك فدفعت له سبعة دنانير، وأحببت أن لا يصل إليه الورد قبل وصول الشعر، وخرجت أقصد الأزقة لعلي أسمع شيئاً من أحد أو ينبعث خاطري ولو ببيت واحد، فبينما أنا كذلك وإذا أنا برجل يغربل التراب وهو ينشد ويقول:

اشرب على ورد الخدود فإنه ::: أزهى وأبهى، فالصبوح يطيب
ما الورد أحسن من تورد وجنة ::: حمراء جاد بها عليك حبيب
صبغ المدام بياضها فكأنه ::: ذهبٌ بقالب فضة مضروب

فلما سمعته نزلت عن دابتي، ودخلت مسجداً بالقرب منه وطلبته، فلما أقبل سألته أن يمليها علي فاعتل، وقال: إن أردت فأعطني بكل بيت عشرة دنانير، فدفعتها له واستمليتها منه ثم عدت أنا وغلام الفضل بن مروان، وإذا بالمأمون يشرب من وراء الستارة، فلما جسيت العود قال لجواريه: اسكتن، فقد جاء إسحاق، فقدمت ذلك الورد بين يديه وأنشدت الأبيات فسمعت الشهيق والزفير من وراء الستارة ثم أخرج إلي بدرةٌ فيها عشرة آلاف درهم، فأعدت الأبيات، فأخرج إلي بدرة أخرى، فأعدت الثالثة فأخرج إلي بدرة ثالثة، فأخذت في غير الشعر، فخرج إلي خادم

وقال: يقول لك أمير المؤمنين: لو دمت على إنشادك لدمنا على البدرة ولو إلى الليل، انتهى من حلية الكميت[1].

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه:

ويحكى عن العباس صاحب شرطة المأمون، قال: دخلت إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد يوماً، وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فقال لي: يا عباس؟ قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: خذ هذا إليك فاستوثق به واحتفظ عليه وبكر به إلي في غد واحترز عليه كل الاحتراز.

قال العباس: فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي، فلما تركوه في داري أخذت أسأله عن قضيته وحاله ومن هو؟ فقال: أنا من دمشق.

فقلت: جزى الله دمشق خيراً، فمن أنت من أهلها؟.

قال: وعمن تسأل؟ قلت: أوتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل؟ فقلت: وقعت لي معه قضية.

فقال: ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه؟ فقلت: ويحك! كنت مع بعض الولاة بدمشق فسمعت أهلها، وقد خرجوا علينا حتى أن الوالي خرج في زنبيل من قصر الحجاج، وهرب هو وأصحابه، وهربت في جملة القوم، فبينما أنا هارب في بعض الدور، وإذا بجماعة يعدون، فما زلت أعدو أمامهم حتى تجاوزتهم، ومررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالس على باب داره، فقلت: يا هذا أغثني أغاثك الله؟ قال: لا بأس عليك ادخل الدار.

فدخلت، فقالت لي زوجته: ادخل تلك المقصورة.

فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار، فما شعرت إلا وقد دخل، والرجال معه يقولون هو والله عندك.

---

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٩٠.

فقال: دونكم الدار فتشوها.

ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها، فقالوا: ها هو هنا.

فصاحت بهم المرأة ونهرتهم، فانصرفوا، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة، وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك.

فجلست، فلم ألبث حتى دخل الرجل، فقال: لا تخف فقد صرف الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله.

فقلت: جزاك الله خيراً.

فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها وأفرد لي مكاناً من داره ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالي، فأقمت عنده أربعة أشهر في أتم عيشٍ وأرغده إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها، فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني، فلعلي أقف منهم على خبر.

فأخذ علي المواثيق بالرجوع إليه، فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته بالخبر، وهو مع هذا كله لا يعرفني بنفسه ولا يعرف من أنا، فقال لي: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد.

قال: إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج.

فقلت له: إنك قد تفضلت علي هذه المدة، لك علي عهد الله إنني لا أنسى لك هذا الفضل ولأوفينك مهما استطعت.

قال: فدعا بغلام أسود وقال له: أنعل الفرس الفلاني، ثم جهز آلة السفر فقلت في نفسي: ما أشك أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحي. فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاء في السحر، فقال: يا فلان! قم، فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها.

فقلت في نفسي: كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكتري به

مركباً، ثم قمت، فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر اللباس وخفين جديدين وآلة السفر، ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي، ثم قدم لي غلاماً وعلى كتفه صرتان وفوقهما مرتبة السفر وسجادة من أفخر ما يكون، وأعلمني بما في الصرتين أنه خمسة آلاف درهم، وشد لي الفرس الذي أنعله بسرجه ولجامه، وقال لي: اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك، وأقبل هو وامرأته يعتذران إلي من التقصير في أمري وركب معي من يشيعني، وانصرفت إلى بغداد، وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته، واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أقدر أن أتفرغ إلى أن أرسل إليه من يكشف خبره، فلهذا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: قد أمكنك الله من الوفاء له ومكافأته على فعله ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك.

فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضر الذي أنا فيه قد غير عليك حالي وما كنت تعرفه مني، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه، ثم قلت له: فما الذي صيرك إلى ما أرى؟ قال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إلي، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فضبطوا البلد فأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت، وقيدت وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم، وهو قاتلي لا محالة، وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من ينصرف إليهم بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة وقمت بوفاء عهدك.

قال العباس: فقلت يصنع الله خيراً.

ثم أحضر حداداً في الليل وفك قيوده، وزال ما كان عليه من الأنكال، وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سير من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه وقال: علي بفرسي الفلاني والبغل الفلاني والبغلة الفلانية حتى عد عشرة، ثم عشرة من الصناديق، ومن الكسوة كذا وكذا.

قال ذلك الرجل: وأحضر لي بدرة فيها عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار، وقال لعامله في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار.

فقال له: إن ذنبي عظيم عند أمير المؤمنين وخطبي جسيم، وإن أنت احتجيت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأرادوا قتلي.

فقال: انج بنفسك ودعني أدبر أمري.

فقال: والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت.

فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يكون، فليكن في موضع كذا وكذا، فإن أنا سلمت في غداة غدٍ أعلمته، وإن أنا قتلت وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه، وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم، وتجتهد في إخراجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان يثق به، وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفناً.

قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون في طلبي يقولون: يقول لك أمير المؤمنين: هات الرجل معك وقم.

قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين وإذا هو جالس وعليه كآبة، فقال: أين الرجل؟ فسكت، فقال: ويحك أين الرجل؟ فسكت، فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني ما أقول.

فقال: لله علي عهد، لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك.

فقلت: لا والله، يا أمير المؤمنين إنه ما هرب، ولكن اسمع حديثي معه كيت وكيت، وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي، وقلت: أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عني، وقد وفيت وكافأت، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنطت، وها كفني يا أمير المؤمنين.

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويحك، لا جزاك الله خيراً عن نفسك،

إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير؟ هلا عرفتني خبره، فكنت أكافئه عنك ولا أقصر بوفائي له؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا، وقد حلف أنه لا يبرح حتى يعرف سلامتي، فإن احتجت إلى حضوره حضر.

فقال المأمون: وهذه منة أعظم من الأولى، اذهب الآن فطيب نفسه وسكن روعه وائتني به حتى أتولى مكافأته عنك.

قال: فأتيت إليه وقلت: ليزل عنك حزنك، إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت.

فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء أحد سواه. ثم قام فصلى ركعتين، ثم أتيت به إلى أمير المؤمنين، فلما مثل بين يديه أقبل عليه وأدنى مجلسه وحدثه حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى عنها، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها، وعشرة بغال بآلاتها، وعشر بدر، وعشرة آلاف دينار، وعشرة مماليك بدوابهم، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وأطلق خراجه، وأمر بمكاتبته بأحوال دمشق، فصارت كتبه تصل إلى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي: يا عباس هذا كتاب صديقك، والله أعلم[1].

المأمون وزنبيل بوران:

ويحكى عن إسحاق الموصلي أنه قال: خرجت ليلة من عند المأمون متوجهاً إلى بيتي، فأحسست بالبول، فعمدت لزقاق، وقمت لأتمسح بالحيطان، وإذا بزنبيل كبير بأربعة آذان ملبس ديباجاً، فقلت: إن لهذا سبباً وبقيت متحيراً في أمره، فحملني السكر وقال لي: اجلس فيه، فجلست، فلما أحس بي الذين كانوا يرقبونه جذبوه إلى رأس الحائط، فإذا أنا بأربع جوار يقلن لي: انزل بالرحب والسعة ومشت بين يدي جارية بشمعة حتى نزلت إلى دار ومجالس مفروشة لم أر مثلها إلا في دار الخلافة فجلست، فما شعرت بعد ساعة إلا بستور قد رفعت في ناحية من الجدران، وإذا

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٩١، ٩٢.

بوصائف يتمشين وفي أيديهن الشمع وبعض مجامر يحرق فيهن العود وبينهن جارية كأنها البدر الطالع، فنهضت وقالت: مرحباً بك من زائر وجلست، ثم سألتني عن خبري فقلت: انصرفت من عند بعض إخواني وغرني الوقت وحرقني البول، فعمدت إلى هذا الزقاق، فوجدت زنبيلاً معلقاً، فحملني السكر على أن جلست فيه، فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبنيه.

قالت: لا ضير، وأرجو أن تحمد عاقبة أمرك، ثم قالت: فما صناعتك؟ قال: بزازاً ببغداد.

فقالت: هل رويت من الأشعار شيئاً؟ قلت: شيئاً ضعيفاً.

قالت: فذاكرنا شيئاً.

قلت: إن للداخل حشمةً، ولكن تبدئين أنت.

قالت: صدقت، فأنشدتني شعراً لجماعة من القدماء والمحدثين من أجود أقاويلهم، وأنا مستمع لا أدري مم أعجب من حسنها أم حسن روايتها؟ ثم قالت: أذهب ما كان فيك من الحصر؟ قلت: إي والله.

قالت: فإن رأيت أن تنشدنا.

فأنشدتها شيئاً لجماعة من القدماء ما فيه مقنع، فاستحسنت ذلك، ثم قالت: والله ما ظننت أنه يوجد في أبناء السوقة هذا، ثم أمرت بالطعام فأحضر، فجعلت تقطع وتضع قدامي، وفي المجلس من صنوف الرياحين وغريب الفواكه ما لا يكون إلا عند السلطان، ودعت بالشراب، فشربت قدحاً، ثم ناولتني قدحاً، ثم قالت: هذا أوان المذاكرة والأخبار، فاندفعت أذاكرها وقلت: بلغني أن كذا وكذا، وكان رجل يقال له كذا، حتى أتيت على عدة أخبار حسان، فسرت بذلك وقالت: كثر تعجبي أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا، وإنما هذه أحاديث ملوك.

فقلت: كان لي جار يحادث الملوك وينادمهم، وإذا تعطل حضرت معه فربما حدثت بما سمعت.

فقالت: لعمري، لقد أحسنت الحفظ وما هذه إلا قريحة جيدة.

وأخذنا في المذاكرة، إذا سكت ابتدأت هي، وإذا سكتت ابتدأت أنا حتى قطعنا أكثر الليل وبخور العود يعبق، وأنا في حالة لو توهمها

المأمون لطار شوقاً إليها، فقالت: إنك من أرق الرجال، وضيء الوجه بارعٌ في الأدب وما بقي إلا شيء واحد؟ قلت: وما هو؟ قالت: لو كنت تترنم ببعض الأشعار؟ قلت: والله لقديماً كنت ألفته ولم أرزقه وأعرضت عنه، وفي قلبي من حرارة، ولو كنت أحب في مثل هذا المجلس شيئاً منه لتكمل ليلتي.

قالت: كأنك عرضت.

فقلت: والله ما هو تعريض قد بدأت بالفضل، وأنت جديرة بذلك.

فأمرت بعود فحضر، وغنت بصوت ما سمعت بحسنه مع حسن أدبها وجودة الضرب بالكمال الراجح، ثم قالت: هل تعرف هذا الصوت ومن غنى به؟ قلت: لا.

قالت: الشعر لفلان والغناء لإسحاق.

قلت: وإسحاق هذا جعلت فداك بهذه الصفة؟ قالت: بخ بخ! إسحاق بارع في هذا الشأن.

فقلت: سبحان الله أعطي هذا الرجل ما لم يعطه أحد؟ قالت: فكيف لو سمعت هذا الصوت منه.

ثم لم تزل على ذلك حتى إذا كان الفجر أقبلت عجوزٌ كأنها داية لها، وقالت: إن الوقت قد حضر، فنهضت عند قولها، فقالت: لتستر ما كنا فيه فإن المجالس بالأمانات.

قلت: جعلت فداك لم أكن أحتاج إلى وصية في ذلك.

فودعتها، وجارية بين بني يدي إلى باب الدار ففتح لي فخرجت ورحت إلى داري، فصليت الصبح ونمت، فانتهى رسول المأمون إليَّ فسرت إليه وأقمت عنده نهاري، فلما كان العشاء تفكرت فيما كنت فيه البارحة، وهذا شيء لا يصبر عليه إلا جاهل، فخرجت وجئت إلى الزنبيل، فوجدته على عادته، فجلست فيه ورفعت إلى موضع البارحة، وإذا هي قد طلعت، فقالت: لقد عاودت.

فقلت: ولا أظن إلا أنني قد ثقلت.

وأخذنا في المحادثة مثل تلك الليلة السالفة في المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها إلى الفجر. فانصرفت إلى منزلي، فصليت الصبح، ونمت. فانتهى رسول أمير المؤمنين إليَّ فمضيت إليه وأقمت نهاري عنده، فلما كانت العشية توجه إلي مخاطباً، وقال: أقسمت عليك لتجلسن حتى أجيء وأحضر، فما كان حتى أن غاب وجالت وساوسي، فلما تذكرت ما كنت فيه هان علي ما يخصني من أمير المؤمنين، فوثبت مبادراً وخرجت جارياً حتى أتيت الزنبيل، فجلست فهي فرفعت إلى مجلسي، فقالت: صديقنا.

قلت: إي والله.

قالت: أجعلتها دار إقامة؟ قلت: جعلت فداك حق الضيافة ثلاثة أيام، فإن رجعت بعد ذلك، فأنتم في حل من دمي.

ثم جلسنا على ذلك الحال فلما قرب الوقت علمت بأن المأمون لا بد أن يسألني، فلا يقنع إلا بشرح القصة فقلت: أنا أراك ممن يعجب بالغناء ولي ابن عم أحسن مني وجهاً، وأظرف قدًّا وأكثر أدباً وأطيب أرجاً، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق.

فقالت: طفيلي وتقترح.

قلت لها: أنت المحكمة.

ثم قالت: إن كان ابن عمك على ما تصف فما نكره معرفته.

ثم جاء الوقت فنهضت وقمت وذهبت، فلم أصل إلى داري إلا ورسل أمير المأمون قد هجموا علي وحملوني حملاً عنيفاً فوجدته قاعداً على كرسي وهو مغتاظ فقال: يا إسحاق، أخروجاً عن الطاعة؟ قلت: لا والله.

قال: فما قصتك اصدقني؟ قلت: نعم في خلوة.

فأومأ إلى من بين يديه فتنحوا، فحدثته الحديث وقلت له: وعدتها بك.

قال: أحسنت فأخذنا في لذتنا ذلك اليوم، والمأمون معلق القلب بها، فما صدقنا أن جاء الوقت وسرنا، وأنا أوصيه وأقول له: تجنب واحذر أن تناديني باسمي بحضرتها، وغن وأنا لك تبع وهو يقول: نعم، ثم سرنا إلى الزنبيل فوجدناهما اثنين، فقعدنا فيهما ورفعنا إلى الموضع المعهود،

فحضرت وأقبلت وسلمت، فلما رآها المأمون بهت في حسنها وجمالها وأخذت تذاكره وتناشده الأشعار، ثم أحضرت النبيذ فشربنا، وهي مقبلة عليه مسرورة به، وهو أكثر، فأخذت العود وغنت صوتاً، ثم قالت: وابن عمك هذا من التجار، وأشارت إلي.

قلت: نعم.

قال: والله إنكما لقريبان.

فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب، فصاح وقال: يا إسحاق! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: عن هذا الصوت؟ فلما علمت أنه الخليفة نهضت إلى مكان فدخلته، فلما فرغت من الصوت قال: انظر من رب هذه الدار؟ فبادرت العجوز وقالت: للحسن بن سهل.

فقال: علي به.

فغابت العجوز ساعة، وإذا الحسن قد حضر.

فقال له المأمون: ألك ابنة؟ قال: نعم.

قال: ما اسمها؟ قال: بوران.

قال: أمتزوجة؟ قال: لا والله.

قال: فإني أخطبها منك.

قال: هي جاريتك وأمرها إليك.

قال: قد تزوجتها على نقد ثلاثين ألفاً، تحمل إليك صبيحة يومنا هذا، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتنا.

قال: نعم. ثم خرجنا فقال: يا إسحاق لا توفق على هذا الحديث أحداً.

فسترته إلى أن مات المأمون فما اجتمع لأحد مثل ما اجتمع لي في تلك الأربعة أيام مجالسة المأمون بالنهار وبوران بالليل، ووالله ما رأيت أحداً من الرجال مثل المأمون ولا شاهدت امرأة تقارب بوران فهماً

وعقلاً والله تعالى أعلم، انتهى من حلية الكميت [١].

المأمون والفتاة العربية:

عن أبي عبد الله النميري أنه قال: كنت يوماً مع المأمون، وكان بالكوفة، فركبت للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة فأطلق عنان فرسه وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر من ماء بحر الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قائمة النهد، كأنها القمر ليلة تمامه، وبيدها قربة قد ملأتها من النهر، ورفعتها على كتفها، وصعدت من حافة النهر، فانحل وكاؤها، فصاحت برفيع صوتها: يا أبت! أدرك فاها، قد غلبني فوها، لا طاقة لي بفيها.

قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت القربة من يدها، فقال لها المأمون: يا جارية من أي العرب أنت؟ فقالت: أنا من بني كلاب.

قال: وما حملك أن تكوني من الكلاب؟ قالت: والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لئام، يقرون الضيف، ويضربون بالسيف، ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت؟ قال: أوعندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم.

قال: أنا من مضر الحمراء.

قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسباً وأعظمها حسباً وخيرها أمًّا وأباً، مما تهابه مضر وتخشاه.

قالت: أظنك من كنانة؟ قال: أنا من كنانة.

قالت: من أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً وأطولها في المكرمات يداً، ممن تهابه كنانة وتخشاه.

قالت: والله أنت من بني هاشم؟ قال: أنا من بني هاشم.

قالت: من أي هاشم؟ قال: من أعلاها منزلةً وأشرفها قبيلةً ممن تهابه هاشم وتخشاه.

قال: فعند ذلك قبلت الأرض وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين.

---

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٩٢، ٩٣.

قال: فتعجب المأمون منها وطرب طرباً شديداً، ثم قال: لأتزوجن بها لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى التحق به العسكر، فنزل وأرسل خلف أبيها وخطبها منه، فزوجه بها، وهي والدة العباس، والله أعلم[1].

أخلاق المأمون:

من محاسن الأخلاق، ما حكي عن القاضي يحيى بن أكثم قال: كنت نائماً ذات ليلة عند المأمون، فعطش، فامتنع أن يصيح لغلام يسقيه، وأنا نائم فينغص علي نومي، فرأيته وقد قام يتمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء، وكان بينه وبين الماء نحو ثلاثمائة خطوة، ثم رجع يتمشى على أطراف أصابعه حتى وصل إلى الفراش الذي أنا عليه، وخطا خطوات لطيفة لئلا ينبهني حتى وصل إلى فراشه، ثم رأيته آخر الليل، وقد قام يبول، فقعد طويلاً يحاول أن أتحرك فيصيح للغلام، فلما تحركت وثب قائماً وصاح بالغلام وتأهب للصلاة ثم جاءني وقال: كيف أصبحت يا أبا محمد، وكيف مبيتك؟ قلت: بخير مبيت جعلني الله فداك.

قال: لقد استيقظت للصلاة، فكرهت أن أصيح للغلام فأزعجك.

فقلت: يا أمير المؤمنين، لقد خصك الله بأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ووهب لك سيرتهم، فهناك الله بهذه النعمة، وأتمها عليك.

فأمر لي بألف دينار وانصرفت.

حلم المأمون:

وحدث سليمان الوراق قال: ما رأيت أعظم حلماً من المأمون، دخلت عليه يوماً وفي يده فص مستطيل من ياقوت أحمر له شعاع قد أضاء له المجلس، وهو يقلبه بيده ويستحسنه، ثم دعا برجل صائغ وقال له: اصنع بهذا الفص كذا وكذا ونزل فيه كذا وكذا، وعرفه كيف يعمل به، فأخذه الصائغ وانصرف ثم عدت إلى المأمون بعد ثلاث فتذكره فاستدعى الصائغ، فأتي به، وهو يرعد وقد امتقع لونه. فقال المأمون: ما فعلت بالفص؟ فتلجلج الرجل ولم ينطق بكلام، ففهم المأمون بالفراسة أنه حصل فيه خلل، فولى وجهه عنه، حتى سكن جأشه، ثم التفت إليه وأعاد القول.

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٩٤.

فقال: الأمان يا أمير المؤمنين.

قال: لك الأمان.

فأخرج الفص أربع قطع وقال: يا أمير المؤمنين، سقط من يدي على السندال فصار كما ترى.

فقال المأمون: لا بأس عليك، صنع به أربع خواتم، وألطف له في الكلام حتى ظننت أنه كان يشتهي الفص على أربع قطع. فلما خرج الرجل من عنده، قال: أتدرون كم قيمة هذا الفص؟ قلنا: لا، قل: اشتراه الرشيد بمائة ألف وعشرين ألفاً، انتهى[1].

ومن حلمه أيضاً. قال يحيى: كنت أنا والمأمون يوماً في بستان ندور فيه فمشينا في البستان من أوله إلى آخره، وكنت مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجذبني أن أكون في الظل وهو في الشمس، فأمتنع من ذلك، فإذا رجعنا قال لي: والله يا يحيى لتكونن في مكاني ولأكونن في مكانك، حتى آخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك منها.

فقلت: والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيك من هول المطلع لفعلت.

ولم يزل بي حتى تحولت إلى الظل وتحول هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقي وقال: بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت، فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف. ومن حلمه أيضاً، أنه كان له خادم يسرق طاساته التي يتوضأ فيها فقال له المأمون: إذا سرقت شيئاً فائتني بما تسرقه، فأشتريه منك.

فقال له الخادم: اشتر مني هذه، وأشار إلى التي بين يديه.

فقال: بكم؟

قال: بدينارين.

قال: على شرط أنك لا تسرقها.

---

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٩٥.

قال: نعم.

فأعطاه دينارين، فلم يعد الخادم يسرق بعدها شيئاً لما رأى من حلمه، والله أعلم.

الطفيلي الأديب والمأمون:

وروى بعض أهل الأدب أن فتى من أهل الكوفة قد فاق أهل زمانه في الأدب والبيان والفصاحة باللسان ناقداً في صناعته، حافظاً للأقدار، راوياً للأشعار، خبيراً بسير الملوك في الأيام السالفة، بصيراً بالبحث عن أمورهم في الأيام الآنفة، حاذقاً في التصنيف، فائقاً في التأليف، صبيح الوجه، مقبول المشاهد، حلو الشمائل، وكان مع ذلك لا يتوجه له وجه من العمل إلا عارضه فيه عائق، وحال دونه حائل وقدر سابق، فبقي حيناً من الدهر، وقد برز في القدر والمال والجاه من كان عنده في الصناعة متأخراً، فضاق صدره وعيل صبره وضلت وّمقاليده، فخرج إلى بغداد واكترى في بعض خاناتها منزلاً وأجمع رأيه على أن يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكه أو ملكه، وتربص لذلك أن يرى وجهاً إلى أن عزم أمير المؤمنين أن يشرب يوماً هو وصنوه المعتصم، فأمر المأمون بالاستعداد ليوم سماه ليخلو فيه مع الجواري، منفردين عن سائر الندماء، فظهر خبرهما بذلك. وعرف الناس ذلك اليوم الذي عزم عليه، فعزم هذا الأديب المذكور على أن يتطفل في ذلك على المأمون وأخيه المعتصم، فمضى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وردية، ومن آخر منطقة وخفاً وسيفاً، ومن آخر برذوناً، ومن آخر ما يحتاج إليه من الطيب واستعد لذلك اليوم، ودخل الحمام سحراً، وتطيب، ولبس وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب: عرف الأمير أني رسول أمير المؤمنين واستأذن لي عليه.

فسعى الحاجب عدواً حتى أخبر المعتصم، فأذن له. فلما دخل عليه، وتمثل بين يديه، قال له: سيدي إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك: أنسيت الوعد، ألم يقدم إليك بالركوب لنخلو ونستريح يومنا هذا؟ قال المعتصم: لا والله ما نسيت ذلك، ولكن تربصت ساعة. ونمت نوماً لأتقوى بذلك على انتصاب سائر النهار.

فقال الفتى: فعجل الآن أيها الأمير، فإنه أمرني أن لا أفارقك حتى آتيه بك.

فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع في التأهب، ولبس ثيابه وتطيب وركب الفتى معه، والمعتصم لا ينكر شيئاً من كلام الفتى ويتأمل لطافته وهيئته، ولم يتوهم إلا نه من بعض خواص المأمون، وأخذ الفتى يحدث المعتصم وأقبل عليه بكليته، ولم يتمكن من سؤاله شهوة لاستماع حديثه، حتى بلغ باب الخليفة فألقى الفتى نفسه عن دابته، وأخذ يمشي بين يديه، والحجاب لا ينكرون منه شيئاً ويظنون نه من خدم المعتصم، حتى نزل المعتصم، وأخذ الفتى بركابه، ودخل المجلس، فلما استقر المعتصم في مجلسه جلس الفتى بين يديه، وهو منهمك في نوادره وأخباره والمعتصم مصغ إليه تعجباً مما يسمع من حسن كلامه، وأخبر المأمون أن المعتصم قد وصل ومعه رقيق لا يعرف من هو.

فقال المأمون: أخي قد عرف أن هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغي أن يحضره أحد من الناس إلا من هو عديل النفس. وقد أحسن أخي إذ جعل لنا ثالثاً، فإن المجلس إذا لم يحضره أكثر من اثنين تعطل لقيام أحدهما إلى الصلاة وإلى ما لا بد منه، ثم خرج من ساعته فرحاً وليس له همة إلا تصفح وجه الغلام واستنطاقه واعتبار قده وعقله، فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع في نفس المأمون نهض قائماً فقبل يد المأمون، وعاد إلى مجلسه وأخذ في نوادره وحديثه ومضحكاته وحسن أخباره وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر، وهو مع ذلك يوهم المأمون أنه من خواص المعتصم. فساعة يكنيه وساعة يسميه حتى غلب على قلب المأمون، وأظهر الحسد لأخيه في صحبة مثل هذا الغلام وكلامه، وأمر المأمون بإحضار المائدة، فنصبت بأنواع الطعام، فأكلوا وغسلوا أيديهم، ولمجلس الشراب انتقلوا، وأمر المأمون بإحضار الجواري من غير ستارة، فحضرن وأخذن في الغناء، فما من صوت يمر إلا والفتى عارف به، وبالغناء، ومتى قيل وفيمن قيل، فعز في عين المأمون حتى ملأ عينه، وتزايد حسده لأخيه في صحبة مثله فمس الفتى بولٌ، ولم يجد للمدافعة سبيلاً، فقام وهو متيقن أنهما سيذكرانه، ويتواصفان أمره وحاله، إذا خلا

المجلس، فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما حتى قال المأمون لأخيه المعتصم يا أبا إسحاق من صاحبك هذا؟ فوالله ما رأيت رجلاً قط أكثر منه أدباً ولا أنظف هيئة ولا أشرف من شمائله.

فقال المعتصم: والله ما أعلم من هو، وإنما جاءني مبكراً برسالة أمير المؤمنين.

فقال المأمون: سألتك بالله يا أخي أهو كذلك؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو.

فقال المأمون: طفيلي، ورب الكعبة، وغضب وأمر الجواري بالنهوض، فنهض وأقبل الفتى راجعاً فلما نظر إلى خلو المجلس من الجواري وإلى تغير وجه المأمون، وقف على رأس المجلس وأقبل بوجهه على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق! كأني بك قد أخذت في نوع الزور والبهتان، وهذا المجلس من المجالس التي لا تحمل المزاح، وما هكذا وعدتني. ثم قل: والله يا أمير المؤمنين، ما بليت من أحد من الناس مثل ما بليت من هذا لأنه دائماً أبداً يعرضني لمثل هذا وأشباهه، ويغري بي ويوقعني في كل ورطة.

ثم أقبل على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق، سألتك بالله وبحق أمير المؤمنين إلا ما أعفيتني من ملاعبتك التي لا تحتمل وتؤدي إلى مؤاخذة أمير المؤمنين.

ولم يزل يأتي بهذا وأمثاله حتى شك المأمون في أمره والتفت إلى أخيه المعتصم وقال: سألتك بالله يا أخي، بحياتي عليك إلا ما علمتني بحقيقة أمره؟ فقال المعتصم: يا أمير المؤمنين برئت من ذمة الله ورسوله ومن حياتك وولايتك إن كنت عرفه أو رأيته قط إلا في يومي هذا.

فقال الفتى: كذب والله يا أمير المؤمنين لقد كنت معه دهري الطويل وفي موضع كذا وكذا، وإن هذا فعله معي أبداً.

فضحك المأمون تعجباً، وقال: ادخل فدخل، وأمره بالجلوس فجلس، ثم قال لك الأمان إن صدقتني.

فصدقه الحديث على وجهه فأعجب من حسن منطقه ولطف مدخله

ودقيق تصرفه وأمر بإعادة الجواري إلى مجلسهن، فطربوا سائر يومهم. فقال له المأمون: أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة إلى بغداد واجعله نظماً ولا تكتم عني شيئاً.

فقال: نعم، ثم أنشأ يقول:

بينا أنا راقد في البيت مكتئب ::: مفكر في حصول الكد والقوت
وليس في البيت لي شيء ألم به ::: وبي من الجوع ما يدني إلى الموت
إذا بصوت بباب الدار أسمعه ::: والأذن مصغية مني إلى الصوت
ناديت من ذا الذي أرجوه لي فرجاً؟ ::: نادى: أنا فرجٌ زن لي كرا البيت

فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه، ثم ضرب برجله الأرض من شدة إعجابه وقال: ثم ماذا؟ قال: يا أمير المؤمنين فخرجت فإذا هو صاحب الخان يطالبني بالكراء، فوعدته بأن يرجع إلي مرة أخرى، فمضى ومضيت على وجهي لا أعلم أين أتوجه، فسألت كل من لقيته من صديق لي كنت أستأنس به فخطر على بالي بيتان من الشعر في ذلك وهما.

غريب الدار ليس له صديقٌ ::: جميع سؤاله: أين الطريق؟
تعلق بالسؤال لكل شخصٍ ::: كما يتعلق الرجل الغريق

فأشرفت يا أمير المؤمنين علي جارية كأنها البدر ليلة كماله، وهي تقول:

ترفق يا غريب فكل حر ::: يمر بحاله سعةٌ وضيق
وكل ملمةٍ إن أنت فيها ::: صبرت لها أتيح لها طريق

ثم قالت: خذ هذه فادفع بها فاقتك، فوالله ما هي إلا مؤاساة من قوت، ورمت إلى صدري بقرطاس، وإذا فيه عشرة دراهم، فرجعت من فوري، فوجدت صاحب الكراء قائماً على الباب، فدفعت إليه خمسة دراهم، واستعنت بالباقي إلى أن وقعت هذه القصة، وهذا الأمر الذي كلفني وحملني على ما فعلت وأنشأ يقول:

لم آتِ فعلاً غير مستحسن ::: جهلاً بفعل الأحسن الأملح
لكنني في حالة أوجبت ::: ضرورة إتيان مستقبح

فأعجب المأمون أمره واستحسنه وأمر له بمائة ألف درهم يصلح بها شأنه وألحقه بمراتب الخاصة، ورفعت منزلته، وصار أقرب الناس إليه، وآخر خارج من عنده وأول داخل إليه، وسمي طفيلي المعتصم، وأنشد للمأمون يوماً يقول:

كانت لقلبي أهواء مفرقة ::: فاستجمعت مذ رأتك العين أهوالي
تركت للناس دنياهم ودينهم ::: شغلاً بذكرك عن ديني ودنيائي
وصار يحسدني من كنت أحسده ::: وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

فاستحسن المأمون الأبيات، وأمر بكتبها على الستارة، وصار الفتى إذا حضر يوم سرور المأمون لم يكن للمأمون هم إلا اقتراح هذه الأبيات إلى أن ينقضي المجلس، ثم إن الفتى بعد أن حسنت حالته، أرسل إلى الدار التي أشرفت عليه منها الجارية، فإذا هي لرجل من أهل بغداد من مباشريها، وقد مات ولم يخلف ولداً سوى تلك الجارية، وما مات حتى تضعضع حاله، فأعلم المأمون بذلك، فمر بخطبتها للفتى ودفع المهر من عنده وصار الفتى والجارية في نعمة عظيمة بقية عمرهما والله أعلم[1].

رقة قلب المأمون:

وسرق شاب سرقة، فأتي به إلى المأمون فأمر بقطع يده فتقدم لتقطع يديه فأنشد الشاب يقول:

يدي، يا أمير المؤمنين، أعيذها ::: بعفوك أن تلقى نكالاً يشينها
فلا خير في الدنيا ولا راحةً بها ::: إذا ما شمالٌ فارقتها يمينها

وكانت أم الشاب واقفة على رأسه، فبكت وقالت: يا أمير المؤمنين إنه ولدي وواحدي، ناشدتك الله إلا رحمتني وهدأت لوعتي وجدت بالعفو عمن استحق العقوبة.

فقال المأمون: هذا حد من حدود الله تعالى.

فقالت: يا أمير المؤمنين! اجعل عفوك عن هذا الحد ذنباً من الذنوب التي تستغفر منها.

---

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٩٥، ٩٦.

فرق لها المأمون وعفا عنه.

المأمون ونذير الشؤم:

قال: رأيت في بعض المجاميع بخط بعض العلماء الأكابر أن المأمون أشرف يوماً من قصره فرأى رجلاً قائماً وبيده فحمة، وهو يكتب بها على حائط قصره، فقال المأمون لبعض خدمه: اذهب إلى ذلك الرجل، فانظر ما كتب وائتني به.

فبادر الخادم إلى الرجل مسرعاً وقبض عليه، وقال: ما كتبت؟ فإذا هو قد كتب هذين البيتين:

يا قصر جمع فيك الشوم واللوم ::: متى يعشش في أركانك البوم
يوم يعشش فيك البوم من فرحي ::: أكون أول من ينعاك مرغوم

ثم إن الخادم قال له: أجب أمير المؤمنين.

فقال الرجل: سألتك بالله لا تذهب بي إليه.

فقال الخادم: لا بد من ذلك.

ثم ذهب به فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين وأعلم بما كتب قال له المأمون: ويلك، ما حملك على هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إنه لا يخفى عليك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال والحلي والحلل والطعام والشراب والفرش والأواني والأمتعة والجواري والخدم وغير ذلك مما يقصر عنه وصفي ويعجز عنه فهمي. وإني يا أمير المؤمنين قد مررت عليه الآن، وأنا في غاية من الجوع والفاقة، فوقفت مفكراً في أمري وقلت في نفسي: هذا القصر عامر عال، وأنا جائع ولا فائدة لنا فيه، فلو كان خراباً ومررت به لم أعدم رخامة أو خشبة أو مسماراً أبيعه وأتقوت بثمنه أوما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر:

إذا لم يكن للمرء في دولة امرئ ::: نصيب ولا حظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له، غير أنه ::: يزجي سواها، فهو يهوى انتقالها

فقال المأمون: يا غلام، أعطه ألف درهم، ثم قال: هي لك في كل سنة ما دام قصرنا عامراً بأهله مسروراً في دولته.

وأنشدوا في معنى ذلك:

إذا كنت في أمر، فكن فيــه محــسناً ::: فعما قليل أنــت مــاض وتاركــه
فكم دحت الأيــام أربــاب دولــةٍ ::: وقد ملكوا أضعاف ما أنت مالكــه

المأمون ومدعي النبوة:

ويحكى أنه تنبأ رجل في أيام المأمون، فقل ليحيى بن أكثم القاضي: يا يحيى امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبي وإلى دعواه.

فركبا في الليل مستترين ومعهما خادم حتى صارا إلى بابه وكان مستتراً بثوبه، فاستأذنا عليه فخرج إليهما، فقال: من أنتما؟ فقالا: رجلان يريدان أن يسلما على يديك.

قال: ادخلا. فدخلا وجلس المأمون عن يمينه، يحيى عن يساره، فقال المأمون: إلى من بعثت؟ قال: إلى الناس كافة.

قال: أفيوحى إليك، أم ترى في المنام، أم ينفث في قلبك؟ قال: بل أناجي وأكلم قال: ومن يأتيك؟ قال: جبريل.

قال: فمتى كان عندك؟ قال: الساعة قبل أن تأتياني بساعة.

قال: فما أوحى إليك؟ قال: أوحى إلي أنه سيدخل عليك رجلان فيجلس أحدهما عن يمينك، والآخر عن يسارك، والذي يجلس عن يسارك ألوط خلق الله تعالى.

فقال له المأمون: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وكان يحيى يعزى إلى ما قاله عنه المتنبي.

أبو نواس والغلام الجميل والقاضي:

دخل أبو نواس على القاضي يحيى بن أكثم ودخل معه غلام جميل الوجه.

فقال الغلام: هذا مر علي وقبلني كرهاً.

ففتن به القاضي، فأنشد يقول:

إذا كنت للتخميش والبوس كارهــاً ::: فــلا تــدخل الأســواق إلا منقبــا
ولا تظهر الأصداغ منم تحت طــرةٍ ::: وتشهر منها فوق خــديك عقربــا

فلما سمع الغلام، أنشأ يقول:

لقد كنت أرجو أن أرى العدل بيننا ::: فأعقبني بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها ::: إذا كان قاضي المسلمين يلوط

المأمون ويحيى بن أكثم:

يحكى أنه كان عند المأمون يوماً، فقال له المأمون وهو يعرض له باللواط: يا يحيى! من ذا الذي يقول:

قاضي يرى الحد في الزناء ولا يرى ::: على من يلوط من بأس

فقال له: الذي يقول:

ما أرى الجور ينقضي، وعلى الأمـ ::: ـةِ والٍ منكم بني العباس

سليب العقل لا الدين سكرة القاضي ابن أكثم:

ويقال: إن المأمون شرب يوماً ومعه القاضي يحيى بن أكثم، فمال لساقي على القاضي حتى وقع سكران، فأمر المأمون أن يلقى عليه الورد والرياحين حتى يدفن فيها كأنه ميت، وصنع بيتين شعراً، وقال لمغنيته: خذي العود وغني على رأسه فغنت وقالت:

ناديته وهو حي لا حراك به ::: مزمل في ثياب من رياحين
فقلت: قم! قال: رجلي لا تطاوعني ::: فقلت: خذ! قال: كفي لا يوافيني

فاستيقظ يحيى لرنة العود والجارية تغني البيتين فقام، وقال:

يا سيدي وأمير الناس كلهم ::: قد جار في حكمه من كان يسقيني
سقاني الراح لم يمزج سلافتها ::: حتى بقيت سليب العقل لا الدين

إبراهيم بن المهدي والمأمون:

قال الواقدي: كان إبراهيم بن المهدي ادعى لنفسه الخلافة بالري وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً وله أخبار كثيرة.

فما حكاه قال: لما دخل المأمون الري في طلبي أثقل علي الطلب وجعل لمن دل علي وأتاه بي مائة ألف درهم، فخفت على نفسي، وتحيرت في أمري، فخرجت من داري وقت الظهر، وكان يوماً صائفاً، وما أدري أين أتوجه، فمررت بزقاق لا ينفذ، فقلت: لا حول ولا قوة إلا

بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، وخفت إن رجعت على أثري يعلموا بين فرأيت في صدر الزقاق عبداً أسود قائماً على باب داره، فتقدمت إليه، وقلت له: عندك موضع أقيم فيه ساعة من النهار؟ قال: نعم، وفتح الباب، فدخلت إلى بيت نظيف فيه حصر نظيفة وبسط ومخدات جلد، ثم إنه أغلق الباب علي ومضى، فخفت أن يكون سمع الجعالة في حقي، وأنه عرفني ومضى ليدلهم علي، فبقيت مثل الحبة في المقلاة قلقاً ميتاً من الخوف، فبينما أنا كذلك، إذ أقبل ومعه حمال حامل كل ما أحتاج إليه من لحم وخبز وقدر جديدة وجرة وكيزان جدد، ثم التفت إلي وقال: جعلني الله فداك! أنا رجل حجام، وأنا أعرف أنك تنفر مني لما أتولاه من معيشتي، فشأنك بما لم تقع عليه يدي.

وكان لي حاجة إلى الطعام فقمت وطبخت قدراً ما ظننت أني أكلت مثلها قدراً، فلما قضيت أربي، قال لي: هل لك أن تشرب شيئاً فإنه يسلي الهم ويزيل الغم، ويمهد للنفس الفرح؟ قلت: ما أكره ذلك، رغبة في مؤنسته.

فأتى بقطرميز جديد وأحضر لي نقلاً وفاكهة في أوان جدد من فخار، ثم قل بعد ذلك: إن أذنت لي، جعلت فداك أن أقعد بناحية منك وآتي بشراب فأشرب مسروراً بك.

فقلت: افعل.

ففعل وشرب ثلاثاً، ثم خل إلى خزانة له: فأخرج عوداً مصلحاً، ثم قال: يا سيدي ليس من قدري أن أسألك أن تغني، ولكن قد وجب على مروءتك حرمتي، فإن رأيت أن تشرف عبدك بأن تغني لنفسك والعبد يسمع فافعل.

فقلت له: ومن أين لك أني أحسن الغناء؟ فقال متعجباً: سبحان الله! أنت أشهر من ذلك، أنت إبراهيم بن المهدي خليفتنا بالأمس الذي جعل المأمون لمن يدل عليك مائة ألف درهم.

فلما قال ذلك عظمت مروءته عندي، وعلمت أن نخوته أجل مما بذل، فتناولت العود فأصلحته، وقد مر بخاطري ذكر أهلي وولدي، فقلت:

وعسى الذي أهدى ليوسف أهلــه ::: وأعزه في الــسجن وهــو غريــب
أن يستجيب لنــا فيجمــع شملنــا ::: فــالله رب العــالمين قريــب

فقال: يا سيدي اجعل ما تغنيه مما أقتضيك به.

قلت: نعم. فقال: غن لي:

إن الذي عقد الذي انعقــدت بــه ::: عقد المكاره، فهــو يملــك حلــها
فاصــبر، فــإن الله يعقــب راحــةً ::: فلعلــها أن تنجلــي، فلعلــها

فحسن عندي اقتراحه وشربت، ثم قال لي: غن لي:

وراء مضيق الخوف متــسع الأمــن ::: وأول مفــروح بــه آخــر الحــزن
فلا تيأســن فــالله ملــك يوســفاً ::: خزائنه بعد الخلاص مــن الــسجن

ففرح وشرب وشربت، وقال: غن لي:

إذا الحادثــات بلغــن النــهى ::: وكــادت لهــن تــذوب المهــج
وحــل الــبلاء وقــل العــزاء ::: فعنــد التنــاهي يكــون الفــرج

وغنيته وحسن في نفسي اقتضاؤه، وأنست به، واستظرفته، ثم قال: إن رأيت يا سيدي أن تأذن لي أن أغني ما خطر ببالي، وإن كنت من غير أهل الصناعة؟ فقلت: يكون ذلك زيادةً في أدبك ومروءتك.

فأخذ العود، ثم قال: دستور، ثم ضرب عليه، وغنى يقول:

شــكونا إلى أحبابنــا طــول ليلنــا ::: فقالوا لنا: ما أقصر الليــل عنــدنا
وذاك لأن النــوم يغــشى عيــوهم ::: سريعاً ولا يغشى لنا النــوم أعينــا
إذا ما دنا الليل المضر بذي الهــوى ::: جزعنا، وهم يستبــشرون إذا دنــا
فلو أهم كانوا يلاقــون مثــل مــا ::: نلاقي لكــانوا في المــضاجع مثلنــا

فقلت: والله ذهب عني كل ما كان عندي من الفزع وسألته أن يغني، فغنى يقول:

تعيرنــا أنــا قليــلٌ عديــدنا ::: فقلــت لهــا: إن الكــرام قليــل
ومــا ضــرنا أنــا قليــل وجارنــا ::: عزيــز، وجــار الأكثــرين ذليــل
وإنا لقــوم لا نــرى المــوت ســبةً ::: إذا مــا رأتــه عــامرٌ وســلول
يقرب حــب المــوت آجالنــا لنــا ::: وتكرهــه آجــالهم فتطــول

فوالله لقد أجاد وذهب عني كل ما كان من الفزع والجزع، واستأنست به وأخذني من الطرب ما لا مزيد عليه، وعالجني النوم قبل أوانه فنمت، ولم أستيقظ إلا بعد المغرب، وجال فكري في هذا الحجام وأدبه وظرفه، وكيف غناؤه وأدبه وإرادته أن يسليني عما أنا فيه إشارة إلى تخصيصه بالوفاء لضيفه ونصره لجاره، فقعدت وغسلت وجهي ويقظته، وأخذت خريطة كانت صحبتي فيها دنانير ومصاغ لها قيمة فدفعتها إليه، وقلت له: أنت في وداعة الله وحفظه فإني ماض عنك، وأسألك أن تصرف ما في هذه الخريطة في بعض مهماتك، ولك عندي، إذا أمنت، المزيد، فأعادها علي مبادراً وقال: يا سيدي! الصعلوك لا قيمة له عند أهل الرياسات، ويظنون فيه الظنون الرديئة، أفآخذ على ما وهبني الله من قربك وحلولك في منزلي ثمناً؟ لا والله، فألححت عليه، فأخذ موسى بيده وقال: والله إن راجعتني لأنحرن نفسي، فخشيت عليه وأخذت الخريطة وأثقلني حملها، فلما انتهيت إلى باب الدار، قال: يا سيدي إن هذا الموضع أخفى لك من غيره، وليس عندي في مؤنتك ثقلة، فأقم عندي إلى أن يفرج الله عنك. فرجعت وسألته أن يكون منفقاً من تلك الخريطة فلم يفعل، وكان كل يوم يفعل بي مثل ما فعل في اليوم الأول.

قال: فأقمت أياماً في أطيب عيش وأهناه، ثم سئمت من الإقامة عنده وخشيت الثقل عليه، فتركني ومضى يجدد لنا حالنا، فلبست ثيابي وتزينت بزي النساء بالخف والنقاب، وخرجت. فلما صرت في الطريق داخلني من الخوف والفزع أمر شديد ومشيت لأعبر الجسر، وإذا هو قد رش، ورجل قائم فأبصرني بعض من كان في خدمتي من الجند فتعلق بين وقال: طلبة أمير المؤمنين، فدفعته في صدره فوقع في الزلق وصار عبرة وتبادر الناس إليه فاجتهدت في المشي حتى قطعت الجسر، ودخلت زقاقاً فوجدت باباً وامرأة واقفة فيه، فقلت: يا سيدة النساء، احقني دمي فإني رجل خائف.

فقالت: ادخل، فدخلت فأطلعتني إلى غرفة وفرشت لي وقدمت لي طعاماً. وقالت: ليهدأ روعك فإنه لا يعلم بك مخلوق، ولو أقمت سنة ما عليك بأس، وإذا بالباب يدق، فخرجت وفتحت الباب، فإذا هو صاحبي

الذي دفعته على الجسر، وهو مشدوخ الرأس ودمه يسيل على ثيابه، فقالت له ما دهاك؟ قال: إن حديثي عجيب وأمري غريب ظفرت بالفتى وانفلت من يدي.

قالت: وكيف؟ قال: إبراهيم بن المهدي لقيته فتعلقت به فدفعني فأصابني ما ترين من حالي ولو حملته إلى أمير المؤمنين لأخذت منه مائة ألف درهم.

قال: فأخرجت له حراقاً وذروراً، وفرشت له بعد كبس جرحه فنام قليلاً وطلعت وقالت لي: أظنك صاحب القصة؟ قلت: نعم.

فقالت لي: إني خائفة عليك، ثم جددت لي الكرامة وأقمت عندها ثلاثة أيام، ثم قالت لي: إني خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع على أمرك فينم عليك فانج بنفسك.

فسألتها إمهالي إلى الليل. فلما دخل لبست زي النساء وخرجت منم عندها وأتيت إلى بيت مولاة لنا، فلما رأتني بكت وتوجعت وحمدت الله تعالى على سلامتي وخرجت كأنه تريد كرامتي، فتوجهت للسوق مظهرة الاهتمام للضيافة فظننت خيراً، فلم أشعر إلا بإبراهيم الموصلي بخيله ورجاله، والمولاة معه حتى سلمتني إليه، فرأيت الموت عياناً، وحملت مثل ما أنا إلى أمير المؤمنين، فجلس مجلساً عاماً، وأمر بإدخالي عليه، فلما مثلت بين يديه سلمت عليه سلام الخلافة، فقال: لا سلمك الله، ولا حفظك ولا رعاك.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى، ومن تناولته يد الأقدار ربما مد له من أسباب الرجاء ما يأمن معه عادية الدهر، وقد جعلك الله فوق خلقه، وأصبح عفوك فوق كل ذي عفو، فإن تأخذ فبحقك، وإن تعف فبفضل، وأنشدت أقول:

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم ::: منه فخذ بحقك أولا
واصفح بحلمك عنه إن لم أكن ::: في فعالي من الكرام فكنه

قال: فرفع رأسه إلي، فقلت مبتدراً:

أتيت ذنباً عظيماً ::: وأنت للعفو أهل

فــــــإن عفـــــوت فمــــــن ::: وإن جزيـــــــــت فعـــــــــدل

قال: فرق المأمون واسترجع فرأيت روائح الرحمة في شمائله، ثم أقبل على أخيه أبي إسحاق محمد المعتصم وابنه العباس وجميع من حضر من خصته، وقال: ما ترون في أمره؟ فأشار الكل بقتلي، إلا أنهم اختلفوا في القتل، فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد: ما تقول يا أحمد؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إن قتلته فقد وجدنا مثلك قتل مثله، وإن عفوت لم نجد مثلك في العفو.

فنكس المأمون رأسه إلى الأرض وجعل يخط في الأرض بإصبعه، ثم رفع رأسه وقال:

قومي همــوا قتلــوا أمــيم أخــي ::: فــإذا رميــت يــصيبني ســـهمي

ثم قال المأمون: لا بأس عليك يا عم.

فقلت: ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أفوه معه بعذر، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر، ولكن أقول:

إن الذي خلــق المكــارم حازهــا ::: في صــلب آدم للإمــام الــسابع
ملئت قلوب النــاس منــك مهابــةً ::: وتظــل تكلــؤهم بقلــب خاشــع
مــا إن عــصيتك والغــواة تمــدني ::: أســـــبابها إلا بنيـــــة طـــــائع
وعفوت عمن لم يكــن عــن مثلــه ::: عفــو، ولم يــشفع إليــك بــشافع
ورحمت أشــباحاً كــأفراخ القطــا ::: وحــنين والــدة بقلــب جــازع

فقال المأمون: لا تثريب اليوم عليك، قد عفوت عنك، ورددت عليك مالك وضياعك، فأنشدت أقول:

رددت مالي ولم تبخــل علــي بــه ::: وقبل ردك مالي قد حقنــت دمــي
أمنت منك وقــد خــولتني نعمــاً ::: نعم الحياتان من موت ومــن عــدم
فلو بذلت دمعي أبغي رضــاك بــه ::: والمال حتى أسل النعل مــن قــدمي
وإن جحدتك ما وليت مــن نعــم ::: إني إلى اللــؤم أول منــك بــالكرم

فقال المأمون: إن من الكلام كلاماً كالدر، وهذا منه، وأمر لي بمالي وخلع علي، وقال: يا عم إن أبا إسحاق والعباس أشار بقتلك.

فقلت: إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين، ولكن فعلت ما أنت أهله،

ودفعت ما خفت أنا بما رجوت.

فقال المأمون: لقد مات حقدي بحياة عذرك، وقد عفوت عنك.

ثم سجد المأمون طويلاً، ثم رفع رأسه، ثم قال: يا عم أتدري لم سجدت؟ قلت له: شكراً لله تعالى على ما أوقعك علي وملكك إياي في يدك تفعل بي ما تشاء.

فقال: أخطأت! ولكن أشكر الله تعالى على ما ألهمني من العفو عنك من قبل نفسي، ثم قال: وأعظم من عفوي عنك أنني لم أجرعك مرارة امتنان الشافعين، فحدثني بما كان من أمرك.

فشرحت له ما جرى لي مع الحجام والجندي وزوجته والمولاة التي أسلمتني، فأمر المأمون بإحضارها، وهي في دارها تنتظر الجائزة، فلما حضرت قال لها المأمون: ما حملك على ما فعلت تسليمك إبراهيم مع إنعامه عليك؟ قالت: رغبة في المال.

قال هل لك من ولد أو زوج؟ قالت: لا، فأمر بضربها مائة سوط وأمر بتخليدها في السجن، ثم أحضر الجندي وامرأته والحجام، فسأل الجندي عن السبب الذي حمله على ما فعل؟ قال: رغبة في المال.

فقال: إنك أولى في أن تكون حجاماً من أن تكون خداماً، ووكل من يلزمه الجلوس في مكان الحجام، ليتعلم الحجامة، وأحسن إلى امرأته وجعلها قهرمانة قصره وقال: هذه امرأة أديبة تصلح للمهمات، وسلم للحجام دار الجندي وما فيها، وخلع عليه وأثبته برزقه في الديوان، وزيادة ألف دينار في كل سنة، ولم يزل كذلك إلى أن مات، والله أعلم[١].

صيد الجواري:

وعن محمد بن عبد الله التميمي، قال: حدثنا أحمد بن محمد الحريري قال: كان لحمنة بنت عبد الرحمن الهاشمي من الأموال ما لا يسعه الديوان، ولا تأكله النيران لكثرته، وكانت أأدب نساء بني هاشم وأفصحهن لساناً وأقولهن شعراً، فدخلت على المأمون يوماً، وكانت تحبه

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٩٩ - ١٠١.

غاية الحب سراً، وكن المأمون جالساً في إيوان قد ابتدعه لنفسه لم يبتدعه أحد من الخلفاء قبله، وكان قد تأنق في بنائه، وكان فيه من كل صورة في البر والبحر ممثلة من الذهب والفضة، وقد فرشه ببساط من الديباج الأصفر، وأسبل عليه ستوراً من الحرير الصيني، وقد أقام فيه أربعمائة وصيفة بقراطق الحرير، وقد لبسن الوشي بطرر وشعور وأصداغ، وهن بقد واحد، لا تزيد الواحدة منهن على الأخرى، أقام مائتين عن يمنيه ومائتين عن يساره، فقال: يا حمنة! هل كان لأبيك أو لبعلك أو لأحد من الخلفاء مثل هذا الإيوان مع فرشه، ومثل هؤلاء الجواري مع زينتهن؟ فقالت: يا أمير المؤمنين! متعك الله به وعمره بك، فلقد أوتيت ملكاً عظيماً تستأهله لترفهك وشرفك، فإن أحببت خادمتك حمنة أجلستك في مجلس لم تجلس في مثله قط وأصادتك صيداً لم تصد مثله قط، وأسقتك شراباً لم تشرب مثله قط.

وكان عنده يحيى بن أكثم، فقال لها: يا حمنة، قد أجبتك إلى ما سألتني، ولكن لا ينفعني ولا يهناك ذلك إلا بمشهد من يحيى بن أكثم، فإنه لا يطيب لي مجلس إلا به.

فقالت: نعم يا أمير المؤمنين، ثم ضربت يدها في جيبها، فأخرجت منه مخزنة من ذهب أحمر محشوة مسكاً أذفر، فدفعتها إلى يحيى، وقالت: يا يحيى، إن الأجير لا يعمل حتى يستوفي أجرته، وهذه أجرتك مني فكن مستحثاً لي أمير المؤمنين غداً عند الزوال، في المسير إلى منزل خادمته؟ فقال: حباً وكرامةً.

ثم خرجت من عنده فهيأت ما تحتاج إليه للمأمون وغيره، فلما كان من الغد جلس المأمون في مجلس السلام، فلما زالت الشمس وصارت في كبد السماء قال يحيى: يا أمير المؤمنين الحاجة التي عرضت عليك بالأمس. ففطن المأمون لذلك، وقام من مجلسه ولبس ثياب التجار، ولبس يحيى مثل ذلك، ودعا بحمارين مصريين بغاشيتين، وركباهما حتى أتيا دار حمنة، فدقا الباب دقاً خفيفاً، فسمعته فأقبلت بنفسها، حتى فتحت الباب وأقبلا يمشيان جميعاً حتى انتهيا إلى بيت في بستان قد حمل على أربعة أعمدة من الرخام الأحمر المنقوش، وإذا في صدر البيت أربعة أسطر

منقوشة بالدر وصنوف الجواهر وهي:

ما سرني أن فؤادي، ولا ::: أن لساني بالمدام حلا
وأن لي ملك بني هاشم ::: يجبى إلى أولاً أولا
إن لم أشاهدك أيا مالكي ::: تأتي إلى بيتي كذا مقبلا
يا سائلي روحي بلا علة ::: أنت المعافى، وأنا المبتلي

فقال المأمون: يا يحيى، ما ملك أحد من الخلفاء مثل هذا البيت.

وإذا فرشه أرمني محفور منقوش باللآلي وإذا فوق الأرمني مطارح من الديباج الأخضر حشوها حواصل الريش، وفي البيت المسك والعنبر والكافور والصندل والزعفران والند والعود مصفوف في أواني الذهب والفضة، وهي تفوح منه روائح لا يدرى ما هي من طيبها، ثم أخرجتهما إلى أربعة ميادين فيها أنواع الرياحين حول البيت، فقالا: إن هذا إلا سحر يؤثر.

ثم دعت لهما بمائدة من الجزع اليماني قوائمها من قطعة واحدة، فوضت وقدمت عليها الألوان الغريبة، فقال المأمون: ما طعمت مثل هذا الطعام قط.

ثم دعت بالطشت والإبريق فغسلا أيديهما، ثم أمرت بشراب فقدمت إليهما قناني الزجاج الشامية المرتفعة الصافية، والبلور، فيها شراب قد أتت عليه الأيام والأعوام، فهي تحكي الهواء لرقتها والياقوت لحمرتها والزنجبيل لحدتها، ووضعت بين أيديهما مع أقداح وأنطال تشاكل ذلك، فقال المأمون: والله! ما رأيت مثل هذا قط.

ثم أخرجت جاريتين عليهما جباب الوشي الكوفي المنسوج بالذهب، وعلى رأسيهما مقانع رشيدية وتيجان من الذهب مكللة بالجوهر، فجلستا وفي حجريهما العيدان المبسوطة الموزونة، فحركتا الأوتار وغنتا بصوت شجي مليح، من أنواع الأغاني وغرائب الأصوات، فقال المأمون: هذه الجنة مما نرى فيها من غرائب الطيب والجوهر.

فقال يحيى: وقد بقي لنا يا أمير المؤمنين، شرط آخر.

فقال: وما هو يا يحيى؟ قال: الصيد، يا أمير المؤمنين.

قال: صدقت يا يحيى، ثم قال: يا حمنة، ما فعل الصيد؟ فقالت: قوما إليه.

فقام المأمون ويحيى حتى دخلا بستاناً لم ير مثله، وقد كانت زينت البستان بأحسن ما تقدر عليه، واتخذت فيه ألوان الطيور من الفاخت والقمري والهزار والطواويس، فكانت الأطيار تغني من رؤوس الأشجار، وتغرد بالسر والإجهار، وقد كانت زينت مائة جارية نواهد أبكار بطرر وشعور وخدود ومباسم ساطعات الأنوار، ترى كل واحدة منهن أبهى من صاحبتها وأحسن، وعليهن من ألوان الثياب ما يعجز عنه الوصف، وفي وسطهن مناطق الذهب الأحمر، وتقدمت إليهن وقالت لهن: إذا رأيتن المأمون ويحيى، تعادين ما بين الأشجار. فلما دخل المأمون ويحيى لابستان، فعلن ما كانت أمرتهن، فتضاعف السرور على المأمون، وأعجب بذلك عجباً شديداً، ثم قال ليحيى: هذا الصيد.

فقال: يا أمير المؤمنين! رأيك؟ فقال المأمون: لو كان لنا كلب لا صطدنا هؤلاء.

فقال يحيى: أنا كلبك، يا أمير المؤمنين.

فعد المأمون ويحيى فاصطادا منهن صبية، فقالت حمنة: سألتك بحق أجدادك إلا ما خليت عن الجواري لا لبخل أبخل بهن عليك، وقد فهمت المعنى فيه.

وقد كانت حمنة تغار على المأمون فخلى عن الجواري، وقال ليحيى: دونك والصيد إذن أنت محل.

فقال يحيى: لو كان لي كلب لاصطدت من هؤلاء.

فقال المأمون: أنا كلبك.

فضحك يحيى وضرب بقلنسوته الأرض، وعد خلفهن، فأخذ منهن خمسة فقالت حمنة: يا يحيى لك الخمسة ولا غيرة لي عليك، وإنما أغار على المأمون لحاجتي إليه.

فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين، لقد رأيت الهوى الغالب في حماليق عينيها، ولا تتم لنا النعمة إلا بتزويجك إياها إن رأيت ذلك.

فقال المأمون: أنا بريء من رسول الله ومنتف من جدي العباس إن ذهبت من البستان ولم أتزوجها، ثم قال: يا يحيى اخطب خطبة النكاح.

فخطب يحيى وأمهرها المأمون ألف ألف دينار، وأقطعها مائة من منتخبات الضياع، فحمدت حمنة الله سروراً بما ظفرت من تزويج المأمون إياها، وأمرت ليحيى بعشرة آلاف دينار، ورجع المأمون إلى منزله وزفت إليه في تلك الليلة، فواقعها فحملت بالعباس ابنه، انتهى[١].

حيل الجواري:

حكي أن المأمون كان مشغوفاً بحب جارية يقال لها نسيم، وكانت ذات عقل وأدب وفضل وكمال، وكان لا يفارقها في الحضر ولا في السفر، ثم بعد ذلك مال إلى جارية أخرى أحسن منها، وأعرض عنها، فاغتمت ولم تجد حيلة في استعطافه، وكانت لها جارية رومية أحسن منها في العقل والأدب، وكتمت أمرها عن المأمون، فاتفق أن المأمون حصل له بعض ضعف، ففصد، فحصل له الشفاء، فجعل الناس يدخلون إليه بأصناف التحف والهدايا، فأهدت إليه نسيم الجارية المذكورة، ومعها جام بلور، وغطته بمنديل ديبقي مكتوب عليه بالذهب هذه الأبيات:

فصدت عرقاً تبتغي صحةً ::: ألبسك الله به العافية

فاشرب بهذا الجام يا سيدي ::: مستمتعاً بهذه الجارية

واجعل لمن أهداكها زورةً ::: تحظى بها في الليلة الثانية

فأعجب المأمون ما رأى من الجام والجارية، ثم بعث لها يقول: نعم، وفي هذه الليلة، ثم رضي على نسيم وواصلها بعد ذلك[٢].

المأمون وزبيدة أم الأمين:

حكي أن المأمون مر يوماً على زبيدة أم الأمين، فرآها تحرك شفتيها بشيء لا يفهمه، فقال لها: يا أماه، أتدعين علي لكوني قتلت ابنك وسلبته ملكه؟ قالت: لا والله يا أمير المؤمنين.

قال: فما الذي قلته؟ قالت: يعفيني أمير المؤمنين.

---

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ١٠٢، ١٠٣.
(٢) المصدر السابق، ص ١٠٢ - ١٠٣.

فألح عليها وقال: لا بد أن تقوليه؟ قالت له: قلت، قبح الله اللجاجة.

قال: وكيف ذلك؟ قالت: لأني لعبت يوماً مع أمير المؤمنين الرشيد بالشطرنج على الحكم والرضا، فغلبني، فأمرني أن أتجرد من أثوابي وأطوف القصر عريانة، فاستعفيته، وبذلت له أموالاً لا تحصى، فلم يعف عني. فتجردت من أثوابي وطفت القصر عريانة، وأنا حاقدة عليه، ثم عاودنا اللعب فغلبته فأمرته أن يذهب إلى المطبخ، فيطأ أقبح جارية وأشوهها خلقة فاستعفاني عن ذلك فلم أعفه، فنزل لي عن خراج مصر والعراق، أبيت وقلت: والله لتطأنها، فألححت عليه وأخذت بيده وجئت به إلى المطبخ، فلم أر جارية أقبح ولا أقذر ولا أشوه خلقة من أمك مراجل، فأمرته أن يطأها فوطئها فعلقت منه بك، فكنت سبباً لقتل ولدي وسلبه ملكه.

فولى المأمون وهو يقول: قاتل الله اللجاجة، أي التي لج بها عليها حتى أخبرته بهذا الخبر، انتهى(١).

المأمون والشاعر:

وأتى شاعر المأمون فقال: لقد قلت فيك شعراً، فقال: أنشدنيه. فقال:

حياك رب الناس حياكا ::: إذ بجمال الوجه رقاكا
بغداد من نورك قد أشرقت ::: وورق العود بجدواكا

قال: فأطرق المأمون ساعة، وقال: يا أعرابي، وأنا قد قلت فيك شعراً، وأنشد يقول:

حياك ربُّ الناس حياكا ::: إن الذي أملت أخطاكا
أتيت شخصاً قد خلا كيسه ::: ولو حوى شيئاً لأعطاكا

فقال: يا أمير المؤمنين، الشعر بالشعر حرام، فاجعل بينهما شيئاً يستطاب.

فضحك المأمون وأمر له بمال، انتهى.

إبراهيم بن المهدي وصاحبة المعصم:

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ١٠٢، ١٠٣.

وروى ابن عامر الفهري عن أشياخه قال: أمر المأمون أن يحمل إليه من أهل البصرة عشرة رجال كانوا قد رموا عنده بالندقة،فحملوا إليه، فمر بهم طفيلي، فرآهم مجتمعين، فظن خيراً ومضى معهم إلى الساحل وقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمة، فانسل ودخل الزورق وقال: لا شك إنها نزهة، فلم يكن إلا يسيرًا، وقد قيد القوم، وقيد معهم. فعلم أنه وقع فيما لا طاقة له به، ورام الخلاص، فلم يقدر، وساروا إلى أن وصلوا بغداد وأدخلوا على المأمون، فاستدعى بهم بأسمائهم واحداً بعد واحد، وجعل يذكره بفعله وبقوله ويضرب عنقه، حتى لم يبق إلا الطفيلي، وفرغت العشرة فقال المأمون للموكل: من هذا؟ فقال: لا أعلم يا أمير المؤمنين، غير أننا رأيناه معهم، فجئنا به.

فقال: يا أمير المؤمنين. امرأته طالقة إن كان يعرف من أحوالهم شيئاً، ولا يعرف غير لا إله إلا الله ومحمد رسول الله، وإنما رأيتهم مجتمعين، فظننت أنها وليمة يدعون إليها، فلحقت بهم.

فضحك المأمون وقال: أوقد بلغ من شؤم التطفل أن يحل بصاحبه هذا المحل؟ لقد سلم هذا الجاهل من القتل، ولكن يؤدب، حتى لا يعود إلى مثلها.

وكان إبراهيم بن المهدي حاضراً، فقال: يا أمير المؤمنين، هبه لي، وأنا أحدثك عن نفسي، فيما وقع لي في التطفل من العجب.

فقال: وهبته لك، هات حديثك.

فقال: يا أمير المؤمنين خرجت متنكراً يوماً أنظر إلى سكك بغداد، فاستهوى بي الطرب والتفرج فانتهى بي المسير إلى موضع شممت فيه رائحة طعام وأبازير قد فاحت، وهفت نفسي إليها ووقفت، يا أمير المؤمنين، لا أقدر على المشي، فرفعت بصري، وإذا بشباك خلفه كف بمعصم ما رأيت أحسن منه، فبقيت حائراً، ونسيت رائحة الطعام، بذاك الكف، فأخذت في عمل الحيلة إلى الوصول إليها، فإذا بجانب المكان خياط، فسلمت عليه فرد علي السلام، فقلت: يا سيدي! لمن هذه الدار؟ فقال: لرجل من البزازين.

فقلت: ما اسمه؟ فقال: فلان.

قلت: هو ممن يشرب الخمر؟ قال: نعم، وأظن أن عنده اليوم أصحابه، تجار مثله.

فبينما نحن في الكلام إذ أقبل رجلان فقال لي: هذان ندماؤه.

فقلت له: ما اسمهما وما كنيتهما؟ فقال لي: فلان الفلاني وفلان الفلاني.

فحركت وراءهما رجلي، فلحقتهما فقلت: جعلت فداءكما، استبطأكما فلان أعزه الله، ولم أزل معهما، حتى أتيت البيت، فدخلت ودخلا، فلما رآني صاحب البيت بينهما لم يشك في أني معهما فرحب بي وأجلسني في أفضل الأماكن ثم جيء بالمائدة ونقلت إليها الألوان، فقلت في نفسي: هذه ألوان قد من الله علي ببلوغ الغرض منها، بقي الكف والمعصم، ثم جيء بالماء فغسلنا أيدينا ثم نقلنا إلى مجلس المنادمة، فإذا شكل مليح ما رأيت أحسن منه ولا أظرف، ورأيت صاحب المكان يتلطف بي ويقبل علي لظنه أني ضيف لأضيافه، وهم على الحالة هذه إلى أن شربنا فخرجت علينا جارية كأنها غصن بان في غاية الظرف وحسن الهيئة، فسلمت من غير خجل ولا احتشام، وجلست وأتي بعود فجسته أحسن جس، وإذا هي حاذقة في الصناعة وغنت تقول:

توهمها فكري، فأصبح خدها ::: وفيه مكان الوهم من نظري أثر
وصافحها كفي، فآلم كفها ::: فمن ضم كفي في أناملها عقر

فهيجت يا أمير المؤمنين بلبالي، فطربت لحسن شعرها وحذقها ثم غنت تقول:

أشرت إليها: هل عرفت مودتي ::: فردت بطرف العين أني على العهد
فجادت عن الإظهار عمداً بسرها ::: وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذاقتها وإصابتها معنى الشعر، فضحكت لما أصابني من الطرب الذي لم أملك نفسي معه ثم غنت تقول:

أليس عجيباً أن بيتاً يضمنا ::: وإياك لا نلهو ولا نتكلم
سوى أعين تبدي سرائر أنفسٍ ::: وتقطيع أنفاس على النار تضرم

إشــارة أفــواه وغمــز حواجــب ::: وتكــسير أجفــان وكــف تــسلم

فزاد حسدي لها يا أمير المؤمنين على حذاقتها وإصابتها معنى الشعر لأنها لم تخرج عن المعنى وقلت: بقي عليك يا جارية شيءٌ، فرمت العود من يدها، وقالت: متى كنتم تحضرون الغناء مثل هذا؟ فندمت على ما كان مني ورأيت القوم كأنهم قد أنكروا علي، فقلت في نفسي: فاتني جميع ما أملت، وأحببت أن أتلافى قضيتي فقلت: أثم عودٌ غير هذا؟ قالوا: نعم فأحضروا عوداً، فأصلحت ما أردت إصلاحه ثم قلت:

مــا للمنــازل لا تجيــب حزينــاً ::: أصــممن أم قــد بــالبلاء بلينــا

فما أتممت شعري حتى وثبت الجارية إلي، وانكبت على يدي تقبلها وتقول: المعذرة إليك يا سيدي، والله ما علمت مكانك، ولا سمعت بهذه الصناعة من أحد، ثم زادوا إكرامي وطربوا غاية الطرب، فشربت عدة أقداح، ثم غنيتهم أبياتاً فرأيت من طربهم شيئاً عظيماً حتى قلت إن أرواحهم، فارقت أبدانهم فسكت عنهم ساعة، حتى تراجعوا إلى عقولهم فغنيتهم وقلت:

هذا محبــك مطويــاً علــى كمــده ::: وجداً، وأدمعه تجري علــى جــسده

لــه يــد تــسأل الــرحمن راحتــه ::: مما به واليد الأخرى علــى كبــده

يا من رأى كلفــاً في حبــه دنفــاً ::: كانــت منيتــه في عينــه ويــده

قال: فجعلت الجارية تصيح وتقول: هذا والله الغناء والذي كنا فيه ليس بشيء، وشرب القوم فلما جاءهم البسط، وأخذ المجلس منتهاه أمر صاحب البيت عبدين له أن يحفظا النديمين إلى منزلهما، وخلوت معه. فقال: والله يا سيدي ذهب ما مضى من عمري باطلاً حيث لم أعرفك قبل يومي هذا فبالله يا مولاي من أنت؟

فجعلت أرد عليه، وهو يقول ويقسم علي حتى أعلمته من أنا على الحقيقة، فلما سمع ذلك قام تعلى قدميه وقال: ما عجبت أن تكون هذه المكارم إلا لمثلك، وقد أصابني من الدهر نعم لا أقوم بشكرها، ثم قال: أترى هذا يقظة أم مناماً، أقسمت أني لا أزال هذه الليلة قائماً إلى أن تأذن لي، فإني أحقر من أن أجالس الملوك.

فأقسمت عليه بأن يجلس ثم أخذ في الكلام وجعل يعرض علي السبب الذي أوجب حضوري عنده بألطف تعريض فأخبرته بأمري على الحقيقة ولم أخف شيئاً، ثم قلت له: الطعام قد نلت منه بغيتي، وبقي الأمر الآخر، فوثب إلى باب القاعة، وقال: كل منكن تلبس أفخر ثيابها وتخرج علينا من المخدع، ثم استدعى بهن وجعل يقول: يا فلانة، وهن يخرجن واحدة بعد واحدة، وأنا لا أرى صاحبة الكف والمعصم إلى أن أتت أربعون امرأة.

فقال: والله ما بقي إلا أختي، وها أنا مخرجها إليك.

فقلت: افعل.

فقال: حبًّا وكرامة، ثم استدعاها فنزلت فرأيت يدها ومعصمها، فإذا هي التي رايتها، قلت: هذه الحاجة، فأمر غلمانه لوقته أن يأتوا بعشرة شهود، ثم قام وأخرج عشرين ألف درهم وألفاً أخرى، فلما حضروا قال لهم: هذا سيدي إبراهيم بن المهدي يخطب أختي فلانة، وأشهدكم أني قد زوجتها له وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم.

فقلت: قبلت الزواج.

ثم دفع الألف التي كان خرجها لهم، فشكروا له ودعوا وانصرفوا. ثم قال: يا سيدي أمهد لك بعض البيوت، تنام مع أهلك.

فأعجبني ما كان من كرمه واستحييت أن أدخل بها في داره. فقلت له: بل اجعلها في عمارية واحملها إلى منزلي، فوحقك يا أمير المؤمنين لقد حمل معها من الفرش والأثاث ما ضاقت به بيوتنا، فأولدتها هذا الغلام القائم بين يديك، يا أمير المؤمنين.

فتعجب المأمون من كرم الرجل وقال: لله دره ما أكرمه، والله ما سمعت بمثله قط، ثم أطلق الطفيلي وأمر بإحضار الرجل واستنطقه، فأعجبه حسن منطقه وعقله وأدبه فصيره من جملة خواصه ومنادميه، والله أعلم(١).

---

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ١٠٥.

الذكاء والفهم:

ومما جاء في الذكاء والفهم ما حكي عن المأمون أنه غضب على عبد الله ابن طاهر، وشاور أصحابه في الإيقاع به، وكان قد حضر في ذلك المجلس صديق له فكتب إليه كتاباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، يا موسى. فلما فضه ووجد ذلك تعجب وجعل يطيل النظر إليه ولا يفهم معناه، وكانت له جارية واقفة على رأسه فقالت له: يا سيدي، إني أفهم معنى هذا. فقال: وما هو؟ قالت: إنه أراد قوله تعالى:{يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ} [القصص: ٢٠].

وكان قد عزم على الحضور إلى المأمون، فثنى العزم عن ذلك واعتذر للمأمون في عدم الحضور فكان سبب سلامته.

وأحسن من ذلك ما ذكره ابن خلكان قال: إن بعض الملوك غضب على بعض عماله فأمر وزيره أن يكتب له كتاباً يشخصه به، وكان للوزير بالعامل عناية، فكتب إليه كتاباً وكتب في آخره، إن شاء الله تعالى. وجعل في صدر النون شدة. فعجب العامل كيف وقعت هذه الحركة من الوزير إذ من عادة الكتاب ألاً يشكلوا كتبهم، ففكر في ذلك فظهر له أنه أراد: إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك. فكشط الشدة وجعل مكانها ألفاً وختم الكتاب وأعاده. فلما وقف عليه الوزير سر بذلك وفهم أنه أراد:{إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا} [المائدة: ٢٤][1].

مجادلة المأمون للخراساني المرتد:

ولما دخل عليه المرتد الخراساني وقد كان حمله من خراسان حتى وافى به العراق قال له المأمون

لأن أستحييك بحق أحب إليَّ من أن أقتلك بحق ولأن أقبلك بالبراءة أحب إليَّ من أن أدفعك بالتهمة قد كنت مسلما بعد أن كنت نصرانيا وكنت فيها أتيح وأيامك أطول فاستوحشت مما كنت به آنسا ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافرا فخبرنا عن الشيء الذي أوحشك من الشيء الذي صار آنس لك من الفك القديم وأنسك الأول فإن وجدت عندنا دواء لدائك

(١) إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ١٢٧.

تعالجت به والمريض من الأطباء يحتاج إلى المشاورة وإن أخطأك الشفاء ونبا عن دائك الدواء كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة فإن قتلناك بحكم الشريعة أو ترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة وتعلم أنك لم تقصر في اجتهاد ولم تفرط في الدخول في باب الحزم قال المرتد: أوحشني كثرة ما رأيت من الاختلاف فيكم.

قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كالاختلاف في الأذان، وتكبير الجنائز والاختلاف في التشهد، وصلاة الأعياد وتكبير التشريق، ووجوه القراءات واختلاف وجوه الفتيا وما أشبه ذلك وليس هذا باختلاف إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة فمن أذن مثنى وأقام مثنى لم يؤثم ومن أذن مثنى وأقام فرادي لم يحوب لا يتعايرون ولا يتعايبون أنت ترى ذلك عيانًا وتشهد عليه تبيانًا والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث عن نبينا مع إجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت من أجله هذا الكتاب فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقا على تأويله كما يكون متفقا على تنزيله، ولا يكون بين جميع النصارى واليهود اختلاف في شيء من التأويلات، وينبغي لك ألاَّ ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في تأويل ألفاظها ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة وذهبت المسابقة والمنافسة ولم يكن تفاضل وليس على هذا بنى الله الدنيا.

قال المرتد: أشهد أن الله واحد لا ند له ولا ولد وأن المسيح عبده وأن محمدًا صادق وأنك أمير المؤمنين حقا.

فأقبل المأمون على أصحابه فقال: فروا عليه عرضه ولا تبزوه في يومه ريثما يعتق إسلامه كيلا يقول عدوه انه أسلم رغبة ولا تنسوا بعد نصيبكم من بره وتأنيسه ونصرته والعائدة عليه [1].

دفاع المأمون عن ايقاع الملوك بخاصتهم:

(١) ابن الجوزي، البيان والتبيين، ص ٥٥٨.

قال أحمد بن أبي داود قال لي المأمون: لا يستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزرائهم ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحماتهم وكفاتهم وبين صنائعهم وبطانتهم وذلك أنهم يرون ظاهر حرمة وخدمة واجتهاد ونصيحة ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهرا حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رغبة في ماله أو رغبة في بعض ما لا تجود النفوس به ولعل الحسد والملال وشهوة الاستبدال اشتركت في ذلك وهناك خيانات في صلب الملك أو في بعض الحرم فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة في الملك ولا أن يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب ولا يستطيع الملك ترك عقابه لما في ذلك من الفساد على علمه بأن عذره غير مبسوط للعامة ولا معروف عند أكثر الخاصة (١).

عند تشابه الأسماء:

ومن حق الملك، إذا دخل عليه رجل، وكان اسم ذلك الرجل الداخل أحد صفات الملك، فسأله الملك عن اسمه، أن يكني عنه، ويجيب باسم أبيه؛ كما فعل سعيد بن مرة الكندي، حين أتى معاوية، فقال له: أنت سعيد؟ فقال: أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابن مرة! وكما قال السيد بن أنس الأزدي، وقد سأله المأمون عن اسمه، فقال: أنت السيد؟ قال: أمير المؤمنين السيد، وأنا ابن أنس! (٢).

فأجد الغنى:

حدث عمرو بن سعيد بن سلم الباهلي، قال: كنت في حرس المأمون بحلوان حين قفل من خراسان أو حين قفل من العراق، - أبو علي يشك - قال القاضي: والصواب قفل من خراسان أو قفل إلى العراق، والقفول الرجوع لا ابتداء السفر، والمأمون رجع من خراسان إلى العراق، بعد قتل الأمين واستتباب الخلافة له، قال: فخرج لينظر إلى العسكر في بعض الليل، فعرفته ولم يعرفني فأغفلته، فجاء من ورائي حتى وضع يده على

(١) ابن الجوزي، البيان والتبيين، ص ٥٥٩.
(٢) الجاحظ، التاج في أخلاق الملوك،١٨/١.

كتفي، فقال لي: من أنت: قال: عمرو عمرك الله، ابن سعيد أسعدك الله، ابن سلم سلمك الله، فقال: أنت الذي كنت تكلؤنا في هذه الليلة؟ فقلت: الله يكلؤك يا أمير المؤمنين، فأنشأ المأمون يقول:

إن أخاك الحق من يسعى معك ::: ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب زمان صدعك ::: فرّق من جميعه ليجمعك

ثم قال: يا غلام! أعطه لكل بيت ألف دينار، فوددت أن تكون الأبيات طالت علي فأجد الغنى، فقلت: يا أمير المؤمنين وأزيدك بيتاً من عندي، فقال: هات، فقلت:

وإن غدوت ظالماً غدا معك

فقال: أعطه لهذا ألف دينار، فما برحت من موقفي حتى أخذت خمسة آلاف دينار [(١)].

شعر يعزل قاضياً عن القضاء:

حدثنا محمد بن الحسن بن زياد المقري، قال: أخبرنا مسبح بن حاتم، قال: أخبرني يعقوب بن إسرائيل، قال: أخبرني محمد بن علي بن أمية، قال: كنا بحضرة المأمون بدمشق فغنى علويه:

برئت من الإسلام إن كان ذا الذي ::: أتاك به الواشون حقاً كما قالوا

ولكنهم لما رأوك سريعةً ::: إلي تواصوا بالنميمة واحتالوا

فقد صرت أذناً للوشاة سميعةً ::: ينالون من عرضي ولو شئت ما نالوا

فقال المأمون لعلويه: لمن هذا الشعر؟ قال: للقاضي، قال: أي قاض؟ قال: قاضي دمشق، فأقبل على أخيه المعتصم، فقال له: يا أبا إسحاق اعزله، قال: قد عزلته، قال: فليحضر الساعة، فأحضر شيخ خضيب ربعة من الرجال، فقال له المأمون من تكون؟ فنسب نفسه، فقال: تقول الشعر؟ قال: قد كنت أقوله، قال: يا علويه أنشده الشعر فأنشده، فقال: هذا شعرك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ونساؤه طوالق وعبيده أحرار وماله في سبيل الله إن كان قال شعراً غلا منذ ثلاثين سنة وإلا في زهد أو

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١/٥٤.

معاتبة صديق، قال: يا أبا إسحاق اعزله، فما كنت لأولي الحكم بين المسلمين من يبدأ في هزله وجده بالبراءة من الإسلام، ثم قال: اسقوه، فأتي بقدح فيه شراب فأخذه بيده وهي ترعد، ثم قال: يا أمير المؤمنين! الله الله ما ذقته قط، قال: أفحرام هو؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال المأمون: أولى لك بها، أي نجوت. ثم قال لعلويه: لا تقل برئت من الإسلام، ولكن قل:

حرمتُ منائي منك إن كان ذا الذي ::: أتاك به الواشون حقاً كما قالوا

قال محمد بن الحسن المقري: هذا القاضي هو عمر بن أبي بكر الموصلي، روى عنه الزبير بن بكار وإبراهيم بن المنذر[1].

المأمون يترك جاريته الحبيبة إلى بلاد الروم:

لما وصفت للمأمون جارية بكل ما توصف به امرأة من الكمال والجمال، فبعث في شرائها فأتى بها وقت خروجه إلى بلاد الروم، فلما هم بلبس درعه خطرت بباله فأمر فأخرجت إليه، فلما نظر إليها أعجب بها وأعجبت به، فقالت: ما هذا: قال: أريد الخروج إلى بلاد الروم. قالت: قتلتني والله يا سيدي، وجرت دموعها على خدها كنظم اللؤلؤ، وأنشأت تقول:

سأدعو دعوة المضطر ربا ::: يثيب على الدعاء ويستجيب
لعل الله أن يكفيك حرباً ::: ويجمعنا كما تهوى القلوب

فضم المأمون إلى صدره وأنشأ متمثلاً يقول:

فيا حسنها إن يغسل الدمع كحلها ::: وإذ هي تذري الدمع منها الأنامل
صبيحة قالت في العتاب قتلتني ::: وقتلي بما قالت هناك تحاول

ثم قال لخادمه: يا مسرور احتفظ بها وأكرم محلها وأصلح لها كل ما تحتاج إليه من المقاصير والخدم والجواري إلى وقت رجوعي، فلولا ما قال الأخطل حين يقول:

قومٌ إذا حاربوا شدوا مآزرهم ::: دون النساء ولو باتت بأطهارِ

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،١/٦٠، ٦١.

ثم خرج فلم يزل يتعهدها ويصلح ما أمر به، فاعتلت الجارية علة شديدة أشفق عليها منها وورد نعي المأمون، فلما بلغها ذلك تنفست الصعداء وتوفيت، وكان مما قالت وهي تجود بنفسها:

إن الزمـان سـقانا مـن مرارتـه ::: بعـد الحـلاوة أنفاساً فأروانـا
أبـدى لنـا تـارةً فأضـحكنا ::: ثم انـثنى تـارة أخـرى فأبكانـا
إنـا إلى الله فيمـا لا يـزال لنـا ::: من القضاء ومـن تلـوين دنيانـا
دنيا نراهـا ترينـا مـن تـصرفها ::: مـا لا يـدوم مـصافاةً وأحزانـا
ونحـن فيهـا كأنـا لا نزايلـها ::: للعيش أحياؤنا يبكـون موتانـا[1].

اعتذارٌ بليغٌ لدى المأمون:

حدثنا الحسين بن القاسم بن جعفر الكوكبي، قال: حدثنا أبو الفضل العباس بن الفضل الربعي، قال: حدثنا أبي وإبراهيم بن عيسى، قالا: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون - وقد كانت ضياعه حيزت وقبضت - فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، محمد بن عبد الملك بين يديك، سليل نعمتك، وابن دولتك، وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن لي في الكلام؟ قال: نعم.

فتكلم فقال: الحمد لله رب العالمين، ولا إله إلا الله رب العرش العظيم، وصلى الله على ملائكته المقربين، وعلى محمد خاتم النبيين، ونستميح الله لحياطة ديننا ودنيانا، ورعاية أقصانا وأدنانا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد في عمرك وفي أثرك من أعمارنا وآثارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، فإن الحق لا تعفو دياره، ولا يتهدم مساره، ولا ينبت حبله، ولا يزول ظله، ما دمت ظل الله في رعيته، والأمين على عباده وبلاده.

يا أمير المؤمنين! هذا مقام العائذ بظلك، الهارب إلى كنفك وفضلك، الفقير إلى رحمتك وعدلك، من تعاور الغوائب، وسهام المصائب، وكلب الدهر، وذهاب الوفر، وفي نظر أمير المؤمنين ما فرج كربة المكروب، وبرد غليل الملهوف.

---

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٧٣/١، ٧٤.

ثم إنه تقدم من رأى أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نعم آبائه الطاهرين، ونوافل أسلافه الراشدين، ما الله ولي الخيرة فيه لأمير المؤمنين، وإن عبد الملك بن صالح قدم الجزيرة حين قدمها والحرب لاقح، والسيف مشهور، والشام قد نفل أديمه، وتحطمت قرونه، والسفياني قد استعرت ناره، وكثرت أنصاره، ولبس للحرب لباسها، وأعد لها أحلاسها، وكلنا يومئذٍ في ثوب القلة والصغار، بين حربٍ دائرةٍ رحاها، وفتنةٍ تصرف بأنيابها، فكأنا نهزة دواعيها، وغرض راميها، إذا ثارت عجاجةٌ من عجاجها لم تنجل إلا عن شلو مأكول، أو دمٍ مطلول، أو منزلٍ مهدوم، أو مالٍ مكلوم، أو قلبٍ يجف، أو عين تذرف، أو حرمةٍ حرى، أو طريدة ولهى، قد أتعس الله جدها، تهتف بسيدها أمير المؤمنين من تحت رحا الدهر، وكلكل الفقر، وتدعو الله بإلباس الصبر، وإعداد النصر، فالحمد لله المتطول على أوليائك يا أمير المؤمنين، إعزاز نصرك، المبلغهم اليوم الذي كانوا يأملون، والأمد الأقصى الذي كانوا ينتظرون.

ثم إني قمت هذا المقام متوسلاً إليك بآبائك الطاهرين، بالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدي ربيع السنين، والمنصور نكال الظالمين، ومحمدٍ خير المحمدين بعد خاتم النبيين والمرسليين، وبعلي زين العابدين، وبعبد الله ترجمان القرآن ولسان الدين، وبالعباس وارث سيد المرسلين، مزداناً إليك بالطاعة التي أفرغ الله عليها غصني، واحتنكت بها سني، وسيط بها لحمي ودمي، متعوذاً من شماتة الأعداء، وحلول البلاء، ومقارنة الشدة بعد الرخاء.

يا أمير المؤمنين! قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن علي وبينهما من الرضاع والنسب ما قد علم أمير المؤمنين، فكان ذلك له خصوصاً ولبني أبيه عموماً، فسبق به بني أبيه، وفات به أقربيه، وهو صاحب الجعدي الناجم في مصر، حين اجتث الله أصله، وأيبس فرعه، وصرعه مصرعه، وهو صاحب عبد الله بن علي حين دعا الشيطان أولياءه فأجابوه، ورفع لهم لواء الضلالة فاتبعوه. وهو صاحب عيسى بن موسى حين رمى الخلافة ببصره، وسما إليها بنظره، ومشى إليها البختري، ولبس لباس ولاة العهود، حتى أثبت الله الحق في نصابه، وأقره

في قرابه.

يا أمير المؤمنين! الدهر ذو اغتيال، وقد تقلب بنا حالاً بعد حال، فليرحم أمير المؤمنين الصبية الصغار، والعجائز المحجوبات الكبار، واللاتي سقاهن الدهر كدراً بعد صفوٍ، ومراً بعد حلو، وهنيئاً نعم آبائك اللاتي غذتنا صغاراً وكباراً، وشباباً وأمشاجاً في الأصلاب، ونطفاً في الأرحام، وقربنا بحيث قربنا الله منك في القرابة والرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك، وإن وجوهنا قد عنت لموجدتك، فأقلنا عثرة عاثرنا، وعلى الله المليء الجزاء، وإن الحق في يدك، فهب لنا ما قصرنا فيه من ترك الرمم البالية، للأمم الخالية، منا في طاعة آبائك، فقد مضوا متمسكين بأقوى وسائلها، معتصمين بأقوى حبائلها، يوالون فيها البعيد الجنيب، وينادون فيها القريب الحبيب، على ذلك مضوا وبقينا حتى يرثنا الله عز وجل، وهو خير الوارثين.

يا أمير المؤمنين! إن الله عز وجل سهل بك الوعور، وجلى بك أن تجور، وملأ من خوفك القلوب والصدور، وجعل اسمك حبلاً كثيفاً، وجبلاً منيفاً، يردع بك الفاسق، ويقمع بك المنافق، فارتبط نعم الله عز وجل عنك بالعفو والإحسان، فإن كل إمامٍ مسؤول عن رعيته، وإن النعم لا تنقطع بالمزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها.

يا أمير المؤمنين! إنه لا عفو أفضل من عفو إمامٍ قادرٍ على مذنبٍ عاثر، وقد قال الله عز وجل:{وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ} [النور: ٢٢].

حاط الله أمير المؤمنين بستره الضافي، وصنعه الكافي، ثم قال:

أمير المؤمنين أتاك ركبٌ ::: هم قربى وليس لهم بلاد
هم الصدر المقدم من قريش ::: وأنت الرأس يتبعك العباد
فقد طابت لك الدنيا ولذت ::: وأرجو أن يطيب لك المعاد

فقال المأمون: يفعل ذلك بمشيئة الله، وأسأله التوفيق في الرضا عنك، والإجابة إلى ما سألت، وأن يعقب ذلك محبوباً بمنه، وجميل عادته في مثله.

وأمر برد ضياعه، وأحسن جائزته، وقضى حاجاته[١].

معنى إذا سرقت فاسرق درة:

قال أبو نصر محمد بن يحيى بن طاهر الخزاعي المروزي،: سمعت عبد الله بن منصور بن طلحة، يقول: سمعت عمي عبد الله بن طاهر، يقول: سألني المأمون أمير المؤمنين، فقال: يا أبا العباس! ما معنى إذا سرقت فاسرق درة، وإذا زنيت فازن بحرة، فقلت: أويخبرني أمير المؤمنين، قال: ليس هذا حثاً على الزنى، ولا على السرقة، ولكن إذا رمت الزنى من الحرة تعذر عليك، وإذا رمت السرقة للدرة تعذر عليك لأنها مصونة فلا تقدر عليها[٢].

رجل يعاب من لا يصطنعه:

قال أبو سهل الرازي،: لما دخل المأمون بغداد تلقاه أهلها، فقال له رجلٌ من الموالي: يا أمير المؤمنين! بارك الله لك في مقدمك، وزاد في نعمك، وشكرك عن رعيتك، فقد فقت من قبلك، وأتعبت من بعدك، وأيأست أن يعتاض منك، لأنه لم يكن مثلك، ولا علم شبهك، أما فيمن مضى فلا يعرفونه، وأما فيمن بقى فلا يرتجونه، فهم بين دعاءٍ لك، وثناءٍ عليك، وتمسكٍ بك، أخصب جانبك، واحلولى لهم ثوابك، وكرمت مقدرتك، وحسنت مبرتك، ولانت نظرتك، فجبرت الفقير، وفككت الأسير، وأنت كما قال الشاعر:

ما زلت للبذل للنوال وإط ::: لاق لعان بجرمه غلق
حتى تمنى البزاة أنهم ::: عندك أمسواً في القد والحلق

فقال المأمون: مثلك يعاب من لا يصطنعه، ويعر من يجهل قدره، فاعذرني في سالفك، فإنك ستجدنا في مستأنفنا.

بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول:

دخل المأمون ديوان الخراج فمر بغلام جميل على أذنه قلم فأعجبه ما رأى من حسنه، فقال: من أنت يا غلام؟ قال: الناشئ في دولتك وخريج

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١٥٦/١ - ١٥٧.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١٧٩/١.

أدبك يا أمير المؤمنين المتقلب في نعمتك، والمؤمل لخدمتك الحسن بن رجاء، فقال له المأمون: يا غلام بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول، ثم أمر أن يرفع عن مرتبته في الديوان، وأمر له بمائة ألف درهم(١).

خبر زيد بن موسى المعروف بالنار:

قال زيد بن موسى بن جعفر: لما أدخلت على المأمون وبخني، ثم قال: اذهبوا به إلى أخيه أبي الحسن، فجيء بي إلى الرضا فتركت بين يديه ساعة واقفاً ثم رفع رأسه إلي، فقال: يا زيد سوءةً لك، ما أنت قائلٌ لرسول الله إذ سفكت الدماء وأخفت السبيل، وأخذت المال من غير حله؟ لعلك غرك حديث حمقى أهل الكوفة أن النبي قال: إن فاطمة أحصنت فرجها فحرم الله زريتها على النار، ويلك! إنما هذا لمن خرج من بطنها الحسن والحسين فقط لا لي ولك، والله ما نالوا ذلك إلا بطاعة الله فإن أردت أن تنال بمعصية الله تعالى ما نالوه بطاعة الله عز وجل إنك إذاً لأكرم على الله عز وجل منهم(٢).

المأمون وكلب الجنة:

حدث محمد بن عبد الرحمن، قال: حدثني بعض الهاشمين، قال: خرج المأمون يوماً من الرصافة يريد الشماسية فدنونا من ركابه فسلمنا عليه وقبلنا يده، قال: وكان أمامي رجلٌ من الطالبيين يلقب بكلب الجنة، وكان طيباً ظريفاً، فلما دنا من المأمون قبل يده، فقال له المأمون كالمسر إليه: كيف أنت يا كلب الجنة؟ قال: أما الدنانير والدراهم والزينة فلعمرو بن مسعدة وأبي عباد، وأما الطنز والتجمهر فلبني هاشم، فرد المأمون كمه على فيه، وقال: ويلك كف لا تفضحني، قال: لا والله أوتضمن لي شيئاً تعجله لي، قال: العشية يأتيك رسولي، فأتاه عمرو بن مسعدة بثلاثين ألف درهم.

ويخرج بأسلحته لنصرة المأمون:

وحدث عبد الباقي بن قانع، قال:: ركب المأمون يوماً إلى المطبق

(١) المصدر السابق، ١/١٨٧.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١/١٨٨.

وبلغ القواد ركوبه فتبعوه، قال: فكان كلب الجنة ممن ركب تلك العشية، قال: فبصر به المأمون وفي يده خشبةٌ من حطب الوقود، وفي اليد الأخرى لحافه، فقال: يا كلب الجنة؟ قال: نعم كلب الجنة بلغه ركوبك فجاء لنصرتك، والله ما وجدت سلاحاً إلا هذه المشققة من حطب البقال، ولا ترساً إلا لحافي هذا، وعياش بن القاسم في بيته ألف ترس وألف درع وألف سيف قائم غير مكترث فوصله بثلاثين ألفاً وجاء عياش يركض، فشتمه المأمون وناله بمكروه(١).

مكافأة قيمة على تصحيح كلمة من حديث شريف:

حدث النضر بن شميل، قال: دخلت على أمير المؤمنين المأمون بمرو، وعلي أطمارٌ مترعبلة، فقال: لي: يا نضر أتدخل على أمير المؤمنين في مثل هذه الثياب؟ فقلت: يا أمير المؤمنين إن حر مرو لا يدفع إلا بمثل هذه الأخلاق، قال: لا، ولكنك تتقشف، قال: فتجاذبنا الحديث، فقال المأمون: حدثني هشيم بن بشير، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال: قال: رسول الله :**إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سدادٌ من عوز**﴾. قلت: صدق قول أمير المؤمنين عن هشيم، حدثني عوف الأعرابي، عن الحسن، أن النبي ، قال:**إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سدادٌ من عوز**﴾ فكان المأمون متكئًا فاستوى جالساً، وقال: السداد لحنٌ يا نضر؟ قلت: نعم هاهنا، وإنما لحن هشيم وكان لحاناً، فقال: ما الفرق بينهما؟ قلت: السداد: القصد في السبيل، والسداد: البلغة وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد، قال: أفتعرف العرب ذلك، قلت: نعم، هذا العرجي من ولد عثمان بن عفان يقول:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ::: ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

فأطرق المأمون ملياً ثم، قال: قبح الله من لا أدب له، ثم قال: أنشدني يا نضر أخلب بيت للعرب، قلت: قول ابن بيضٍ في الحكم بن مروان:

تقول لي والعيون هاجعةٌ ::: أقم علينا يوماً فلم أقم

أي الوجوه انتجعت قلت لها ::: لأي وجه إلا إلى الحكم

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٤٣/١.

متى يقل حاجبا سرادقه ::: هذا ابن بيضٍ بالباب، يبتسم
قد كنت أسلمت قبل مقتبلاً ::: هيهات أدخل أعطني سلمي

قال القاضي: قوله: أسلمت مقتبلاً، معناه أسلفت وأخذت قبل قبيلاً يعني كفيلاً، ومن السلف من كره الرهن والقبيل في السلم، ومنهم من أجازه، وقال: استوثق من حقه، فقال المأمون: لله درك! فكأنما شق لك عن قلبي، أنشدني أنصف بيت قالته العرب، قلت: قول ابن أبي عروبة المديني يا أمير المؤمنين:

إني وإن كان ابن عمي عاتباً ::: لمزاحم من خلفه وورائه
ومفيده نصري وإن كان امرأً ::: مترجرجاً في أرضه وسمائه
وأكون والي سره وأصونه ::: حتى يحيز إلى وقت أدائه
وإذا الحوادث أجحفت بسوامه ::: قرنت صحيحنا إلى جربائه
وإذا أتى من وجهه بطريفة ::: لم أطلع فيما وراء خبائه
وإذا ارتدى ثوباً جميلاً لم أقلْ ::: ياليت أن علي حسن روائه

فقال: أحسنت يا نضر، أنشدني الآن أقنع بيتٍ للعرب، فأنشدته قول ابن عبدل:

إني امرؤٌ لم أزل وذاك من الله أديباً أعلم الأدبا

أقيم بالدار ما اطمأنت بي الـد ::: ار وإن كنت نازحاً طربا
لا أجتوي خلة الصديق ولا ::: أتبع نفسي شيئاً إذا ذهبا
أطلب ما يطلب الكريم من الر ::: زق بنفسي وأجمل الطلبا
وأحلب الثرة الصفي ولا ::: أجهد أخلاف غيرب حلبا[1]

الرواية الأخرى:

قال النضر بن شميل: دخلت على المأمون، وعلي أطمارٌ أخلاقٌ غسيلٌ، فقال لي: يا نضر! تدخل علي في مثل هذه الأخلاق؟ ثم قال: نحمل منك هذا على التقشف، ثم تجاذبنا الحديث، فقال المأمون: حدثنا هشيم بن بشير، عن مجالد، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال: قال:

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٤٤/١.

رسول الله : **إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها وكمالها كان فيه سداد من عوز**﴾، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين: أخبرني عوف الأعرابي، عن الحسن، عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: قال رسول الله :**إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها وكمالها كان فيه سداد من عوز**﴾ وكان متكئاً، فجلس واستوى، وقال: يا نضر! السداد في هذا الموضع لحنٌ؟ قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، وإنما لحن هشيم، فقال لي: ما الفرق بين السداد والسداد، قلت: السداد: القصد في الدين والسبيل، والسداد: البلغة في الشيء أسد به الشيء، فقال: هل تعرف ذلك العرب؟ قلت: نعم، هذا العرجي من ولد عثمان بن عفان، يقول:

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ::: ليوم كريهةٍ وسداد ثغر
كأني لم اكن فيهم وسيطاً ::: ولم تك نسبتي في آل عمرو

فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه، وقال: قبح الله من لا أدب له، ثم تجاذبا الحديث ثم قال: قبح الله اللحن، قلت: ما لحن أمير المؤمنين، وإنما لحن هشيم، وكان هشيم لحانة، فتبع أمير المؤمنين ألفاظه، قال: وكيف روايتك الشعر، قلت: قد رويت الكثير منه، قال: فأنشدني في أحسن ما قالت العرب في الحكم، فأنشدته:

إذا كان دوني من بليت بجهله ::: أبيت لنفسي أن أقابل بالجهل
وإن كان مثلي في محلي من العلا ::: هويت إذاً حلماً وصفحاً عن المثل
وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجا ::: فإن له حق التقدم والفضل

قال: ما أحسن ما قال! فأنشدني أحسن ما قالت العرب في الحزم، فأنشدته:

على كل حال فاجعل الحزم عدةً ::: لما أنت باغيه وعوناً على الدهر
فإن نلت أمراً نلته عن عزيمةٍ ::: وإن قصرت عنه الحقوق ففي عذر

فقال: ما أحسن ما قال! فأنشدني ما قالت العرب في إصلاح العدو، حتى يكون صديقاً فأنشدته:

وذي غيلة سالمته فقهرته ::: فأوقرته مني بعبء التجمل
ومن لا يدافع سيئات عدوه ::: بإحسانه لم يأخذ الطول من عل

ولم أر في الأشـــياء أســـرع مهلكـــا ::: لـــضغنٍ قـــديمٍ مـــن وادٍ معجـــل

قال: ما أحسن ما قال! فأنشدني أحسن ما قالت العرب في السكوت، فأنشدته:

إني ليهجـــرني الـــصديق تجنبـــاً ::: فأريـــه أن لهجـــره أســـبابا
وأراه إن عاقبتـــه أغريتـــه ::: فيكـــون تركـــي للعتـــاب عتابـــا
وإذا بليـــت بجاهـــلٍ مـــتحكم ::: يجد المحـــال مـــن الأمـــور صـــوابا
أوليتـــه مـــني الـــسكوت وربمـــا ::: كان السكوت عن الجواب جوابـــا

ثم قال: ما مالك؟ قلت: أريضةٌ بمرو الروذ أتمززها، قال: أفلا نفيدك مالاً؟ قلت: إن رأى أمير المؤمنين ذلك، فدعا بدواةٍ وقرطاسٍ وكتب، ولا أدري ما كتب، ثم قال: إذا أردت أن تترب الكتاب كيف تأمر، قلت: يا غلام أترب الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: متربٌ، قال: فمن السحاة، قلت: يا غلام أسح الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: كتاب مسحًى، قال: الطين، قلت: يا غلام طن الكتاب، وأطن الكتاب، قال: فهو ماذا؟ قلت: مطينٌ ومطان، قال: يا غلام أترب وأسح وطن الكتاب، ثم قال امض إلى الفضل بن سهل بهذا الكتاب، فمضيت فأوصلته، فقال: بم استأهلت أن يأمر لك بخمسين ألف درهم؟ فحدثته الحديث على جهته، فقال: لحنت أمير المؤمنين؟ قلت: ما لحن، وإنما لحن هشيم، فتبع أمير المؤمنين ألفاظه، فأمر لي بأربعين ألفٍ أخرى من عنده، وانصرفت بكلمة أفادوها بتسعين ألف درهم.

ثمامة وهو سكران ومحاورته للمأمون:

قال الوليد بن عياش بن زفر، خرج ثمامة من منزل محمد بن نوح العمكري مع المغرب وهو سكران، وإذا هو بالمأمون قد ركب في نفر، فلما رآه ثمامة عدل عن طريقه، وبصر به المأمون فضرب كفل دابته وحاذاه، فوقف ثمامة فقال له المأمون: ثمامة؟ قال: إي والله، قال: سكران؟ قال: لا والله، قال: أفتعرفني؟ قال: أي والله، قال: من أنا؟ قال: لا أدري والله، فضحك المأمون حتى تثنى عليه عن دابته، ثم قال: عليك لعائن الله، قال: تترى يا أمير المؤمنين، قال: فعاد في الضحك، وأمر له

بخمسين ألف درهم[(١)].

ابن أبي دواد يخرج عيناً على المعتصم:

حدث أبو العباس ابن الفرات قال: لما وجه المأمون بأبي إسحاق المعتصم إلى مصر وعقد له من باب الأنبار إلى أقصى المغرب قال ليحيى بن أكثم: ينبغي أن ترتاد لي رجلاً حصيفاً لبيباً له علم وأمانة وثقة أنفذه مع أبي إسحاق، وأوليه المظالم في أعماله، وأتقدم إليه سرًّا بمكاتبتي سرًّا بأخباره وما تجري عليه أموره، وبما يظهر ويبطن، وما يرى من أمر قواده وخاصته، وكيف تدبيره في الأموال وغيرها، فإني لست أثق بأحدٍ ممن يتولى البريد، وما أحب أن أجشمه بتقليد صاحب البريد عليه فيكون معتمدي عليه وتكون كتبه سرية إليك لتقرئني إياها إذا وردت، فقال: يا أمير المؤمنين عندي رجل من أصحابي أثق بعقله ودينه ورأيه وأمانته وصدقه ونزاهته. فقال: جئني به في يوم كذا وكذا، فصار يحيى بن أكثم بأحمد بن أبي دوادٍ إلى المأمون في اليوم الذي حده له.

فكلمه المأمون فوجده فهماً راحجاً، فقال له: إني أريد إنفاذك مع أخي أبي إسحاق، وأريد أن تكتب بأخباره سراً، وتتفقد أحواله ومجاري أموره وتدبيراته وخبر خاصته وخلواته، وتنفذ كتبك بذلك إلى يحيى بن أكثم مع ثقاتك ومن تأمنه على دمك، فإني أشهر أمرك بتقليد المظالم في عسكره، وأتقدم إليه بمشورتك والأنس بك. فقال له أحمد: أبلغ لك يا أمير المؤمنين في ذلك فوق ما قدرته عندي وبي، وأنتهي إلى ما يرضي أمير المؤمنين ويزلف عنده. فجمع المأمون بين أحمد بن أبي دوادٍ وبين المعتصم وقال له: إنك تشخص في هذا العسكر وفيه أوباش الناس وجند وعجم وأخلاط من الرعية، ولا بد لعسكرك من صاحب مظالم يكون فيه لينظر في أمور الناس، وقد اخترت لك هذا الرجل فضمه إليك وأحسن صحبته وعشرته؛ فأخذه المعتصم معه، فلما بلغوا الأنبار وافت كتب أصحاب البريد بموافاة المعتصم الأنبار، فقال المأمون ليحيى: ترى ما كان من بغداد إلى الأنبار خبر يكتب به صاحبك إليك؟ قال فقال يحيى: لعله يا أمير المؤمنين لم

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٥٣/١.

يحدث خبر تحسن المكاتبة به؛ وكتب يحيى إلى أحمد يعنفه ويستبطئه ويخبره أن أمير المؤمنين قد أنكر تأخر كتابه. فلما ورد الكتاب على أحمد ووقف على ما فيه احتفظ به ولم يجب عنه؛ وشخص المعتصم حتى وافى الرحبة ولم يكتب أحمد بحرف واحدٍ من أخبار المعتصم التي تقدم إليه فيها. وكتب أصحاب البريد بموافاة المعتصم الرحبة وأخبار عسكره، فدعا المأمون يحيى بن أكثم فقال: يا أسخن الله عينك، عجبت أن تختار إلا من هذه سبيله، تختار لي ويحك رجلاً تصفه بكل الصفات فأتقدم إليه بما كنت حاضره، فلا يكتب من بغداد إلى أن يوافى الرحبة إليك كتاباً في معنى ما اعتمد عليه فيه:؟! قال: فكتب يحيى إلى أحمد كتاباً أغلظ له المخاطبة وأسمعه فيه المكروه ويقول له: إنما أشخصناك لما تقدمنا به إليك، وإنا إنما أظهرنا تقليدك المظالم ليتيسر ما أمرت به، فما هذه الغفلة وما هذا الجهل بما يراد منك؟ فورد الكتاب على أحمد فقرأه واحتفظ به، وسار المعتصم من الرحبة حتى وافى الرقة، فدعا المأمون بيحيى فقال له: يا سخين العين، هذا مقدار رأيك وعقلك؟ اللهم إلا أن تكون غررتني معتمداً، وأوطأتني العشوة قصداً أولا فتجيئني برجل تعلم موقعه عندك وتطلعني على الوقوف عليه فتصفه وتقرظه حتى أودعته سراً من أسراري وأمراً أقدمه على كل أموري، فمضى من مدينة السلام إلى ديار مصر فلم يكتب بحرفٍ مما أمر بالكتاب به؟! فقال: يا أمير المؤمنين من يعمل بغير ما يؤدي إلى محبتك ويقود إلى إرادتك فأذاقه الله بأسك، وألبسه نكالك، وصب عليه عذابك.

وكتب إلى أحمد كتاباً يشتمل على كل إيعاد وإرهابٍ وتخويف وتحذير، وخاطبه بأوحش مخاطبةٍ وأنكلها، فورد الكتاب على أحمد فقرأه واحتفظ به.

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب إلى أبي إسحاق المعتصم كتاباً يأمره فيه بالبعثة بأحمد بن أبي دواد مشدودةً يده إلى عنقه، مثقلاً بالحديد، محمولاً على غير وطاء. فورد الكتاب على المعتصم، ودخل أحمد بن أبي داود إليه وهو بالرقة ما جاوزها، فرأى المعتصم كئيباً مغموماً، فقال: أيها الأمير أراك متغيراً وأرى لونك حائلاً، فقال: نعم

لكتابٍ ورد علي من أجلك، ونبذ إليه بالكتاب فقرأه أحمد، فقال له المعتصم: تعرف لك ذنباً يوجب ما كتب به أمير المؤمنين؟ قال: ما اجترمت ذنباً، إلا أن أمير المؤمنين لا يستحل هذا مني إلا بحجةٍ، فما الذي عند الأمير فيما كتب به إليه؟ فقال: أمر أمير المؤمنين لا يخالف لكني أعفيك من الغل والحديد، أحملك إليه على حال لا توهنك ولا تؤلمك وأوجه بك مع غلامٍ من غلماني أتقدم إليه في ترفيهك وأن لا يعسفك، فقال: جزاك الله أيها الأمير أفضل ما جازى منعماً، فإن رأى الأمير أن يأذن لي في المصير إلى منزلي ومعي من يراعيني إلى أن يردني إلى مجلس الأمير فيأمر بأمره فعل، فقال له: امض؛ ووجه معه خادماً من خدمه، فصار أحمد إلى منزله واستخرج الكتب الثلاثة التي كاتبه بها يحيى بن أكثم وهم بالأنبار، والكتاب الذي ورد وهم بالرحبة، والكتاب الذي ورد وهم بالرقة، ورجع إلى المعتصم فأقرأه الكتاب الأول ثم الثاني ثم الثالث وقال له: إنما بعثت لأكتب بأخبارك وأتفقد أحوالك وأكاتب يحيى بذلك ليقرأه على أمير المؤمنين فخالفت ذلك لما رجوته من الحظوة عندك ولما أملته في غدك. فاستشاط المعتصم غضباً وكاد يخرج من ثيابه غيظاً وتكلم في يحيى بكل مكروه وتوعده بكل بلاءٍ وقال: ويلي على البقار البليد السراويل، وقال لأحمد: يا هذا لقد رعيت لنا رعاية لم يتقدمها إحساننا إليك وحفظت علينا ما نرجو أن نتسع، لمكافأتك عليه ومعاذ الله أن أسلمك أو أفرج عنك أو تنالك يد ولي قدرة على منعها منك، أو أوثر خاصة وحميماً عليك ما امتد بي عمر أو تراخى بي أجل، فكن معي فأمرك نافذ في كل ما ينفذ فيه أمري؛ ولم يجب المأمون على كتابه، فلم يزل معه إلى أن ولي الخلافة وإلى أن ولي الواثق وإلى أيام المتوكل، فأوقع به [1].

رؤيا المأمون وما قال أرسطاطاليس:

حدث عبد الله بن طاهر قال: عجبني أمير المؤمنين من رؤيا رآها، فسألته عنها فذكر أنه رأى في منامه كأن رجلاً جلس مجلس الحكماء

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٢٨٢/١.

فقلت له: من أنت؟ قال: أنا أرسطاطاليس الحكيم، فقلت له: أيها الحكيم ما أحسن الكلام؟ قال: ما يستقيم في الرأي قلت: ثم ماذا؟ قال: ما يستحسنه سامعه، قلت: ثم ماذا؟ قال: ما لا تخشى عاقبته، قلت: ثم ماذا؟ قال لا ثم. قال المأمون: لو كان حياً ما كان يتكلم بأكثر مما تكلم به (١).

المأمون والرجل المتحنط المتكفن:

قال الحسن بن عبد الجبّار المعروف بالعرق: بينما المأمون في بعض مغازيه يسير مفرداً عن أصحابه ومعه عجيف بن عنبسة إذ طلع رجلٌ متحنّطٌ متكفّن، فلما عاينه المأمون وقف، ثم التفت إلى عجيف فقال: ويحك أما ترى صاحب الكفن مقبلاً يريدني، فقال له عجيف، أعيذك بالله يا أمير المؤمنين، قال: فما كذب الرجل أن وقف على المأمون، فقال له المأمون: من أردت يا صاحب الكفن وإلى من قصدت؟ قال: إيّاك أردت، قال: أو عرفتني؟ قال: لو لم أعرفك ما قصدتك، قال: أفلا سلّمت عليَّ؟ قال: لا أرى السلام عليك، قال: ولم؟ قال: لإفسادك علينا الغزاة، قال عجيف: وأنا ألين مسَّ سيفي لئلا يبطئ ضرب عنقه، إذ التفت المأمون فقال: يا عجيف إني جائعٌ ولا رأي لجائع، فخذه إليك حتّى أتغدى وأدعو به، قال: فتناوله عجيفٌ فوضعه بين يديه، فلمّا صار المأمون إلى رحله دعا بالطعام، فلمّا وضع بين يديه أمر برفعه وقال: والله ما أسيغه حتّى أناظر خصمي، يا عجيف عليَّ بصاحب الكفن، قال: فلمَّا جلس بين يديه قال: هيه يا صاحب الكفن ماذا قلت؟ قال: قلت: لا أرى السلام عليك لإفسادك الغزاة علينا قال: بماذا أفسدتها؟ قال: باطلاقك الخمور تباع في عسكرك وقد حرَّمها الله عزّ وجل في كتابه، فابدأ بعسكرك فنظّفه، ثم اقصد الغزو، لماذا استحللت أن تبيح شيئاً قد حرَّمه الله كهيئة ما أحلّ الله عزّ وجلّ؟ قال: أو عرفت الخمر أنها تباع ظاهراً أو رأيتها؟ قال: لو لم أرها وتصحَّ عندي ما وقفت هذا الموقف، قال: فشيءٌ سوى الخمر أنكرته؟ قال: نعم، إظهارك الجواري في العماريّات، وكشفهنَّ الشعور منهنَّ بين أيدينا كأنهنَّ فلق الأقمار، خرج الرجل منّا يريد أن يهراق دمه

(١) المصدر السابق، ٣٠٦/١.

في سبيل الله ويعقر جواده قاصداً نحو العدو، فإذا نظر إليهنَّ أفسدن قلبه وركن إلى الدنيا وانصاع إليها، فلم استحللت ذلك؟ قال: ما استحللت ذاك، وسأخبرك بالعذر فيه فإن كان صواباً وإلاّ رجعت. نعم قال:: شيء غير هذا أنكرته،؟ قال: نعم شيء أمرت به: تنهانا عن الأمر بالمعروف، قال: أما الذي يأمر بالمنكر فأني أنهاه وأمّا الذي يأمر بالمعروف فإنّي أحثه على ذلك وأحدوه عليه. ثم قال: أفشيء سوى ذلك؟ قال: لا، قال: يا صاحب الكفن أمّا الخمر فلعمري لقد حرَّمها الله تعالى، ولكن الخمر لا تعرف إلاّ بثلاث جوارح: النَّظر والشمّ والذوق، أفتشربها أنت؟ قال: معاذ الله أن أنكر ما أشرب، قال: أفيمكن في وقتك هذا أن تقفنا على بيعها حتّى نوجّه معك من يشتري منها؟ قال: فمن يظهرها لي أو يبيعنيها وعليّ هذا الكفن؟ قال: صدقت. قال: فكأنك إنما عرفتها بهاتين الجارحتين، يا عجيف عليَّ بقوارير فيها شراب. فانطلق عجيف فأتاه بعشرين قارورة فوضعها بين يديه في أيدي عشرين وصيفاً، ثم قال: يا صاحب الكفن، نفيت من آبائي الرّاشدين المهديّين إن لم تكن الخمر فيها، فإنّك تعلم أن الخمر من ستر الله على عباده، وإنّه لا يجوز لك أن تشهد على قومٍ مستورين إلاّ بمعاينة بيّنة وعلم، ولا يجوز لي أن آخذ إلا بمعاينة بيّنة وشاهدي عدلٍ.

قال: فنظر صاحب الكفن إلى القوارير، فقال له عجيف: أيّها الرجل لو كنت خمّاراً ما عرفت موضع الخمر بعينها من هذه القوارير، قال فقال له: هذه الخمر بعينها من هذه القوارير، فأخذ المأمون قارورة فذاقها ثم قطّب ثم قال: يا صاحب الكفن انظر هذه الخمر، فتناول الرجل القارورة فذاقها فإذا خلّ ذابح، فقال: قد خرجت هذه عن حدِّ الخمر، فقال المأمون: صدقت إنّ الخلّ مصنوعٌ من الخمر لا يكون خلاً حتّى يكون خمراً، ولا والله ما كانت هذه خمراً قطّ، وما هو إلاّ رمّان حامض يعصر لي أصطبغ به من ساعته؛ قد سقطت الجارحتان وبقي الشمُّ، يا عجيف صيِّرها في رصاصيّات وأت بها، قال: ففعل، فعرضت على صاحب الكفن فشمَّها فوقه فوقع مشمه منها على قارورة فيها لبيختبج فقال: هذه فأخذها المأمون فصبها بين يديه وقال: انظر إليها كأنّها طلا قد عقدتها النّار، بل

تقطع بالسكين، قد سقطت إحدى الثلاث التي أنكرت يا صاحب الكفن، ثم رفع المأمون رأسه إلى السماء فقال: اللّهمّ إنّي أتقرَّب إليك بنهي هذا ونظرائه عن الأمر بالمعروف. يا صاحب الكفن أدخلك الأمر بالمعروف في أعظم المنكر، شنَّعت على قومٍ باعوا من هذا الخلِّ ومن هذا النبيختج الّذي شممت فلم تسلّم. استغفر الله من ذنبك هذا العظيم وتب إليه. ما الثاني؟ قال: الجواري قال: صدقت، أخرجتهنّ أبقي عليك وعلى المسلمين، كرهت أن تراهنَّ عيون العدو والجواسيس في المعاريّات والقباب، والسجوف عليهنّ، فيتوهّمون أنّهنّ بنات وأخوات فيجدّون في قتالنا ويحرصون على الغلبة على ما في أيدينا حتّى يجتذبوا خطام واحدٍ من هذه الإبل يستقيدونكم بكل طريق إلى أن يتبيّن لهم أنهنّ إماء، فأمرت برفع الظلال عنهنّ وكشف شعورهنّ فعلم العدوُّ أنهنّ إماء نقي بهنَّ حوافر دوابنا لا قدر لهنّ عندنا؛ هذا تدبير دبَّرت للمسلمين، ويعزُّ عليَّ أن ترى لي حرمة، فدع هذا فليس هو من شأنك فقد صحَّ عندك أنّي في هذا مصيب وأنّك أنكرت باطلاً. أيّ شيء الثالثة؟ قال: ألأمر بالمعروف، قال: نعم أرأيتك لو أنك أصبت فتاةً مع فتى قد اجتمعا في هذا الفجّ على حديث ما كنت صانعاً بهما؟ قال: كنت أسألهما ما أنتما، قال: كنت تسأل الرجل فيقول: امرأتي، وتسأل المرأة فتقول: زوجي، ما كنت صانعاً بهما؟ قال: كنت أحول بينهما فأحبسهما، قال: حتّى يكون ماذا؟ قال: حتّى أسأل عنهما، قال: ومن تسأل عنهما؟ قال: كنت أسألهما من أين أنتما، قال: سألت الرجل من أين أنت فقال لك: أنا من أسبيجاب، وسألت المرأة: من أين أنت؟ فقالت: من أسبيجاب، ابن عمِّي، تزوّجنا وجئنا.

كنت حابساً الرجل والمرأة بسؤالك وتوهّمك الكاذب إلى أن يرجع الرسول من أسبيجاب فمات الرسول أو ماتا إلى أن يعود رسولك، قال: كنت أسأل في عسكرك هاهنا، قال: فلعلّك لا تصادف في عسكري هذا من أهل أسبيجاب إلاّ رجلاً أو رجلين فيقولان لك: لا نعرفهما على هذا النسب. يا صاحب الكفن ما أحسبك إلاّ أحد ثلاثة رجالٍ إمّا رجل مديون، وإمّا مظلوم، وإمّا رجل تأوّلت في حديث أبي سعيد الخدري في خطبة النبيّ صلى الله عليه وعلى آله قال: ورُوي الحديث عن هشيم وغيره،

ونحن نسمع الخطبة إلى مغيربان الشمس إلى أن بلغ إلى قوله: " إن أفضل الجهاد كلمة حقٍّ عند سلطان جائر " فجعلتني جائراً، وأنت الجائر، وجعلت نفسك تقوم مقام الآمر بالمعروف، وقد ركبت من المنكر ما هو أعظم عليك، لا والله لا ضربتك سوطاً ولا زدت على تخرق كفنك، ونفيت من آبائي الراشدين المهديين لئن قام أحد مقامك هذا لا يقوم بالحجّة فيه إن نقصته من ألف سوطٍ ولآمرنَّ بصلبه في الموضع الذي يقوم فيه، قال: فنظرت إلى عجيف وهو يخرق كفن الرجل ويلقي عليه ثياب بياض [١].

أبو الينبغي والمأمون:

كان أبو الينبغي يحمَّق، وكان أحد الدواهي والمجّان، وكان يتكسَّب بالحمق، فلما قتل محمد بن زبيدة وصار الأمر إلى المأمون ذكر له أبو الينبغي فأمر بإحضاره، فلما دخل عليه وسلَّم أمره بالجلوس فجلس، فقال له بعض الجلساء: قم فأنشد أمير المؤمنين، فاقل: يا رقيع، أمير المؤمنين يقول لي: اجلس وأنت تقول لي قم. فقال المأمون: بل اجلس وأنشد، فقال: نعم يا أمير المؤمنين، وأنشأ يقول:

كنتم أنتم ثلاثة ::: كلّكم نسل الملوك
ذهب الموت بواحد ::: ما أرى ذاك يسوك

فقال المأمون: اغرب قبحك الله، وأمر به فأخرج، ثم قال: لا والله ما ينبغي أن نخيِّبه فقد قال على جنونه شبيهاً بالحق، ولا والله أعطوه عشرة آلاف فقبضها وانصرف. وهو يقول: شبيه بالحق، لا والله إلا الحق كله[٢].

لا رأي لنا في الشركة!:

ولما ظفر المأمون بعمه إبراهيم بن المهدي قال لأحمد بن أبي خالد الكاتب: يا أحمد! ما تقول في هذا الرجل؟ فقال: يا أمير المؤمنين! إن تقتله فقد وجدت مثلك قتل مثله! وإن تعف عنه لم تجد مثلك عفا عن مثله! فقال

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١/ ٤١١.
(٢) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ٤٦٤/١.

المأمون: لا رأي لنا في الشركة! وأمر بإطلاقه؛ وعفا عنه (١).

أحب إلي من جائزته:

كتب محمد بن عمر الواقدي إلى المأمون رحمه الله يشكو غلبة الذين وضيق اليد فوقع على كتابه: فيك خلتان الحياء والسخاء؛ فأما الحياء فهو الذي منعك أن ترفع إلينا خبرك؛ وأما السخاء فهو الذي أنفذ ما بيدك؛ وأنت كنت حدثتني وأنت على قضاء الرشيد رحمه الله أن النبي قال للزبير: **يا زبير! إن باب الرزق بإزاء العرش ينزل الله على عباده على قدر نفقاتهم فمن كبر كبر له، ومن قلل قلل عليه﴾**، وقد أمرنا لك بمائة ألف درهم فاتسع في ذات يدك! فقال الواقدي: والله لمذاكرته إياي الحديث - وقد أنسيته أحب إلي من جائزته(٢).

رد المظالم:

عن قحطبة بن حميد قال: إني لواقف على رأس المأمون يوماً وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدم إليه - وقد هم بالقيام - امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم. فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي بحاجتك. فقالت:

يا خير منتصف يهدى لـه الرشـد ::: ويا إماماً بـه قـد أشـرق البلـد

تشكو إليك عميد القوم أرملةعدى عليها فلم يترك لها سبد

وابتز مني ضـياعي بعـد منعتـها ::: ظلما وفرق مـني الأهـل والولـد

فأطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دون ما قلت زال الصبر والجلـد ::: عني وأقرح مـني القلـب والكبـد

هذا أذان صلاة العـصر فانـصرفي ::: وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد

فالمجلس السبت إن يقض الجلوس لنا ::: ننصفك منه وإلا المجلـس الأحـد

قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة،

---

(١) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ٢٤/١.
(٢) المصدر السابق، ٣١/١.

فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك السلام ثم قال: أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين - وأومأت إلى العباس ابنه - فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم. فجعل كلامها يعلو كلام العباس. فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فاخفضي من صوتك. فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه. ثم قضى لها برد ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي ببلدها أن يوغر لها ضيعتها ويحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة (١).

ودخل الحارث بن مسكين على المأمون فسأله عن مسألة، فقال: أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد؟ - وذكر قوله فلم يعجب المأمون - فقال: لقد تيست فيها وتيس مالك. قال الحارث بن مسكين: فالسامع يا أمير المؤمنين، من التيسين أتيس. فتغير وجه المأمون. وقام الحارث بن مسكين فخرج، وتندم على ما كان من قوله. فلم يستقر منزله حتى أتاه رسول المأمون؛ فأيقن بالشر، ولبس ثياب أكفانه، ثم أقبل حتى دخل عليه فقربه المأمون من نفسه، ثم أقبل عليه بوجهه فقال له: يا هذا، إن الله تبارك وتعالى قد أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شر مني، فقال لنبيه موسى إذ أرسله إلى فرعون:{فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾} [طه: ٤٤]. فقال: يا أمير المؤمنين، أبوء بالذنب وأستغفر الرب. قال: عفا الله عنك، انصرف إذا شئت(٢).

واستأذن رجل المأمون في تقبيل يده، فقال له: إن قبلة اليد من المسلم ذلة، ومن الذمي خديعة، ولا حاجة بك أن تذل، ولا بنا أن نخدع(٣).

فعليهم فابك وإياهم فاشكر:

قال برون الكبير: وجّه إليّ المأمون وقد مضى من الليل الثلث فقال

(١) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ٤/١.
(٢) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ١٧/١.
(٣) المصدر السابق، ١٣٢/١.

لي: يا برون قد أكثر علينا أصحاب الأخبار في أن شيخاً يرد خرابات البرامكة فيبكيهم ويندبهم وينشد أبياتاً من الشعر فاركب أنت وعليّ بن محمد ودينار ابن عبد الله حتى تردوا هذه الخرابات فتصيروا من وراء جدرانها فإذا رأيتم الشيخ قد ورد وبكى وأنشد فأتوني به. قال برون: فركبت مع القوم حتى وردنا الخرابات، وإذا الخادم قد أتى ومعه زلّيّة رومية وكرسيّ جديد، وإذا شيخ وسيم جميل له صلعة وهامة فجلس يبكي ويقول:

ولما رأيت السيف قد قدّ جعفراً ::: ونادى مناد للخليفة في يحيى
بكيت على الدنيا وأيقنت أنه ::: قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا
أجعفر إن تهلك فرُبّ عظيمة ::: كشفت ونعمى قد وصلت بها نعمى
فقل للذي أبدى ليحيى وجعفر ::: شماتته أبشر لتأتيهم العقبى
لئن زال غصن الملك عن آل برمك ::: فما زال حتى أثمر الغصن واستعلى
وما الدهر إلا دولة بعد دولة ::: تبدل ذا ملك وتعقب ذا بلوى
على أنها ليست تدوم لأهلها ::: ولو أنها دامت لكنتم بها أولى
بني برمك كنتم نجوماً مضيئةً ::: بها يهتدي في ظلمة الليل من أسرى
لأيكم أبكي أللفضل ذي الندى ::: أم الشيخ يحيى أم لمحبوسه موسى
أم الملك المصلوب من بعد عزة ::: أم ابكي بكاء المعولات أم الثكلى
لكلكم أبكي بعينٍ غزيرةٍ ::: وقلبٍ قريحٍ لا يموت ولا يحيا

قال: فتراءينا له ثم قبضنا عليه، فجزع وفزع وقال: من القوم؟ فقال برون: أنا حاجب أمير المؤمنين وهذا فلان وفلان. قال: وما الذي تريدون؟ قال برون: فأعلمته ما أمر به أمير المؤمنين من أخذه إلى مجلسه. قال: ذرني أوص فإني لا آمنه، ثم تقدم إلى بعض العلافين في فرضة الفيل فأخذ بياضاً وأوصى فيه وصية خفيفة ودفعها إلى الغلام وسرنا به، فلما مثل بين يدي المأمون زبره وقال: من أنت وبماذا استوجب البرامكة ما تفعله في دورهم؟ قال: يا أمير المؤمنين للبرامكة عندي أيادٍ خضرة أفتأذن لي أن أحدّثك؟ فقال: سديداً. قال: أنا يا أمير المؤمنين المنذر بن المغيرة من أهل دمشق كنت بها من أولاد الملوك فزالت عني نعمتي كما تزول عن الرجال، فلما ركبتني الديون واحتجت

إلى بيع مسقط رأسي ورؤوس آبائي أشاروا عليّ بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبيًّا وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يرهن حتى دخلت بغداد ونزلنا بباب الشام في بعض المساجد ودعوت بثوبيات لي قد كنت أعددتها لأستميح بها الناس وتركتهم جياعاً وركبت شوارع بغداد فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ قد طبّقوا طيالستهم بأحسن زي وزينة وبزة، وإذا خادمان على باب المسجد، فطمعت في القوم وولجت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدّم وأؤخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي، فأنا لكذلك إذا أنا بخادم قد أقبل وقال للخادمين: ازعجا القوم، فازعج القوم وأنا معهم فأدخلونا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم، فإذا بيحيى جالساً على دكة له وسط بستان، فسلّمنا وهو يعدنا مائة رجل وواحداً، وبين يدي يحيى عشرة من ولده، وإذا غلام أمرد حين عذّر خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم متنطقون في وسط كل خادم منطقة من ألف مثقال مع كل خادم مجمرة من ذهب ورجل من ذهب في كل مجمرة قطعة من العود كهيئة الفهر قد ضم إليه مثله من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام وجلس الغلام إلى جنب يحيى ثم قال يحيى للزبرقيّ القاضي: تكلم فقد زوّجت ابنتي عائشة من ابن عمي هذا من بيت نار النوُّبهار.

فخطب القاضي وشهد القاضي والنفر وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمّي ونظرت وإذا يحيى في الدكّة ما بين المشايخ ويحيى وولده والغلام ونحن مائة رجل واثنا عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة خادم واثنا عشر خادماً مع كل خادم صينية فضة عليها ألف دينار شامية، فوضع بين يدي كل رجل منا صينية، فرأيت القاضي والمشايخ يصبّون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصواني تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول حتى بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على الصينية، فغمز لي الخادم، فجسرت عليها وجعلتها في كمّي وأخذت الصينية وقمت وأنا أمر طول الصحن والتفتّ ورائي هل يتبعني أحد، فإني لكذلك أطاول الالتفات ويحيى يلحظني فقال للخادم: ائتني بالرجل، فرُددت إليه، فأمر، فسُلبتُ الدنانير والصينية، ثم أمرني

بالجلوس فجلست، فقال: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصتي. فقال: علي بموسى، فأُتي به، فقال: يا بني هذا رجل غريب فخذه إليك اخلطه بنفسك ونعمتك. فقبض عليّ موسى وأخذني إلى بعض دوره فقصف عليّ يومي وليلتي، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: إن الوزير أمرني بالقصف على هذا الفتى وقد علمت تشاغلي في دار أمير المؤمنين فاقبض عليه وقاصفه، فلما كان من غد تسلمني أحمد، ثم لم أزل وأيدي القوم تتداولني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني في الأموات هم أم في الأحياء، فلما كان في اليوم العاشر دُفعت في يدي الفضل فقصف عليّ، فلما كان في الحادي عشر جاءني خادم مع عشرة من الخدم فقالوا: قم عافاك الله فاخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: وا ويلاه سلبت الدنانير والصينية وقد تمزقت ثيابي واتسخت وأخرج على هذه الحالة! إنا لله وإنا إليه راجعون! فرُفع لي الستر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس، فقبل أن رُفع السابع قال لي الخادم: تمنّ ما شئت، ورفع لي ستر عن حجرة كالشمس استقبلني منها رائحة العود والندّ ونفحات المسك، وإذا أنا بصبياني يتقلبون في الحرير والديباج وأنا قد حمل إليّ ألف ألف درهم مبدّرة وعشرة آلاف دينار وقبالتين بضيعتين وتلك الصينية مع الدنانير والبنادق، فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم من بيت نار النوبهار أو رجل غريب اصطنعوني، فلما جاء القوم البلية ونزلت بهم من الرشيد النازلة قصدني عمرو بن مسعدة وألزمني من الخراج في هاتين الضيعتين ما لا يفي دخلهما به، فلما تحامل عليّ الدهر كنت أنظر إلى خرابات القوم فأندبهم. فقال المأمون: علي بعمرو بن مسعدة، فلما أُتي به قال له: يا عمرو أتعرف الرجل؟ قال: نعم هو من بعض صنائع البرامكة. قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا. قال: ردّ عليه كل ما استأديته إياه في سنيه وأوغر ضيعتيه تكونان له ولعقبه من بعده، فعلا نحيب الرجل بالبكاء يرثي البرامكة، فلما طال بكاؤه قال له المأمون: فممّ بكاؤك وقد أحسنا إليك؟ قال: يا أمير المؤمنين هذا أيضاً من صنائع البرامكة، أرأيتك يا أمير المؤمنين لو لم آت خرابات القوم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل

خبري بأمير المؤمنين ففعل بي ما فعل من أين كنت أصل إلى ما وصلت إليه؟ قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عينه واشتد حزنه على القوم وقال: صدقت لعمري هذه أيضاً من صنائعهم، فعليهم فابك وإياهم فاشكر! [١].

قبول السعاية شرًّا:

قيل: وكتب صاحب بريد همذان إلى المأمون بخراسان يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطآ على إخراج مائتي ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما، فوقع المأمون: إنا نرى قبول السعاية شراً كمن قبله وأجازه، فأنف الساعي عنك فلو كان في سعايته صادقاً لقد كان في صدقه لئيماً إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه.

قال: وقال المأمون لولده: يا بني نزّهوا أقداركم وطهروا أحسابكم عن دنس الوشاة وتمويه سعايتهم فكل جانٍ يده في فيه وليس يشي إليكم إلا أحد الرجلين ثقة وظنين، أما الثقة فقد قيل: إنه لا يبلغ ولا يشين بالوشاية قدره، وأما الظنين فأهل أن يتهم صدقه ويكذّب ظنه ويردّ باطله، وما سعى رجل برجل إليّ قط إلا انحط من قدره عندي ما لا يتلافاه أبداً، فلا تعطوا الوشاة أمانيهم فيمن يشون بهم، فقد قال بعض الملوك لرجل سعى بآخر: لو كنت أنت أنا ما كنت صانعاً به؟ قال: كنت أقتله. فقال: أما إذ لم تكن أنت أنا فإني غير قاتله ومع ذلك فلا تدعوا الفحص عما يلقى إليكم مما تحذرون رجوع ضرره عليكم [٢].

ما رأيت شيخاً قط أجهل منك ولا أحمق!:

قال ثمامة صاحب الكلام: كان المأمون قد همّ بلعن معاوية وأن يكتب بذلك كتاباً في الطعن عليه، قال: ففثأه عن ذلك يحيى بن أكثم وقال: يا أمير المؤمنين العامة لا تحتمل هذا ولا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرةٌ ونبوةٌ لا تستقال ولا يُدرى ما تكون عاقبتها، والرأي أن

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،١/٥٤، ٥٥.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،١/٥٦.

تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح في السياسة وآمن في العاقبة وأجرى في التدبير، فركن إلى قوله، فلما دخلت عليه قال: يا ثمامة قد علمت ما كنا دبّرناه في أمر معاوية وقد عارضنا رأيٌ هو أصلح في تدبير المملكة وأبقى ذكراً في العامة، ثم أخبرني أن يحيى بن أكثم حذّره وأخبره بنفور العامة عن مثل هذا الرأي، فقلت: يا أمير المؤمنين والعامة عندك في هذا الموضع الذي وضعها فيه يحيى، والله لو بعثت إليها إنساناً على عاتقه سوادٌ ومعه عصاً لساق إليك منها عشرة آلاف! والله يا أمير المؤمنين ما رضي الله جل وعز أن سوّاها بالأنعام حتى جعلها أضل سبيلاً، فقال تبارك وتعالى:{أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾} [الفرقان: ٤٤]، والله لقد مررت يا أمير المؤمنين منذ أيام في شارع الخلد وأنا أريد الدار فإذا إنسان قد بسط كساءه وألقى عليه أدوية وهو قائم ينادي: هذا الدواء للبياض في العين والغشاوة والظلمة وضعف البصر، وإن إحدى عينيه لمطموسة والأخرى مؤلمة، وقد تألبوا عليه واحتفلوا إليه، فنزلت عن دابتي ودخلت بين تلك الجماعة فقلت: يا هذا أرى عينيك أحوج الأعين إلى العلاج وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء! فما بالك يا هذا لا تستعمله؟ قال: أنا في هذا الموضع منذ عشرين سنة ما رأيت شيخاً قط أجهل منك ولا أحمق! قلت: وكيف ذاك؟ قال: يا جاهل أتدري أين اشتكت عيني؟ قلت: لا، قال: بمصر، فأقبل عليّ الجماعة فقالت: صدق والله أنت جاهل، وهمّوا بي، فقلت: والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر! فتخلصت منهم بهذه الحجة. قال: فضحك المأمون وقال: ما لقيت من الله جل ذكره من سوء الثناء وقبح الذكر أكثر، قلت: أجل[1].

لا بدّ من أن آخذ منها كما أخذت منك:

وحدّث رجل عن جعفر العطار قال: بينما يحيى بن أكثم يماشي المأمون في بستان موسى والشمس عن يمينه والمأمون في الظل وقد

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٦٨/١.

وضع يده على عاتق يحيى وهما يتحدثان إذ رأى المأمون أن يرجع في الطريق الذي جاء منه، فلما انتهى إلى الموضع الذي قصده قال يحيى: إنك جئت وعن يسارك الشمس وقد أخذت منك فكن أنت الآن في منصرفك حيث كنت وأكون أنا حيث كنت أنت، فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين لو أمكنني أن أقيك بنفسي من هول المطلع لفعلت فكيف لا أصبر على أذى الشمس ساعة؟ فقال: والله لا بدّ من أن آخذ منها كما أخذت منك وتأخذ من الظل كما أخذت منه! فصار المأمون في موضعه وصار يحيى في موضع المأمون وتماشيا وأخذ بيده فوضعها على عاتقه حتى صار إلى المجلس(١).

محاسن الرؤيا:

حدثنا أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد قال: كان المأمون يبطّل الرؤيا ويقول: ليست بشيء ولو كانت على الحقيقة كنا نراها ولا يسقط منها شيء، فلما رأينا إنما يصحّ منها الحرف والحرفان من الكثير علمنا أنها باطل وأن أكثرها لا يصح، وكان بعث بابنه العباس إلى بلاد الروم فأبطأ عليه خبره فصلّى ذات يوم الصبح وخفق وانتبه ودعا بدابته وركب وقال: أحدثكم بأعجوبة، رأيت الساعة كأن شيخاً أبيض الرأس واللحية عليه فروة وكساؤه في عنقه ومعه عصاً وفي يده كتاب فدنا مني وقد ركبت فقلت: من أنت؟ فقال: رسول العباس بالسلامة، وناولني كتابه. فقال المعتصم: أرجو أن يخفق الله رؤيا أمير المؤمنين ويسره بسلامته. قال: ثم نهض فوالله ما هو إلا أن خرج فسار قليلاً إلا وبصر بشيخ قد أقبل نحوه في تلك الحال، فقال المأمون: هذا والله الذي رأيته في منامي وهذه صفته. قال: فدنا منه الرجل فنحّاه خدمه وصاحوا به. فقال: دعوه. فجاء الشيخ، فقال له: من أنت؟ قال: رسول العباس وهذا كتابه. قال: فبهتنا وطال منه تعجبنا. فقلت: يا أمير المؤمنين أتبطل الرؤيا بعد هذه؟ قال: لا(٢).

(١) المصدر السابق، ٨٨/١.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ١٤٤/١.

فما نطق بحرف:

قيل: ودخل أبو العتاهية على المأمون حين قدم العراق فأنشده شعراً يمدحه به، فأمر له بمال جزيل وأقبل عليه يحدثه إذ ذكر أبو العتاهية القدرية، فقال: يا أمير المؤمنين ما في الأرض فئة أجهل ولا أضعف حجة من هذه العصابة. فقال المأمون: أنت رجل شاعر وأنت بصناعتك أعلم فلا تتخطها إلى غيرها فلست تعرف الكلام. فقال: إن جمع أمير المؤمنين بيني وبين رجل منهم وقف على ما عندي من الكلام. قال ثمامة: فوجّه إليّ رسولاً، فلما دخلت قال: يا ثمامة زعم هذا أنه لا حجة لك ولا لأصحابك! قلت: فليسل عما بدا له.

فقال المأمون: سله يا إسماعيل. قال: أقطعه يا أمير المؤمنين بحرف واحد؟

قال: شأنك. فأخرج أبو العتاهية يده من كمه وحركها وقال: يا ثمامة من حرّك يدي هذه؟ قلت: حركها من أمه زانية. قال: فضحك المأمون حتى فحص برجله وتمرّغ على فراشه وقال: زعمت أنك تقطعه بكلمة واحدة! فقال أبو العتاهية: شتمني يا أمير المؤمنين. قلت: ناقضت يا عاضّ بظر أمه! قال: فعاد المأمون في الضحك حتى خفت عليه من ضحكه وشدة ما ذهب له، ثم قلت: يا جاهل تحرك يدك وتقول من حركها! فإن كنت أنت المحرك لها فهو قولي وإن تكن الأخرى فما شتمتك! فقال المأمون: يا إسماعيل عندك زيادة في الكلام؟ فإن الجواب قد مضى فيما سألت. فما نطق بحرف حتى انصرف[1].

الحق أنطقها والباطل أخرسه:

عن قحطبة بن حميد بن قحطبة قال: قعد المأمون للمظالم ذات يوم فلم يزل قاعداً إلى أن قلنا قد فاتته الصلاة، فكان آخر من دعي امرأة فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال: وعليكِ السلام، تكلمي يا أمة الله. فقالت:

يا خير منتصفٍ يُهدى به الرشد ::: ويا إماماً به قد أشرق البلد

(١) المصدر السابق،١٩٩/١.

أشكو إليك عقيد الملك أرملةً ::: عدا عليها فلا تقوى به الأسد
فابتز مني ضياعي واستبد بها ::: ففارق العيش مني الأهل والولد

فقال المأمون:

في دون ما قلت عيل الصبر والجلد ::: وقد تقطّع مني القلب والكبد
هذا أوان صلاة الظهر فانصرفي ::: وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
والمجلس السبت إن يُقض الجلوس لنا ::: ننصفك فيه وإلا المجلس الأحد

قال: فانصرفت فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من دعا به المرأة، فسلمت فرد المأمون عليها السلام وقال: أين الخصم، رحمك الله؟ قالت: هو واقف على رأسك وقد حيل بيني وبينه. وأومأت إلى العباس ابنه. فقال: يا أحمد بن أبي خالد خذ بيده فأقعده معها. قال: ففعل ذلك. فجعلت تعلو على العباس بصوتها وتقول: ظلمتني واعتديت عليّ وأخذت ضيعتي. فقال لها أحمد: ما هذا الصياح؟ إنك بين يدي أمير المؤمنين تناظرين الأمير! فقال المأمون: دعها يا أحمد فإن الحق أنطقها والباطل أخرسه. فلم يزالا يتناظران حتى حكم المأمون لها برد ضيعتها ثم قال: يا أحمد اردد عليها ما جباه العباس من ضيعتها وادفع إليها عشرة آلاف درهم ترمّ بها ما أراه من سوء حالها واكتب إلى والينا وقاضينا بإرفاقها والنظر في أمرها وأوغر لها خراج ضيعتها بالشيء الطفيف وليكن ذلك في يومنا هذا. فما برحت حتى قضيت حوائجها وخرجت[1].

أفأخاطب بالخلافة سواك؟

وعن الحسن بن سهل قال: جلس المأمون ذات يوم للمظالم وإذا هو برجل قد مثل بين يديه وفي يده رقعة فيها سطران: بسم الله الرحمن الرحيم. مظلمة من أمير المؤمنين أطال الله بقاءه. فقال: أمظلمة مني! قال: أفأخاطب بالخلافة سواك؟ قال له: وما ظلامتك هذه؟ قال: ثلاثون ألف دينار. قال: وما وجهها؟ قال: إن سعيداً وكيلك اشترى مني جوهراً بثلاثين ألف دينار وحمله إلى منزلك ولم يوفر عليّ المال. قال: فإذا اشترى سعيد منك الجوهر تشكو الظلامة مني! قال: نعم إذا كانت الوكالة

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٢١٢/١.

قد صحت له منك. قال: إن كلامك هذا يحتمل ثلاث جهات: أما أول ذلك فلعل سعيداً قد اشترى هذا الجوهر منك كما زعمت وحمله إلينا وأخذ المال من بيت المال ولم يوقره عليك، أو لعله قد وقره وادعيت باطلاً، أو اشتراه لنفسه. أما في العاجل فلا يلزمني لك حق ولا أعرف لك ظلامة.

فقال الرجلك إن الله جل وعز قد أهّلك لموضع رفيع واختصك بنسب جعلك أولى الخلق معه بالانصاف فإنك مناسب لرسول الله، ، واسترعاك على خلقه فهلا تحملني على كتاب الله جل وعز وسنّة ابن عمك رسول الله ، وسنة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في رسالته إلى أبي موسى الأشعري وهي التي اتخذتموها صدور أحكامكم ووصية لقضاتكم إذ يقول: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

قال المأمون: فإنك والله قد عدمت البينة فما يجب لك إلا حلفةٌ ولئن حلفتها لأنا صادق إذ كنت لا أعرف لك حقًّا يلزمني.

قال: فإذاً أدعوك إلى الحاكم الذي نصبته لرعيتك. قال: نعم، يا غلام عليّ بيحيى بن أكثم. فإذا هو قد مثل بين يديه. فقال: يا يحيى! قال: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: اقض بيننا. قال: في حكم وقضية! قال: نعم. قال: لا أفعل. قال: ولم؟ قال: لأن أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضائي. قال: قد فعلت. قال: فإني أبدأ بالعامة أولاً ليصبح المجلس للقضاء. قال: افعل.

ففتح الباب وقعد في ناحية من الدار وأذن للعامة ونادى المنادي وأخذ الرقاع ودعا بالناس ثم دعا الرجل المتظلم فقال له يحيى: ما تقول؟ قال: أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين المأمون. فنادى المنادي فإذا المأمون قد خرج في رداء وقميص وسراويل قد أرسلها على عقبيها في نعل رقيق ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى وهو جالس. فقال له: اجلس. فطرح المصلى ليقعد عليه. فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين لا تأخذ على خصمك شرف المجلس. فطرح له مصلى آخر فجلس عليه. وقال له يحيى: ما تقول؟ فقال: لي على هذا ثلاثون ألف دينار. قال: ومن هذا؟ قال: أمير المؤمنين المأمون بالله. قال له يحيى: يا أمير المؤمنين قد سمعت ما يقول؟ قال: سله ما وجهها. فأعاد خبر

الوكيل. فقال المأمون: ما أعرف له حقًّا. فأقبل على الرجل فقال: قد سمعت، ألك بينة؟ قال: لا. قال: فما تريد؟ قال: ما يوجبه الحكم لمن عدم البينة. قال المأمون: ويحك قد لججت في اليمين! قال: يا أمير المؤمنين أتحلف؟ قال: إي والله ولا أوطئ نفسي العشوة في إعطاء رجل ما لا يجب له ظلماً. فقال: قل والله. فاستحلفه غموساً.

ثم وثب يحيى عند فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه. فقال له المأمون: ما أقامك؟ فقال: إني كنت في حق الله جل وعز حتى أخذته منك وليس الآن من حقك أن أتصدر عليك. وقبض على الرجل لئلا يخرج. فقال المأمون: ارفقوا به. ثم قال: يا غلام أحضرني ما ادّعى من المال. فلما أحضر قال: خذه إليك والله ما كنت أحلف على فجرة ثم اسمح لك فأفسد ديني ودنياي، والله يعلم ما دفعتُ إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعية لعلها ترى أن تناولتك من وجه القدرة وأني منعتك واجبك بالاستطالة عليك وإنها لتعلم الآن ما كنت أسمح لك باليمين. فقال: يا أمير المؤمنين أفأُحاط في المال حتى أصل إلى حيث آمن عليه؟ قال: إي والله ولو بالثُّغزغز وأسبيجاب. فأخرج الرجل مع المال وبذرق به إلى أن بلغ مأمنه [1].

أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم؟

وحكى جعفر ابن أخت أبي العباس قال: دخلت على المأمون ويداه معلقتان من شيء رطب أكله قد مسته النار وهو يصيح: يا غلام. وكلهم يسمع صوته فما منهم أحد يجيبه. فخرجت إليهم وأنا أفور غضباً فإذا بعضهم يلعب بالشطرنج وبعضهم بالكعاب وبعضهم يهارش الديوك. فقلت: يا بني الفواعل أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم؟ فقال واحد: حتى أقيس هذا الكعب. وقال الآخر: قد بقيت على ضربه. وقال آخر: امض فإني أتبعك. فما علمت ما أخاطبهم به من الحنق عليهم، فإذا المأمون قد صوّت بي وأنا أقذف أمهاتهم. فأتيته وهو يضحك. فقال: ارفق بهم فإنهم بشر مثلك. فقلت: تقول هذا وأنت معلّق اليد؟ فقال: وهذا

---

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٢١٣/١.

معاشرتك خدمك؟ فقلت: والله لو فعل بي هذا ولدي من دون خدمي لقتلته! قال: هذه أخلاق السوقة وأخلاقنا أخلاق الملوك. فقلت: لا والله ما هذه أخلاق الملوك ولا أخلاق الأنبياء عليهم السلام[١].

إني لأعلم ما في كتابك!:

وقال ثمامة بن أشرس: والله إني لفي مجلس المأمون وعنده عمرو بن مسعدة وأبو عباد والعباسي ومحمد بن أبي محمد اليزيدي إذ دخل عليّ بن صالح فقال: محمد بن الفضل بن سليمان الطوسي بالباب. قال: يدخل. فدخل وسلم وفي يده كتاب فأشار به إلى المأمون. فقال المأمون: اذكر ما فيه. فقال: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك سر من أسرار الخليفة لا يحتمل إذاعته! قال: وإن كان ذلك فاذكره. قال: يا أمير المؤمنين لست فاعلاً! قال: يا هذا ما بحضرتنا من نكتمه أسرارنا فأبد ما عندك. فأعاد محمد بن الفضل مثل قوله الأول والثاني. فقال المأمون إني لأعلم ما في كتابك! قال: هذه كهانة! قال: فنزل المأمون عن فرشه ورفع ستراً كان في ظهر مجلسه ودخل وأشار إلينا وقال: لا تبرحوا. فجاء علي بن صالح فأخذ بيد الطوسي وقال: قم فأنت أشأم من البسوس. فأقعده خلف حائط بقرب المجلس لكي إن خرج لا يراه وإن دعاه أحضره. قال: فجعل كل واحد منا يرجف بجنسٍ من المكروه وكلنا خائفون عليه، فواحد يقول: يأخذ الساعة أمواله وينفيه. وآخر يقول: يضرب عنقه. قال: فأبطأ علينا المأمون ثم خرج ووجهه مسفر ضاحكة سنّه، فقال: سمعتم ما كلمني به هذا الخائن، إنه والله لما بلغ مني كلامه لم أجد بدًّا ولا دواء إلا ملاعبة الجواري والنساء ليزول عني ما قد تداخلني، وقد أسمعني ما أكره بضع عشرة مرة واحتملته[٢].

أو اذبحني فلا أُبتلى بفراقك:

قيل: وكان المأمون وجد على قائد من قواده فاستصفى ضياعه وداره وأنهب دوابه وماله، وكان شيخاً فانياً ولم يكن له من الولد إلا بنية

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٢١٣/١.
(٢) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٢٢٢/١.

صغيرة، فأجمع أن يضرب في الأرض ويطلب من فضل الله جل وعز ويخلّف بنيته. فبكت الابنة وقبضت على أبيها وقالت: اقنع بما آتاك الله واصبر على محن الزمان ونوائب الدهر والزم الوطن وارحم وحدتي وضعفي وقلة حيلتي أو اذبحني فلا أُبتلى بفراقك. فبكى الشيخ وقال:

تقول ابنتي لما أردت وداعها ::: وقد حضرتني نيةٌ ورحيل
لعل المنايا في رحالك تنبري ::: لنفسك ختلاً أو تغولك غول
فتتركني أدعى اليتيمة بعدما ::: تبين وعزّي بعد ذاك ذليل
أفي طلب الدنيا وربك بالذي ::: تسير له راعٍ عليك كفيل
أليس ضعيف القوم يأتيه رزقه ::: يُساق إليه والبلاد محول
ويحرم جمع المال من قد يرومه ::: يكدّ عليه رحله وحلول
فلو كنت في طودٍ على رأس هضبة ::: لها نجفٌ فيه الوعول تقيل
مصعّدة لا يستطاع ارتقاؤها ::: ولا لنزولٍ يستطاع سبيل
إذاً لأتاك الرزق يحدوه سائقٌ ::: حثيثٌ ويهديه إليك دليل

قال: فنمى الخبر إلى المأمون، فدعا بالشيخ فاستنشده شعره فأنشده، فرقّ له وأمر بردّ جميع ما أخذ منه وأعاده إلى مرتبته وزاده من عنايته[١].

من تلامذة كسرى في الحمق:

وحكي عن أبي عباد الكاتب أنه قال: كنت يوماً عند المأمون فدعا بالغداء وكان يستنزل من قام من مجلسه عند ذكر الطعام ويقول: هذا من أخلاق اللئام، فقدّموا إليه بطيخاً على أطباق جدد فجعل يقوّر بيده ويذوق البطيخة فإذا حمد حلاوتها قال: ادفع هذه بسكينتها إلى فلان. فقال لي وقد دفع إلي بطيخة كانت أحلى من الشهد المذاب: يا أبا عباد بم تستدل على حمق الرجل؟ قلت: يا أمير المؤمنين أما عند الله فعلامات كثيرة وأما عندي فإذا رأيت الرجل يحب الشاهلوج ويبغض البطيخ علمت أنه أحمق. قال: وهل تعرف صاحب هذه الصفة؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين الرستمي أحد من هذه صفته. قال: فدخل الرستمي على أمير المؤمنين،

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،١/٢٣٩.

فقال له المأمون: ما تقول في البطيخ الرمشيّ؟ قال: يا أمير المؤمنين يفسد المعدة ويلطخها ويُرقها، يرخي العصب ويرفع البخار إلى الرأس. قال: لم أسألك عن فعله إنما سألتك أشهي هو؟ قال: لا. قال: فما تقول في الشاهلوج؟ قال: سماه كسرى سيد أجناسه. قال: فالتفت المأمون إليّ وقال: الرجل الذي كنا في حديثه أمس من تلامذة كسرى في الحمق.

عزله عنهم:

وحكي أن المأمون ولي عاملا على بلاد وكان يعرف منه الجور في حكمه فأرسل إليه رجلا من أرباب دولته ليمتحنه فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه ولم يعلمه أن أمير المؤمنين عنده علم منه فأكرم نزله وأحسن إليه وسأله أن يكتب كتابا إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة فكتب كتابًا فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين أما بعد فقد قدمنا على فلان فوجدناه آخذًا بالعزم عاملا بالحزم قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته أغنى القاصد وأرضى الوارد وأنزلهم منه منازل الأولاد وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد وعمر منهم المساجد الداثرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة وهم مع ذلك داعون لأمير المؤمنين يريدون النظر إلى وجهه والسلام فكان معنى قوله آخذا بالعزم أي إذا عزم على ظلم أو جور فعله في الحال وقوله قد عدل بين رعيته وساوى في أقضيته أي أخذ كل ما معهم حتى ساوى بين الغني والفقير وقوله: عمر منهم المساجد الداثرة وأفرغهم من عمل الدنيا وشغلهم بعمل الآخرة يعني أن الكل صاروا فقراء لا يملكون شيئا من الدنيا ومعنى قوله يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته وولى عليهم غيره [(١)].

صداق ابنتي مائة ضيعة خربة:

وروى أن المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميرًا يحدثه فقال: يا أمير المؤمنين كان بالموصل بومة وبالبصرة بومة فخطبت بومة

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ، ٢٥١/١.

الموصل بنت بومة البصرة لابنها فقالت بومة البصرة: لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعلى في صداق ابنتي مائة ضيعة خربة فقالت بومة الموصل: لا أقدر عليها لكن إن دام وإلينا سلمة الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك قال: فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض وتفقد أمور الولاة والعمال الرعية [(١)].

ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب:

وقال عبد الله بن طاهر كنا عند المأمون يوما فنادى بالخادم يا غلام فلم يجبه أحد ثم نادي ثانيًا وصاح يا غلام فدخل غلام تركي وهو يقول: ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام إلى كم يا غلام فنكس المأمون رأسه طويلا، فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه ثم نظر إلى فقال: يا عبد الله، إن الرجل إذا حسنت أخلاقه ساءت أخلاق خدمه وإذا ساءت أخلاقه حسنت أخلاق خدمه، وإنا لا نستطيع إن نسيء أخلاقنا لنحسن أخلاق خدمنا[(٢)].

إنَّ الَّذي شرِّفت من أجله ::: يزعم هذا أنَّه كاذب

استأذن على المأمون بعض شيوخ الفقهاء، فأذن له، فلما دخل عليه رأى بين يديه رجلاً يهوديًّا كاتباً، كانت له منزلة وقربه لقيامه بما يصرفه فيه ويتولاه من خدمته، فلما رآه الفقيه قال - وقد كان المأمون أومأ إليه بالجلوس: أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إنشاد بيت حضر قبل أن أجلس قال: نعم، فأنشده:

إنَّ الَّذي شرِّفت من أجله ::: يزعم هذا أنَّه كاذب

وأشار إلى اليهوديّ، فخجل المأمون ووجم، ثم أمر حاجبه بإخراج اليهودي مسحوباً على وجهه، وأنفذ عهداً باطّراحه وإبعاده، وألاّ يستعان بأحد من أهل الذمة في شيء من أعماله[(٣)].

هدبة بن خالد على مائدة المأمون:

(١) المستطرف ٢٤٢/١، ٢٤٣.
(٢) المصدر السابق ٢٦٠/١.
(٣) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ٧٨/١.

عن هدبة بن خالد رحمه الله تعالى قال: حضرت مائدة المأمون فلما رفعت المائدة جعلت ألتقط ما في الأرض، فنظر إلي المأمون فقال: أما شبعت يا شيخ؟ قلت: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن حدثني حماد بن سلمة عن ثابت بن أنس قال سمعت رسول الله يقول: **من التقط ما تحت مائدته أمن من الفقر﴾** فنظر المأمون إلى خادم واقف بين يديه فأشار إليه فما شعرت أن جاءني ومعه منديل فيه ألف دينار فناولني إياه فقلت يا أمير المؤمنين وهذا من ذاك [(١)].

المأمون يشدد في الغناء:

وكان المأمون قد حرم الغناء وشدد فيه فلقي علي بن هشام إسحاق بن إبراهيم الموصلي على الجسر، فقال إسحاق لعلي بكلام يخفيه: قد زارتني اليوم فلانة، وهي أطيب الناس غناءً، فبحياتي إلا كنت اليوم عندي. فوعده بالحضور وتفرقا، وإذا بطفيلي يسمع كلامهما فمضى من وقته، فلبس ثياباً حسنة؛ واستعار من بعض إخوانه بغلة فارهة بسرجها ولجامها، فركبها وأتى باب علي بن هشام بعد أن نزل من الركوب بساعة، فقال للحاجب: عرف الأمير أن رسول صاحبه إسحاق بن إبراهيم بالباب؛ فدخل الحاجب وخرج مسرعاً وقال: ادخل جعلت فداك، فدخل على علي فرحب به، فقال له: يا سيدي يقول لك أخوك: تعلم ما اتفقنا عليه فلم تأخرت عني؟ فقال له: الساعة وحياتك نزلت من الركوب، والساعة أغير ثيابي وأوافيه، فاستوى على دابته ووافى منزل إسحاق؛ فقال للحاجب: عرف الأمير أني رسول علي بن هشام؛ فدخل الحاجب وخرج فقال: ادخل! جعلني الله فداك؛ فدخل فسلم وقال: أخوك يقرئك السلام ويقول لك: الساعة نزلت من الركوب، وقد غيرت ثيابي وتأهبت للمسير فما ترى؟ فقال: قل له يا سيدي قتلتنا جوعاً، فبحياتي إلا ما حضرت. فرجع إلى باب علي وقال للحاجب: تعرفه أن الأمير أمرني ألا أبرح أو يجيء معي.

فغير علي بن هشام ثيابه، وركب دابته، وتبعه الطفيلي حتى نزل

(١) طيب المذاق من ثمرات الأوراق، ص ١٤.

بباب إسحاق بن إبراهيم، ونزل الطفيلي معه، ودخلا جميعاً فسلما وجلسا، وجيء بالطعام فأكلوا، وإسحاق لا يشك أنه أخص الناس بعلي، وعلي لا يشك أنه أخص الناس بإسحاق، ثم غسلوا أيديهم وقدموا الشراب، وخرجت جارية من أحسن الناس وجهاً وزيًّا، فجلست وأتيت بعود، فغنت أحسن غناء، ودارت الأقداح فلم يزالوا على ذلك إلى بعد العصر، وأخذ الطفيلي البول حتى كاد يأتي على ثيابه فصبر جهده؛ فلما عيل صبره قام فدخل الخلاء، فقال علي لإسحاق: يا سيدي، ما أخف روح هذا الفتى وأحلى نوادره! فمن أي وقع لك؟ قال أوليس هو صاحبك؟! قال: لا وحياتك ولا رأيته قبل يومي هذا، قال: فإنه جاءني برسالتك وقص قصته؛ وقص إسحاق مثلها، وداخله من الغيظ ما لم يملك معه نفسه؛ وقال: طفيلي يستجرىء علي وعلى النظر إلى حرمي والدخول إلى داري! يا غلمان: السياط والعقابين، المقارع والجلادين. فقامت في الدار جلبة، وأحضروا جميع ذلك، والطفيلي يسمع وهو في الخلاء، ثم إنه خرج رافعاً ثيابه غير مكترث بما فعلوه، وهو مقبل على تكة لباسه يشدها، ويتمشى في صحن الدار وهو يقول: جعلت فداك! إيش بي من جهدك! فهل عرفتني مع هذا كله؟ فقال إسحاق: ومن أنت؟ فقال: أنا صاحب خبر أمير المؤمنين، وعينه على سره، والله لولا تحرمي بطعامك وممالحتي لتركتكما في عمىً من أمري، حتى كنت تعرف عاقبة حالك وإقدامك على ما فيه هلاكك وفساد أمرك! فقام إليه إسحاق وعلي يسكتانه وقالا له: يا هذا، إننا لم نعرفك ولم نعلم حالك، ولك الفضل علينا، وأنت المحسن المجمل إلينا؛ ولكن تمم إحسانك بسترك ما نحن عليه.

ثم قال إسحاق: يا غلام، الخلع! فأتي بثياب فاخرة فصبت عليه، وتقدم بإسراج دابة هملاج بسرج مخفف ولجام حسن؛ ولم يزالا به حتى طابت نفسه، ووعدهما كتمان أمرهما، وحضر وقت الانصراف فودعهما وانصرف، فأتبعه إسحاق بخادمه معه صرة فيها ثلاثمائة دينار، فأخذها وركب الدابة ومضى.

فلما كان من الغد دخل علي بن هشام على المأمون. فقال: يا علي؛ كيف كان خبرك أمس؟ على حسب ما يجري السؤال عنه فتغير لونه، ولم

يشك في أن الحديث رفع إليه؛ فأكب على البساط يقبله وقال: يا أمير المؤمنين، العفو، يا أمير المؤمنين، الأمان. قال: لك الأمان. فأخبره بالقصة من أولها إلى آخرها. فضحك المأمون حتى كاد يغشى عليه، وقال: ما في الدنيا أملح من هذا. ووجه خلف إسحاق، فلما حضر قال: هيه يا إسحاق؟ كيف كان خبرك أمس؟ فأخبره كخبر علي بن هشام والمأمون يضحك. ثم قال: يا إسحاق؛ بحياتي أطلب الرجل وجئني به، فلم يزل يطلبه حتى وجده، فكان أحد ندماء المأمون[1].

من كلامه:

- وقال المأمون لرسولٍ بعث له:

بعثتك مرتاداً، ففزت بنظرة ::: وأغفلتني، حتّى أسأت بك الظّنّا

وناجيت من أهدى وكنت مقرّباً ::: فيا ليت شعري، عن دنوّك ما أغنى؟

وردّدت طرفاً في محاسن وجهها ::: ومتّعت باستمتاع نغمتها الأذنا

أرى أثراً منها بعينيك لم يكن، لقد سرقت عيناك من وجهها حسنا.

فيا ليتني كنت الرّسول فأشتفي ::: وكنت الذي يعصي وكنت الذي أدنى[2]

- " لأن أُخطِئَ باذِلاً أحبُّ إليَّ من أن أُصيبَ مانعاً "، والشاعر يقول:

لا يَذْهب العُرْفُ بينَ اللهِ والنّاسِ [3]

- قال يحيى بن أكثم سمعت المأمون يقول لإبراهيم: لا شيء أطيب من النظر في عقول الرجال. والثالث تأديب المعجب برأيه إذا سمع أخبار من تعسر عليه لحاقه [4].

- قال المأمون: قد يسمى بعض الناس الشيء علما وليس بعلم فإن كنت أردت هذا فوجهه الذي ذكرنا، ولو قلت: إن العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره، ولا تبلغ غايته، ولا يستقصي أصنافه، ولا يضبط آخره،

(١) جمع الجواهر في الملح والنوادر، ص ٩.
(٢) ابن الجوزي، أخبار النساء،٧٠/١.
(٣) أبو حيان التوحيدي، أخلاق الوزيرين،٦/١.
(٤) ابن الجوزي، الأذكياء، ١/١.

فالأمر على ما قلت. فإذا كان الأمر كذلك فابدؤوا بالأهم فالأهم وابدؤوا بالفرض قبل النفل، فإذا فعلتم ذلك كان عدلا وقولا صدقا وقد قال بعض العلماء: اقتصد من أصناف العلم ما هو أشهى إلى نفسك وأخف على قلبك، فإن نفاذك فيه على حسب شهوتك وسهولته عليك، وقال أيضًا بعض العلماء: لست أطلب العلم طمعا في بلوغ غايته، والوقوف على نهايته، ولكن التماس ما لا يسع جهله، ولا يحسن بالعاقل إغفاله، وقال آخرون: علم الملوك النسب والخبر وجمل الفقه، وعلم التجار الحساب والكتاب، وعلم أصحاب الحرب درس كتب المغازي وكتب السير، فأما أن تسمي الشيء علمًا وتنهي عنه من غير أن يكون شيئًا يشغل عما هو أنفع منه، بل تنهى نهيًا جزمًا، وتأمر أمرا حتما والعلم بصر وخلافه عمى، والاستبانة للشر ناهية عنه والاستبانة للخير آمرة به.

قال: ولما قرأ المأمون كتبي في الإمامة فوجدها على ما أمر به وصرت إليه وقد كان أمر اليزيدي بالنظر فيها ليخبره عنها قال لي: قد كان بعض من نرتضي عقله، ونصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة وكثرة الفائدة، فقلت: قد تربو الصفة على العيان، فلما رأيتها رأيت العيان قد أربى على الصفة فلما فليتها أربى الفلي على العيان كما أربى العيان على الصفة وهذا كتاب لا يحتاج الى حضور صاحبه ولا يفتقر الى المحتجين عنه قد جمع استقصاء المعاني واستيفاء جميع الحقوق مع اللفظ الجزل والمخرج السهل فهو سوقي ملوكي وعامي خاصي [(١)].

- إنما تطلب الدنيا لتملك، فإذا ملكت فلتوهب. وكان يقول: إنما يتكثر بالذهب والفضة من تقلان عنده. ووقع إلى بعض أصحابه: ليس من المروة أن تكون أوانيك فضيةً وذهبيةً، وجارك طاوٍ وغريمك غاوٍ [(٢)].

- النساء شرٌّ كلهن، وشر ما فيهن قلة الاستغناء عنهن. الرجل يكتم بغض المرأة أربعين عاماً، ولا يمكن أن يكتم حبها يوماً واحداً، والمرأة

(١) ابن الجوزي، البيان والتبيين، ص ٥٥٨.
(٢) الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ٣٢/١.

تكتم حب الرجل أربعين عاماً، ولا يمكنها أن تكتم بغضه يوماً واحداً. ابن المعتز: من أتعب نفسه في الحلال لم يتق إلى الحرام، وهو كالطليح الذي مناه أن يستريح.

هي الضّلع العوجاء لست تقيمها ::: ألا إن تقويم الضّلوع انكسارها[(١)]

- الثناء بأكثر من الاستحقاق ملقٌ، والتقصير عن الاستحقاق عيٌ أو حسدٌ.

عليك بأوساط الأمور فإنّها ::: نجاةٌ ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

آخر:

وخير خلائق الأقوام خلقٌ ::: توّسط لا احتشام ولا اغتناما[(٢)]

- الناس أربع طبقاتٍ: بين أمارةٍ، وتجارةٍ، وصناعةٍ، فمن لم يكن منهم كان كلاً عليهم. أربعةٌ لا يستحيى من الختم عليها: المال لنفي التهمة، والجوهر لأمن الإبدال، والدواء للاحتياط، والطيب للصيانة.

أبو بكر الصديق العتيق رضوان الله عليه: ثلاثٌ من كن فيه كن عليه: المكر، والبغي، والنكث، قال الله تعالى عزّ اسمه:{فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ} [الفتح: ١٠]. وقال عزّ من قائل:{وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ} [فاطر: ٤٣]. وقال عزّ جده:{إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا} [يونس: ٢٣][(٣)].

- كان المأمون يقول: سادة الناس في الدنيا الأسخياء وفي الآخرة الأتقياء، وإن الرزق الواسع لمن لا يستمع به بمنزلة طعام موضوع على قبر! أف للبخل! لو كان طريقاً ما سلكته، ولو كان قميصاً ما لبسته! [(٤)].

- وقال المأمون: الملوك تتحمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القدح في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم [(٥)].

---

(١) الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ٤٩/١.
(٢) الثعالبي، التمثيل والمحاضرة، ٨٨/١.
(٣) المصدر السابق ٩٦/١.
(٤) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ٢/١.
(٥) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ٣٢/١.

- قال المأمون: الأخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغني عنه، وطبقة كالدواء يحتاج إليه أحيانا، وطبقة كالداء لا يحتاج إليه[(١)].

- وذكروا أن المأمون ذكر أصحاب الصناعات فقال: السوقة سفل، والصناع أنذال، والتجار بخلاء، والكتاب ملوك على الناس، والناس أربعة: أصحاب الحرف وهي: أمارة، وتجارة، وصناعة، وزراعة، فمن لم يكن منهم صار عيالاً عليهم [(٢)].

- وقال المأمون: اعتبروا في علوّ الهمة بمن ترون من وزرائي وخاصتي، إنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندي إلابأنفسهم، إنه من تبع منكم صغار الأمور تبعه التصغير والتحقير وكان قليل ما يفتقد من كبارها أكثر من كثير ما يستدرك من الصغار، فترفعوا عن دناءة الهمة وتفرغوا لجلائل الأمور والتدبير واستكفوا الثقات وكونوا مثل كرام السباع التي لا تشتغل بصغار الطير والوحش بل بجليلها وكبارها، واعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم فإن قائدكم لا يقدمكم ولا يغني الولي عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه، وأنشده:

نحن الذين إذا تخمّط عصبةٌ ::: من معشرٍ كنا لها أنكالا
ونرى القروم مخافةً لقرومنا ::: قبل اللقاءِ تقطّر الأبوالا
نرد المنية لا نخاف ورودها ::: تحت العجاجة والعيون تلالا
نعطي الجزيل فلا نمنّ عطاءنا ::: قبل السؤال ونحمل الأثقالا
وإذا البلاد على الأنام تزلزلت ::: كنا لزلزلة البلاد جبالا

ولبعضهم في أبي دلف:

له هممٌ لامنتهى لكبارها ::: وهمته الصغرى أجلُّ من الدهر
له راحةٌ لو أن معشار جودها ::: على البرّ كان البر أندى من البحر
ولو أن خلق الله في مسك فارسٍ ::: فبارزه كان الخليَّ من العمر
أبا دلفٍ بوركت في كل وجهةٍ ::: كما بوركت في شهرها ليلة القدر

ولغيره:

(١) المحاسن والأضداد،١/٤٠.
(٢) ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس، ١/١٠٧.

لا تهدمن بنيان قومٍ وجدتهم ::: بنوا لك بنياناً وكن أنت بانيا
وإن زهد الأقوام في طلبِ العلى ::: فسام بكفّيك الندى والمعاليا

عبد الله بن طاهر:

فتىً خصه الله بالمكرمات ::: فمازج منه الحيا والكرم
إذا همةٌ قصّرت عن يد ::: تناول بالمجد أعلى الهمم
ولا ينكت الأرض عند السؤال ::: ليثني زوّاره عن نعم
بدا حين أثرى لإخوانه ::: ففلّل عنهم شباة العدم
وذكّره الحزم غِبَّ الأمور ::: فبادر قبل انتقال النّعم[١]

- قيل خطب المأمون فقال: اتقوا الله عباد الله، وأنتم في مهل بادروا الأجل ولا يغرنكم الأمل، فكأني بالموت قد نزل فشغلت المرء شواغله وتولت عنه فواصله، وهيئت أكفانه وبكاه جيرانه وصار إلى التراب الخالي بجسده البالي فهو في التراب عفير وإلى ما قدم فقير[٢].

- قال المأمون: الخطّ لسان اليد، وهو أفضل أجزاء اليد [٣].

- قال المأمون: ثلاثٌ لا يعدم المرء الرشد فيهنّ: مشاورة ناصح، ومداراة حاسد، والتحبب إلى الناس[٤].

- قال المأمون: سبعة أشياءٍ لا تمل، أكل خبز البر، وشرب ماء العنب، وأكل لحم الضان، والثوب اللين، والرائحة الطيبة، والفراش الوطيء، والنظر إلى كل شيء حسن. فقال له الحسن بن سهل: أين محادثة الإخوان يا أمير المؤمنين؟ قال: هن ثمانٍ وهي أولهن[٥].

- قال المأمون: الناس في تصرفهم ومعايشهم بين أربعة أمور، من لم يكن منها كان عيالا عليها وكلاً: الإمارة، والتجارة، والزراعة،

(١) إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ،٨٢/١.
(٢) المستطرف، ١٣٧/١.
(٣) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ٦٦/١.
(٤) المصدر السابق، ٩٩/١.
(٥) المصدر السابق، ١٩١/١.

والصناعة[١].

- قال المأمون: لو سئلت الدنيا عن نفسها ما زادت في وصفها عن وصف أبي نواس حيث يقول:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ::: له عن عدو في ثياب صديق [٢]

- قال المأمون: نحن إلى أن نوعظ بالأعمال، أحوج منا إلى أن نوعظ بالأقوال[٣].

خطبة المأمون:

فحمد الله المأمون وأثنى عليه ثم قال: قد عرفتمونى من حق أمير المؤمنين أكرمه الله مالا أنكره، ودعوتمونى من الموازرة والمعونة إلى ما أوثره ولا أدفعه، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدم والمسارعة إلى ماسره ووافقه حريص وفي الروية تبيان الرأى وفي إعمال الرأى نصح الاعتزام، والأمر الذى دعانى إليه أمير المؤمنين أمر لا أتأخر عنه تثبطا ومدافعة ولا أتقدم عليه اعتسافا وعجلة وأنا في ثغر من ثغور المسلمين كلب عدوه شديد شوكته وإن أهملت أمره لم آمن دخول الضرر والمكروه على الجنود والرعية وإن أقمت عليه لم آمن فوت ما أحب من معونة أمير المؤمنين وموازرته وإيثار طاعته فانصرفوا حتى أنظر في أمري ويصح الرأى فيما أعتزم عليه من مسيرى إن شاء الله.

ثم بعث معهم بكتاب إلى الأمين يسأله أن يعفيه من الشخوص إليه وأن يقره على عمله إذ يرى أن ذلك أعظم غناء على المسلمين [٤].

- خطبته وقد ورد عليه نعى الرشيد:

خطب الناس بمرو حين ورد عيه نعى الرشيد فقال: إن ثمرة الصبر الأجر، وثمرة الجزع الوزر، والتسليم لأمر الله عز وجل فائدة جليلة وتجارة مربحة، فالموت حوض مورود، وكأس مشروب وقد أتى على

(١) المصدر السابق، ٢٠١/١.
(٢) المصدر السابق، ٢٣٧/١.
(٣) ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس، ٢٤٩/١.
(٤) جمهرة خطب العرب،١٠٣/٣ - ١٠٤.

خليفتكم ما أتى على نبيكم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فما كان إلا عبدا دعي فأجاب وأمر فأطاع وقد سد أمير المؤمنين ثلمه وقام مقامه وفي أعناقكم من العهد ما قد عرفتم فأحسنوا العزاء على إمامكم الماضى واغتبطوا بالنعماء والوفاء في خليفتكم الباقي بأهل الدنيا الموت نازل والأجل طالب وأمس واعظ واليوم مغتنم وغد منتظر (١).

- **خطبته وقد سلم الناس عليه بالخلافه:**

ولما بلغه بخراسان قتل أخيه وأقبل الناس للتسليم عليه بالخلافة صعد المنبر فحمد الله، وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال: أيها الناس إنى جعلت لله على نفسي إن استرعاني أموركم أن أطيعه فيكم ولا أسفك دما عمدا لا تحله حدوده وتسفكه فرائضه ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثا ولا نحلة تحرم على، ولا أحكم بهواى في غضبى ولا رضاي إلا ما كان في الله وله جعلت كله لله عهدا مؤكدا وميثاقا مشددا إنى أفي رغبة في زيادته إياى في نعمتى ورهبة من مسألته أياى عن حقه وخلقه فإن غيرت أو بدلت كنت للغير مستأهلا وللنكال معرضا وأعوذ بالله من سخطه وأرغب إليه في المعونة على طاعته وأن يحول بيني وبين معصيته (٢).

خطبته يوم الجمعه:

الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه ومستوجبه على خلقه أحمده وأستعينه وأومن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وحده والعمل لما عنده والتنجز لوعده والخوف لوعيده، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه وعمل له وأرضاه فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم وترحلوا فقد جد بكم واستعدوا للموت، فقد أظلكم وكونوا قوما صيح بهم فانتبهوا وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا فإن الله لم يخلقكم عبثا ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين

(١) جمهرة خطب العرب،١٢٠/٣.
(٢) جمهرة خطب العرب،١٢٠/٣.

الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة لجديرة بقصر المدة وإن غائبا يحدوه الجديدان الليل والنهار لحرى بسرعة الأوبة وإن قادما يحل بالفوز أو بالشقوة لمستحق لأفضل العدة فاتقى عبد ربه ونصح نفسه وقدم توبته وغلب شهوته فإن أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يزين له المعصية ليركبها ويمنيه التوبة ليسوفها حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها فيالها حسرة على ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة أو تؤديه أيامه إلى شقوة نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعته غفلة ولا تحل به بعد الموت فزعة إنه سميع الدعاء وبيده الخير وإنه فعال لمايريد.

- **خطبته يوم الأضحى:**

قال بعد التكبير والتحميد: إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله وأوجب تشريفه وعظم حرمته، ووفق له من خلقه صفوته وابتلى فيه خليله وفدى فيه من الذبح نبيه وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر ومتقدم الأيام المعدودات من النفر يوم حرام من أيام عظام في شهر حرام يوم الحج الأكبر يوم دعا الله إلى مشهده ونزل القرآن بتعظيمه قال الله جل وعز: {وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾} [الحج: ٢٧ - ٣٠]، فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم وعظموا شعائر الله، واجعلوها من طيب أموالكم، وبصحة التقوى من قلوبكم فإنه يقول:{ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ } [الحج: ٣٧]، ثم التكبير والتحميد والصلاة على النبي والوصية بالتقوى، ثم قال بعد ذكر الجنة والنار: عظم قدر الدارين وارتفع جزاء العملين وطالت مدة الفريقين الله الله فوالله إنه الجد لا اللعب

وإنه الحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والقصاص والصراط ثم العقاب والثواب فمن نجا يومئذ فقد فاز ومن هوى يومئذ فقد خاب الخير كله في الجنة والشر كله في النار [١].

- **خطبته يوم الفطر:**

قال بعد التكبير والتحميد: إن يومكم هذا يوم عيد وسنة وابتهال ورغبة يوم ختم الله به صيام شهر رمضان وافتتح به حج بيته الحرام فجعله خاتمة الشهر وأول أيام شهور الحج وجعله معقبا لمفروض صومكم ومتنفل قيامكم أحل فيه الطعام لكم وحرم فيه الصيام عليكم فاطلبوا إلى الله حوائجكم واستغفروه لتفريطكم فإنه يقال: لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار ثم التكبير والتحميد وذكر النبي والوصية بالتقوى ثم قال فاتقوا الله عباد الله وبادروا الأمر الذى اعتدل فيه يقينكم ولم يحتضر الشك فيه أحدا منكم وهو الموت المكتوب عليكم فإنه لا تستقال بعده عثرة ولا تحظر قبله توبة واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه ولا شيء بعده إلا فوقه ولا يعين على جزعه وعلزه وكربه ولايعين على القبر وظلمته وضيقه ووحشته وهول مطلعه ومسألة ملائكته إلا العمل الصالح الذى أمر الله به فمن زلت عند الموت قدمه فقد ظهرت ندامته وفاتته استقالته ودعا من الرجعة إلى مالا يجاب إليه وبذل من الفدية ما لا يقبل منه فالله الله عباد الله وكونوا قوما سألوا الرجعة فأعطوها إذ منعها الذين طلبوها.

فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا المهل المبسوط لكم، واحذروا ما حذركم الله، واتقوا اليوم الذى يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به وما يمل في صحيفته الحافظة لما عليه وله فقد حكى الله لكم ما قال المفرطون
عندها إذ طال إعراضهم عنها قال:{ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ

(١) جمهرة خطب العرب،١٢١/٣ - ١٢٢.

أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾} [الكهف: ٤٩]، وقال:{وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾} [الأنبياء: ٤٧]، ولست أنهاكم عن الدنيا بأعظم مما نهتكم الدنيا عن نفسها فإن كل ما بها ينهى عنها وكل ما فيها يدعو إلى غيرها وأعظم مما رأته أعينكم من عجائبها ذم كتاب الله لها ونهى الله عنها فإنه يقول:{فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ} [لقمان: ٣٣]، وقال:{إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [محمد: ٣٦]، الآية، فانتفعوا بمعرفتكم بها وبإخبار الله عنها واعلموا أن قوما من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذروا مصارعها وجانبوا خدائعها وآثروا طاعة الله فيها فأدركوا الجنة بما تركوا منها.

ومن سالمنا سالمناه، والناس جميعا آمنون إلا رجلا نصب لنا نفسه وأعان علينا بماله ولو شئت أن أقول: ورجل قال: فينا يتناول من أعراضنا لقلت وكفى حسب كل امرئ ما يصنعه وسيكفى الظالمون (١).

- قال المأمون: العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره، فابدؤوا بالأهم فالأهم بالفرض قبل النقل، إن الأهم المقدم. وقيل: ضيع الناس الأصول بتركهم الأصول (٢).

- قال المأمون: ما تكبر أحد إلا لنقص وجده في نفسه، ولا تطاول إلا لوهن أحسن من نفسه(٣).

- قال المأمون: لاتتقد مصابيح الأذهان إلا بصفو مواردها(٤).

- ووقع المأمون لآخر: لو استقامت لك الطريقة لرضيت الخليقة، فإن لم تدع فيهم القذل راعينا فيك العزل! (٥)

- وقال المأمون: حسبك من السعاية أن ليس في الدنيا صدق مذموم

(١) جمهرة خطب العرب،٣/١٢٢، ١٢٣.
(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١/١٨.
(٣) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١/١١٩.
(٤) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١/٢٨.
(٥) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١/٧٩.

غيرها[١].

- قال المأمون لإبنه العباس: قلم أظفارك من جليسك، فأخس الناس من دمي جليسه بظفره. قال: ولله در القائل:

لا أخدش الخدش بالجليس ولا ::: يخشى جليس إذا إنتشبت يدي[٢]

- قال المأمون: من أراد أن يطيب عيشه فليدفع الأيام بالأيام [٣].

- وقال المأمون: لا تستعن في حاجتك من هو لمطلوب إليه أنصح منه لك[٤].

- قال المأمون لعبد الله بن طاهر: تثبت فإن الله عز وجل قد قطع عذر العجول بما يمكنه من التثبت، وأوجب الحجة على القلق بما بصره من فضل الأناة؛ قال ابن طاهر: أكتبه؟ قال: نعم[٥].

- وقال المأمون لما احتضر: يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه[٦].

- وقال المأمون: ليس من توكل المرء إضاعة الحزم، ولا من الحزم إضاعة التوكل[٧].

* * *

(١) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١٧٧/١.
(٢) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، ١٧٧/١.
(٣) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ٣١/١.
(٤) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ٣٥/١.
(٥) أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر، ٥١/١.
(٦) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٥٦/١.
(٧) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية،٩٩/١.

المعتصم بالله

الخليفة العباسي المعتصم بالله

هو الخليفة أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد، الذي عرف بالمعتصم بالله، ولد سنة ١٨٠هـ، وكان يقال له: المثمن؛ لأنه ثامن الخلفاء من بني العباس ولأنه استمر في ملكه ثماني سنين وفتح ثمانية فتوح، وأسر ثمانية ملوك.

كان المعتصم شجاعًا، كتب إليه ملك الروم يهدده، فأمر أن يقرؤوا له رسالته، فلما قرأها أمر برميها، وقال للكاتب اكتب: (أما بعد.. فقد قرأت كتابك، وسمعت خطابك والجواب ما ترى لا ما تسمع، وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) وكانت له فتوحات وغزوات كثيرة في سبيل الله، قيل: إنه لما أراد غزو (عمورية) زعم المنجمون أنه لن ينتصر، وطلبوا منه ألا يخرج، ولكنه خرج وانتصر بإرادة الله.

وهو أول من لقب بالمعتصم بالله، وأول من أضاف اسم الله إلى لقبه سنة (٢١٨ هـ) وأمه أم ولد كذلك.

وكان المعتصم كريم الخلق، متواضعًا، يحكى عنه أنه خرج مع أصحابه في يوم ممطر، وتفرق عنه أصحابه، فبينما هو يسير إذ رأى شيخًا معه حمار عليه حمل شوك، وقد وقع الحمار وسقط الحمل، والشيخ قائم ينتظر من يمر به فيساعده، فنزل المعتصم عن دابته، وخلص الحمار عن الوحل، ورفع عليه حمله وانتظر أصحابه حتى جاؤوا، وأمرهم أن يسيروا مع الشيخ ليعينوه.

كما كان المعتصم سخيًّا، فلقد روى أحمد بن أبي داود: تصدق المعتصم على يدي، ووهب ما قيمته ألف ألف درهم، وفي عهده كثر العمران، وبنيت القصور وارتفع البنيان، وقد مرض المعتصم فأخذ يقول: ذهبت الحيلة، فليس حيلة، ولقي ربه في سنة ٢٢٧هـ بعد حياة حافلة بالأعمال النافعة للمسلمين.

وكان قوي الساعد، يكسر زند الرجل بين أصبعيه، ولا تعمل في جسمه الأسنان.

قال ابن أبي دؤاد: كان المعتصم يخرج ساعده إلي ويقول: يا أبا عبد الله عض ساعدي بأكثر قوتك فأمتنع فيقول: إنه لا يضرني فأروم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلا عن الأسنان

وقال نفطويه: وكان من أشد الناس بطشا كان يجعل زند الرجل بين أصبعيه فيكسره.

وكان عريا من العلم،ولم يكن على درجة المأمون في معلوماته، بل كان موصوفًا بالجهل، وهو القائل:

" لا حول ولا قوة إلاَّ بالله: خليفة أُمِّيٌّ، ووزير عَامِّي "؛ وذلك لما مرت عليه كلمة: الكلأ فلم يعرف معناها، لا هو، ولا وزراؤه.

فروى الصولي عن محمد بن سعيد عن إبراهيم بن محمد الهاشمي قال: كان مع المعتصم غلام في الكتاب يتعلم معه فمات الغلام فقال له الرشيد أبوه: يا محمد مات غلامك قال: نعم يا سيدي واسترح من الكتاب فقال: وإن الكتاب ليبلغ منك هذا دعوه لا تعلموه قال: فكان يكتب ويقرأ قراءة ضعيفة.

وقال الذهبي: كان المعتصم من أعظم الخلفاء وأهيبهم لولا ما شان سؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن.

وقال نفطوية والصولي: للمعتصم مناقب وكان يقال له: المثمن لأنه ثامن الخلفاء من بني العباس، والثامن من ولد العباس، وثامن أولاد الرشيد وملك سنة ثمان عشرة، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، ومولده سنة ثمان وسبعين، وعاش ثمانيا وأربعين سنة، وطالعه العقرب، وهو ثامن برج، وفتح ثمانية فتوح وقتل ثمانية أعداء، وخلف ثمانية أولاد، ومن الإناث كذلك ومات لثمان بقين من ربيع الأول.

وله محاسن وكلمات فصيحة وشعر لا بأس به غير أنه إذا غضب لا يبالي من قتل

وقال غيره: هو أول خليفة أدخل الأتراك الديوان:

وكان يتشبه بملوك الأعاجم ويمشي مشيهم وبلغت غلمانه الأتراك بضعة عشر ألفا.

وقال ابن يونس هجا دعبل المعتصم ثم نذر به فخاف وهرب حتى قدم مصر ثم خرج إلى المغرب والأبيات التي هجاه بها هذه:

(ملوك بني العباس في الكتب سبعة ::: ولم يأتنا في ثامن منهم الكتب)
(كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة ::: غداة ثووا فيها وثامنهم كلب)
(وإني لأزهى كلبهم عنك رغبة ::: لأنك ذو ذنب وليس له ذنب)
لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم ::: وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
(وإني لأرجو أن ترى من مغيبها ::: مطالع شمس قد يغص الشرب)
(وهمك تركي عليه مهانة ::: فأنت له أم وأنت له أب)

بويع له بالخلافة بعد المأمون وفي شهر رجب سنة ثمان عشرة ومائتين فسلك ما كان المأمون عليه وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن فكتب إلى البلاد بذلك وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك وقاسى الناس منه مشقة في ذلك وقتل عليه خلقا من العلماء وضرب الإمام أحمد بن حنبل وكان ضربه في سنة عشرين.

وفيها تحول المعتصم من بغداد وبنى [سر من رأى] وذلك أنه اعتنى باقتناء الترك فبعث إلى سمرقند وفرغانة والنواحي في شرائهم وبذل فيهم الأموال وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب فكانوا يطردون خيلهم في بغداد ويؤذون الناس وضاقت بهم البلد فاجتمع إليه أهل بغداد وقالوا: إن لم تخرج عنا بجندك حاربناك قال: وكيف تحاربونني؟ قالوا: بسهام الأسهار قال: لا طاقة لي بذلك فكان ذلك سبب بنائه [سر من رأى] وتحوله إليها.

وفي سنة ثلاث وعشرين غزا المعتصم الروم فكأنهم نكاية عظيمة لم يسمع بمثلها لخليفة وشتت جموعهم وخرب ديارهم وفتح عمورية بالسيف وقتل منها ثلاثين ألفا وسبى مثلهم وكان لما تجهز لغزوها حكم المنجون أن ذلك طالع نحس وأنه يكسر فكان من نصره وظفره ما لم يخف فقال في ذلك أبو تمام قصيدته المشهورة وهي هذه:

(السيف أصدق أنباء من الكتب ::: في حده الحد بين الجد واللعب)
(والعلم في شهب الأرماح لامعة ::: بين الخميسين لا في السبعة الشهب)

(أين الرواية؟ أم أين النحوم؟ ومــا ::: صاغوه من زخرف فيها ومن كذب)
(تخرصـــا وأحاديثـــا ملفقـــة ::: ليست بعجم إذا عدت ولا عــرب)

مات المعتصم يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين وكان قد ذلل العدو بالنواحي ويقال: إنه قال في مرض موته:{حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً} [الأنعام: ٤٤]، ولما احتضر جعل يقول: ذهبت الحيلة فليس حيلة وقيل: جعل يقول: أوخذ من بين هذا الخلق وقيل: إنه قال: اللهم إنك تعلم أني أخافك من قبلي ولا أخافك من قبلك وأرجوك من قبلك ولا أرجوك من قبلي ومن شعره:

(قرب النحام واعجــل يــا غــلام ::: واطرح الــسرج عليــه واللجــام)
(أعلـــم الأتـــراك أني خـــائض ::: لجــة المــوت فمــن شــاء أقــام)

وكان قد عزم على المسير إلى أقصى الغرب ليملك البلاد التي لم تدخل في ملك بني العباس لاستيلاء الأموي عليها فروى الصولي عن أحمد بن الخصيب قال: قال لي المعتصم: إن بني أمية ملكوا وما لأحد منا ملك وملكنا نحن ولهم بالأندلس هذا الأموي فقدر ما يحتاج إليه لمحاربته وشرع في ذلك فاشتدت علته ومات.

وقال الصولي: سمعت المغيرة بن محمد يقول: يقال: إنه لم يجتمع الملوك بباب أحد قط اجتماعها بباب المعتصم ولا ظفر ملك قط كظفره أسر ملك أذربيجان وملك طبرستان وملك استيسان وملك الشياصح وملك فرغانة وملك طخارستان وملك الصفة وملك كابل.

وقال الصولي: وكان نقش خاتمه [الحمد لله الذي ليس كمثله شيء][(١)].

---

(١) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م، ص ٢٩١، المعارف لابن قتيبة: ٣٩٢، الاخبار الطوال: ٤٠١، تاريخ اليعقوبي ٣ / ١٩٧، تاريخ الطبري ٩ / ١١٨ - ١٢٣، مروج الذهب للمسعودي ٧ / ١٠٢، البدء والتاريخ ٦ / ١١٤، تاريخ بغداد ٣ / ٣٤٢، الكامل لابن الأثير ٦ / ٤٣٩ و٥٢٣ - ٥٢٨، العبر ١ / ٤٠٠ - ٤٠٢، عيون التواريخ ٨ / لوحة ١١٨ - ١٢١، فوات الوفيات ٤ / ٤٨، الوافي بالوفيات ٥ / ١٣٩، البداية والنهاية ١٠ / ٢٩٥ - ٢٩٧، الذهب المسبوك للمقريزي:

المحنة في عهد المعتصم:

استَلَم المعتصم بالله أمر الخلافة، وابن أبي دؤاد، على بلاط الخلافة يترجل، وأذناب الاعتزال من حوله، يواصلون مسيرة الامتحان بخلق القرآن، متسترين بالسلطان، يحثونه على إنفاذ وصية المأمون، ويحسنون له أنه لا استقرار لِحُكْمِهِ إلاَّ بذلك.

وفي هذه النوبة تسلطت الأضواء على السجين المكبل، المعذَّب الإمام أحمد بن حنبل الذي باء المعتصم بالأمر بضربه في عهده حَتَّى خُلِعَتْ يَدَاه، إذ لم يضرب قبل في عهد المأمون، ولا بعد في عهد الواثق، وإليك خبره في هذا العهد:

بقي أحمد مقيدًا في بغداد يُنقل من سجن إلى سجن، حتى حُوِّل إلى سجن العامة، وكان يصلي بأهل السجن، وهو مقيد، فصار مُكْثُه نحوًا من ثلاثين شهرًا.

وكان يناظره في السجن رجلان هما: أحمد بن محمد بن رباح، وأبو شعيب الحجام، وكانا كلما فَرَغَا من مناظرته، زاداه قيدًا على قيوده وآلت به الحال إلى إثقاله بالقيود، وجعله في سجن ضيق، مظلم لا نور فيه. وكان دعا ربه أن لا يرى المأمون، فمات في نفس العام وأحمد يُساق إليه في الطريق مقيدًا بالحديد سنة (٢١٨ هـ).

وكان ممن توفي في السجن عام ٢١٧ هـ شيخ دمشق ومحدثها أبو مسهر الغساني عبد الأعلى بن مسهر ببغداد سنة (٢١٨ هـ) في حبس المأمون؟ لكونه لم يجب إلى القول بأن القرآن مخلوق.

ثم حمل الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - على دابة إلى المعتصم في العشر الأواخر من رمضان عام (٢١٩ هـ)، فيناظره المشؤوم: أحمد البدعة وجمع كثير من أصحابه المعتزلة في مجالس متعددة، يحاجه هذا، ثم يحاجه آخر وهكذا يستلمه واحد بعد آخر وأحمد البدعة، يحاج تارة، وتارة يستعمل

٢٢١، النجوم الزاهرة ٢ / ٢٥٠، تاريخ الخميس ٢ / ٣٣٦، شذرات الذهب ٢ / ٦٣، ٦٤.

" الحرب النفسية " مع الإمام أحمد السنة، فينظر إليه نظرات الغضب، فإذا انقطع أحد من أصحابه في المحاجة، اعترض المشؤوم أحمد البدَعة، ومن المسمين في محاجة الإمام أحمد في مجالس المعتصم، والواثق: عبد الرحمن بن إسحاق، وبرغوث المعتزلي، ورجلان من أصحاب ابن أبي دؤاد، لم يسميا.

مواقف من حياته

العلوي الصوفي يحتال للخلاص من سجن المعتصم:

حدثنا أبو محمد عبد الرحمن الوراق المعروف بالصيرفي، ابن أبي العباس محمد بن أحمد الأثرم، المقرئ البغدادي، بالبصرة، في المحرم سنة خمس وأربعين وثلثمائة، بكتاب المبيضة، لأبي العباس أحمد بن عبد الله بن عمار، في خبر العلوي الصوفي، الخارج بالجوزجان، على المعتصم، وهو محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، وكان عبد الله بن طاهر حاربه، وأسره، وبعث به إلى المعتصم، وهو ببغداد، قال: حدثت أن المعتصم أمر أن يبنى حبس في بستان موسى، كان القيم به مسرور مولى الرشيد.

قال: وكنت أرى أعلى هذا البناء من دجلة إذا ركبتها، إذ كان كالبئر العظيمة، قد حفرت إلى الماء، أو قريب منه، ثم بني فيها بناء على هيأة المنارة، مجوف من باطنه، وهو من داخله مدرج، قد حفر فيه، في مواضع من التدريج، مستراحات، وبني في كل مستراح شبيهاً بالبيت، يجلس فيه رجل واحد، كأنه على مقداره، يكون مكبوباً على وجهه، لا يمكنه أن يجلس فيه، ولا يمد رجليه، فلما قدم محمد، حبس في بيت في أسفل ذلك الحبس، فلما استقر فيه أصابه من الجهد لضيقه، وظلمته، ومن البرد أمر عظيم، لنداوة، الموضع ورطوبته، فكاد أن يتلف من ساعته.

فتكلم بكلام دقيق سمعه من كان في أعالي البئر ممن وكل بالموضع، فقال: إن كان أمير المؤمنين يريد قتلي، فالساعة أموت، وإن لم يكن يريد قتلي فقد أشفيت عليه.

فأخبر المعتصم بذلك، فقال: ما أريد قتله، وأمر بإخراجه.

فأخرج وقد زال عقله، وأغمي عليه، فطرح في الشمس، وطرحت عليه اللحف، وأمر بحبسه في بيت كان قد بني في البستان، فوقه غرفة، وكان في البيت خلاء إلى الغرفة التي فوقه، وفي الغرفة أيضاً خلاء آخر إلى سطحها، فلم يزل محبوساً فيه حتى تهيأ له الخروج في ليلة الفطر سنة تسع عشرة ومائتين.

قال: فحدثني علي بن الحسين بن عمر بن علي بن الحسين، وهو ابن عم أبيه، قال: أصبحت يوم الفطر، وأنا أتهيأ للركوب إلى المصلى، فأنا أشد منطقتي في وسطي، وقد لبست ثيابي أبادر الركوب إلى المصلى. فما راعني إلا محمد بن القاسم، قد دخل إلى منزلي، فملأني رعباً وذعراً.

وقلت له: كيف تخلصت؟.

فقال: أنا أدبر أمري في التخلص منذ حبست، ووصف لي الخلاء الذي كان في البيت الذي حبس فيه إلى الغرفة التي فوقه، والخلاء الذي كان في الغرفة إلى سطحها.

قال: وأدخل معي يوم حبست، لبد، فكان وطائي وفراشي.

قال: وكنت أرى بغرش، وهي قرية من قرى خراسان، حبالاً تعمل من لبود، وتضفر كما يفعل بالسيور، فتجيء أحكم شيء، فسولت لي نفسي أن أعمل من اللبد الذي تحتي حبلاً وكان على باب البيت، قوم موكلون بي يحفظونني لا يدخل علي أحد منهم، إنما يكلمونني من خلف الباب ويناولوني من تحته ما أتقوت به.

فقلت لهم: إن أظفاري قد طالت جداً، وقد احتجت إلى مقراض، فجاءني رجل يميل إلى مذهب الزيدية، بمقراض أحد جانبيه منقوش كأنه مبرد.

وقلت لهم: إن في هذا البيت فاراً قد آذوني، ويقذرونني إذا قربوا مني، فاقطعوا لي جريدة من النخل أطردهم بها.

فقطعوا لي من بعض نخل البستان، جريدة، فرموا بها إليه، وكنت لا أزال أضرب بها في البيت، أريهم أني أطرد الفار، وأسمعهم صوتها أياماً، ثم قشرت الخوص عنها، وقطعتها على مقدار ما ظننت أنه

يعترض في ذلك الخلاء إذا رميت بها، فضممت ما قطعته منها بعضه إلى بعض، وقصصت اللبد، وفتلت منه حبلاً، على ما كنت يعمل بغرش، ثم شددت ما قطعته من الجريدة في رأس الحبل، ثم رميت به في الكوة، وعالجته مراراً حتى اعترض فيها، ثم اعتمدت عليها وصعدت إلى الغرفة، ومن الغرفة إلى السطح، ففعلت ذلك مراراً، في أيام كثيرة، وتمكنت من الحركة لأني بردت بجانب المقراض إحدى حلقتي القيد، ولم يمكنني أن أبرد الأخرى، فكنت إذا أردت الحركة، شددت القيد مع ساقي، وأتحرك، وقد صرت مطلقاً.

فلما كان في هذه الليلة وقد شغل الناس بالعيد وانصرف من كان على الباب من الموكلين، فلم أحس منهم أحداً إلا شيخاً واحداً كنت أسمع كلامه وحركته، وأطلع فأراه.

فصعدت بين العشائين إلى الغرفة، ومن الغرفة إلى السطح، فأشرفت، فإذا المعتصم يفطر والناس بين يديه، والشموع تزهر، فرجعت.

فلما كان في جوف الليل صعدت والناس نيام، ونزلت إلى البستان، فإذا فيه قائد ومعه جماعة، فصاح بي بعضهم: من أنت؟ قلت: مديني من أصحاب الحمام، وكان في البستان منهم جماعة يشرفون على أمر الحمام.

فقال لي: إلى أين تخرج الساعة، اطرح نفسك حتى تصبح، وتفتح الأبواب، فطرحت نفسي بينهم، حتى فتح باب البستان في الغلس، وقد تحرك الناس. فصرت إلى دجلة لأعبر، فوجدت الشيخ الذي كان بقي من الموكلين بي يريد العبور، فنزلت لأعبر، فطلب مني الملاح قطعة، فقلت له: ما معي شيء، أنا رجل غريب ضعيف الحال.

فقال لي الشيخ: اعبر، فأنا أعطيه عنك، وأعطاه الشيخ عني قطعة، وعبرت حتى جئتك.

قال علي بن الحسين: فقلت له: والله، ما منزلي لك بموضع، فاخرج عني من ساعتك، ولا تقم فيه لحظة، وركبت إلى المصلى.

فصار إلى منزل رجل من الشيعة، فأخفاه[1].

المعتصم وتميم بن جميل:

من لطائف الحكايات ما روي عن أحمد بن أبي دؤاد القاضي إنه قال: جيء بتميم بن جميل إلى المعتصم أسيراً، وكان قد خرج عليه فما رأيت رجلاً عرض عليه الموت فلم يكترث به سواه، ثم دعا بالسيف والنطع، فلما مثل بين يديه نظر إليه، فأعجبه حسنه وقده ومشيه إلى الموت غير مكترث، فأطال الفكر فيه ثم كلمه لينظر أين عقله ولسانه من جماله، فقال: يا تميم! إن كان لك عذر فائت به.

فقال: أما إذ أذن أمير المؤمنين في الكلام فإني أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه. وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. يا أمير المؤمنين! جبر الله بك صدع الدين ولم بك شعث المسلمين، وأخمد بك نار الباطل وأنار بك سبل الحق، إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع القلوب، وايم الله لقد عظمت الجريمة، وانقطعت الحجة وساء الظن إلا فيك، وهو أشبه بك وأليق ثم أنشد يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ::: يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ::: وأي امرئ مما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يدلي بعذر وحجة ::: وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف ::: يسيل عليه السيف فيه ويسكت
وما جزعي من أن أموت وإنني ::: لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبيةً قد تركتها ::: وأكبادهم من حسرةٍ تتفتت
كأني أراهم حين أنعى إليهم ::: وقد لطموا حمر الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا في سرور ونعمة ::: أذود الردى عنهم، وإن مت موتوا

قال: فبكى المعتصم ثم قال: إن من البيان لسحراً، كما قال النبي : يا تميم، كاد والله أن يسبق السيف العذل. قد غفرت لك الهفوة ووهبتك للصبية.

ثم عقد له ولاية على عمله، وأعطاه خمسين ألف دينار، انتهى. من

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ١١٢/١، ١١٣.

زهر الكمام في قصة يوسف عليه السلام [١].

الطفيلي الأديب والمأمون:

وروى بعض أهل الأدب أن فتى من أهل الكوفة قد فاق أهل زمانه في الأدب والبيان والفصاحة باللسان ناقداً في صناعته، حافظاً للأقدار، راوياً للأشعار، خبيراً بسير الملوك في الأيام السالفة، بصيراً بالبحث عن أمورهم في الأيام الآنفة، حاذقاً في التصنيف، فائقاً في التأليف، صبيح الوجه، مقبول المشاهد، حلو الشمائل، وكان مع ذلك لا يتوجه له وجه من العمل إلا عارضه فيه عائق، وحال دونه حائل وقدر سابق، فبقي حيناً من الدهر، وقد برز في القدر والمال والجاه من كان عنده في الصناعة متأخراً، فضاق صدره وعيل صبره وضلت وّمقاليده، فخرج إلى بغداد واكترى في بعض خاناتها منزلاً وأجمع رأيه على أن يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكه أو ملكه، وتربص لذلك أن يرى وجهاً إلى أن عزم أمير المؤمنين أن يشرب يوماً هو وصنوه المعتصم، فأمر المأمون بالاستعداد ليوم سماه ليخلو فيه مع الجواري، منفردين عن سائر الندماء، فظهر خبرهما بذلك. وعرف الناس ذلك اليوم الذي عزم عليه، فعزم هذا الأديب المذكور على أن يتطفل في ذلك على المأمون وأخيه المعتصم، فمضى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وردية، ومن آخر منطقة وخفًّا وسيفاً، ومن آخر برذوناً، ومن آخر ما يحتاج إليه من الطيب واستعد لذلك اليوم، ودخل الحمام سحراً، وتطيب، ولبس وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب: عرف الأمير أني رسول أمير المؤمنين واستأذن لي عليه.

فسعى الحاجب عدواً حتى أخبر المعتصم، فأذن له. فلما دخل عليه، وتمثل بين يديه، قال له: سيدي إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك: أنسيت الوعد، ألم يقدم إليك بالركوب لنخلو ونستريح يومنا هذا؟ قال المعتصم: لا والله ما نسيت ذلك، ولكن تربصت ساعة. ونمت نوماً لأتقوى بذلك على انتصاب سائر النهار.

---

(١) الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ١٠٦/١، ١٠٧.

فقال الفتى: فعجل الآن أيها الأمير، فإنه أمرني أن لا أفارقك حتى آتيه بك.

فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع في التأهب، ولبس ثيابه وتطيب وركب الفتى معه، والمعتصم لا ينكر شيئاً من كلام الفتى ويتأمل لطافته وهيئته، ولم يتوهم إلا أنه من بعض خواص المأمون، وأخذ الفتى يحدث المعتصم وأقبل عليه بكليته، ولم يتمكن من سؤاله شهوة لاستماع حديثه، حتى بلغ باب الخليفة فألقى الفتى نفسه عن دابته، وأخذ يمشي بين يديه، والحجاب لا ينكرون منه شيئاً ويظنون نه من خدم المعتصم، حتى نزل المعتصم، وأخذ الفتى بركابه، ودخل المجلس، فلما استقر المعتصم في مجلسه جلس الفتى بين يديه، وهو منهمك في نوادره وأخباره والمعتصم مصغ إليه تعجباً مما يسمع من حسن كلامه، وأخبر المأمون أن المعتصم قد وصل ومعه رقيق لا يعرف من هو [(١)].

فقال المأمون: أخي قد عرف أن هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغي أن يحضره أحد من الناس إلا من هو عديل النفس. وقد أحسن أخي إذ جعل لنا ثالثاً، فإن المجلس إذا لم يحضره أكثر من اثنين تعطل لقيام أحدهما إلى الصلاة وإلى ما لا بد منه، ثم خرج من ساعته فرحاً وليس له همة إلا تصفح وجه الغلام واستنطاقه واعتبار قده وعقله، فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع في نفس المأمون نهض قائماً فقبل يد المأمون، وعاد إلى مجلسه وأخذ في نوادره وحديثه ومضحكاته وحسن أخباره وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر، وهو مع ذلك يوهم المأمون أنه من خواص المعتصم. فساعة يكنيه وساعة يسميه حتى غلب على قلب المأمون، وأظهر الحسد لأخيه في صحبة مثل هذا الغلام وكلامه، وأمر المأمون بإحضار المائدة، فنصبت بأنواع الطعام، فأكلوا وغسلوا أيديهم، ولمجلس الشراب انتقلوا، وأمر المأمون بإحضار الجواري من غير ستارة، فحضرن وأخذن في الغناء، فما من صوت يمر إلا والفتى عارف به، وبالغناء، ومتى قيل وفيمن قيل، فعز في عين المأمون حتى ملأ عينه،

---

(١) الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ٩٦/١.

وتزايد حسده لأخيه في صحبة مثله فمس الفتى بولٌ، ولم يجد للمدافعة سبيلاً، فقام وهو متيقن أنهما سيذكرانه، ويتواصفان أمره وحاله، إذا خلا المجلس، فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما حتى قال المأمون لأخيه المعتصم يا أبا إسحاق من صاحبك هذا؟ فوالله ما رأيت رجلاً قط أكثر منه أدباً ولا أنظف هيئة ولا اشرف من شمائله.

فقال المعتصم: والله ما أعلم من هو، وإنما جاءني مبكراً برسالة أمير المؤمنين.

فقال المأمون: سألتك بالله يا أخي أهو كذلك؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو.

فقال المأمون: طفيلي، ورب الكعبة، وغضب وأمر الجواري بالنهوض، فنهض وأقبل الفتى راجعاً فلما نظر إلى خلو المجلس من الجواري وإلى تغير وجه المأمون، وقف على رأس المجلس وأقبل بوجهه على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق! كأني بك قد أخذت في نوع الزور والبهتان، وهذا المجلس من المجالس التي لا تحمل المزاح، وما هكذا وعدتني. ثم قل: والله يا أمير المؤمنين، ما بليت من أحد من الناس مثل ما بليت من هذا لأنه دائماً أبداً يعرضني لمثل هذا وأشباهه، ويغري بي ويوقعني في كل ورطة.

ثم أقبل على المعتصم وقال: يا أبا إسحاق، سألتك بالله وبحق أمير المؤمنين إلا ما أعفيتني من ملاعبتك التي لا تحتمل وتؤدي إلى مؤاخذة أمير المؤمنين.

ولم يزل يأتي بهذا وأمثاله حتى شك المأمون في أمره والتفت إلى أخيه المعتصم وقال: سألتك بالله يا أخي، بحياتي عليك إلا ما علمتني بحقيقة أمره؟ فقال المعتصم: يا أمير المؤمنين برئت من ذمة الله ورسوله ومن حياتك وولايتك إن كنت عرفه أو رأيته قط إلا في يومي هذا.

فقال الفتى: كذب والله يا أمير المؤمنين لقد كنت معه دهري الطويل وفي موضع كذا وكذا، وإن هذا فعله معي أبداً.

فضحك المأمون تعجباً، وقال: ادخل فدخل، وأمره بالجلوس فجلس،

ثم قال لك الأمان إن صدقتني.

فصدقه الحديث على وجهه فأعجب من حسن منطقه ولطف مدخله ودقيق تصرفه وأمر بإعادة الجواري إلى مجلسهن، فطربوا سائر يومهم. فقال له المأمون: أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة إلى بغداد واجعله نظماً ولا تكتم عني شيئاً.

فقال: نعم، ثم أنشأ يقول:

بينا أنا راقد في البيت مكتئب ::: مفكر في حصول الكد والقوت
وليس في البيت لي شيء ألم به ::: وبي من الجوع ما يدني إلى الموت
إذا بصوت بباب الدار أسمعه ::: والأذن مصغية مني إلى الصوت
ناديت من ذا الذي أرجوه لي فرجاً؟ ::: نادى: أنا فرجٌ زن لي كرا البيت

فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه، ثم ضرب برجله الأرض من شدة إعجابه وقال: ثم ماذا؟ قال: يا أمير المؤمنين فخرجت فإذا هو صاحب الخان يطالبني بالكراء، فوعدته بأن يرجع إلي مرة أخرى، فمضى ومضيت على وجهي لا أعلم أين أتوجه، فسألت كل من لقيته من صديق لي كنت أستأنس به فخطر على بالي بيتان من الشعر في ذلك وهما.

غريب الدار ليس له صديقٌ ::: جميع سؤاله: أين الطريق؟
تعلق بالسؤال لكل شخصٍ ::: كما يتعلق الرجل الغريق

فأشرفت يا أمير المؤمنين علي جارية كأنها البدر ليلة كماله، وهي تقول:

ترفق يا غريب فكل حر ::: يمر بحاله سعةٌ وضيق
وكل ملمةٍ إن أنت فيها ::: صبرت لها أتيح لها طريق

ثم قالت: خذ هذه فادفع بها فاقتك، فوالله ما هي إلا مؤاساة من قوت، ورمت إلى صدري بقرطاس، وإذا فيه عشرة دراهم، فرجعت من فوري، فوجدت صاحب الكراء قائماً على الباب، فدفعت إليه خمسة دراهم، واستعنت بالباقي إلى أن وقعت هذه القصة، وهذا الأمر الذي كلفني وحملني على ما فعلت وأنشأ يقول:

لم آتِ فعــــلاً غـــير مستحــــسن ::: جهـــلاً بفعـــل الأحـــسن الأملــح
لكـــــنني في حالـــــة أوجبـــــت ::: ضـــــرورة إتيـــــان مـــــستقبح

فأعجب المأمون أمره واستحسنه وأمر له بمائة ألف درهم يصلح بها شأنه وألحقه بمراتب الخاصة، ورفعت منزلته، وصار أقرب الناس إليه، وآخر خارج من عنده وأول داخل إليه، وسمي طفيلي المعتصم، وأنشد للمأمون يوماً يقول:

كانـــت لقلـــبي أهـــواء مفرقـــة ::: فاستجمعت مذ رأتك العين أهـــوالي
تركت للنـــاس دنيـــاهم ودينـــهم ::: شغلاً بذكرك عن ديـــني ودنيـــائي
وصار يحسدني من كنـــت أحـــسده ::: وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

فاستحسن المأمون الأبيات، وأمر بكتبها على الستارة، وصار الفتى إذا حضر يوم سرور المأمون لم يكن للمأمون هم إلا اقتراح هذه الأبيات إلى أن ينقضي المجلس، ثم إن الفتى بعد أن حسنت حالته، أرسل إلى الدار التي أشرفت عليه منها الجارية، فإذا هي لرجل من أهل بغداد من مباشريها، وقد مات ولم يخلف ولداً سوى تلك الجارية، وما مات حتى تضعضع حاله، فأعلم المأمون بذلك، فمر بخطبتها للفتى ودفع المهر من عنده وصار الفتى والجارية في نعمة عظيمة بقية عمرهما والله أعلم[(١)].

مخارق المغني والجارية الحسناء:

وذكر صاحب تاريخ بغداد عن مخارق المغني قال: تطفلت تطفيلة قامت على أمير المؤمنين المعتصم بتسعين ألف درهم.

قيل له: كيف ذلك؟ قال: شربت معه ليلة إلى الصبح، فلما أصبحنا قلت له: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن أخرج إلى الرصافة، فأتنسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين.

قال: نعم، فأمر البوابين أن يتركوني، فخرجت أتمشى في الرصافة، وإذا بجارية كأن الشمس تشرق من جبينها، فتبعتها ورأيت معها زنبيلاً فوقفت على فاكهاني، واشترت سفرجلة بدرهم، وانصرفت فتبعتها، فالتفتت فرأتني فقالت: يا بن الفاعلة إلى أين؟ قلت: خلفك يا سيدتي؟

(١) الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ٩٧، ٩٨.

فقالت: ارجع يا ابن الزانية لئلا يراك أحد فيقتلك؟ فتأخرت ومشيت وتمشت أمامي ثم التفتت فرأتني، فشتمتني شتماً قبيحاً ثم جاءت إلى دار كبيرة، فدخلت فيها، وجلست أنا عند الباب، وقد ذهب عقلي ونزلت علي الشمس، وكان يوماً حاراً، فلم ألبث أن جاء فتيان كأنهما بدران على حمارين، فلما وصلا إلى الباب أذن لهما، فدخلا ودخلت معهما، فظنا أن صاحب المنزل قد دعاني، وجيء بالطعام، فأكلنا وغسلنا أيدينا، فقال لنا صاحب المنزل: هل لكم في فلانة؟ فقالوا: إن تفضلت.

قال: فاستدعي بتلك الجارية، فخرجت فإذا هي صاحبتي ووراءها وصيفة تحمل عودها، فوضعته في حجرها فغنت وشربوا وطربوا، وهي تلحظني وتشك في، فقالوا: لمن هذا الصوت؟ فقالت: لسيدي مخارق.

فلم ألبث أن قلت: يا جارية شدي يدك، فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذي تقول عليه. قال: فاستدعيت بمدورة وقضيب وغنيت الصوت الذي قالته الجارية، فقاموا إلي وقبلوا رأسي.

قال: وكان مخارق من أحسن الناس صوتاً، وكان يوقع بالقضيب توقيعاً عجيباً.

قال: ثم غنيت الصوت الثاني والثالث، فكادت عقولهم تطير فقالوا: بالله من أنت يا سيدي؟ فقلت: مخارق.

فقالوا: وما سبب مجيئك؟ قلت: طفيلي أصلح الله شأنكم. وأخبرتهم بخبري.

فقال صاحب البيت لصديقيه: أما تعلمان ني أعطيت في هذه الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت عن بيعها؟ قالا: نعم.

قال: هي له.

فقال صديقاه: علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف درهم.

قال مخارق: فملكوني الجارية، وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها وكلما مررت بالمواضع التي شتمتني فيها أقول: يا مولاتي، أعيدي كلامك فتستحي مني، فأحلف عليها لتعيدنه، فتعيده حتى

وصلت إلى أمير المؤمنين فقيل لي أنه انتبه فطلبك في منازل أبناء القواد فلم يجدك، وتغيظ غيظاً شديداً، فدخلت عليه ويدي في يدها، فلما رآني سبني وشتمني، فقلت: يا أمير المؤمنين لا تعجل! وحدثته الحديث فضحك، وقال: ها نحن نكافئهم عنك، فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم، والله أعلم، انتهى(١).

توبة المعتصم ورجوعه عن قتل تميم بن جميل:

قال: ووجدت في بعض الكتب قال أحمد بن أبي دواد: ما رأيت رجلا قط أشرف على الموت فما شغله ولا أذهله عما يريد حتى بلغه، وخلصهُ الله عز وجل إلا تميم بن جميل، فإني رأيته بين يدي المعتصم وقد بسط له النطع وانتضى له السيف، وكان رجلا جسيما وسيما فأحب المعتصم أن يستنطقه لينظر أين منظره من مخبره، فقال له: تكلم. فقال: أما إذ أذن أمير المؤمنين فالحمد لله:{ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾} [السجدة: ٧ - ٨]، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين، ولم بك شعث المسلمين إن الذنوب تخرس الألسنة وتخلع الأفئدة وايم الله لقد عظمت الجريرة، وانقطعت الحجة، وساء الظن ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ثم أنشأ يقول

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا ::: يلاحظني من حيث ما أتلفت
وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي ::: وأي امرئ مما قضى الله يفلت
وأي امرىء يدلي بعذر وحجة ::: وسيف المنايا بين عينيه مصلت
وما جزعي من أن أموت فإنني ::: لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم ::: وأكبادهم من حرها تتفتت
فإن عشت عاشوا سالمين بغبطة ::: أذود العدى عنهم وإن مت موتوا
كأني أراهم حين أنعى إليهم ::: وقد لطموا تلك الخدود وصوتوا

قال: فاستعبر المعتصم ثم قال: يا تميم قد عفوت عن الهفوة، ووهبتك للصبية، ثم أمر به ففك حديده وخلع عليه وعقد له على سقي الفرات.(٢)

---

(١) الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة، ص ١٠٧.
(٢) عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي أبو محمد، التوابين، تحقيق: عبد القادر

توبة لص من اللصوص عن التعرض للناس:

أخبر أبو بكر الصولي، قال: حدثنا محمد بن القاسم بن خلاد، قال: رفع بعض العمال إلى المعتصم، وكان يلي الخراج بموضع يلي فيه خالد بن يزيد الحرب، أن خالد بن يزيد اقتطع الأموال واحتجن بعضها.

فغضب المعتصم، وحلف ليأخذن أموال خالد، ويعاقبه.

فلجأ خالد إلى أحمد بن أبي دؤاد القاضي، فاحتال حتى جمع بينه وبين خصمه، فلم تقم على خالد حجة.

فعرف ابن أبي دؤاد المعتصم ذلك، وشفع إليه في خالد، فلم يشفعه.

وأحضر خالداً، وأحضر آلات العقوبة، وقد كان قبل ذلك، قبض أمواله، وضياعه، وصرفه عن العمل.

وحضر ابن أبي دؤاد المجلس، فجلس دون الناس.

فقال له المعتصم: ارتفع إلى مكانك.

فقال: يا أمير المؤمنين، ما أستحق إلا دون هذا المجلس.

قال: وكيف؟ قال: الناس يزعمون أن ليس محلي محل من شفع في رجل قرف بما لم يصح عليه فلم يشفع.

قال: ارتفع إلى موضعك.

قال: مشفعاً أو غير مشفع؟ قال: مشفعاً، قد وهبت لك خالداً، ورضيت عنه.

قال: الناس لا يعلمون بهذا.

قال: وقد رددت عليه العمالة، والضياع، والأموال التي له.

قال: ويشرفه أمير المؤمنين بخلع تظهر للعامة.

فأمر أن تفك قيوده ويخلع عليه، ففعل به ذلك، ورد إلى حضرته.

فقال ابن أبي دؤاد: قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر، فإن رأى أمير المؤمنين، أن يجعلها صلة له.

الأرناؤوط، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٣ - ١٩٨٣، ص ٢٨٠.

قال: لتحمل معه.

فخرج خالد، والناس منتظرون الإيقاع به، فلما رأوه على تلك الحال، سروا، وصاح به رجل: الحمد لله على خلاصك يا سيد العرب.

فقال: مه، سيد العرب - والله - ابن أبي دؤاد، الذي طوقني هذه المكرمة التي لا تنفك من عنقي أبداً لا أنا.

وفي هذه القضية، يقول أبو تمام الطائي:

يا سائلي عن خالد وفعاله ::: رد فاغترف علماً بغير رشاء

قد كان خطب عاثر فأقاله ::: رأي الخليفة كوكب الخلفاء

فخرجت منه كالشّهاب ولم تزل ::: مذ كنت خرّاجاً من الغمّاء

ما سرّني بخروجه من حجّة ::: ما بين أندلس إلى صنعاء[1]

إنقاذ أبي دلف من موت محقق:

كان ابتداء العداوة بين أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد، وبين الإفشين، أن الإفشين كان أغرى المعتصم بأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، لعداوة كانت بينهما، فسلمه إليه المعتصم، فأجمع على قتله من يومه ذاك.

وبلغ الخبر أبا دلف، فارتحل إلى ابن أبي دؤاد، فاستجار به، وعرفه ما قد أشرف عليه.

فجاء ابن أبي دؤاد إلى المعصم ليسأله عن أمره، فوجده نائماً، فكره أن يقيمه وينبهه، وخاف أن يشرع الإفشين في قتل أبي دلف، فجاء إلى الإفشين فقال له: يقول لك أمير المؤمنين، بلغني أنك تريد أن تحدث على القاسم بن عيسى حادثة، ووالله لئن فعلت لأقتلنك، ولم يكن المعتصم أرسله، ولا قال له شيئاً.

فرهب الإفشين أن يقتل أبا دلف.

وعاد ابن أبي دؤاد إلى المعتصم، فقال له:﴿ يا أمير المؤمنين، قال رسول الله :**ليس الكذاب من أصلح بين الناس**﴾، فقال خيراً، ومني خيراً، وقد أديت عنك رسالة أحييت بها أهل بيت من المسلمين، وكففت بها

---

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ٨٥/٨٦.

أسياف خلق من العرب، بلغني أن الإفشين عزم على قتل القاسم بن عيسى العجلي، فأديت إليه عنك رسالة هي كذا وكذا، فحقنت دم الرجل، ونعشت عياله، وكففت عنك عصيان عجل ومن يتبعها ممن يتعصب له فيتفق عليك من ذلك ما تغتم به، والرجل في يده مشف على القتل.

فقال له المعتصم: قد أحسنت.

ووجه الإفشين إلى ابن أبي دؤاد: لا تأتيني، ولا تقربني.

فقال للرسول: أتؤدي عني كما أديت إلي؟ قال: قل.

قال: قل له: ما آتيك تعززاً من ذلة، ولا تكثراً من قلة، وإنما أنت رجل ساعدك زمان، ورفعك سلطان، فإن جئتك فله، وإن تأخرت عنك فلنفسك.

أخبرني القاضي أبو طالب محمد بن إسحاق بن البهلول التنوخي، فيما أجاز لي روايته عنه، بعدما سمعته منه، قال: حدثنا محمد بن خلف، وكيع القاضي، قال: أخبرنا موسى بن جعفر، أخو لعس الكاتب، قال: كان أحمد ابن أبي دؤاد حين ولي المعتصم الخلافة، عادى الإفشين وحرض عليه المعتصم، وذكر حديثاً طويلاً، ليس هذا موضعه.

ثم قال فيه: وكان سبب العداوة بين أحمد بن أبي دؤاد، وبين الإفشين، أن الإفشين أراد قتل أبي دلف القاسم بن عيسى العجلي، فاستجار بابن أبي دؤاد، ثم ذكر نحواً مما ذكرته عن أبي رضي الله عنه، إلا أنه لم يقل في خبره أن ابن أبي دؤاد جاء إلى المعتصم فوجده نائماً، ثم عاد فوجده قد انتبه، وقال في آخر حديثه: وإنما أنت رجل رفعتك دولة، فإن جئت فلها، وإن قعدت فعنك.

وأخبرني أبو الفرج المعروف بالأصبهاني، قال: قال أحمد بن أبي طاهر: كان أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي، في جملة من كان مع الإفشين خيذر ابن كاوس لما خرج لمحاربة بابك، ثم تنكر له، فوجه من جاءه به ليقتله.

وبلغ المعتصم الخبر، فبعث إليه بأحمد بن أبي دؤاد، وقال له: أدركه، وما أراك تدركه، واحتل في خلاصه منه كيف شئت.

قال أحمد: فمضيت ركضاً، حتى وافيته، فإذا أبو دلف واقف بين يديه، وقد أخذ بيده غلامان له تركيان، فرميت بنفسي على البساط، وكنت إذا جئته دعا لي بمصلى.

فقال: سبحان الله، ما حملك على هذا؟ قلت: أنت أجلستني هذا المجلس، ثم كلمته في القاسم بن عيسى، وسألته فيه، وخضعت له، فجعل لا يزداد إلا غلظة.

فلما رأيت ذلك منه، قلت، هذا عبد، وقد أغرقت في الرقة معه فلم تنفع، وليس إلا أخذه بالرهبة.

فقمت، وقلت: كم تراك قدرت في نفسك تقتل أولياء أمير المؤمنين واحداً بعد واحد، وتخالف أمره في قائد بعد قائد؟ قد حملت إليك هذه الرسالة عن أمير المؤمنين، فما تقول؟ فقل، وذل، حتى لصق بالأرض، وبان لي الاضطراب فيه.

فلما رأيت ذلك، نهضت إلى أبي دلف، فأخذت بيده، وقلت: قد أخذته بأمر أمير المؤمنين.

فقال: لا تفعل، يا أبا عبد الله.

فقلت: قد فعلت، وأخرجت القاسم، وحملته على دابة، ووافيت المعتصم.

فلما بصر بي، قال: بك يا أبا عبد الله وريت زنادي، ثم سرد علي خبري مع الإفشين، حديثاً ما أخطأ فيه حرفاً.

ثم سألني: هل هو كما قال؟ فأخبرته أنه لم يخطئ حرفاً واحداً.

وأخبرني أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر، المعروف بالحاتمي، قال: حدثني أبي، قال: حدثني جدك المظفر بن الحسن، قال: حدثني أبو العباس ابن الفرات قال: حدثني أبو إسحاق إبراهيم بن ثوابة، قال: كان الإفشين نقم على أبي دلف العجلي، وهو مضموم إليه في حرب بابك، أشياء، فلما ظفر بابك، وقدم سر من رأى، شكاه إلى المعتصم، وسأله ليأمره به، ففعل، ثم سأله أن يطلق يده عليه، فلم يفعل، وكان أحمد بن أبي دؤاد متعصباً لأبي دلف، يقول للمعتصم: إن الإفشين ظالم له، وإنما نقم

عليه نصيحته في محاربة بابك، وجده فيها، ودفعه ما كان الإفشين يذهب إليه من مطاولة الأيام، وإنفاق الأموال، وانبساط اليد في الأعمال، وتركه متابعته على ذلك.

فألح الإفشين على المعتصم بالله في إطلاق يده عليه، وكان للإفشين قدر جليل عند المعتصم، يدخل عليه بغير إذن.

قال أبو إسحاق، وأنبأنا أبو عبد الله بن أبي دؤاد، قال: دخلت على المعتصم يوماً، فقال: يا أبا عبد الله، لم يدعني اليوم أبو الحسن الإفشين حتى أطلقت يده على القاسم بن عيسى.

فقمت من بين يديه، وما أبصر شيئاً خوفاً على أبي دلف، ودخلني أمر عظيم، وخرجت فركبت دابتي، وسرت أشيد سير من الجوسق إلى دار الإفشين بقرب المطيرة، أؤمل أن أدرك أبا دلف قبل أن يحدث الإفشين عليه حادثة.

فلما وقفت ببابه، كرهت أن أستأذن فيعلم أني قد حضرت بسبب أبي دلف، فيعجل عليه، فدخلت على دابتي إلى الموضع الذي كنت أنزل فيه، وأوهمت حاجبه أني قد جئت برسالة المعتصم، ثم نزلت، فرفع الستر، فدخلت، فوجدت الإفشين في موضعه، وأبو دلف مقيد بالحديد بين يديه في نطع، وهو يقرعه، ويخاطبه بأشد غضب وأعظم مخاطبة.

فحين قربت منه أمسك، فسلمت، وأخذت مجلسي، ثم قلت للإفشين: قد عرفت حرمتي بأمير المؤمنين، وخدمتي إياه، وموضعي عنده، وموقعي من رأيه، وتفرده بالصنيعة عندي والإحسان، وعلمت مع ذلك ميلي إليك، ومحبتي لك، وقد رغبت إليك فيما يرغب فيه مثلي إلى مثلك، ممن رفع الله قدره، وأجل خطره، وأعلى همته.

فقال: كل ما قلت كما قلت، وكل ما أردت فهو مبذول لك، خلا هذا الجالس، فإني لا أشفعك فيه.

فقلت: ما جئتك إلا في أمره، ولا ألتمس منك غيره، ولولا شدة غضبك، وما تتوعده به من القتل، لكان في جميل عفوك ما يغني عن كلامك، ولكني لما عرفت غيظك، وما تنقمه عليه، احتجت - مع موقعه

مني - إلى كلمة في أمره، واستيهاب عظيم جرمه، إذ كان مثلك في جلالتك إنما يسأل جلائل الأمور.

فقال: يا أبا عبد الله، هذا رجل طلب دمي، ولم تقنعه إزالة نعمتي، ولا سبيل إلى تشفيعك فيه، ولكن هذا بيت مالي، وهذه ضياعي، وكل ما أملك بين يديك، فخذ من ذلك كله ما أردت.

فقلت: بارك الله لك في أموالك وثمرك، لم آتك في هذا، وإنما أتيتك في مكرمة يبقى لك فضلها، وحسن أحدوثتها، وتعتقد بها منة في عنقي، ولا أزال مرتهناً في شكرها.

فقال: ما عندي في هذا شيء البتة.

فقلت له: القاسم بن عيسى فارس العرب وشريفها، فاستبقه، وأنعم عليه، فإن لم تره لهذا أهلاً، فهبه للعرب كلها، وأنت تعلم أن ملوك العجم لم تزل تفضل على ملوك العرب، ومن ذلك ما كان من كسرى إلى النعمان حتى ملكه، وأنت الآن بقية العجم وشريفها، والقاسم شريف العرب، فكن اليوم شريفاً من العجم أنعم على شريف من العرب، وعفا عنه.

فقال: ما عندي في هذا جواب إلا ما سمعت، وتنكر، وتبينت الشر في وجهه.

فقلت في نفسي: أنصرف، وأدع هذا يقتل أبا دلف؟ لا والله، ولكن أمثل بين يديه قائماً، وأكلمه، فلعله أن يستحي، فقمت، وتوهمني أريد الانصراف، فتحفز لي.

فقلت: لست أريد الانصراف، وإنما مثلت بين يديك قائماً، صابراً، راغباً، ضارعاً، سائلاً، مستوهباً هذا الرجل منك.

فكان جوابه أغلظ.

فتحيرت، وقلت في نفسي: أنكب على رأسه، فأقبله. فدخلني من ذلك أنف شديد، وقلت في نفسي: أقبل راس هذا الأقلف؟ لا يكون هذا أبداً.

ثم راجعتني الشفقة على أبي دلف، فقبلت رأسه، وضرعت إليه، فلم يجبني، فأخذني ما قدم وما حدث.

فجلست، وقلت له: يا أبا الحسن، قد طلبت منك، وضرعت إليك، ووضعت خدي لك، ومثلت بين يديك، وقبلت رأسك، فشفعني، واصرفني شاكراً، فهو أجمل بك.

فقال: لا والله، ما عندي غير الذي قلته لك.

فقلت له: أنا رسول أمير المؤمنين إليك، وهو يقول لك: لا تحدث في القاسم بن عيسى حدثاً، فإنك إن قتلته قتلت به.

قال: أمير المؤمنين يقول هذا بعد أن أطلق يدي عليه؟ قلت: نعم، أنا رسوله إليك بما قلته لك، فإن كنت في الطاعة فاسمع وأطع، وإن كنت قد خلعت، فقل: لا طاعة، ونفضت في وجهه يدي، ونهضت.

فاضطرب حتى لم يقدر أن يدعو لي بدابتي.

وركبت، فأغذذت السير إلى المعتصم، لأخبره الخبر، وبما اضطررت إليه من تأدية رسالته، لأني علمت أنه لم يقل لي ما قله، إلا وهو يحب استبقاء أبي دلف.

فانتهيت إلى الجوسق في وقت حار، والحجاب جميعاً نيام، والدار خالية، فدخلت حتى انتهيت إلى ستر الدار التي فيها المعتصم، فجلست، وقلت: إن جاء الإفشين دخلت معه وتكلمت، وإن سأل الوصول، أخبرت أمير المؤمنين الخبر كله.

فبينا أنا كذلك، إذ خرج خادم من وراء الستر، فعرفته، ثم دخل وخرج فقال: ادخل.

فدخلت، وقلت: يا أمير المؤمنين، أما لي حرمة؟ أما لي ذمام؟ أما لي حق؟ أما في فضل أمير المؤمنين علي، ونعمته عيدي، ما تجب رعايته؟ فقال: ما لك يا أبا عبد الله؟ ما قصتك؟ اجلس، فجلست.

ثم قلت: يا أمير المؤمنين، قلت لي اليوم في القاسم بن عيسى قولاً علمت معه أنك أردت استبقاءه وحقن دمه، فمضيت من فوري إلى أبي الحسن الإفشين، ثم قصصت عليه القصة إلى موضع الرسالة التي أديتها عنه إليه، وهو في كل ذلك يتغيظ، ويفتل سباله، حتى إذا أردت أن أعرفه الرسالة التي أديتها عنه، قطع، وقال: يمضي قاضي، وصنيعتي أحمد بن

أبي دؤاد إلى خيذر، فيخضع له، ويقف بين يديه، ويقبل رأسه، فلا يشفعه؟ قتلني الله إن لم أقتله، يكررها.

فما استوفى كلامه، حتى رفع الستر ودخل الإفشين، فلقيه بأكبر البر والإكرام، وأجلسه بقربه، وقال: في هذا الوقت الحار يا أبا الحسن؟ فقال: يا أمير المؤمنين، رجل قد عرفت ما نالني منه، وأنه طلب دمي، وقد أطلقت يدي عليه، يجيئني هذا، ويقول لي إنك بعثت إلي تأمرني أن لا أحدث فيه حدثاً، وأني إن قتلته قتلت به.؟ قال: فغضب، وقال: أنا أرسلته إليك، فلا تحدث على القاسم بن عيسى حدثاً.

فنهض الإفشين مغضباً يدمدم، واتبعته لأتلافاه، فصاح بي المعتصم: ارجع يا أبا عبد الله، فرجعت، وقلت: يا أمير المؤمنين، إنه كان بقي شيء ما جرى مني قطعتني بكلامك عن ذكره لك.

قال: تعني الرسالة؟ قلت: نعم.

قال: قد فهمتها، والقاسم يوافيك العشية، فاحذر أن تفوه بشيء مما جرى.

ومضى الإفشين، فأطلق القاسم، وخلع عليه، وحمله، فجاءني القاسم من العشية.

وما أخبرت بالحديث حتى قتل الإفشين ومات المعتصم[1].

وأنا طلقت بلا علة:

عن إسحاق قال: كنا عند المعتصم، فعرضت عليه جارية، فقال: كيف ترونها، فقال واحد من الحاضرين: امرأتي طالق، إن كان الله عز وجل خلق مثلها، وقال الآخر: امرأتي طالق إن كنت رأيت مثلها، وقال الثالث: امرأتي طالق وسكت، فقال: المعتصم إن كان ماذا؟ فقال: إذا كان لا شيء، فضحك المعتصم حتى استلقى، وقال: ويحك ما حملك على هذا؟ قال يا سيدي: هذان الأحمقان طلقا لعلة، وأنا طلقت بلا علة[2].

---

(١) القاضي التنوخي، الفرج بعد الشدة، ص٨٨، ٨٩.
(٢) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، أخبار الحمقى والمغفلين، المكتب التجاري - بيروت، ١٩٣/١.

نديم ينتقم من صاحب بيت المال:

كان على بيت مال المعتصم رجل من أهل خراسان يكنى أبا حاتم، فخرجت لي جائزة فمطلني بها، وكان ابنه قد اشترى جارية مغنية تسمى قاسم بستين ألف درهم، قال: فعملت فيه شعراً وجلست ألاعب المعتصم بالشطرنج في يوم الخمار، وكان يشرب يوماً ويستريح يوماً فيلعب فيه ونلعب بين يديه، فجعلت أنشد:

لتنصفني يا أبا حاتم ::: أو لتصيرن إلى حاكم
فتعطي الحق على ذلة ::: بالرغم من أنفك ذا الراغم
يا سارقاً مال إمام الهدىً ::: سيظهر الظلم على الظالم
ستين ألفاً في شرا قاسم ::: من علٍ هذا الملك الفئم

فقال له: ما هذا الشعر؟ فتفازعت كأني أنشدته ساهياً ولجلجت، فقال: أعده فقتل: إن رأى أمير المؤمنين أن يعفيني، وإنما أريد أن يحرص على أن يسمعه، فقال: أعده ويلك، فأعده، فقال: ما هذا؟ فقتل: أظن صاحب بيت المال مطل بعض هؤلاء الشعراء بشيء له فعمل فيه هذا الشعر، قال: فما معنى قاسم؟ قلت:جارية اشتراها ابنه بستين ألف درهم، قال: وأراني أنا الملك النائم صدق والله قائل هذا الشعر، والله لو عرفته لوصلته لصدقته، رجل مملق وليته بيت المال ليعيش برزقه منذ سنتين، من أين لابنه هذا المال؟ ثم قال لإيتاخ: قيد صاحب بيت المال وابنه حتى تأخذ منهما مائتي ألف درهم وول بيت المال غيره[1].

مكافأة بغا على شجاعته:

كان عبد الله بن طاهر قد أهدى للمعتصم شهربين ملمعين ذكر أن خراسان لم تخرج مثلهما، فسأله بغا أن يحمله على أحدهما فأبى وقال: تخير غيرهما ما شئت فخذه، قال: فخرجنا ولم يأخذ شيئاً فلما كنا بطبرستان عرض له قوم من أهلها، فقالوا: أعز الله الأمير! إن في بعض الغياض سبعاً قد استكلب على الناس وأقناهم، فقال: إذا أردت الرحيل غداً فكونوا معي حتى تقفوني على موضعه، قال: فلما رحلنا من غد حضر

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح،١/٨٥.

جماعة منهم فانفرد معهم في عشرين فارساً من غلمانه، ومعه قوسه ونشابتان في منطقته، قال: فصاروا به إلى الغيضة فثار السبع في وجهه من بينهم، قال: فحرك فرسه من بين يديه وأخذ نشابة من النشابتين فرماه في إسته، فمر السهم فيها إلى الريش، وركب السبع رأسه، قال: وعاد بغا إليه فما اجترأ أحد على النزول إليه حتى نزل بغا فوجده ميتاً، قال: فشبرناه فكان من رأسه إلى رأس ذنبه ستة عشر شبراً، ووجدناه أحص الشعر إلا معرفته، قال: فكتبنا بخبره إلى المعتصم، فلحقنا جواب كتابنا بحلوان يذكر فيه أنه قد تفاءلت بقتل السبع، ورجا أن يكون من علامات الظفر ببابك، وأنه قد وجه إلى بغا بالشهربين اللذين كان طلب أحدهما فمنعه، وبسبع خلع من خاصة خلعه وثيابه، وخمس مائة ألف درهم صلة له وجزاء على قتله السبع، قال: وإنما أراد المعتصم بذلك إضراؤه على طاعته ومجاهدة عدوه[1].

ياَ دَارُ غَيَّرَكِ الْبِلَى:

وحكي أنه لما فرغ المعتصم من بناء قصره بالميدان جلس فيه وجمع أهله وأصحابه وأمرهم أن يخرجوا في زينتهم فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم فاستأذن إسحاق بن إبراهيم الموصلي في الإنشاد فأذن له فأنشد شعرا حسنا أجاد فيه إلا أنه استفتحه بذكر الديار وعفائها فقال

(يـاَ دَارُ غَيَّـرَكِ الْبِلَـى وَمَحَـاكِ ::: يَا لَيْتَ شِعْرِي مَـا الَّـذِي أَبْـلاَكِ)

فتطير المعتصم بذلك وتغامز الناس على إسحق بن إبراهيم كيف ذهب عليه مثل ذلك مع معرفته وعمله وطول خدمته للملوك ثم أقاموا يومهم وانصرفوا فما عاد منهم اثنان إلى ذلك المجلس وخرج المعتصم إلى سرَّ من رأى وخرب القصر [2].

فكيف رأيت وجهه؟

---

(١) المعافى بن زكريا، الجليس الصالح والأنيس الناصح، ١١٢/١.

(٢) أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٩٥، ٢٢٦/٢.

قال حمدون بن إسماعيل النديم: حضر العيد فعبّى المعتصم بالله خيله تعبية لم يسمع بمثلها ولم ير لأحد من ولد العباس شبيةٌ بها، وأمر بالطريق فمسح من باب قصره إلى المصلى ثم قسم ذلك على القوّاد وأعطى كلّ واحد منهم مصافّه، فلما كان قبل الفطر بيوم حضر القوّاد وأصحابهم في أجمل زيّ وأحسن هيأة فلزموا مصافّهم منذ وقت الظهر إلى أن ركب المعتصم بالله إلى المصلى، فكان الموضع الذي وقع لإبراهيم بن المهدي من بعد الحرسيّ بحذاء مسجد الخوارزمي وإبراهيم واقف وأصحابه في المصاف، فلما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتبوا في المصاف بالمصير إلى المصلى على التعبية التي حدّها، ولبس ثيابه وجلس على كرسيّ ينتظر مضيّ القواد، فلما انقضى أمرهم تقدّم إلى الرجّالة في المسير بين يديه فتقدّم منهم سبعة آلاف ناشب من الموالي كل ثلاثمائة منهم في زيّ مخالف لزيّ الباقين وأربعة آلاف من المغاربة وأمر الشيعة فكانوا وراءه بالأعمدة وعدّتهم أربعة آلاف، وركبت لا أدري منزلتي أين هي ولا أعرف مرتبتي ولم أعلم أين أسير من الموكب، فلما وضع رجله في الركاب واستوى على سرجه التفت إليّ وقال: يا حمدون كن أنت خلفي، فلزمت مؤخر دابته، فلما خرج من باب القصر تلقاه القواد وأصحاب المصافّ يخرج الرجل من مصافه فإذا قرب نزل وسلم عليه بالخلافة فيأمره بالركوب ويمضي حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدي فنزل وسلم عليه بالخلافة فردّ عليه السلام فقال: كيف أنت يا إبراهيم وكيف حالك وكيف كنت في أيامك؟ اركب، فركب، فلما جاوزه التفت إليّ فقال: يا حمدون! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين! قال: تذكر، قلت: أي والله يا سيدي، وأمسك، فنظرت في ما قال فلم أجدني أذكر شيئاً في ذلك الموضع مما يشبه ما كنا فيه، فنغص عليّ يومي وما رأيت من حسنه وسروري بالمرتبة التي أهلني بها، وقلت: الخلفاء لا يعاملون بالكذب ولا يجوز أن يسألني عند انصرافي عن هذا الأمر فلا يكون له عندي جواب ولا حقيقة، وتخوفت أن ينالني منه مكروه، فلم أزل واجماً في طريقي إلى وقت انصرافه ثم أجمعت على مغالطته إن أمكنني وأعمل الحيلة في التخلص إن يسألني، فلما استقر في مجلسه وبسط السماط

وجلس القوّاد على مراتبهم للطعام أقبلت أخدم وأختلف ليست لي همة غير ما كان قاله لي لا أغفل عن ذلك حتى انقضى أمر السماط ورفع الستر ونهض أمير المؤمنين ودخل الحجرة ومضى إلى المرقد، فلم ألبث أن جاء الخادم وقال لي: أجب أمير المؤمنين، فمضيت فلما دخلت ضحك إليّ وقال: يا حمدون رأيت؟ قلت: نعم يا سيدي قد رأيت، فالحمد لله الذي بلغ بي هذا اليوم وأرانيه فما رأيت ولاسمعت لأحد من الخلفاء والملوك بأجلّ منه ولا أبهى ولا أحسن، قال: ويحك رأيت إبراهيم ابن المهدي؟ قلت: نعم يا سيدي، قال: رأيت سلامه عليّ وردّي عليه ونزوله إليّ؟ قلت: نعم، فقال: إنه لما كان من أمره ما كان، يعني الخلافة، قسم الطريق في يوم عيد من منزله إلى المصلّى كقسمتي إياه في هذا اليوم بين قواده، فوقع موضعي منه الموضع الذي كان به هذا اليوم، فلما حاذاني نزلت فسلّمت عليه فردّ عليّ مثل ما رددته حرفاً حرفاً على ما قال لي، قال: فدعوت له وانفرج عني ما كنت فيه وتخلّى عني الغمّ والكرب، ثم قال: يا حمدون إني لم آكل شيئاً وأنا أنتظر أن تأكل معي فامض إلى حجرة الندماء فإنك تجد إبراهيم هنالك فاجلس إليه وعابثه وضاحكه وأجر له هذا الحديث وقل له: إنك رأيته في ذلك اليوم فعل بي فعلي به في هذا اليوم وانظر إلى وجهه وكلامه وما يكون منه فعرفنيه على حقيقته واصدقني عنه وعجّل ولا تحتبس، قلت: نعم يا سيدي، فمضيت وقد دُفعتُ إلى أغلظ مما كنت فيه لعلمي بأن إبراهيم لو كان من حجرٍ لأثر فيه هذا القول وتغيّر وظهر منه ما يكره، وخفت أن يكون يأتي بما يسفك به دمه فمضيت حتى دخلت الحجرة فجلست إلى إبراهيم وفعلت ما أمرني به وأنا مبادر خوفاً من خادم يلحقني أو رسول فلا يمكنني معه تحسين الأمر وما يظهر لي منه، فقلت لإبراهيم: كيف رأيت يا سيدي هذا اليوم، أما أعجبك حسنه وما كان من تعبية أمير المؤمنين؟ قال: بلى والله إنه أعجبني فالحمد لله الذي بلّغنيه وأرانيه، وأطنب في الدعاء للمعتصم، فلما أمسك قلت: يا سيدي أذكرك في أيامك وقد ركبت فعبّيت شبيهاً بهذه التعبية وقسمت الطريق مثل هذه القسمة فوقع لأمير المؤمنين الموضع الذي وقع لك واجتزت به فنزل إليك وسلّم فرددت عليه كرده عليك في

هذا اليوم، قال: فوالله إن كان إلا أن قلت حتى اربدّ لونه وجفّ ريقه واعتقل لسانه وبقي لا يتكلم بحرف ملياً، ثم قال بلسان ثقيل: لكأني في ذلك الموضع في ذلك اليوم، فالحمد لله للذي رأيته لأمير المؤمنين، فعل الله به وفعل، قال: فتغنّمت ذلك وقمت وأنا ألتفت ونهضت حتى أتيت المعتصم، فقال لي: هيه يا حمدون! فقلت: يا أمير المؤمنين أتيت إبراهيم وقلت له ما أمرتني به فأظهر سروراً ودعاء وقال كيت وكيت، فقال: والله قال بحياتي؟ قلت: وحياتك يا أمير المؤمنين، قال: فكيف رأيت وجهه؟ فلم أدر ما أقول فقلت: يا أمير المؤمنين بالله لمّا تركتني من وجه عمّك الذي لا يتبين فيه فرح ولا حزن، فاستضحك ثم أمسك وتخلّص إبراهيم، ودعا بالطعام فأكلنا ثم رقد، فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائر الندماء فشرب وبرّ إبراهيم وألطفه.قع لك واجتزت به فنزل إليك وسلّم فرددت عليه كرده عليك في هذا اليوم، قال: فوالله إن كان إلا أن قلت حتى اربدّ لونه وجفّ ريقه واعتقل لسانه وبقي لا يتكلم بحرف ملياً، ثم قال بلسان ثقيل: لكأني في ذلك الموضع في ذلك اليوم، فالحمد لله للذي رأيته لأمير المؤمنين، فعل الله به وفعل، قال: فتغنّمت ذلك وقمت وأنا ألتفت ونهضت حتى أتيت المعتصم، فقال لي: هيه يا حمدون! فقلت: يا أمير المؤمنين أتيت إبراهيم وقلت له ما أمرتني به فأظهر سروراً ودعاء وقال كيت وكيت، فقال: والله قال بحياتي؟ قلت: وحياتك يا أمير المؤمنين، قال: فكيف رأيت وجهه؟ فلم أدر ما أقول فقلت: يا أمير المؤمنين بالله لمّا تركتني من وجه عمّك الذي لا يتبين فيه فرح ولا حزن، فاستضحك ثم أمسك وتخلّص إبراهيم، ودعا بالطعام فأكلنا ثم رقد، فلما انتبه وجلس دعا بإبراهيم وسائر الندماء فشرب وبرّ إبراهيم وألطفه[١].

ولا ترى للئام الناس حسادًا:

ومن ذلك ما حكي أن رجلا من العرب دخل على المعتصم فقربه وأدناه وجعله نديمة وصار يدخل على حريمه من غير استئذان، وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه: إن لم أحتل على هذا

(١) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ٧٥، ٧٦.

البدوي في قتله أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني منه، فصار يتلطف بالبدوي حتى أتى به الى منزله فطبخ له طعاما وأكثر فيه من الثوم، فلما أكل البدوي منه قال له احذر أن تقترب من أمير المؤمنين فيشم منك فيتأذى من ذلك، فإنه يكره رائحته ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فخلا به وقال يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلكت من رائحة فمه، فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كمه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم، فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكمه قال إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتابا إلى بعض عماله يقول فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله، ثم دعا البدوي ودفع إليه الكتاب، وقال له امض به إلى فلان، وائتني بالجواب، فامتثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين وأخذ الكتاب وخرج به من عنده، فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان، فقال الوزير في نفسه: إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل: فقال له يا بدوي: ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك، ويعطيك ألفي دينار؟ فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأي أفعل. قال: أعطني الكتاب، فدفعه إليه فأعطاه الوزير ألفي دينار، وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصده، فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي، وسأل عن الوزير فأخبر بأن له أياما ما ظهر، وأن البدوي بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي، فحضر فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها فقال له: أنت قلت عني للناس إني أبخر؟ فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك مكرا منه وحسدا، وأعلمه كيف دخل به إلى بيته، وأطعمه الثوم، وما جرى له معه، فقال أمير المؤمنين: قاتل الله الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله، ثم خلع على البدوي واتخذه وزيرا، وراح الوزير بحسده وقال المغيرة شاعر آل المهلب:

(آل المهلب قوم إن مدحتهم ::: كانوا الأكارم آباء وأجدادا)
(إن العرانين تلقاها محسدة ::: ولا ترى للئام الناس حسادا)

وخرج المعتصم يوما إلى بعض متصيداته، فظهر له أسد، فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتمام خلقه، أفيك خيرا يا رجل؟ قال: لا. فضحك المعتصم، وقال: قبح الله الجبان(١).

إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم:

وتنبأ رجل في أيام المعتصم فلما حضر بين يديه قال: أنت نبي؟ قال: نعم قال: وإلى من بعثت قال: إليك. قال: أشهد أنك لسفيه أحمق. قال: إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم؟ فضحك المعتصم وأمر له بشيء(٢).

عقلك أوردك هذا المكان:

دخل الرقاشي على المعتصم في يوم مطير، فقرب مجلسه ورحب به. وقال له: أقم عندنا يومك نشرب ونطرب. فقال: يا أمير المؤمنين، إني وجدت في الكتب السالفة: أن الله جل ذكره لما خلق العقل قال له: أقبل. فأقبل، ثم قال له: أدبر. فأدبر، ثم قال له: وعزتي، ما خلقت خلقاً أكرم منك عليّ، بك أعطي، وبك أمنع، وبك آخذ. فلو وجدت عقلاً يباع لاشتريته، واضفته إلى عقلي. فكيف أشرب ما يزيل ما معي من العقل؟ قال المعتصم: عقلك أوردك هذا المكان(٣).

الصلاة يرحمك الله:

غضب المعتصم على مخارق، فأمر أن يجعل في المؤذنين، فأمهل حتى علم أن المعتصم يشرب وأذنت العصر، فدخل إلى الستر حيث يقف المؤذن للسلام، ثم رفع صوته وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، الصلاة يرحمك الله، فبكى حتى جرت دموعه وبكى كل من حضر، ثم قال: أدخلوه إلي، وأقبل على الحاضرين وقال: سمعتم

---

(١) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ٧٥ - ٧٦.
(٢) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٥٢٢/٣.
(٣) أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، ١٣١/٢.

هكذا قط؟ هذا الشيطان لا يترك أحداً يغضب عليه! ورضي عنه وغناه، وأعاده إلى مرتبته[١].

مر لحمار أبي الهذيل بعلف ولغلامه بطعام:

حضر أبو الهذيل على مائدة المعتصم، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله لا يستحي من الحق؛ غلامي وحماري بالباب. فقال المعتصم لإيتاخ الحاجب: مر لحمار أبي الهذيل بعلف ولغلامه بطعام. فقال أحمد بن أبي دواد: ألا ترى يا أمير المؤمنين إلى متانة دين هذا الشيخ وتفقده لما يلزمه؟ لم يمنعه جلالة مجلسك عما يجب لله عليه في حماره وغلامه، فجعل أحمد ما قدره الناس محوجاً إلى الاعتذار منه شهادةً له بالفضل[٢].

والله لا يفلح أبداً على المزح

قال الصولي: كان المعتصم في فتنة الأمين يمضي إلى علي بن الجنيد الإسكافي فيقيم عنده، ولا يقصر علي في خدمته وإكرامه والنفقة عليه - وكان علي أكثر الناس مزاحاً وأحسنهم كلاماً - فآذاه المعتصم في شيء، فقال علي: والله لا يفلح أبداً على المزح، فحفظها المعتصم. فلما دخل بغداد خليفة أمر وصيفاً بإحضار علي فأحضره - وكان عدواً للفضل بن مروان - فضحك المعتصم، وكان يقول: ذلك اليوم اعتقدت أن أنكب الفضل؛ ثم قال: يا علي تذكر حيث وقفت لإبراهيم ابن المهدي بمربعة الحرسي فنزلت فقبلت يده ثم أدنيت ابني هارون فقبل يده وقلت: عبدك هارون ابني، فأمر له بعشرة آلاف درهم؟ قال علي: أذكر لك؛ قال: فإنه ترجل لي اليوم وقبل يدي في ذلك الموضع بعينه، ثم قال لي: عبدك هبة الله ابني، فأدناه فقبل يدي، فأمرت له بعشرة آلاف درهم، ولم تطب له نفسي بغيرها. فقال: بئس والله ما فعل أمير المؤمنين. قال: وكيف ويلك؟ قال: إبراهيم كان أمر لهارون بعشرة آلاف درهم وليست في يده إلا بغداد وحدها، وفي يد أمير المؤمنين من المشرق إلى المغرب. قال: صدقت، أعطوه عشرة آلاف دينار؛ وفرق المعتصم في أهله ثلاثين ألف ألف

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٦٦/٣.
(٢) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ٩٣/٣.

درهم[١].

وكيف ذاك؟

ومن ملح أخبار القاضي أحمد بن أبي دؤاد، ما حكي: أن المعتصم كان بالجوسق، مع ندمائه، وقد عزم على الاصطباح، فأمر كلاً منهم أن يطبخ قدراً، ونظر سلامة، غلام أحمد بن أبي دؤاد، فقال: هذا غلام ابن أبي دؤاد جاء ليعرف خبرنا، والساعة يأتي، فيقول: فلان الهاشمي، وفلان القرشي، وفلان الأنصاري، وفلان العربي، فيقطعنا بحوائجه عما كنا عزمنا عليه، وأنا أشهدكم أني لا أقضي له اليوم حاجة.

فلم يكن بأسرع من أن دخل إيتاخ، يستأذن لأحمد بن أبي دؤاد. فقال لجلسائه: كيف ترون؟ قالوا: لا تأذن له يا أمير المؤمنين.

قال: سوأة لهذا الرأي، والله، لحمي سنة، أسهل عليّ من ذلك.

فأذن له، فدخل، فما هو إلا أن سلم، وجلس، وتكلم، حتى أسفر وجه المعتصم، وضحكت إليه جوارحه.

ثم قال: يا أبا عبد الله، قد طبخ كل واحد من هؤلاء قدراً، وقد جعلناك حكماً في أطيبها.

قال: فلتحضر لآكل، وأحكم بعلم.

فأمر المعتصم بإحضارها، فأحضرت القدور بين يديه، وتقدم القاضي أحمد بن أبي دؤاد، فجعل يأكل من أول قدر أكلاً تاماً.

فقال له المعتصم: هذا ظلم.

قال: وكيف ذاك؟ قال: أراك قد أمعنت في هذا اللون، وستحكم لصاحبه.

قال: يا أمير المؤمنين، ليس بلقمة، ولا باثنتين، تدرك المعرفة بأخلاط الطعام، وعليّ أن أوفي كلاً حقه من الذوق، ثم يقع الحكم بعد ذلك.

فتبسم المعتصم، وقال: شأنك إذاً.

(١) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، ١٤٢/٣.

فأكل من جميعها، كما ذكر، ثم قال: أما هذه فقد أجاد صاحبها، إذ كثر خلها وقلل فلفلها، ليشتهي حمضها، وأما هذه فقد أحكمها طباخها، بتقليل مائها، وكثرة ربها، وأقبل يصفها واحدة واحدة، حتى أتى على جميعها، بصفات سر بها أصحابها.

وأمر المعتصم بإحضار المائدة، فأكل مع القوم بأكملهم، أنظف أكل وأحسنه، فمرة يحدثهم بأخبار الأكلة في صدر الإسلام، مثل معاوية بن أبي سفيان، وسليمان بن عبد الملك، وعبيد الله بن زياد، والحجاج، ومرة يحدثهم عن أكلة دهره، مثل ميسرة الرواس، وحاتم الكيال، وإسحاق الحمامي، فلما رفعت الموائد قال له المعتصم: ألك حاجة يا أبا عبد الله؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين.

قال: فاذكرها، فإن أصحابنا يريدون أن يتشاغلوا بقية يومهم.

فقال: رجل من أهلك يا أمير المؤمنين، قد وطئه الدهر، فغير من حاله، خشن معيشته.

قال: ومن هو؟ قال: سليمان بن عبد الملك النوفلي.

قال: قدر له ما يصحه.

قال: خمسين ألف درهم.

قال: قد أمرت له بها.

قال: وحاجة أخرى. قال: وما هي؟ قال: ضياع هارون بن المعمر توغر بها له. قال: قد فعلت.

قال: فوالله ما برح حتى سأل في ثلاث عشرة حاجة، لا يرده المعتصم عن شيء منها.

ثم قام خطيباً، فقال: يا أمير المؤمنين، عمرك الله طويلاً، فبعمرك يخصب جناب رعيتك، ويلين عيشهم، وتنمو أموالهم، ولا زلت ممتعاً بالسلامة، منعماً بالكرامة، مدفوعاً عنك حوادث الأيام، وغيرها، ثم انصرف.

فقال المعتصم: هذا والله الذي يتزين بمثله، ويبتهج بقربه، أما رأيتم

كيف دخل؟ وكيف أكل، وكيف وصف القدور، وكيف انبسط في الحديث، وكيف طاب به أكلنا؟ والله لا يرد هذا عن حاجة إلا لئيم الأصل، خبيث الفرع، والله، لو سألني في مجلسي هذا ما قيمته عشرة آلاف ألف درهم، ما رددته عنها، فإني أعلم أنه يكسبني في الدنيا جمالاً وحمداً وفي الآخرة ثواباً وأجراً (١).

فتنة الإمام أحمد مع الخلفاء العباسيين:

كان في بغداد أيام المأمون تيارات ثقافية متضادة: منها ما كان عليه السلف الصالح من أهل السنة والجماعة الممثل في حلقات أهل الحديث والفقهاء وغيرهم ممن يرجعون إلى النصوص الشرعية. ويثبتون لله ما أثبته لنفسه وما صح عن رسوله إثباتا بلا تمثيل وتنزيها بلا تأويل ولا تعطيل ومن أبرز هؤلاء: الإمام أحمد ومحمد بن نوح وأحمد بن نصر الخزاعي وغيرهم. ومنها تيار المعتزلة القائلين بخلق القرآن وتأويل آيات الصفات وغير ذلك مما هو معروف من مذهبهم: كالقول بالعدل والتوحيد والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان الرشيد يقاوم القول بخلق القرآن فلم يجرؤ أحد عليه مدة حياته كما روي عن محمد بن نوح قال: سمعت هارون الرشيد يقول: بلغني أن بشرا المريسي زعم أن القرآن مخلوق، علي إن أظفرني الله به لأقتلنه قتلة ما قتلها أحد قط، فلما مات الرشيد وتولى الأمين أراد المعتزلة حمله على ذلك فأبى.

فلما تولى المأمون الخلافة، وكان يميل إلى المعتزلة ويقربهم وكان أستاذه أبو الهذيل العلاف من زعماء المعتزلة وكذلك قاضيه أحمد بن أبي دؤاد فأشار عليه ابن أبي دؤاد بإظهار القول بخلق القرآن، فأظهر القول بذلك عام ٢١٢ هـ. فكان المأمون يناظر من يغشى مجلسه في ذلك ولكنه لم يلزم بذلك أحدا بل ترك الناس أحرارا فيما يذهبون إليه، فلما كان ٢١٨ هـ

(١) القاضي التنوخي، نشوار المحاضرة، ٣٧٥/١.

رأى المأمون حمل الناس وخصوصا العلماء والقضاة والمفتين على القول بخلق القرآن الكريم؛ وكان المأمون آنذاك في الرقة فأرسل إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم وهو صاحب الشرطة ببغداد أن يجمع من بحضرته من القضاة ويمتحنهم فيما يقولون ويعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، ويعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله بمن لا يقول بهذا القول وكان ذلك في ربيع الأول من عام ٢١٨ هـ.

فثار العلماء حين سمعوا كتاب المأمون إلى نائبه في بغداد وقال واحد منهم: لقيت ثمانمائة شيخ ونيفا وسبعين فما رأيت أحدا يقول بهذه المقالة - يعني خلق القرآن - وقد حبس وعذب وقتل في هذه المحنة خلائق لا يحصون كثرة كما يراه القارئ المتتبع لتلك الحقبة من التاريخ، وصارت هذه المحنة هي الشغل الشاغل للدولة والناس خاصتهم وعامتهم وأصبحت حديث مجالسهم وأنديتهم وحاضرتهم وباديتهم في العراق وغيره وقام الجدل فيها بين العلماء، ووقع امتحان الأمراء للعلماء والقضاة والفقهاء والمحدثين في مصر والشام وفارس وغيرها حتى تناول الإمام البخاري وشيوخه الأجلة الأفذاذ: يحيى بن معين وعلي بن المديني ويزيد بن هارون وزهير بن حرب وغيرهم من الأئمة المجمع على جلالتهم وإمامتهم في حفظ السنة المطهرة وعلومها.

وأرسل المأمون لصاحب الشرطة في بغداد بأن يوافيه بجواب من امتحن منهم فوافاه بجوابهم وإذا هو يتضمن إنكار هذه المقالة والتشنيع على من قال بها فلم يقتنع المأمون بذلك، فبعث إليه بكتاب ثان يأمره فيه بإشخاص سبعة من المحدثين المشهورين في بغداد أو ثمانية وهم: محمد بن سعد كاتب الواقدي وأبو مسلم ويحيى بن معين وزهير بن حرب وإسماعيل بن داود وإسماعيل بن أبي مسعود وأحمد بن إبراهيم الدورقي. لكي يمتحنهم وفي مقدمتهم أحمد بن حنبل. إلا أن ابن أبي دؤاد حذف اسم الإمام أحمد من القائمة لمعرفته بصلابته وشدته في هذا الأمر.

ثم أمر المأمون بعد ذلك بحمل الإمام أحمد ومحمد بن نوح إليه في طرسوس فحملا إليه بأغلالهما فأما محمد بن نوح فمات في أثناء الطريق قبل أن يصل. وأما الإمام أحمد ومرافقوه فبلغهم وفاة المأمون قبل

وصولهم فعادوا إلى بغداد، وألقي الإمام أحمد في الحبس. ويقال: إن أحمد دعا على المأمون وكانت وفاة المأمون في عام ٢١٨هـ.

ثم تولى الخلافة المعتصم، وكان المأمون قد أوصاه بتقريب ابن أبي دؤاد والاستمرار بالقول بخلق القرآن وأخذ الناس بذلك. وكان أحمد في السجن فاستحضره من السجن، وعقد له مجلسا مع ابن أبي دؤاد وغيره؛ وجعلوا يناقشونه في خلق القرآن، وأحمد يستدل عليه بالنصوص الواردة. ويقول لهم: أعطوني دليلا من كتاب الله أو سنة رسول الله ، وانفض المجلس ذلك اليوم دون شيء، وأمر المعتصم برده إلى السجن. وفي اليوم التالي أحضر من السجن، وعقد المجلس وكان موقفه رائعا جليلا كموقفه في الأمس ورغم المحاولات والمناقشات صمم الإمام أحمد على كلامه، وفشل القوم كفشلهم بالأمس. وانفض الاجتماع، ورد الإمام أحمد إلى السجن، وفي اليوم الثالث أعيد انعقاد المجلس، وأحضر الإمام أحمد من السجن وأعيدت المناقشة. وكان المعتصم عند عقد مجلس المناظرة قد بسط بمجلسه بساطا، ونصب كرسيا جلس عليه وازدحم الناس إذ ذاك كازدحامهم أيام الأعياد، وكان مما دار بينهم أن قال للإمام أحمد: ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله غير مخلوق قال الله تعالى:{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ} [التوبة: ٦].

قال: هل عندك حجة غير هذا؟ قال: نعم قول الله تعالى:{ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾} [الرحمن: ١ - ٢]، ولم يقل خلق القرآن، وقال تعالى:{يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾} [يس: ١، ٢]، ولم يقل المخلوق، فقال المعتصم: أعيدوه للحبس وتفرقوا، فلما كان من الغد جلس المعتصم مجلسه ذلك. وقال: هاتوا أحمد بن حنبل فاجتمع الناس، وسمعت لهم ضجة ببغداد فلما جيء به، وقف بين يديه والسيوف قد جردت والرماح قد ركزت والأتراس قد نصبت والسياط قد طرحت.

فسأله المعتصم عما يقول بالقرآن. قال: أقول غير مخلوق، وأستدل بقوله تعالى:{وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى} [السجدة: ١٣]، الآية، قال: فإن يكن القول من الله تعالى فإن القرآن كلام الله، وأحضر المعتصم له الفقهاء والقضاة فناظروه بحضرته ثلاثة أيام وهو يناظرهم، ويظهر عليهم بالحجج

القاطعة ويقول: أعطوني دليلا من كتاب الله أو كلام رسوله ، فقال المعتصم: قهرنا أحمد وحلف ليضربنه بالسياط، وأمر الجلادين فأحضروا ولما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم فقال: ائتوني بغيرها.

قال أبو عبد الله: ثم صيرت بين العقابين [(١)]. فعلق الإمام أحمد بالعقابين، ورفع حتى صار بينه وبين الأرض مقدار قبضة، قال أحمد: وشدت يداي وجيء بكرسي فوضع له - يعني للمعتصم - وابن أبي دؤاد قائم على رأسه والناس أجمعون قيام ممن حضر، فقال لي إنسان ممن شهدني: خذ بنابي الخشبتين بيدك، وشد عليهما فلم أفهم ما قال. قال: فتخلعت يداي لما شددت، ولم أمسك الخشبتين، قال أبو الفضل - يعني ابنه صالحا - ولم يزل أبي - رحمه الله - يتوجع منهما من الرسغ إلى أن توفي، قال أبو عبد الله فقلت: يا أمير المؤمنين إن رسول الله قال:**لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث—** [(٢)]. الحديث. فبم تستحل دمي وأنا لم آت شيئا من هذا. يا أمير المؤمنين اذكر وقوفك بين يدي الله عز وجل كوقوفي بين يديك، يا أمير المؤمنين راقب الله، فلما رأى المعتصم ثبوت أبي عبد الله وتصميمه لان فخشي ابن أبي دؤاد من رأفته عليه فقال: يا أمير المؤمنين إن تركته قيل: إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله، أو أن يقال: غلب خليفتين فهاجه ذلك، وطلب كرسيا جلس عليه، وقام ابن أبي دؤاد وأصحابه على رأسه ثم قال للجلادين: تقدموا وجعل أحدهم يتقدم إلى الإمام أحمد فيضربه سوطين ثم يتنحى ثم يتقدم الآخر فيضربه سوطين، والمعتصم يحرضهم على التشديد في الضرب، ثم قام إليه المعتصم وقال له يا أحمد: علام تقتل نفسك إني والله عليك لشفيق فما تقول؟ فيقول أحمد: أعطوني دليلا من كتاب الله وسنة رسوله حتى أقول به، ثم رجع المعتصم، فجلس فقال للجلاد: تقدم

(١) والعقابان بضم العين خشبتان يوضع بينهما الرجل ليجلد قاله في تاج العروس.

(٢) صحيح البخاري الديات (٦٤٨٤)،صحيح مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (١٦٧٦)،سنن الترمذي الديات (١٤٠٢)،سنن النسائي تحريم الدم (٤٠١٦)، سنن أبو داود الحدود (٤٣٥٢)،سنن ابن ماجه الحدود (٢٥٣٤)،مسند أحمد بن حنبل (٣٨٢/١)، سنن الدارمي الحدود (٢٢٩٨).

وحرضه على إيجاعه بالضرب ويقول: شدوا قطع الله أيديكم، قال أحمد: فذهب عقلي عند ذلك فلم أفق إلا وقد أفرج عني ثم جيء بي إلى دار إسحاق بن إبراهيم فحضرت صلاة الظهر فصليت، فقالوا: صليت والدم يسيل منك فقلت: قد صلى عمر رضي الله عنه وجرحه يثعب دما وكان ذلك في رمضان سنة ٢١٨. ثم نقل أحمد إلى بيته واستقر فيه حيث لم يقو على السير فلما برئت جراحه، وقوي جسمه خرج إلى المسجد، وصار يدرس في المسجد ويملي الحديث حتى مات المعتصم.

فلما ولى الواثق منع الإمام أحمد من الاجتماع بالناس وقال: لا تساكني في بلد أنا فيه فأقام الإمام ببغداد مختفياً لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وذلك مدة خمس سنوات تقريبا.

فلما تولى المتوكل الخلافة سنة ٢٣٢ بقيت المحنة قائمة خلال عامين من حكمه ثم رفعت سنة ٢٣٤ وكانت قد بدأت من السنة الأخيرة من خلافة المأمون وهي سنة ٢١٨ وانتهت في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة المتوكل سنة ٢٣٤ حيث أوقف المتوكل أخذ الناس بالمحنة. وأصدر إعلانًا عامًّا في كافة أنحاء الدولة نهى فيه عن القول بخلق القرآن، وتهدد من يخوض في ذلك بالقتل فعم الناس الفرح في كل مكان، وأثنوا على سجايا الخليفة ومآثره ونسوا شروره ورذائله، وسمع الدعاء له من كل جانب، وذكر اسمه مع اسمي الخليفتين أبي بكر وعمر وعمر بن عبد العزيز.

وكان المتوكل يكره العلويين، ويسرف في مطاردتهم فجعل المعتزلة يحيكون دسائسهم لدى الخليفة ضد الإمام أحمد، ويتهمونه بالجنوح إلى العلويين، وتتطور المحنة لتأخذ لونا آخر، وتشتد الرقابة على الإمام أحمد وامتدت أعناق أهل الفتنة فاتهموا الإمام أحمد لدى الخليفة أنه يؤوي في بيته أحد العلويين ذوي القدر الخطير ويثور الخليفة فيرسل من فوره إلى بغداد لمفاجأة بيت الإمام أحمد والقبض على العلوي المزعوم، وفي ليلة من الليالي بعد أن نام الناس، وهدأت الحركة وأرخى الليل سدوله على بغداد الهادئة الساكنة سمع أحمد دقا عنيفا على باب داره، فقام إلى الباب ففتحه، فإذا به أمام رجلين وامرأتين، أما الرجلان فهما مظفر حاجب عبد

الله بن إسحاق نائب بغداد والآخر ابن الكلبي صاحب البريد. وأما المرأتان فمهمتهما هي مهمة البوليس النسوي في أيامنا هذه. قال مظفر: يقول لك الأمير: إن أمير المؤمنين كتب إليه أن عندك طلبته العلوي، وقال ابن الكلبي: نعم إنك تؤوي في بيتك علويا من أعداء أمير المؤمنين وقد جئنا لأخذه، فقال الإمام أحمد: إني لا أعرف هذا ولا أرى سوى طاعة أمير المؤمنين في العسر واليسر والمنشط والمكره والأثرة. وسكت الإمام قليلا سكتة ذكر فيها حرمانه من المسجد بدون مسوغ، واستأنف يقول: إني أتأسف عن تأخري عن الصلاة وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين، قال ابن الكلبي: قد أمرني أمير المؤمنين أن أحلفك ما عندك طلبته أفتحلف؟ قال أحمد: إن استحلفتني حلفت فأحلفه ابن الكلبي بالله، فحلف وبالطلاق فحلف. وكان نساء الدار والصبيان قد حضروا، وحضر ابنه صالح فقال ابن الكلبي: أريد أن أفتش منزلك ومنزل ابنك صالح، وقام مظفر وابن الكلبي ففتشا البيت وفتشت المرأتان النساء فلم يعثروا على شيء وفتشا بيت صالح، فلم يجدا شيئًا وفتشت المرأتان أماكن الحريم وجاءوا بشمعة فأدلوها في البئر، وانصرفوا بعد أن لم يجدوا شيئا.

وتولى ابن الكلبي وصف حال الإمام أحمد للمتوكل من احتباسه عن الجمعة والجماعة بدون مسوغ ومن صدق لهجته فيما يكن لأمير المؤمنين من السمع والطاعة في المنشط والمكره ومن براءته مما عزاه إليه خصومه، وأذن الله بانكشاف الغمة فجاءه بعد يومين كتاب من علي بن الجهم أن أمير المؤمنين قد صح عنده براءتك مما قذفت به وكان أهل البدع قد مدوا أعناقهم فالحمد لله الذي لم يشمتهم بك.

وأقبلت الخلافة على الإمام تخطب وده وتطلب المؤانسة بقربه والتبرك بدعائه وأخذت الأيام تدبر مولية عن المعتزلة. فمرض ابن أبي دؤاد بالفالج، وجاء بعض أعيان الدولة يتقربون إلى الإمام أحمد بذكر ما نزل بابن أبي دؤاد ويومئون إلى أن كرامة الإمام على الله أوجبت ذلك القصاص فلم يلتفت إليهم الإمام أحمد وصمت ولم يرد، وظهر عليه التبرم بما قالوا.

ومضت الأيام في إدبارها على المعتزلة فغضب الخليفة على ابن

أبي دؤاد وقبض على أبنائه وصادر أملاكه وأمواله وجواهره، وأخذ ابن أبي دؤاد إلى بغداد بعد أن أشهد عليه ببيع ضياعه فكان يأتي إلى الإمام أحمد من يحمل إليه تلك الأنباء فيكرم نفسه أن تنزل إلى مستوى الشماتة الرخيص بل كان الخليفة نفسه يرسل إليه كأنه يستفتيه فيما يرى من مصير أموال ابن أبي دؤاود فكان يسكت ولا يجيب بشيء وهو موقف جدير أن يلقي على الناس دروسا في عظمة النفس وشدة الإقبال على جلائل الأمور والانصراف عن سفاسفها وتوافهها رحم الله الإمام أحمد لقد كان إماما في كل مكرمة.

ثم أرسل إليه الخليفة المتوكل كتابا يقول فيه: قد صح نقاء ساحتك، وقد أحببت أن آنس بقربك وأتبرك بدعائك وقد وجهت إليك بعشرة آلاف درهم معونة على سفرك وفرح آل أحمد بالعافية تقبل مع السعة والجاه، وحل بالدار نشاط وأنس، ودب فيها بعد الوحشة دبيب الحركة بمن صار يغشاها من رسل الخليفة وكبار رجال الدولة. قال ابنه صالح: لما جاء كتاب المتوكل بالمال ناداني أبي في جوف الليل فقمت إليه فإذا به يبكي فلما رآني قال: ما نمت ليلتي هذه سلمت من هؤلاء حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم.

فلما كان الصباح جاء الحسين البزاز والمشايخ فقال: يا صالح جئني بالميزان وبالدراهم ثم أخذ يزن المال ويقول: وجهوا هذا إلى أبناء المهاجرين وهذا إلى أبناء الأنصار وهذا لفلان ليفرق في ناحيته وهذا لفلان وهكذا حتى فرقها كلها فلما فرقها أحس أنه فرق معها كربته وتنفس الصعداء ونفض الكيس ثم تصدق به.

وكان لا بد لأحمد من تلبية أمر الخليفة لا خضوعا لقوة السلطان بل وفاء لحق السمع والطاعة الذي فرضه الإسلام لأولي الأمر في غير معصية، فخرج من بغداد إلى سامراء ومعه يعقوب المعروف بقوصرة وهو الرسول الذي حضر إليه من لدن الخليفة بالمال والخطاب وخرج معه بعض بنيه وكان يعقوب شديد السرور بنجاح مهمته فقد قبل أحمد بن حنبل أن يخرج معه، وكان يدرك مبلغ السرور الذي سيدخل قلب أمير المؤمنين بذلك.

نزل الإمام بسامراء ضيفا على أمير المؤمنين ولم يكن للخليفة من هم بعد أن عرف كل شيء عن أحمد إلا أن يرضيه، وأن لا يحمله علي شيء يكرهه.

عرف الخليفة أن أحمد لا يقبل ماله فلم يكن له بد من النزول على رغبته واحترام إرادته ولكن لا بد من أن يصله في قرابته فليكن المال لأهله وبنيه دون أن يعلم وتسلم صالح ابنه بأمر الخليفة عشرة آلاف على الفور مكان التي فرقها أبوه ببغداد على أبناء المهاجرين والأنصار وسواهم.

وعرف رجال القصر لهفة الخليفة وشدة إقباله على أحمد وإكباره له فأقبلوا عليه بمثل ما أقبل سيدهم كل يخطب وده ويبتغي إليه المنزلة ويحاول أن يسره بما يستطيع.

أمر الخليفة أن تفرش الدار التي هيئت له بالفرش الوثيرة وأن ترتب له ومن معه من بنيه مائدة شهية واسعة وأمر أن يقطع له ملابس فاخرة: طيلسان وقلنسوة وشارات رسمية من السواد الذي اختارته الدولة العباسية شعارا لها.

ويحضر يحيى بن خالد فيقول: إن الخليفة أمرني أن أصير لك مرتبة في أعلى ويصير ولده المعتز في حجرك تؤدبه بما شئت من أدب القرآن وسنة رسول الله .

وجاء يحيى في اليوم التالي يدعوه أن يركب إلى دار المعتز ويقول في لهجة مهذبة: تركب يا أبا عبد الله فيقول الإمام أحمد: ذاك إليكم وكان يومًا مشهودًا في القصر ألبسوه هناك الطيلسان وما أمر له به الخليفة من ألوان الثياب والشارات ويقول بعض الخدم: إن الخليفة كان مع أمه مستترين خلف ستار من ستور القصر يرقب في خفاء ما يكون من أحمد، فلما رآه يدخل أخذته خفة وغشيته هزة من الفرح ولمع السرور في عينيه وقال. يا أمه قد أنارت الدار بدخول أحمد.

يقول ابنه صالح: لما عاد أبي من القصر إلى الدار التي أعدت له نزع عنه الثياب التي أنعم بها عليه. وجعل يبكي ويقول: سلمت من هؤلاء

منذ ستين سنة حتى إذا كان في آخر عمري بليت بهم، ما أحسبني سلمت من دخولي على هذا الغلام فكيف بالخليفة الذي يجب نصحه من وقت أن تقع عيني عليه إلى أن أخرج من عنده؟! ثم التفت إلى الملابس وقال لابنه: وجه بهذه الثياب إلى بغداد لتباع وحذار أن يشتري أحد منكم شيئًا منها.

أما الفرش الوثيرة الطرية فقد نحى نفسه عنها، وألقى بنفسه على مضربة خشنة له، ونظر إلى حجرة في جانب الدار فأمر أن يحول إلى ركن منها وأن لا يسرج فيها سراج قط، وأما المائدة فقد عافها فلم يدخل بطنه شيء منها وكانت شهية حافلة.

وأخيرا بلغ الضجر بالإمام أحمد كل مبلغ وبرم بكل شيء وزهد في كل شيء ولم يعد أبغض إليه من أن يلقى رجال الخليفة حتى كان يدعهم مع بنيه في الدهليز، ويقبل على صلاته ما شاء الله، وكان المرض ينزل به فيراه عافية سابغة لما فيه من عافية احتجابه عنهم. اشتكت عينه مرة فلما برئت ضاق ببرئها وقال لولده صالح: ألا تعجب كانت عيني تشتكي فتمكث حينا حتى تبرأ ثم هي في هذه المرة تبرأ في سرعة. والله لقد تمنيت الموت في الأمر الذي كان أيام المعتصم وإني لأتمنى الموت في هذا، إن هذا فتنة الدنيا وكان ذاك فتنة الدين نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

الجزاء من جنس العمل:

قال المسعري محمد بن وهب: كنت مؤدبًا للمتوكل، فلما استخلف، أدناني، وكان يسألني وأجيبه على مذهب الحديث، والعلم.

وإنه جلس للخاصة يومًا، ثم قام، حتى دخل بيتًا له من قوارير؛ سقفه وحيطانه وأرضه، وقد أجري له الماء فيه، يتقلب فيه.

فمن دخله، فكأنه في جوف الماء جالس.

وجلس عن يمينه: الفتح بن خاقان، وعبيد الله بن يحيى بن خاقان.

وعن يساره: بغا الكبير، ووصيف، وأنا واقف إذ ضحك، فأرم القوم، فقال:

ألا تسألوني من ما ضحكت؟! إني ذات يوم واقف على رأس الواثق، وقد قعد للخاصة، ثم دخل هنا، ورمت الدخول، فمنعت، ووقفت حيث ذاك الخادم واقف، وعنده ابن أبي دواد، وابن الزيات، وإسحاق بن إبراهيم.

فقال الواثق: لقد فكرت فيما دعوت إليه الناس من أن القرآن مخلوق، وسرعة إجابة من أجابنا، وشدة خلاف من خالفنا مع الضرب والسيف، فوجدت من أجابنا رغب فيما في أيدينا، ووجدت من خالفنا منعه دين وورع، فدخل قلبي من ذلك أمر وشك حتى هممت بترك ذلك.

فقال ابن أبي دواد: الله الله يا أمير المؤمنين! أن تميت سنة قد أحييتها، وأن تبطل دينا قد أقمته.

ثم أطرقوا، وخاف ابن أبي دواد، فقال: والله يا أمير المؤمنين، إن هذا القول الذي تدعو الناس إليه لهو الدين الذي ارتضاه الله لأنبيائه ورسله، وبعث به نبيه، ولكن الناس عموا عن قبوله.

قال الواثق: فباهلوني [١] على ذلك.

فقال أحمد: ضربه الله بالفالج إن لم يكن ما يقول حقًا.

وقال ابن الزيات: وهو، فسمر الله بدنه بمسامير في الدنيا قبل الآخرة، إن لم يكن ما يقول أمير المؤمنين حقا بأن القرآن مخلوق.

وقال إسحاق بن إبراهيم: وهو، فأنتن الله ريحه في الدنيا إن لم يكن ما يقول حقا.

وقال نجاح: وهو، فقتله الله في أضيق محبس.

وقال إيتاخ: وهو، فغرقه الله.

فقال الواثق: وهو، فأحرق الله بدنه بالنار إن لم يكن ما يقول حقًا من أن القرآن مخلوق، فأضحك أنه لم يدع أحد منهم يومئذ إلا استجيب فيه.

أما ابن أبي دواد، فقد ضربه الله بالفالج، وأما ابن الزيات، فأنا أقعدته في تنور من حديد، وسمرت بدنه بمسامير، وأما إسحاق، فأقبل يعرق في مرضه عرقا منتنا حتى هرب منه الحميم والقريب، وأما نجاح، فأنا بنيت

(١) يقال: باهل بعضهم بعضًا، وتبهلوا وتباهلوا، أي: تلاعنوا. والبهلة، وتضم الباء: اللعنة.

عليه بيتا ذراعا في ذراعين حتى مات، وأما إيتاخ، فكتبت إلى إسحاق بن إبراهيم وقد رجع من الحج فقيده وغرقه، وأما الواثق، فكان يحب الجماع، فقال: يا مخائيل: ابغني دواء للباه.

فقال: يا أمير المؤمنين، بدنك فلا تهده، لا سيما إذا تكلف الرجل الجماع.

فقال: لا بد منه، وإذا بين فخذيه مع ذلك وصيفة.

فقال: من يصبر عن مثل هذه؟

قال: فعليك بلحم السبع، يؤخذ رطل، فيغلى سبع غليات بخل خمر عتيق، فإذا جلست على شربك، فخذ منه زنة ثلاثة دراهم، فإنك تجد بغيتك.

فلها أياما، وقال: علي بلحم سبع الساعة.

فأخرج له سبع، فذبح واستعمله.

قال: فسقي بطنه، فجمع له الأطباء، فأجمعوا على أنه لا دواء له إلا أن يسجر له تنور بحطب الزيتون، حتى يمتلئ جمرا، ثم يكسح ما فيه، ويحشى بالرطبة، ويقعد فيه ثلاث ساعات، فإن طلب ماء لم يسق، ثم يخرج فإنه يجد وجعا شديدا، ولا يعاد إلى التنور إلى بعد ساعتين، فإنه يجري ذلك الماء، ويخرج من مخارج البول.

وإن هو سقي أو رد إلى التنور، تلف.

قال: فسجر له تنور، ثم أخرج الجمر، وجعل على ظهر التنور، ثم حشي بالرطبة.

فعري الواثق، وأجلس فيه، فصاح، وقال: أحرقتموني، اسقوني ماء.

فمنع، فتنفط بدنه كله، وصار نفاخات كالبطيخ، ثم أخرج وقد كاد أن يحترق، فأجلسه الأطباء.

فلما شم الهواء، اشتد به الألم، فأقبل يصيح

ويخور كالثور، ويقول:

ردوني إلى التنور، واجتمع نساؤه وخواصه، وردوه إلى التنور، ورجوا الفرج.

فلما حمي، سكن صياحه، وتفطرت تلك النفاخات، وأخرج وقد

احترق واسود، وقضى بعد ساعة[١].

فتح عمورية على يد المعتصم سنة ٢٢٣ هـ:

في هذه السنة أوقع ملك توفيل بن ميخائيل بأهل سلطته من المسلمين وما والاها ملحمة عظيمة، قتل فيها خلقا كثيراً من المسلمين، وأسر ما لا يحصون كثرة، وكان من جملة من أسر ألف امرأة من المسلمات ومثل بمن وقع في أسره من المسلمين فقطع آذانهم وأنوفهم وسمل أعينهم - قبحه الله -.

ولما بلغ ذلك المعتصم انزعج لذلك جداً وصرخ في قصره بالنفير، ثم نهض من فوره وأمر بتعبئة الجيوش واستدعى القاضي والشهود فأشهدهم أن ما يملكه من الضياع ثلثه صدقه، وثلثه لولده، وثلثه لمواليه وخرج بالجيش إعانة للمسلمين فوجدوا ملك الروم قد فعل ما فعل وشمر راجعا إلى بلاده وتفارط ولم يمكن الاستدراك فيه، فقال للأمراء أي بلاد الروم أمنع؟ فقالوا: عمورية لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام وهي عندهم أشرف من القسطنطينية، فعزم على فتحها.

رب وامعتصماه انطلقت ::: ملء أفواه الصبايا اليتم
صادفت أسماعنا لكنها ::: لم تصادف نخوة المعتصم

تجهّز المعتصم جهازاً لم يجهزه أحد كان قبله من الخلفاء، وأخذ معه آلات الحرب والأحمال والجمال والقرب والدواب والنفط والخيل والبغال شيئاً لم يسمع بمثله، وسار إلى عمورية في جحافل أمثال الجبال وقدم المعتصم إليها صبيحة يوم الجمعة لستٍ خلون من رمضان فدار حولها دورة ثم نزل قريباً منها، وقد تحصّن أهلها تحصيناً شديداً وملؤا أبراجها بالرجال والسلاح، وهي مدينة عظيمة كبيرة جداً ذات سور منيع وأبراج عالية كبار كثيرة، وقسم المعتصم الأبراج بالأمراء فنزل كل أمير تجاه الموضع الذي أقطعه وعينه له، ونزل المعتصم قبالة مكان هناك قد أرشده إليه بعض من كان فيها من المسلمين، وكان قد تنصّر عندهم وتزوج منهم، فلما رأى أمير المؤمنين والمسلمين رجع إلى الإسلام وخرج إلى

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ١١ /٢٩٤.

الخليفة فأسلم وأعلمه بمكان في السور كان قد هدمه السيل وبنى بناءً ضعيفا بلا أساس، فنصب المعتصم المجانيق حول عمورية فكان أول موضع انهدم من سورها ذلك الموضع الذي دلهم عليه ذلك الأسير فبادر أهل البلد فسدوه بالخشب الكبار المتلاصقة فألحّ عليها المنجنيق لجعلوا فوقها البرادع ليردوا حرة الحجر فلم تغْن شيئاً وانهدم السور من ذلك الجانب وتفسّخ. فكتب نائب البلد إلى ملك الروم يعلمه بذلك، وبعث ذلك مع غلامين من قومهم فلما اجتازوا الجيش في طريقهما أنكر المسلمون أمرهما فسألوهما من أنتما؟ فقالا: من أصحاب فلان لأمير سموْه من أمراء المسلمين، فحملا إلى المعتصم فقررهما فإذا معهما كتاب من " مناطس " نائب عمورية إلى ملك الروم يعلمه بما حصل لهم من الحصار، وأنه عَازم على الخروج من أبواب البلد بمن معه بغتة على المسلمين ومناجزهم القتال كائناً في ذلك ما كان. فلما وقف المعتصم على ذلك أمر بالغلامين فخلع عليهما، وأن يعطى كل غلام منهما بدرة، فأسلما من فورهما، فأمر الخليفة أن يطاف بهما حول البلد وعليهما الخلع، وأن يوقفا تحت حصن " مناطس " فينثر عليهما الدراهم والخلع، ومعهما الكتاب الذي كتب به مناطس إلى ملك الروم فجعلت الروم تلعنهما وتسبهما، ثم أمر المعتصم عند ذلك بتجديد الحرس والاحتياط والاحتفاظ من خروج الروم بغتة، فضاقت الروم ذرعاً بذلك، وألحّ عليهم المسلمون في الحصار، وقد زاد المعتصم في المجانيق والدبّابات وغير ذلك من آلات الحرب، ولما رأى المعتصم عمق خندقها وارتفاع سورها، أعمل المجانيق في مقاومة السور وكان قد غنم في الطريق غنماً كثيراً جداً ففرقها في الناس وأمر أن يأكل كل رجل رأساً ويجيء بملء جلده تراباً فيطرحه في الخندق، ففعل الناس ذلك فتساوى الخندق بوجه الأرض من كثرة ما طرح فيه من الأغنام ثم أمر بالتراب فوضع فوق ذلك حتى صار طريقاً ممهداً، وأمر بالدبابات أن توضع فوقه فلم يحوج الله إلى ذلك، وبينما الناس في الجسر المردوم إذ هدم المنجنيق ذلك الموضع المعيب فلما سقط ما بين البرجين سمع الناس هدة عظيمة فظنها من لم يرها أن الروم قد خرجوا على المسلمين بغتة، فبعث المعتصم من نادى في الناس:

إنما ذلك سقوط السور ففرح المسلمون بذلك فرحاً شديداً لكن لم يكن ما هدم يسع الخيال والرجال إذا دخلوا، وقويَ الحصار وقد وكلت الروم بكل برج من أبراج السور أميراً يحفظه، فضعف ذلك الأمير - وندوا - الذي هدمت ناحيته من السور عن مقاومة ما يلقاه من الحصار فذهب إلى مناطس فسأله نجدة فامتنع أحد من الروم أن ينجده وقالوا: لا نترك ما نحن موكلون بحفظه.

" قال " وندوا ": إن الحرب عليّ وعلى أصحابي، ولم يبق معي أحد إلا جرح، فصيروا أصحابكم على الثلمه يرمون قليلاً وإلا افتضحتم. وذهبت المدينة فأبوا أن يمدوه بأحد ".

فلما يئسَ منهم خرج إلى المعتصم ليجتمع به (ليطلب الأمان على الذرية) فلما وصل إليه أمر المعتصم المسلمين أن يدخلوا البلد من تلك الثغرة التي قد خلت من المقاتلة، فركب المسلمون وتقدموا إلى الثملة، ولم يقدر الروم على دفع المسلمين بعد أن تكاثروا ودخلوا المدينة قهراً وتتابع المسلمون إليها يكبرون وتفرقت الروم عن أماكنها فجعل المسلمون يقتلونهم في كل مكان حيث وجدوهم وقد حشروهم في كنيسة هائلة ففتحوها قسراً وقتلوا من فيها وأحرقوا عليهم باب الكنيسة فاحترقت فأحرقوا عن آخرهم، ولم يبق فيها موضع محصن سوى المكان الذي فيه النائب وهو مناطس في حصن منيع فركب المعتصم فرسه وجاء حتى وقف بحذاء الحصن الذي فيه " مناطس " فناداه المنادي ويحك يا مناطس! هذا أمير المؤمنين واقف تجاهك فقالوا: ليس بمناطس ها هنا مرتين، فغضب المعتصم من ذلك وولى فنادى مناطس: هذا مناطس.. هذا مناطس، فرجع الخليفة ونصب السلالم على الحصن وطلع عليه الحسن الرومي فقال له: ويحك انزل على حكم أمير المؤمنين، فتمنع ثم نزل متقلداً سيفاً فوضع السيف في عنقه ثم جيءَ به حتى أوقف بين يدي المعتصم فضربه بالسوط على رأسه ثم أمر به أن يمشى إلى مضرب الخليفة مهاناً إلى الوطاق الذي فيه الخليفة نازل فأوثق هناك. وأخذ المسلمون من عمورية أموالاً لا تحد ولا توصف فحملوا منها ما أمكن حمله، وأمر المعتصم بإحراق ما بقى من ذلك، وبإحراق ما هنالك من المجانيق

والدبابات وآلات الحرب لئلا يتقوى بهما الروم على شيء من حرب المسلمين " (١).

وأما اليوم فـ:

ربَّ وا معتصماه انطلقت ::: ملء أفواه الصبايا اليتمِ
لامست أسماعهم لكنها ::: لم تلامس نخوة المعتصمِ
أمتي هل لكِ بين الأممِ ::: منبرٌ للسيف أو للقلمِ
أتلقاك وطرفي حاسرٌ خجلاً ::: من أمسك المنصرمِ
ألإسرائيل تعلو رايةٌ في حمى ::: المهد وظل الحرمِ
أوما كنت إذا الموت اعتدى ::: موجةً من لهبٍ أو من دمِ

كم من امرأة اليوم تقول: وا معتصماه! وإسلاماه! في أفغانستان وفلسطين والفلبين ولا يجيبها مجيب، كم من طفل يقتل! كم من مسجد يهدم! كم من شعيرة لله عز وجل تسحق! ثم لا مجيب يجيب! بلغت الأمة من الذلة والمهانة يوم تركت الجهاد وتخلت عن الدين مبلغاً لا يعلمه إلا الله، يقول عليه الصلاة والسلام: **إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد، سلَّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى تراجعوا دينكم** — وبيع العينة منتشر وهي أن تباع السلعة من الرجل ديناً، ثم يشتريها بثمن أقل قسطاً قسطاً ومقدماً وهذا موجود وفاشٍ " وأخذتم أذناب البقر " تتحول الأمة من أمة جهاد إلى أمة مزارعة، والزراعة ليست حراماً، لكن أبطال الإسلام وشباب لا إله إلا الله وحملة التوحيد يتحولون إلى باعة بطاطس، وخيار وباذنجان وجرجير وخس في الأسواق، ويصبح حمل السلاح لا يطيقه إلا القليل، ويصبح الآلاف من الشباب لا يستطيع أحدهم شحن المسدس والرمي به، ولا يحمل الرشاش، بل أجزم جزماً لو اعتدى على كثير من البيوت الآن لما استطاع الشباب المدافعة عن بيوتهم، بعضهم لا يملك سلاحاً، عندهم سكاكين للبصل في المطبخ، والسلاح أصبح كيماوي ومزدوج، وبعضهم عنده سلاح لكنه لا يستطيع أن يرمي، ولا يصيب الهدف، وما لديه تدريب قال تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ}

---

(١) نداء الريان في فقه الصوم وفضل رمضان، ص٣٣٦.

[الأنفال: ٦٠]، والرسول عليه الصلاة والسلام ربى شبابه على القوة العسكرية وعلى حمل السلاح والأنفة، اسمع إلى أبي تمام يصور معركة المعتصم في عمورية، لما انتهى المعتصم، وعاد إلى بغداد، عاد وعلم النصر فوق رأسه والعلماء يبكون لنصر الله ويفرحون، واستقبلته الأمة ونساء الأمة وأطفال الأمة، لأنهم أثبت عدة لـلا إله إلا الله، وقف أبو تمام يحيي هذا البطل ويقول:

السيف أصدق إنباءً من الكتب في ::: حده الحد بين الجد واللعبِ
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظمٌ ::: من الشعر أو نثرٌ من الخطبِ
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ::: عنك المنى حفلاً معسولة الحلبِ

ثم قال:

تدبير معتصمٍ بالله منتقم ::: لله مرتقب في الله مرتغب

ثم يروي أبو تمام قصة المنجمين الذين أتوا قبل المعركة إلى المعتصم وقالوا: لا تحاربوهم هذا الشهر، قال: ولِمَ؟ قالوا: لأن برج الثور حل علينا، وبرج الثور إذا حل، لا ينتصر المقاتل، قال: آمنت بالله وكفرت بكم، قال: أبو تمام:

أين الرواية أم أين الدراية ::: كم صاغوه من زخرف فيها ومن كذبِ
طلاسم وأحاديثٌ منمقةٌ ليست ::: بنفع إذا عُدتْ ولا غربِ
فالنصر في شهب الأرماح لامعةً ::: بين الخميسين لا في السبعة الشهبِ

فالنصر في السيوف وليس في النجوم

إلى أن يقول في آخرها:

لما رأت أختها بالأمس قد خربت ::: كان الخراب لها أعدى من الجربِ

إلى أن يقول للخليفة: أنت لست الذي انتصر، بل الله الذي رمى بك:{وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ} [الأنفال: ١٧]:

رمى بك الله جنبيها فهدمها ::: ولو رمى بك غير الله لم يصبِ

إنه تدبير الله وقوته{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾} [غافر: ٥١، ٥٢]،{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ

أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧} [محمد: ٧]،{إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ} [آل عمران: ١٦٠]، إن يخذلكم بأعمالكم وتصرفاتكم وأكلكم الربا وسكوتكم على المنكرات؛ تبرج النساء، وانتشار المخدرات، وضياع الشباب:{وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦ} [آل عمران: ١٦٠]، من يقدم لكم النصر؟ فهذه أمور عاشها السلف.[١]

من كلامه:

- لما أحس المعتصم بالموت قال لابنه الواثق ذهب والله أبوك يا هارون لله در أبي العتاهية حيث يقول:

(المـوتُ بـين الخَلْـقِ مُـشْتَرَكُ ::: لا سُوقةٌ يَبْقَى ولا مَلِـكُ)
(ما ضَرَّ أصحابَ القليـل ومـا ::: أَغْنَى عَنِ الأملاكِ مـا مَلَكُـوا) [٢]

- إذا نصر الهوى بطل الرأي[٣].

- وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر: أما بعد، فإن المأمون أحله الله دار كرامته رآك لأكثر الذي أنت له فيه أهلاً، وقد جمع الله لك إلى حسن رأيه كان فيك جميل رأيي لما محضته من حسن الطاعة وكرم الوفاء وشكر الإحسان، وقد اتصلت الأخبار بأنك في كفاية من أولياء أمير المؤمنين وأموال خراسان وفي منعة من خاصتك وعامتك عن أن ينالك عدوك أو أحد ممن يخالفك بسوء، فاكتب بشرح ذلك إلى أمير المؤمنين ليعرفه إن شاء الله. فلما وصل كتابه قال عبد الملك لكاتبه إسماعيل بن حماد: ما تقول في هذا الكتاب؟ قال: كتاب تعريض بأنك خارج من طاعته مالك أمر نفسك دونه. قال: فأجبه عنه. فكتب إليه: أما بعد يا أمير المؤمنين فإن حزب الله وإن قلوا وأنصار المؤمنين وإن ضعفوا فهم الغالبون، وما أنا بشيء في ملاقاة عدو أوثق مني بعز دولة أمير المؤمنين، فأما الأيدي فقليلة والأموال فنزرة وفي الله وفي أمير المؤمنين أعظم الغنى. فقبل عذره وحسن

(١) من دروس للشيخ عائض القرني، ١٤٦ /٤.
(٢) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق سمير جابر، دار الفكر - بيروت، ١٠٣/٤.
(٣) الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، ٨٢/١.

موقع كتابه منه[١].

* * *

(١) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص ١٩٣.

الخاتمـة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفورٍ ولا مودَّعٍ ولا مستغني عنه ربُّنا، ونسأله أن يوزعنا شكر نعمته، وأن يوفّقنا لأداء حقه، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يرزقنا الشهادة في سبيله، وأن يجعل ما قصدنا له في هذا الكتاب وفي جميع أقوالنا وأفعالنا خالصاً لوجهه الكريم، ونصيحة لعباده. فيا أيها القارئ له، لك غُنْمُه وعلى مؤلفه غُرْمُه، لك ثمرتُه وعليه تَبِعَتُه، فما وجدتَ فيه من صوابٍ وحقٍ فاقبله ولا تلتفت إلى قائله، بل انظر إلى ما قال لا إلى من قال وقد ذمَّ الله تعالى من يَرُدَّ الحقَّ إذا جاء به مَن يبغضه، ويقبله إذا قاله من يحبه فهذا خُلُقُ الأمة الغضبية أي: اليهود. فقد قال ابن القيم رحمه الله: ": اقبل الحق ممن قاله وإن كان بغيضاً، ورُدَّ الباطل على من قاله وإن كان حبيباً.

وقرر أنه لا يردُّ كل قول من أخطأ جملة، بل لا بد من تمييز الحق من الباطل، فقال: " فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة، وأهدرت محاسنه، لفسدت العلوم والصناعات ".

وقال أيضًا: ".. فإن كل طائفة معها حق وباطل، فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق، ورد ما قالوه من الباطل، ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب، ويسر عليه من الأسباب " (١).

وما وجد القاريئ فيه من خطأ فإن قائله لم يألُ جهد الإصابة، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال، كما قيل:

والنَّقْصُ في أصلِ الطبيعةِ كـامنٌ ::: فَبَنُو الطبيعةِ نَقْصُهم لا يُجْحَدُ

وكيف يُعْصَمُ من الخطأ من خُلق ظلوماً جهولاً، ولكن من عُدَّت

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص٣٧٨.

غلطاتُه أقربُ إلى الصوابِ ممن عُدَّت إصاباتُه، وعلى المتكلم في هذا الباب وغيره أن يكون مصدر كلامه عن العلم بالحق، وغايته النصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله، ولإخوانه المسلمين، وإن جعلَ الحقَ تبعاً للهوى: فَسَدَ القلبُ والعملُ والحالُ والطريقُ.. والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على خاتم المرسلين محمدٍ وعلى آله أجمعين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

المصادر والمراجع

- الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع.
- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، شعب الإيمان، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.
- اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة.
- الإتليدي، إعلام الناس بما وقع للبرامكة.
- ابن الأبار، إعتاب الكتاب.
- أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، الأمالي في لغة العرب، نشر دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.
- أبو منصور عبد الملك عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي:.
- ١ - الإعجاز والإيجاز، دار الغصون - بيروت / لبنان - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م الطبعة: الثالثة.
- ٢ - التمثيل والمحاضرة.
- علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغةُ الواضِحَةُ، ص ٢٧٢.
- أبي عثمان عمرو بن بحر (الجاحظ):.
- ١ - البيان والتبيين، تحقيق المحامي فوزي عطوي، دار صعب - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨.
- ٢ - التاج في أخلاق الملوك.
- ٣ - الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ٤ - المحاسن والأضداد، مكتبة الخانجي - القاهرة / مصر -

الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

- المعافى بن زكريا،الجليس الصالح والأنيس الناصح.
- ابن الحداد، الجوهر النفيس في سياسة الرئيس.
- ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد.
- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه.
- محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري،الطبقات الكبرى، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، الطبعة: ١ - ١٩٦٨ م.
- أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المحقق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت.
- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- إبراهيم البيهقي، المحاسن والمساوئ.
- ابن طيفور، بلاغات النساء.
- خليفة بن خياط أبو عمر الليثي العصفري، الطبقات، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، الناشر: دار طيبة - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ - ١٩٨٢.
- محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله البخاري الجعفي، التاريخ الكبير، تحقيق: السيد هاشم الندوي،دار الفكر.
- ابن عبد البر، بهجة المجالس وأنس المجالس.
- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت.
- الدميري، حياة الحيوان الكبرى.
- أبو يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي [ت: ٢٧٧هـ]، المعرفة

والتاريخ، المحقق: د أكرم العُمَري، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨١.

- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥.
- أبو إسحاق الشيرازي، طبقات الفقهاء، هذبهُ: محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)، المحقق: إحسان عباس، دار الرائد العربي، ١٩٧٠، بيروت - لبنان.
- شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ).
- ١ - تذكرة الحفاظ، الناشر: صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي تحت اعانة وزارة معارف الحكومة العالية الهندية دار احياء التراث العربي.
- ٢ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري.دار الكتاب العربي. لبنان/ بيروت. الطبعة: الأولى.١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ٣ - سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة التاسعة ١٤١٣ ه - ١٩٩٣ م.
- ٤ - العبر في خبر من غبر، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ٥ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، طبعة جديدة محققة الطبعة الاولى ١٤٠٨ ه - ١٩٨٨ م،.
- أبو المحاسن بن تغربردي: النجوم الزاهرة.
- السيوطي: طبقات الحفاظ.

- الحنبلي: شذرات الذهب.
- تقي الدين أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح، طبقات الفقهاء الشافعية، تحقيق محيي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، ١٩٩٢م، بيروت.
- - البلاذري:أنساب الأشراف.
- - الإمام أحمد بن حنبل: الزهد.
- - أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية - بيروت،.
- ابن عساكر تاريخ ابن عساكر.
- اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان.
- أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية - بيروت.
- محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ)، الكامل في اللغة والأدب، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر: دار الفكر العربي - القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م،.
- ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، المحقق: ماهر ياسين فحل.
- محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم، الفهرست، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٨ - ١٩٧٨.
- عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق محمد نبيل طريفي/اميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، زهر الأداب وثمر الألباب، تحقيق: أ. د / يوسف على طويل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م،.
- أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا،

تحقيق: د.يوسف علي طويل، الناشر: دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ٣١٠/١.

- تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي المعروف بابن حجة، طيب المذاق من ثمرات الأوراق، تحقيق: أبو عمار السخاوي، دار الفتح - الشارقة - ١٩٩٧م.
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء.
- أبو سعد منصور بن الحسين الآبي، نثر الدر، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة: الأولى ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
- يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي [٦٥٤ - ٧٤٢]، تهذيب الكمال مع حواشيه،المحقق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ - ١٩٨٠.
- الحافظ الفقيه صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي الأنصاري اليمني، خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية/دار البشائر، مكان النشر حلب / بيروت، سنة النشر ١٤١٦ هـ،.
- اليافعي:روض الرياحين.
- حمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني ت: ٨٥٢هـ، تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٦هـ.
- ابن الشجري،الأمالي الشجرية.
- ابن حمدون، التذكرة الحمدونية.
- أبو الحسن البصري، الحماسة البصرية.

- أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب الزبيري، نسب قريش، تحقيق ليفي بروفسال، دار المعارف - القاهرة.
- - أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، العلل ومعرفة الرجال، تحقيق وصي الله بن محمد عباس،المكتب الإسلامي، دار الخاني - بيروت، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ - ١٩٨٨،.
- ابن الكلبي: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الثالثة، - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م،.
- محمد بن محمد العواجي،مرويات الإمام الزهري في المغازي، الطبعة: الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- الحسين بن مسعود البغوي، شرح السنة - للإمام البغوى، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت، الطبعة: الثانية، - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م،.
- الطرطوشي، سراج الملوك.
- تقي الدين أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد (المتوفى: ٧٠٢هـ)،إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، المحقق: مصطفى شيخ مصطفى ومدثر سندس، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- يوسف بن الزكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي [٦٥٤ - ٧٤٢]، تهذيب الكمال مع حواشيه، المحقق: د. بشار عواد معروف، نشر مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ - ١٩٨٠،
٥/ ٣٩٢.
- العصامي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي.
- أبو حيان التوحيدي، الصداقة والصديق.
- الزمخشري، ربيع الأبرار.

- عبد الرحمن بن عبد السلام بن عبد الرحمن بن عثمان الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، تحقيق: عبد الرحيم مارديني،دار المحبة - دار آية - بيروت - دمشق - ٢٠٠١ / ٢٠٠٢.
- أبوبكر محمد بن الحسين بن عبد الله الاجري، أخلاق العلماء،تحقيق ومراجعة: إسماعيل بن محمد الأنصاري وعبد الله بن عبد الطيف آل الشيخ، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- محمد بن حبان البستي أبو حاتم،روضة العقلاء ونزهة الفضلاء،، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧.
- أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي،الأمثال من الكتاب والسنة، تحقيق: د.السيد الجميلي، دار ابن زيدون - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
- محمد بن أحمد بن جميع الصيداوي أبو الحسين، معجم الشيوخ، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، مؤسسة الرسالة، دار الإيمان، مكان النشر بيروت، طرابلس، سنة النشر ١٤٠٥.
- محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي،مشاهير علماء الأمصار، تحقيق: م. فلايشهمر،دار الكتب العلمية - بيروت، - ١٩٥٩.
- ابن أبي الدنيا، مجابو الدعوة.
- محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، المحقق: إحسان عباس: دار صادر - بيروت.
- ابن أبي الدنيا،الأولياء،المحقق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت،الطبعة الأولى، ١٤١٣.
- أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الخطيب، المنتخب من

كتاب الزهد والرقائق، تحقيق د. عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، مكان النشر بيروت / لبنان،سنة النشر ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- القاضي التنوخي:.
- ١ - نشوار المحاضرة.
- ٢ - الفرج بعد الشدة.
- ابن قتيبة الدينوري.
- ١ - المعارف.
- ٢ - عيون الأخبار.
- الجهشياري، الوزراء والكتاب.
- المسعودي، مروج الذهب.
- ابن الملقن، طبقات الأولياء.
- بهاء الدين محمد بن حسين العاملي،الكشكول، تحقيق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة: الثانية، - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ابن الأثير، الكامل في التاريخ.
- عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج ابن الجوزي:.
- ١ - صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري - د.محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩ - ١٩٧٩.
- ٢ - الأذكياء.
- ٣ - أخبار الحمقى والمغفلين،المكتب التجاري - بيروت.

- ٤ - أخبار النساء.
- ٥ - أخبارالظراف والمتماجنين، تحقيق: بسام عبد الوهاب الجاني،دار ابن حزم - بيروت - ١٩٩٧م.
- ٦ - مناقب الإمام أحمد.
- أسامة بن منقذ، البديع في نقد الشعر.
- الشيخ بهاء الدين محمد بن حسين العاملي، الكشكول، تحقيق محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق د.مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.
- الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء.
- السرّاج القارئ، مصارع العشاق.
- بلوغ الأرب بتقريب كتاب الشعب، (تهذيب لكتاب شعب الإيمان للبيهقي)، هذبه: محمد خلف سلامة.
- أبو حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان الطبعة الأولى - ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.
- المشتولي، سلوة الأحزان للاجتناب عن مجالسة الأحداث والنسوان.
- أبو الحسين ابن أبي يعلى، طبقات الحنابلة، المحقق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة - بيروت.
- أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد الأزدي، طبقات الصوفية، حقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
- المرزباني، نور القبس.

- أبو الفرج الأصبهاني، الإماء الشواعر.
- أسامة بن منقذ، لباب الآداب.
- الخضري، الدولة العباسية، نشر المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- الصولي، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم.
- أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- أبو حيان التوحيدي، البصائر والذخائر.
- الحُصري، جمع الجواهر في الملح والنوادر.
- أبو حيان علي بن محمد ابن العباس التوحيدي.
- ١ - الإمتاع والمؤانسة، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية - الطبعة: الأولى، بيروت / لبنان - ١٤٢٤ هـ ٢٠٠٣ م.
- ٢ - أخلاق الوزيرين.
- الجرجاني، أسرار البلاغة.
- عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة - مصر، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م، ص ٢٩١.
- أبو الفتح ضياء الدين نصرالله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم الموصلي، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٩٥.
- عائض القرني.
- ١ - سلسلة دروس القمم لأهل الهمم الصوتية.
- ٢ - مقامات القرني.
- الدكتور عبد الله العبد المحسن التركي: أصول مذهب الإمام أحمد.

- عبد الحليم الجندي: أحمد بن حنبل إمام أهل السنة.
- أحمد عبد الجواد الدومي: أحمد بن حنبل بين محنة الدين ومحنة الدنيا.
- ولتر م. باتون: أحمد بن حنبل والمحنة،ترجمة عبد العزيز عبد الحق.
- أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي: الفتح الرباني وشرحه بلوغ الأماني.
- عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل، أحمد بن حنبل، مجلة البحوث الإسلامية.
- طه جابر فياض العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام.
- محمد بن حبان البستي أبو حاتم، وضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٣٩٧ - ١٩٧٧.
- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية.
- الصفدي، صرة الثائر على المثل السائر.
- محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية،إعلام الموقعين عن رب العالمين دراسة وتحقيق:طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م
- أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، كتاب خاص الخاص، تحقيق: حسن الأمين، دار مكتبة الحياة - بيروت / لبنان.

* * *

الفهـرس

المقدمة ٣
الخلافة الإسلامية ٩
الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ١٧
كأنك لم تسمع بالعفو: ٢٢
ليس عندك قضاؤها!؟ ٢٢
يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق: ٢٣
أتؤمن بالله؟ ٢٣
ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى إلى يوم القيامة؟ ٢٣
يا أمير المؤمنين روض نفسك لنفسك، وخذ لها الأمان من ربك: ٢٥
والله ما أحدثك ولا أحدث قومًا أنت فيهم: ٢٩
واحدة بواحدة والبادي أظلم: ٣٣
ولكنكم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم ما نهاكم الله عنه فسلبكم العز وألبسكم الذل ونصر أعداءكم عليكم: ٣٥
بليَّتان: المنصور والطاعون: ٣٧
فاجلده ثمانين، واجلد الذي جاء به مائة: ٣٧
الرجل الثبت الجنان: ٣٧
كتاب المنصور: ٣٩
يا ربيع لا ينصرف من مقامه إلا بمائة ألف درهم: ٣٩
فلا نكافئ الا بالتي هي أحسن: ٣٩
سياسة المنصور في العفو عن المسيء: ٤٠
اخرج إلى لعنة الله وأليم عذابه: ٤٠
تطأ بساطي، وتترحم على عدوي؟ ٤١
هذا الذي أراد أن يكون غدًا فصار بعد غد: ٤١
ذاك قاتل حبيبي: ٤٢
المتفضل جاوز حد المنصف: ٤٧
ولد لأبي دلامة ابنة: ٤٨

والله لَـتَلِيَنَّ الخِلافة أو أكون جاهلاً أو كذاباً: ٤٨
ثم رجع إلى موضعه من الخطبة: ٤٨
أخشى أن تكتب بها معصية الله فأكون شريكك فيها: ٤٩
فقد أعيتني فيك الحيلة: ٥٠
كيف ذلك؟ ويلك!: ٥٠
لكن والله لأتركن في مرضاتك الدُّنيا والآخرة: ٥١
فأَحِب منك أن تُعَلِّمَنيه: ٥١
بيت يلعب به الصبيان: ٥٢
احتيال المنصور: ٥٢
ما تصنيعن بهذا؟ ٥٤
فالحمد لله الذي جعل منايانا جهاداً ولم يجعلها مهاداً: ٥٤
إني شهدت تسعة عساكر كلها هزمت: ٥٥
هكذا ينبغي أن تكون نساؤهم: ٥٥
لا تغضب لله بما يغضب الله: ٥٦
عظني وأوجز: ٥٦
أبو جعفر المنصور والربيع: ٥٦
فاحذر ليلة تمخض عن يوم لا ليلة بعده: ٥٧
فكيف من سفك دماءهم وشقق أبشارهم وأنهب أموالهم: ٥٧
لا يعز ملك يكون فيه مثل هذا: ٥٩
ذلك إليك يا أمير المؤمنين: ٥٩
لماذا خلق الله الذباب؟ ٦٠
وأراك تفعل ما تقول: ٦٠
إذاً لا تأتينا أبداً: ٦١
فانظرْ على أي حالة تنقضي: ٦١
إذا سقط البيت على عمي فما ذنبي: ٦١
ما كان أهون هذا القرشي على أهله: ٦٣
أترغب عما نحن فيه؟ ٦٣
ولكن الشياطين كفروا: ٦٣
تقطعني لحيتي أعمل بها ما أريد: ٦٤
لأنك لم تعرف حلاوة الآباء: ٦٤

ما مالك؟ ٦٤
إن غضب العربي في رأسه: ٦٤
فتفسد علي مكيدتي: ٦٥
أبأهل البصرة تهددني؟ ٦٥
لا أكثر الله في عشيرتك مثلك: ٦٦
أنت أيسر العرب: ٦٦
لا تنفق هذا المال واحتفظ به: ٦٧
أعطه نصف درهم: ٦٧
هل يستقيم أمر خراسان بلا وال: ٦٧
أفقه أهل الكوفة: ٦٧
قد عفوت: ٦٨
المنصور وابن المقفع: ٦٨
كيف رأيتَ حَدسي؟ ٦٨
ألاَ مرةً على المؤمنين؟؟ ٦٩
فاستحسن كلامه: ٧٠
صوت صفير البلبل: ٧٠
أي نهاية لم يبلغها في الفساد والهلاك؟!: ٧٢
والله لأنا أشبه بك منك بأبيك: ٧٣
لا أقالني الله إن أقلتك: ٧٣
لا ينجيني منه إلا هذا الأعرابي: ٧٤
كيف اتصل نوبخت المنجم بأبي جعفر المنصور: ٧٥
– خطبته بمكة: ٧٦
– خطبته بمكة بعد بناء بغداد ٧٧
– خطبته وقد أخذ عبد الله بن حسن وأهل بيته : ٧٧
– خطبته حين خروج محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن: ٧٩
– خطبته وقد قتل أبا مسلم الخراسانى : ٧٩
– خطبة أخرى: ٧٩
– قوله وقد قوطع في خطبته: ٧٩
وصايا المنصور لابنه المهدى: ٨٠
الخليفة العباسي المهدي ٨٤

الرؤيا الصالحة: ٨٦
لو شربت الرابع لادعيت أنك رسول الله: ٨٨
لم يخف علي مخاطبة الحائك والكاتب: ٨٩
كيف تأمر من السواك؟ ٩٠
وما تعرفها يا أمير المؤمنين؟!: ٩٠
المهدي وحديث العشّاق: ٩٠
إذا استغنيت عن شيءٍ فدعه: ٩١
أضمن ما تلف بقضيته: ٩١
نعلرسول الله : ٩٢
منع الملوك أن يكون فيهم مثلك: ٩٢
سلني حاجتك: ٩٢
فقلبها عليه: ٩٣
أخاف أن يملني ويدعني فأموت: ٩٣
ما اسمك؟ ٩٤
ليس هذا في الكتاب: ٩٤
واعظ بين يدي المهدي: ٩٤
أنت يا جوهر عندي جوهره: ٩٥
إليك عني، يا جاهل!: ٩٦
من سخاء المهدي: ٩٦
فكيف أخرج عنهم وهم أصلي في ديني؟ ٩٦
الخلفاء يغارون من أبيات جيدة قيلت في غيرهم: ٩٧
كيف تولى أبو الأحوص ولاية مصر: ٩٨
لا آمن أن يكون معه حديدة: ١٠٠
منازعات اللغويين في مجلس المهدي: ١٠٠
فم الحوت وعلي بن يقطين: ١٠٣
المهدي يستدعي مولى فائد ليغنيه صوتاً معيناً: ١٠٣
أحسنت!: ١٠٥
تملأ هذه يا أمير المؤمنين: ١٠٦
من أدخلني مع الدجاج؟ ١٠٦
الاستعطاف والاعتراف: ١٠٧

خير لك من أن تطيعك طاعة خوف: ١٠٨
لا يجب عليه ضرب العنق: ١٠٨
قوم معوزون: ١٠٨
وأنت خير من الذي حمَلني عليك: ١٠٩
تفاحة من عند تفاحة: ١٠٩
كل امرئ يأكل زاده: ١٠٩
هجاء نفسه أقل ضرراً عليه: ١١٠
أليس قد جلس هذا المجلس أبوك وعمك قبلك؟ ١١٠
كم سنك يا فتى؟ ١١٠
أتهزأ بخالي؟ ١١١
كذاب أمير المؤمنين: ١١١
قد بات في جبة ملاح: ١١١
فمن أنت؟ ١١٢
لم يرض لك إلا بأرفعها وأشرفها: ١١٣
إن الكريم إذا خادعته انخدعا: ١١٣
خلّوا سبيله: ١١٣
مزاح الشعراء: ١١٧
ما أسرعك للأولى وأبطأك عن الثانية؟!: ١١٧
أتاني آت في منامي: ١١٨
ليس إلا بكم يتم السرور: ١١٨
يا هذا هل أسأت إليك قط؟ ١١٨
خذ درهماً ومر في حفظ الله!: ١١٩
الغلام وجارية المهدي: ١١٩
نومة عبود: ١٢٠
أعيذك بالله أن تكون النحس: ١٢٠
المهدي وأنسب بيت: ١٢١
القباح غوال وإن رخصن: ١٢٢
العمل للكفاءة: ١٢٢
أنت نبي؟ ١٢٣
فما تقول لجبريل؟ ١٢٣

أكافر أنا عندك أم مؤمن؟ ١٢٣
والله ما ذاك شأني: ١٢٤
وأمر بالحمام فذبحت: ١٢٤
أخصب من صبيحة ليلة الظلمة: ١٢٤
إدن مني أقبل عينيك اللتين رأيت بهما رسول الله: ١٢٥
فعجب الناس من سماحة خلقه: ١٢٥
ثم خرجت من عنده بغير شيء: ١٢٥
مشاورة المهدي لأهل بيته في حرب خراسان: ١٢٦
– خطبة المهدى: ١٤١
الخليفة العباسي الهادي ١٤٤
إذا كنت ترجو في العقاب تشفّياً: ١٤٧
القائد هرثمة بن أعين يتحدث عما أمره به الهادي في ليلة موته: ١٤٧
فمات من وقته: ١٥٠
أو قد مات موسى؟ ١٥١
يا غلام اضرب عنقه: ١٥٢
صدق الذي سماك غادر: ١٥٣
إما أن تحملني وإما أن أحملك: ١٥٤
ما قَصَّر في الاجتهاد، ولكن حُرِم التوفيق: ١٥٤
أتدرون ما شأنهما؟ ١٥٥
كان والله ما ظننت!: ١٥٥
عليّ بالجفلى لا بالنقرى: ١٥٦
وقد بررناه بالأمس لنرى أثر ذلك عليه؟ ١٥٧
تؤمل الخلافة!: ١٥٨
والله ما لقيت منك ما يدعو إلى إتيانك!: ١٥٩
أعياك النساء إلا امرأة أمير المؤمنين!: ١٦١
أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ ١٦١
كيف رأيت الأرزة؟ ١٦٢
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا: ١٦٢
أربع كلمات فيهن صلاح الملك: ١٦٣
أنا لا أتغدى في مكان لا أغسل يدي فيه: ١٦٤

كل عود ذي فنون منكسر: ١٦٤
لا يسأل الرجل فيم يضرب امرأته؟ ١٦٥
وأنا أجيئك في غدٍ إن شاء الله: ١٦٦
أليس منكم رجل رشيد: ١٦٦
كان المجنون واحداً، صرنا اثنين: ١٦٦
فلمن هو؟ ١٦٧
يا جاهل!: ١٦٨
الخليفة العباسي هارون الرشيد ١٦٩
هارون الرشيد يأمر بقتل فتى علوي فينجيه الله تعالى: ١٧٤
الرشيد يمضي ما تعهد به وزيره جعفر البرمكي في مجلس أنس: ١٧٥
الرشيد يرضى عن فرج الرخجي ويعيده إلى عمالة الأهواز: ١٧٧
الرشيد يرضى عن العتابي الشاعر: ١٧٨
جعفر بن محمد بن الأشعث يهدئ من غضب الرشيد: ١٧٩
الرشيد يرضى عن نصر بن مالك: ١٧٩
حبسه المهدي وأطلقه الرشيد: ١٨٠
الرشيد يولي أخاه إبراهيم بن المهدي دمشق: ١٨٢
مجلس غناء بمحضر الرشيد: ١٨٤
عبد الله بن مالك الخزاعي يتسلم كتاباً من الرشيد يخبره بمقتل جعفر البرمكي: . ١٨٧
غضب الرشيد على مروان بن أبي حفصة لمدحه معن بن زائدة وضربه مائة سوط: ١٨٩
أول دخول الأصمعي إلى الرشيد: ١٩٠
يحيى البرمكي يغري الرشيد بجعفر بن الأشعث: ١٩٣
اشترى الرشيد لطبيبه ضياعاً غلتها ألف ألف درهم: ١٩٥
موقف هارون مع نقفور: ١٩٦
بين الرشيد ورجل أراد توليته القضاء: ١٩٧
بين الرشيد والعماني الراجز: ١٩٧
المديح فيك دون قدرك والشعر فيك فوق قدري: ١٩٨
الرشيد والمستقية: ١٩٨
الضيف الطارق: ٢٠٠
كلام الليل يمحوه النهار: ٢٠١
أمعنا كنت؟ ٢٠٢

أجود أخبار النساء: ٢٠٣
إبراهيم الموصلي وإبليس: ٢٠٦
الرشيد وإسماعيل بن صالح: ٢٠٨
أعرابي يزاحم الرشيد: ٢٠٩
الحسين الخليع والجارية العاشقة: ٢١٢
جميل والفتى العذري وحبيبته: ٢١٦
الرشيد والرجل الأموي: ٢٢١
الرشيد والخليفة الثاني الكاذب: ٢٢٦
الرشيد وجارية جعفر: ٢٤١
الست بدور والأمير عمرو: ٢٤٣
الرشيد يبكي على البرامكة: ٢٥٩
الرشيد وذقن أبي نواس: ٢٦٤
يضرب الشاة الحد: ٢٦٥
الرشيد يأمر بقتل أبي نواس: ٢٦٥
تغفر ذنوبه بأبياتٍ: ٢٦٦
وما جرى بينهما على يد القاضي بسبب الجراب: ٢٦٧
الرشيد في منزل إبراهيم الموصلي: ٢٧٠
يا أحمق: ٢٧٢
هذا شيخ سخيف سفلة فاعزله: ٢٧٢
والله لقد كنت أسوأ الناس حالا: ٢٧٣
جمال الوجه فتنةٌ لعباد الله: ٢٧٣
على العهد باقيةٌ: ٢٧٤
زوجة الرّشيد ومخارق: ٢٧٥
أخذ الجّارية والعتيدة والدّنانير: ٢٧٥
دخل وأجبر على تركها: ٢٧٦
زوّجها الرّشيد وأمر لها بالمال: ٢٧٨
أرجعه من اليمن وزوّجه من يحب: ٢٧٨
ما هذه؟ ٢٨٠
ولكن هكذا قال لي أبو يوسف: ٢٨٠
هذه أجرة لوصفتك فإن نفعتنا زدناك: ٢٨١

ما سلم الظبي على حسنه: ٢٨١
يا أحسن الناس خلقاً وخلقاً؟ ٢٨٢
من زهد رجال الحديث: ٢٨٢
وكيف لا يكون ذلك؟ ٢٨٣
من مخارج أبي يوسف الفقيهة: ٢٨٤
خبر مقدم وكيع وابن إدريس وحفص على الرشيد: ٢٨٥
زبيري يقُتُّ بهاشم: ٢٨٧
أبو إسحاق الفزاري يرد على اتهام الرشيد له: ٢٨٧
كأس أم حكيم: ٢٨٨
رأي أبي يوسف القاضي فيمن يشهدون عنده: ٢٨٩
الرشيد يحبس محمد بن الليث ثم يطلقه ويكرمه: ٢٨٩
تصميم قاضي الرقة على إنصاف المظلوم: ٢٩٠
عدل سوار القاضي وانتصار الرشيد له: ٢٩١
ربما نفع الحمق: ٢٩٢
إنهن يكفرن العشير: ٢٩٢
ألا أن تحج ثانية يا أمير المؤمنين: ٢٩٣
محمد البيدق ينتقم من النمري: ٢٩٤
الرشيد ولحم الجزور: ٢٩٥
حسد إسحاق الموصلي للأصمعي: ٢٩٧
صدق أبو هريرة: ٢٩٨
خبر ابن جامع في مجلس الرشيد: ٢٩٨
أعرابي معه نصيحة يدخل على الرشيد: ٣٠٤
أعرابياً ما أدهاه!!: ٣٠٥
كيف سار المثل " الخير يبقى والشر أخبث زاد " : ٣٠٦
تجز ذؤابتيها للجهاد: ٣٠٨
تعليق: ٣٠٨
والحكم لله: ٣٠٨
جبار الأرض كيف يتضرع إلى جبار السماء؟ ٣٠٨
أرق الرشيد: ٣٠٩
أفأفهمه وأنا وحدي!؟: ٣١٦

هذا عقوبة من عصى:.. ٣١٦
أحسبه صادقاً: ٣١٩
عذره له أحسن من إحيائه إياه: ٣٢١
أتدرون ما قالت هذه المرأة؟!: ٣٢٢
فلما جاءك المال والجائزة جلست: ٣٢٣
بعثت فيك لرؤيا رأيتها: ٣٢٣
ابن السماك والرشيد: ٣٢٤
وفي بدنك أربعة أسياف لا بد أن يقتلك أحدها؟!:.................... ٣٢٥
من إجلال الله تعالى إجلال العلم: ٣٢٥
أقتله فلأن يموت خير من أن يموق: ٣٢٥
فقير عرض عليه مال فتزهد فيه: ٣٢٥
محاسن ما قيل في الشيب: ٣٢٧
خطبة هارون الرشيد: ٣٢٨
وصية الرشيد لمؤدب ولده الأمين: ٣٣٠
الخليفة العباسي الأمين.. ٣٣١
قضي الأمر الذي فيه تستفتيان:................................. ٣٣٢
الأمين يتوجع لإصابة خادمه كوثر: ٣٣٣
كأس أم حكيم: ٣٣٤
كلام الليل يمحوه النهار: ٣٣٥
هذا أمر يريده الله جل وعز: ٣٣٥
والله ما أبالي وقعت على الموت أو وقع علي الموت.: ٣٣٦
غاظني أبوك الساعة:... ٣٣٧
كيف ترى سفينتي؟ ٣٣٨
أزنديق أنت؟ ٣٣٨
الأمين يحبس أبا نواس:... ٣٣٨
وصية الأمين لابن ماهان: ٣٤١
وصية الأمين لأحمد بن مزيد: ٣٤٢
خطبة الأمين وقد تولى الأمر عنه: ٣٤٢
الخليفة العباسي المأمون ٣٤٥
بين المأمون وعمرو بن مسعدة: ٣٥١

المأمون يعفو عن الحسين بن الضحاك ويمتنع عن استخدامه: ٣٥٢
وال مستعطف خير من وال مستأنف: ٣٥٣
المأمون يصفح عن دعبل الخزاعي الشاعر ويصله: ٣٥٤
المأمون يهب عمرو بن مسعدة ستة آلاف ألف درهم فيهبها عمرو لأحد أتباعه: . ٣٥٤
المأمون يصفح عن الفضل بن الربيع: ٣٥٦
المأمون يرضى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي: ٣٥٦
يهب أحد أتباعه خمسة آلاف ألف درهم: ٣٥٧
يتنازل لأحد أتباعه عن عشرة آلاف ألف درهم: ٣٥٨
المأمون يغضب على فرج الرخجي ثم يرضى عنه ويقلده فارس والأهواز: ٣٦١
ما قصتك؟ ٣٦١
المأمون بخراسان ينقلب حاله من أشد الضيق إلى أفسح الفرج: ٣٦٤
ألمعية المأمون وذكاؤه: ٣٦٦
المأمون يهب أحد كُتابه اثني عشر ألف ألف درهم: ٣٦٨
جيء به مذنب وخرج وهو مثاب: ٣٧٠
قبض عليه وهو بزي امرأة: ٣٧١
إن من أعظم المحنة أن تسبق أمية هاشماً إلى مكرمة: ٣٧٤
لما قدم للقتل تماسك فلما عفي عنه بكى: ٣٧٤
الفضل بن الربيع يتحدث عما لاقى أيام استتاره من المأمون: ٣٧٧
إسحاق الموصلي يتطفل ويقترح: ٣٨١
بعض صنائع البرامكة: ٣٨٤
المأمون والورد: ٣٨٨
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه: ٣٨٩
المأمون وزنبيل بوران: ٣٩٣
المأمون والفتاة العربية: ٣٩٨
أخلاق المأمون: ٣٩٩
حلم المأمون: ٣٩٩
الطفيلي الأديب والمأمون: ٤٠١
رقة قلب المأمون: ٤٠٥
المأمون ونذير الشؤم: ٤٠٦
المأمون ومدعي النبوة: ٤٠٧

أبو نواس والغلام الجميل والقاضي: ٤٠٧
المأمون ويحيى بن أكثم: ٤٠٨
سليب العقل لا الدين سكرة القاضي ابن أكثم: ٤٠٨
إبراهيم بن المهدي والمأمون: ٤٠٨
صيد الجواري: ٤١٤
حيل الجواري: ٤١٨
المأمون وزبيدة أم الأمين: ٤١٨
المأمون والشاعر: ٤١٩
إبراهيم بن المهدي وصاحبة المعصم: ٤١٩
الذكاء والفهم: ٤٢٤
مجادلة المأمون للخراساني المرتد: ٤٢٤
دفاع المأمون عن ايقاع الملوك بخاصتهم: ٤٢٥
عند تشابه الأسماء: ٤٢٦
فأجد الغنى: ٤٢٦
شعر يعزل قاضياً عن القضاء: ٤٢٧
المأمون يترك جاريته الحبيبة إلى بلاد الروم: ٤٢٨
اعتذارٌ بليغٌ لدى المأمون: ٤٢٩
معنى إذا سرقت فاسرق درة: ٤٣٢
رجل يعاب من لا يصطنعه: ٤٣٢
بالإحسان في البديهة تفاضلت العقول: ٤٣٢
خبر زيد بن موسى المعروف بالنار: ٤٣٣
المأمون وكلب الجنة: ٤٣٣
ويخرج بأسلحته لنصرة المأمون: ٤٣٣
مكافأة قيمة على تصحيح كلمة من حديث شريف: ٤٣٤
الرواية الأخرى: ٤٣٥
ثمامة وهو سكران ومحاورته للمأمون: ٤٣٧
ابن أبي دواد يخرج عيناً على المعتصم: ٤٣٨
رؤيا المأمون وما قال أرسطاطاليس: ٤٤٠
المأمون والرجل المتحنط المتكفن: ٤٤١
أبو الينبغي والمأمون: ٤٤٤

لا رأي لنا في الشركة!: ٤٤٤
أحب إلي من جائزته: ٤٤٥
رد المظالم: ٤٤٥
فعليهم فابك وإياهم فاشكر: ٤٤٦
قبول السعاية شرًّا: ٤٥٠
ما رأيت شيخاً قط أجهل منك ولا أحمق!: ٤٥٠
لا بدّ من أن آخذ منها كما أخذت منك: ٤٥١
محاسن الرؤيا: ٤٥٢
فما نطق بحرف: ٤٥٣
الحق أنطقها والباطل أخرسه: ٤٥٣
أفأخاطب بالخلافة سواك؟ ٤٥٤
أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم؟ ٤٥٦
إني لأعلم ما في كتابك!: ٤٥٧
أو اذبحني فلا أُبتلى بفراقك: ٤٥٧
من تلامذة كسرى في الحمق: ٤٥٨
عزله عنهم: ٤٥٩
صداق ابنتي مائة ضيعة خربة: ٤٥٩
ما ينبغي للغلام أن يأكل ولا يشرب: ٤٦٠
هدبة بن خالد على مائدة المأمون: ٤٦٠
المأمون يشدد في الغناء: ٤٦١
خطبة المأمون: ٤٦٨
– خطبته وقد ورد عليه نعي الرشيد: ٤٦٨
– خطبته وقد سلم الناس عليه بالخلافه: ٤٦٩
خطبته يوم الجمعه: ٤٦٩
– خطبته يوم الأضحى: ٤٧٠
– خطبته يوم الفطر: ٤٧١
الخليفة العباسي المعتصم بالله ٤٧٤
المحنة في عهد المعتصم: ٤٧٩
العلوي الصوفي يحتال للخلاص من سجن المعتصم: ٤٨٠
المعتصم وتميم بن جميل: ٤٨٣

الطفيلي الأديب والمأمون: ٤٨٤
مخارق المغني والجارية الحسناء: ٤٨٨
توبة المعتصم ورجوعه عن قتل تميم بن جميل: ٤٩٠
توبة لص من اللصوص عن التعرض للناس: ٤٩١
إنقاذ أبي دلف من موت محقق: ٤٩٢
وأنا طلقت بلا علة: ٤٩٨
نديم ينتقم من صاحب بيت المال: ٤٩٩
مكافأة بغا على شجاعته: ٤٩٩
ياَ دَارُ غَيَّرَكِ الْبِلَى: ٥٠٠
فكيف رأيت وجهه؟ ٥٠٠
ولا ترى للئام الناس حسادًا: ٥٠٣
إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم: ٥٠٥
عقلك أوردك هذا المكان: ٥٠٥
الصلاة يرحمك الله: ٥٠٥
مر لحمار أبي الهذيل بعلف ولغلامه بطعام: ٥٠٦
وكيف ذاك؟ ٥٠٧
فتنة الإمام أحمد مع الخلفاء العباسيين: ٥٠٩
الجزاء من جنس العمل: ٥١٧
فتح عمورية على يد المعتصم سنة ٢٢٣ هـ: ٥٢٠
الخاتمـة ٥٢٧
المصادر والمراجع ٥٢٩
الفهـرس ٥٤٠

* * *